

١٧١

الجمال

في تفسير القرآن الكريم

السيد علي عجايب بنع الكون والغريب الأديب

تأليف

الأستاذ الحكيم شيخ طنطاوي جوهري
المدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا
متع الله المسلمين بجلالة أمين

الجزء الرابع والعشرون

طبع بمطبعة

مصطفى السبائي الحسني وأولاده بمصر

وحقوق الطابع محفوظة

وباشترط طبعه - محمد أمين عمران

جادي الأولى - ١٣٥١ هـ

١٧١

الحمد لله

في تفسير القرآن الكريم

سَمِعَ عَلَى عَجَابٍ بَدِيعُ الْكَرَمِ وَأَرْغَابُ الرِّبَا

تأليف

الأستاذ الحكيم شيخ طنطاوى جوهرى

المدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا
متع الله المسلمين بجلالة آيين

الجزء الرابع والعشرون

طبع بطبعة

مُصْطَفَى السَّابِى الْحَكِيمى وَأَوْلَادُهُ بِمِصْرَ

وَحَقُوقُ الطَّابِعِ مَحْفُوظَةٌ

وَبَاشَرُ طَبْعِهِ - مُحَمَّدُ أَمِينُ عِمْرَانُ

جَادِى الْأَوَّلَى - ١٣٥١ هـ

إِنِّي فِي ذَلِكَ لَشَكِيٌّ لِيَن سَكُنَ إِلَهَ قَلْبِي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الرحمن

هي مدنية

آياتها ٧٨ - نزلت بعد الرعد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ * الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ
بِحُسْبَانٍ * وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ * وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي
الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ * وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ *
فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ * وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ * فَبِأَيِّ آيَةِ الْآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ * وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ

مِنْ نَارٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ *
 فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * يَنْهَمَا بَرْزَخًا لَا يُبْعِيَانِ *
 فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ * فَبِأَيِّ آلَاءِ
 رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
 تُكَذِّبَانِ * كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ * فَبِأَيِّ
 آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ *
 فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
 تُكَذِّبَانِ * يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَظَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يُرْسَلُ
 عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فَإِذَا
 انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فَيَوْمَئِذٍ
 لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ
 بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَفْقَادِمِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * هَذِهِ جَهَنَّمُ
 الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ * يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
 تُكَذِّبَانِ * وَلَمِنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * ذَوَاتَا
 أَفْنَانٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ
 رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
 تُكَذِّبَانِ * مُتَكِنِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَّا الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ * فَبِأَيِّ
 آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ أَنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ *
 فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * كَانَتْهُنَّ يُكَاوِرُتُ وَالْمَرْجَانُ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
 تُكَذِّبَانِ * هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ *
 وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُدْهَامَتَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ

رَبُّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ نَصَّاخَتَانِ * قِبَايَءُ الْآءِ رَبُّكُمَا تُكَذِّبَانِ *
 فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرِيَّانٌ * قِبَايَءُ الْآءِ رَبُّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ *
 قِبَايَءُ الْآءِ رَبُّكُمَا تُكَذِّبَانِ * حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ * قِبَايَءُ الْآءِ رَبُّكُمَا
 تُكَذِّبَانِ * لَمْ يَطْمِئِنَّ أَنْسُ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ * قِبَايَءُ الْآءِ رَبُّكُمَا
 تُكَذِّبَانِ * مُتَكِنِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرَ وَعَبَقَرِيَّ حِسَانٍ * قِبَايَءُ الْآءِ رَبُّكُمَا
 تُكَذِّبَانِ * تَبَارَكَ أَشْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ *

هذه السورة ثلاثة أقسام

القسم الأول : في تفسير البسملة *

القسم الثاني : في عجائب عالم الدنيا من أول السورة إلى قوله تعالى : يرسل عليكم شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران *

القسم الثالث : في عجائب عالم الآخرة من قوله تعالى : فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان ، إلى آخر السورة *

القسم الأول في تفسير البسملة

هذه السورة فصلت كثيرا من رحمت الله عز وجل لخلوقه ، فكانها تفسير لارحة في البسملة المكررة في كل سورة ، فمن رحمته :

- (١) أنزال الديانات ونشرها بين الأمم ، وآخرها دين الاسلام وكتابه القرآن .
- (٢) وخلق الأجسام والعقول الانسانية .
- (٣) وإلهامها العلم والفهم والنطق والحكم .
- (٤) فيدرس هذا الانسان الذي قرأ الدين المنزل نظام الشمس والقمر والكواكب والمجرات والسدم وحسابهن وأقذارهن وأبعادهن .
- (٥) ثم ينظر نظرة أخرى في نتائج هذه العوالم العلوية فيجد نوعي النبات من التي لاساق لها وهي المسماة بالنجم ، والتي لها ساق وهي المسماة بالشجر .
- (٦) ثم إذا فرغ من هذين ونظر تبصرة وتذكرا اعتراه الدهش من الحساب المتقن فيهما كما تقدم في هذا التفسير فإذا يرى ؟ يرى ميزانا منصوبا ، وحسابا معقولا ، ويفهم كيف انتظام هذا العالم من علوى وسقلى في الفلك بالرياضيات ، وفي النبات بعلم الطبيعة ، والمواليذ الثلاثة ، والكيمياء العضوية ومعنى درس ذلك ارتسمت تلك المزايا في نفسه ، وامتزجت بعقله وعواطفه ، وشعر في نفسه بأن

النظام صفة من صفاته لكثرة ممارسته النظام الذي به تربي المملكات الانسانية فيحكم بالعدل ويعاش بالانصاف ، وتكون حياته كلها موزونة لما شاهده من الكمال والميزان ، وذلك يصبح كالفرصة له ، ومن ذلك كيله وميزانه للناس بعبادته وشراء وأخذوا واعطاء ، وهذه نعم لا حصر لها ، وجمال لا يوازيه جمال .

(٧) ثم ينظر فيرى أن العوالم الأرضية المذكورة وما فيها من الفاكهة والريحان الخ وما تقدمها من الزكوا كب جميعها منتجات ظهور الحيوان والانسان المخلوق من طين فطنة فعلة إلى أن يصير بشرا سويا ، فتزبد النعم في قلبه ظهورا ، ويزداد شكرا وحبا ، وإذا كان نفس الانسان ابن يراها أحد فهذا دليل على جواز وجود عوالم عاقلة لآراها جاء بها الدين ، وهذه العوالم هي الجان .

(٨) وبعد أن يدرس ما تقدم اجالا يأخذ في التفصيل كالشرق والمغرب اللذين أمرهما يرجع إلى علم الفلك المتقدم ، وكالبحر الملح والعذب اللذين يرجعان للعالم الأرضي المتقدم ذكره ، ولما كان البحر يحوى لؤلؤا ومرجانا خصصهما بالذكر تبياناً للمسلمين الناثمين نوما عميقا ، كأن ربنا يقول لكم أيها المسلمون : يا عبادي : ألم يكف في هذه السورة أن أذكر لكم الشمس وحسابها استغناء بها عن المشرقين وعن المغربين ؟ ألم يكف ذكر الأرض وأنى وضعها للأنام عن ذكر ما عليها من الريحان وما فيها من البحار ؟ ألم يكف ذكر البحار عما فيها من الدر والمرجان ، وما عليها من الجوار المنشآت في البحر كالأعلام .

إذن الله عز وجل يقول لنا : لا تكتفوا أيها المسلمون بالمعرفة العامة ، فلتقرءوا الأجزاء بعد الاجال ، ولتقرءوا الجزئيات بعد السكيات ، أليس من العجب أن يتسدى السورة باسمه [الرحمن] ويسند إليه التعليم ، إذن هذه السورة جاءت لتبيان طريقة التعليم التي يتبعها المسلمون في المستقبل ، وهذه الطريقة أشبه بالتي قالها ابن خلدون في المقدمة ، وذلك أنه رأى المسلمين في زمانه قد نصب معين العلم عندهم فأخذ يفند آراءهم ، ولكنه أيس من اصلاحهم في ذلك ، واعتقد أن الداء عضال وقد صدق ، ولكن هذا الداء قد أخذ يزول اليوم والمسلمون استيقظوا استيقاظا لسبيل لرد ، ولاراد لا رتائه وبلوغه أوج الكمال ، فقد ندد على طريقة التعليم ، وعلى الكتب الصعبة ، وعلى مضايقة التلميذ وحشو رأسه بأقوال متناقضة واختلاف كثير .

ثم قال : إن التعليم يكون على ثلاث درجات : فأولا يؤتى بالقواعد العامة اجالا ، ثم يعاد مرة أخرى بطريقة أوسع ، ثم يعاد مرة ثالثة ، وهناك تربي المملكات ، والذي في الآية هو هذا فلم يذكر الله الأرض مكتفيا بها ، ولا يذكر ما فيها من الأشجار والبحار ، ثم انتقل الكلام من الشجر والنجم العامين إلى أفرادها المفصلات كالفاكهة ، وزاد الأمر تفصيلا بذكر النخل والحب والعصف والريحان .

ها هنا استكمل النظام الذي يتبع في التعليم الأولى في العالم الانساني ، وهو أولا دراسة العوالم العالوية والسفلية في المدارس الابتدائية والثانوية ، فلا بد أن تدرس هذه العوالم اجالا ثم تفصيلا ، فالاجال هو العلم الذي يسمونه [علم الأشياء] وهذا العلم يشار له بالجل في أول السورة ، ثم تدرس في نفس المدارس الثانوية نفس تلك العلوم ، وهذا هو التفصيل بعد الاجال المتقدم ، ثم ان الذين يختصون بهذه العلوم أى أولئك الذين يدخلون القسم العلمي في المدارس العالية الذين يختصون أنفسهم لدراسة هذه العلوم يدرسون هذه العلوم بطريقة أوسع .

إلى هنا تمت دراسة الحياة الدنيا ، وما هذه الدنيا إلا لوح كتبت فيه هذه الأرقام ، وإذا تعلم الأطفال

ما كتب يجب محوه لكتابة غيره . هاهنا أخذ يذكر بناء هذه العوالم وأنها مظهر جلاله وجلته ، وهي الحب المسدولة بيننا وبينه ، وبني فهمنا الدرس الذي أعطاه لما عرفنا كيف نقاله ونرى وجهه الكريم ، وههنا يذكر بعد الشقة بين هذا الإنسان الضعيف وبين صانع العالم جلاله فإن يتمتع ببقائه والسعادة بجواره إلا بعد أن يسأل عما قرأه في اللوح الذي نشره له في الدنيا ، والدين الذي أنزله ، فكما أنعم عليه بالسماوات والأرض في الحياة الدنيا بحاسبه على تلك النعم يوم القيمة كما أن التلميذ بعد الدراسة يتمتع فيما تعلمه ، فكما أن العبد كان يسأل ربه في الدنيا المعونة وقد آتى الناس من كل مائة ألف هكذا يسألهم هو يوم القيامة عما عملوه ، فالسؤال يختلف باختلاف السائل والمستول .

ثم أخذ هاهنا يصف النعيم والعذاب في الجنات والنيران مما يبهر العقول لذة وجلالا ، ويقت الأكباد شقاء ونكالا ، ذلك خلاصة ما انتظم في هذه السورة من معان وما جاء فيها من حكم ، ورجات مفصلات وآيات مبدات ، ورقائق ساحرات ، وحور متصورات ، وجواهر مكنونات ، وعلوم مخزونات ، وقضايا مخجبات . نهج المسلمون المنهج الحسن في الأعصر الأولى ، ثم تبدل التعليم في العصور المتأخرة شيئا فشيئا ، فأخذوا يذوقون علوم الحكمة في بلاد الشرق بالدولة العباسية وفي بلاد المغرب الأقصى والبلاد الأندلسية ، وأخذ الملوك يترافعون إلى العاتية بمقاطعة العلماء كما فعل بعض ملوك المغرب في أواخر القرن السادس الهجري في دولة الموحدين إذ نفي ابن رشد ، وكما فعل بعض ملوك العباسيين كذلك في بغداد فيما يقرب من ذلك التاريخ ، فانزوى العلم في بلاد الاسلام ففر هاربا إلى أوروبا مع تلاميذ ابن رشد المسلمين واليهود كما مر . فصلا في هذا التفسير ، وهؤلاء دخلوا في حيز بعض ملوك ألمانيا ، وتغلغل العلم في بلاد أوروبا فقامت قومتها ثم رجعت إلينا عقابا من الله على ما فرطنا .

يارباه ، يارباه : لييك ، لبيك ، يارباه : نحن أذنبنا واليك تبنا ، كنا نجعل طريقة التعليم والآل أخذنا نرجع إلى سواء الصراط فيها بتعليمك ، ولقد عرفنا أن رحمتك التي وسعت كل شيء لم تخل المسلمين المتأخرين قبلنا مما يحفظ عليهم دينهم .

رباه عرفنا أن المسلمين لما غم عليهم الأمر وذهبت الحكمة من بلادهم تستر العقلاء فيهم بالتصوف وحجبوا عن العلوم التي جعلت أساطير التصوف ، فأرأينا الامام محي الدين بن عربي ذا العلم الواسع يؤلف في التصوف وهو متضلّع من علم الحكمة ، ولكنه لا ينطق باسم الفلسفة ، بل يسمى ذلك تصوفا ، ثم رأينا المسلمين بعد ذلك يتبدل التعليم عندهم شيئا فشيئا إلى أن تجاوز سنك المعروف في هذه السورة ، فأنت يارباه ذكرت لنا العوالم التي نعيش فيها ، ولكن رجال التصوف والأسرار لما نشروا آراءهم جعلوها عويصة مع أنك أنت أرىنا الجلال الذي يراه الخاص والعام ، وأن ما ذكره انعارف بالله الاستاذ [عبد الكريم الجيلي] المتوفى سنة ٨٩٩ هجرية في رسالته « الكهف والرقيم » ، في شرح فوائد بسم الله الرحمن الرحيم » تبين لطرق التعليم عند متأخري الصوفية لأهم الاسلام المسكينة .

إنه رحمه الله ابتداء هذه الرسالة بخطبة يصف بها الله عز وجل بنعوت الجلال والجلال ، وأخذ يذكر أنه استخار الله تعالى في املاء كتابه هذا لمن طلبه وهو عماد الدين التونسي ، ثم أخذ يطلب من القراء أن يفهموا العبارات والاشارات ، والتصريحات والسكنايات ، والتقديم والتأخير في رسالته . ثم أخذ يذكر أن سر الكتب المنزلة كلها في القرآن ، وما في القرآن في الفاتحة ، وما في الفاتحة في البسملة ، وما في البسملة في الباء ، وكل ما في الباء في النقطة التي تحت الباء ، ولا جرم أن هذا القول يجري اليوم على كل لسان في بلاد الاسلام يشيعه رجال الصوفية كبرا عن كابر .

ثم أخذ يبين أن البسملة يتكلم فيها قوم من جهة علوم النحو والصرف واللغة ، وقوم من حيث منافعها وأسرارها ، ولكن هو يتكلم عما فيها من المعاني التي تليق بجناب الحق ، وهذه المعاني التي سبقوها في الرسالة أقيمت على قلبه ، وههنا بيت القصيد ، وهو أن النقطة التي تحت الباء فيها السر كله منها نشق الأسرار والعلوم . وأخذ يذكر أن من الحروف ما لا يعرف إلا بالنقط ، هكذا العوالم لم يعرفها لنا إلا الله ، فأنه الذي فصل العوالم به عرفت العوالم كما عرفت الحروف بالنقط ، وههنا أخذ يتوسع في هذه المعاني ، وأخذ يبين أن النقطة في الحروف المهمة متحدة بالحرف كالألف والدال مثلا فلذلك لم تكن للألف نقطة ، والآب أقلها نقطان ، وهذا القول مأخوذ من علم الهندسة ، يعرفه من قرأ مبادئها ، ولما وصل إلى هذا أخذ يذكر أنها ظاهرة في جميع الحروف ، فالجيم ألف معرجة الطرفين ، والدال منحنية الوسط ، وانتقل منها إلى أن الحقيقة الحميدة خلق العالم بأسره منها ، معتمدا في ذلك على حديث جابر وهوليس من الصحاح ، فهو أولا يقول : إن النقطة في الحروف سواء أكانت منفصلة كما في الحروف المعجمة ، أو متصلة كما في الحروف المهمة كالخلق سبحانه وتعالى فهو مع كل أحد بكلمة كج أن النقطة مع كل حرف بكلمتها ، ولما كانت الألف مركبة من نقطتين كانت كالحقيقة الحميدة التي ورد فيها ذلك الحديث المتقدم ، وأن الله خلق العالم كله من النور المحمدي ولذلك قدم الألف على جميع الحروف كما قدم صلى الله عليه وسلم على جميع الأنبياء .

ثم أخذ يجعل هذه النقط اشارات إلى الأحاديث مثل : « ما رأيت شيئا إلا ورأيت الله قبله أو بعده أو معه » روايات ، ورجع ذلك إلى حال النقط المختلفة ، ومن النقط ما تكون بيضاء كالنقطة البيضاء في قلب الميم والواو وأمثلهما ، وهذه نص عبارته ، فانه محل ما رأيت شيئا إلا ورأيت الله فيه ، ولهذا تجوَّف ، لأنه ظهر في جوفه شيء غديره ، فدائرة رأس الميم محل ما رأيت شيئا ، ونقطته البيضاء محل إلا ورأيت الله فيه ، والألف محل : « إن الذين يبايعونك » الخ .

وأخذ يفصل الكلام في الحروف على هذا النحو وجملة فصولا ، ففصل مثلا لتطويل الباء بعد استنطاق الألف ، ثم آخر للصلق الباء بالسین في الـ . آله ، وآخر يقول فيه : إن السین عبارة عن سر الله وهو الانسان ثم أخذ يفسر الآيات من أول [يس] وآية آخر التوبة ، ثم رجع إلى الألف ، ثم إلى الميم ، ورجع إلى عددها بالجل وهو ٤٠ . وقال إن هذا العدد هو عين كمال الاعتدال في كل شيء ، وهو الموافق لعدد مراتب الوجود وهي :

ذات ساذج (١) العماء (٢) الأحدية (٣) الواحدية (٤) الألوهية (٥) الرجائية (٦) الربوبية (٧) العرش : وهو الجسم الكلي (٨) القلم الأعلى : وهو العقل الأول (٩) اللوح المحفوظ : النفس الكلية (١٠) الكرسي : وهو العقل الكلي ، وقال هو القاب (١١) الطيولي (١٢) الطياء (١٣) فلك العناصر (١٤) الفلك الأطلسي (١٥) فلك البروج (١٦) فلك زحل (١٧) فلك المشتري (١٨) فلك المريخ (١٩) فلك الشمس (٢٠) فلك الزهرة (٢١) فلك شطارد (٢٢) فلك القمر (٢٣) فلك الأنهر (٢٤) فلك النار (٢٥) فلك الهواء (٢٦) فلك الماء (٢٧) فلك التراب (٢٨) فلك المواليد (٢٩) فلك الجوهر البسيط (٣٠) فلك العرض اللازم (٣١) المركبات : وهي المعدن (٣٢) النباتات (٣٣) الجمادات (٣٤) الحيوانات (٣٥) الانسان (٣٦) عالم الصور : منه ما يلحق بالهنا (٣٧) عالم المعاني : منه ما يلحق بها البرزخ (٣٨) عالم الحقائق : ويلحق بها القيامة (٣٩) الجنة والنار (٤٠) الكتيب الأبيض الذي يخرج إليه أهل الجنة .

هذه ربد الكتاب ، فلينظر شبان المسلمين في زماننا الذين يدرسون أمثال هذا التفسير حال الأمم الإسلامية المسكينة كيف حججوا عن العلوم واضطر رجال الصوفية والصالحون أن يفتقلوا بهم من الجهر إلى العرض

ومن الحقيقة إلى المجاز ، ومن الأصل إلى الفرع . ماهو الأصل ؟ هو هذا العلم ، هو المذكور في سورة الرحمن وهذا العالم تدل عليه الحروف ، والحروف لاحصر لأشكالها من اللاتينية والعربية والصينية والهيروغليفية وغيرها ، ولما كانت الحروف عندنا نحن المسلمين هي العربية قالوا هذه محل السرّ مع أن الشجر والحجر والقمر كلها جمال وأسرار ، وهذه جعلت لتدل عليها ، ثم انتقلوا من الحروف إلى الذات العلية وأخذوا يتفنون ومن أعجب هذا التفنن أن حرف الميم يشير من حيث شكله إلى حديث : « مارأيت شيئاً إلا ورأيت الله فيه » ومن حيث عده إلى أن مراتب الموجودات (٤٠) وهذا أمر عجب ، وهاهنا عمدوا إلى العلوم التي نقلت عندهم عن علماء اليونان ، والمعروف عندهم الكواكب السبعة وفلك البروج والدلك الأطلسى فأتى بها كلها وزاد عليها أشياء كالذات الساذج والواحدية والأبدية ونحوها ، ثم كرر في بعضها فذكر المولدات وهي نفس المعادن والنبات والحيوان ، ومن العجب أن يجعل للعرض اللازم فلما يجعل المركبات هي المعادن مع أن هذا عند القدماء خطأ بل المركبات تشمها وتشمل الحيوان والانسان ، ومن أعجب العجب أن يجعل الجمادات قسماً وحدها ، وهذه كلها خطأ محض في التقسيم والتعليم ، وهذا دليل على أن القوم رحمتهم الله كانوا يجتهدون ولو بطريق التقريب في أن يجعلوا هناك معارف مبنية على هذه الحروف من حيث عددها مثلاً ، لأن المراتب إذا كانت أربعين وعدد الميم أربعون أحدثت عند الجهال إيماناً وتعديداً ويقولون هذا من الأسرار ، ثم إذا ثبت في ذهنه ذلك أصبح يرى أن كل العلوم قشور لا قيمة لها ، ويحتقر ما سوى ذلك ، ويعيش ويموت مؤمناً بوحداً ولكنه يحفل بمقاصد دين الاسلام ومقاصد الأنبياء وإن كان هو صالحاً ، ثم يرى الأمة كلها دون مرتبته ، لأنه فهم حقائق الوجود والناس دونه ، وأن علماء الدين وشيوخ الاسلام شجر بون ، أما هو وأمثاله فهم الواصفون أو شبه واصلين .

أنا أقول ان القوم كانوا يكتبون ذلك وهم يتقربون إلى الله به ، وقد فعلوا ما قدروا عليه في زمانهم ، وقد قلنا إن العلم هرب من الشرق إلى الغرب قبل ذلك بزمان ، فإذا كان موت الشيخ الجليل رحمه الله في أواخر القرن التاسع فذلك في إبان سقوط دول الاسلام وقد فارق العلم بلادهم قبل ذلك لأن ابن رشد كان قبل ذلك بثلاثة قرون ، فاذرحل العلم إلى أوروبا قبل هذا الكتاب بثلاثة قرون فأهل الصلاح معذورون إذا تفننوا في بقايا العلم وألصقوها بالحروف المجانية متبعين في ذلك الباطنية الذين جعلوا الأسرار في الحروف قبل ظهور حسن بن الصباح في [قلعة الموت] في أواخر القرن الخامس الهجري كقائمة في غير هذا المكان ، فكانوا يحسبون جعلها ويجعلونها أسراراً مع أنها تقبل الضدين ، ولكنهم جعلوها آلة في أيديهم يتصرفون فيها كإشمامون (انظر هذا المقام في (سورة الكهف) عند آية - وما كنت متخذ المضلين عضداً - ففي غضون الكلام هناك إشارة لبعض ذلك) .

الله أكبر : ظهر الحق واستبان السبيل ، نحمدك يا ربنا ، نحمدك على التعليم ، وعلى تنوير أمة الاسلام في زماننا . الله أكبر : سيقوم الشبان بعدنا ويقرءون جميع كتب القدماء ، وينقدونها ، ويعرفون غتها من سميتها .

الله أكبر : ان هذا النوع من التعليم يربط القلوب ويقللها فلا تقبل إلا ما كان من قبيل هذه الأحوال وما بعد ذلك وهم باطل ، بذلك ضاعت أمم الاسلام وذات قرونا وقرونا ، وما أشبه هذا التعاليم من حيث تحكمه في العقول بمقتضى ما في (سورة سبأ) عند ذكر المهدي محمد بن تومرت ، ذلك العالم الذي أداه اجتهاده إلى أن المسلمين في زمانه لا يحكمون إلا بطريق الاعتقاد ، وأنه المهدي المنتظر ، وجعل له دولة ، وقال إن هذه الدولة سبقت إلى آخر الزمان ، ويظهر المسيح عليه السلام ويقابل آخرها ، ولكن هذه الدولة دالت بعد

نيف وقرن من الزمان ، انظر قصته هناك في ﴿سورة سبأ﴾ كما قدمناه ، ولكن هالك نقطة لم تتضح ، فساد كرها هنا يظهر للمسلمين في زماننا كيف كان يحكم آباؤهم ، وكيف كنن الشيوخ لاجسادهم طر يقام حكمهم إلا إيهامهم ، وهذا الإيهام يتناقضه الحكم بطرق مختلفة ، ويتناقضه كثير من الدوافع إلى الآن اعتقاداً منهم أن هذا أمر لا بد منه ، فإذا رأينا المهدي محمد بن تومرت يقتل سبعين ألف مسلم لأنهم على خلاف رأيه بالحيلة والخداع ، فهكذا نرى الأساتذة المحترمين في الأمة بعد ذلك يعددون إلى ألفاظ من العلوم ويجعلونها في كتاب ويربطونها بالسملة ، وينشرونها باسم أنها أسرار فير بطون القلوب ويقرؤها الجهال من أيام تأليفها إلى الآن أي في مدة ٤ قرون ونصف قرن وهم يظنون أنها علوم ولا علم فيها وإنما هي أخلاط وضعت مع إيهام الطلاب أنها أسرار ، وإذا نجح المهدي محمد بن تومرت في أنه نظم دولته والدولة نعت الناس ثم انتهت ، وإذا نجح الجيلي رحمه الله في كتابه ، وأن الناس قرره وآمنوا بالله ، وانما على ذلك وهم جهال بكل علم وفق ، فليس معنى هذا أن ذلك ينفع في زماننا . كلا والله . فلا الحاكم الذي يفشنا بلوهم اليوم بمغن سبيلا كملوك بني عثمان في أواخر أيامهم ، ولا ذلك الذي يدعى أنه واصل لله تعالى وهو خال من علوم الحكمة بصالح أن يقود أئمة الاسلام الآن .

لاظم اليوم يا أئمة الاسلام . أيها المسلمون : أنا في هذا المذام قرنت إيهام المهدي محمد بن تومرت بإيهام الملوك العثمانيين في أواخر الدولة ، وإيهام شيوخ الصوفية كالجيلي رحمه الله ، لأن العلم والحكم من واحد فالحاكم لا يقدر على إيقاع الوهم على العلماء وإنما الوهم يقع على الجهال ، ولقد جع الأمرين مع المهدي محمد ابن تومرت الذي اجتهد فاختطأ ، وهناك بعض حديثه الذي أشرت إليه من كتاب [زحلان] تحت عنوان « ذكر قيام محمد بن تومرت أنه المهدي المنتظر » إذ ذكر أنه من جبل السوس ، وأدعى أنه شريف علوي حسني ، قرأ علوما بالغرب وارتحل إلى المشرق ، وقابل الامام الغزالي رحمه الله ، ورأى مرتين أنه شرب ماء البحر ، فقام في نفسه أنه المهدي ، فأخذ في الزهد وفي الذكر والعبادة ، وكان يقتصر على رغيف كل يوم وعلى الزيت ، ومن أتباعه عبد الله الونشريسي ، وكان هذا عالماً متضلعا في العلوم ، فأصره أن يكتم ما عنده من العلوم ، وأن يجعل نفسه أصم أبكم كالمجاذيب حتى يأتي الوقت الذي تظهر فيه علومه كمنجزة لتعميم ما يريد ، فبقى أبكم بين الناس أبلة ، ولما به يجري على صدره ، ولا يتسكك إلا مع الشيخ في خلونه ، ثم انهم دخلوا مراکش وأثاروا ثائرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وجعلوا ذلك ذريعة لقلب الدولة وحضر بين يدي أمير المسلمين في مراکش ، وكان وزيره مالك بن وهب رجلاً حازماً فأشار على أمير المسلمين بقتله لأنه لا يريد بالوعظ إلا الملك ، ولكن الملك عفا عنه ، وذهب هو ومن معه إلى السوس ، وذلك سنة أربع عشرة وخمسة مائة ، وكان من أمره ما كان ، وتقدم ذكره في ﴿سورة سبأ﴾ وقد بقيت دولتهم نحو مائة سنة وكانوا يزعمون أن هذه الدولة ستبقى حتى ينزل عيسى ابن مريم وأنه هو المهدي المنتظر إلى آخر ما هناك

ولقد كان من أصحاب المهدي عمر بن يحيى الهنتاني ، قيل أنه يقتل نسيبه إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه صار بعد المهدي من وزراء عبد المؤمن ، وأعطى بنو عبد المؤمن أولاد عمر المذكور ولاية تونس ، فكانوا يسمون الحفصيين ، استمر ملك تونس فيهم إلى سنة تسعمائة وأحدى وثمانين ، فانتزع الملك منهم الدولة العثمانية ، وكانوا يلقبون بالحفصيين ، وكانت مدة ملكهم تونس ثلاثمائة وثمانية وسبعين سنة ، وهم من فروع دولة محمد بن تومرت ، واختاف الناس في أمر ابن تومرت فقال بعض العلماء : انه أراد اظهار الحق فاجتهد وأخطأ . وقال بعضهم : انه كان على الأمة شرا من الحجاج وبزيد ، والله أعلم بحقيقة الحال اه

ملخص هذا المقام : أن الرحمة التي ذكرت في سملة ﴿سورة الرحمن﴾ يدخل فيها عجائب السموات والأرض وما بينهما المذكورات في السورة ، وفيها كيفية تعليم الانسان ، لأن السورة مبدوءة به ، وأنه يكون

بالتدرج الأعم فالأخص ، وأن هذه الطريقة ذكرها ابن خلدون ، وأقول الآن : ان اخواننا رجال [دار السلام] قد اتبعوها في تعليم اللغة العربية ونجحوا ، وقلبوا تعليم الأمم الإسلامية في ذلك ، وإذا كانت رحمة الله عز وجل قد انتشرت في زماننا في طريقة التعليم ، فقد ذكرت بما كان عليه التعليم في القرون المظلمة الإسلامية أيام أن طردوا العلم قتل من بينهم ، فأتينا بكتاب [الكيف والرقيم] ، في شرح فوائد بسم الله الرحمن الرحيم [للجيل رحمة الله عليه ، فأبناه رجع المسارف كلها إلى باب البسملة ، ثم إلى نقطتها والنقطة في مقابلة الذات العلية إلى آخرها قال وانتهى أمره إلى الميم من البسملة فأدخل في عددها وهو ٤٠ ٤٠ مرتبة وهذه المراتب عبارة عن الكواكب المعروفة في زمانهم ونظام طبقات العوالم على حسب ذلك الزمن مع تحريف وتكرار واختلاط ، فذكرنا نظام هذا العلم بنظام الملك فوجدناهما فرسي رهان ، فالملوك العثمانيون في أواخر أيامهم يوهمون الشعوب بعظمتهم الجوفاء في قصورهم ، وبعض رجال الصوفية والمتدين يستحلون الأكاذيب مجتهدين خطأ أن هذا هو الباب الموصل لحفظ الأمة في زمانهم ، ولكن الأمة الآن قد أخرجها الله من هذه الجهالات والظلمات ، ومنى استنارت بالعلم طردت كل دجال فلا يعدها ولا يحكمها ، لأن الحق أحق أن يتبع .

لقد كان أمثال المهدي محمد بن تومرت ومن مثله (من المذكورين في سورة الشعراء عند ذكر السحر وهم المشعوذون الذين اتخذوا الشعوذة سبيبا في المالك) أشبه بالطبيب يستعمل كيّ المريض ، فترى ابن تومرت يردم البئر على الثلاثة الذين شهدوا للونشريسى وأعدم سبعين ألفا قتلا ظمأ ليكون أتباعه كالغنم تتبع راعيها وهكذا فعل [حسن ابن الصباح] في قلعة الموت بجهات أصبهان ، فكان يحرق على أصحابه العلم ليبقوا جهلاء والله يقول : «الرحمن علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان» وهكذا فعل ملوك العثمانيين إذ منعوا العلم عن المسلمين ، وقد أخبرني شاب حجازي منذ أيام في هذه السنة ١٩٣١ م الموافقة سنة ١٣٥٠ هـ أنهم ما عرفوا شيئا من العلم ولا من أخبار العالم ، ولا من اللغة العربية التي هي لغتهم إلا بعد ذهاب دولة السلطان [حسين الهاشمي] لأنه كان أولا تابعا لتركيا ، وهي أوجبت أن لا يقرأ النحو إلا باللغة التركية ، وبعد أن خلع طاعتها حرم الجرائد ، ولما زالت تلك الدولة تعلم الناس وقرءوا الجرائد ، هكذا أخبرني ، فالإنسانية في مثل هذه الحال تنزل إلى درجة تحت درجة الحيوان في النظام ، لأننا قرأنا نظام جمهوريات النمل والنحل مثلا فلم نعر على هذه الضلالات والأكاذيب والخداع ، إذن الإنسان أمكنه أن يعيش وهو أدنى من الحيوان منزلة مع بقاء عقله محفوظا ولكنه مغموور في الجهالة ، وهذه الحال التي عاش بها المسلمون قرونا بعد العصور الأولى جعلها الله درسا للمسلمين الذين يأتون بعدنا ، وهذا التفسير قد جعله الله مملوءا من العبر والمبتدأ والخبر ليكون تذكرة لهم فلن يتعروا فيها وقع فيه آباؤهم ، ولن يضحك عنهم أحد بعد اليوم ، وسيتعلم الرجال والنساء ، ويدرسون علوم الأمم وأغاثهم كل بحسب طاقته ، فالرحمة هنا من وجهين : الوجه الأول أن الأمة مع جهالها أمكنها أن تعيش وإن كانت في نظامها أنزل من نظام الحيوان . الوجه الثاني أن هذه الشقاوة التي حلت بالآباء بسبب الجهل تكون مهملا يسوق الأبناء إلى العلم الصحيح ، والحكم الصحيح ، والتباعد عن الدجل والكذب والبهتان .

إن الأمة تعتبر كلها أولها وآخرها كنفس واحدة شاء الناس أم أبوا ، نخطأ الآباء يحترس منه الأبناء ، وعلم الآباء نافع للأبناء ، الأمة الواحدة في نفس هذه الحياة نفس واحدة ، فنراها في الحرب وفي النصر وفي العز وفي الذل مشتركة ، ويظهر لي أن هذا النوع الانساني يرى في هذا العالم وفي عوالم أخرى في البرزخ ليصل إلى درجة أن تكون الأنفس كلها نفسا واحدة ، وأهل الأرض اليوم جهال بهذه القضية متشاكسون

والله هو الولي الجيد ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وهذه من أسرار التعليم في قوله تعالى : « الرحمن علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان » كتب ليلة الجمعة ١٥ جادى الأولى سنة ١٣٥١ هجرية ، وقرغت منها بعد نصف الليل .

بهجة العلم في هذا المقال وهو تفسير البسملة في سورة الرحمن

قد لخصت الكتاب الذى ألفه [الجبلى] رحة الله عليه منذ ٥٠ سنة تقريبا فظهر منه أن العلم إذ ذاك عبارة عن بقايا علوم وآثار منها واشتات ، فإنه ذكر رءوس المسائل الفلسفية القديمة مثل الأفلاك التسعة المعروفة عندهم ، وترتيب العالم السفلى ، وهذا ملخص الفلسفة القديمة مع انضمام المعدن والنبات والحيوان فضم ذلك كله بالاسم لا بالشرح ، وزاد عليه ألفاظا مبهمة وجعلها مراتب الوجود ، والأهم الإسلامية في هذه القرون تجهل علم الفلسفة القديم لأنها معتصة وفائتها ضعيفة ، ولأن الترك إذ ذاك تحت اسرة بنى عثمان قد قتلوا الأهم الإسلامية تقتيلا ، وأناموهم قناموا نوما عميقا ، لذلك أخذ المتعلمون منهم ذلك باعتباره سرا مصونا ، وما هو بالسرا المصون ، وإنما هى كلمات من شطايا العلوم أضيف إليها شطايا من آراء الباطنية ، وهى الحروف وأسرارها ، وضم هذا إلى ذلك ، ووصل به آيات قرآنية ، وأضاف إثنية معرفة الله بواسطة الألف وما بعدها من الحروف ، وجعل ذلك أشبه برموز ، كل ذلك إبعاد للمسلمين عن معرفة الله بالعلم والحكمة ، وزحزحتهم عن الطبيعة الجلية إلى حروف صنعها الانسان ، وماهى الحروف ؟ إن هى إلا رسوم دونها قدماء المصريين وتبعهم اليونانيون فالأهم كلها كالملايينين والعرب ، ألتمز إلى المم فأنها عند قدماء المصريين على صورة من اسم البومة ، والى التاء فأنها مأخوذة من حبة سائمة ، وترى حرف الميم فى العربية ، وفى اللغات الفرنجية له نوع شبه بالبومة وكذا التاء بالحية ، فهل فى شرعة الانصاف أن ينحاز المسلمون إلى رسوم اخترعها الانسان ويتبعوها عن صنع ربهم ! ويجهلوا مواطن حياتهم ، ومعرفة ربهم ، ألساء مثلا القوم المتأخرون . رباه ، رباه : فهمنا والله ما حاق بنا من الجهل ، أنت رحمن وأنت رحيم ، علمتنا العلوم ومنها القرآن ، اتنا معاشر المسلمين فى جهلنا العلوم فى القرون المتأخرة أشبه بالأهم كلها فى جهلها المركب فى أمر الماء كل ، الناس يأكلون الطعام مطبوخا ، وهذا كانه اجباع النوع الانسانى وهو خطأ فاحش أظهره الأطباء فى زماننا إذ يقولون إن النار تضيع منه قوة الحياة ، إذن كل ما طبخ من الطعام ، أوقلى أو شوى صار فى ذهاب قوة الحياة منه على رأى الأطباء فى زماننا أشبه بكل ما هو متعفن ، أو أصبح نبيذا أو خرا ، فإن الأطباء اليوم بالاجماع يقولون بضرر ذلك كله ، إذن كل ما غير الطعام غالبا ضار بالانسان ، بل الفاكهة والخضر التى ليست طازجة تقل منفعتها .

هذا ملخص كلام الأطباء فى زماننا ، ولقد شرحته عشرات المرات فى هذا التفسير ، فهكذا أمور دين الاسلام ، إن المسلمين فى القرون المتأخرة جهلوا العلوم ومقصودها ، فراحوا يفتنون ما هو النافع منها ويكتفون بالخشالات والقمامات والفضلات والرجيع والفنات فتركوها للناس فعاشوا بها زمانا وناسوا عهد آبائهم حتى إذا أراد الله ظهور المجد الاسلامى أظهر العلم كره أخرى ، وعلمنا تلك العلوم فبحشنا فأفيناها على ما ذكرناه فبينناها فى هذا الكتاب .

واعلم أن من رحة الله الواسعة ما تقدم فى أول [سورة القتال] من صور الحشرات المرسومات هناك التى تعيش على العفونات ، فإذا كان الله واسع الفضل حلما فله لا يذرا العفونات ولا الرطوبات بلا فائدة بل خلق لها خلقا يلائمها ويناسبها بها يعيش كما خلق عقولا فى الانسان نسبها إلى العقول العالية فيه كنسبة الحشرات إلى أعلى الحيوان تعيش بالغبية والتمعة والآراء الجزئية ، فهكذا فى الأهم الإسلامية المتأخرة لما حرمت العلوم

والمعارف سخر الله لها من جمورها لها قوامات العلم فعاشوا عليها عيش الحشرات على العفونات ، وعيش صغار العقول من الناس على الأحوال الجزئية ، والأخبار العادية ، سنة الله في خلقه وهو الرؤوف الرحيم .

واعلم أيديكم الله أيها الذكي أن الشيخ الجليل وأمثاله قوم صلحاء يريدون الخير بالأمة ، وقد كتبوا ما رأوا أنه خير في زمانهم ، وبكتاباتهم صلاح قوم وصاروا أنبياء ، ولكن ليس ذلك بمنعنا من أن نظهر الحقيقة ونقول هذه ليست والله بأسرار هي تنف من العلوم ، وهما هي هذه العلوم فلتدرس نفس العلوم لبقاها ورجعها وقوامها ، فن ذا الذي يكتفي من الفاكهة بقشرها ، أو من الكتاب بعنوانه ، أو من الجوهر بالعرض ، فرحم الله الجليل ، ورحم الله علماء الاسلام والصوفية أجمعين ، ولكن الاحترام لهم شيء . والرجوع إلى الحقيقة شيء آخر ، وحسن النية ليس كل شيء ، فلا بد من العمل كما لا بد من النية ، وهم لم يكن لديهم من العلم إلا ما رأته من رموز وإشارات ترجع إلى علم الفلسفة القديم ، وقد جاء في هذا الكتاب قديم الفلسفة وحديثها ، والحمد لله إذ وفقني لهذا الكتاب ، أتركه للمسلمين بعدى وقد فك فعلا عقلاهم وانطلقوا يقرءون علوم الأمم ، وإلى هنا تم الكلام على القسم الأول في تفسير البسملة ، والحمد لله رب العالمين . كتب يوم الأحد ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٣٠ م

مقدمة في مناسبة هذه السورة لما قبلها

اعلم أن السور المتقدمة من [سورة ق] إلى [سورة القمر] قد مر فيها الكلام على العالم العلوي والسفلي ، فهو في سورة ق بحث على النظر في السموات والأرض ، وبناء الأولى وتزيينها ، وأنها لا فروج فيها ، وفي الثانية لفت النظر إلى مقاديرها ، وخلق الجبال فيها ، وانبثاق النبات فيها ، وجعلها بصائر لذوي العقول وذكر المطر وما ينبت عليه من الجنات والحب والنخل ، وعجيب الثمر وعموم نفع هذه المخلوقات لنوع الانسان وفي [سورة الذاريات] خصص المطر المذكور في [ق] والرياح بالذكر ليحث الناس على دراسة الآثار العلوية من رياح ومطر وكيف تهب ، ومااسبب هبوبها ، وما آثاره ؟ وجعلها في صورة القسم تعظيما لعلمها ، وتفخيمًا لقدر العالمين بها ، وفي [سورة الطور] عمم القسم بما في السماء وما تحت الأرضين ، من بيت معمور ، وسقف مرفوع ، وبحر مسجور ، وما بينهما من علم منشور ، وحكمة ماثورة ، وآيات مقدرة ، ودروس معلومة ، ومدنية مشكورة ، فأصبح بهذا العلم بكل شيء مطلوبًا ، والنظر في الحقائق كلها مرغوبًا ، وفي [سورة النجم] ذكر أبداع الوحي ، وعجائب الخلق ، إذ لم يبق بعد ذكر العوالم سماها علوها وسفلها وأعظام قدرها وقدر العلم بها والعالم بها لما أن الله أقسم بها إلا أن يذكر أول نفس عالمة بها ، قارئة لنظامها ، مطلعة على بدائعها ، تشويقًا للنفوس ، وتعليةً للأسم ، فأبان أن نبينا ﷺ اطلع بطريق الوحي لا بطريق التعليم على آيات ربه الكبرى ، وقد رأى ما لم يره أهل الأرض قاطبة من عجائب الله ، فأول سورة النجم أشبه بضرب مثل لمن علم ذلك من أهل الأرض ، كأن الله عز وجل يقول : أضرب لكم مثلا بنبي آخر الزمان ، فقد اطلع على ما يمكن أن يصل إليه أعلى انسان في الأرض وانتهى إلى سدره المنتهى ، فأما ما وراء ذلك فانه خاص بي ، ولما أن ضرب هذا المثل وضحت مسألة العلوم والتثليل فلم يبق إلا الانذار لمن هو غافل عنها ، فجاءت سورة القمر التي أعقبت سورة النجم للناسبة اللفظية والاشراقية على سبيل الترقى ، فأبان فيها أن الغافلين من أهل الأرض يجب أن ينذروا باقتراب يوم الحساب فيقال لهم : أيها الناس : اذا غفلتم عما أوفضناه وعن العلم الذي ذكرناه ، وأعظام العالمين به فاني أنذركم يوم الحساب وقربه ، والدليل على ذلك ما ترون من اشتقاق القمر من الأرض كما قاله علماء العصر الحاضر ، ويمثل لذلك بانشقاقه على جبل حراء وإطلاعه عليه ، فان هذا كقائمة ليوم الحساب : « يوم تنشق السماء فتكون وردة كالدخان » .

ولاريد أن ذكر الساعة لا يراد منه إلا تخويفهم وزجرهم بقرب تلك الحقائق وبمقدماتها ، فهم يزجرون

بالقيامة وعذابها وبهذاب الدنيا ، فإن من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا ، والجاهل في الدنيا جاهل في الآخرة ، والأمم الجاهلة في الدنيا جاهلة يوم القيامة ، فقرباب القيامة يتقدمه انشقاق القمر قديما ، أوزمن النبوة ، أو يوم القيامة ، أو جميع ذلك ، فهنا أمران : سائة تقرب ، ومقدمات تسبها ، ولذلك جاءت أحاديث قوم نوح وعاد وثمود ، وقوم لوط وآل فرعون ، متفقات على أن العذاب في الدنيا يتبعه العذاب في الآخرة على وفاق ما في أول السورة من اقتراب الساعة ومقدمتها انشقاق القمر (و بعبارة أخرى) إن العذاب مبدؤه في الحياة ونهايته في الآخرة التي لانهاية لها ، فإذا ذكر الله اقتراب الساعة وتقدم انشقاق القمر عليها كالمقدمة لها فهكذا ذكر قصص الأولين وكيف أتبعوا في هذه الدنيا لعنة وبوم القيامة ، ثم أتى بما هو كالنتيجة لذلك من أن كفار مكة سيهزم جمعهم ويولون الدبر ، وأن الساعة موعدهم ، والساعة أدهى وأمر ، ثم جعل ذلك كله في قاعدة وهي « وكل أمر مستقر » وأخرى وهي « إنا كل شيء خلقناه بقدر » أي أنا خلقنا كل شيء مرتبا مقدرًا على مقتضى الحكمة ، وجعل تلك القصص بينهما بحيث يكون مآل القصص كله من الحكمة البالغة ، ومن الأمور المرتبة ، ومن استقرار كل أمر ، فاذن تكون نتيجة هذا كله وأوله وآخره أن هناك قانونا عاما ، وهو أن كل أمر يسير إلى غاية لا يتعداها ، فن كان في هذه أعمى بالجهالة فهو في الآخرة أعمى بالندامة والعذاب الأليم ، وهذه هي الحكمة الثمة والنظام الأعلى بحيث يشمل العالم كله وأوله وآخره ، فإذا كان الجاهل هذا شأنه أتبعه بالعالم فقال « إن المتقين في جنات ونهر ، في مقعد صدق عند مليك مقتدر » فوصف المتقين بأنهم منعمون في الجنات والأنهار ، ثم أخذ يرتقي بهم في المعارف والعلوم رجوعا إلى ما ذكر في السور السابقة فقال هم أهل أن يكونوا في مقاعد صدق مقرين عند ملك تعالى أمره في ملكوته ، وعظام اقتداره في خلقه ، وعلوم أن ملوك الأرض الضعاف لا يحظى بالقرب منهم غالبا إلا الذين نالوا حظا عظيما من الأخلاق ومن العلوم ، فكيف تكون حال من يحظى بالقرب من ملك الملوك ، إن ذلك يكون في أعلى درجات العلم والحكمة والأخلاق ، وكما كان أعلى منزلة علمية كان أقرب إلى رب البرية ، وهنا آن الأوان أن نبش في [سورة الرحمن] ومناسبتها لما قبلها من سور القرآن ، هنا أخذ يبين الصفات التي تؤهل المتقين ليكونوا في مقعد صدق عند مليك مقتدر ، لذلك أخذ يشرح ماصنعه ذلك الملك المقتدر وما أفاده برحمته لأهل الأرض فأفاد أنه [أولا] علم القرآن إذ أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو باغه لأمته ، ولا جرم أن ما أوحى به إلى النبي ﷺ أصبح يرثه الخلف عن السلف جيلا بعد جيل ، وهذا من رحمته [وثانيا] ذكر خلقه للإنسان ، ونظام جسمه ، ومحجائب انتقاله [وثالثا] أبان أنه علمه النطق وافهام غيره ، وهذا لا يتم إلا بنفس وعقل ومحجائب تقدم كثير منها في التفسير [ورابعا] أبان تسخير الشمس والقمر ونحوهما له [وخامسا] أبان تسخير الزرع والشجر له [وسادسا] أبان أنه رفع السماء وأقام الخلق بالحكمة والنظام [وسابعا] ذكر الأرض وما فيها من النخل والفاكهة ، وما يشتم منه رائحة طيبة [وثامنا] خلق الإنسان من طين مطبوخ [وثاسعا] خلق الجن من نار [وعاشرا] كونه رب مشرق الصيف والشتاء وغيريهما [وحادي عشر] أنه أرسل البحر الملح والخلو متجاررين لا يختلطان ، [وثاني عشر] أن الأولو والرجان يخرجان من البحر الملح والخلو [وثالث عشر] السفن الجارية في البحار [ورابع عشر] أن كل هذا سيفنى ويبقى وجه الله [وخامس عشر] أن كل أهل السموات وأهل الأرض مفتقرون إليه فيسألونه .

فهذه هي النعم التي ذكرها الله لنا وتوابعها ولوازمها ، ولكنه لم يذكرها بدون أن يتقدم في أولها أنه علم القرآن ، وأنه علم الإنسان البيان ، وهذا الإنسان المتصف بذلك قد ذكر عقب قوله : « في مقعد صدق

عند مليك مقتدر» فكأنه يقول : إن الملك المقتدر الذي يكرم لكم مقعد صدق عنده هو نفسه كثير الرحمة ، وأهم شيء من الرحمة أن تقرموا العلوم التي رمز لجلتها بالقرآن ، فهذا الملك المقتدر الذي أنتم ستكونون في حضرته وتقرّبون من مقامه كثير الرحمة للعباد ، أنزل لهم الكتب السماوية وأهمها هذا القرآن ليقرأه الناس ، وإنما أنزله لهم لأنهم مخلوقون على هيئة تقبل علومه ، ألم تر أنه قد ألهم لغات يبين بها مراده وأعطى علوما عقلية وغيرها ليعبرها بديانها ، ويقرأها بلسانها ، ويحفظها بجهته ، فإذا كان هذا شأن الانسان الذي يرجى أن يكون له مقعد صدق عند مليك المقتدر ، فمن حقه أن يقرأ علوم هذه الكائنات فيدرس الفلك ونظامه ، والتشريح وأحكامه ، والشجر وأحكامه ، والأرض وعجائبها ، والمزارع وغرائبها ، وأصول الانسان وغرائب عالم الأرواح ، والبحار وماءها ، وما جرى فوقها من سفن ، وما نبت تحتها من المرجان ، أو الدرر الحسن ، وأن يبحث هذا العالم بحثا مدققا حتى يعلم أنه كله ذوافقار الى من يعينه ويحفظه ويبقيه .

إن الانسان اذا كان مقعده صدقا عند مليك فعليه أن يتخلق بأخلاق الله ، وأخلاق الله الكمال المطلق فليكن كاملا على قدر امكانه ، ألا ترى أنه وضع النيزان والنظام العام لأجل أن لا تظني في ميزانك ، وزن كل شيء وقدره تقديرا من حركات الأفلاك ونظام النبات والأشجار والأزهار والأوراق ونظام الأثمار وهيئاتها وطعومها لأجل أن تقدر الأشياء وزنا وكيلا ومساحة وشهادة بالأقوال الصادقة والشهادات الحقة ، والموازن المنتظمة ، والمساكيل المامة ، فنفعل كما فعل ، فإذا رأينا نظام حركات الأفلاك فلتنظم حركاتنا ، وإذا رأينا هندس وزوق الأشكال فلتحسن طواهرنا ، وإذا رأينا جعل كل نبات وكل حيوان بمساحة خاصة ووزن خاص وقدر معلوم فلتعامل في بيعنا وشرائنا بالمساكيل والموازن واتقاييس الحقة ، فهذا هو الصدق الذي نتصف به حتى نستعد أن نكون في مقعد الصدق ، ومن جلس في مجالس الملوك وهو غير أهل لها نبذوه وطرده .

تفيد [سورة الرحمن] أن العلوم كلها من خصائص الانسان من كواكب محسوبة ، وشموس منتظمة المسير ، وأقمار بدیعة ، وكواكب مضیئة ، فالحساب فيها لا يعرف إلا بالحساب والهندسة والجبر ، وذكر الشجر والنجم والنخل والمأكلة والرياحين المشمومة يرجع لعلم النبات ، وذكر خلق الانسان يرجع لعلم النفس والتشريح ، وذكر الأرض يتضمن المعادن ، وأما علم الحيوان فهو مفهوم من المقام إذ الحيوان بين النبات والانسان ، والحيوان خادم الانسان مخدوم بالنبات فكأنه ذكر بذكر الطرفين ، ولم يبق من العلوم الفلسفية في سورة الرحمن إلا علوم الطب والبيطرة والكيمياء وخواص المادة وما أشبه ذلك ، وكل هذا يرجع إلى ما هو مذکور ، نعلم الزراعة وعلم الطب وعلم البيطرة للنبات والانسان والحيوان ، فالعلوم كلها تضمنتها هذه الآيات ، وقد صرح فيها بالسفن والمرجان والثور ، وبالاختصاران الله أبان أن هذه العلوم كلها من رحمة الله ، وأنه هو الذي غرس في قلب الانسان حبها ، والغرام بها ، وهيأة معرفتها ، ولا جرم أن ذلك يؤهل الانسان لمقعد الصدق عند مليك المقتدر ، وليس معنى هذا أن كل واحد في الأمة يعرفها بل يكون لها شوبع في الأمة ، ويكون لكل طائفة اختصاص بعلم من العلوم ودراسة طائفة من تلك العلوم باعتبار أنها فرض كفاية وكل علم من العلوم له نفع ، وكل صناعة لها فائدة في كل جيل من أجيال الانسان يحرم على المسلمين أن يهملوه بحيث يأثم الجميع اذا لم يكن فيهم من يقوم به ويكفهم أمره ، وهذه هي مصيبة أمة الاسلام الآن ، وأليه الإشارة بقوله : « خلق الانسان علمه البيان » فالقصد المجموع لا كل فرد فان هذا مستحيل ، ولتعليم الطائفة الخاصة الزاكية من كل فن طرفا ، وليختص كل فن بعد ذلك ، ذلك هو الصراط المستقيم في سعادات الأمم . انتهى الكلام على المقدمة .

القسم الثاني في عجائب عالم الدنيا

التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

(الرحمن ، علم القرآن ، خلق الانسان ، علمه البيان) أى علم محمد القرآن ومحمد علم أمته ، خلق جنس الانسان وبيزه عن سائر الحيوان بالبيان ، وهو التعبير عما في الضمير وافهام الغير لما أدركه ، وهذه الجمل الثلاث خلقت من انعاطف وجعلت أخبارا مترادفة للرحمن على نهج تعداد النعم كما تقول زيد أغناك بعد فقره أعزك بعد ذل ، كثر ك بعد آله ، فعل بك ما لم يفعله أحد بأحد ، فما تنكر من إحسانه ، كأن كل واحد من هذه المعنودات يصح أن يكون كافيا في حفظ الجليل ، وانكاره وحده كاف في نعت المنكر بقران النعمة (الشمس والقمر) يحوران (بحسبان) بحساب معلوم مقدر في بروجهما ومنازلهما ، وعلى مقتضى هذا النسق تنظم أمور المخلوقات السفلية والفصول والسنون وجدار الحساب ، ولما كان النبات الذي ينجم من الأرض المسمى بالنجم ، وهو ما لا ساق له ، والشجر وهو الذي له ساق [فالأول كالخطبة والثاني كالنخل] من جملة العوالم المرتبة على سير الشمس والقمر وحسابهما ، وبذلك الحساب انتظم أمر سائر النبات بحيث يزرع في فصل مخصوص ، ويحصد ويؤخذ ثمره في فصل مخصوص ، ويجموع على مقتضى حركات الشمس والقمر والنجوم أرواده الله تعالى بذكر ذلك فقال (والنجم والشجر يسجدان) يناديان لله فيما يريد منهما طبعاً كما ينقاد المسكوفون اختياراً ، وهذا الانقياد ظاهر ، ألا ترى أن الشجر والزرع لا يخرجان عن نظام سير الكواكب ولا يفتران عن نهج الشمس في مسيرها ، ثم انظر أيضاً كيف كان الشكل والهيئة واللون والقدر والطعم والروائح جارية بقدر ، سائرة لغاية ، كل هذا سجود و طاعة للخالق الذي نظمها ، واعلم أن ظاهر الظن يقتضى أن يقال : « علمه البيان » ، أجرى الشمس والقمر بحسبان ، أوجد النجم والشجر ، ورفع السماء ، ووضع الميزان الخ ولكنه عدل عنه ليجاز البيان عن المبين [بالفتح] .

وايضاحه أن النوع الانساني عرف اللغات والفهم والافهام ، وأودع في غريزته الاستعداد لكل العلوم ، فاللغات المختلفة في الأرض التي أبلغها بعضهم إلى أربعة آلاف لغة كلها علمها الله للانسان للبيان والفهم والافهام ، فكل قوم لهم لغة ، ولكل قوم كتابه ، فماذا يكتبون ، وماذا يقرءون ، وما الذي عنه يهبرون ؟ فلذلك ذكر الشمس والقمر وما بعدهما تدينا للعبير عنه والمبين بعد أن ذكر البيان ، هذا هو السبب في تغيير نظم العبارة ، وانما بدأ بالشمس لأنها مبدأ الحياة على وجه الأرض وبدونها لا حياة فيها كما تقدم شرحه (والسما رفعها) خلقها مرفوعة محلا ومرتبة (ووضع الميزان) العدل والنظام الذي مر شرحه في أغلب سور القرآن بحيث كان حساب سير الكواكب ، وحساب أجزاء النبات الداخلة في تركيبه ، وحساب الأحجار الساقطة المحسوبة بالتربيع كما تقدم في (سورة آل عمران) وحساب الجسيمات المجاذيب كالقذبات على سطح الماء المقاربتين بحساب التربيع أيضا وحساب البندولين المختلفين طولا بحيث يكون الأقصر أسرع اضطرابا من الأطول على نسبة عكسية تريبعية ، وهكذا مما شرحناه لك في هذا التفسير وهكذا نظريات [نيوتن] و [كاتير] التي أبانت المثلثات المساحية عند جرى الكواكب بحيث تكون متكاثرة في الأزمان المتساوية مع اختلاف الأقواس المقطوعة صيفا وشتاء ، فيكون القوس الذي تقطعه الشمس في الشتاء وهي مسرعة أكبر من القوس الذي تقطعه في الصيف وهي في الرأس مبثثة مع أهمها متساويان مساحة كما تقدم فيها أيضا موضحا مرسوما فارجع إليه ، كل هذا وكل علم الفلك ، وكل علوم الطبيعة ، وكل نظام الموسيقى الذي تقدم في [سورة يوسف] وكل قواعد العلوم ، وكل قواعد الشعر التي تجري على نسق واحد موسيقى كما في

بحر الطويل اذا لم تدخله العلل ولا الزخافات يكون ١٢ سببا و ٨ أزياد ، والمجموع ٤٨ حرفا ، والسواكن بالنسبة للتحركات هكذا ٥ - ٧ - ١٠ - ١٤ - ٢٠ - ٢٨ فتسكون المتحركات ٢٨ والسواكن ٢٠ ومعلوم أن حاصل ضرب الوسطين يساوى حاصل ضرب الطرفين - كل ذلك داخل في الميزان ، إن الميزان هنا لا يفهمه إلا من درس جمع العلوم ، ومن قرأ هذا التفسير كما فقد عرف الميزان ، واذا كان يكون في المقعد صدق عند مليك مقتدر ، وقوله (الانطفأوا في الميزان) أى انلا تطفأوا فيه (١) ولا تعتدوا ولا تجاوزوا الانصاف ، فاذا نظمنا ملكنا بحيث جرى على تلك النسبة المنظمة فإن ذلك يدعوكم لنظام أعمالكم اقتداء بسننا وسعيا في رقي نظامكم ، وتحسين أعمالكم وأخلاقكم (وأقيحوا الوزن بالتقسط ولا تخسروا الميزان) ولا تنقصوه فإن من حقه أن يسوى ، لأنه المقصود من وضعه ، وانما كرهه مبالغة في التوصية ، ولأن كل واحد من العدل في الميزان ومن التقس ومن الزيادة مرغوب ذكره للقيام به في الأول وللتناهي عنه في الأخيرين (والأرض وضعها) خضعها مدحوة (للأنام) للخلق (فيها فاكهة) ضروب مما يتفكه به (والدخل ذات الأكام) أوعية الثمر التي يكون فيها الثمر ، لأن ثمر الدخل يكون في خلافه وهو الطالع مالم يفتش ، وكل شيء ستر شيئا فهو كرم ، ولذلك قال بعضهم : الأكام ما يكم أى يعطى من ليف وسعف وكفري ، فكل ما يعطى وكل مغطى به ينفع الناس به كالجدع والجار والثمر (والحب ذو النصف) الحب كالخطة والشعير والذرة والارز ، والنصف ورق النبات اذا يبس والذين (والريحان) هو إما الذي يشتم ، وإما الرزق من قولهم خرجت أطاب ريحان الله أى الرزق (غبأى آلاء ربك تكذبان) أيها الثقلان الإنس والجان ، الآلاء جمع إلى وهو النعمة وإنما خاطب الثقلين لدلالة الأنام عليهما ، والآنام الخلق ، وكل ذى روح : أى فبأى نعم من هذه النعم المذكورة تكذبان أيها الثقلان ؟ وهذه الآية كررت في أحد وثلاثين موضعا من السورة تقريرا للنعمة وتأكيدا للذكور بها ، فتراه عتد نعمه على الخلق ، وفصل بين كل نعمتين بما يذكركم بها ويقررها ، فاذا قال الرجل لمن أحسن إليه بنعمة وهو يكفر بها : ألم تكن فقيرا فأغنيك ، أفتنكر هذا ؟ ألم تكن عريانا فكسوتك ، أفتنكر هذا ؟ ألم تكن خائلا فمزنتك ، أفتنكر هذا ؟ وهذا كثير في كلام العرب شائع ، هكذا يقول الله هنا : ألم أخلق الإنسان وأعلمه البيان : وأنظم الشمس والقمر بحسبان ، وأنوع الشجر ، وأبدع الثمر ، وأعمهم ما في البدو واخضر ، لمن آمن ومن كفر ، وأسقيهم نارا بالمطر ، وآتونه بالجدول والنهر ؟ أفتنكرون أيها الناس والجان هذه النعم ؟ فبأيها أنتم مكذبون ؟ أي بالشجر أم القمر أم خلقكم الخ ؟ .

ولما كانت النعم المذكورة بعضها يحتاج لزيادة شرح وإيضاح لخلق الإنسان ، وحساب الشمس والقمر ، وكأساب نمو الزرع والشجر ، وهذه الثلاثة مجامع ما تقدم أعقبه سبحانه بما يبينها على ألف والنشر المرتب فقال في الأول (خلق الإنسان من صاصل) من طين يابس له صلصلة بحيث يسوت اذا نقر (كالخمار) أى الخرف وهو الطين المطبوخ ، وهذا إيضاح لخلق الإنسان ، ويانه أنه كما أن الطين المطبوخ مركب من مادة أرضية وحارة سوتة وأنضجته لتحفظ كيانه ، هكذا هذا الإنسان له شهوة الطعام والشراب والتزاوج لتبقى بنينه وتندوم حياته بالمادة الأرضية التي اجتذبتها النباتات من الأرض ، وله قوة غضبية تورثه الشجاعة والقوة ليحافظ على بقائه وحياته ، ويمنع عن نفسه عادات الكواسر ، ومهاجات الجيوش والأعداء المحيطة به من كل جانب ، وهذه في الإنسان تقابل طين الطين ليصير نفرا إذا لبقاء للطين بغير طبيخه بالنار لئلا تفسد أجزاءه ويبقى بنوه ، هكذا لولا النوة العنصرية ، ومحافظته الإنسان على هيكله المنسوب ، وجسمه المحبوب ، من عادات الكواسر وأهل النسوة من بنى الإنسان هلاك جسمه وأصبح قتيلًا في الفلوات تأكله الطير ،

(١) إن مسألة الميزان ونظام الحياة التابعة لنظام الافلاك قد دم في سورة يونس شرحها بأكثر مما ستره هنا . فهناك ترى

رسم الهرم وشرحه فضلا عن حساب .

أذهوى بأجزائه الربيع بعد تفرقها في مكان سحيق كما نرى الطين إذا لم يطبخ يتفتت وتذروه الرياح ، أو يذوب في أجزاء الأرض ، هذا هو معنى الآية ، وقد تضمن علوم الشهوة وعلوم الغضب المذكورات في سورة [آل عمران] ثم انه من حيث ترتيب خلقه ، خلقه من تراب فصار التراب طينا لازبا أى يالحق باليد لما اختلط بالماء ، ثم صار جأ مسنونا وهو الطين الأسود المتين فلما ليس صار صلصالا ، فاختلاف العبارات في القرآن على مقتضى هذه المراتب (وخلق الجان) الجن (من مارج) من صاف من الدخان ، ثم بينه فقال (من نار) يقول : خلق الله الجان من النار الصافية ، والمارج المختلط بعضه ببعض فيكون المهب الأحمر والأصفر والأخضر مختلطات ، وكما أن الانسان من عناصر مختلطات هكذا الجن من أنواع من اللهب مختلطات ، ولقد ظهر في الكشف الحديث أن الضوء مركب من ألوان سبعة غير مالم يعلموه ، فلفظ المارج يشير إلى تركيب الضوء من ألوانها السبعة وإلى أن اللهب مضطرب دائما ، وانما خلق الجن من ذلك المارج المضطرب إشارة إلى أن نفوس الجان لا تزال في حاجة إلى التهذيب والتكميل ، تأمل في مقال علماء الأرواح الذين استحضروها ، إذ أفادتهم أن الروح الكاملة تكون عند استحضارها ساكنة هادئة ، أما الروح الناقصة فانها تكون قلقة مضطربة ، وانظر إلى مقاله سقراط :

« اعلم أن الظالمين من نوع بنى آدم يعذبون في هذه الحياة ، لأنهم إذا عتوا وظلموا الناس أحسوا من نفوسهم بالآلام تفلقهم ، فالظلم سيف ذو حدين يقتل المظلوم والظالم ، فإذا استغاث المظلومون وتألّموا هكذا الظالمون ، لأن نفوسهم من عالم شريف ، فإذا أحسّت بالظلم اضطربت وأقلقتهم » وهذا أيضا من سرّ قوله تعالى : « انهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون » .

أقول : فإذا مات هؤلاء بقيت نفوسهم في قلق ، فالظالمون قلقون في الحياة وبعد الممات ، فلفظ « مارج » أفادتنا علمين : علم ألوان الطيف من علم الطبيعة ، وعلم أخلاق الجن من علم الأرواح ، أليس هذا من بدائع القرآن وعجائب العلم ، وانظر كيف جمع خصائص النفس الانسانية من حيث شهوة الطعام ونظامه ، وقوة الغضب وعجائبه ، وحفظ الثغور ، ونظام الجيوش ، والدفاع عن الديار ، انظر كيف جمع ذلك كله في الصلصال ، وكيف أبان عذاب الروح الناقصة من الجن . ومثلها الروح الناقصة الانسية بعد موتها ، لأنهم يكونون أشبه بالجان في أخلاقهم ، كل ذلك في لفظ « مارج » ومن هنا فلتعلم حكم القرآن وعجائبه ، وقوله (فبأى آلاء ربكما تكذبان) ظاهر .

ولما فرغ من ايضاح خلق الانسان شرع بوضع ما بعده وهو الشمس والقمر بحسبان ، فذكر أنه ربّ مشرق الصيف والشتاء ومغريهما ، وهذه الترتيبية يترتب عليها الفصول الأربعة ، ويتبع ذلك تغلب الهواء وتدوّعه ، وما يلي ذلك من الأمطار والشجر والنبات ، وما يتخلل ذلك من الأنهار الجارية ، ولما كان النبات وهو المذكور بعد الشمس والقمر لا يكون إلا بعاء عذب ناجم من السحاب المستمدة من البحار الملاحه ، وهذه البحار فيها نعمتان : نعمة في باطنها وهي الدرّ والمرجان ، ونعمة فوقها وهي السفن الجارية كأنها الجبال الطوال أخذت يشرح ذلك كله على سبيل الترتيب فقال (ربّ المشرقين وربّ المغربين فبأى آلاء ربكما تكذبان ، مرج البحرين) أرسلهما ، يقال مرجت الدابة أرسلتها : أى أرسل البحر الملح والبحر العذب متجاورين متلاقيين ، فترى العذب يخرج من الجبال كنيل مصر يجري من جبال القمر وراء خط الاستواء فيمرّ شمالا حتى يصبّ في البحر الأبيض المتوسط ، فالملح يطغى على العذب فيجعله ملحا ، ولا العذب يجعل البحر الملح مثله (يلتقيان) ومع هذا الالتقاء منعهما الله عما في طبيعتهما بالبرزخ ، وهو ما يحجزهما ويصدّهما عن الاختلاط والامتزاج وهو قوله (بينهما برزخ) حاجز إلهي (لا يبغيان) لا يختاطان ولا يتغيران ، أولا يعرفان الناس

بطغيانهما عليهم (فبأى آلاء ربكما تكذبان ، يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان) اللؤلؤ هو الدرّ الخلق في الصدف ، والمرجان الخرز الأجر ، وهما يخرجان من الملح وحده ، وإنما عبر بقوله « منهما » لأن العذب والملح بحر واحد لا ينفصل أحدهما عن الآخر ، لأن الأنهار والجداول إنما تكون من ماء الأمطار ، وماء الأمطار من البخار ، والبخار من البحار ، والبحار إليها يرجع ماء الأنهار في جريه فاذن الملح والبخار والسحاب والأنهار كرة واحدة تحيط بالأرض ، وهذه الكرة منها ما يبلغ سبعة من عشرة من محيط الكرة الأرضية وهي البحار كبحر الروم والبحر الأحمر وبحر فارس وبحر الهند وبحر الصين والمحيط الهادى والمحيط الباسفيكى وبحر البلطيق ، فهذه هي الأصل ، فإذا نظرت فوقها رأيت كرة الهواء تحيط بالأرض وبالماء ، وهي دائماً مشبعة بالبخار المستمد من البحار ، ومن هذا البخار تكون السحب فالأمطار فالأنهار الجارية على اليابسة كالنيل ودجلة والفرات ونهر النيلجى وزمبيزا وما أشبهها ، وكل هذه الأنهار أصبحت كفروع تتصل بالبحر الملح من جهة مصبها ، وبالجبال من جهة منبعها ، وتستمدّ ماءها من السحاب ، وهو من بخار الهواء المستمد من البحار الملحة ، فإلى البحر الملح إلا كشجرة جداولها الأنهار فوق اليابسة ، وكأن كل نهر غصن ، وكل جدول ورقة ، وكل حقل من الحقول قطعة من الورقة . إذا ثبت هذا عامت معنى قوله تعالى « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » فانه جعلهما بحراً واحداً ، فن جهة العذوبة والملوحة يقال لهما بحران ، ومن جهة خروج الدرّ والمرجان جعلاً كأنهما بحر واحد ، وقيل خرج منهما ، يقال خرجت من بيوت هذه البلدة وهو لم يخرج إلا من بيت واحد (فبأى آلاء ربكما تكذبان ، وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام) أى وله السفن الكبار أى المصنوعات التى رفع خشبها بعضه على بعض ، أوهى التى رفعت شرعها فى الهواء ، وقوله « كالأعلام » أى كالجبال جمع علم ، وهو الجبل الطويل (فبأى آلاء ربكما تكذبان) وانظر فى الجبال التى شبهت بها السفن فوق الماء كيف كانت هى التى جرى منها الماء فى الأنهار ، وكأن الله لما خلق الجبال فوق الأرض وهى يابسة تحمل الجبل أراد أن يجعل فى البحر ما يشبه الجبال فى البر ، وكأنه يقول : انظروا إلى النواميس الطبيعية كيف خرقتها فان ناموس المادة ألا يحمل الثقيل إلا الكفيف ، أما اللطيف كالماء فلا يحمل الثقيل ، فهأناذا أريتكم الحجب ، ووضعت الجبل فوق ظهر الماء بآيات اخترتها ، وبجانب اخترعتها ، وألقيت عليكم دروساً من النواميس تفهمكم أن الجسم اذا كان يزن ما يماثل حجمه من الماء استوى مع الماء فلا يرتفع ولا يغرق ، واذا كان الجسم أخف من مقدار حجمه من الماء وزناً طفا فوقه ، وان كان أثقل من وزنه من الماء غرق فيه ، هذا هو القانون الذى وضعته ، والصراط المستقيم الذى اخترته ، والسمة عرفت ذلك بغريزتها ، فاذا أرادت أن تنزل فى أسفل الماء قبضت عوامة فى بطنها مملوءة هواء ، واذا أرادت أن تطفو على وجه الماء نفختها فعظم حجمها نختت فطفت ، وان أرادت أن تساوى سطح الماء توسطت فى نفختها ، وكل سفينة عائمة فى بحر ملح أو عذب على هذه الطريقة ، فانك اذا وزنتها كلها ألفت جميع وزنها يساوى الماء الذى أزاحت من مستقرها فى البحر ، ولو أن الماء المزاح بحجمها كان أخف لغرق ، وجسم الانسان أثقل من مقدار حجمه من الماء ولذلك يغرق فى الماء ، وهذه هى نظرية [ارشميدس] الذى أحسن بأن جسمه وهو فى الماء قد خفّ فاعتقد أن الأشياء وزنها فى الماء أخف من وزنها فى الهواء ، وظهر بعد ذلك أن الذى ينقص من وزن الأشياء هو مقدار وزن الماء المساوى لها فى الحجم ، نخرج من الماء وهو لا يبعث ويقول عرفتها عرفتها ، وذلك بعد أن تحير ثلاثة أيام فى معرفة الذهب المغشوش ، وكيف يعرف غشه ، فأتتج له عقله ، ودله فهمه ، على هذه الطريقة ، وأخذ يزن الذهب والمواد الأخرى التى كان الذهب بها مغشوشا حتى عرف الحقيقة ، وسرّ ملكه بذلك ، وأظهر له حقيقة العش ، فهذه النعم التى ذكرها الله فى هذه السورة

هي مجامع ما أنعم به على أهل الأرض ، وكأنه تعالى يشكره التذكير بها وقوله « فبأي آلاء ربكما تكذبان » يقول : أي عبادي : هل ظننتم أن مجرد الإيمان يكفيكم ؟ فهل خلقت الشمس والقمر والنجم ، والشجر والزرع والحب ، والأنهار والبحار ، والدرر والمرجان لقوم لا يعقلون ، أم خلقتها لقوم يقبلون مني النعمة ؟ وكيف يقبلونها إلا إذا عرفوها .

أيها الناس : اشكروا نعمتي ، ولاشكر عليها إلا إذا عرفتموها ، ولا معرفة إلا بالدراسة ، حتى تكونوا عندي في عقد صدق ، أليست هذه النعم من رحمتي ؟ ألم أنزل عليكم القرآن ؟ ألم ألهكم النطق والبيان ؟ ألم أجعل حاجتكم في الحياة موقوفة على هذه النعم ، فهل خلقتها لمن لا يعلمون ؟ أم نظمها لمن لا يقبلون ؟ وهذه الآيات وتكرار الآلاء فيها ٣١ مرة في هذه السورة أشبه بالإنذار لآمة الاسلام أنهم إن تركوا هذه النعم فكأنهم أنكروها ودخلوا في الأمم التي ذكرت في (سورة القمر) يقول الله فيها « فكيف كان عذابي ونذر » وهذا وإن لم يذكره القرآن صريحا لوجه له تلويحا ، والافكيف يشكر النعمة جاهل بها ؟ والجاهل بالنعمة كالمكذب ، ثم أردف ذلك كله بأنه فإن فقال (كل من عليها فان) أي كل من على الأرض من الحيوانات والمركبات من الثقلين وغيرهما فان (ويبقى وجه ربك) ذاته بل كل مخلوق الآن من حيث هو فان ومن حيث ربه موجود ، فهو فان من وجه موجود من وجه (ذوالجلال والاکرام) ذو الاستغناء المطلق والفضل العام ، فهو ذو العظمة والكبرياء ، وهو مع علوه يعطي جميع خلقه من النعم والاکرام ما يليق بحالهم جميعا وهو لطيف بهم ، يراعي العالم ويكفل الجاهل . ويتلطف بأدنى الحيوان وأصغره ، ولا يحجب فضله عن مخلوق خلقه ، لا يحجب عظم القيل عن التلطف بالبقية ، بل أعطاها أجنحة وحرمة منها وسلطانا عليه ، وكرم بني آدم . ومع ذلك أغرى الحيوانات الذرية الصغيرة فتوغلت في جسمه وأوردته الحمام بالحلى والوباء والجدرى وما أشبه ذلك ، ثم أرسل له الأطباء ليداووه ، فهو لطيف بتلك الحيوانات الدقيقة حيث مكنها من جسم الانسان واطيف بالانسان من حيث انه سخر له الأطباء ، وعلمه علم الطب ، واذا مات نقله من حال الجسمية إلى حال الروحية وهي أرق من هذه الحال ، ففناؤه من أنواع اللطف ، ومرضه من الفضل .

ينظر الانسان هذه النجوم الثواقب في ظلمات الليالي فيراها مشرقة بهجة بهية ساطعة باهرة تتلألأ نورا وبهجة ، وتشرح الصدور ، وبهذا تتجلى العظمة والكبرياء ، ويراه يميت الأحياء وتلك النجوم باقية ، والأرض باقية ، والأحوال لم تتغير بحسب ما يظهر للناس ، فهذا مظهر الجلال والعظمة ، جلال في النجوم ، بهجة في الاشراق ، مناظر باهرة ، أنوار ساطعة ، أجسام عظيمة ، وأحجام كبيرة ، وأحوال تنقلب ، وأحوال تتعاقب ، والناس من بينها يخرون صعقن ، فهذا لعمرك هو الجلال والعظمة ، ثم تراه من جهة أخرى يتلطف بالمرضى ويواسيه بالطيب ، واذا مات أرسله إلى عالم ربي بهيج لطيف ، فهذا بعض الاكرام ، ويقرب من هذا قوله تعالى : « إن بطش ربك لشديد » انه هو يبدى ويبيد « وهذا مما يقرب من الجلال ، ثم أتبعه بقوله « وهو الغفور الودود » ذو العرش المجيد « وهذا يقرب من معنى الاكرام ، فبينما نراه متكبرا محدثا للأموال هائلة اذا هم يتلطف ويرد عبادهم ، ويواسيهم في مرضهم ، وفي حال نزاعهم ، وبعد موتهم ، وفي حياتهم ، فانظر لكبرياء ولطف وعظمة وتحنن وارتفاع ودين ، وهذا قوله تعالى : « وهو معكم أينما كنتم » وأيضا « إن ربي لطيف لما يشاء » . وبهذا فهمت قوله تعالى : « فبأي آلاء ربكما تكذبان » فالنعم واضحة في تحليل المركبات ، لولا تحايل أجسامنا وموتنا لجدت هذه الأرض ، ولتعطلت الحياة ، والمادة الأرضية اذا بقيت على حال واحدة كانت القدرة محدودة ، ولكن انبعثت الصور الكثيرة وتلاحقها جيلا بعد جيل ، وقرنا بعد قرن هو عين العدل ، إن من العدل أن تلبس المادة جميع الأشكال ، وجميع الأشكال

لا تكون دفعة واحدة ، فاذن يجب أن تلبس شكلا وتخلع شكلا آخر ، وهذا هو الحاصل فيها ، هكذا بنو آدم اذا بقى جيلنا الآن وأخذ هذا الجيل يتوالد قرونا وقرونا فلا يمضي قرون معدودة حتى يكون على القدم ألف قدم ، وتمتلئ الأرض بالآدميين فلا يكفهم حيوان أرضى ولا نبات مأكول ، واذن يأكل الناس بعضهم بعضا وتمتلئ الأرض بالرم ، فاذن الفناء فيه نعمتان : نعمة الرحمة بتلاحق الأجيال ، ونعمة الخروج من سجن المادة إلى فسيح الرحمة بعد الموت ، لذلك قال تعالى : « فبأى آلاء ربكما تكذبان » ومن الآلاء الجليلة الفناء الذى هو نعمة بتلاحق الأجيال وبخروجنا من سجن هذه الحياة طوعا أو كرها . ولما كان ما ذكرته لك يتضمن الافتقار المتجدد أوضحه ، فقال (يسأله من فى السموات والأرض كل يوم هو فى شأن ، فبأى آلاء ربكما تكذبان) قد علمت أن المادة كلها تلبس جديدا وتخلق قديما ، وأجسامنا وأجسام الحيوان على هذا المنوال ، فالحيوان والإنسان كل فى حاجة إلى بقاء جسمه ، وإلى التغذية والمداواة ، وإذا انحلت جسم من الأجسام أخذ يفترق إلى حال جديدة ، فالتغيرات المستمرة فى المادة افتقار ، والافتقار المذكور دائم فى كل لحظة ، فالسؤال المذكور سببه الافتقار ، والسؤال إما بنطق ، وإما بتوجه النفس ، وإما بلسان الحال ، فالمادة الجامدة مفتقرة لبقاء حال يناسبها ، أو تغيرها بما هو أنسب لها ، والنبات فى كل لحظة مفتقر إلى ما يبقى ذاته من ماء وهواء ومواد ، والحيوان جميعه يطلب بهيمته ما يحتاج إليه ، والإنسان يسأل بنفسه داخلا وبلسانه نطقا ، فعنى الآية أن من فى السموات والأرض مفتقرون إليه فى ذواتهم وصفاتهم ، وسائر ما بهيمهم ويعنى لهم ، كل وقت يحدث أشخاصا ، ويحدث أحوالا على ما سبق به قضاؤه ، واقتضاه مراده ، فليس كما قالت اليهود : ان الله لا يقضى يوم السبت شيئا . اذا فهمت هذا عرفت قوله « فبأى آلاء ربكما تكذبان » فكم من سؤال أجبته ، وكم من جديد أحدثته ، وكم من ضعيف فى الحياة أرحته إما بصحة تسعده أو بموت من سجن المادة يخرج به (منفرغ لكم أيها الثقلان) أى ستجرد لحسابكم وجزائكم ، وذلك يوم القيامة . واعلم أن هذا على سبيل التمثيل بدليل قوله تعالى : « يسأله من فى السموات والأرض كل يوم هو فى شأن » أى هو فى كل وقت يحدث أمورا ، ويحدث أحوالا ، ومع ذلك لا يشغله شأن عن شأن ، فانك تقول لمن تهتده : لا تفرغنى لك : أى سأتجرد للإيقاع بك من كل ما يشغلنى ، والمراد التوفر على أحداث النكايه به والانتقام منه ، ولا جرم أن شأن الآخرة ما هو إلا شأن من الشؤون فلا يشغله عن شئ آخر ، وهو القائل : « إنما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » والقائل : « وما أمرنا إلا واحدة كلعج بالبصر » (فبأى آلاء ربكما تكذبان) والثقلان الانس والجان لثقلهما على الأرض ، ولأنهما متغلان بالتكاليف (بمعشر الجن والإنس ان استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا) أى ان قدرتم أن تخرجوا من جوانب السموات والأرض هاربين من الله ، فارتين من قضائه ، إذ أعطاكم النعم السابقة وعددها عليكم ، ونهكم إليها ، ثم انه يفنيكم ويميتكم ، وبعد الموت يقصد حسابكم ، وهذا هو أولكم وآخركم ، فأنتم فى الدنيا فى قبضته ، وبعد الموت فى قبضته ، وأنتم ما دمتم ناقصين غير كاملين فان أرواحكم مضطربة معذبة فى قبضته تعالى ، هو يريد رحمتكم بكآلكم ، والا كآل لا يكون إلا بالايقظ بالعلوم ، وبالنوازل ، وتقلب الأحوال عليكم ، كل هذا من الرحمة المذكورة أول السورة ، ولكنكم بحسب ما يعنى لكم وأنتم فى حال النقص تشعرون بأنكم معذبون كما يحس التحذير بقسوة العلم الذى يريد ابلاغه الكمال ، فان استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا : أى فاخرجوا (لأنفذون) لانتقدرون على النفوذ (إلا سلطان) إلا بقوة وقهر ولا قدرة لكم على ذلك ، وأولى من هذا الوجه أن يقال : أيها الثقلان : ان قدرتم أن تنفذوا فى أقطار السموات والأرض لتنظروا صنعنا فانفذوا وانكنكم لانفذون إلا بقوة علمية وبمقدمات

نصبتها لكم وهي العلوم والمعارف والتهديب ، وأهم ذلك حب العلم وحب الخلق واجتماعهما يعطى المرء قوة بها يطلع على العلوم والجانب ليخرج من سجن هذه المادة (قبأى آلام ربك انكذبان) من التنبية والتحذير والعفو وكال القدرة ، أو المعارج العقلية التي نصبتها الله لارتقاء العقول الانسانية في العلوم العقلية فينفذون بها إلى العوالم المجيبة فوق السموات العلى .

إن النفوس الانسانية لا يقر لها قرار إلا بالاطلاع على عجائب هذه العوالم التي ظهر لنا نورها ، وبدت لنا أنوار كواكبها بحيث نرى ضوءها من بعد لا يتخيله الوهم بحيث يصل لنا الضوء [الذى يقطع فى الثانية ثلثمائة ألف كيلومترا فى ألف سنة ، أو مائة ألف سنة ، أو ألف ألف سنة ، بل أكثر من ذلك] فهذا مما يشوق نفوسنا إلى الاطلاع على هذه العوالم المدهشة ، وكيف نفقد لها ونحن محبوسون فى هذه الأرض ؟ بل كيف تخترق أرواحنا هذه المسافات الشاسعة لو أرادت الصعود هذه العوالم بعد الموت ، أو عقولنا معرفتها ونحن فى الأرض ممنوعون عن ذلك بعوائق ، فإن لكل عالم من العوالم التى فوقنا جوا خاصا وأحوالا ليست تليق إلا لمن استعد لها ، ونحن لا يتسنى لنا اختراق أى جوف من الأجواء إلا اذا كانت أرواحنا صافية مستعدة لاختراقه ، ومهيئة له ، والنفوس الانسانية فى الدنيا لا قبل لها بمعرفة علوم تلك العوالم أيضا معرفة علمية إلا باستعداد خاص عقلى وخلقى ، فالتاس فى الدنيا محجوبون إلا من لهم استعداد وعلم وعمل فيعرفون قليلا ، وبعد الموت كذلك إلا النفوس الصافية المستعدة ، ولا يهوى للناس السفر فى تلك الأقطار إلا الاستعداد لها فى هذه الحياة الدنيا بالأخلاق والعلوم والاخلاص ، فقلوه (يرسل عليكم شواظ) لهب خالص (من نار ونحاس) وهو الدخان (فلا تنصرون) فلا تمنعان من الله ، ولا يكون لكم ناصر منه ، يقول الله : اذا عجزتم الآن عن أن تنفذوا من الأقطار فأنتم عن النفوذ والهرب يوم القيامة أعجز ، فانكم هناك ان هربتم يرسل عليكم لهب ودخان فلا تقدران على الهرب ، إن هذا كله ليفهم الله الناس أنهم فى قبضته ، لا يخرجون من حكمه وقضائه .

واعلم أن هذا الذى فى الآية له نظير فى نفوس الناس اليوم ، فكل امرئ فى عاداته وديانته ومعارفه وأخلاقه وشهوته ووطنه محبوس ، حتى ان من يعيش فى خط الاستواء ، ومن يعيش فى الجزائر الخضراء قرب القطبين اذا نقل كل منهما من مكانه تألم لذلك بل ربما مات ، وهكذا حيوان البر لا يعيش فى البحر وبالعكس ، وحيوان البحر اذا نفذ من أقطاره أرسل عليه نيران الشمس وعنصر الهوام الجاف فأذاقاه كأس الجحيم ، وترى الناس فوق الأرض يكرهون الموت ، لأنهم لم يعرفوه ، ولم يروا هناك حياة غير هذه ، وترى القلوب كلها مستعدة للعلوم ، ولكن الشهوات ، وأنواع الغضب ، والعادات المستحكمة تمنعهم من المعرفة والحكمة وتصدتهم كما روى : « لولا أن الشياطين يحومون حول قلوب بنى آدم لنظروا إلى ملكوت السموات والأرض ، فالشهووات والوسوسة والعوارض فى حياتنا تمنعنا من إدراك العوالم فهى تشبه الدخان والنار ، فالنار كالشهووات ، والدخان كالعادات والعقائد المرتبكة الممانعة من العلم ، ونحن اذا متنا لانكون هناك إلا فى المكان اللائق بنا فى الجنة أو فيها هو أعلى منها » ولكل درجات مما عملوا » بحيث لا يتجاوز أحدا مرامهم له لأنه يحجب عنه هناك كما يمنع حيوان البحر أن يعيش فى البر ، وإياك أن ترى قولى ما هو أعلى من الجنة خارجا عن أقوال العلماء ، فارجع إليه فى (سورة البقرة) عن الامام الغزالى فتفكر ، فإرسال الالهب والدخان على أهل الجحيم وحسبهم فيه له نظير فى كل شئ فى الدنيا والآخرة ، وفى معارج الأرواح ، والاستعداد هو الذى يعين منازل الناس فى الدنيا والآخرة ، والاستعداد لا يكون إلا بمقدمات ، إنك أيها الذكى لو بحث اليوم فى الناس لوجدتهم جميعا وأنا وأنت فى حال مخصوصة بحيث لو تركناها لرأينا العوائق دوننا كما صد الاله

واللسان أهل المحشر عن الخروج من القضاء والقدر ، فترى كل امرئ لا يعدو ما استعد له ، وما اعتاده هذا تراه في نفسك ، وفي أهلك ، وفي جارك . وفي ثمتك ، وفي أمم الغرب والشرق ، كل حكم عليه بما هو بسبيله أشبه بحيوان البر ، وحيوان البحر ، وبعد الموت يسبرون جميعا فيما استعدوا له ولا ينفكون عنه جزاء وفاقا وقانونا مطردا ، فالعادات أحاطتنا بسياج من طب ودخان لا تجاوزة . ولوقات انصراني صل صلاة المسلمين لآراء في عذاب وهكذا الجوس وبالعكس ، وتفصيل هذا لانهاية له ، ولعلنا بعد الموت نطلع على عالم الكواكب بنفس أحجاءها ، وليس ينال ذلك منا إلا من استعدت أرواحهم لذلك نختف فارتقت ، فأما الأرواح الضعيفة فانها لا تنال ذلك لعدم استعدادها ، ولا تظن أن هذا يغاير ما قلناه عاملا فلتعلم أن العلم هو أعظم نعيم في الجنة بل كل نعيم الجنة بالنسبة له أمر ضعيف . وبالعالم تستأهل النفس للنظر إلى وجه الله الكريم ، وما سوى ذلك فهو متاع لا يهتم النفوس الشريفة ، والله لا معنى لهذه الحياة إلا بتلك النتيجة العالية الشريفة :

على نفسه فليترك من ضاع عمره * وليس له منها نصيب ولا سهم

هذا هو نهاية تفسير القسم الثاني إجمالا مع بعض التفصيل ، وفي هذا القسم [لطيفتان : الأولى]

في قوله تعالى : « ووضع الميزان » [الثانية] في قوله تعالى : « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » .

اللطيفة الأولى في قوله تعالى : ووضع الميزان

قد علمت مما ذكرناه في هذا المقام وغيره أن الميزان لا يعرفه إلا من درس العلوم كلها ، ولكن الميزان الأرضي من كل ما يقسره الأجرام الأرضية بمساحة أو بكيل أو بوزن يحتاج إلى بحث مستفيض يعرف الناس أن هذه مشتقات مقتبسات من النظام السماوي والميزان الإلهي ، وكيف يعرف الناس أن الذراع الذي يقيسون به الثياب ، والمقياس الذي يمسحون به الأرض ، والرطل الذي يزنون به المأكولات وما أشبهها كيف يعرفون أن ذلك كله مأخوذ من نفس سير الشمس فعلا لا مجرد قول ، ولعمري أن من يقرأ ما سأقوله الآن في هذا الموضوع ليرى العجب العجيب ، ويسمع في هذه المقالة ما يدهشه ، حيث يرى أن الأرب والقنطار والدرهم ومساحة الفدان ترجع فعلا إلى ميزان السموات (وبعبارة أخرى) إلى مدار الأرض حول الشمس ، أو مدار الشمس حول الأرض بحسب الظاهر ، وأن هذه كلها مرتبطبات بذلك .

الحق والحق أقول أن من يفهم ما سأوضحه سيحب غاية الحب 1 ويقول : حقان هذه معجزة للقرآن مدهشة أكبر من كل معجزة ، وكيف لا تسكرون معجزة والله يقول : « ووضع الميزان ألا تظفوا في الميزان » أي وضعنا نظامنا لأجل ألا تظفوا في ميزانكم أي أن ميزانكم مبنى على ميزاننا ، وهناك مناقته من رسالة صغيرة سميتها « التربية العملية في الاسلام » لم تطبع إلى الآن ، قد وضعتها على هيئة محاضرة ، فهاك ما يناسب المقام هنا منها :

س — قد فهمت ذلك ولكن من أين لنا أن نوقن بأن علوم الرياضيات التي أوجبها أفلاطون مما ينبغي أن تطلبه الأمة الاسلامية لأجل دينها ، وأين ذكر الله هذا في القرآن ؟

ج — لقد ذكر الله ذلك في القرآن في مواضع كثيرة كقوله تعالى : « والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم » الآية .

س — أنا أريد أبين من هذا ؟

ج — اقرأ كتبنا : جواهر العلوم ، وميزان الجواهر ، والنظام والاسلام ، ونظام العالم والأمم ، تجد فيها آيات كثيرة وحسابا رياضيا جبريا وفلكيا حقيقيا ، وتقف إذ ذاك على ما أودع في القرآن في نحو ٧٥٠ آية

أبانت أنه ينبغي لأذكىاء المسلمين تعلم الرياضيات والطبيعات لا كما فعل أفلاطون وسقراط إذ خصصا التعليم بالرياضيات فاتها مناط الحق والصدق ، ولكننا نقول لن يكون المرء حاكما صالحا إلا بالقوة البدنية والنبوغ في الرياضيات والطبيعات ، ولقد كذب الذين قلوا ان العلم يصد عن ضبط مصالح الناس فتمام ذلك خاص بالعلم الذي لا يصحب به تزيين وتقويم ، ولا تمرين عضلي ، ولا عشق للحكمة والبحث ، فأما ذلك الذي استوفى تلك الشرائط فاجدره أن يرفع ذوى النفوس الشريفة إلى مستوى الحكم ، والحكم والعدل في القضية ، والتسوية بين الرعية . وسأتى لك في هذه الرسالة بفائدة عجيبية خلت منها كتبنا السابقة ، وهى من أعاجيب الدهر وعجائب الحكمة ، بل هى درة بهية ، وآية سنية ، وحكمة جوهريّة ، وشمس إشراقية ، وبدعة نورية ، تلك آية الرحمن ، إذ قال الله تعالى : « الشمس والقمر بحسبان ، والنجم والشجر يسجدان ، والسماء رفعها ووضع الميزان ، ألا تطغوا في الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » .

س — وأى عجب فى هذه الآية وأى ابداع ؟

ج — فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب المتكبرين ، ألا ترى أنه تعالى يقول : رفعت سمائى وحركتها بالحركات العجيبيات ، وقدرتها ووزنتها بالميزان العجيب ، فلا شمس تشرق إلا بنظام ، ولا قمر يطلع إلا بحساب ، ولقد وزنت حركاتها وزنا ، وضبطت سيرها ضبطا ، فلا تأخير ولا تقديم ، ولا نجم ولا قمر يتحرك حركة إلا بحساب وميزان ظهر لكم فى تقويمكم السنوى ، وعرفتتموه فى نتائجكم المعروفة فهل رأيتم فى عملى من خلل ؟ أواظعنم على تفاوت ، هل نجم النجم قبل إبانته ، أو بدر البدر قبل أوانه ، أو غربت شمس بعد وقتها ، أم أخطأ الليل والنهار ؟ كلا . إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار لتكون أعمالكم موزونة بهذا الميزان ، فسكا نظمت سماواتى ، وقدرت كواكبى ، وأدبرتها بحساب ، فهكذا يا عبادى نظموا أعمالكم كما نظمتها ، وإياكم أن تحجموا عما رسمنا ، فلانستأخرون دقيقة أوثانية ولا يستقدمون .

س — قد فهمت انشاءك . وعرفت منها جاك ، وعقلت طريقك ، فما أتيت فى هذه الآية أكثر مما فى غيرها .

ج — على رسلك صبرا ، ولا ترهقنى من أمرى عسرا ، فسأ كمل المقال لتطلع على ما يحمله الأكترون انظر إلى قدماء المصريين ، ألم تر أنهم جعلوا الفدان والأردب والقطار مشتقات من دائرة الشمس السنوية س — وكيف كان ذلك ؟

ج — إن الأرض ليس يضبط محيطها كما يضبط محيط مدار الشمس ، فلما كان العالم العلوى أضبط وأبقى جعله أولئك الفلاسفة مقياسا لنا : أى جعلوا منه الرطل المصرى والكيلة والفدان والقيراط وما أشبه ذلك تصديقا لقوله تعالى : « ألا تطغوا فى الميزان » أى أنا وزنا السماء وقدرناها وحسبناها وضبطناها فى حركاتها لتلازيمها فى موازينكم كالقناطير والأرطال ، وما كاييلكم كالأردب والكيلة ، ومقاييسكم كالفدان والقيراط ، إن هذه كلها مبنية على نظام شمسنا ، ولو اختلف نظام مدارها لم يضبط لكم كيل ولا ميزان كما لا تضبط أعمالكم إذا تقدمت كوكب عن أوانه ، أو طلعت الشمس أو القمر قبل إبانتهما .

س — هذا قول عجيب لا أفهمه أوضحه لى ، فإذا عجب من جهلى الناس فلا تعجب إذا عجب الناس من غموض قولك .

ج — حياك الله : مهلا . إن الفرنسيين الذين جعلوا وحدة المقاييس ترجع إلى محيط الأرض إذ جعلوا المتر جزءا من ٤٠ مليوناً من محيط الدائرة الأرضية قد وقع الخطأ فى عملهم ، فانهم رأوا بعد ذلك أن محيط الأرض ليس ٤٠ مليوناً بل يختلف اختلافا بينا ، فإذا اختلف الناس فى المتر فيما بعد فالأمر يرجعون ، أما قدماء

والدخان أهل المحشر عن الخروج من القضاء والقدر، فترى كل امرئ لا يعدو ما استعد له، وما اعتاده هذا تراه في نفسك، وفي أهلك، وفي جارك. وفي أمثلك، وفي أمم الغرب والشرق، كل حكم عليه بما هو بسبيله أشبه بحيوان البر وحيوان البحر، وبعد الموت يسرون جميعا فيما استعدوا له ولا ينفكون عنه جزاء وفاقا وقانونا مطردا، فالعادات أحاطتنا بسياج من لخب ودخان لا تجاوزه، ولوقات لنصراني صل صلاة المسلمين لرآه في عذاب وهكذا المجوس وبالعكس، وتفصيل هذا لانهاية له، ولعلنا بعد الموت نطلع على عالم الكواكب بنفس أحجاءها، وليس ينال ذلك منا إلا من استعدت أرواحهم لذلك نفقت فارتقت، فأما الأرواح الضعيفة فانها لاتنال ذلك لعدم استعدادها، ولا تظن أن هذا يغاير ما قلناه عامونا فتعلم أن العلم هو أعظم نعيم في الجنة بل كل نعيم الجنة بالنسبة له أمر ضعيف. وبالعلم تستأهل النفس للنظر إلى وجه الله الكريم، ومما سوى ذلك فهو متاع لا يهم النفوس الشريفة، والله لا معنى لهذه الحياة إلا بتلك النتيجة العالية الشريفة :

على نفسه فليترك من ضاع عمره * وليس له منها نصيب ولا سهم

هذا هو نهاية تفسير القسم الثاني إجمالاً مع بعض التفصيل، وفي هذا القسم [لطيفتان : الأولى] في قوله تعالى : « ووضع الميزان » [الثانية] في قوله تعالى : « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » .

اللطيفة الأولى في قوله تعالى : ووضع الميزان

قد علمت مما ذكرناه في هذا المقام وغيره أن الميزان لا يعرفه إلا من درس العلوم كلها، ولكن الميزان الأرضي من كل ما يقدر به الأجرام الأرضية بمساحة أو بكيل أو بوزن يحتاج إلى بحث مستفيض ليعرف الناس أن هذه مشتقات مقتبسات من النظام السماوي والميزان الإلهي، وكيف يعرف الناس أن الذراع الذي يقيسون به الثياب، والمقياس الذي يسمعون به الأرض، والرطل الذي يزنون به المأكولات وما أشبهها كيف يعرفون أن ذلك كله مأخوذ من نفس سير الشمس فعلا لا مجرد قول، ولعمري أن من يقرأ ما سأقوله الآن في هذا الموضوع ليرى العجب العجيب، وليسمع في هذه المقالة ما يدهشه، حيث يرى أن الأرب والقنطار والبرهم ومساحة الفدان ترجع فعلا إلى ميزان السموات (وبعبارة أخرى) إلى مدار الأرض حول الشمس، أو مدار الشمس حول الأرض بحسب الظاهر، وأن هذه كلها مرتبطبات بذلك .

الحق والحق أقول أن من يفهم ما سأوضحه سيحجب غاية العجب ! ويقول : حقا أن هذه معجزة للقرآن مدهشة أكبر من كل معجزة، وكيف لاتكون معجزة والله يقول : «وضع الميزان ألتأطعوا في الميزان» أي وضعنا نظامنا لأجل ألا تأطعوا في ميزانكم أي أن ميزانكم مبنى على ميزاننا، وهناك ما قلته من رسالة صغيرة سميتها «التربية العملية في الاسلام» لم تطبع إلى الآن، قد وضعتها على هيئة محاضرة، فهناك ما يناسب المقام هنا منها :

س — قد فهمت ذلك ولكن من أين لنا أن نوقن بأن علوم الرياضيات التي أوجدها أفلاطون مما ينبغي أن تطلبه الأمة الاسلامية لأجل دينها، وأين ذكر الله هذا في القرآن ؟ .

ج — لقد ذكر الله ذلك في القرآن في مواضع كثيرة كقوله تعالى : «والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم»، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم « الآية .

س — أنا أريد أبين من هذا ؟ .

ج — اقرأ كتبنا : جواهر العلوم، وميزان الجواهر، والنظام والاسلام، ونظام العالم والأمم، تجد فيها آيات كثيرة وحسابا رياضيا جبريا وفلكيا حقيقيا، وتقف إذ ذاك على ما أودع في القرآن في نحو ٧٥٠ آية

أبانت أنه ينبغي لأذكىاء المسلمين تعلم الرياضيات والطبيعات لا كما فعل أفلاطون وسقراط إذ خصصا التعليم بالرياضيات فاتها مناط الحق والصدق ، ولكننا نقول ان يكون المرء حاكما صالحا إلا بالقوة البدنية والنبوغ في الرياضيات والطبيعات ، ولقد كذب الذين قلوا ان العلم يصد عن ضبط مصالح الناس فتمام ذلك خاص بالعلم الذي لا يصحب به ذيب وتقويم ، ولا تمرين عضلي ، ولا عشق للحكمة والبحث ، فأما ذلك الذي استوفى تلك الشرائط فأجدره أن يرفع ذوى النفوس الشريفة إلى مستوى الحكم ، والحكم والعدل في القضية ، والتسوية بين الرعية . وسأتي لك في هذه الرسالة بفائدة عجيبة خلت منها كتبنا السابقة ، وهي من أعاجيب الدهر وعجائب الحكمة ، بل هي درة بهية ، وآية سنية ، وحكمة جوهريّة ، وشمس إشراقية ، وبدعة نورية ، تلك آية الرحمن ، إذ قال الله تعالى : « الشمس والقمر بحسبان ، والنجم والشجر يسجدان ، والسماء رفعها ووضع الميزان ، ألا تطغوا في الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » .

س — وأى عجب في هذه الآية وأى ابداع ؟

ج — فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب المتكبرين ، ألا ترى أنه تعالى يقول : رفعت سمائي وحركتها بالحركات العجيبيات ، وقدرتها ووزنتها بالميزان العجيب ، فلا شمس تشرق إلا بنظام ، ولا قمر يطلع إلا بحساب ، واقصد وزنت حركتها وزنا ، وضبطت سيرها ضبطا ، فلا تأخير ولا تقديم ، ولا نجم ولا قمر يتحرك حركة إلا بحساب وميزان ظهر لكم في تقويمكم السنوي ، وعرفتكموه في نتائجكم المعروفة فهل رأيتم في عملي من خلل ؟ أواظعنتم على تفاوت ، هل نجم النجم قبل إبانته ، أو يندر البدر قبل أوانه ، أو غربت شمس بعد وقتها ، أم أخطأ الليل والنهار ؟ كلا . إن في ذلك لعلوة لأولى الأبصار لتكون أعمالكم موزونة بهذا الميزان ، فسما نظمت سماواتي ، وقدرت كواكبي ، وأدرتها بحساب ، فهكذا يا عبادي نظموا أعمالكم كما نظمنا ، وإياكم أن تحجموا عمارتنا ، فلا تستأخرون دقيقة أو ثانية ولا تستقدمون .

س — قد فهمت انشاءك . وعرفت منهاجك ، وعقلت طريقك : فما أتيت في هذه الآية أكثر مما في غيرها .

ج — على رسلك صبرا ، ولا ترهقني من أمرى عسرا ، فسأكل المقال لتطلع على ما يحمله الأكترون انظر إلى قدماء المصريين ، ألم تر أنهم جعلوا الفدان والأردب والقنطار مشتقات من دائرة الشمس السنوية س — وكيف كان ذلك ؟

ج — إن الأرض ليس يضبط محيطها كما يضبط محيط مدار الشمس ، فلما كان العالم العلوي أضبط وأبقى جعله أولئك الفلاسفة مقياسا لنا : أي جعلوا منه الرطل المصري والكيلو والفدان والقيراط وما أشبه ذلك تصديقا لقوله تعالى : « ألا تطغوا في الميزان » أي انا وزنا السماء وقدرناها وحسبناها وضبطناها في حركاتها لئلا تزيدوا في موازينكم كالقناطير والأرطال ، ومكاييلكم كالأردب والكيلو ، ومقاييسكم كالفدان والقيراط ، إن هذه كلها مبنية على نظام شمسنا ، ولو اختلف نظام مدارها لم يضبط لكم كيل ولا ميزان كما لا تضبط أعمالكم إذا تقدمت كوكب عن أوانه ، أو طلعت الشمس أو القمر قبل إبانتهما .

س — هذا قول عجيب لا أفهمه أريضه لي ، فإذا عجبت من جهل الناس فلا تعجب إذا عجب الناس من غموض قولك .

ج — حياك الله : مهلا . إن الفرنسيين الذين جعلوا وحدة المقاييس ترجع إلى محيط الأرض إذ جعلوا المتر جزءا من ٤٠ مليون من محيط الدائرة الأرضية قد وقع الخطأ في عملهم ، فانهم رأوا بعد ذلك أن محيط الأرض ليس ٤٠ مليون بل يختلف اختلافا بينا ، فإذا اختلف الناس في المتر فيما بعد فالأمر يرجعون ، أما قدماء

المصريين قائم قاسوا مدار الشمس السنوى بالحساب العالى فبنوا الهرم الأكبر على أن محيطه جزء من مليار جزء من محيط مدار الشمس السنوى : أى جزء من ألف ألف ألف جزء من ذلك المحيط ، وارتفاعه جزء من ألف ألف ألف جزء من البعد بين الشمس والأرض : أى مليار ضعف الارتفاع المذكور يساوى قطر محيط دائرة مساوية لمحيط الهرم ، فالارتفاع نفسه كما تقدم يساوى جزءا من مليار من البعد بين الشمس والأرض ومحيط الهرم يساوى جزءا من مليار من الدائرة التى تدور عليها الشمس التى ذلك البعد نصف قطرها .

وعليه يكون ضلع الهرم مساويا لجزء من ربع مليار من محيط الدائرة الشمسية ، ومعلوم أن الضلع المذكور يساوى ٤٠٠ ذراع بلدى ، أو ٣٦٠ هنداسة ، فيكون الذراع البلدى واحدا من مائة مليار من محيط الدائرة الشمسية : أى جزء من مائة ألف ألف ألف جزء من ذلك المحيط ، ثم ان ربع الذراع البلدى المكعب يسع ألف درهم من الماء المقطر ، وكل اثني عشر درهما أوقية ، وكل ١٢ أوقية رطل ، فالرطل ١٤٤ درهما ، والقنطار مائة رطل ، وعليه تكون المقاييس منها عشرى ومنها ذوالاثني عشر ، والأردب ذراع بلدى مكعب ، فتجب كيف كان الأردب ذراعا مكعبا منسوبا إلى ضلع الهرم ، فهو جزء من ٤٠٠ منه ، أو واحد من مائة ألف ألف ألف جزء من محيط الدائرة الشمسية ، ألا ترى كيف قسنا ووزنا وكلنا على نسبة محيط الشمس .

إن الفدان عبارة عن $100 \times 100 = 10000$ عشرة آلاف هنداسة ، فطوله ١٠٠ وعرضه ١٠٠ وهون نسبة عشرية ، والهنداسة جزء من ٣٦٠ جزءا من ضلع الهرم المنسوب لربع محيط الدائرة الشمسية فأصبح الفدان منسوباً بقياسه للدائرة الشمسية ، أليس هذا بعينه قوله تعالى « ألا تطغوا في الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » فأمر بالاعتدال ، وألا تنقص والألّا يزيد في وزننا ، ولا في كيلنا ومساحتنا ، كل ذلك على حسب مدار الشمس .

واعلم أن الذراع النبلى $\frac{1}{4}$ من الهنداسة فيكون ضلع الفدان ١٢٠ ذراعا نبليا ، والفدان ١٤٤٠٠ ذراعا نبليا ، ويكون القيراط ٦٠٠ والسهم ٢٥ والدانق ١٠٠ — فالذراع النبلى والهنداسة كلاهما يسعحان الفدان $100 \times 144 = 14400$

هل يدري ذلك الفلاح الذى يبيع قطنه بالقنطار أن للقنطار نسبة إلى مدار الشمس في السماء ؟ هل يعلم أن القنطار المنقسم إلى أرطال إلى دراهم ، أن تلك الدراهم منسوبة إلى الذراع البلدى الذى إذا كعب ربعه وسع ألف درهم ، وإذا كعب هو وسع ٦٤ ألف درهم ، وأن هذا الذراع البلدى جزء من أربع مائة من ضلع قاعدة الهرم ، وأن ضلع قاعدة الهرم جزء من ألف ألف ألف جزء من ربع محيط دائرة الشمس حول الأرض ، وأن هذا المحيط أحد المحيطات التى للشمس العظيمة التى لا يعلم عددها إلا الله ، وهل درى الفلاح الذى يقيس أرضه بالقصة أن هذا الفدان يساوى عشرة آلاف هنداسة ، وأن الهنداسة جزء من ثلثمائة وستين جزء من ذلك الضلع المنسوب لمحيط الشمس .

وهل علم من يبيع أردب قمح أنه منسوب إلى الذراع البلدى ، الرجوع إلى ضلع الهرم ، المستمد من مدار الشمس ، سبحان الله ، وأن الشمس وما فوقها إلى ربك متنهاها ، هل علم الناس أن الذراع البلدى اشتق كما اشتق السكيل والوزن وهما من الحساب ذى الاثنى عشر ، وأن المساحة من الهنداسة والذراع النبلى أولهما عشرى والثانى فيه ذوالاثني عشر ، وأن هذا كله راجع إلى مدار الشمس ، الناس في بلادنا لاهون لاعبون جهلوا الدين وجهلوا نظام المدن ، وعاشوا عالة على الذين حلوا من قبل في ديارنا ، وعلى الأمم حولنا ، جهلوا لأن هذا الأردب ، وهذا القنطار ، وهذا الفدان ، كل ذلك مقادير موزونة محسوبة منظومة راجعة لأبداع

الشمس ونظام سيرها ، كأن الندماء لما رأوا أن الناس غافلون ذكرهم بهذه الموازين الجبية البديعة في غدوهم ورواحهم وحسابهم ونيلهم ونهارهم لئلا يغفلوا عن ذكر ربهم ، وعن ذكر نظام مدنهم ، وعن نظام الفلك ، أليس هذا عجيبا ! إى وربى انه لحق ، إى وربى انه لحق ، لقد وضع صصة بن داهرا الحكيم الهندى الشطرنج ، ووضع غيره النرد ، وكان لتلك الأوضاع بهجة تذكر اللاعبين بسير الشمس والقمر والأيام وأعدادها والشهور وأدوارها ، ولكن أعجب من ذلك نظام قدماء المصريين الذين أبرزوا مكنون العلم في الأعمال اليومية لا الألعاب الصيانية فتأمل وتعجب ! وانظر كيف تعلم اليونانيون علم المصريين ، ودرسوا هرمهم وحكمتهم وميزانهم ورطلهم وقطارهم وأردبهم ، وعرفوا أن ذلك منسوب لضع الهرم المنسوب لداثرة الشمس ، وأن ذلك كله لم يتم إلا بعلم الحساب والهندسة والجبر العالى وأمثال ذلك فأوضحه أفلاطون في جمهوريته ، وقال : « لن يكون الانسان عدلا مطيعا لله قائما بأمره صادقا في حكمه حتى يبرع في الرياضيات ويتخلق بأخلاق الله » ثم قرأنا ذلك ونظرنا في القرآن فرأيناها أنزلت على النبي العربي بلاتعليم : « والسما رفعها ووضع الميزان ألا تظفوا في الميزان » .

أفليس هذا يكفيك أن توقن أن أمة الاسلام اليوم نائمة نوما عميقا ، جاهلة بما بين يديها وما خلفها ، وأن الله عز وجل أيقظ فريقا منها ليوقظوها من نوم الغفلة والجهالة والغرور ، وأن الحكمة الأفلاطونية الفيثاغورية كانت مصرية كانت بضاعتنا فردت إلينا ، وقد أوحى إلى نبينا بضمونها ، فهلا أعددا للأمر عذته ، ونهجننا منهج نبينا ﷺ وقد وافق شرعه شرع النبي - ادريس عليه السلام الذى علم قدماء المصريين وجاء وفاقه في (سورة الرحمن) « علم القرآن » انتهى ما أردته من رسالتى المسماة « النظرية العملية » كتب الساعة ٦ بعد عصر يوم السبت ١٠ أغسطس سنة ١٩١٨ م — [بالبالغة : مصر العامرة] وبهذا تم الكلام على اللطيفة الأولى في قوله تعالى : « ووضع الميزان » والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثانية في قوله تعالى : يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان

قد تقدم الكلام على اللؤلؤ في (سورة الفاتحة) وعلى المرجان في سور أخرى مفصلا ، ولكن لا بد من فصل قصير نزين به جيد تفسير هذه السورة فنقول :

من ذا الذى كان يظن أن تلك المرجانة التى تترين بها النساء فوق براقعهن ببلادنا المصرية فى القرى بحيث تراها صفا واحدا منظما على برقعها ، منتظما من أعلى إلى أسفل ، ويتبعه قطع من الذهب فيكون المرجان فى الأعلى والذهب فى الأسفل .

أقول : من ذا الذى كان يظن أن تلك المرجانة كانت صنع حيوان صغير جدا ، وأن تلك الحيوانات باجتماعها آلاف وآلاف كوتت مساكن ، وتلك المساكن أشبه بأغصان الأشجار ، ثم تتكامل اجتماعا ، وتتلاحق اتساعا ، وتمتد ذراعا وباعا ، وتنسع انفراجا فى البحر حتى تكون منها جزائر ، وتلك الجزائر أيضا تتكاثر وتتكاثر وعلى مدى الزمان ، تراها فى المحيط الهندى والمحيط الهادى (الباسفيكى) وكيف تراها على شكل الخاتم ، ووسطها فيه ماء لونه يخالف لون المحيط الذى هو أزرق ، وإذا اجتمعت جزائر كوتت حلقة أيضا ، وتعيش الحيوانات فى مأثها ساكنة مطمئنة آمنة عاديات الدهر وهيجان المحيط ، وترى شجر [الشكولاته] يكسوها وهو جميل بهيج ، ولورأت شجر المرجان لرأيت له فروع غبراء كظباء الصحراء ، أو صفراء برتقالية ، أو حراء قرنفلية ، أو زرقاء تتلاعب بها الأمواج ، والريح تعقب بأغصانها ، فانظر كيف تصبح هى أنفسها نفس الصخرات المسكونات للجزائر المرجانية ، وتكون منها جزيرة حجرية ، وقد يزيد إلى عشرة إلى مائة إلى

ألف إلى عشرة آلاف إلى مائة ألف جزيرة كجزائر المعروفة باسم [بلكايف] فهي مائة ألف جزيرة ، وكالجزائر المعروفة باسم [ملادييف] فهي ألف جزيرة كلها صخرية صخرية أصلها شجرات نابتات وليست بشجرات إنما هي مساكن بناها الحيوان المرجاني الدقيق الذي سخره الله مع ضعفه ليبنى الجزائر في البحر ويحفظها لتكون مسكن الحيوانات بعد ذلك وموطن الأشجار النافعة للإنسان والحيوان ، والجزيرة الواحدة من تلك الجزائر يبلغ محيطها فراسخ عديدة تنكسر أمواج المحيط على جوانبها لتاصع الميض « فببارك الله أحسن الخالقين » .

فصل في اللؤلؤ

وهل أناك نبأ ما عرفته أنا بعد ما رأيته فيها تقدم رأيت عجبا ذلك أن عادة علماء التفسير أن يقولوا إن اللؤلؤ والمرجان لا يخرجان إلا من البحر المالح مع أن الله يقول « منهما » وقد أولوه بماء عذب وتابعهم عليه ، فانظر كيف جاء العلم الحديث جازيا على نفس ظواهر القرآن ، إذ كشفوا أن اللؤلؤ يكون من الماء العذب ، فانظر ما يقوله الناس اليوم ، فقد جاء في مجلة « السياسة الأسبوعية » بتاريخ يوم السبت ٢٧ رمضان سنة ١٣٤٤ هجرية — ١٠ أبريل سنة ١٩٢٦ م تحت العنوان الآتي مانصه :

تكوين اللؤلؤ

يتكون اللؤلؤ في أنواع كثيرة من الحيوانات الصدفية ، والمحارية التي تعيش في الماء العذب ، أو في الماء المالح ، وكانت لآلي الماء العذب شهيرة عند الرومانيين ، وهي تستخرج حتى الآن من بعض جهات في أمريكا والصين وغيرها ، وأجل نوع من اللؤلؤ هو ما يتكون في الحيوانات الرخوة الصدفية التي تعيش في البحار الحارة ، والحيوان موجود داخل محاريتين منطبقتين على بعضهما ، ويوجد منها نحو الثلاثين نوعا ، وأهم هذه الأنواع ثلاثة :

أولا : مليجريتا مرجريتيفر : وهو الاسم العلمي ، وهو حيوان صدف كبير ، يصل قطره إلى قدر ثلاثين سنتيمترا ، ويصل ثقله إلى نحو عشرة الكيلوجرامات ، ويعيش في المحيط الهندي والبحر الأحمر ، وفي بحر الهند ، وسيلان ، وفي الأقيانوسية ، ويوجد اللؤلؤ فيه بنسبة أولوة في كل أربعة حيوانات .
ثانيا : مليجريتا وديانا : وهو حيوان صدف أصغر حجما من الأول لأن قطره يصل إلى اثني عشر سنتيمترا ، وثقله لا يزيد عادة عن مائتي جرام ، وهو يعيش في أغلب البحار الحارة ، وخصوصا في البحر الأحمر والخليج الفارسي .

ثالثا : مليجريتا امريكانا : وهو حيوان صدف صغير يعيش في البحار الغربية لشواطئ استراليا ، وهو يخالف النوعين السابقين في أنه يعيش في مكانه ملتصقا على الصخور بعضو خاص ، لهذا النوع من الأصداف عضو اسمه [البسوس] توجد هذه الأصداف على شكل جماعات عديدة الأفراد .

واللؤلؤ اللطيف الشكل الجليل الماء (كما يقولون) هو ما يسمى باللؤلؤ الحر ، أو الصافي ، وهو ذو القيمة التجارية الهائلة ، وهو ما يطلق عليه عادة اسم اللؤلؤ ، ولا يستخرج أغلبه الآن إلا من الحيوانات البحرية التي سبق ذكرها . وأغلاها ما كان جيل الماء كروي الشكل ، أو مماثلا للكمثرى في شكلها ، وتختلف ألوانه فنه الأبيض ، وهو أكثر شيوعا بين الناس ، ومنه الرمادي ، والوردي ، والأخضر والأحمر والأصفر والأسود والأزرق ، واللؤلؤ الأسود نادر جدا وقيمه التجارية كبيرة .

وهناك نوع من اللؤلؤ الحر ذو لوان ذهبي جميل ، يفضل بعض الغاوين على غيره ، وما يجعل للؤلؤ هذه

القيمة الاقتصادية المعروفة هو لمعانه وماؤه ولونه ، و بمرور الزمن وكثرة الاحتكاك في استعماله وتأثير العرق (وهو سبب غير أكيد) يذهب المعان والماء ، إذ يبيخر كمية من الماء الذي يكون ضمن المواد المكونة لهذا اللؤلؤ فيقول إذ ذاك العارفون : أن اللؤلؤ مات ، وهناك أنواع من اللؤلؤ تموت قبل غيرها بمدة طويلة أو قصيرة رغمًا من وجودها في نفس الظروف المفروض أنها هي سبب الموت ، وهذا الاختلاف يرجع إلى مساهم الاستاذ [دوبوا] ضعف اللؤلؤ أوقوته ، ففي نظر هذا العالم هنالك أمرجة مختلفة في اللؤلؤ تجعل بعضه يتحمل المؤثرات الخارجية ، والبعض الآخر لا يتحملها فيموت البعض قبل البعض الآخر .

وموت اللؤلؤ هو السبب في أن أغلب الآلى المصاغ المحفوظ في المتاحف ذهب ماؤها ، وأندثر لمعانها . واللؤلؤ السكرى أو القريب منه هو أغلاء ، وهناك أنواع من اللؤلؤ نصف كروية تسمى بأنصاف الآلى وهي أقل قيمة من الأولى ، وتستهمل في أنواع المصاغ الذي لا يرى فيه إلا أنصاف الآلى كرموس الدبابيس وما شابه ذلك . انتهى ماجاء في المجلة المذكورة ، وبهذا تم الكلام عن المظيفة الثانية بالحمد لله رب العالمين .

جوهرة في قوله تعالى : يرسل عليكم شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران

تأمل في هذه الآية من [وجهين : الأول] انه عبر عنها بشواظ من نار وفيها تقدم بقوله : « من نار » من نار » والشواظ والمارج كلاهما اللهب الخالص ، فلماذا جعل الجان مخلوقا من نار ولم يقل من شواظ ؟ فاعلم أن المارج فيه معنى الاضطراب كما تقدم ، وقد أثبت ذلك هناك ، وهذا الاضطراب يفيد اضطراب الروح كما تقدم في علم الأرواح ، وأيضا اختلاط الألوان الآن معروف في التحليل فهو من هذا القبيل ، وإنما أعدت الكلام فيه لورود هذا اللفظ هناك ولم يرد هنا ، فإن ذكره هناك لهذا الغرض ، وهذه الفكرة لم تعلم قط إلا في زماننا هذا فان تحليل الضوء والعلم بأنه مختلط ، والاطلاع على عالم الأرواح الناقصة وانها مضطربة لم يكن إلا في زماننا ، وهذا من أعاجيب القرآن التي لا تدرك إلا بقراءة العلوم ، وليس يعقلها الناس بفن البلاغة المعروف ، فلا أصحاب المعلقات يدركونها ، ولا الذين بعدهم يعلمونها ، فهل لمثل امرئ القيس ، أو لآبي العلاء أو المنفي أن يتناولوا هذه المعاني في أقوالهم ؟ كلا . فهذه بلاغة لا تخاطر بباطلهم ، وأنى لهم علم الروح حتى يخصصوها بلفظ مارج ، وعند انزال العذاب يذكر الشواظ [الوجه الثاني] أن الشواظ والنحاس الواردان في الآية لهما نظائر في أحوالنا الانسانية اليوم كما تقدم ، ولكنني أريد أن أزيدها أيضا :

- (١) الناس محبوسون في شهواتهم كشرب الدخان ، والخمر ، والكوكابين .
- (٢) في أنواع من الطعام .
- (٣) في أنواع من اللباس .
- (٤) في أنواع من الزينة .
- (٥) في أنواع من العادة .
- (٦) في أوطانهم .
- (٧) في ديارهم .
- (٨) في أرضهم لا يخرجون عنها إلى المريح .
- (٩) وكل محبوب عند نفوسنا اذا فارقتنا أحسنا بالآلام للفراق فنحن للوطن ، ولبن نعشقهم ، ونحزن لفراق المألوفات من مال وولد وملك وجاه وما أشبه ذلك ، ولا فراق إلا يصحبه حزن ، والحزن يعبر عنه الناس بالنار ، يحسون بها في باطنهم وقد يتعدى الباطن فيورث الحزن ، السهر فيقول شاعرهم

منحسرا

يا ليل مالك آخر * يرجى ولا تشوق آخر

يهنيك بدرك حاضر * ياليت بدري كان حاضر

حتى يبين لناظري * من منهما زاه وزاهر

والأشعار كثيرة نبع فيها أسلافا ، وكلها تصف الأشجان والعراق ونار البعد والحسرة والتوجع ، فهذه الآية وإن كانت في أمر الآخرة فهي من جوامع الكلم شملت أحوال الناس من حيث طبائعهم في الدنيا والآخرة ، لأن « من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا » ومثل هذه المعاني لن يتصورها الشعراء قديما وحديثا . انتهى تفسير القسم الثاني من السورة .

القسم الثالث في عجائب عالم الآخرة

قال تعالى (فإذا انشفت السماء فكانت وردة) أى حواء فهي كلون الورد الأحمر (كالدهان) أى مذابة كالدهان ، وهو اسم لما يدهن به بوزن الحزام أوجع دهن (فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيومئذ) أى فيوم تنشق السماء (لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان) لأنهم يعرفون بسيماهم ، وذلك حينما يخرجون من قبورهم ويحشرون إلى الموقف وبعد ذلك يسألون (فبأى آلاء ربكما تكذبان ، يعرف المجرمون بسيماهم) هناك ، ولقد عثر النوع الانساني مع قلة علمه على قليل من ذلك فاتفق به في حصر المجرمين وإدلالهم ، فهاهي ذه حكومتنا المصرية قد جعلت إدارة خاصة لعلامات المشبه فيهم ، وذلك أن لكل امرئ خطوطا خاصة في إسمائه لاتشابه خطوط غيره ، ولا يحصل التباس ، فحي أخذوا صورتها على الورقة لم يقل ذلك المجرم ، إذ يعرفونه بتلك العلامة التي لا يشاركه فيها سواه في الشرق ولا في الغرب ، وهذا أيضا في أوروبا وجميع العالم الانساني (١) وهناك بعض العرب في البادية يعرفون الانسان بأثره ويرثها الابن وراثته طبيعية ، وذلك مشهور في طوائف قليلة من الناس وهو من خاصيتهم ، وإذا كان هذا في الدنيا فما بالك بيوم القيامة عند من يعلم الغيب . والحاصل أن لكل امرئ أحوالا تخصه في جسمه ، وفي عقله وأخلاقه يعرف الناس قليلة الآن ، وبقية عامه عند الله يعلمه للملائكة وهم يعرفونهم بسيماهم (فيؤخذ بالنواصي والأقدام) مجموعا أويؤخذون بالنواصي تارة والأقدام أخرى (فبأى آلاء ربكما تكذبان ، هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون ، يطوفون بينها وبين النار يحرقون بها) وبين جهنم ماء حار (آن) ماء حار قد انتهى حره ، فهم يسعون بين الحميم وبين الحميم ، فإذا استعانوا من النار جعل عذابهم الحميم الآتي الذي صار كالهل ، والمهل هو دردى الزيت : أى عكره (فبأى آلاء ربكما تكذبان) والنعيم في هذا نجاة الداجي منه بفضل ورحته وأن في الانذار به تنبيه وإيقاظا (ولن خاف مقام ربه جنتان) أى قيام ربه عليه يعنى اطلاعه عليه ، فإذا هم بمعصية ذكر الله وأنه مطلع عليه فتركها من مخافة الله ، فمثل هذا يراقب الله في السر والعلانية ، فيفعل الخير للناس بحوارحه ، ويحب لهم الخير بقلبه ، ويزداد علما بلاء قلبه ، فمثل هذا ينال جنتين : جنة روحانية لقلبه ، وجنة جسمانية على شاكله ماعمل في الدنيا ، فهو في جنات ونعيم ، وقلبه مطلع على جمال الملكوت ناظر لربه ، أو يكون أولا في الجنات الحسية ، ثم تلتطف روحه شيئا فشيئا ، وكلما خلعت عاداتها الغليظة لطف ولا تزال تالطف وهي في الجنات الحسية ، ونور علمها يزداد بالجنة الروحية ، وهكذا يستمر ازدياد المعنويات وقص الحسيات حتى تخلص الروح من العوالم كلها وتكون إلى ربها ناظرة ، وهذا هو غاية المراد .

(١) قد تقدم الكلام على هذا المقام موضعا بالصور والأشكال في هذا التفسير عند آية : « حتى إذا جاءوا لها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون » في سورة فصلت في المجلد التاسع عشر

وهذا التقرير قد رأيت بعض ما يشير إليه في كلام يحيى الدين بن عربي ، إذ قال : « إن الروحية يكون لها سلطان على الجسمية » وهذا بعض ما قلناه ونقلناه أيضا عن علماء الأرواح في العصر الحاضر ، وقوله (فبأى آلاء ربك تكذبان ، ذواتا أفنان) أى أغصان جمع فتن وهو الغصنة التى تشعب من فروع الشجر ، ولا جرم أن الفتن هو الذى يورق ويثمر ويعد الظن ، لذلك خصه بالذكر (فبأى آلاء ربك تكذبان ، فهما عينان تجريان) حيث يشاءون فى العلى وفى الأسافل (فبأى آلاء ربك تكذبان ، فهما من كل فاكهة زوجان) أى صنفان ونوعان . وروى أن فاكهة الدنيا كلها لها نظير فى الجنة ، وهذا المقام له تحقيق صريح فى [سورة البقرة] فى أولها (فبأى آلاء ربك تكذبان ، متكئين على فرش بطائنها من إستبرق) الفرش جمع فراش ، والبطائن جمع بطانة ، والاستبرق ديباج ثخين ، ومتكئين حال من الخائفين ، لأن من خاف فى معنى الجمع (وجنى الجنتين) ثمرهما (دان) يناله القم والقاعد والمضطجع (فبأى آلاء ربك تكذبان ، فهن قاصرات الطرف) أى فى الجنان [المدلول عليها بالجنتين لكل خائف وبتعدد الخائف يتكاثر عدد الجنان] نساء قصرن أبصارهن على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم (لم يطمئنن أن من قبلهن ولا جان) الطمئ الجماع بالندمية : أى لا يطمئن الانسيات انسى ، ولا يطمئن الجنيات جنى (فبأى آلاء ربك تكذبان ، كأنهن الياقوت) صفاء (والرجان) فى حررة الوجنة ، وأما ألوانهن يابض مشرب بحمرة ، فلبياض كاللؤلؤ ، والحمر كالرجان ، فتعاشق اللونين يحدث منظرا جليلا ، وهو أحسن الألوان (فبأى آلاء ربك تكذبان ، هل جزاء الإحسان) فى العمل (إلا الإحسان) فى الثواب وهو الجنة (فبأى آلاء ربك تكذبان ، ومن دونهن جنان) أى ومن دون تينك الجنتين الموعودتين للمخائفين جنتان لمن دونهم من أصحاب اليمين (فبأى آلاء ربك تكذبان ، مدهاتتان) خضراوان تضرران إلى السواد من شدة الخضرة ، فينبت فى هاتين الجنتين النبات والرياحين القرية من وجه الأرض أو المنبسطة عليها ، وأما أولئك فلم أشجار فيها فواكه وفرق بين المقامين (فبأى آلاء ربك تكذبان ، فهما عينان نضاختان) فوارتان بالماء ، ووصف الأوليين أجل (فبأى آلاء ربك تكذبان ، فهما فاكهة ونخل ورمان) من عطف الخاص على العام فضلهما لتفضلهما ، وأيضا الرمان فاكهة ودواء ، وثمر النخل فاكهة وطعام فليسا خالصين لتفكه ، ولذلك قال أبو حنيفة رضى الله عنه : « إذا حلف لا يأكل الفاكهة فأكل رطباً أو رماناً لم يحنث » وخالفه أصحابه (فبأى آلاء ربك تكذبان)

واعلم أن الفاكهة إما عطرية كالنخاع ، وإما مائية كالبطيخ ، وإما حضية كالليمون ، وإما زيتية كالزيتون وإما سكرية كالتمر ، وإما غير ذلك كثمر التوت ، وقوله تعالى (فهن خيرات حسان) أى خيرات [بتشديد الياء] فهن أقل من السابقات لأن هؤلاء لسن أخير ، لأن خير بمعنى أخير لا يجمع ، وحسنهن فى الخلق والخلق (فبأى آلاء ربك تكذبان ، حور مقصورات فى الخيام) أى قصرن فى خدورهن ، والمرأة القصيرة والقصورة والمقصورة المخدرة (فبأى آلاء ربك تكذبان ، لم يطمئنن أن من قبلهن ولا جان ، فبأى آلاء ربك تكذبان ، متكئين على رفرف خضر) الرفرف الخضر الوسائد الخضر جمع رفرفة (وعبقري حسان) العبقري مفسوب إلى عبقري يزعم العرب أنه اسم بلد الجن فينسبون إليه كل شئ عجيب ، وهو جنس يدخل فيه كل أمر غريب كالديباج الجليل والطنافس وغيرها .

ثم اعلم أن العبقري أيضا كل جليل نفيس فاخر من الرجال وغيرهم فهو أعم مما هنا . قل صلى الله عليه وسلم فى عمر « فلم أر عبقرىا يعقري فريه » ووصف العبقري بالحسان لجملة على المعنى (فبأى آلاء ربك تكذبان تبارك اسم ربك) تعالى اسمه ، وإذا كان الاسم يتعالى فبالك بذاته تعالى ١ (ذى الجلال والإكرام) ذى العظمة والنعمة لأوليائه وغيرهم فيعطى كلاما هو أهله .

عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا سلم من الصلاة لم يقعد إلا مقدار ما يقول « اللهم أنت السلام ، ومنك السلام ، تباركت يا ذا الجلال والإكرام » أخرجه أبو داود والنسائي غير قولها « لم يقعد إلا مقدار ما يقول » .

وروى مسلم عن ثوبان قال : كان صلى الله عليه وسلم اذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثا وقال اللهم أنت السلام إلى يا ذا الجلال والإكرام .

لطفية في قوله تعالى : كل من عليها فإن ، وقوله : تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام لما ذكر الله نعم الدنيا ختمها بفنائها ، وأن الباقي هو الله ، ولما ذكر نعم الآخرة ختمها بأن الله ذو العظمة والآنعام على العباد وجميع المخلوقات ، وتكون نتيجة السورة هكذا : الدنيا كلها نعم ولا يبق سوى المنعم ، والآخرة كلها نعم للخائفين ومن دونهم ، والله هو مستحق للتسبيح والتعظيم : فهو ذو الجلال ، ومستحق للحمد على النعم لأنه ذو الإكرام ، فتكون النتيجة أن هذه الدنيا وما بعدها نتيجتهما العلم ، لأن الحمد لا يكون إلا على العلم بالحمود عليه ، وبالاختصار أعظم نعم في الجنة العلم ، وقد روى له بالإكرام ، إذ لا أعرف إكرام الله إلا اذا درست نعمه ، ومن أعطى انسانا نعمة فوجده يجهل قيمتها لا يعود انعامه عليه ثانيا ، ولما نعرف نعم ربنا فنشكرها إلا اذا درسناها في هذه الدنيا ، فانظر إلى أول السورة كيف بدت بالرجة والعلم والتعليم ، وختمت بما يشير إلى الحمد ، وما بينهما راجع طمأ ، فالشمس والقمر والشجر والميزان العام في السموات والأرض ، وبقية النعم المتقدمة لا تعرف إلا بدراستها ، وهذه الدراسة يمكننا أن نشكر الله بأقلب بحيث نخلص لله وللناس ، وباللسان بالشاء على الله بالحمد ، وبالأفعال بحيث نحسن ونصرف بالخير بأيدينا .

إن [سورة الرحمن] نزلت إيقاظا للمسلمين أن يكونوا مفكرين حتى يدرسوا النعم واذن يكونون حامدين لربهم الذي أكرمهم ، والسورة فيها تعرض بأن من جهل النعمة كأنه كذبها ، وفي هذا ما هو كالإنذار لمن جهلوا هذه النعم ، والمسلمون اليوم أقل الأمم علما بعلوم الكائنات ، وقد آن أن يرجع لهم مجددهم ويعرفوا نعم ربهم ، ويسابقوا لنيل الخيرات ، والحمد لله رب العالمين اهـ

اللطائف العامة في هذه السورة ^(١)

اللطيفة الأولى في قوله تعالى : « ووضعت الميزان » مع قوله : مرج البحرين يلتقيان الخ

اللطيفة الثانية في عجائب الحساب في سورة الرحمن

اللطيفة الثالثة في قوله تعالى : يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان .

اللطيفة الأولى في قوله تعالى : ووضعت الميزان ألا تطغوا في الميزان

مع قوله : مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان

لك الحمد اللهم على نعمة العلم وبهجة الحكمة ، أنت معلم العالمين ، ومعلم الصالحين ، ومرسل الأنبياء

(١) يقول المؤلف : هذه اللطائف لم يكن لها وجود عند التأليف ، ولم يفتح الله بها إلا عند تقديم هذه

السورة للعلم .

والمرسلين ، تباركت وتعاليت ، قد هديتنا وعلمتنا وأعنتنا على إبراز ما وقر في النفس من نعمة العلم والحكمة أنت الرحمن الرحيم ، وبرجتك أذعت العلم بين الأمم ، وأنزلت القرآن ، وأبدعت في خلق الانسان ، ورييته وعلمته البيان ، فعم خواصه علما يقينا أن الكواكب كلها بحساب ، ودرسوا أنواع النبات فألفوها ذات بهجة ونظام ، ودرسوا العلويات فألفوها حسنة القوام ، جميلة الابداع ، رفيعة المقام ، مشرقة مبهجة منعنة مسعدة للأنام ، ورأوا كل مخلوق متزنا بيزان لا نقص فيه ولا خلل ولا زيادة في الميزان ، وبهذا الميزان حفظت الكواكب في مداراتها ، والسيارات في أبراجها ، والحيوانات في مسارحها ، وأزهر النبات ، وأثمر الشجر ، وسعد بالحياة نوع الانسان .

هذه هي الآلاء والنعم الكبريات ، ولما أفضت على من نعمك العلمية وأردت أن أشرح الميزان ألفت المقام منسعا ، والمجال فسيحا ، بل هو بحر لجي لا يعرف مدها ، ولا يدري منتهاه ، ولقد تذكرت اليوم ما اتفق لي في زمان الشباب إذ كنت أفكر في نظام السموات والأرض ، فقرأت للامام الغزالي جملة هذا معناها : « لا يعرف الميزان إلا من درس جميع العلوم » فطار إذ ذاك لي وحار ففكرى ، وأخذت أنشد المعارف ، وأبحث في كل تليد وطارف ، وأسأل كل عارف وغير عارف ، ودرست ما قدر لي ، ثم ألفت كتاب [جواهر العلوم] وأتبعته بكتاب [ميزان الجواهر] تذكرة بما قاله الامام الغزالي رحمه الله تعالى ، وهل كان بدور بخلدى أو يخطر ببالي أن أعيش حتى هذا الزمان ، وأن أؤيد بروح منك فأفسر القرآن ، وأصل إلى سورة الرحمن كما هي الحال الآن فأفسر آية : « ووضع الميزان ألا تطغوا في الميزان » .

هذا لم يكن ليخطر لي ببال ، ولم تكن نفسي تنسب إلى ذلك المقام ، وفي هذا المقام أنشد قول القائل :
 وإذا العناية ساعدتك عيونها * نم فالخواف كلهم أمان
 واصطد بها العناء فهي حائل * واقصد بها الجوزاء فهي عنان

فاذا كنت موقنا أن العناية ساعدتني في التفسير عامة ، فبالعناية الإلهية أبتدى في تفسير هذه الآية التي يشمل معناها جميع ما تضمنه الوجود من النظام ، وأجتزئ بأن أذكر طرفا يسيرا من ذلك النظام :

- (١) فأبتدى بذكر حقائق الجاد بوصف بعض الأحجار الثمينة .
- (٢) ثم ألقى بالإشارة إلى نظام النبات .
- (٣) ثم أذكر بعض الحيوان الذي يعيش في البحر .
- (٤) ثم ألقى على آثاره بهجائب خلق الحيوان الذي يعيش في البحر صغيرا ، وفي البر كبرا ، وهو الضفادع التي يرى العاقل في نموها وتدرجها من الهجائب ما تحو له العقلاء سجدا من تلك المادة الهلامية التي تحيط بالبيض وتأخذ في رفعه كلما زاد نموه حتى تصل به إلى سطح الماء فيكون إذ ذاك قد فقس البيض ، فأما المادة الهلامية فانها تنحل بتدبير آخر وابداع عجيب .
- (٥) ثم ألقى بذكر بعض حيوان البر وأبتدى بالعنكبوت ، وأبين كيف يبتدى في نسجه وهيئة سيره فيه مما لم يتقدم له نظير حتى تعلم أيها الصديق أن تلك العناية التي أحاطت بأجسام الحيوان نفذت إلى إدراكه وغرائزه فأخذ ينظم أعماله كما نظمت هيئة جسمه وكأنه تلميذ تربي في معهد جسمه المنظم فأخذ ينسج على منواله .
- (٦) ثم أتبعه بذكر عجائب النحل وابداعه في عمله مما لم يسبق له نظير فيما مضى ، وكيف كان منه بنامون ونساجون ونجارون وغيرهم .

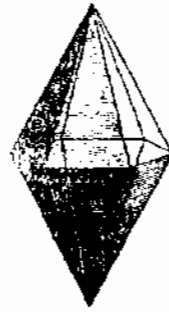
(٧) ثم أذكر ما يقرب منه وهو الزنبر، وكيف يغلف عشه بما يشبه الورق فيكون ذلك العلاف سببا
نصف صغاره داخل خلاياه التي بناها ونظمها .

(٨) ثم أختتم المقام بذكر النمل وعجائبه التي لم يسبق لها نظير مثل النجارين منه والبنائين الذين يبنون
أبراجا سترى بعضها قريبا . واليك تفصيل ما أجهناه :

فأولا أقف عند ما في الجداد من إبداع واتقان ونظام مثل [الزمرد] (انظر شكل ١) . ومثل
الياقوت الأزرق الباورى (انظر شكل ٢) . ومثل الزمرد الباورى المركب (انظر شكل ٣) . ومثل
أحد الأحجار الكريمة المخضرلونه المسمى بالمرجعية [برل] (انظر شكل ٤) . ومثل الحجر المسحى
[كوارتز] (انظر شكل ٥) وهالك أشكالها :



شكل ٣ زمرد باورى مركب

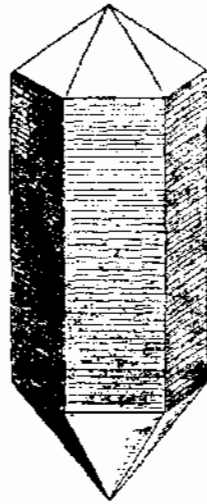


(شكل ٢)



(شكل ١)

الزمرد الباورى



(شكل ٤ - برل البلورى ذى الخطوط الطويلة) (شكل ٥ - كوارتز البلورى ذى الخطوط العرضية المقاطعة)

فهذه الأنواع الخمسة من الأحجار الثمينة نراها ونرى غيرها في الطبيعة على هيئة البلور مستدسة الأشكال
منظمة الأوضاع ، بهجة الألوان ، زينة للدنيا ونورا للعلماء المفكرين ، فهل أقف عند هذه وحدها نموذجاً
للإيمان المنسوب في الأرض والسماء ؟ كلا . بل أقف بذكر الميزان في النبات فأقول :

ثانياً : نرى الحكمة كجاست في الجداد ونظمته وأحكمته سرت فيما هو أرق منه وأبدع وهو النبات كما
تقدم في قوله تعالى في [سورة الحجر] : « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء
سوزون » . وفي هذا التفسير من وزن النبات ما يذهل الأبواب ، فبأي مقام أذكرك أيها الذكي ؟ :

(١) أبلذكور في سورة [ق] .

(ب) أم بالذكور في [سورة حم فصلت] .

(ج) أم بما قبل ذلك في [سورة يس] .

(د) أم بالذكور قبلها في [سورة فاطر والسجدة] من تلك الصور البديعة العجيبة ، والأشجار الموقدة البهجة الجميلة ، وأشكالها ، ونشر مج سوق الأشجار وانتظام حلقاتها بعدد سفيها من بدائع الحكيم المودعة في النبات ، وكيف كان للأشجار طبقة فوق قشرتها تمنع الماء في داخلها أن يبخر ، وتحتها طبقة أخرى تمتد منها شعرات تمنع شدة ضوء الشمس من طغيانها على النبات ، وربما ملئت بسائل حريف أو مر أو نحو ذلك مما يمنع الحيوان عن تعاطي ذلك النبات ، وهناك عجائب الطبقات الخشبية التي جعلت ناقلة الغذاء من الساق إلى فروع وأوراقه ، وعجائب اللحاء التي توصل العصارات التي اكتمل نضجها في الأوراق إلى بقية الأجزاء في النبات ، فلقد تقدم هذا هناك موضعا بصورة العجيبة ، ودروسه المنتظمة ، فقرأه على مكث .

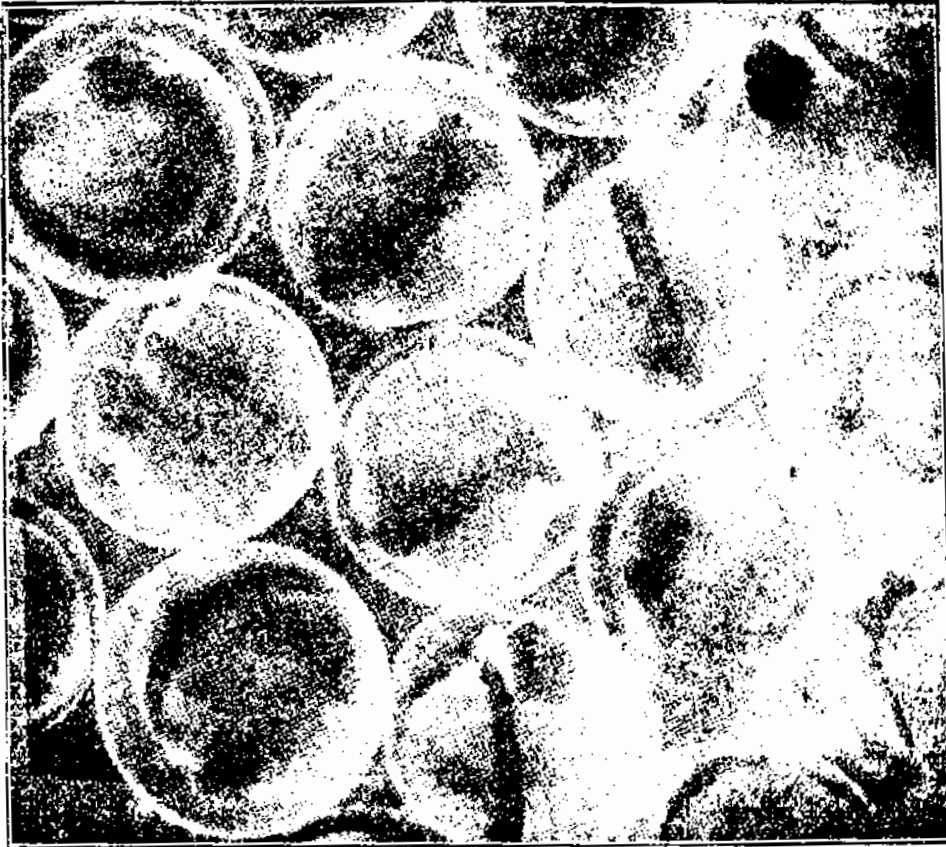
(هـ) أم بما ذكرناه في [سورة الحجر] عند آية : « وأنبتنا فيها من كل شيء موزون » وهناك ترى شجرات مرسومات منتظمة الدوائر الحاصلات من منابت الأوراق ، وفيها بدائع تذهل العقل ، وتبهج النفس ، فينبأ نحن نأكل التفاح ، ونفك به ، ونظن أن هذا هو المقصود منه في حياتنا ونفرح به ونقول الحمد لله ، إذا نحن نرى حياة جديدة ، ترى الأوراق التي لانابه لها قد جعلت كل خمس منها مشكلات لدائرة تامة ، بحيث يكون بين كل ورقتين ٧٢ درجة من ٣٦٠ درجة من الدائرة . وفي كل دائرة تامة شكلان حلزونيان ، ومن عجب أن الورقة الأولى من الدائرة الأولى على خط مستقيم مع الورقة الأولى من الدائرة التي فوقها ، وهكذا الورقة الثانية فيكون هناك فوق نظام الدوائر التامة والأشكال الحلزونية أمر آخر وهو الخطوط المستقيمة المنتظمة فيما بين الظلأ في الدوائر ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل أصبحت هناك نسبة بين تلك الأشكال الحلزونية ودوائرها مع كل الدوائر الأخرى في نباتات كثيرة وأشكالها الحلزونية ، حتى أنك ترى هناك سلسلة حسابية منتظمة تسرى في كل نبات . ولما كان هذا قد تقدم فلاحاجة لاعادته هنا ، وكفى ما ذكرناه تشويقا لمراجعته . هذا هو الميزان في النبات وهو المقام الثاني .

ثالثا : فلاخط خطوة فوق ما تقدم إلى حيوان البحر لأنه مقدم على حيوان البر مكتفيا بذكر سمكة

تسمى [بلامس] أو [بليس] بإمالة اللام فأقول :

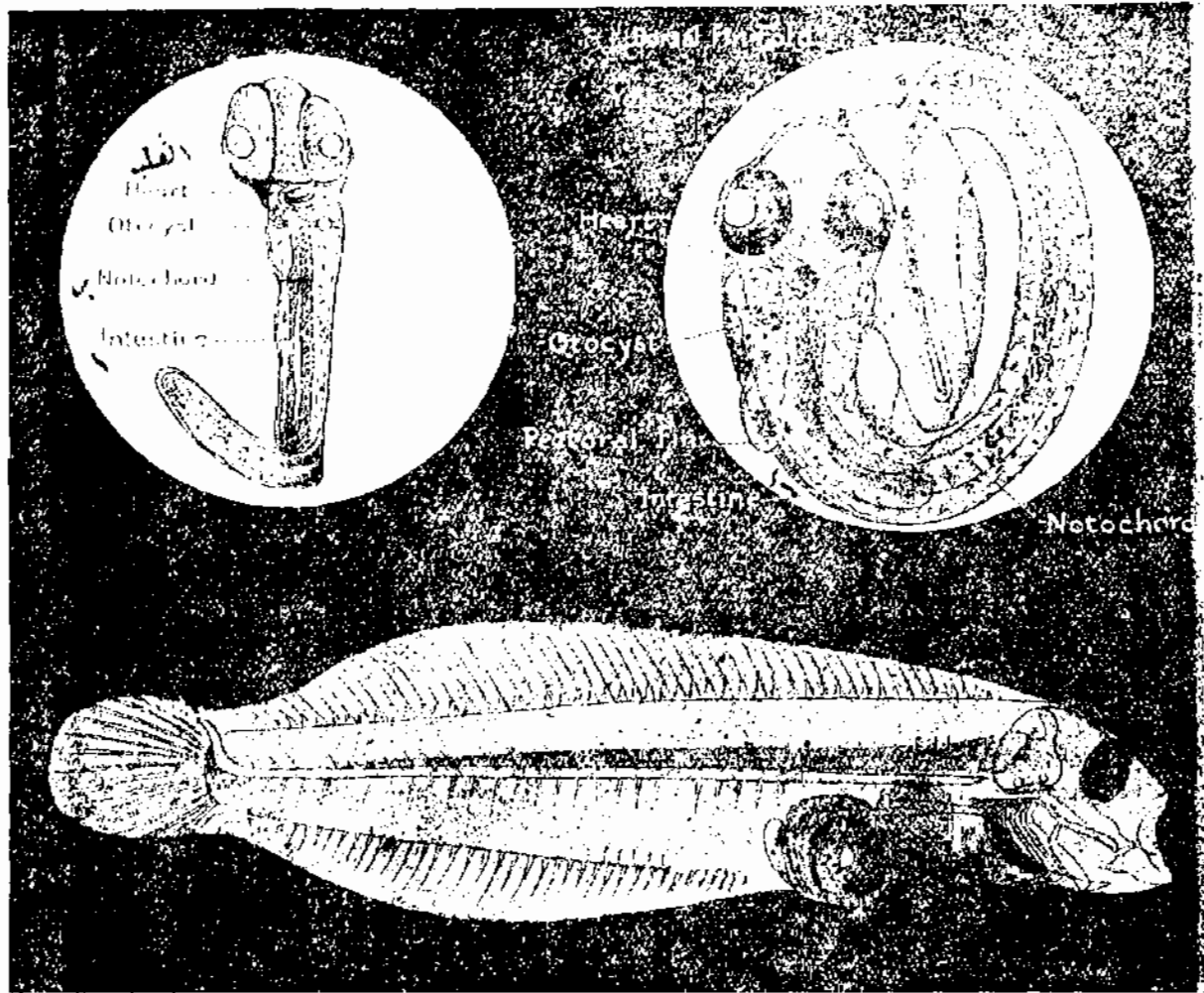
« إن هذا السمك الذي يشبه ما يسمى في بلاد مصرية [القنومة] والواحدة منه تضع نحو نصف مليون بيضة ، وكل بيضة يبلغ قطرها جزءا من ١٢ من البوصة ، وهذا البيض يكون عاتما قرب سطح الماء ، ونحو الجنين في البيض يمكن ملاحظة درجاته المختلفة في داخل البيض ، (انظر شكل ٦ في الصفحة التالية وشكل ٧ في صفحة ٣٥) .





(شکل ۶ - نمونہ سمک پلاس)



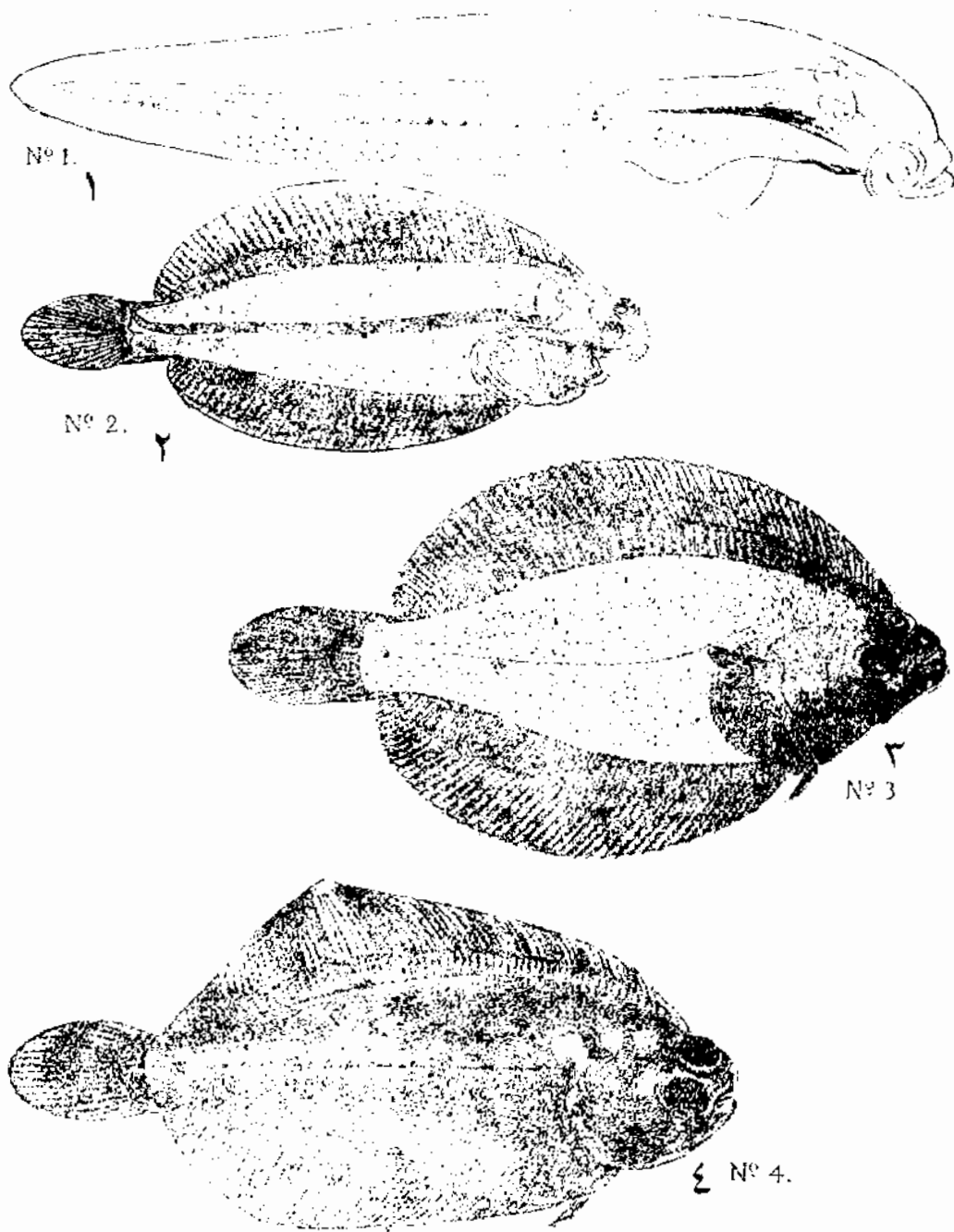


(شكل ٧)

نمو السمك بلاس

- (١) إن الصورة العليا اليسرى ترينا جنين السمكة في اليوم التاسع بعد الاقحاح ، والنقط الصغيرة عبارة عن حواصل ملونة ، والحجم الطبيعي أقل من جزء من ١٢ من البوصة .
- (٢) الصورة العليا اليمنى ترينا الجنين مستعداً للخروج من البيض بعد ١٧ يوماً بعد الاقحاح . الخلايا الملونة بالسواد أخذت الآن تظهر .
- (٣) والصورة السفلى ترينا السمكة الصغيرة نحو ثلاثة أخماس البوصة ، وهامى هذه أخذت الآن تأكل [المح] (مفار البيض) وقد انتهت جميعه . ثم انظر شكل ٨ في الصفحة التالية .





(شكل ٨)

- (١) هامى السمكة الصغيرة تامة مع التوازن المممود فى السمك .
 (٢) ترينا تغيرا واضحا بنجاح . فالجسم أصبح الآن مسطحا من ناحية الى الأخرى ، والعين اليسرى صارت مدورة للجهة اليمنى مائلة نحو الجنب . وضوؤها الى الآن لا يصل الى نصف البوصة .
 (٣) سمكة « شابة » (وهو تعبير مجازى) وصلت الآن قاع النهر ، هى تستريح قارة وتقوم أخرى على جنبها الأيسر وقد صار طولها بوصة .
 (٤) سمكة شابة فى قاع البحر وحوصلاتها الملونة قد أخذت تنحو نحو الجانب الأيمن وهى لا تظهر من الجهة اليسرى نحو الجانب الذى هو فقى اللون . أما العينان فانهما جنبتا لجنب متجهان الى أعلى نحو الجانب . انتهى المام الثالث فى السمك .

رابعاً : هل أقف عند السمك في الميزان ؟ كلا . بل هناك ما هو أجل منه وهو عالم الحيوان الذي هو أرقى منه ، ولقد مررت في سور كثيرة في البقرة والأنعام ، وسورة المؤمنين ، وسورة النور ، وسورة السجدة ، وفطر ، وسورة حم فصلت وغيرها ، وكنت أود أن أذكر هنا الحيوان الذي يعيش في البر وفي البحر كعالم الضفادع تديماً للأقسام ، ولكن يمنعني من ذلك أنه قد تقدم مفصلاً موضعاً بالصور في [سورة البقرة] في الطبعة الثانية فإنه هناك أوضح وأجل وأبدع مما كتب عنها في [سورة طه] .

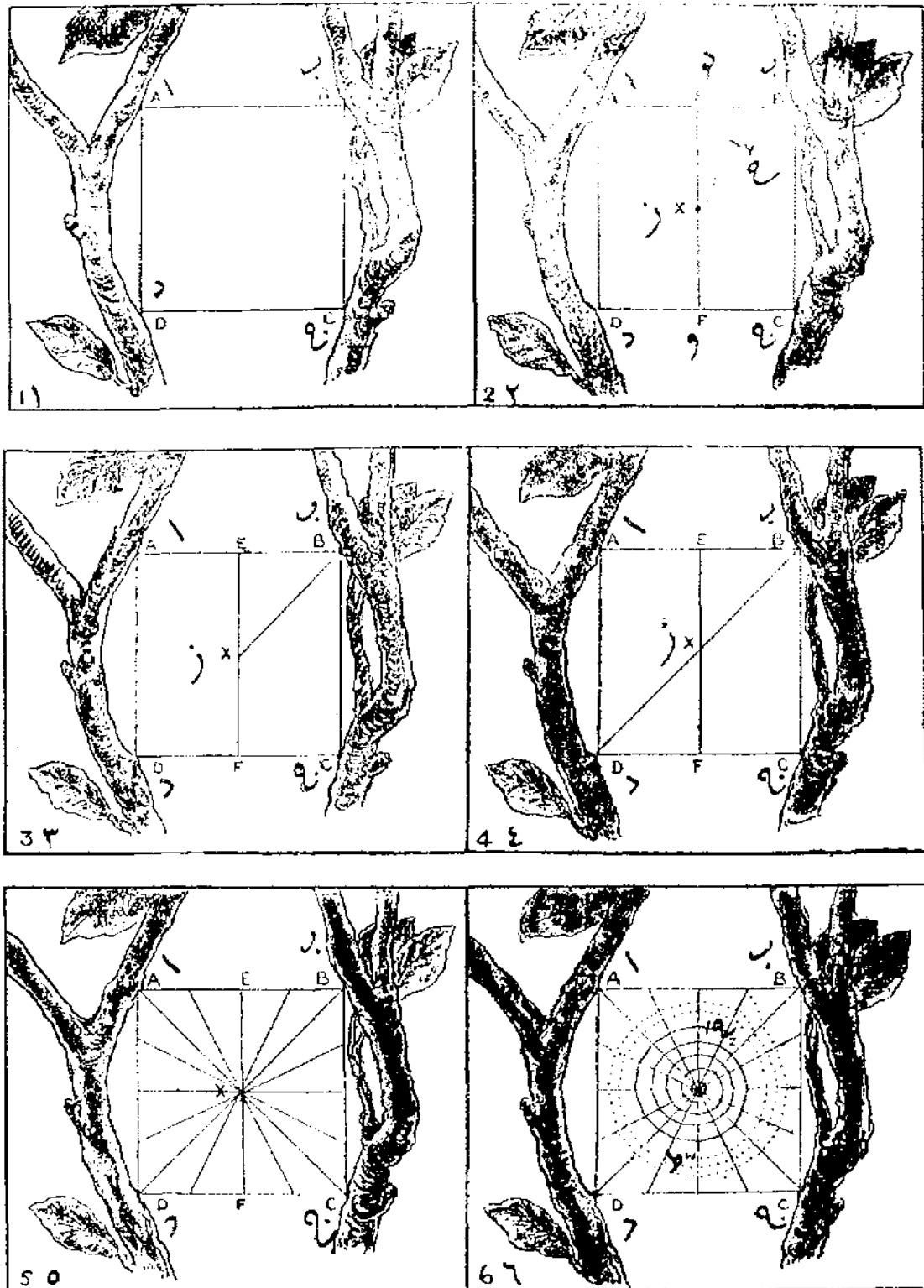
ألا ترى رعاك الله أن فيه نوعي الضفادع وكيفية نمو أجنحتها ، وحسن إبداعها ، واثنان صنعها ، وكيف يرى بيضها في الماء على هيئة الخطوط المتوازية ، ولقد فاتني هناك أن أذكر أن الذي حينني في شرحها أنني حينما نظرت ذلك الرسم خطرت لي خاطر كان يستحيل لي وأنا تلميذ بدار العلوم ، ذلك أننا كنا نتعلم فن الرسم وكنا نرسم خطوطاً منتظمة ، فكنت في أثناء الرسم أتفكر في [أمرين : أولهما] أنني في هذا العمل أعتبر نفسي في طاعة لله تعالى ، وهذا كان شأني في جميع الأعمال [ثانيهما] أنني في هذا العمل كأني في عالم السموات الذي هو عالم منظم ، ورسم هذه الخطوط يذكرني به .

هذا هو الذي كان يدور بخلدني أيام الدراسة ، فلما رأيت رسوم الخطوط لبيض الضفادع المتوازية أذكرني ذلك فرسمتها وشرحتها ، والحمد لله رب العالمين .

والكني لا أقف في الميزان عند حدّ الحيوانات البرية والبحرية . كلا . بل أقف للكلام على العنكبوت وهي من الحيوانات التي لا تعيش في غمرة الماء ، وبهذا نبدأ الكلام على عجائب جديدة لم تكن من قبل وبيان أن ما تقدم في الأحجار الثمينة والنبات والسمك والضفادع ، أن كل ذلك إلا صنعة لم تر صانعها ، فأما هذه الصناعات التي تريد دراستها المبدوعة بصناعة العنكبوت (التي لم يسبق إيضاحها في سورته كما هنا) فإن أمرها عجب ! نعم عجب للحكيم ، أما الجهال فهم فريقان : فريق هم السواد الأعظم لا يعرفون من العنكبوت ، ولا من النحل ، ولا من الزناير ، ولا من النمل إلا ما يبس عواطفهم كراهة وحبا ، فيتبرمون من العنكبوت ، ويفرحون بالنحل ، ويخشون الزناير والنمل .

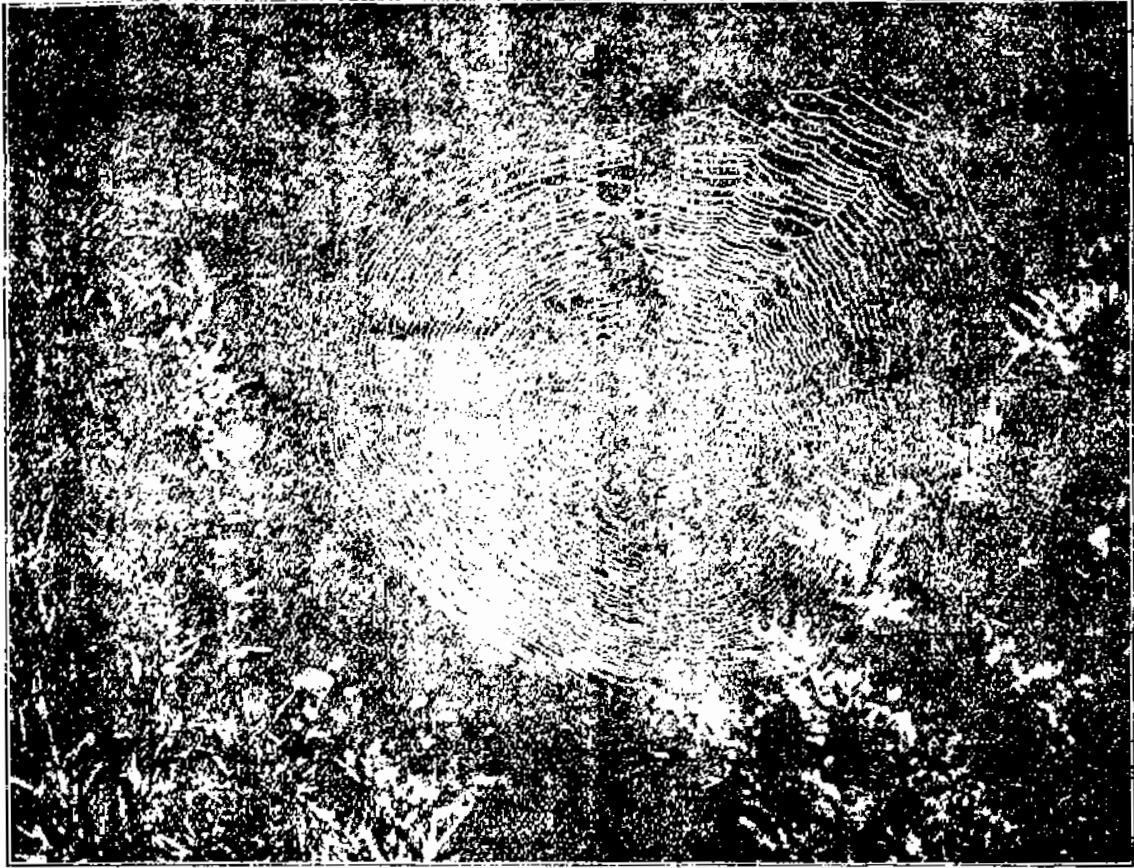
هذه آراء أغلب نوع الإنسان في أرضنا ، وبلحق بهم أكثر أولئك الذين يتعلمون في مدارس الشرق والغرب علم التاريخ الطبيعي ، فهؤلاء يقرءون هذه العلوم وأكثرهم لا يدرسه إلا كما يدرس علم النحو أو علم الزراعة كأن أرواحهم لا تعرف إلا الأمور المحسوسة ، أما التفكير والتذكر بل السعادة الحقيقية فإنها هاربة منهم ، بعيدة عنهم ، رحلت من عقولهم ، فهم لا يعقلون ولا يستعدون ، وفريق آخر وهم أقل هذا النوع الإنساني إذا درسوا أمثال ما سذكروه هنا فأنهم يدهشون ويقولون نعم رأينا الإبداع في الأحجار الثمينة البلورية وفي النبات وفي السمك وفي الضفادع ، لأن الذي صنع هذا هو صانع العالم فلا غرابة في ذلك ، إنما الأمر المدهش أن صانع نسيج العنكبوت هو نفس العنكبوت ، وصانع خلايا العسل إنما هو النحل ، ويقرب منه الزنبور ، وترى في النمل والنحل بنائين ونجارين ، وضباط وجيوشا ومربين .

فما هذا الحادث الجديد ؟ فهؤلاء يرون أن هذه العوالم ماهرة إلا كتلاميذ تربوا في بيت الحكيم وتحت رعايته فقلدوه ونحووا عمله ، وهل عمله إلا النظام المحكم ؟ مثلاً شكل ٩ وهو رسم بياني لنسيج العنكبوت (انظر الرسم الآتي في الصفحة التالية) :



(شكل ٩)

- (١) أربع خطوط أصلية (٢) أول خط رأسي (هـ و) . (ز) مركز (ح) كيفية صنع الخط الشعاعي .
 (٣) : (ز ب) خط شعاعي . (٤) : (ز د) خط شعاعي آخر .
 (٥) خطوط شعاعية صنعت أولاً في جانب ثم صنعت بعد ذلك في جانب آخر ، وليست هذه الخطوط كلها متساوية .
 فهنا أخذت العنكبوت تم نسيجها به تقاطع .
 (٦) الخط الاسود المائل في الأولى المثلث بعده فوق بسن ينتهي عند (ح) وأما الخط المائل في النقطة : أعني الخط الثاني المائل فإنه ينتهي عند (ط) .



(شكل ١٠ - نسيج عنكبوت الحدائق)



هذه صورة شمسية للنسيج عنكبوت
الحدائق تربنا الخط الأعلى الأساسي
للنسيج وهولج ، وهذا النسيج جالس
في الوسط ، وربما غادرت العنكبوت
ذلك المركز ، وحينئذ يحمل معه خطا
بسيطا به يقدر أن يبرأى ذبذبة تعرض
في النسيج فكأنها أشبه بألة التلغراف
(البرق) انتهى الكلام على القسم الخامس
سادسا : وهذا القسم ليس كافيا
لمعرفة الميزان ، فهنا نبدأ في الكلام
على النحل فنقول :

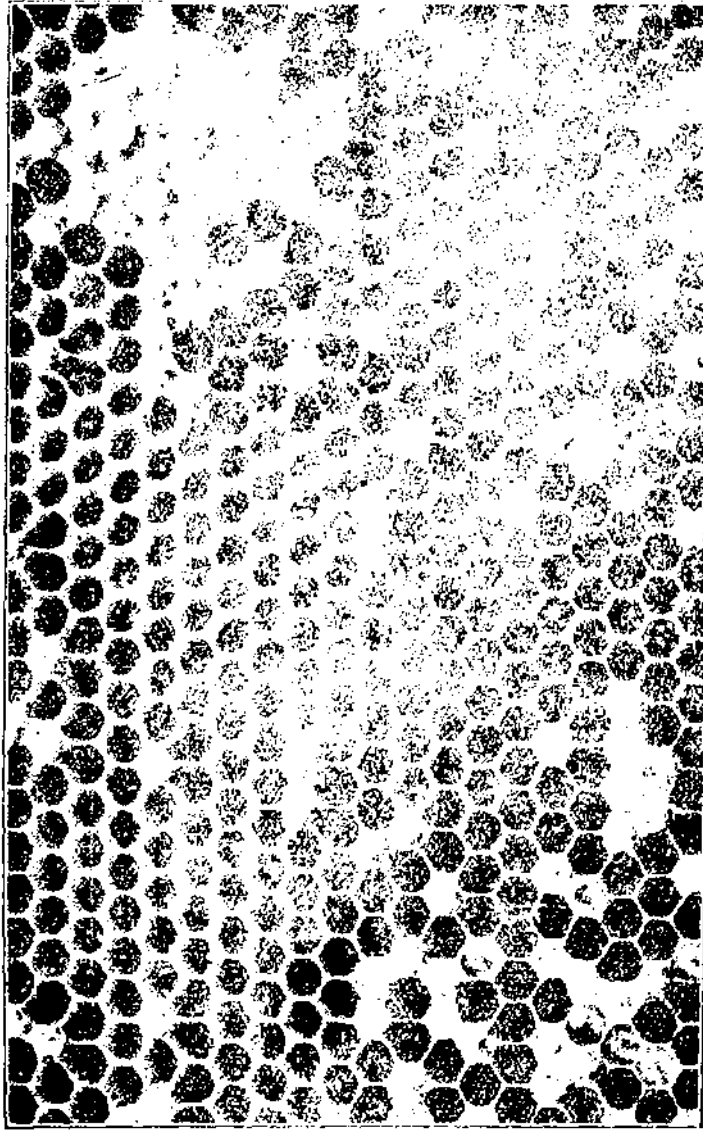
نبتدى بذكر نبات يسمى [سم النمل]
يشتار منه النحل العسل وهذه صورته

(انظر شكل ١١)

(شكل ١١ - نحل العسل حاملا حبات الطلع الصفراء من هذا النبات المسمى « سم النمل »)

هاعودا نحل العسل حاملا كرات الطلع الصفراء من هذا النبات المسمى [سم النمر] بالفرنجية وهو بالعربية [عابد الشمس] .

إن بعض الأزهار يجمع منها النحل ما يصير في بطنه عسلا ، وبعضها يجمع منه ما يصير غذاء للذرية الصغيرة ، وهي الدود في الخلايا ، وهناك أزهار تصلح لتحالين معاً ، ويوضح ذلك (شكل ١١) المتقدم .
ثم انظر شكل ١٢



(شكل ١٢)

قرص عرضي ، قرص النحل مع خلايا تحوي دود عاملات النحل
وهي التي تسمى عادة [الشغالة]





(شكل ١٣ - قرص عمل النحل يشتمل على ذكرك، العاملات والخلايا التي فيها العسل)

إن الخلايا التي تربي فيها العاملات من النحل هي الصفريات ، أما التي ينمو فيها الذكور فإنها أوسع ، وأما التي فيها الملكات فإنها أكثر اتساعاً ، وليس في قفيرة النحل ما يزيد على ست ملكات .
 إن الخلايا المخازنات العسل تساوى في حجمها الخلايا التي تربي فيها ذكور النحل ، هذه القطعة من قرص العسل موضوعة وضعا رأسياً عمودياً . ثم انظر شكل ١٤ في الصفحة التالية .



(شكل ١٤ - طائفة من النحل مزودة على شجر النفاح)





(شكل ١٥ - عسل النحل المجري)

في هذا العسل - قد زرع الغطاء الرقيق من فوقه ليظهر القرص وخلاياه ، وقد كبرت خليتان من أعلاهما الدودات الصغيرة السمينة البيضاء وهي ذرية النحل ، إن هذه النحل تعرف بنقطة جراء في انتهاء ذيل جسمها الاسود ، وهي لاتصنع عسلها أبدا إلا تحت الحجر . ثم انظر شكل ١٦ وهاء صورته :



(شكل ١٦ - هذا عسل للنحلة المفردة وحدها في هيكل فوقية المدايق)

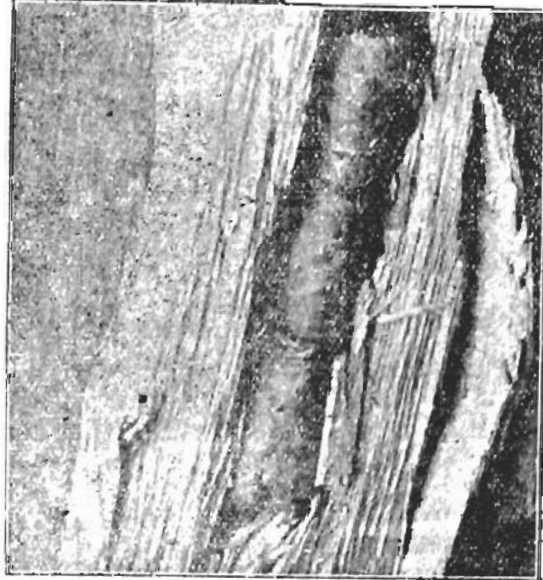


ترى في الشكل المتقدم (شكل ١٦) نوع النحل الذي يعيش في عزلة منفردا عن غيره ، وإن يعيش إلا في مكان مجوف ، والقوقعة الوسطى تريك نحلة حديثة الولادة قد خرجت حالا من شرنقتها ، والصورة اليمنى عبارة عن قوقعة قد كسرت فظهرت فيها الدودة الصغيرة التي تنقلب فيها بعد ذلك شرنقة ، وفي كل قوقعة دودتان دائما إحداهما ذكر والثانية أنثى .

(الغليا) النحل المستقل بنفسه قطاع الورق الذي حجمه بقدر حجم نحل القفير . قطع الورقة ليتخذ منها بهذا القطع خلية انظر النحلة تعمل . وترى في الجزء الأعلى الأيمن من الورقة فجوتين مقوستين مرتبتين منظمتين ، وقد قطع منهما أجزاء من الورقة . والنحلة تراها في إحدى الفجوتين وقد خفيت تحت جسمها



(شكل ١٧)



(الوسطى) وهنا النحلة تحمل قطعة من ورقة الورد للخلية ثم الخلايا مركبات من قطع من الورق مقوسة على بعضها . والاعطية مصنوعة من القطع الصغيرة .

الخلايا تامة

(الغلي) الاعشاش مصنوعة في التجاويف والخلايا مرتبة منظمة . آخر كل خلية متصل بالآخر الاخرى يظهر من الشكل . انها لغتبطة بما صنعت . ان كل خلية مملوءة الى نصفها بالاقاح وتحتوى على بيضة مفردة . ثم انظر شكل ١٨ في الصفحة التالية .



(شكل ١٨ - النحل الثاقب في شتبه متعلقاً بفكيه في حالة سكون)
 هذا النحل ثاقب الخشب أو النحل الثعالب يعض فصل الشتاء في حالة حياة ، ووقفة لأعمال له اللهم الا انه عادة يبحث عن
 زاوية ليتخذها مأوى . ثم انظر الشكل الآتي في الصفحة التالية .



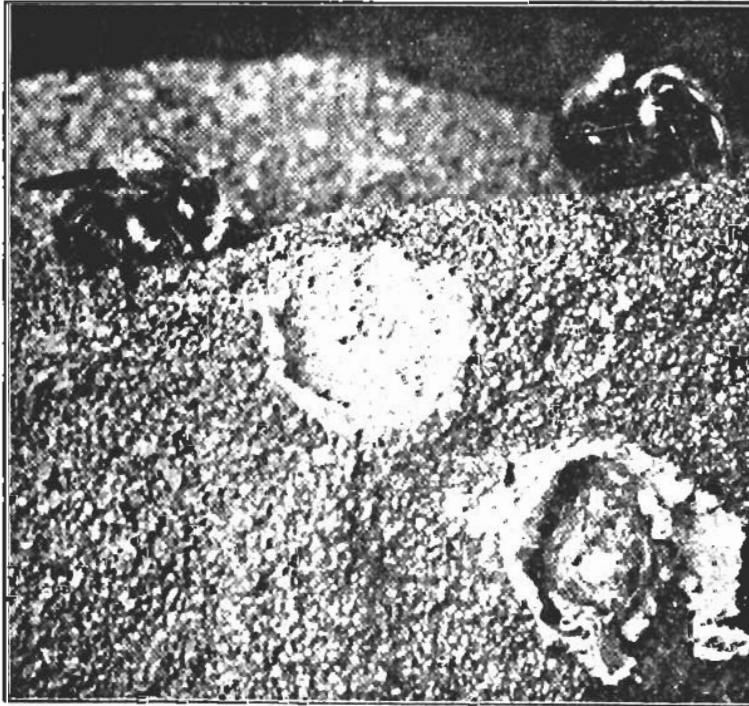
(شكل ١٩ - خلايا النحل بالقرب الخشب)

هذه الخلايا العريضة التي صنعها النحلة القوية المتينة مصنوعة من قطع خشبية قد
انقسمت وانتظمت بواسطة اللعاب الذي يفعل فعل الغراء . ثم انظر شكل ٢٠ الآتي في
الصفحة التالية .



(شكل ٢٠ - النحل الثاقب للخشب وهو خارج من خليته)
 هذه الخلايا التي يجمو فيها جنسين النحلة تكون عادة في أروقة مستطيلة به ريش أساسي مثقوب في الخشب ، وهذه التي ترى في أسفل الصورة مفصولة من مركزها الطبيعي والنحل النجار (كما يسمى عادة) أدكن اللون ذو شعر وهو معزل مستقل له قوة عضلية ، وهو بها قوى متين . ثم انظر شكل ٢١ وهذه صورته

هذا الشكل أبان



خليتين وخليتين ، النحل
 البناء المستقل المنفرد قد
 صنع عشا في غاية المتانة
 والقوة من الأرض مخلوطا
 بسائل من ريقه ، وهذا
 الريق يستعمل للصق
 الحبيبات المصطفيات
 بحذق ومهارة ناتنتين ،
 إن الخلايا حينئذ مملوءات
 إلى أنصافهن بنوعين مما
 جنته النحلة وهما الطلع
 والعسل ، وبعد أن توضع
 البيضة تقفل الخلية بمادة
 الأسمنت . انتهى الكلام
 على النحل .

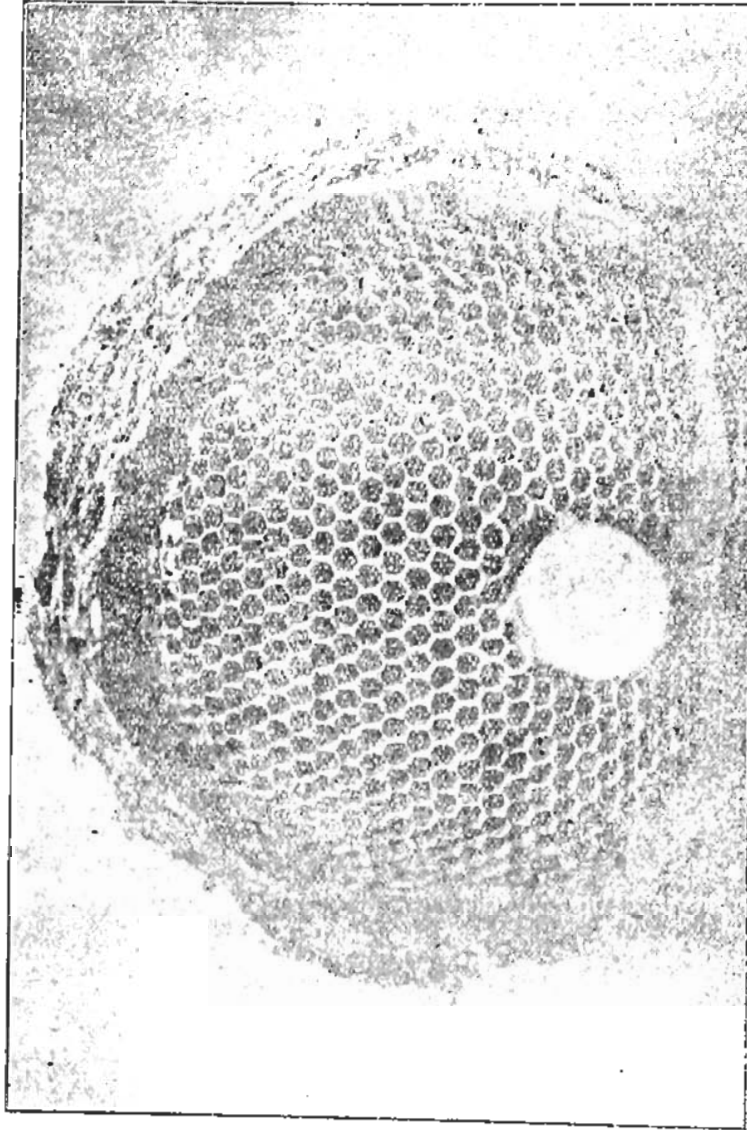


(شكل ٢٢ - عش زنبار الحشب)

إن عش هذا الزنبور المعتاد يبنى من أغصان الأشجار ، أو من الأخشاب ، وهذا قرص معلق على آخر

بواسطة

بواسطة حامل عمودي ، والخلايا مغطاة بأغطية مصنوعة ، أشبه بورق الكتابة عند الانسان (وقد تقدم في سورة طه) أن الزنبور صنع الورق قبل الانسان ، وهذه الأغطية تمنع المطر أن يدخل الخلايا وتحفظ الحرارة في داخلها فتبقى داخلة ، ودرجة الحرارة في داخل الخلايا قد تكون أعلى منها في خارجها ٢٥ درجة بيزان فهرنهايت الخلايا تكون مفتوحة لأجل ادخال الطعام للدود الصغير وهو ذرية الزناير ، فاذا كبر الدود أخذ يفسج شرقه ويقفل باب الخلية اتفالا من أعلاها إلى أسفلها . ثم انظر شكل ٢٣ وهذه صورته : (١)



(شكل ٢٣ - قطعة من العش ، أقرص الزناير من بلاد البرازيل متصلة بنصن من الشجرة)

إن الصورة الشمسية [الفوتوغرافية] ترىنا طبقات بالعش فتحفظه من الماء والهواء ، وفي داخل خلاياه المستدسة الأشكال ، ينمو البيض فينقب ما في داخله إلى دود ، والدود ينقب شرايق [فيالج] والفياج تصير زناير كبيرة ، والدائرة البيضاء التي تراها عند أسفل العش عبارة عن غصن مقطوع . ثم انظر شكل ٢٤ الآتي في الصفحة التالية .

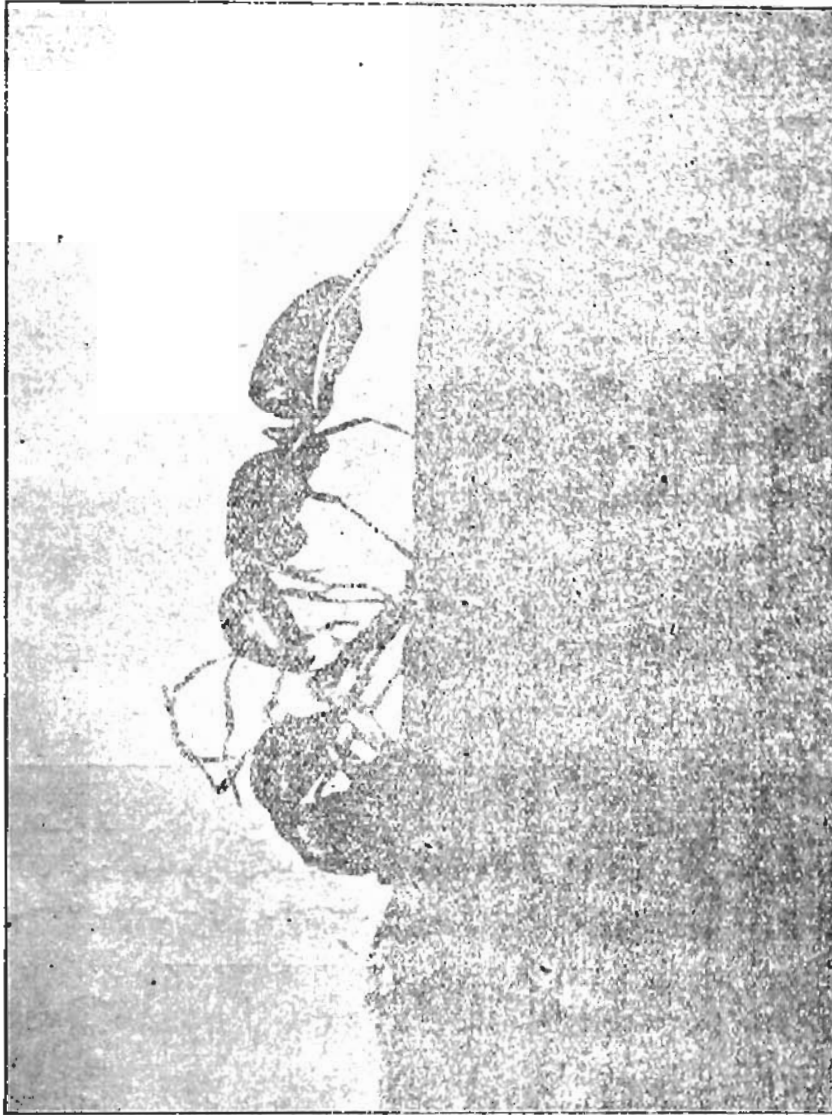
(١) هذه الصور كلها وما شرحتها به قد ترجمته من مجلة [التاريخ الطبي الجديد] الباحثة في عجائب الأرض المدهشة عجائبها الطبيعية لصاحبها الاستاذ البروفسور (ارثور تومسون)



(شكل ٢٤ عش الزنبور البناء)

الزنبور البناء يصنع عشه من الطين في شقوق الحيطان ، ويكون العش غالبا بهيئة طينية خشنة بحيث ترى على وجهه لطح من رشاش الطين غير منتظمة ، وهذه تسكن سببا لنجاة الزنبور من أن يراه أعداؤه ومع ذلك ترى العش مبنيًا بمهارة فائقة ، حافظا لعناصر بنائه مثبتا لها ، وترى دود الفراش (الذي لسعه الزنبور فلقحه بسمه قد أصبح مشلولا عديم الحركة) مخزونا في الخلايا ليكون قونا للذرية فيها ، ومتى خزن ذلك الدود المشلول في الخلايا سدها الزنبور ، وهذه الصورة تظهر اثنتين مقفلتين على الذرية وعلى قوتها ، فأما غيرهما فلم يكمل . وإلى هنا تم الكلام على الزنابير والحمد لله رب العالمين .





شكل ٢٧ - النمل النجار في عمله

التملة التي في جهة اليسار: الواقفة في مدخل العش المتخذ في الخشب هاهي ذه تسلم قطعة من الخشب للعامل (العتال) جهة اليمين: الذي شرع يحملها ليلقيها بعيدا .





(شكل ٢٨)

هذا البرج الموحش الغريب المخلقة قد شيده النمل الأبيض في شرق افريقيا ، ان النمل الأبيض ليس من أنواع النمل الحقيقي كـ . . . ولكنه يشبهه في أطواره ، فترى فيه أخلاق المسكة والذكور ، والنمل الفاعم بالمسك ، والمسك . ان البرج في هذه الصورة الشمسية صنعها النمل من مواد الأرض يعد أن مضغها بفسكيه وعجنها بريقه ، انتهى ما أردت ذكره في آية « والسماه رفمها ووضع الميزان » والحمد لله رب العالمين .

هذه صفحة من مناظر هذا العالم الذي نعيش فيه ، هذه صفحة جيلة بهجة ، يا الله ما أجل صنعك ، وأبداع اتقانك ، نظمت الأحجار الثمينة الجامدة جملتها أشبه بالبور في تسديس أشكائها ، واتقان نظامها ، وجمال هيئتها ، أرىنا في هذا الزمان بواطن السمك فدرسنا أعضائه الباطنة مفصلة عضوا عضوا بما أعطيتنا من نعمة التصوير الشمسي وفاء بوعدك : « سترهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم » . وذلك لتعرف معنى الميزان ومن أعجب العجب ، وأبداع الخلق ما زادني حيرة ، وأحدث في نفسي تارة الشوق العالَمي وهو أمر ذرية الضفادع (التي تقدم صورها والكلام عليها في الجزء الأول من الطبعة الثانية من هذا التفسير) . أأتري رعاك الله النوع الأول الذي يتربى بيضه في كرات هلامية تلازمه في قاع البرك والمستنقعات ، وهناك يكون الميزان ، فكما ازداد الماء ثقلا ازدادت الكرات الهلامية انتفاخا حتى تقارم ذلك الثقل فتترفع ، أليس من عجب أن نرى رجما موضوعة في الماء خارج الحيوان ، وهذه الرحم فيها قوة تجعلها مناسبة لما يحيط بها فتفرغه بقانون مسنون .

وأنعجب من هذا أن نفس هذه الكرات الهلامية إن هي إلا سجن سجن في تلك الذرية ، فهي من جهة رحم لها وحفاظ ، ومن جهة أخرى إذا طال عليها الأمد ونفس الحيوان كانت شرًا وبيلا عليه وعذابا ألما ، وهلاكًا حاضرا ، فإذا فعلت تلك الحكمة بموازنها ؟ فعلت معها ما فعلته في دول أوروبا بالنسبة لبلاد الاسلام ، ذلك أن أوروبا في هذه السنين أرادت أن تستحوذ على بلاد الشرق وخصوصا بلاد الاسلام ، وهل كان أعدى عدو لهذه الأمم إلا دولة الروس التي بماواتها لبلاد الصين من جهة وبلاد الترك العثمانيين من جهة أخرى فتحت الباب لفرنسا وانكلترا فأوغلتا في بلاد الاسلام إهلاكا وتدميرًا وإذلالا ، فإذا فعل الله بأوروبا ؟ أخرج لها أناسا من بلادها ، فأحدثوا الرأي الاشتراكي ثم الباشفي ، وهذه الباشفية اليوم أخذت حقها في بلاد روسيا ، وهذه الدولة الآن هي التي منعت عن بلاد الشرق والاسلام شرها ، وساعدت على استقلال بعض الأمم ، فصارت أوروبا أشبه بجسد قوى أخذ الداء يفتك فيه من نفسه في داخله ، وهذا هو نفس ما حصل في بيض الضفادع ، ذلك الذي أحاطت به كرات هلامية فرقة بمقدار ، ولما انتهى عملها مزقت كل ممزق كاتمرق المشيمة عند ولادة الطفل ، وما الذي يمزقها ؟ هي تلك الحشائش الدقيقة التي لأراها وما يلازمها من حيوانات ذرية ، فهذه كلها تفنك بتلك الكرات فيخرج الجنين سليما معافى من كل شيء يؤذيه . الميزان واحد ، فهو في سياسة الأمم نظيره في سياسة الأفراد ، مزقت كرات أجنة الضفادع بمخلوقات نبئت في باطنها ، هكذا الأمم الظلمة يكون هلاكها بتفريق كلمتها : « الحق الحق » ويبطل الباطل ولو كره المجرمون .

مسامرة

ههنا حضر صاحب العلامة وقرأ هذا الموضوع فسر أبا سرور ، وأنعجب بالصور الشمسية والتعليق عليها وقال هذه صفحة جيلة أبانت لنا الضار كالزنبور ، والنافع كالنحل ، والأحجار الثمينة ، والحيوانات الجيلة ، وأدركنا كيف تنسج العنكبوت مسكنها وهونفس شبكتها ؟ وكيف تكون لزجة جيلة ؟ وهذه الصورة الشمسية الأولى من صور تريا أن عمله في بناء بيته يشبه أعمال النساجين ، إذ يتدثون بالسدى ويقفون بالاحكام ، ثم كيف رأينا الزناير يعوزها دود يصكون بجانب ذريتها على شريطة أن يكون في حال شلل ، فأحضر له الأبوان دودا على هذه الشريطة وبقى حتى فقس البيض وخرجت الذرية وعندها غذاؤها ، ولا علم للأبوين بها ، ألبس هذا هو الميزان والعجب العجاب ، وكيف كان من تلك الحشرات بناء ، ونساج ، وثاقب خشب ، وقاطع ورق ، ومتخذ من نحو الجبال بيوتا ، ومن القواقع ، وكيف رأينا منه ما يعيش وحده كالعرب في البادية ،

ومنه ما يعيش جماعات ، هذا عجب عجاب ! فقلت نعم لله درك ، إن الميزان يجمعها ، وبالميزان كان الضر في الزبور ، والنفع في النحل واجتماعهما في الأرض عندنا واجتماع كل ضدين من خير وشر يكون استخراجا لقوانا وملاكانا ، وتذكرة للعقلاء ، وتبصرة للحكماء ، إن غرائز الحيوان وعجائبه جعلت في الأرض تبصرة وتذكرا ، إن الجسم الانساني يعوزه ملابس ومسكن وغذاء ودواء وهواء وماء ، فهذه كلها قوام لجسمه ، هكذا قوام عقله يكون بدراسة هذه المخالوقات ، فظواهرها لجنتها ، وبواطنها لروحها ، فإذا قصر في أحدهما فهو لسئول .

تربية الأمم الاسلامية في مستقبل الزمان

ثم قلت : أيها الأخ الذكي ، إن بناء جسم الانسان تابع لما يتغذى به ، فإذا أكل ما كل رديئة ضارة فانضرر لاحق بجسمه ، وبضدها تميز الأشياء : هكذا غذاء العقل إن كان صالحا صلح والافلا ، والغذاء الصالح لعقول أمم الاسلام في تربيتهم هو هذه العجائب ، قائمهم إذا درسوها صارت تلك الدراسة مهيبا لعتوهم ، فيستكرار تلك المباحث وتواردها على العقل شيئا فشيئا يحمل العقل ويصلح ، ويكون أشبه بتلميذ عاشر حكما فقلده ، وأى حكيم في العالم يضارع صانعها ، فمن راض عقله من الصغر على هذه المشاهدات أصبح عقله مرنا على الحقائق ، مفيدا لغيره ، نافعا لنوع الانسان ، إن كتاب الله المجسم دل عليه كتابه المنزل فقال : « ووضعت الميزان » .

درجات الحيوان في الادراك ودرجات الانسان

إن هذا الذي يشاهد هذه العجائب وقد مرن عليها ينظر فيجد غرائز الحيوان ترتقي من أدناها إلى أعلاها ثم يرى من الحيوان ما يقبل التعليم كالكلاب والأغنام وبعض الطيور ، ثم ينظر فيرى منها ما يقلد الانسان بدون أن يعلمه ، فهذا أرق مما قبله وأعظم وهو القرد ، ثم ينظر فيجد نوع الانسان يرتقي من أدناه ، وهم الذين يقرّبون من القردة إلى أعلاه ، وهم الذين يقلدون صانع هذا العالم في اتقائه البديع .

إن الانسان اليوم بلغ في العلم حد المراهقين ، لأنه أخذ يتلمس الحقائق ، ويدرس الحيوان ، ويتقن أثر صانع العالم اقتفاء ما ، فهذه أخذ بطير في الجو ، ويقطع المسافات سريعا ، واخترع وأبدع أيما ابداع ولكنه لا يزال في مبدأ الميدان ، فظهر هذا الانسان فلم يكن نظره قاصرا على بناء بيته كالغسكوت ، ولا على مله خزائنه بالغذاء كالنحل والنمل ، بل فكر في هذا العالم كله ، لأن روحه من عالم فوق هذه المادة ، فإذا فعل ؟ فكر فرأى الصور حوله ثلاثة أقسام ، لأنها إما صور مركبة من مادة محسوسة تحيط به ، ولما صور حياها الضوء فوصلها إلى العيون ، ولما صور في الهواء بهيئة حروف شكلتها الأصوات فوصلت إلى الآذان هذه صور العالم كله الذي يعيش فيه ، نظر الانسان فرأى محوطا بهذه الصور ، فألفظها الصور الصوتية وأغلفها الصور المادية ، وأوسطها الحروف والكلمات في الهواء ، درس الانسان الجاد والحيوان والنبات والسماء والأرض فكانت علوم وعلوم تقدمت في هذا التفسير كالتى في (سورة الروم) عند آية : « فطرت الله التي فطر الناس عليها » وكالتى في سورة ألم السجدة ، وكالتى في سورة لقمان عند آية : « وأقد آتينا لقمان الحكمة » .

أوليس من العجب أن الحروف والكلمات التي يحملها الهواء صور تعبر عما فوقها من الصور النورية الواصلة إلى العيون وعما تحتها من صور النبات والحيوان ، درس الانسان علوم التاريخ الطبيعى وعلم طبقات الأرض ونحوها ، وهذه هي الصور الغليظة ، واستخرج لها موازين من الميزان الذي وضعه الله في

العالم ، ودرس الصور في الهواء وهي جميع اللغات ، واستخرج لها موازين كرفع القاعل وادب المفعول في النحو في اللغة العربية ، وكالأبواب الستة في الفعل الثلاثي وهي باب نصر وضرب وفتح وعلم وشرف وحسب وكما موازين اسم الفاعل واسم المفعول وهكذا في الصرف ، وكالسند والسند إليه ، والتقديم والتأخير ، وأحوال متعلقات الفعل ، والذكر والمخطف والمخضر ، والفصل والوصل ، والاحتجاز والاحتجاب والمساواة في علم المعاني ، وكالتشبيه وأقسامه ، والمجاز وأنواعه ، والكناية وفروعها في علم البيان ، وكالجناس والطباق في علم البديع ، وكما وضع موازين للصور الحرفية الهوائية أخذ يضع موازين للصور العقلية ، وأبدأ بالمنطق كما تراه موضعا في ﴿سورة الزم﴾ بهيئة عامة تسر الناظرين ، ولعلم النفس كما في كتابنا [نظام العالم والأمم] ولعلم السياسة العتمة ، ولكل شأن من شئون الحياة جل أدق ، ومن ذلك أنه حسب الأجرام الفلكية بما انبعث منها من صور ضوئية ، فوصلت إلى شبكية العين ، فأدركها العقل ، فكان علم التقويم ، وعلم النجوم والمجرات والسدم العظيمة ، كل ذلك تعبر عنه الحروف .

الله أكبر : ان للإنسان سبع قوى متركات : ثلاث عليا ، وثلاث سفلى ، وواحدة هي واسطة لتعقد النظم ، أما الثلاثة العليا فهي البصر والعقل والقوة القدسية التي اختص بها الأنبياء والملائكة ، وأما الثلاثة السفلى فهي اللس والذوق والشم ، وأما الوسطى فهي حاسة السمع وهي التي اختصت بدراك صور الحروف المعبرات عن الأقسام الست أعلاها وأدناها .

هذا ملخص نظام هذا الانسان ، وهو الذي أدرك أدق الأشياء من الكبرياء والمغنطيس والراديو ، وخواص أخرى لا يزال يترقى فيها ، وهو الآن في مبدأ الرقى ، وهناك هناك معال ومدارج هو فيها سائر إلى الأمام ، فيأبى شعري أية مناسبة بين ما رأيته في صناعة العنكبوت والنحل والنمل وبين ما عرفته من صناعة الانسان ؟ .

الله أكبر : ان الانسان لم ينل هذه النعم العظمى إلا بدراسة غرائز أصغر الحيوان ، لأن من لم يفهم الأدنى لا سبيل له أن يدرك الأعلى ، ومن جهل المقدمات حرم النتائج ، فهذه الأمم التي ارتقت في مدارج الحياة العلمية هم هم الذين درسوا أصغر المخلوقات الذرية التي هي بعض قوله تعالى : « ووضعت الميزان » في الميزان .

فانظر إلى أية حد بلغ الانسان في أمانته وهو مسرع إلى الأمام صار في الجو وفق الطيور ، وهاهوذا يسارع إلى المعلى ، يقول في نفسه : لماذا لا أصل إلى القمر ؟ لماذا لا أصل للريح ؟ فهل هناك ما معنى ؟ وأى عائق يقف في طريق ذلك لي المضاعف وفتحت لي العقول ، ففصت في قعر البحر وطرت في الجو ، كل ذلك بعرفة الميزان ، إن الطيارات التي أطير بها لم تسكن في أول الأمر إلا لعبات للصبيان ، إن غريزتي التي غرست في قدسكن فيها كل شيء ، أنا من عالم أعلى ، أوحى الله إلى غريزتي وأنا طفل أن أطير في أجو طيارات لعبا ولها ، لأن نفسى من عالم أعلى فلعها يشير إلى ما كمن فيها ، فأخذت أدرس الطيور ، فاستنتجت منها علم الطيارات ، ثم أرى الناس يثقلون السهام النارية للهو واللعب فلماذا أقف في الارتقاء على الطيارات ؟ ولماذا لا أرتقى أعلى وأعلى ؟ ولماذا لا أبجع هذه الصواريخ حاملة لجسمى ولأمتعتى ، ألسنت أنا الذي كنت أسير في الأرض على قدمي فرأيت الخيل والبغال والحمير فظننت أنها تحملني خملتنى ، ثم رأيت الورق وخفيف الخشب يعوم في البحر فصنعت المراكب وسافرت عليها ، ثم رأيت القدر على النار يرتفع فيها البخار ، فإذا كانت القدر مغطاة رأيتها تضطرب وترتفع ، فاستنتجت من ذلك أنها تساعد على الانتقال في البر ، ثم كانت الطيارات كما تقدم فلماذا لا أجعل الصاروخ مركبي وحامل أمتعتى ، أنا فوق الجميع ، الموازين أمانى فلا درسها ، أنا هنا في

الأرض خليفة الله استخلفني وركب في العقل وقل لي فكروا عمل ، وهذا هو الذي يجب فيه العلماء اليوم فانظر ماجاء في جريدة الاهرام يوم ١١ اكتوبر سنة ١٩٣١ م ، وانجب كيف يكون هذا في وقت كتابة هذا المقال ، لأجعله بهجة لجأله ، وحلية بهية في نظامه ، وهذا نصه : —

عصر الاختراع والاكتشاف

السهم أو الصاروخ . معجزة هذا القرن

الصاروخ أحدث استنباط لايزال رهن التجربة ، قد يزال الوقت ويلاشي الابعاد وينقل البريد بسرعة عشرة أميال في الثانية ، وقد يوصل الناس إلى المريخ ، ويستأصل الحروب أو يزيد لها هولاً وويلاً ، فبدك معالم الحضارة دكاً ، ففي بلغ حد الكمال يعدل الناس عن التراسل بالبريد أو البق ، وعن التخاطب بالهاتفون ويعتمدون على الصاروخ فينقل رسائلهم من أميركا إلى أوروبا في نحو خمس دقائق .

فلانتهجب أيها القارئ الكريم ، ولا تقل ان زمان العجائب قد مضى فان عصر عجائب العلم لا يزال في أول عهده ، وقد أرانا في الأعوام القليلة الماضية العجب العجيب ١ ولكن الصاروخ هذا سيكون أعجوبة القرن العشرين بدليل التجارب السرية التي أجريت في ألمانيا وروسيا وأميركا .

إن هذا الصاروخ الذي كان فيما مضى من السهام الثاربة التي يطقها الناس في الفضاء احتمل بعيد ، أو تكريماً لبطل فاتح قد أصبح بعد أن تناوأت به العلم ، وأتقنته الهندسة ، وأحكم تركيبه الدماغ المبتدع من أعجب ما استنبطه العقل الانساني ، فالراديو والطيارة ، ونقل الصور بالراديو ، والمدهشات الأخرى التي أتخفنا بها هذا الجيل سوف تصبح من التوافه بالنسبة إلى الصاروخ ، فهو سيحدث انقلاباً هائلاً في وسائل النقل والطيران والحرب ، وما بدا منه حتى الآن يرسم لنا صورة المستقبل كالسفر إلى القمر والمريخ ، والدوران حول الكرة الأرضية في أقل من ساعة ، فإذا خامر القارئ الشك فيما تقدم بيانه (وهو سيشتك في انكاره دون ريب) فاني أقول له ماقرأه عن ذلك ليزول ما به من الارتياب ، فان أعظم الأدمغة في العالم قد برهنت مؤخراً بما لا يقبل الريب على أن تحقيق ما ذكرته ليس بالحادث البعيد ، فان مشاكل هذا الاختراع الأساسية قد انحلت ، وأهمها مشكل الجاذبية لاختراق الفسحة الكائنة بين عالمنا والعوالم الأخرى ، فن مضى أشهر معدودة أطلق سهم هائل في الجو على مقربة من برلين فبلغ الطبقات العليا وعاد بعدئذ إلى الأرض ، وكان ارتفاعه عظيماً جداً ، مع أنه لم يكن فيه من الوقود سوى جزء من أربعين جزءاً مما يسعه ، وقد وافقت الحكومة الألمانية مبتدع هذا السهم على القول أنه لوجهز بكمية وافية من الوقود لاجتياز مسافة ألف ميل في أعماق الجو ، وقد قال الاستاذ [هرمان أوبرت] الألماني انه أطلق واحداً منها مؤخراً وركب فيه آلة تدفعه من ذاتها ، فبقى محلقاً في الفضاء أكثر من ساعة ، والصاروخ الاستاذ أوبرت قوة دافعة تضاهي قوة دفع القنابل الحديدية الكبير تولدها فيه آلة تمانن زجاجة اللبن الصغيرة ، وهذا يدلنا على القوة الهائلة الممكن توليدها في الصاروخ متى تمّ تلقائياً باتقانه أمر وضع مولد كبير للقوة فيه ، ومن التجارب التي أجريت في أميركا التجربة التي قام بها المستر [روبرت جودارد] فقد أطلق واحداً من هذه السهام التي تخاكي لأمانيب فعلت على الأرض ستين ميلاً ، وقال بعد ذلك انه قد اكتشف السر العظيم الذي يمكنه من ارسال صاروخ إلى القمر ، وجرت مثل هذه التجارب قبل ذلك في روسيا ومبتدعها الاستاذ [فيودوروف] وهو الآن يعمل لاتقانها تحت رعاية حكومة السوفييات في ادارتها الخاصة بالمواصلات الجوية ، ومثله فعل الاستاذ الروسي [زبولوسكي] وهو الآن يجهز الفكر في تحسين الصاروخ التوربيدي على حساب الحكومة الروسية ، وكان الغرض الأول من ابتداع هذه الصواريخ أن تحشى بالبريد وتنتقل بسرعة بين أوروبا وأميركا فيكون تخليقها

فوق الاوقيانوس أعلى كثيرا من سكان الأرض حيث لا تنال أقل مقاومة من الهواء فتسير عندئذ بسرعة تتراوح بين الخمسة والعشرة أميال في الثانية ، والصواريخ تدار بالراديو بحيث انه اذا حدث خطأ يمكن اصلاحه والصاروخ طائرة ، ويدبر الصاروخ بواسطة الأجهزة الميكانيكية رجسلي يبقى على الأرض محمداً على الدوام في لوح أمامه يريه طريق الصاروخ والمكان الذي وصل إليه من حيث المسافة والعلو ، فإذا أراد المدير تخفيض سرعة الصاروخ أو مضاعفتها وضع يده على مفتاح معلوم فتتطبع بذلك على مولد القوة في الصاروخ ارشادات المدير الذي على الأرض ، وتنجم عن ضغطها عليه ما يراى من سرعة أو بطء ، أو تحوّل عن خطة السير ، وهذا من الأمور التي يصعب تصديتها ، إلا أن مبتدعي الصواريخ يقولون انها في منتهى السهولة ، وقد جربوها سرارا في ألمانيا من بضعة أشهر ، فعند ما يتداني الصاروخ من المكان الذي يقصده ، فإذا كان ذلك المكان [نيويورك] مثلا فإن مديره في لندن يضغط زرنا فيؤثر بالراديو على لوحة الصاروخ فيقلّ كبسا من البريد يهبط إلى الأرض في شبه مظلة ، ومثل ذلك يفعل اذا أراد انزال الصاروخ فلا تتر أعوام معدودة حتى تضع على السكّاب الذي ترسله عبر الاوقيانوس طابعا خاصا يبريد الصاروخ فيصّل بعد ساعة إلى صديقتك في أوروبا ، ولا بعد أن تبلغ هذه الصواريخ حداً من الاتقان تصير معه صالحة لشحن البضائع وتكون نفقات ارسالها نافية إلى العاية ، ذلك لأن نفقة تسييرها معدومة تقريبا ، غير أن التجارب المحفوفة بالغموض التي تجري اليوم في روسيا وغيرها من البلدان تشير إلى وجه آخر يبعث على القلق ألا وهو استخدامها في الحروب فلاريد في أن صاروخ [التوربيد] سيكون من أعظم مدمرات العمران هولا ، فإذا عوّل البشر على استخدام هذه الآلة الجهنمية في الحرب فلا يبقى لانسان مهرب ولا ملجأ بل يهلك الناس بالالوف ، فهو يضرب بلا انذار ، ويحوّل أعظم العواصم إلى آكام من رماد في بضعة دقائق ، وفي أوروبا اليوم أماس يستطيعون اذا شاءوا توجيه واحد من هذه الصواريخ النوربيدية عبر الاوقيانوس إلى الولايات المتحدة فيحدث فيها من التدمير وإهلاك النفوس ما لا تحدثه الحرب الطاحنة في خلال أشهر كاملة ، ومن المعلوم أن الطائرات الحربية مهما كثر عديدها لا تقوى على صدّ الصاروخ ، فهو يخترقها بسهولة وبدون أن يصاب بأذى ، واذا وجه إلى الأساطيل الحربية فانه يفتنها قبل أن يتيسر لها الوقت للفرار ، ولكن الوجه الآخر لهذا الابتداء الجهنمي هو أنه قد يعمل على ابطال الحروب لأنه عند ما تبلغ حد الكمال تقتنى كل دولة منه عددا ، فإذا أرادت دولة بدولة أخرى شرا يكون إقدامها على ذلك من قبيل الانتحار ، وأين هي الدولة التي تسوّل لها النفس خوض غمرات عراك تكون نهايته خرابها المحتم ؟ ومن أجل هذا نقول : إن المساعي الكثيرة التي يبذلها دعاة السلام اليوم لانتهاء الحروب سوف يكالها الصاروخ بالنجاح ، ولكن استخدام الصاروخ في الحروب وفي نقل البريد ليس بالشيء الذي يذكر في جنب ما يشوقه منه مبتدعوه وهو القيام باكتشافات مهمة في القبة السماوية كالتدّهاب إلى المريخ ، وهذا كان يعدّ حديث خرافة إلا أن ما أتمه العلم الآن وما قام به رجاله من التجارب بالصواريخ قد أدناه من الحقائق ، فالصاروخ الذي يوجه إلى المريخ يكون بشكل قذبة كبيرة الحجم ، ويكون فيها من الحامين إلى استين مولدا للقوة يذهب فيها جماعة صغيرة من الرجال الشجعان محصورين في مكان لا يدخله الهواء ومعهم من ضروريات الحياة ما يستطيعون معه اصطناعيا مدة ١٥٠ يوما وهي المدة اللازمة للوصول إلى المريخ والرجوع منه حسب تعديل الفلكيين ، ومن الطبيعي أن يزور الانسان المريخ قبل غيرة من السيارات ، وذلك لوجود دلائل عديدة على أنه مأهول بجنس من المخلوقات التي تحاكي سكان الأرض ، ويعتقد العلماء أن ألمانيا ستكون السابقة إلى اتقان هذا السهم المحجّب كما أنها ستكون السابقة في كثير غيره ، فقد قرأت لمراسل جريدة أمبركان في برلين أن كبار علماءها منهمكون

في درس القوى الكامنة في الجواهر الفردة للاستفادة منها ، وهزني الطرب عند ما قرأت أن علماء صربيا اسمه الدكتور [عدنان] يساعدهم في ذلك اه
وهذا تم الكلام على اللطيفة الأولى في قوله تعالى : « روضع الميزان » مع قوله : « صرح البحرين يلتقيان » الخ والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثانية : عجائب الحساب في سورة الرحمن

ابتدأ الله السورة بذكر أنه رحمن ، وأخذ يعد الرحمة مبتدئا بما هو أشرف وهو العلم ، وأنها بخلق من يحمله وهو الإنسان ، ثم أعقبها بما يجمعها معا وهو التعليم ، لأنه لا تعليم إلا حيث يكون متعلما وعلم ، وههنا قصة علينا مبدأ العلوم في سياق حديث الشمس والقمر وأنهما بحساب ، وبني على ذلك بناء شاعرا ومجددا رفيعا من حيث انتظام أنواع النبات والشجر ، فلو لا الحساب في العلويات لم تفتطم السفليات ، وهنا أتى بما يجمع النظم في السموات والأرض وهو الميزان السائد في كل دقيق وجليل وعظيم وحقير ، ولكن مبدأ ذلك كله الحساب ، فلنبين في هذه المجالة ما فتح الله به في ليالي الأحد والاثنين والثلاثاء في أواخر شهر مارس سنة ١٩٣١ م .

ذلك أن هذا الموضوع أخذ يحتاج قاي ، وينير شعوري ، ويحرك وجداني ، المهم إن أمر الحساب ليجب : فنه الشفع والوتر ، وبهما أقسم الله فقال : « والشفع والوتر » أفليس من الغريب أن يقسم الله بأمر مكشوفة للعلم والخاص والناس لا يهتمون بها ، ولا يولون وجوههم شطرها ، الشفع والوتر عند الجهلاء كأجسامهم ، وكأهلواء والماء ، فهم غالبا لا يذكرون نعمة الله فيهن ، الأعداد حاضرة عند نفوسنا تشاهدها عقولنا كما تشاهد عيوننا الضوء ، ولكن غلب على عقول بني آدم أن الأعداد معدومة لوجود لها ، فأما الضوء والشمس والقمر ، والجبل والجل ، والبحر والبر ، فهن موجودات ، ذلك لما وقر في نفوسنا أن ما تشاهده الحواس موجود ، وبلا تشاهده الحواس وجوده عدم .

لما وصلت إلى هذا المقام حضر صديقي العالم الذي اعتاد أن يناقشني في هذا التفسير . فقال : الشفع والوتر والوجود والعدم مادة الفلسفة ، القرآن واضح والتفسير قد طال فإذا تريد بهذه الكلمات ؟ فقلت له التفسير لم يطل ، ولقد استبان لك الآن أن القرآن إلى الآن لم يفسر حق تفسيره فأين تفسيره أيها الصديق ؟ فقال : الحمد لله قد فسر المفسرون رحمهم الله وفسرته أنت . فقلت : أما من جهتي أنا فني أقول لك : ان ما خطر لي بحق وصدق في تفسير هذه الحجة الحروف حسابان يعوزه مجلد أو مجلدان . فقال تريد بذلك علم الحساب ؟ قلت . كلا . فعلم الحساب شيء والحكمة المستنتجة منه شيء آخر ، وتلك الحكمة هي التي بها يعرف بعض سر القرآن ، خياك الله يا أخي ، قل لي : أيتدئ الله بالحساب في أول النعم في السورة التي وسعها بسورة الرحمن مصادفة ، أفلا نتذكر ما جاء في خطبة الصديق رضي الله عنه ، إذ استدلى بتقديم المهاجرين على الأنصار في القرآن على أن يكون الأمراء من المهاجرين والوزراء من الأنصار . قال بلى . قلت : أفلم تقم بذلك دولة بني أمية ودولة بني العباس اللتان لم تكونا إلا من المهاجرين . قال بلى . قلت : فإذا كان عشرات الملوك والممالك قامت على مجرد أمراة تباري وهو التقديم والتأخير في كلمتين اثنتين ، فما الذي نفهمه الآن من تقديم الحساب على جل كثيرة في سورة هي عنوان الرحمة ، ولقد أعظم الله أمر الحساب فقال : « إن الله سريع الحساب » ، وقال : « وأحصى كل شيء عددا » الخ فقال : حقا إن الأمر عظيم ، ولكن أمر الحساب دقيق ، فزجوا أن تلخص حكما منه لتكون نبراسا ونورا بين قراء التفسير . فقلت :

(١) إن الواحد ليس قبله عدد .
 (٢) وهو بعد جميع الأعداد بخلاف الاثنين فإنه يعدّ نفسه واحدًا .
 (٣) إذا زال الواحد زالت جميع الأعداد ، ولقد تزول الأعداد ولا يزول الواحد ، فهكذا :
 (١) الله ليس قبله شيء .
 (٢) وهو متصرف في كل موجود .
 (٣) ولولا الله لم تكن هذه الموجودات ، وإذا زالت الموجودات لم يزل الله .
 فلما سمع صاحبي ذلك قال هذا حسن ولكنه من باب التشبيه : أي أنك الآن ضربت لنا مثلا من العوالم المعنوية في نفوسنا ، وهذه المعنويات نظمها الله فصارت ضرب مثل لنا .
 ثم ماذا ؟ قلت : إن هذه الأعداد وحضورها في أذهاننا أمرها عجب ! فقال حضورها في أذهاننا عجب وأي عجب في ذلك الحضور ؟ فقلت : إن وجودها حقيقي وثابت بخلاف ما تراه من الشمس والقمر والأرض والانسان . فقال : إذن أنت تعتبر العدد في نفوسنا الذي وجوده ذهني ثابت وحق ، فأما المحسوسات التي عشنا بها وملاؤ الله بها القرآن والحكمة ليست ثابتة . فقلت نعم . فقال : إن عقلي لا يحتمل فهم هذا . فقلت له : ثم ثبتت عندك الأرض والسماء وما بينهما ؟ قال بالحواس ، فنحن نراها ونلمسها الخ وهي باقية فالشمس والأرض والجبال بقيت ألوف السنين ، وألوف الألوف ، والآباء والأجداد يرون ذلك ، فأما الأعداد فأنما هي أمر ذهني لا غير فوجودها عدم . فقلت : أفلا تعتبر العقل له إدراك كالحواس ؟ فقال : له إدراك أقوى من الحواس . فقلت : العقل هو الذي يحفظ الأعداد ويتصورها كما ترى العين الضوء وتلمس اليد الحجر . فقال : ولكن الحجر ثابت . فقلت العدد أثبت من ثلاثة وجوه ، ألم تر أن حاسة البصر قد تخطئ فترى الصغير كبيرا كالنار من بعد الليل ، وبالعكس كالشمس بعد غروبها . قل بلى . قلت : حاسة السمع في المرضي نحس بالحدس صرا ، قال بلى . قلت : والناس يختلفون في الجلال ، فكل له فيه ذوق خاص . قل حقا ، قلت ونفس الجبال والبحار تتقبل بعد مئات الألوف من السنين ، لأن الماء يفتت الصخور ، ويحعمل الزملا ويقذفها في البحر والجبال تنزح في هبات في عصور وعصور ، ثم تأتي زلزلة فتظهر تلك الجبال التي كانت أجنسة في أحرام البحار . فقال عفا والله ، فقلت : إذن المحسوسات يعجزها الصغير من طريق نقص في الحاسة ، أو من طريق اختلاف الأشخاص ، أو من طريق تغير المحسوس ، إذن هذه السموات وهذه الأرضون تختلف مناظرها من ثلاثة وجوه فهي إذن ليست ثابتة فوجودها أشبه بالعدم .

ثم قلت : واطيف إلى ذلك أسرارها ، وهو أن هذه العوالم المشاهدة ليست شيئا سوى نتائج حركات ظهرت لحواسنا فأدركتها بحسب ماظهر لها من عدد الحركات في الثانية الواحدة ، فإن كانت الحركات في الأثير في الثانية الواحدة نحو ٦ آلاف مليون مليون مرة فذلك هو مثال الحديد والنحاس ، وإن كان عدد الحركات أقل من ذلك بحيث يكون في الثانية الواحدة من ٤٠٠ مليون مليون مرة إلى ٧٠٠ مليون مليون مرة في الثانية الواحدة ، فذلك هو النور بألوانه السبعة ، فالأحر أدناه والبنفسجي أعلاه ، ولا جرم أن هذا الأمر الرابع يبين أن هذه المحسوسات في نفسها غير موجودة ، وإنما هي تظهر لحواسنا بحسب عدد حركاتها في الثانية منوعة ، فظاهر يتوقع حركاتها لا غير ، فأين الوجود الحقيقي إذن لهذه الظواهر ؟ (اقرأ هذا المقال واضحا في سورة « النور ») عند آية : « الله نور السموات والأرض » إذن ما يظنه الناس والحيوان موجودا وهو المشاهد ليس له حقيقة ، وما جهلته الحواس وأدركه العقل أحق باسم الوجود كالأعداد وجميع الحقائق الثابتة ، فلا أعداد لا تنور في العقول ، والشمس ستزول ، ولكن العدد هو هو ، فكل عقل وجد تبدوله الأعداد كما بدت لنا ،

وإذا اعترض على ذلك بأنه لم يوجد إلا في ذهننا، قلت وهل المحسوسات ظهرت إلا لحواسنا؟ وهل هي شيء غير حركات خفية ظهرت لحواسنا على هذه الأعط، فلا اعتراض واحد على المحسوس والمعقول، ولكن يمتاز المعقول بأنه لا يعثر به تغير في نفسه، ولا تغير باختلاف الأشخاص، ولا باختلاف الأزمان، إذن الحساب من الحقائق الثابتة، فهو موجود ثابت دائم علمه الله في الأزل، وجعل العالم على منواله. « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق » فهذا من الحق الذي بنيت عليه السموات والأرض، الأعداد عوالم لا تحتاج إلى مادة في وجودها، هكذا الأرواح عوالم مجردة مثلها، فكلاهما كالأثير أو لغيره، وهو مخلوق ابتداء بلامادة اشتق منها، وهذا من بعض أسرار القرآن، لأن الرجة بالآلف واللام أى كملها لا تتحقق إلا بالدوام والدوام للحقائق الثابتة ومنها الحساب، ولذلك قال: « الشمس والقمر بحسبان » وقل في آية أخرى: « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق » وهل الحق إلا ما كان ثابتا والحساب ثابت، فبني الله العالم عليه وعلى غيره من الحقائق الثابتة في علمه القديم. فقال: إن هذا القول إجمالى، فأريد تفصيله، فقلت لأفصله في أربعة فصول:

(١) أولا: إن العدد منه ما يقبل القسمة مثل ٤ و ٦ ومنه ما لا يقبلها مثل ٥ و ٧ فإن ٤ مضاربها ٢ و ٢ و ١ و ٦ و ٣ مضاربها ٣ و ١ وأما ٥ و ٧ فلا مضارب لهما، وانما يقسمان على نفسيهما وعلى الواحد لا غير، فهذا عدد أولى أو أصم.

(٢) ثانيا: إن العدد فيه الكامل والناقص والزائد، وفيه الأعداد المتحابة وغيرها من عجائب الحساب.

(٣) ثالثا: العدد فيه المتوالية العددية مثل ٢ - ٤ - ٦ وهكذا، والمتوالية الهندسية مثل ٢ - ٤ - ٨ - ١٦ - ٣٢ وهكذا، ومثل ٣ - ٦ - ١٢ - ٢٤ وهكذا.

(٤) رابعا: العدد فيه الكسر الدائر البسيط مثل $\frac{1}{2}$ فإنه يساوى $\frac{2}{4}$ $\frac{3}{6}$ $\frac{4}{8}$ $\frac{5}{10}$ $\frac{6}{12}$ $\frac{7}{14}$ $\frac{8}{16}$ $\frac{9}{18}$ $\frac{10}{20}$ $\frac{11}{22}$ $\frac{12}{24}$ $\frac{13}{26}$ $\frac{14}{28}$ $\frac{15}{30}$ $\frac{16}{32}$ $\frac{17}{34}$ $\frac{18}{36}$ $\frac{19}{38}$ $\frac{20}{40}$ $\frac{21}{42}$ $\frac{22}{44}$ $\frac{23}{46}$ $\frac{24}{48}$ $\frac{25}{50}$ $\frac{26}{52}$ $\frac{27}{54}$ $\frac{28}{56}$ $\frac{29}{58}$ $\frac{30}{60}$ $\frac{31}{62}$ $\frac{32}{64}$ $\frac{33}{66}$ $\frac{34}{68}$ $\frac{35}{70}$ $\frac{36}{72}$ $\frac{37}{74}$ $\frac{38}{76}$ $\frac{39}{78}$ $\frac{40}{80}$ $\frac{41}{82}$ $\frac{42}{84}$ $\frac{43}{86}$ $\frac{44}{88}$ $\frac{45}{90}$ $\frac{46}{92}$ $\frac{47}{94}$ $\frac{48}{96}$ $\frac{49}{98}$ $\frac{50}{100}$ $\frac{51}{102}$ $\frac{52}{104}$ $\frac{53}{106}$ $\frac{54}{108}$ $\frac{55}{110}$ $\frac{56}{112}$ $\frac{57}{114}$ $\frac{58}{116}$ $\frac{59}{118}$ $\frac{60}{120}$ $\frac{61}{122}$ $\frac{62}{124}$ $\frac{63}{126}$ $\frac{64}{128}$ $\frac{65}{130}$ $\frac{66}{132}$ $\frac{67}{134}$ $\frac{68}{136}$ $\frac{69}{138}$ $\frac{70}{140}$ $\frac{71}{142}$ $\frac{72}{144}$ $\frac{73}{146}$ $\frac{74}{148}$ $\frac{75}{150}$ $\frac{76}{152}$ $\frac{77}{154}$ $\frac{78}{156}$ $\frac{79}{158}$ $\frac{80}{160}$ $\frac{81}{162}$ $\frac{82}{164}$ $\frac{83}{166}$ $\frac{84}{168}$ $\frac{85}{170}$ $\frac{86}{172}$ $\frac{87}{174}$ $\frac{88}{176}$ $\frac{89}{178}$ $\frac{90}{180}$ $\frac{91}{182}$ $\frac{92}{184}$ $\frac{93}{186}$ $\frac{94}{188}$ $\frac{95}{190}$ $\frac{96}{192}$ $\frac{97}{194}$ $\frac{98}{196}$ $\frac{99}{198}$ $\frac{100}{200}$ $\frac{101}{202}$ $\frac{102}{204}$ $\frac{103}{206}$ $\frac{104}{208}$ $\frac{105}{210}$ $\frac{106}{212}$ $\frac{107}{214}$ $\frac{108}{216}$ $\frac{109}{218}$ $\frac{110}{220}$ $\frac{111}{222}$ $\frac{112}{224}$ $\frac{113}{226}$ $\frac{114}{228}$ $\frac{115}{230}$ $\frac{116}{232}$ $\frac{117}{234}$ $\frac{118}{236}$ $\frac{119}{238}$ $\frac{120}{240}$ $\frac{121}{242}$ $\frac{122}{244}$ $\frac{123}{246}$ $\frac{124}{248}$ $\frac{125}{250}$ $\frac{126}{252}$ $\frac{127}{254}$ $\frac{128}{256}$ $\frac{129}{258}$ $\frac{130}{260}$ $\frac{131}{262}$ $\frac{132}{264}$ $\frac{133}{266}$ $\frac{134}{268}$ $\frac{135}{270}$ $\frac{136}{272}$ $\frac{137}{274}$ $\frac{138}{276}$ $\frac{139}{278}$ $\frac{140}{280}$ $\frac{141}{282}$ $\frac{142}{284}$ $\frac{143}{286}$ $\frac{144}{288}$ $\frac{145}{290}$ $\frac{146}{292}$ $\frac{147}{294}$ $\frac{148}{296}$ $\frac{149}{298}$ $\frac{150}{300}$ $\frac{151}{302}$ $\frac{152}{304}$ $\frac{153}{306}$ $\frac{154}{308}$ $\frac{155}{310}$ $\frac{156}{312}$ $\frac{157}{314}$ $\frac{158}{316}$ $\frac{159}{318}$ $\frac{160}{320}$ $\frac{161}{322}$ $\frac{162}{324}$ $\frac{163}{326}$ $\frac{164}{328}$ $\frac{165}{330}$ $\frac{166}{332}$ $\frac{167}{334}$ $\frac{168}{336}$ $\frac{169}{338}$ $\frac{170}{340}$ $\frac{171}{342}$ $\frac{172}{344}$ $\frac{173}{346}$ $\frac{174}{348}$ $\frac{175}{350}$ $\frac{176}{352}$ $\frac{177}{354}$ $\frac{178}{356}$ $\frac{179}{358}$ $\frac{180}{360}$ $\frac{181}{362}$ $\frac{182}{364}$ $\frac{183}{366}$ $\frac{184}{368}$ $\frac{185}{370}$ $\frac{186}{372}$ $\frac{187}{374}$ $\frac{188}{376}$ $\frac{189}{378}$ $\frac{190}{380}$ $\frac{191}{382}$ $\frac{192}{384}$ $\frac{193}{386}$ $\frac{194}{388}$ $\frac{195}{390}$ $\frac{196}{392}$ $\frac{197}{394}$ $\frac{198}{396}$ $\frac{199}{398}$ $\frac{200}{400}$ $\frac{201}{402}$ $\frac{202}{404}$ $\frac{203}{406}$ $\frac{204}{408}$ $\frac{205}{410}$ $\frac{206}{412}$ $\frac{207}{414}$ $\frac{208}{416}$ $\frac{209}{418}$ $\frac{210}{420}$ $\frac{211}{422}$ $\frac{212}{424}$ $\frac{213}{426}$ $\frac{214}{428}$ $\frac{215}{430}$ $\frac{216}{432}$ $\frac{217}{434}$ $\frac{218}{436}$ $\frac{219}{438}$ $\frac{220}{440}$ $\frac{221}{442}$ $\frac{222}{444}$ $\frac{223}{446}$ $\frac{224}{448}$ $\frac{225}{450}$ $\frac{226}{452}$ $\frac{227}{454}$ $\frac{228}{456}$ $\frac{229}{458}$ $\frac{230}{460}$ $\frac{231}{462}$ $\frac{232}{464}$ $\frac{233}{466}$ $\frac{234}{468}$ $\frac{235}{470}$ $\frac{236}{472}$ $\frac{237}{474}$ $\frac{238}{476}$ $\frac{239}{478}$ $\frac{240}{480}$ $\frac{241}{482}$ $\frac{242}{484}$ $\frac{243}{486}$ $\frac{244}{488}$ $\frac{245}{490}$ $\frac{246}{492}$ $\frac{247}{494}$ $\frac{248}{496}$ $\frac{249}{498}$ $\frac{250}{500}$ $\frac{251}{502}$ $\frac{252}{504}$ $\frac{253}{506}$ $\frac{254}{508}$ $\frac{255}{510}$ $\frac{256}{512}$ $\frac{257}{514}$ $\frac{258}{516}$ $\frac{259}{518}$ $\frac{260}{520}$ $\frac{261}{522}$ $\frac{262}{524}$ $\frac{263}{526}$ $\frac{264}{528}$ $\frac{265}{530}$ $\frac{266}{532}$ $\frac{267}{534}$ $\frac{268}{536}$ $\frac{269}{538}$ $\frac{270}{540}$ $\frac{271}{542}$ $\frac{272}{544}$ $\frac{273}{546}$ $\frac{274}{548}$ $\frac{275}{550}$ $\frac{276}{552}$ $\frac{277}{554}$ $\frac{278}{556}$ $\frac{279}{558}$ $\frac{280}{560}$ $\frac{281}{562}$ $\frac{282}{564}$ $\frac{283}{566}$ $\frac{284}{568}$ $\frac{285}{570}$ $\frac{286}{572}$ $\frac{287}{574}$ $\frac{288}{576}$ $\frac{289}{578}$ $\frac{290}{580}$ $\frac{291}{582}$ $\frac{292}{584}$ $\frac{293}{586}$ $\frac{294}{588}$ $\frac{295}{590}$ $\frac{296}{592}$ $\frac{297}{594}$ $\frac{298}{596}$ $\frac{299}{598}$ $\frac{300}{600}$ $\frac{301}{602}$ $\frac{302}{604}$ $\frac{303}{606}$ $\frac{304}{608}$ $\frac{305}{610}$ $\frac{306}{612}$ $\frac{307}{614}$ $\frac{308}{616}$ $\frac{309}{618}$ $\frac{310}{620}$ $\frac{311}{622}$ $\frac{312}{624}$ $\frac{313}{626}$ $\frac{314}{628}$ $\frac{315}{630}$ $\frac{316}{632}$ $\frac{317}{634}$ $\frac{318}{636}$ $\frac{319}{638}$ $\frac{320}{640}$ $\frac{321}{642}$ $\frac{322}{644}$ $\frac{323}{646}$ $\frac{324}{648}$ $\frac{325}{650}$ $\frac{326}{652}$ $\frac{327}{654}$ $\frac{328}{656}$ $\frac{329}{658}$ $\frac{330}{660}$ $\frac{331}{662}$ $\frac{332}{664}$ $\frac{333}{666}$ $\frac{334}{668}$ $\frac{335}{670}$ $\frac{336}{672}$ $\frac{337}{674}$ $\frac{338}{676}$ $\frac{339}{678}$ $\frac{340}{680}$ $\frac{341}{682}$ $\frac{342}{684}$ $\frac{343}{686}$ $\frac{344}{688}$ $\frac{345}{690}$ $\frac{346}{692}$ $\frac{347}{694}$ $\frac{348}{696}$ $\frac{349}{698}$ $\frac{350}{700}$ $\frac{351}{702}$ $\frac{352}{704}$ $\frac{353}{706}$ $\frac{354}{708}$ $\frac{355}{710}$ $\frac{356}{712}$ $\frac{357}{714}$ $\frac{358}{716}$ $\frac{359}{718}$ $\frac{360}{720}$ $\frac{361}{722}$ $\frac{362}{724}$ $\frac{363}{726}$ $\frac{364}{728}$ $\frac{365}{730}$ $\frac{366}{732}$ $\frac{367}{734}$ $\frac{368}{736}$ $\frac{369}{738}$ $\frac{370}{740}$ $\frac{371}{742}$ $\frac{372}{744}$ $\frac{373}{746}$ $\frac{374}{748}$ $\frac{375}{750}$ $\frac{376}{752}$ $\frac{377}{754}$ $\frac{378}{756}$ $\frac{379}{758}$ $\frac{380}{760}$ $\frac{381}{762}$ $\frac{382}{764}$ $\frac{383}{766}$ $\frac{384}{768}$ $\frac{385}{770}$ $\frac{386}{772}$ $\frac{387}{774}$ $\frac{388}{776}$ $\frac{389}{778}$ $\frac{390}{780}$ $\frac{391}{782}$ $\frac{392}{784}$ $\frac{393}{786}$ $\frac{394}{788}$ $\frac{395}{790}$ $\frac{396}{792}$ $\frac{397}{794}$ $\frac{398}{796}$ $\frac{399}{798}$ $\frac{400}{800}$ $\frac{401}{802}$ $\frac{402}{804}$ $\frac{403}{806}$ $\frac{404}{808}$ $\frac{405}{810}$ $\frac{406}{812}$ $\frac{407}{814}$ $\frac{408}{816}$ $\frac{409}{818}$ $\frac{410}{820}$ $\frac{411}{822}$ $\frac{412}{824}$ $\frac{413}{826}$ $\frac{414}{828}$ $\frac{415}{830}$ $\frac{416}{832}$ $\frac{417}{834}$ $\frac{418}{836}$ $\frac{419}{838}$ $\frac{420}{840}$ $\frac{421}{842}$ $\frac{422}{844}$ $\frac{423}{846}$ $\frac{424}{848}$ $\frac{425}{850}$ $\frac{426}{852}$ $\frac{427}{854}$ $\frac{428}{856}$ $\frac{429}{858}$ $\frac{430}{860}$ $\frac{431}{862}$ $\frac{432}{864}$ $\frac{433}{866}$ $\frac{434}{868}$ $\frac{435}{870}$ $\frac{436}{872}$ $\frac{437}{874}$ $\frac{438}{876}$ $\frac{439}{878}$ $\frac{440}{880}$ $\frac{441}{882}$ $\frac{442}{884}$ $\frac{443}{886}$ $\frac{444}{888}$ $\frac{445}{890}$ $\frac{446}{892}$ $\frac{447}{894}$ $\frac{448}{896}$ $\frac{449}{898}$ $\frac{450}{900}$ $\frac{451}{902}$ $\frac{452}{904}$ $\frac{453}{906}$ $\frac{454}{908}$ $\frac{455}{910}$ $\frac{456}{912}$ $\frac{457}{914}$ $\frac{458}{916}$ $\frac{459}{918}$ $\frac{460}{920}$ $\frac{461}{922}$ $\frac{462}{924}$ $\frac{463}{926}$ $\frac{464}{928}$ $\frac{465}{930}$ $\frac{466}{932}$ $\frac{467}{934}$ $\frac{468}{936}$ $\frac{469}{938}$ $\frac{470}{940}$ $\frac{471}{942}$ $\frac{472}{944}$ $\frac{473}{946}$ $\frac{474}{948}$ $\frac{475}{950}$ $\frac{476}{952}$ $\frac{477}{954}$ $\frac{478}{956}$ $\frac{479}{958}$ $\frac{480}{960}$ $\frac{481}{962}$ $\frac{482}{964}$ $\frac{483}{966}$ $\frac{484}{968}$ $\frac{485}{970}$ $\frac{486}{972}$ $\frac{487}{974}$ $\frac{488}{976}$ $\frac{489}{978}$ $\frac{490}{980}$ $\frac{491}{982}$ $\frac{492}{984}$ $\frac{493}{986}$ $\frac{494}{988}$ $\frac{495}{990}$ $\frac{496}{992}$ $\frac{497}{994}$ $\frac{498}{996}$ $\frac{499}{998}$ $\frac{500}{1000}$ $\frac{501}{1002}$ $\frac{502}{1004}$ $\frac{503}{1006}$ $\frac{504}{1008}$ $\frac{505}{1010}$ $\frac{506}{1012}$ $\frac{507}{1014}$ $\frac{508}{1016}$ $\frac{509}{1018}$ $\frac{510}{1020}$ $\frac{511}{1022}$ $\frac{512}{1024}$ $\frac{513}{1026}$ $\frac{514}{1028}$ $\frac{515}{1030}$ $\frac{516}{1032}$ $\frac{517}{1034}$ $\frac{518}{1036}$ $\frac{519}{1038}$ $\frac{520}{1040}$ $\frac{521}{1042}$ $\frac{522}{1044}$ $\frac{523}{1046}$ $\frac{524}{1048}$ $\frac{525}{1050}$ $\frac{526}{1052}$ $\frac{527}{1054}$ $\frac{528}{1056}$ $\frac{529}{1058}$ $\frac{530}{1060}$ $\frac{531}{1062}$ $\frac{532}{1064}$ $\frac{533}{1066}$ $\frac{534}{1068}$ $\frac{535}{1070}$ $\frac{536}{1072}$ $\frac{537}{1074}$ $\frac{538}{1076}$ $\frac{539}{1078}$ $\frac{540}{1080}$ $\frac{541}{1082}$ $\frac{542}{1084}$ $\frac{543}{1086}$ $\frac{544}{1088}$ $\frac{545}{1090}$ $\frac{546}{1092}$ $\frac{547}{1094}$ $\frac{548}{1096}$ $\frac{549}{1098}$ $\frac{550}{1100}$ $\frac{551}{1102}$ $\frac{552}{1104}$ $\frac{553}{1106}$ $\frac{554}{1108}$ $\frac{555}{1110}$ $\frac{556}{1112}$ $\frac{557}{1114}$ $\frac{558}{1116}$ $\frac{559}{1118}$ $\frac{560}{1120}$ $\frac{561}{1122}$ $\frac{562}{1124}$ $\frac{563}{1126}$ $\frac{564}{1128}$ $\frac{565}{1130}$ $\frac{566}{1132}$ $\frac{567}{1134}$ $\frac{568}{1136}$ $\frac{569}{1138}$ $\frac{570}{1140}$ $\frac{571}{1142}$ $\frac{572}{1144}$ $\frac{573}{1146}$ $\frac{574}{1148}$ $\frac{575}{1150}$ $\frac{576}{1152}$ $\frac{577}{1154}$ $\frac{578}{1156}$ $\frac{579}{1158}$ $\frac{580}{1160}$ $\frac{581}{1162}$ $\frac{582}{1164}$ $\frac{583}{1166}$ $\frac{584}{1168}$ $\frac{585}{1170}$ $\frac{586}{1172}$ $\frac{587}{1174}$ $\frac{588}{1176}$ $\frac{589}{1178}$ $\frac{590}{1180}$ $\frac{591}{1182}$ $\frac{592}{1184}$ $\frac{593}{1186}$ $\frac{594}{1188}$ $\frac{595}{1190}$ $\frac{596}{1192}$ $\frac{597}{1194}$ $\frac{598}{1196}$ $\frac{599}{1198}$ $\frac{600}{1200}$ $\frac{601}{1202}$ $\frac{602}{1204}$ $\frac{603}{1206}$ $\frac{604}{1208}$ $\frac{605}{1210}$ $\frac{606}{1212}$ $\frac{607}{1214}$ $\frac{608}{1216}$ $\frac{609}{1218}$ $\frac{610}{1220}$ $\frac{611}{1222}$ $\frac{612}{1224}$ $\frac{613}{1226}$ $\frac{614}{1228}$ $\frac{615}{1230}$ $\frac{616}{1232}$ $\frac{617}{1234}$ $\frac{618}{1236}$ $\frac{619}{1238}$ $\frac{620}{1240}$ $\frac{621}{1242}$ $\frac{622}{1244}$ $\frac{623}{1246}$ $\frac{624}{1248}$ $\frac{625}{1250}$ $\frac{626}{1252}$ $\frac{627}{1254}$ $\frac{628}{1256}$ $\frac{629}{1258}$ $\frac{630}{1260}$ $\frac{631}{1262}$ $\frac{632}{1264}$ $\frac{633}{1266}$ $\frac{634}{1268}$ $\frac{635}{1270}$ $\frac{636}{1272}$ $\frac{637}{1274}$ $\frac{638}{1276}$ $\frac{639}{1278}$ $\frac{640}{1280}$ $\frac{641}{1282}$ $\frac{642}{1284}$ $\frac{643}{1286}$ $\frac{644}{1288}$ $\frac{645}{1290}$ $\frac{646}{1292}$ $\frac{647}{1294}$ $\frac{648}{1296}$ $\frac{649}{1298}$ $\frac{650}{1300}$ $\frac{651}{1302}$ $\frac{652}{1304}$ $\frac{653}{1306}$ $\frac{654}{1308}$ $\frac{655}{1310}$ $\frac{656}{1312}$ $\frac{657}{1314}$ $\frac{658}{1316}$ $\frac{659}{1318}$ $\frac{660}{1320}$ $\frac{661}{1322}$ $\frac{662}{1324}$ $\frac{663}{1326}$ $\frac{664}{1328}$ $\frac{665}{1330}$ $\frac{666}{1332}$ $\frac{667}{1334}$ $\frac{668}{1336}$ $\frac{669}{1338}$ $\frac{670}{1340}$ $\frac{671}{1342}$ $\frac{672}{1344}$ $\frac{673}{1346}$ $\frac{674}{1348}$ $\frac{675}{1350}$ $\frac{676}{1352}$ $\frac{677}{1354}$ $\frac{678}{1356}$ $\frac{679}{1358}$ $\frac{680}{1360}$ $\frac{681}{1362}$ $\frac{682}{1364}$ $\frac{683}{1366}$ $\frac{684}{1368}$ $\frac{685}{1370}$ $\frac{686}{1372}$ $\frac{687}{1374}$ $\frac{688}{1376}$ $\frac{689}{1378}$ $\frac{690}{1380}$ $\frac{691}{1382}$ $\frac{692}{1384}$ $\frac{693}{1386}$ $\frac{694}{1388}$ $\frac{695}{1390}$ $\frac{696}{1392}$ $\frac{697}{1394}$ $\frac{698}{1396}$ $\frac{699}{1398}$ $\frac{700}{1400}$ $\frac{701}{1402}$ $\frac{702}{1404}$ $\frac{703}{1406}$ $\frac{704}{1408}$ $\frac{705}{1410}$ $\frac{706}{1412}$ $\frac{707}{1414}$ $\frac{708}{1416}$ $\frac{709}{1418}$ $\frac{710}{1420}$ $\frac{711}{1422}$ $\frac{712}{1424}$ $\frac{713}{1426}$ $\frac{714}{1428}$ $\frac{715}{1430}$ $\frac{716}{1432}$ $\frac{717}{1434}$ $\frac{718}{1436}$ $\frac{719}{1438}$ $\frac{720}{1440}$ $\frac{721}{1442}$ $\frac{722}{1444}$ $\frac{723}{1446}$ $\frac{724}{1448}$ $\frac{725}{1450}$ $\frac{726}{1452}$ $\frac{727}{1454}$ $\frac{728}{1456}$ $\frac{729}{1458}$ $\frac{730}{1460}$ $\frac{731}{1462}$ $\frac{732}{1464}$ $\frac{733}{1466}$ $\frac{734}{1468}$ $\frac{735}{1470}$ $\frac{736}{1472}$ $\frac{737}{1474}$ $\frac{738}{1476}$ $\frac{739}{1478}$ $\frac{740}{1480}$ $\frac{741}{1482}$ $\frac{742}{1484}$ $\frac{743}{1486}$ $\frac{744}{1488}$ $\frac{745}{1490}$ $\frac{746}{1492}$ $\frac{747}{1494}$ $\frac{748}{1496}$ $\frac{749}{1498}$ $\frac{750}{1500}$ $\frac{751}{1502}$ $\frac{752}{1504}$ $\frac{753}{1506}$ $\frac{754}{1508}$ $\frac{755}{1510}$ $\frac{756}{1512}$ $\frac{757}{1514}$ $\frac{758}{1516}$ $\frac{759}{1518}$ $\frac{760}{1520}$ $\frac{761}{1522}$ $\frac{762}{1524}$ $\frac{763}{1526}$ $\frac{764}{1528}$ $\frac{765}{1530}$ $\frac{766}{1532}$ $\frac{767}{1534}$ $\frac{768}{1536}$ $\frac{$

وهكذا إلى ٩٩٠١ الذى ينتهى الى ٩٩٧٣ ، وفى هذه المائة الأخيرة ٩ أعداد لاغير ، وفى المائة قبلها ١٢ عددا ، وهكذا لاتجد مائة فى هذه المئات خالية من الأعداد الأولية :
(١) ولاجرهم أن العوالم المشاهدة أكثرها أشبه بالأعداد التى تقبل القسمة ، وأقلها أشبه بالأعداد الأولية ، فضوء الشمس والقمر وعالم الأنبر والهواء والماء أكثر جدًا من الأرض كما أن الأعداد التى تقبل القسمة أكثر من الأعداد الأولية .

(٢) ان كل مائة فيها أعداد أولية كما تقدم قد تكون ٩ وقد تكون ٢٥ وقد تكون عددا بينهما مثل ١٤ و ١٥ هكذا فى كل قرن أناس يظهرون فى الأمم لهم مبادئ وحكم جديدة لم تكن من قبل ، وتباغون فى الحرف والصناعات ، نسج الناس على منوالهم ولكن الأكثرون مقلدون ، فهم أشبه بأعداد ٤ و ٨ و ٩ و ١٢ وغيرها من كل عدده مضارب ترجع إلى أعداد أولية . فقال : أنا لم أفهم هذا ، فقلت :
(١) اعلم أننا نعد هكذا : ١ ٢ ٣ ٤ الخ أو ٢ - ٤ - ٦ - ٨ - ١٠ - ١٢ وهكذا ، أو نقول : ٣ - ٦ - ٩ - ١٢ - ١٥ وهكذا . أو نقول : ٥ - ١٠ - ١٥ - ٢٠ وهكذا : أى أننا نعد إما بالواحد وإما بالاثنتين وإما بالثلاثة وهكذا ، فإذا وصلنا إلى عدد أولى من الأعداد الكبرى مثل : ١٠٠٩ و ١٠١٣ و ١٠١٩ و ١٠٢١ و ١٠٣١ وهكذا وأردنا أن نعد به فلا بد أن نكرره مرة ومرة وتين وثلاثا وهكذا كما نقول ١١ - ٢٢ - ٣٣ ، فهنا لابد لنا أن نعد فى تكراره ١ - ٢ - ٣ - ٤ وهكذا أى أننا مع كل عدد أولى بعد ألف أو مائة ألف أو غيرها لابد أن نعد من أول واحد ونسير كطريقتنا الأولى ، ولاجرهم أن هذا معناه أن التابغين فى كل قرن لابد أنهم يعرفون ما فى التاريخ ، ويدنون بحدهم على مقتضاه بطريقتهم هم كما أن العدد الأصم نعد من الواحد وما بعده .

(٢) ثم اتنا كما نحلل المركبات فى المعامل الكيميائية إلى عناصرها كتحليل الماء إلى اكسوجين وأودروجين هكذا نحلل الأعداد إلى عواملها الأولية ، فتحليل الأعداد فى نفوسنا له نظير فى الخارج وذلك فى المركبات مثل تحليل عدد ٤٧٢٥ فانا نقسمه على ٣ فيكون الخارج ١٥٧٥ وهذا نقسمه على ٣ فالخارج ٥٢٥ وهذا نقسمه على ٣ فالخارج ١٧٥ وهذا نقسمه على ٥ فالخارج ٧ وهذا نقسمه على ١ فالخارج ١ فيكون ٤٧٢٥ يساوى $27 \times 25 \times 7 = 4725$ وهذا كما نقول الماء حل إلى ١٦ جزءا من الاكسوجين ، وجزءين من الاودروجين وزنا أيضا ، فالتحليل فى المادة أظهر حقائقها فتصرفت فانا فيها كما أظهر تحليل الحساب عوامله فتصرفت فانا فيها وانتفعنا بها ، هذا هو الفصل الأول من الفصول الأربعة .

الفصل الثانى فى عجائب العدد الكامل والاعداد المتحابة وحساب الجذر والتربيع ونحوها
وفى هذا الفصل مسائل : المسألة الأولى

العدد اما كامل وهو ما يساوى جميع مضاربيه مثل عدد ٦ فان مضاربيه هى ١ - ٢ - ٣ ومجموعها ٦ وكذلك ٢٨ فان مضاربيه هى ١ - ٢ - ٤ - ٧ - ١٤ يساوى ٢٨ فهو عدد كامل ، وان كانت المضارب أقل منه فهو ناقص مثل ١٠ فان عواملها ١ و ٢ و ٥ فهى ٨ فهذا عدد ناقص لنقص مجموع مضاربيه عنه ، وعدد ١٢ مضاربيه هى ٢ و ٣ و ٤ و ٦ والمجموع ١٦ فهو عدد زائد وأكثر الأعداد ناقصة أوزانده كما أن أكثر هذا النوع الانسانى غير معتدل ، والكامل قليل ، كما أن الكامل فى الانسان قليل ، فهو هكذا :

٦
٢٨
٤٩٦
٨١٢٨
١٣٠٨١٦
٢٠٩٦١٢٨
٣٣٥٥٠٣٣٦

وهكذا ، فترى أنه من عدد (١) إلى (١٠) لاعدد كامل إلا واحدا ، وكذلك من ١٠ إلى ١٠٠ وهكذا من ١٠٠ إلى ١٠٠٠ ومن ١٠٠٠ إلى ١٠٠٠٠ . وكذلك في هذا الجدول لاتجد في الأعداد من ١٠٠٠٠ إلى ١٠٠٠٠٠٠٠ عددا واحدا كاملا ، وهكذا لاتجد فيه من مائة ألف إلى مليون إلا عددا واحدا كاملا ، أليس هذا يشابه العالم الخارجي ، فأننا نجد الراديوم قليلا والذهب والبلاطين وغيرهما كثيرة ، ونجد لأنبياء والحكماء قليلا .

موازنة بين العدد الكامل والاصم

العدد الأصم يكثر لأنه نظير ذوى الاختراع في الصناعات والتبوغ في مخالف الحرف ، أما العدد الكامل فهو أقرب في ندرته إلى ندرة الأنبياء والحكماء والراديوم وهكذا .

المسألة الثانية

قد وجد العلماء أن عدد ١٢٠ يساوى نصف مجموع مضاربه ، فهذا أشبه بكونه نصف الكامل ، والمضارب هي : ١ - ٢ - ٣ - ٤ - ٥ - ٦ - ٨ - ١٠ - ١٢ - ١٥ - ٢٠ - ٢٤ - ٣٠ - ٤٠ - ٦٠ . ومجموعها ٢٤٠ ونصفه ١٢٠ ، ومثله في ذلك عدد ٦٧٢ فإنه يساوى نصف مجموع الأعداد المتدخلة فيه وهو ١٣٤٤ ونصفه ٦٧٢

المسألة الثالثة

الأعداد المتحابية مثل عدد ٢٢٠ وعدد ٢٨٤ وسموهم متحابين لأنهم وجدوا أن كلا منهما مؤلف من مضارب الآخر ، فإن (٢٢٠) يساوى مضارب (٢٨٤) وهى ١ - ٢ - ٤ - ٧١ - ١٤٢ ، و (٢٨٤) يساوى مضارب (٢٢٠) وهى ١ - ٢ - ٤ - ٥ - ١٠ - ١١ - ٢٠ - ٢٢ - ٤٤ - ٥٥ - ١١٠ إذن عندنا عدد لا مضارب له وهى الأعداد الأولية ، وعدد مضاربه أكثر منه وهو العدد الزائد ، وعدد مضاربه أقل منه وهو العدد الناقص ، وعدد يساوى هو نصف مضاربه وقد تقدم ، وعدد يساوى مضاربه وهو الكامل ، وعدد يساوى مضارب غيره وغيره يساوى مضاربه وهما العددان المتحابان ، فهذه ستة أنواع .

فلما سمع ذلك صاحبى قال : ما أجمل هذا العلم ، وما أبدع قوله تعالى : « الشمس والقمر بحسبان » ، والله إن شأن الحساب للحجب ! فقلت أيها الصديق : إذا سرك هذا فلا تسمعهك ما هو أعجب وأبهج وأبدع ، قل أحب ذلك ، فقلت : إن هذه الأعداد المتحابية أمكن العلماء البحث عنها واستخراجها . فقال وكيف ذلك ؟ فقلت : يجعلون عدد ٢ هو الأس . فقال ثم ماذا ؟ فقلت : ثم يأخذون ثلاثة أمثاله وستة أمثاله و ٩ أمثاله في مربع العدد وهو ٤ فيحصل عندهم هذه الأعداد بالتوالى ٦ - ١٢ - ٧٢ ، لأن ٢ في ٩ يساوى ١٨ و ١٨ بضربها في ٤ يكون ٧٢ . فقال : هذا واضح ، ثم ماذا ؟ فقلت : ينقصون من هذه الأعداد واحدا واحدا فتكون هكذا : ٥ - ١١ - ٧١ ، فإذا ضربنا ٥ في ١١ وضربنا الناتج وهو

٥٥ في ضعف عدد ٢ وهو ٤ كان الحاصل ٢٢٠ وهو أحد العددين المتحايين ، فأما العدد الآخر فكيفية إيجاده أن تضرب عدد ٧١ وهو العدد الثالث في ضعف عدد ٢ وهو ٤ كما فعلنا في العددين السابقين فيكون عندنا عدد ٢٨٤

فلنخص ذلك أن عددين ضربا في ضعف ٢ وعدد ٤ ضرب فيه أيضا ، وصار الأمر واضحا ، وأيضا أمكنهم استخراج الأعداد المتحابة من مكعب ٢ بالطريقة المتقدمة ، فيضربون مكعب ٢ وهو ٨ في ٣ ثم في ٦ ثم في ٦٤ وهذا الأخير هو مربع ذلك المكعب الذي هو ٨ فيكون الحاصل بالتوالي ٢٤ ٤٨ و ١١٥٢ فإذا نقصنا من كل واحد منها عدد ١ كان الباقي هكذا بالتوالي : ٢٣ - ٤٧ - ١١٥١ ، فإذا ضربنا ٢٣ في ٤٧ وهما العددان الأولان ، ثم ضربنا حاصل الضرب في ضعف المكعب المذكور وهو ٨ وهذا الضعف هو ١٦ فإن حاصل الضرب يكون ١٧٢٥٦ وهذا عدد متحاب أول ، والعدد المتحاب الثاني فعمل فيه ما فعلنا هناك ، فنضرب ١١٥١ في ١٦ أيضا فيكون الحاصل ذلك العدد ١٨٤١٦

وهذه القاعدة التي رأيتها أيها الذكي هنا يمكنك بها إيجاد أعداد متحابة لانهاية لها بجعلك قوة عدد ٢ هي الأس ، فالعدد المتقدم بقوتها الثالثة أي بضربها في نفسها ٣ مرات ، فقوتها الرابعة ، وقوتها الخامسة وقوتها السادسة : أي ضربها في نفسها ٤ مرات ، وضربها في نفسها ٥ مرات ، وضربها في نفسها ٦ مرات وهكذا يمكنك بها أن تستخرج أعدادا متحابة إلى ما لا يتناهي على شريطة أن تحافظ على هذا النظام .

ثم قلت : ومن أبدع الحكم وأعجب العلم ما استنبطه العلماء غير ما تقدم لايجاد قاعدة للأعداد المتحابة ذلك أنهم وضعوا صفا أفنيا مركبا من متوالية هندسية تصاعدية أسها ٢ وحدتها الأول ٢ أيضا هكذا : ٢ - ٤ - ٨ - ١٦ - ٣٢ - ٦٤ ثم يضعون تحت هذا الصف صفا آخر مركبا من هذا الصف مضروبا في ثلاثة فيكون هكذا : ٦ - ١٢ - ٢٤ - ٤٨ - ٩٦ - ١٩٢ ويضعون فوق الصف الأول صفا تكون أعضاده هي عين أعضاده بشرط أن تنقص ١ فهي هكذا : ٥ - ١١ - ٢٣ - ٤٧ - ٩٥ - ١٩١ إذن تكون الصفوف هكذا :

١٩١	٩٥	٤٧	٢٣	١١	٥
٦٤	٣٢	١٦	٨	٤	٢
١٩٢	٩٦	٤٨	٢٤	١٢	٦
١٨٤٣١	٤٦٠٧	١١٥١	٢٨٧	٧١	٠

وهذا الصف الرابع إنما حدث بضرب ١٢ من الصف الثالث في ٦ قبله فالحاصل ٧٢ وينقص ١ فيكون ٧١ وهكذا يصنعون في الحد الثاني فيضربون الحد الثالث من الصف الثالث في الحد الثاني منه أعني ٢٤ في ١٢ وي طرح من حاصل الضرب ١ وعلى هذه الكيفية يحصل الحد الثالث والرابع وهكذا .

وهذا الجدول تؤخذ منه لأعداد المتحابة ، أفلا تلاحظ أنك إذا أخذت ٧١ وهو الحد الأول من الصف الرابع وضربته في ١١ وهو الحد المقابل له من الصف الأول فانك تحصل على عدد ٢٨٤ ولوضربت عدد ١١ في العدد الذي تحته وهو عدد ٤ لحصل عندك عدد ٤٤ فيضربه في ٥ الذي على يمين ١١ يكون عندنا ٢٢٠ وهذان العددان هما العددان المتحايان المتقدمان ، وبهذه الطريقة يمكن استخراج أعداد متحابة كما تريد بشرط أن تكون الأعداد المختارة بهذه الطريقة أعدادا أولية لا غير .

فلما سمع ذلك صاحبي قل : إن هذا الموضوع طال ، وكان الأولى أن نقف بنا عند القاعدة المتقدمة

قبل هذا الجدول ، أما هذا الجدول فإن أعمله كثيرة ، وشروطه كثيرة ، وعوضه على فهو على قرأه هذا التفسير أصعب جدا ، فما كان يليق ذكره في تفسير آية : « الشمس والقمر بحسبان » . فقلت : أما هذه الصعوبة فأنا أعانها وأنا أكتب هذا قصدا . فقال : لماذا ؟ قلت : لأن هذا عجبا عجبا ! فقال : وما هو ؟ قلت لسرّ مدون ، وجوهه مكنون :

* ومن خطب الحسنة لم يغناها مهر *

لأنه يحسب المجد ثم أنت آتية * لا تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

أبها الأخ الذكي : إن أمة الاسلام اليوم يجب أن تأتي إليها العلم لتفكر في أمرها ، وتبحث في الأرض وفي السماء ، أذكرك أبها الذكي بما مر في (سورة الحجر) عند قوله تعالى : « وأنبتنا فيها من كل شيء موزون » . فقال أذكرك ذلك . فقلت : ماذا رأيت هناك ؟ فقال : رأيت هناك نظام النبات وهو مرسوم ، وهناك مناسبة عجيبة بين أوراق الأشجار (اقرأ هذا المقام وانظر صوره البديعة هناك إن شئت)

ثم قالت له : إن بين أوراق النباتات المختلفة مناسبات عديدة : ولكل صف علاقة مع بعض الصفوف الأخرى ، أليس هذا هو نفس الوزن ، وهذا الوزن اشتق منه الميزان المذكور في هذه السورة ، فإذا سمعنا الله يقول هنا : « والنجم والشجر يسجدان ، والسماء رفعها ووضع الميزان ، ألتفطعوا في الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ، والأرض وضعها للأنعام ، فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام ، والحب ذو العصف والريحان » . فذلك كله بحساب موزون كوزن النبات . قال نعم . قلت : أجل الله وجل العلم ، فإذا أنا أبها الأخ الذكي أثبت بالأعداد المتحابة ووضعت الجدول المذكور وهو الصعب فلم أضعه جزافا . كلا . إن المضطر يركب الصعب من الأمور وهو عالم بركوبه ، فأنا لأن أريد أن أبين أن الحساب الذي فطرنا عليه وهو حقائق ثابتة لا تتحول لها ولا تغير ، بل يستحيل تغييره قد قام عليه نظام العالم ، فكما وجدنا الأعداد المتحابة في نفوسنا ذات نظام ثابت ، هكذا وجدنا الأوراق في الأشجار لها ذلك النظام الثابت ، ووجدنا لها جداول ذات ارتباط وانتظام كالانتظام الذي رأيناه في نفوسنا عند دراسة الأعداد المتحابة .

فواحسرتنا على المسلمين أولا ، وعلى نوع الانسان ثانيا ، جهل هذا الانسان نفسه ، وجهل ربه ، يدرسون الحساب وأكثرهم يعيشون ويموتون وهم لا يفكرون : « قتل الانسان ما أكفره » .

فياليت شعري أبها الأخ الذكي كيف نرى نفوسنا مغطورة على الحساب والنظام البديع ، ثم نجد نفس ذلك النظام أو ما يشبهه في نظام الكواكب ، ونظام النبات ، ونظام الحيوان .

الله أكبر : ان دراسة هذه العجائب هي السعادة ، أليست هذه هي الباب والسلم لمعرفة عجائب نفوسنا ، إن نفوسنا مغطورة على الحساب ، والحساب كلهم فيها ، والحساب جبل بديع مشوق لما فيه من البدائع والعجائب ، وهذا الحساب الذي عرفنا طرفا منه ثابت في علم الله عز وجل ، وقد بنى نظام الدنيا عليه ، وبهذا نفهم معنى : « الشمس والقمر بحسبان » . ونعرف مئات الآيات من القرآن إذ يقول : « اسكل أمة أجل » ويقول : « لا يستقدون ساعة ولا يستأخرون » ويقول : « وكل شيء عنده بمقدار » ويقول : « إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير » ومن هنا نشعر بمعنى القضاء والقدر ، ومن هنا نعرف كيف يكون تهذيب الأخلاق .

فقال : تهذيب الأخلاق ! لعل هذا خروج عن الموضوع ؟ فقلت هو في نفس الموضوع ، بل هو تقيم له . فقال : إن الموضوع هو أن عجائب الحساب تعطينا نموذجا ضئيلا يعرفنا نظام الله وقدره وعجائب صنعه ، وأن هذه العوالم منشآت على حساب فطرت عليه نفوسنا ، وهذه حقائق ثابتة ، والله يقول : « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ، ما خلقناهما إلا بالحق » . وهكذا ، فهنا عرفنا أن هذه العوالم بنيت على حقائق ونفوسنا تشعر بطرف من هذه الحقائق ، فأما الأخلاق فهي شيء آخر . فقلت : إن تمرين الطلاب

في مدارس العالم قاطبة على مقدار معرفتهم في العلوم الطبيعية والعلوم الرياضية بحيث تصقل نفوسهم بحميد الصناعات وجبل الأفعال ، لأن تلك النفوس تشعر بحجمال وانظام ثابت في هذه العوالم فيكسبها صفة الجلال والبهاء والعدل والظام ، فيظهر ذلك في أفعالها . فقال : هذا مقبول عقلا وتؤيده أفعال الانسان ، لأنني ريت الخلاق حينما يأتي له صي - ليعلمه يأمره أن يتف زمنا وهو يشاهد مزاولة الخلاق ، فيكون ذلك أول باعث له على التقليد وسهولة العمل ، وللشاهدة أثر فعال ، فهكذا مزاولة العلوم الطبيعية والرياضية ، ولكن أنا أريد نصا من القرآن على ما نقول ، لأننا الآن في تفسيره ، وإن يعتقد المسلمون هذا القول إلا بنص من القرآن بشرط أن يكون في هذه السورة . فقلت : إن النص فيها ، ألم يقل الله تعالى : « ووضح الميزان ألا تظفوا في الميزان » يقول : نصبت الموازين في سمادائي وفي أرضي ، وخلفتكم فيها لتشاهدوا أفعالي بالبحث والتقيب ، فتتربى ملكاتكم على النظام ، ومن أحب عملا أحب تقليده طبعاً ، فيكون ذلك داعياً لكم أن تزونا أعمالكم فلا فراط ولا تقصير . فقال : الحمد لله الذي علم الحكمة وهدي ، وسيكون لهذا القول ما بعده ، وستكون في الاسلام أمة لم يعلم بها التاريخ ، فإن تفسير الآية اللفظي من غير تدقيق لا يعطى كمال هذه المعاني التي تغلب عقول النوع الانساني وتغيره من حال إلى حال .

انحطاط تعاليم الحساب في بلاد الاسلام

وهل له نظير في المشاهدات الحسية

وكيف عرف الاوروبيون أن الأخلاق تصقلها هذه العلوم ، وإذا كانت أخلاق المتعلمين منهم شريفة فماذا نراهم يتعلمون في الشرق ؟

ولكني أريد أن أسألك إذا أذنت لي في بعض أمور مرتبة على هذا النظام الحسابي . فقلت : حيا وكرامة فقال : [أولا] اني وأنا مجاور بالجامع الأزهر كنت أطلع على بعض كتب نحو [شمس المعارف الكبرى] للبوحي فأجده يذكر هذه الأعداد المتحابة ، ويقول : نمزج أعداد اسم الرجل بأعداد اسم المرأة الخ وله هناك دعوات ونحو ذلك ، إن المطلع على هذه الكتب يظن أن هذا من الدين . فقلت : اعلم أن هذا الموضوع لا يتم فهمه إلا بمثل وهو نهر النيل ، إن نهر النيل يستمد ماءه من المطر النازل من السماء ، وهذا المطر ينزل بعضه فيدرن ثلجا فوق الجبال العالية هناك ، وإن كان ذلك في خط الاستواء لشدة الارتفاع ، وبقية المطر ينزل بعضه في باطن الأرض ، وبعضه يجري على ظهرها ، والذي يجري على ظهرها هو الذي ينزل في البحيرات هناك ، ومنه يكون نهر النيل ، والثلج فوق الجبال يمد النهر طول السنة بما ينحل من مائه بجملة الشمس ، فإذا مر الماء في بلادنا إلى البحر الأبيض المتوسط في الزرع وأدر الضرع ، ولكن بعض الماء يتفرد ولا يتصل بالنهر فيكون في برك ومستنقعات ، فهو منفصل من النيل المتصل بالبحيرات والمطر والجبل ، وهذا الماء المنقطع هو من أفعال الله عز وجل ، ومعلوم أن الله هو الرحمن ، فرجته تسري في كل شيء ، فهذه البرك والمستنقعات لا يصلح ماؤها للشرب ، بل تكون ضارة للانسان والحيوان ، فيخلق الله عز وجل فيها الناموس والذباب والحشرات ، ويعطيها من رحمته قوة وسلاحا ، ويحفظ نسلها مهما حاربها الانسان وآذاها ، لأنه [أولا] يريد بقاء هذه الحيوانات وتكاثرها لأنها مخلوقاته [وثانيا] يجعلها معطرات للجو [وثالثا] يجعلها جنودا تقتل هذا الانسان الجاهل النظام حتى يرجع عن جهله .

إذا فهمت هذا الأخ الذكي فاعلم أن الأمم جميعها في أول أمرها تكون نشطة مفكرة ذكية ، فإذا حل بها الضعف ، وانتابها الخور ، فكثت أوصال علومها ، ونحت عراعا ، واستعملت العلوم في غير ما وضعت له ، وأصبحت تلك العلوم فيها أشبه بالناموس والذباب وبقية الحشرات فلا تزال تؤذي .

والحشرات مژذيت ، ولله فيها أيضا رحمة ، فهو كما خلق الحشرات وجعل حياتها جارية على قوانين ، هكذا اذا جهلت الأمم أصول علومها تبعثت تلك العلوم وتناثر بعد أن كانت قلادة واحدة ، فترى علم الأعداد مستعملا في غير ما وضع له بحيث نرى الأعداد المنحابة المتقدمة قد جعلت لأمور صيدانية بعد أن كانت دراستها لمعرفة الحكمة ، ونظام الخليفة ، وحب صانع العالم ، والتمسك من العلوم ، لسعادة الحياة وارتقاء الانسانية ونرى علم النحو والصرف والمعاني والبيان والبديع لا تتجاوز معرفة أنفاذ القرآن فيضيع العمر فيها ويقف العقل عندها بعد أن كانت مقدمات لمعرفة أمثل هذه الأسرار ، ونرى علم الفقه وأصوله لا يقصد إلا لمعرفة آراء الشافعي وأبي حنيفة أو نحوهما مع بقاء عقل الطالب في قيد ذلك الامام لا يتجاوز مع ان الاصول ما وضعت إلا للاجتihad لا للاستعداد ، ثم ان القاضي يتولى القضاء افرض التدبسط في الحياة ، وحوز الدرهم والدينار ، مع ان هذا ترف ، والترف أصل الشقاء في هذه الحياة نفسها ، والقضاء في زماننا هم الذين يطلبون القضاء لأجل المال ، ولأجل الترف والتنعيم في الحياة ، كل ذلك لأن هذه العلوم تقرأ والطالب ذاهل عن أصل وضع الدين ، لأن أصل الدين جاء ليجعل في الناس طبقة تكون سياجا للأمة وقوادها ، والنوادر يكونون أقرب إلى الزهد ، وهكذا الملوك والأمراء كلهم يحرمون على المال لأنفسهم لا للدولة ، وكل ذلك ناشئ من الجهل بأصول الحياة وأصول الدين : فإن صاحب الشرع ﷺ لم يحرم المال لنفسه بل للأمة ، وعمر رضى الله عنه كذلك وبقية الخلفاء ، غاف من بعدهم خلف جعلوا الامارة مفعما ، فهو لاء وهو لاء أشبه بالحشرات العائشات في البرك والمستنقعات ، والتشبيه صحيح لأن الذين يقرمون سورة يس لأجل جاب الرزق ، أو الذين يكتبون وفقا محسوبا بهيئة خاة لأجل ذلك ، أو الذين يتولون القضاء أو الامارة وهم غافلون عن حقائق ما هم بسدده أو الذين يتولون الزعامة لاعطاء اليهود ولكن قصدهم جمع المال فقط ، فهو لاء وهو لاء لافرق بينهم وبين الحشرات في البرك وفي المستنقعات ، ومثلهم في ذلك الذين يحسبون [بالزارجة] فهو لاء لهم حساب منظم نظاما بديعا ، وقد يكون وراء هذا الحساب اخبار ببعض الحقائق ، والأكثر منه يتخلف كما حققته أنا معهم ودرسته دراسة تامة ، وهكذا الذين يعرفون علم الرمل وأمثالهم ، ومثلهم من يحضر الأرواح اقصد المنافع الدنيوية ، فشكل هو لاء يجب الاستيقاظ لهم .

على قادة الأمة (وهل القادة إلا المفكرون الذين قرءوا علوما شتى ومنهم قراء هذا التفسير) أن يحذفوا من البلاد الاسلامية تلك الكتب التي فيها اليازرجة والرمل ، وأمثال كتب البوني ، فهذه مضعفات للعزائم ، فإن الانسان يترك العمل ويتسكل على الأمل ، وجميع ذلك يضرر الأمم ضررا بليغا ، لأن الساحر وأمثاله يريدون أن يعيشوا على حساب الأمة ، وهذا هو الوبال والضلال ، بل يجب أن نحصى الأمة ولا يترك أحد بغير صناعة ، فهذا هو الواجب الآن .

فقال صاحبي : لقد شفيت صدرى في هذا السؤال فارجوا لاجابة على السؤال الثاني . فقلت سل ما تشاء :

السؤال الثاني

إن هذا القول أحدث عندي اشكالا واشكالا وحيرة ، إنك أثبتت من القرآن في هذه السورة أن العلوم الرياضية والطبيعية تصطلح العقول وتهذب الأخلاق : أى تساعد على ذلك ، ولكن يقتضى هذا [أمرين : الأول] أن أبكر وعمر رضى الله عنهما وبقية الخلفاء الراشدين كانوا على سداد في آرائهم وفضل عظيم ، وقد أجمع الناقدون من الأمم المعاصرة لنا أن أبكر وعمر رضى الله عنهما كانا أذكي وأعدل من قيصر وكسرى في زمانهما مع ان المدارس في القرس والرومان كانت مكنتة بالطلاب ، وهو لاء الملوك تعلموا فيها ، فكيف وجدنا من لم يقرأ رياضيات ولا طبيعيات أعدل وأتم أخلاقا من القارئ المتعلمين [الأمر الثاني] أن بعض الأوروبيين الحاليين الذين يقرءون الرياضيات والطبيعيات هم شر خلق الله على الناس وعلى

أنفسهم . ثم أخذ يقول : وأى دليل أتم وبرهان أعظم على نقض هذه النظرية مما نراه من التوازن بين أخلاق الأوروبيين الذين في زماننا وهم بلاسراء دارسون هذه العلوم ، وبين أخلاق الصحابة الذين لم يدرسوها أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وسرد ماجاء في الجزء الثانى من كتاب « حاضر العالم الاسلامى » من أن الأمم الأوروبية في هذه الحرب الكبرى عاهدوا المسلمين ونقضوا العهود ، فهذه أمم ناكثة لا يهدى لايوثق بها . ثم قل : أليس من أفبح الأخلاق نقض العهد الأول يقرأ هؤلاء هذه العلوم ؟ ثم لننظر ماجاء في سيرة عمر بن الخطاب رضى الله عنه في كتاب « أشهر مشاهير الاسلام » فقد جاء فيه في صفحة ٣٣١ تحت العنوان الآتى مانصه :

خبر جندى سابور ، وأمان عبد أمضاه جيش المسلمين

روى الطبرى أن أبا سيرة لما فرغ من السوس خرج في جنده حتى نزل على جندى سابور ، وزر بن عبد الله بن كليب محاصرهم ، فأقاموا عليها يعادونهم ويرادحونهم القتال ، فلم يفجأهم يوما إلا وأبواب البلد تفتح ، ثم خرج الناس وخرج الأسواق وأبث أهلها ، فغار المسلمون من ذلك ، وأرسلوا فسألوه أن مالكم قلوبا رميم إينا بالآمن قبلناه وقررنا لكم بالجزء على أن تمنعونا ، فقال المسلمون ما فعلنا ، فقال أهل جندى سابور ونحن ما كذبنا ، فسأل المسلمون فيما بينهم ، فإذا عبد يدعى [مكثفا] كان أصله منها هو الذى كتب لهم ، فقالوا إنما هو عبد ، فقالوا إنا لانعرف حرك من عبدكم قد جاءنا أمان فنحن عليه قد قبلناه ولم نبذل فان شئتم فاغدروا ، فأمسكوا عنهم وكتبوا بذلك إلى عمر فكتب إليهم يقول : إن الله عظيم الوفاء فلان تكونون أوفياء حتى تفوا ، مادتم في شك أجبروهم وفوا لهم ، فوفوا لهم وانصرفوا عنهم اه

ولما أتم هذا المنال حذق ببصره إلى وأخذ يقول : إن النظرية لاحظ لها من الحقيقة ، فهذه أولاء اقياصرة والأكسرة قديما ، وهكذا ساسة أهل أوروبا حديثا سقطوا في الميدان الأخلاقى وهم الدارسون لهذه العلوم ، والصحابة وعمر لم يخونوا العهد وصدقوا ما عاهدوا ، وأهل أوروبا اليوم ناكثوا العهود .

جواب هذين الاعتراضين

فقلت أيتها الأخ الذكى : إن الأمم لها دوران : دور البداوة ، ودور الحضارة ، فهى في دور البداوة تكون أقرب إلى الخير لأنها لاتزال على الفطرة ، ولا يعوزها إلا أمران : إزالة الخرافات في العقائد ، وهدايتهم إلى الصراط المستقيم فى الأخلاق ، ومتى زال هذان العائتان انبعثت الفطرة إلى الأعمال الصالحة لأنه لا غشاة تحجبها ، ولا غطاء ، ولا ران عليها ، وهذا جوابى على اعتراضك الأول ، فإذا رأيت أبا بكر وعمر وبقية الخلفاء أفضل من ملوك زمانهم ، فذلك ان هؤلاء الملوك قد حجبت عنهم فطرتهم بالحضارة وغشوات الزلات المنسكرة افقشية فى الأمم التى طال عليها العهد وقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون .

فأما الأمم فى دور الحضارة من الشرور والشهوات والطمع والبغى تكزن حجابا على القلوب فلا بد من دراسة العلوم الرياضية والطبيعية لتصفى النفس فتقرب من فطرتها ، وتحب الحق الذى درسته لأنه مخزوء فى النفس وظاهر فى الطبيعة ، ففى شهادته أخذت ترجع إلى فطرتها شيئا فشيئا ، وذلك من غير جدال شأن جميع الطبقة المتعلمة فى الأمم الراقية ، وهم بلا جدال حافظون لسيان دولهم ، وعندهم عدل بقدر ما كانهم . فقال : ما دليلك على هذا ؟ دليلى اننا نرسل أبناءنا يتعلمون القوانين فى مدارسهم ، وأيضا ان الأمم التى تغير على بلادها بقضها وقضيضها وغلبنا ، لن يتم ذلك لها إلا بحفظ بلادها أولا ، لأن الأمم أشبه بالآلات

التي أستخرج الماء من الأرض ، فكل صناعة وعلم جزء من تلك الآلة ، والتي فسدت قطعة منها وقفت حركتها ، فإذا كننا نراهم على هذا النمط فن المستحيل أن يكون القضاء مجبواين على الظلم والاختلال النظام وبقوا في بلدهم جائعين .

فقال : هذا حق ، ولكنني أقول انهم يظلموننا نحن ، وقد وازنت بين إخلافهم وعدنا وبين وفاء الصحابة . فقلت : حقا إن هؤلاء القوم أخلفوا عهودهم معنا ، ولم تنفعهم ثقافتهم بالعلوم ، والصحابة كانوا أقرب إلى العدل مع الأمم منهم ، ذلك لأن هؤلاء أشبه برجل اتبع رأى الأطباء في الطعام والشراب فأكل الفاكة والخضر ولكنه ابتلى بشرب الخمر واتبع الشهوات ، ف هؤلاء وإن غذيت عقولهم بالعلوم الطبيعية والرياضية وصلحت كما تصلح الأجسام بالأغذية الصحية اتنابتهم أمراض اجتماعية أفسدت نظرتهم بالنسبة للأمم الشرق كما يفسد الجسم المعتدل بالأغذية الطبيعية إذا شرب الخمر أو أكثر من التبغ والقهوة والشاي والمخدرات الأخرى .

إن هذه الأمم يعطون تلاميذهم في جامعاتهم وكنياتهم درسا خافيا بأهم الشرق فيقولون : إياكم أن تعاملوا هذه الشعوب معاملة الأوروبيين لأننا نريد أن نقيمهم على حال أدنى ليكونوا تحت طاعتنا خاضعين ، وهذا جوابي عن اعتراضك الثاني ، ولا فرق بين هؤلاء الأوروبيين الذين يذلون الأمم الشرقية وبين كثير من أسلافنا بعد عصر الخلافة الذين ظلموا الأمم وخربوا البلاد (اقرأه في مقدمة ابن خلدون وارجع إليه في سورة النمل عند آية : إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها) الخ . فقال : شرحت صدرى شرح الله صدرك وبهذا تم الكلام على الإجابة على السؤال الثاني ، والحمد لله رب العالمين .

ملخص مناقدم

هناك أخذ صديق العالم يحدثني في هذا الموضوع قائلا : إني أخاف أن يكون هذا القول خارجا عن الموضوع ، نحن في آية « الشمس والقمر بحسبان » والتي لما سمعت منك أن دراسة هذه العلوم تعلم العدل خرجت عن الموضوع بذكر السياسة بين الشرق والغرب ، وأردت بذلك اختبار طريقتك ، هل مايقوله كثير من الناس حق بالنسبة لك من حيث أنك دائما تخرج عن دائرة التفسير ؟ فقلت : إن مايقوله كنت لأحفظه أثناء كلامك وأعلم أنك تريد اخراجي من الموضوع استدراجا ، ولكنني أنا أعلم أن الكلام لم يخرج عن الموضوع فما رأيته أنت نقصا للأسلوب أراه أنا كمالا . فقال وكيف ذلك ؟ فقلت : اتنا قلنا ان العلوم كلها مبنية على الحساب ، والحساب ثابت في النفس ، والعالم على مقتضاه ، قلنا ان الأعداد الأولية أقل من الأعداد التي تقبل القسمة ، وأن الأولية يعوزها بعض البحث ، والأعداد الكاملة تحتاج إلى بحث أتم ، والأعداد المتحابة العجيبة يعوزها تنقيب أكثر لجالها ولقائتها وبدائعها ومعجائبها ، وأن هناك المتواليات الهندسية والعديدية ، والجذر والتربيع ، والكسر الدائر وغير الدائر ، وأثبت أن هذه العلوم تصقل العقول ولها دخل في تهذيب الأخلاق ، فلما اعترضت أنت على ذلك بأعمال الأكسرة والقيصرة ، وبأعمال أهل أوروبا أجبتك بما أقنعك ، وبعد هذا وذاك أرى أن هذا كله في تفسير الآية ، ألم ترعائك الله أن الشمس والقمر مبنيان على الحساب . قال بلى . قلت : والزروع بأقسامها كلها مبنيات على حساب الشمس والقمر . فقال بلى . قلت : أليست هذه هي العلوم الطبيعية والرياضية ؟ قال بلى . قلت : أوليس قوله تعالى : « ووضع الميزان ألا تظفروا في الميزان » راجع لعلم الأخلاق والسياسة معا لأن السياسة أخلاق أيضا في ساحات أعم من الأخلاق الفردية . قال بلى وربى . قلت : إذن ما أوردته أنت لم يخرج بنا عن الموضوع بل هو أعظم له وأنت في ذلك من المصلحين . قال الحمد لله والشكر له ، وبهذا تم الكلام على الفصل الثاني في العدد الزائد

والناقص والأعداد المتحابة فلا يبتدئ في :

الفصل الثالث في الجذر والتريع

والتوالي العددية والتوالي والطدية

ولأريد أن أطيل الكلام على بقية المواضع هنا ، فنأراد فليراجع ما تقدم في ﴿ سورة الذاريات ﴾ عند آية : « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » في المجلد الثالث والعشرين من هذا التفسير ، وإلى هنا تم الكلام على اللطيفة الثانية في عجائب الحساب في سورة الرحمن ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثالثة

زيادة ايضاح قوله تعالى : يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان

اعلم أن الأدلة على ثلاثة أنواع : طبيعية ، ومولدة ، وصناعية ، وهذه سنتكلم عليها من [طريقين] : الطريق الأول [تميز كل منها ، وبيان نفعها المادى في التجارة] [الطريق الثانى] بيان جلالها العلمى في الحكمة .

الكلام على الطريق الأول وهو تميز أنواع الأدلة الثلاثة

اللؤلؤ الطبيعي

لقد تقدم الكلام عليه في [سورة الفاتحة] وهناك بيان أنه يتخلق في [المحار] الذى يعيش في البحار ويتكون في بطنه ، وهناك ايضاح كاف لحياة وأوصاف هذا المحار ، ونريد عليه هنا أن نقول : لقد اختلف العلماء في سبب تكون اللؤلؤ في جوف المحار ، فمن قائل : ان اللؤلؤ يتكون بسبب حيوان حلى صغير يدخل جسم المحار فتجتمع حوله المادة اللؤلؤية لتقلبه ، وقد بحث (هردمان) و (هورتل) في لؤلؤ سيلان قتالا : ان في قلب كل أولوة بحشنا فيها نواة هي بذرة دودة من نوع الدود القرعى ، ووافقهما غيرهما على ذلك .

فهذان العالمان ومن وافقهما عينا نوع ذلك الداخل الغريب في جوف [المحار] الذى اجتمعت حوله مادة اللؤلؤ .

وقال الدكتور [جايموس] قولاً لا يخالف ما تقدم بل يرفعه فقط ، ذلك انه امتحن نوعاً مخصوصاً من محار اللؤلؤ فوجد انه تحل في الدودة الحلمية المعروفة بلفظ [جنوفالس] وهذه الدودة يحيط بها كيس من نسيج بشرة المحار الذى يفرز المادة الصدفية ، فاذا ماتت أو خرجت من الكيس أخذ الكيس يفرز المادة اللؤلؤية طبقات بعضها فوق بعض فيكون أولوة ، ولا يتكون هذا الكيس حول جسم آخر اذا دخل أنسجة الحيوان سواء أ كان هذا الجسم جاداً أو حيواناً حليماً غير [الجنوفالس] إذن هذه الدودة المخصوصة هي سبب تكون اللؤلؤ في هذا النوع من المحار ، أما غيره فانه يتكون بأي جسم غريب دخل المحار بدليل ما سياتى في اللؤلؤ الصناعى وانه يتكون بادخال أى جسم .

اللؤلؤ المولد

لما عرف الناس ما سبب تكون اللؤلؤ في جوف المحار قلوا لماذا لا نريه كما نرى الدجاج والسمك وسائر الحيوان ؟ فعمدوا إلى المحار ، وأدخلوا في جوف كل واحدة منه [هنة صغيرة] كالهنة التى تدخل في الهية الطبيعية فتكون اللؤلؤ ، ولكنه يحتاج إلى زمان طويل كالذى يقضيه في اللؤلؤ الطبيعى ، فأخذوا يدخلون في جوف المحار [هنة كبيرة] فهذه يتكون حولها اللؤلؤ سريعاً على مقدار كبر حجمها ، وقد

كسب القوم بهذا في التجارة مالا كثيرا بسبب العلم ، ولولا العلم بسبب تكون اللؤلؤ ما أمكنهم تربيته ولا تقصير زمنه ولا اكثاره ، ولا يعرف اللؤلؤ الطبيعي من المولد إلا بأشعة [اكس] .

اللؤلؤ الصناعي أو المقلد

جاء في تاريخ اللؤلؤ أن رجلا فرنسيا سنة ١٦٥ م يسمى [جاكون] كان يغسل نوعا من السمك في ماء عذب ، فرأى في غشائه لمعانا كالمعان اللؤلؤ حين يحف ، ففطر له أن يطلى به خرزا من الزجاج بعد مزجه بشيء من الشمع حتى يعلق بالزجاج ، ففعل وصنع أول لؤلؤة صناعية في التاريخ ، فاشتهرت لآله وأقبلت عليها الغواني في ذلك العصر ، وصارت الدانيس لا تحسب جواهرها كاملة ان لم يكن بينها عقد من هذا الخرز اللامع ، وقد أصبحت هذه صناعة فرنسية أشار لها العالم [زوير] سنة ١٧١٦ ومصدر هذه المادة نوع من السمك يسمى [اليدوس لوسيدوس] وفي انكثرا يستخرجونه من قشر سمك [ارنكة] الهرنغ ، فهذه الأسماك تغسل بالماء العذب غسلا لطيفا حتى تنظف من الملح والقذر ، ثم تحك الحراشف التي على بطنها بقما سكين فتترسب المادة اللؤلؤية في الماء ، وإذا أريد حفظها في الماء أضيف له شيء من [الامونيا] حتى لا يتطرق الفساد إليها سريعا ، وكيفية صنع الخرز الذي يطلى بهذه المادة اللؤلؤية هو ما يأتي :
(١) أن يؤتى بخرز فارغ من الداخل يستحضر بنفخ زجاج عادي غير ملون في قوالب صغيرة بحسب الحجم المطلوب .

(٢) أن يؤتى بكتل صلبة من الزجاج ، فانوع الأول من الخرز الزجاجي يطلى من الداخل ، ثم يحشى بنوع من الشمع ملون أو غير ملون ، أما النوع الثاني فيطلى من الخارج إذ لا جوف له يطلى ، وهذا يفوق الأول في مشاكته للؤلؤ الحقيقي ، ولكن ظلاؤه معرض للثبور بخلاف الأول ، ونحن العقد الواحد من هذا النوع من ريال إلى جنيه فقط . انتهى الكلام على الطريق الأول وهو تمييز أنواع اللؤلؤ ، والمجد لله رب العالمين .

الطريق الثاني : بيان جمالها العلمي في الحكمة

هذا الطريق الثاني لا يتسنى معرفته إلا بعد فهم الطريق الأول ، لذلك قدماه ، ان الله عز وجل جعل هذه الدنيا ونظامها مرقاة للعقول الانسانية ترتقى بها إلى معارج الحكمة ، فانظر إلى نظام اللؤلؤ ، وما اللؤلؤ إلا طبقات دقيقة (مبلورة) أي مشككة بأشكال منتظمة من كربونات الجير ، ثم ان هذا الذي نشاهده من الألوان الزاهية على سطحها لم يكن شيئا سوى تكسر أشعة النور على هذه الطبقات الدقيقة ، هذا هو اللؤلؤ وهذا هو السبب في جماله ، وهنا يتبدى العجب في العلم فنقول :

اللؤلؤ إذن جبر مع كربون : أي جبر مع ختم ، مادتان اتحدت إحداهما بالأخرى اتحادا خاصا بأجزاء محدودات ، امتصهما المحار من ماء البحر ، فالمحار هو الذي يتغذى بهذه المواد الجيرية والمواد الفحمية وغيرها وهذا الغذاء يصطفي منه هاتان المادتان : الجير والفحم ، ثم يصيران جسما متحدا واحدا ، وهذا الجسم يلمع لماذا يكون هذا الجلال ؟ ذلك الجلال بسبب ضوء الشمس وغيره ، فضوء الشمس الآتي لنا من طبقات بعيدة يقع على هذا الجسم الجبري الفحمي ، فيجد هناك ذرات منتظمة تحيط بهذا الجرم صالحة لأن تعكس عنها ذلك النور فيحصل تموج باهر وجليل ، فهذا هو جمال اللؤلؤ ، هو ناشئ من تدبير في باطن المحار ، وتدبير في ضوء الشمس ، وتدبير في هيئة خلق اللؤلؤة ، فهناك مادة من جبر وختم ، وهناك نظام الذرات المنظم ، وهناك شعاع الأنوار كالشمس ، وهذا قوله تعالى : « إن ربي لطيف لما يشاء » فظهر هنا في هذا كما في غيره لطفه في صنع اللؤلؤ ، إذ استخرجه من مواد معروفة عندنا لا يريق فيها ولا لمعان ، فما هو الفحم ؟

إن هو إلا مادة مظلمة تحرقها فتستدفئ بها ، وبها تجري التطارات والسفن في البحار ، وبها ندير آلاتنا ،
ونضع خبرنا وما نريد من الأعمال ، ومنه اشتقت مئات الألوان في الصباغة ، وهكذا كان الغاز الذي تضاه
به شوارع المدن الكبرى كالقاهرة والاسكندرية وغيرهما ، إن الفحم أراكربون هو نفس الماس على شرط
أن يكون نقيا وهو الماؤلؤ على شرط اتحاده ، مع الخبر ، إن الله اشتق من هذه المادة الماؤلؤ وما سكا اشتق
العقل في الانسان من المادة الجامدة ، إن الفحم المظلم قد اشتقت منه الأنوار ، واشتق منه الجبال ، فالأنوار
معردة مشاهدة ، وهكذا أنواع ألوان الصباغة ، وأما الجبال فهو ما نحن بصدده من الماؤلؤ الجبلية ، جعل الله
الجبال هنا من مادتين منبذتين : الفحم والجبرلين للناس أن كل ما حولكم فيه أسرار لانهاية لها بل كن
في كل مخلوق جمال لا يدركه الناس إلا بالعلم ، وأكثر هذا الانسان مغرورون محجوبون ، والعلم هو الذي
يوقظهم لأمرين : رقي دنيوي ، ورقي نفسي ، أما الرقي الدنيوي فكل ما ظهر في هذا المقام من توليد الماؤلؤ
وعدم الاكتفاء بما يكون من المحار بحسب طبيعته كما قال تعالى : « يخرج منهما الماؤلؤ والمرجان ، فبأي
آلاء ربكما تكذبان » فجعل ذلك من الآلاء أي النعم ، وذكر لفظ رب وأضافه للمخاطبين فقال ربكما أيها
الانسان ويأيتها الجبال ، وذلك ليدلنا على أمرين : تربيتهم هو سبحانه لهذا الماؤلؤ ، وتربيتنا نحن له ، وهو
الماؤلؤ المولد فإن الناس يربونه الآن ، ولعمرك ما ذكره الله هنا وعبر بما فيه معنى التربية إلا ليوقظ المسلمين
إلى أن في ذلك علما يجب دراسته وجوبا ككتابنا الرقي العقول ولرقي الصناعات بالتربية العملية من نوع
الانسان هذا الماؤلؤ ، وكرر الله لفظ « رب » وراء كل نعمة من النعم في هذه السورة ليقاظ لنا أن تفكر
في تربية هذه العوالم كلها وتقف على الحقائق ، وهذا هو سر الفتح التي يقرؤها المسلم صباحا ومساء فيقول
« الحمد لله رب العالمين » .

فسورة [الرحمن] التي جئت ذكر المخلوقات في الدنيا والمخلوقات في الآخرة قد تاطت ذلك كله بالتربية
وأفادت إضاح [سورة الفاتحة] وبيئت التربية وأنواعها إجمالا ، فلم تذكر شمسا ولا قرا ولا نجما ولا شجرا
ولاسماء ولا أرضا ولا فاكهة ولا نخلا ولا حبا ولا عصفرا ولا ناسا ولا جانا ولا شرقا ولا غربا ولا بحرا ولا برزا ولا مؤلؤا
ولا مرجانا ولا نارا ولا نحاسا ولا سفينة في بحر ولا جنة ولا حورا عينا ولا غيرها إلا ذكرها معا بما فيه النعمة
وبالتربية ذكرى للمسلمين بعدنا ، فيقرءون هذا القول وأمثاله ، ويدخلون في بحر رحي من العلم والحكمة
وهم محمّدون .

من عجائب هذا المقام أنك ترى أن أنواع الماؤلؤ لم تفارق البحر سواء أكان طبيعيا أم مولدا أم كن
صناعيا ، ألم تر أن الصناعات إنما هو عبارة عما يكون من مواد عالقة بحراشف السمك ، وهذه المادة
اللامعة يطل بها الزجاج ، فالطبيعي من المحار ، والصناعي مما يرى على حراشف السمك ، وهذا يطل به
الزجاج إما من داخل وإما من خارج ، وما هو الزجاج ؟ إن هو إلا رمل متحد مع مغنيسيا وجبر ، فرجع
الأمر إلى أن الجبال من فحم وجبر ورمل ، فأما المادة التي تلمع على حراشف السمك فبما خلقت فيه
لنفعة نفسه ، ذلك أنه ينعكس بسبب تلك المادة بريق فضي وهاج عن بطنها ، فبذلك تخفى عن أعين
أعدائها لما تلقى على أعين أولئك الأعداء من النور الذي يهرأبصارها فلا تمكن من رؤيتها فلا تقتنهها ،
فتجيب من مادة جامت للسمكة وقاية من الأعداء ، وللعادات الحسان جذبا للأحباب والأصدقاء « فتبارك
الله أحسن الخالقين » . « وفي الأرض آيات للموقنين » وإلى هنا تم الكلام على قوله تعالى : « يخرج
منهما الماؤلؤ والمرجان » وبهذا تم تفسير [سورة الرحمن] والحمد لله رب العالمين . كتب صباح يوم الأربعاء
١٧ من شهر أغسطس سنة ١٩٢٧ م

تفسير سورة الواقعة

هي مكية

إلا قوله تعالى : أفبهذا الحديث أنتم مدهنون ، وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون . فمدنية

آياتها ٩٦ - نزلت بعد طه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لَوْفَعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ * إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا * وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا * فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا * وَكُنُتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً * فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ * عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ * مُتَكَبِّينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ * يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ * لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ * وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمٍ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ * وَخُورٍ عَيْنٍ * كَأَمْثَالِ الْأَثُلُوفِ الْمَكْنُونِ * جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا * وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَبْثُودٍ * وَظِلٍّ مَمْدُودٍ * وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ * وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ * وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ * إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا * غُرُبًا أَتْرَابًا * لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ * ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ * وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ * فِي سُجُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِنْ يَحْتُمُونَ * لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ * إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ * وَكَانُوا يُصْرَفُونَ عَلَى الْحِنْتِ الْعَظِيمِ * وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنْتَا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَّابًا أُولَئِكَ الْأَوَّلُونَ * قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ *

لَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ * ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ * لَا كِلُونَ
 مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُفُومٍ * فَصَالِحُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ * فَشَارِبُونَ
 شَرْبَ الْحَمِيمِ * هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ * نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ * أَفَرَأَيْتُمْ
 مَا تُمْنُونَ * أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ * نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ
 وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ
 الْفِتْنَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ * أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ
 الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَمَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمَغْرُمُونَ * بَلْ نَحْنُ
 مَحْرُومُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ
 الْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ *
 أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ * نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَمَتَاعًا لِلْمُقَرَّبِينَ *
 فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ * فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ *
 إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْثُودٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ
 الْعَالَمِينَ * أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ * وَتَجْمَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ *
 فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْخُلُوفَ * وَأَنْتُمْ حِينَتٌ تَنْتَظِرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ * وَلَكِنْ
 لَا تُبْصِرُونَ * فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَأَمَّا
 إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٌ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ *
 فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِنْ
 سَحَابٍ * وَتَصْلِيَةٌ جَهِيمٌ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ *

هذه السورة ثلاثة أقسام

القسم الأول في تفسير البسملة .

القسم الثاني في ذكر السابقين وأصحاب اليمين وأصحاب المشأمة وجزاءهم من أول السورة إلى قوله تعالى
 « هذا نزولهم يوم الدين » .

القسم الثالث في ذكر العجائب الكونية والاستدلال بها على وجود الخالق سبحانه وتعالى وقدرته ،
 واختتام ذلك بالخص القسم الأول .

القسم الأول في تفسير البسملة

أكتب هذا في صباح يوم السبت ٢٠ أغسطس سنة ١٩٣٢ م ذا كرا ماشاهدته في مساء يوم الثلاثاء انقائت ١٦ من هذا الشهر ، ذلك انى توجهت إلى مزرعتنا بجهة المرج بالقرب من القاهرة سيرا على قدمي كما ذكرت نظيره سابقا في هذا التفسير ، لأن ذلك أقرب للصحة وأروح للبدن ، وكل مؤلف لا يسير كل يوم أميالا على قدميه لاحظله غالبا في انتفاع الناس بمؤاقله لضعف النشاط في روحه واعتلال صحته ، وبينما أنا سائر إذ رأيت امرأة اعرابية ترعى غنات وشابا معها يساعدها في ذلك ، والمرأة لابسة أهداما قالصة تحمل مخلاة على ظهرها فخطر لي ما يأتي :

هذه المرأة في نظر هذا الشاب أجل امرأة في الدنيا وأشرف ، لأنهم يرون الفلاحين وأهل المدينة أدنى منهم منزلة وأقل سعادة ، ثم وازنت بين هذه المرأة وأختها التي تعيش في القصور بمصر وهي جارتها ، وهذه الأخيرة لا ترى لها سعادة إلا في أن تكون مرفهة البال ، محجوبة في القصر ، قد حرمت من الشمس وضحاها ، والقمر اذا تلاها ، وتمتعت بأنواع اللذات في قصرها ، ولاعمل لها غالبا إلا أن تزين صباحا ومساء وإذا ذكرت لها هذه الاعرابية حترتها وعدتها من سقط المتاع ، إذن السعادة في هذه الحياة تابعة للعقيدة ، فالبدوية سعيدة بعقيدتها ، والحضرية سعيدة بعقيدتها وان كانت الأولى أقرب للحقيقة لصحة بدنها وارتياضها في الهواء وضوء الشمس ، وههنا ظهرت لي هذه القاعدة : السعادة تتبع العقيدة ، فأهل كل دين في الأرض يرون سعادتهم بدينهم سواء أعبدوا صنما أم فيلا أم شجرا أم حجرا ، وفي الآية : « وقال إنما اتخذتم من دون الله أوتانا مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض وماؤاكم النار وما لكم من ناصرين » فالناس جميعا يتبعون ما أتى لهم من العقائد والآراء ، فأرباب كل حرفة سعداء بحرفتهم ، بل اللصوص يظنون أنفسهم في بحبوحة السعادة والهناء .

اللهم إن رحمة كل حي في الأرض رحمة جزئية ، وهذه الرحات الجزئية يعالنا تحيط بها الشمس والأقمار والكواكب ، تلك العوالم التي تدوم قرونا وقرونا . وعشرات آلاف آلاف السنين ، إذن هذه الرحات الجزئية فوقها رحمة كلية كأنها دائمة ، تشرق الشمس وتغرب وهكذا القمر والنجوم ، جل الله ، عجب وعجب ! شروق وغروب للكواكب ، وحياة وموت لمن على الأرض وهم يسعدون سعادات جزئية سواء أ كانت تلك السعادات ضالة خاطئة ، أم مهدية سالحة ، عبيد الناس الشمس والقمر ، لماذا عبيد وهما ؟ لدوامهما ، ولما لا دوام له لا سعادة فيه ، السعادة الوقتية كلاسعادة ، فليعش الناس في الأرض وليموتوا وليتمتعوا وليأكلوا ولينأكل أنعامهم ثم ليموتوا ، فهذه سعادات جزئية ، بل الشمس والقمر والنجوم أيضا لا دوام لهن فقد ثبت أنهن متغيرات ، وسيأتى يوم تبدل فيه الأرض غير الأرض والسموات كما ثبت ذلك العلم الحديث الله اكبر : إذن سعادة نفوسنا بعقائدها ، والعقائد المعروضة للتغير لا سعادة بها ، وأهل الأرض غير باقين ، والشموس والأقمار والكواكب ذاهبات من الوجود كأهل الأرضين ، إذن هذه أيضا رحات جزئيات والرحمة الكلية مصدر تلك الرحات ، إذن الرحمة على ثلاثة أقسام : رحمة جزئية سريعة التغير ، ورحمة جزئية بطيئة التغير ، ورحمة كلية هي مصدر الرحتين السابقتين ولا تغير ، ولقد أثبتنا أن السعادة تتبع العقيدة ، بل لا دوام لحى من العقلاء إلا بفكر يحتضنه ورأى يتبعه ، إن الآراء غذاء العقول كما ان الحبوب وأنواع النبات غذاء الأجسام ، وأكبر العقول من تتغذى بأجل العلوم وأهياها وأدومها ، وهو ذلك المصدر الذى منه استمدت ذلك الجمال والبهاء وأنواع الرحات من شمس وأقمار وأغذية وفواكه وأنواع الحيوان والانسان ، يعبد

الناس ربههم ويطلق جهالهم أن ذلك أشبه بما يفعله العبيد مع ساداتهم وهو خطأ فاضح ، إن الناس يعرفون باعظام الناس لهم ، ولكن الله هو الذى خلق الناس فلا وزن لهم عنده من هذا القليل ، لأنهم لا يعمل لهم إلا باعائته هو ، أما السيد والملك فعمل الناس ليس مستمداً منه ، فلذلك يفرح باعظامهم ، إذن قول الله تعالى « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » ليس يقصده من إلامنفعة العابدين وارتقاؤهم ، وقد قدمنا أن السعادة على مقتضى العقائد والآراء ، فكما ازداد الإنسان عبادة أو علمها بهذه الدنيا وجاهاها ازدادت النفس اطمئناناً وارتقاءً وحكمة بمن هو باقى ، ويتبع بقاءه بقاء الشمس والقمر وكل من على الأرض ، وعلى ذلك تبقى هذه النفوس إلى الأبد حية سعيدة لأنها تحيا وتبقى بحياة وبقاء من تفكر فيه بعبادة وبعلم ، إذن بقاء الناس بعد الموت سعاداً إن يكون وإن يتم إلا بأن نفوسهم تمتلئ علماً بمن هو أجل وأدوم وأرحم الأحياء وهو الذى أبدع هذا الجمال والبهاء والحسن والاشراق ، وهذا معنى [بسم الله الرحمن الرحيم] فى أول سورة [الواقعة] هنا .

فى سورة الواقعة قوم أشقياء وقوم سعداء بالنار والجنة ، وعقب ذلك بمحج وأى عجب ! ذكر الماء والنار والنبات والافسان والمشرقات فى السموات ، فما على الأرض ليس له إلا السعادة الجزئية لقلة دوامه والمشرقات فى السموات أدوم وأبقى ، وقد ذكرت بعد ذلك فى السورة : « فلا أقسم بمواقع النجوم وأنه أقسم لتعلمون عظيم » ، إذن عظمة النجوم لا تعقل إلا بالعلم ، ذلك أنها أدوم من الماء والنار والحيوان والنبات المتقتم فى السورة ، وختم السورة بالسعادة العليا وهو القسم الثالث من أقسام الرحمة ، وهى السعادة الدائمة فقال : « فسبح باسم ربك العظيم » فذكر التسبيح ، وذكر الرب ، وذكر العظمة ، التسبيح تنزيه عن كل مالا يلقى لتمام القدس ، فاذا خلق الموت والحياة فى أهل الأرض ، وإذا غير الشمس والأقمار فى السموات فذلك لأن العوالم لا يتم نظامها إلا بهذه الدرجات ، فكل ألم وكل شر جزئى لم يكن إلا مقدمة لارحة ، والرحمة الحقيقية امتلاء النفس بمعرفة الربوبية والعظمة الباقيتين : ولولا ذلك لم تخلق هذه النفوس فى الأرضين .

نفحة الرحمت

لما وصلت إلى النضيجة أخذت أطوف بين الحقول ، وأجلس تحت الأشجار ، غيل لى أن نعمات الأشجار الباسقات ، وحفيف الأوراق ، وغوير الأعشاب ، وتغريد الطيور ، وطنين الحشرات ، وهبوب السمات فى البطاح ، وأن ضياء الشمس ونور القمر وتلاؤل الكواكب نهارة وليلا لم يخلقن إلا ليكن أعراساً لهذه الأرواح التى تزف الآن من عالم الحشرات إلى عالم السكالك والجمال ، فالنعمات المذكورات قائمت مقام الدفوف والمزامير فى الأعراس الأرضية ، والمشرقات فى السموات قائمت مقام المشاعل فى الأعراس ، بل أنا حينما جلست فى الحقل تخيلت أن نفسى هى التى تزف إلى ذلك العالم الجميل ، والمشرقات فى السماء تزين الموكب وكأن الرجات العليا تحتثى بهذه النعمات ، وتونسى بحفيف الأشجار ، وبدائع الأزهار ، وتقول لى : هيا إلى العلا ، قم فبشر أهل الأرض بهذه البشارات ، إن فى الأرض نفوساً امتلأت بهذه المعاني وفهمت هذه الرجات ، وهذه هى التى تزف إلى العوالم الجلية ، وهذه الأرواح هى الخلائف فى الأرض ، وهى التى تفهم آية : « وهو الذى جعلكم خلائف فى الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات » وإلى هنا تم الكلام على القسم الأول فى تفسير البسملة . كتب صباح يوم السبت فى التاريخ المذكور ، والحمد لله رب العالمين .

القسم الثاني

في ذكر السابقين وأصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة وجزائهم

مقدمة في مناسبة السورة لما فيها

اعلم أن هذه السورة بينها وبين [سورة الرحمن] مشابهة ، ففي هذه ذكر النعم في القسم الثالث ، وهو خلق الإنسان وخلق الزرع والماء والنار ، وفيه الأقسام بمواقع النجوم على عظمة القرآن ، وهذه كلها من آلاء الله كالذكر في سورة الرحمن ، وفي القسم الثاني وصف الجنة والنار ، وذلك في سورة الرحمن فبين السورتين تشابه ، وإنما قدم ذكر القيامة وأصحاب الجنة وأصحاب النار ووصف المقامين ليناسب آخر سورة الرحمن ، فإن القسم الثالث منها في وصف أهل النار وأهل الجنة والعذاب والنعيم ، وقد وصف أهل الجنة لمناسبة ذكره في آخر السورة : فكان [سورة الواقعة] من حيث ترتيبها بعكس [سورة الرحمن] ابتداء وانتهاء ، ولنشرع في التفسير المنطقي للقسم الثاني من السورة فنقول ومن الله التوفيق :

التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

(إذا وقعت الواقعة) إذا قامت القيامة سميت واقعة لتحقق وقوعها (ليس لوقعتها كاذبة) أي نفس كاذبة ، فهي حين تقع لا تكفر نفس تكذب على الله فتسكرها ، ولا على القيامة فتسكرها ، لأنها تحققها بالوقوع والظهور والمعاناة والعذاب ، فأما في الدنيا فما أكره النفوس الكاذبة على الله بإنكاره وإنكارها لأنهم لم يعانوا العذاب كما عانته المذبون ، هي (خافضة) لقوم (رافعة) لآخرين ، وأيضاً تزيل الأجرام من أماكنها فتخفض وترفع ، وهذا بيان لعظمها ، فإن الوقائع العظام هذا شأنها (إذا رجعت الأرض رجا) يقول تعالى هي خافضة رافعة وقت تحريك الأرض حركة شديدة وزلازتها بحيث ينهدم ما فوقها من بناء وجبل ، وقوله (وربست الجبل بسا) أي صارت كشيء مهبل وسيرت على وجه الأرض حتى ذهب بها ، يقال بسا الغم إذا ساقها (فكانت هباء منبثا) منتشرا (وكنتم أزواجا) أصنافا (ثلاثة) ومعلوم أن كل صنف يذكر أو يوجد مع صنف آخر يسمى زوجا كالعائنين والرجلين والبدن والنعمان فكل منهما يسمى زوجا ، وهما معاز زوجان ، فهنا أزواج ثلاثة ، لأزواج (فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ، وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة) أي فأصحاب المنزل السفلى وأصحاب المنزل الدنيا ، لأن العرب كانوا يقيمون باليمن وينشأون بالشمال ، ويصح أن يقال أصحاب اليمن والشؤم ، وقوله : « ما أصحاب الح » أي أي شيء هم ، وهو عجيب من حالهم في المقامين ارتفاعا وانحطاطا وهو مبتدأ وخبر أخبرهم ما عن المبتدأ الأول في المقامين (والسابقون) مبتدأ : أي السابقون إلى الخيرات في الدنيا خبره (السابقون) إلى الجنات في الآخرة (أولئك المقربون في جنات النعيم) أي هم في جنات النعيم (ثلة من الأولين وقليل من الآخرين) أي هم ثلة ، والثلة الأمة المكثرة : أي هم كثير من الأولين ، يعني الأمم السالفة من آدم عليه السلام إلى نبينا محمد ﷺ (وقليل من الآخرين) أي أمة محمد ﷺ ولا ينافي هذا ما ورد : « أن أمي يكثر من سائر الأمم » فحسب أن يكون سابقو سائر الأمم أكثر من سابق هذه الأمة ، ويكون أتباع هذه الأمة أكثر ، ويقول بعضهم : من الأولين متقدمي هذه الأمة ، ومن الآخرين متأخريها ، لما روي مرفوعا أنهما من هذه الأمة . يقول الله : هم ثلة من الأولين وقليل من الآخرين كأنهم (على سرر موضونة) مذبوحة بالذهب مشبكة بالدر والياقوت (متكئين

عليها) على السرر (متقابلين) لا ينظر بعضهم في قفا بعض ، فهم حسنة العشرة في المجالسة ، لاسيما اذا صاروا
أرواحا صافية ، فهناك صفاء العيش ، وذهاب الأخلاق المادية من كل ما يوجب الافتراق أرغلت الروحانية
على الجسمانية (يطوف عليهم) للخدمة (ولدان مخندون) مبقون أبدا على هيئة الولدان وطراوتهم
(بأكواب وأباريق) الأكواب جمع كوب ، وهي الأقداح المستديرة الأفواه لا آذان لها ولا عرى ، والأباريق
جمع ابريق ، وهي ذوات الخراطيم والعري (وكأس) وقدر فيه شراب ، فإن لم يكن فيه شراب فليس بكأس
(من معين) من خر تجرى من العيون (لا يصدعون عنها) أى لا يفرقون بسببها كما يحصل في أهل الدنيا ،
أولا يصدر صدايحهم بسببها كما في خر الدنيا فانها تصدع وتحدث الافتراق حال السكر والعريضة (ولا ينزفون)
ولا يسكرون ، يقال نزف الرجل ذهب عقله بالسكر ، وقري بكسر الزاى أى لا ينفد شرابهم ، يقال أنزف القوم
إذا فنى شرابهم (وفاكهة مما يتخيرون) يأخذون خيره وأفضله (ولحم ضير مما يشتهون) يتمنون (وحور عين)
جمع حوراء عيناء : أى ولهم حور عين ، أى بيض ضخم العيون ، أو معطوف على ولدان ، أى يطوف عليهم
ولدان وحور (كأمثال اللؤلؤ المكنون) المصون عما يضر به في الصفاء والنقاء ، يفعل ذلك كله بهم (جزء
بما كانوا يعملون) أى بأعمالهم (لا يسمعون فيها لغوا) باطلا (ولانثأنا) ولانسية إلى الإنثى : أى لا يقال
لهم أنثى (الإقبال) أى الإقولا ، ثم أبدل منه (سلاما سلاما) أى الإقولا ذا سلامة ، وهذا استثناء منقطع
أرسلا مفعول بقبلا : أى لا يسمعون فيها إلا أن يقولوا سلاما سلاما : أى انهم يفسحون السلام بينهم فبسمعون
سلاما بعد سلام ، ويسلم الله عليهم ، والملائكة ، فهم آمنون من المكره أبدا بخلاف أهل الدنيا إذ لا سلام
في الأرض ، فالأثم في حرب ومكر دائم ، والأفراد يتعادون ، والله من فوقهم يرسل عليهم صواعق وأنواعا
من المكره ، أما في الجنة فهذا كله لا وجود له ، فهم متحابون ، والله لا يرسل عليهم من المكره ما نراه
الآن في الدنيا (وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين في سدر مخضود) السدر شجر النبق ، والمخضود الذي لاشوك
له كأنما خضد شوكه (وطلح منضود) الطلح شجر الموز ، والمنضود الذي تضد بالحل من أسفه إلى أعلاه ،
فليست له ساق بارزة (وظل ممدود) منبسط ممتد لا يتقلص ولا يتفاوت ، فهو أشبه بظل ما بين طلوع الفجر
وطولع الشمس (وماء مسكوب) مصبوب يسكب لهم كما يشاءون بلا تعب ولا نصب ، فهنا أصحاب اليمين
ونعيمهم التام هو أكمل ما يتصور لأهل البوادي ، ونعيم السابقين في تمامه أشبه أكمل ما يتصور لأهل المدن
وذلك ليظهر التفاوت بين المقامين بما نراه نحن الآن في أهل الدنيا . قال تعالى (وفسحة كثيرة) كثيرة
الأجناس (لا مقطوعة) لا تقطع في وقت (ولا منوعة) ولا تمنع ممن يتناولها (وفرش مرفوعة) أى نساء
مرتفعة على الأرائك (إنا أنشأناهن أنشاء) أى ابتدأناهن ابتداء جديدا من غير ولادة ، وورد
في الحديث : « هن اللواتي قبضن في دار الدنيا عجائز شمطا رمضا جعلهن الله بعد الكبر أترابا على ميلاد
واحد كما أنهن أزواجهن وجدوهن أبكارا » (جعلناهن أبكارا) عذارى (عربا) جمع عرب ، وهي
المتحبة إلى زوجها الحسنة التبعيل (أترابا) مستويات في السن بنات ثلاث وثلاثين سنة وأزواجهن كذلك
فهؤلاء أنشأناهن (لأصحاب اليمين ، ثلة من الأولين ، وثلة من الآخرين) أى هم ثلة من المؤمنين الذين هم
قبل هذه الأمة ، وثلة من الآخرين ، وهم ومنو هذه الأمة (وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال في سموم وجحيم)
في حر نار ينفض في السم ، وماء مته في الحرارة (وظل من محموم) من دخان أسود في جهنم (لا بارد
ولا كريم) أى لا بارد الهواء ولا كريم المظر ، فإن فائدة الظل أمران : دفع الحر وحسن المنظر ، وهذا
الظل من دخان حار أسود ، فلا يأوى من أذى الحر ولا يستر النظر ، ثم بين سبب ذلك فقال (انهم كانوا
قبل ذلك) في الدنيا (مترفين) منعمين ففسدهم ذلك التمتع عن الاعتبار والادكار كما في آية أخرى :

« أذهبتم طبيائكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون » وهذا قاعدة عامة في المنعمين من المؤمنين والكافرين ، فالتنعم بصلة الانسان عن تهذيب نفسه ، بل ان عاقبة التنعم في هذه الدنيا الفقر والذلة كما يفعل بعض المسلمين ، إذ يتقربون من القرينة ويحاربون اخوانهم المسلمين طلبا لحطام الدنيا كما نسمع اليوم في بعض بلاد الاسلام ذلك لأجل التنعم فهو لاه جزاؤهم يبتدىء في هذه الدنيا فيصيرون أذلاء هم وأعقابهم ، وهكذا المسرفون لأجل التنعم يصبحون أذلاء ، ثم قل تعالى : (وكانوا يصرون على الحث العظيم) أي الذنب العظيم ، وهو الشرك ، ومن هذا القبيل بلغ الغلام الحث أي الحلم ، وهو وقت المؤاخذه بالذنب (وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون) كررت الهمزة للدلالة على أن البعث يكون انكاره أشد إذا كنا ترابا وعظاما ، ويكون أكثر شدة إذا تعلق بالآباء الأولين لتقدم عهدهم (قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم) أي أنهم مجتمعون ويحشرون ليوم الحساب (ثم إنكم أيها الضالون المكذبون) بالبعث ، والخطاب لأهل مكة ومن تحا نحوهم (لآ تكون من شجر من زقوم) من الثانية للبيان ، والأولى للابتداء (فالثون منها البطون) لشدة الجوع ، وشجرة الزقوم تنبت في أصل الجحيم (فشاربون عليه من الجيم) لغلبة العطش (فشاربون شرب الحميم) أي الإبل التي أصابها الهيام ، وهو دواء يشبه الاستسقاء جمع هيم وهيماء كأجر وحراء (هذا زقوم يوم الدين) أي ما ذكر من الزقوم والحميم ما أعد لاكرامهم ، وهذا كقول عمرو بن كلثوم :

قريناكم فجعلنا قراكم * قبيل الصبح مرداة طحونا

يكون نفاها شرقى نجد * ولطونها قضاة أجمعينا

يقول قريناكم وقت الفجر بصخرة تطحنكم : أي حاربناكم فقللناكم ، وهذا هو اكرامكم باعتباركم جثث ضيوا في ديارنا ، هكذا ها : كرم الله هؤلاء بالزقوم والحميم . انتهى التفسير الملفظي للقسم الثاني من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

القسم الثالث : في ذكر العجائب الكونية

والاستدلال بها على وجود الخالق سبحانه وتعالى وقدرته

قال تعالى (نحن خلقناكم فلولا تصدقون) أي فهلا تصدقون بالبعث ومن قدر على الابتداء يقدر على الاعادة (أفرأيتم ماتموتون) مانصبون في الأرحام من النطف (أأنتم تخلقونه) تقدرونه وتصورونه وتجعلونه بشرا سويا (أم نحن الخالقون ، نحن قدرنا بينكم الموت) أي جعلناكم في الموت سواء شريفكم ووضيكم ويكون قدر يعني قضى ، أو قسمناه عليكم قسمة الأرزاق على اختلاف وتفاوت فاختلفت أعمالكم من يوم إلى سنة إلى مائة ، أو أكثر أو أقل (وإنكم بمسبوقين على أن تبدل أمثالكم) وإنكم بعاجزين عن أن تأتي بخلق مثلكم بدلا منكم في أسرع حين (وننشئكم) ونخلقكم (فبما لا تعلمون) أي ننشئكم النشأة الثانية في وقت لا تعلمونه ولا تعلمون كيفية كما علمتم النشأة الأولى من جهة التناسل والقصد التعريض على العمل الصالح ، فإن التبديل والانشاء أولهما بالموت ، وثانيهما بالبعث ، وكلاهما لا يعلم وقته ، فلا الموت معلوم ولا البعث وقته محدد ، فليخون الانسان عدته قبيل الموت (واقدر علمتم للنشأة الأولى) الخلقة الأولى ولم تكونوا شيئا مذكورا (فلولا تذكرون) أن من قدر عليها قدر على النشأة الأخرى (أفرأيتم ماتموتون) أي ماتموتون من الأرض وتلقون فيه البذر (أأنتم زرعونه) تذبثونه (أم نحن الزارعون) المنتبتون (لنشأ لجملاء حطاما) هشيما (فظائم تفكهنون) تتعجبون مما نزل في زرعكم ، أو تندمون على اجتهدكم فيه

وقريء فظللتم على الأصل ، وتقولون (إياهم رمون) والغرم ذهاب المال بغير عوض (بل نحن) قوم
(محرومون) حرمانا رزقا ، إذ حرمانا الذي كنا نطلبه من الربيع في الزرع (أفرايتم الماء الذي تشربون ،
أأنتم أنزلتموه من المزن) المزن السحاب واحده مزنة ، وأنزن السحاب الأبيض وماءه أعذب (أم نحن
المازلون) بقدرتنا ، والرؤية وهي بمعنى العلم قد علقت عن العمل بالاستفهام (لو أنشاء جعلناه أجابا) ملحا
أومرا لا يقدر على شربه (فلو لا تشكرون) فهلا تشكرون أمثال هذه العم (أفرايتم النار التي توردون)
تقدحون من الزند ، يعني التي تقدح منها النار كما تقدم في ﴿ سورة يس ﴾ وهما شجرتان وطبتان : المرخ
والعنار ، فأحدهما يعتبر زندا ، والثاني يعتبر زنده ، والماء يقدر منهما ، والنار عند القدح تخرج بينهما ،
وأيست النار خاصة بهما بل هما ممتازتان ، فقد قلوا في كل شجر نار واستمجد المرخ والعنار (أأنتم أنشأتم
شجرتهما أم نحن المنشئون) الشجرة التي منها الزناد ، أنار الدنيا فلها تذكره بنار جهنم . عن أبي هريرة
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ناركم هذه التي توقدون جزء من سبعين جزءا من نار جهنم ، وقد
مضى أن هذا يوافق الكشف الحديث في ﴿ سورة آل عمران ﴾ محققا هناك (نحن جعلناها) جعلنا نار
الزناد (تذكرة) تبصرة في أمر البعث وفي الظلام ونموذجا لنار جهنم (ومعتادا) ومنفعة (للمتقين) الذين
ينزلون القواء وهو القفر ، أولاد من خلت بطونهم أومرأودهم من الطعام ، يقال : أقوت الدار إذا خلت من
ساكنيها ، فهو لاه المتقون جعلت النار لهم لانتاج طعامهم فيصلح لأكلهم (فسبح باسم ربك العظيم)
أي قل سبحان رب العظيم ، ولما نزل قال ^{صلى الله عليه وسلم} ابعادوها في ركوعكم (فلا أقسم) يقول تعالى : أنا لا أقسم
لأن الأمر واضح فلا حاجة لأقسم ، أو فأقسم ولا مزبدة للتأكيد ، وكلا الوجهين دال على شرف النجوم
ومواقع النجوم ، وأن الناس ينبغي أن يفكروا فيها ويعتبروا بها ، وقوله (بمواقع النجوم) أي بمساقطها
في مغاربها أومنازلها ، ولما كان أمر النجوم في مواقعها عظيما شأنه أعجب مما تقدم بجملة معترضة في أخرى
معترضة بين القسم والمقسم به إشعارا بعظمة آثارها النافعة فقال (وانه أقسم لونه لمؤمن عظيم) وقوله :
(إنه أقرآن كريم) حسن مرضى نفاع جم النافع (في كتاب مكنون) الكتاب المأخوذ بالحفظ ، والمكنون
المسكون فلا يطلع عليه إلا القريبون ، بقوله (لا يحسه إلا المطهرون) بيان لسكونه مكنونا فلا يطلع على المأخوذ
المحفوظ إلا المطهرون من المادة التي تفوق عن إدراك الحقائق ، ولا يكون ذلك إلا في الملائكة ، وإن جعل
الكتاب هو القرآن كانت صيافته الأياتية الباطل ولا يطلبه إلا المطهرون من الكفر ، وقوله (تنزيل من رب
العالين) أي منزل منه وهو صفة رابعة للقرآن (أفبهذا الحديث) القرآن (أنتم مدهنون) مهملون ، يقال
أدهن في الأمر لأن جانبه فيه ولم يتصلب نهوانا به (وتجهلون رزقكم) أي شكر رزقكم (أنكم تكذبون)
بمن منحه فتدسبون الرزق لذنوا فتقولون مطرنا بنوه كذا ، أو تبعلون حظكم ونصيبكم من القرآن أنكم
تكذبون (فلو لا إذا بلغت الحلقوم ، وأنتم حينئذ تنظرون ، ونحن أقرب إليه منكم ولمكن لا تبصرون ،
فلولا أن كنتم غير مدينين ترجعونها إن كنتم عاديين) لولا للتخصيص في الآيتين ، والفعل الذي يستلزمه
التخصيص هو ترجعونها ، ولولا الثانية مكررة الأولى للأكيد ، ومدينين مجزيين يوم القيامة ، أو مملوكين
مقهورين ، يقال ذاته إذ أدله واستعبده ، يقول الله لأهل الميت : هلا ترجعون نفس ميتكم إذا بلغت الحلقوم
وهو يماغ سكرات الموت إن كنتم غير مدينين والحال أنا نحن أقرب إليه منكم بقدرتنا وعلمنا وبملائكتنا
وأنتم تنظرون إلى المحتضر ولكن لا تبصرون ذلك ، أو لا تبصرون الذين حضروه من الملائكة ، والمعنى أنكم أيها
الناس شأنكم عجب ! جحدتم آيت الله ، وكذبتم رسله ، وكتبابه ، وقتلتم هو سحر وإفتراء ، وجعلتم رزقكم
من الأنواء ، فالخص حالكم أنه لا خالق ولا رازق ، وإذا كان الفعل لا بدله من فاعل ، وقد نفيت الله وكذبتم

رسله ، فاذن الفاعل لهذا كله أنتم لأن الخالق إما الله وأما أنتم ، فإذا نفيتم الله فأنتم الخالقون ، إذن فلماذا لا ترجعون الروح لميتكم وهو يعالج سكرات الموت فإن كنتم صادقين فارجعوها ! الحق أنكم لا تعقلون بالبرهان فلما لم تروا الفاعل كذبتم به ، وهذه صفة الحيوان والجهال ، إذ للدليل علوم فليس عدم رؤية الشيء دليلا على عدمه (فأما إن كان) المتوفى (من المقر بين فروج) فله استراحة وفرح ورجة (وريجان) ورزق طيب (وجنة نعيم) ذات نعم (وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك) يا صاحب اليمين (من أصحاب اليمين) أى من اخوانك يسلمون عليك : أى فيقول له ذلك ، أوفسلام بك يا محمد : أى سلامة منهم ، أى فلانتم لهم فانهم سلموا من عذاب الله (وأما إن كان من المكذبين) بالبعث (الضالين) عن الهدى وهم أصحاب الشمال (فنزل من جيم وتصلية جيم) إذ يجد في القبر سموم النار ودخانها ، وهو الذى جعل نزلا مقدمه كما يجعل للضيف كما تقدم على سبيل الإهانة ، والتصلية الإدخال (ان هذا) الذى ذكر فى السورة (طوحى اليقين) أى حق الخبر اليقين الذى لا شك فيه (فسبح باسم ربك العظيم) أى فخره ربك العظيم عن كل مالا يليق به ، أو فصل بذكر ربك العظيم وبأسره ، وكان عليه السلام يقول فى ركوعه : « سبحان ربى العظيم » وفى سجوده « سبحان ربى الأعلى » انتهى التفسير اللفظى للقسم الثالث من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

لطائف هذه السورة ^(١)

فى هذه السورة لطيفتان

اللطفة الأولى فى آية : « أنهم كانوا قبل ذلك مترفين » وهى رسالة أرسلتها إلى بلاد المغرب الأقصى يوم الأربعاء ٢٣ مارس سنة ١٩٣٢ م ثم نشرت هناك .
اللطفة الثانية فى قوله تعالى : « نحن نقرنا بينكم الموت » .

اللطفة الأولى فى قوله تعالى : أنهم كانوا قبل ذلك مترفين

تحذير المسامين من الخطر فيما يشربون

أيها المسلمون : أحذركم من كل ما يعطيكم لذة وقية ، ويعقبه انحلال فى اقوى وضرر عظيم . أيها المسلمون أنا لا أقول لكم دعوا الخمر فانها محرمة فانكم بذلك عالمون ، ولكننى أقول لكم فوق ذلك أنها جعلت نفا لاصطياد أمة الاسلام واهلاكهم واذلالهم وانها كقواهم فيصبحون صرعى الأوهام فى ديارهم خامدين .
أنا لا أقول لكم ان أمريكا المسيحية حرمت الخمر حفظا لأهل بلادها من عادات الدهر ومصائب المرض وخلل العتول وضعف الأجسام ، أنا لا أقول ذلك لكم لأنكم به عانون ، فإذا كنتم تعلمون ذلك فاعلموا أنكم أولى بذلك المنع ، لأنكم أولا مسلمون ، ولأن كثيرا منكم تحت دول مستعمرة تنتهز الفرص لاذلال المحكومين .

وهل أنا كم نأ أهل الأندلس قديما ؟ وقد يشرب بابا روما ودوق فينيزيا وبارونات أوروبا من الخضع الأمة العربية إذ ذاك ، وكيف أشار عليهم [براق بن عمار] بأن يعقدوا معاهدة حرية التجارة والتعليم والدين حتى يتاح لشبانهم شرب الخمر والمخمر بذات الحياة . فتقل الحية والنخوة والبرودة ، وبذلك يخضعون ثم يطرودون ، وما وصلت تلك المعاهدة إلى مالك بن عباد بقراطية وقد فرغ من تحصين مدائنه وقلاعته حتى

(١) يقول المؤلف : هذه اللطائف لم يكن لها وجود عند التأليف ولم يفتح الله بها إلا عند تقديم هذه السورة للطبع .

أرسلها للأسماء فأقرتوها ، ولم يكديجف مدادها حتى أسسوا أربع مدارس كبرى على نفقة [دوق فينيزيا] وصار عدد المبشرين بالأنديس ألفا ، وعند المعلمين بالمدارس التي أنفق عليها البابا ٤٥ وأنفق البابا من خزائنه لترويج الخمر خمسمائة ألف [فلورين] (راجع كتاب عادة الأنديس) .

(١) هنالك شرب الشبان الخمر جهارا نهارا .

(٢) واخلعوا رداء الحياء والخشمة .

(٣) وحرقوا عوائد آبائهم ودولهم .

(٤) ولبسوا الحرير ونبدوا الصوف والشعر .

(٥) وأهمات تعاليم البلاد .

وكانت نتيجة ذلك ما تعرفون أيها الشبان مما فعله فرديناند وزوجته إيزابلا ، وهو طرد العرب من تلك

البلاد أجمعين أكتعين ابهين .

أيها المسلمون : حذار أن تظنوا أن الرواية تمت فصولها ، إن للرواية لذيولا ، أعجبون أن أحدثكم بشأنها ؟ ادعوا إلى واسمعو : تعلمون أن في بعض الروايات أن النبي ﷺ أنذر المسلمين وحذرهم من المسيح الدجال ، وجاء فيها أن معه جنة ومعه نار ، وأن من اغتر بجنته دخل النار ، ومن اضطل بباره دخل الجنة ، وأنا أقول رافعا صوتي لكم ، أيها المسلمون الفضلاء : إن هذه الروايات لها آثار في زماننا وأسرار في أحوالنا الحاضرة ، وذلك أن كل أمة فعلت في المسلمين ما فعله [بابا روم] و [دوق فينيزيا] و [بارونات أوروبا] من بث الفجور والفسق والخلاعة بين المسلمين لاذلالهم واصعافهم ، فهو من أنصار ومن أصحاب ومن أشباه المسيح الدجال ، فهو يعطينا الخمر ليسكرنا ثم يدخلنا تحت سيطرته فنضطلي باره ، نعم هذه الأمم ليست هي نفس المسيح الدجال ولكن الفعل هو نفس الفعل ، فيكل من أظهر لنا المؤدة وأراد اذلالا فهو لا يشبه المسيح الصادق بل هو المسيح الكذاب الدجال .

فلتحترسوا أيها المسلمون من كل مطعم أو مشرب أو ملبس يغركم بهجته وإذته تكون عاقبته الدمار والهلاك والعار والبوار .

أليس مما يؤلم النفوس أن نقرأ في التاريخ المتقدم أن قسيسا اشترى عنب قرطبة كله ، وعصره عنباً ، وقال : لا أعطيه إلا لأحبائي الشبان المسلمين ، ففزع الأمة وأهل البلاد غافلون ناعون لا يعقلون ولا يفهمون فطاحوا أجمعين .

أليس من العجب أن نقرأ في كتاب [الكونت هنري دي كاستري] الضابط العظيم الفرنسي في بلاد الجزائر المسمى [خواطير وسوانح في الاسلام] مانصه بالحرف الواحد في السبعة المترجمة صفحة ١١١

« أما انقراض الأهلى شيئا فشيئا كما دخل الثمن الاوروى بلادهم (الجزائر) فبحن لانصده إلا قليلا ، لأن احنا كما هم بالمتدنيين ربما قبل من وسائل العيش لديهم ولكن لا يؤثر في وجودهم ، بل هم لا يزالون يتناسلون أكثر من الاورويين ، واضيف على ذلك أن المسكرات التي استعملها الاورويون للتجمل على وجود بعض الأمم المغيرة لهم لا تؤثر عند أهلى الجزائر لسكونهم يقتونها مقتا شديدا » انتهى بالحرف الواحد أيجبكم هذا أيها المسلمون ؟ أيجبكم أن تكون الدروس بالأنديس لانزال تنلى إلى اليوم ، وأن الخمر ونشرها في البلاد يراد بها القضاء على أبنائكم وخراب البلاد ، فليس هذا كلام رجل من أعظم الفرنسيين يقول لقومه : « الخمر والنعيم لم يقللا نسل المسلمين فلنظر طريقا آخر للعيش معهم » أليس الدرس مستمرا ورواية الأنديس تمثل والمسلمون ناعون هائمون ، أندرون ماذا حصل بعد ذلك أيها المسلمون ؟ لعبت الدول

المستعمرة دورا آخر في إبادة المساعين ، وعرفوا أن الخيرة اذا نجحت في بلاد لا تبالي بالعقل ولا بالدين ، فانها لا تؤثر في الأمم التي لاتزال ذات مجد أئبل ، وشرف وفضل مبین ، كالرا كشييين .
ماذا دهى اخواننا المراكشييين ؟ انتشر الشاي بينهم ، والشاي لابد معه من السكر ، والسكر يباع بأعلى الأثمان .

رحمك اللهم ، رحمك اللهم ، إن أمر الشاي أشد خطرا ، وأبعد أثرا ، لأن الشاي لاتنطق فيه الظنون ولم تدمه البيانات ، ولا الشرائع ، ولا القوانين .

أبها المسلمون : هل سمعون ما أقول لكم واحسرناه قد قرأت في كتاب اسمه { كتاب اليد في الصحة والعلاج } للاستاذ [كيلوج] الأمريكى الذى نشره قبل تحريم الخمر بعشرين سنة ، فرأيت رتب المضار أربع رتب : الخمر ، ثم الدخان والشاي ، ثم القهوة ، ثم الككاو ، فجعل الخمر أشد ضررا ، ويلها الدخان والشاي وأتى ببراهين كثيرة ، وأذكر منها انهم أتوا بورق الشاي فأكله حصان فمات ، فعدوه إذن سما بطيئا ، وهناك تجارب لا يحل ذكرها الآن ، وإنما الذى أريد أن أقوله الآن أن السكر الذى يشرب مع الشاي قد عدوه من الأغذية الممبته ، إن أكل الفواكه وما فيها من السكر الطبيعى نافع وجيد للصحة ، ولكن السكر الصناعى مفسد للجسام ومنهكها ، وإن كان فى أول الأمر يعطى قوة ، وتظهر الصحة على وجوه الشيوخ والشبان والأطفال ، أنا است طيئا فعلى أن أنقل لكم من كلام أطباء أوروبا ما به يقتنعون ، جاء فى كتاب [دستور التغذية] لصديقنا الاستاذ محمد فريد وجدى صفحة ٣٦ مانصه :

« قال الدكتور [جاستون دورفيل] : اذا كان الافراط فى الأكل من الأخطار الكبيرة فإن تناول الأغذية المركزة كالسكر والاحم بقصد التقوى ، أو تحسين التغذية أشد خطرا على الصحة .
نعم إن تلك الأغذية القوية توجد لنا قوة فتحس بسعادة جسمية ولكنها سعادة وقتية ، إذ تنقلب إلى ضعف وانحطاط ، فهذه الأغذية التى يحيل للناس أنها مقوية هى كضربة سوط تنزل على الحصان المعنى فجعله يجرى قليلا ثم ينحط انحطاطا لا قيام له منه ، فمن من الناس ضحايا هذا القرن الذى يقال أنه قرن النور لم يتناول الأغذية المركزة ، وههنا عدد أصنافا وذكر منها السكريات والشكولاتات والحلاوات المشبعة بالسكر والكحول ، فإن هذه المواد مهما كان مقدارها صغيرا فانها تنبج إلى خلايانا مجتمعة فتحدث اضطرابا ، وهذا الاضطراب نتوهم أنه قوة بدنية ، ولكنه ليس فى الحقيقة إلا خطوة نحو الصدمة الأبدية » انتهى ملخصا وجاء فيه بعد ذلك مانصه : « وقال الدكتور [جاستون دورفيل] أيضا : السكر أحد الأغذية المهلكة لأجسادنا ، فالتناول منه كعادة معاصرنا من أربع قطع إلى ست قطع فوق الغذاء المفرط ينتج أمراضا مميتة لقد كان أبونا يجهلون السكر الصناعى ، وكانوا أبطأ منا انحطاطا فى قواهم ، والأرق الذى يكثر فينا الآن إنما هو من السكر المعروف ، إن السكر إنما ينفع بهيئة علاج ، فهو دواء ، والدواء اذا استعمل شرابا أو غذاء عاديا كان من المهلكات ، فهو نافع اذا وصف للدواء ، ضار اذا تعاطيناه فى أكثر الأوقات كالطعام والشراب ومن أراد السكر فليأكل الفاكهة ففيها سكر طبيعى وهو غذاء نافع ، إن السكر الصناعى مهلك الأبدان » انتهى باختصار .

الشاي الذى مع السكر

فلنتظر فى هذا الشاي الذى يشربه الناس مع السكر ، قد قدمنا أنه من المواد التى تلى الخمر فى إهلاك الأمم ، وأريد عليه الآن أن الشاي يضاف إليه ماء مشبع بالأفيون ، ومتى شرب الانسان منه فإنه يتعود عليه فلا يأتى موعده إلا وقد انحطت القوى فلا يفيق إلا بشره ، إذن فى الشاي الذى يشرب فى أكثر بلاد

الاسلام ثلاث مضار : نفس الشاي بنص علماء الطب ، والأفيون المضاف إليه ، والسكر الصناعي الذي صاحبه : ولو كان سهما واحدا لا تقتنه ، ولكنه سهم وثان وثالث

أيها المسلمون عموما ، وأهل شمال إفريقيا خصوصا « قتل الانسان مأكفره ، إن الانسان لظالم كفار ، انه كان ظلوما جهولا » .

الانسان اليوم كثير الدهاء ، كثير المكر ، عرفت أوروبا أن الخمرة لا تعاطاها الصالحون من المسلمين ، فإذا صنع أوروبا ؟ نجاب الشاي ، وهل جلبه إلا التجار ، هذا أمر سهل ولكن السم في الدسم ، والسكر بحسب الظاهر لا ضرر فيه ، فانظروا كيف أصبح الناس مستعبدين بسبب الشاي والسكر أشد من استعبادهم بالخمر ، يؤلف العلماء في أوروبا كتباً في ضرر أغذية ثلاثة ممتة ويعتدون منها السكر وأهل الاسلام نائمون . لا لا أيها المسلمون : من تمكنت عادة الشاي ومعه السكر منه فليعلم أن الأفيون معهما ، وأنه أصبح فريسة ، فيا أيها الشاربون للشاي في مراکش ، يا من حكم عليكم أن تكونوا شاربين صباحا ومساء اتقوا الله في أنثائكم وبناتكم ، حذروهم ، بل اشربوا سراً ولا تعطوهم - جرعة واحدة ، ولست أقول لكم أتركوه لأن الذي يتركه منكم أصحاب النفوس الكبيرة أهل العزائم والهمم والمجاهدات .

هذه نصيحتي لأهل مراکش خاصة ، والمسلمين عامة ، أحذركم فتنة أصابت البلاد والعباد ، الله أكبر استقلال الأمم إنما يكون بعد الامتحان ، والله قد امتحنكم أيها المسلمون بالملابس الفرنجية وأنواع الخمر والشاي والسكر جعلكم هذه مستعبدين ، فإذا تأتم الاستقلال الشخصي بلبس الملابس الوطنية ونبتذ المهيجات من الخمر والشاي المثلث المضار ، فأنتم إذن أهل للاستقلال السياسي ، لاستقلال الأمة إلا باستقلال أفرادها من الملاذ الفردية .

يا من تشربون الخمر ، وتمكرعون الشاي والسكر معها أنتم مقيدون بقبود من حديد أذلاء فتخلصوا من هذه القيود الفردية تنحل عنكم الروابط الاجتماعية ، وتصبحوا سادة في بلادكم ، أحرارا في دياركم ، سعداء في أوطانكم ، ويخرج لاذك المستعمرون .

أين عزائمكم ؟ أين مجدكم القديم ؟ أين نخوتكم العربية ، أين ملككم العظيم ؟ أعدكم بهذا كله بعد أن تذكروا ما حذرتكم منه ، فقد حذرت وأنذرت وبرهنت لكم ، وأنتم أهل لما أقول ، وستعملون به وأنتم به موقنون ، وإلى هنا تم الكلام على اللطيفة الأولى في قوله تعالى : « انهم كانوا قبل ذلك مترفين » وهي الرسالة التي أرسلتها إلى بلاد مراکش في التاريخ المذكور ونشرت هناك ، والحمد لله رب العالمين ، كتب في صباح الأربعاء ٢٣ مارس سنة ١٩٣٢ م — بحى السيد زيب .

اللطيفة الثانية

في قوله تعالى : نحن قدرنا بينكم الموت

نذكر في هذه اللطيفة ما جاء في جريدة الأهرام مناسبة لهذه الآية بتاريخ ٣ ديسمبر سنة ١٩٣٠ م تحت العنوان الآتي ، وهذا نصه :

الخلود وطول العمر

حوادث مدهشة عن طوال الأعمار

يفكر الفلاسفة والأطباء قديما وحديثا في حياة الانسان من جهة إمكان إطالة العمر عن المتوسط المعروف أو إلى أن يكون المتوسط مائة أو مائة وخمسين أو مائتين ، ومن جهة ماذا كان يمكن أن يعمر الانسان إلى الخلود .

ظهر مؤلف حديث للسيو جورج لاكورسكى بعنوان [العلم والسعادة] وله قبل ذلك مؤلفان أحدهما باسم « أصل الحياة » والثانى باسم « سر الحياة » .

فى كتاب « العلم والسعادة » يعرض مسيو لاكورسكى لمسألة طول العمر والخلود ، أشار المؤلف إلى كتاب لمسيو خان فينو الفيلسوف باسم « فلسفة طول العمر » ، وقال : ان هذا الفيلسوف يظننا على أن الأمثلة النادرة جدًا التى يعرفها الناس بشأن طوال الأعمار ليست ندرتها بالدرجة التى يتصورونها ، فمن الأسف أن الإحصاءات الصحيحة الدقيقة لم تكن إلا قريبة العهد ، ومن المستحيل علينا مثلا أن نعلم على سجل المواليد عن ٩٦٩ سنة عاشها [ماتوسالم] أو ٨٠٢ التى زعم أن ملك جزيرة [لوكبانز] قد عاشها والتي تكلم عنها [بلين] و [فايرماكسيم] . وقد ذكر [استرابون] أن بين سكان بنجاب أفرادا قد عاشوا ٢٠٠ سنة ، وقال [بلين] : انه فى عهد ديسبارين عمل إحصاء ظهر فيه أن عدد سكان بلاد المغول سيراالين ٣ ملايين نفس كان فيه ١٧٠ شخصا يبلغ عمر كل منهم أكثر من ١٠٠ سنة أى بنسبة واحد من ذوى الأعمار من المائة إلى كل ٢٠ ألف من السكان .

ويقول [بلين] : إن ماركوس ابرنيوس عاش أكثر من ١٥٠ سنة ، ويقول لوسيان : ان تيريسياس عاش سنة قرون ، وأن سكان جبل آتوس كان يعيش الواحد منهم ١٣٠ سنة . وقال الكسندر كورنيليوس إن أحد الإليريين عاش ٥٠٠ سنة واسمه دودون . وقال انكريبون : إن [سنجرين] ملك قبرص عاش ١٦٠ سنة ، وفى حياة القديسين عاش القديس سيمون ١٠٧ سنوات ، والقديس تالكريس ١٦٥ سنة والقديس انطوان ١٠٥ سنوات ، والبوماطران الحبشة ١٥٠ سنة .

ويقول [هلار] فى كتابه « العناصر الطبيعية » : « إن الانسان من الحيوانات التى تعيش زمانا طويلا ، ويظهر أن الحد الطبيعى لوجوده حيا هو ٢٠٠ سنة ، ويقول بأن اثنين من المعمرين مات كل منهما بمحادثة [الأول] توماس بار ، وعمره ١٥٢ سنة وقد مات أثر عسر هضم بعد غداء حفلة أقامها ملك انجلترا تكرر بماله ، وأن الثانى توفى متأثرا ببرودة شديدة ، وكان للأول عند وفاته ابن عمره ١٠٢ سنة وللثانى ولد عمره ١٤٠ سنة .

وظهر من إحصاء سنة ١٨٩٧ فى بونس ايرس أن عبدا اسمه برنو كوتريم جازر عمره ١٥٠ سنة ، وفى سربيا بلغ عمر ثلاثة من المعمرين ماينانى : [الأول] ١٣٥ سنة [والثانى] ١٢٥ سنة والثالث ٢٩٠ سنة ، وبلغ فى الولايات المتحدة عدد المعمرين الذين جاوزوا المائة سنة فى سنة ١٨٩٠ م ٣٨٩١ ، وفى لندن ٢١ شخصا . وفى روسيا يبلغ عدد المعمرين الذين جاوزوا المائة سنة كثيرا ، وبدل إحصاء افونيا على أن معمرا يبلغ عمره ١٦٨ سنة ، ومات فى سنة ١٣٤٦ رجسلى فى لوسرن يبلغ عمره ١٨٦ سنة ، ومات زارع ايقاسى عند ما بلغ عمره ١٨٥ سنة .

وما زال يعيش فى مصر معمر عمره ١٥٤ سنة مازال يذكر عمله القنصل فى عهد نابليون ، وفى تركيا كان يوجد رجل عمره ١٥٦ سنة اسمه زارو ، وقد أرسل إلى أميركا ليكون مثالا على فوائد منع المسكرات وقد مات أخيرا ، وقد شوهدت صورته فى الأفلام السينمائية وصوره الشمسية ، وقد أعجبت بها إذ الناظر إليه لا يقدّر للرجل من العمر أكثر من ٧٠ سنة إذا نظر إلى مشبته .

لكثرة المعمرين فى الدنيا وضع بعض العلماء قوانين عامة ، ومنذ القرن التاسع عشر عملت إحصاءات

كثيرة بواسطة الذين يشتغلون لمصلحة شركات التأمين ، إذ هي تبين العمر والسنة وعدد المعمرين في جهات مختلفة من أوروبا وألولايات المتحدة .

ومما يلفت النظر أنه في الاحصاءات الصادرة ببيان المعمرين الذين وصلوا أو جاوزوا المائة سنة لا تظهر السيدات ، ذلك لأنهن يضعفن بالأمراض المختلفة ، وأن جميع القوى العقلية والحسية تضعف مرة واحدة عندهن ، فقد ظهر أن الرجال المعمرين إلى ما فوق المائة سنة عند مائتوا بسن الشيخوخة فقدوا بعض خاصيتهم ، ولكن بعد ذلك تجددت لهم قوى شباب جديدة .

ويقول [هالارو بلاندين] وأطباء آخرون : أنهم لاحظوا ظهور أسنان جديدة ابتداء من ٨٠ سنة ، ويذكر الدكتور جراف أنه شاهد أن امرأة عجوز اصار شعرها أبيض اللون من المشيب عند ما كان عمرها ١١٠ سنين ولكن بعد هذا التاريخ عاد إليها لونها الأول ، وآخرون تجددت أسنانهم عند سن ٩٠ و ١٠٧ سنين ، ومما يذكر أن القوى العقلية والبدنية عند المعمرين كانت سليمة جدًا .

لقد اختلف في تعليل طول العمر عند المعمرين ، ويمكن القول اجمالاً بأن الحياة الطائفة التي يعيشها المعمر ، وفراغ قلبه من الحسد والبغض والحُموم واللؤم والغيرة والطمع من أسباب إطالة العمر ، والمعمرين هم الذين يحفظون النسبة بين قواهم العقلية وقواهم البدنية طول حياتهم ، وعند الباحثين في أمر إطالة العمر يبحث الوسائل التي تؤدي إليها من رياضة وامتناع عن المسكرات ، وحياة هادئة ، لانغمرها المظامع ، ولا تحفها الشهوات والأحقاد ، ولا يخالجها اليأس ، إن الوصول إلى إطالة العمر ، أرفع نسبة أعمار الأحياء هو خطوة أولى ولازمة في سبيل تحقيق الخلود ، فهل الخلود ممكن للإنسان ؟ ١ ٢

هذا ماجاء في جريدة الاهرام في التاريخ المذكور ، وبهذا تم الكلام على اللطيفة الثانية في قوله تعالى « نحن قدرنا بينكم الموت » والحمد لله رب العالمين . انتهى تفسير سورة الواقعة .



تفسير سورة الحديد

هي مدنية

آياتها ٢٩ - نزلت بعد الزلزلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ يُخْفِي وَيُخْشِي وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ
وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى
عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا
وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى
اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ * يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ
الصُّدُورِ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ
وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ * وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ
وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ يَتْلُو
لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ * وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا
فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاتُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ
وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَكْثَرُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ
بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ *
يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ
جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ
وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا

نُورًا فَضْرِبَ يَتَنَّهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ * يُنَادُوهُمْ
 أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ
 الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ * فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ
 الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمْ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ
 تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ
 فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ * أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ
 بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدَّقَاتِ
 وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضَاعِفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ * وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ
 أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّدِيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا
 بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ * أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ
 يَنْتَكِبُونَ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ
 فَتَوَارَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ
 وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ * سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا
 كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ
 وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ * مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي
 كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَتَرَ لَكُمْ وَلَا
 تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * الَّذِينَ يَخْلَوْنَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ
 بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَقُولُ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا
 مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ
 لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَبْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا
 وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُتَقِدٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ *
 ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ

الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَافِقَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ
فَمَارَعَوْهَا حَقِّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ * يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا
تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * لَيْلًا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ إِلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى
شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ *

هذه السورة أربعة أقسام

القسم الأول في تفسير البسملة .

القسم الثاني في صفات الله ، وأسمائه الحسنى ، وظهور آثاره ، في بدائع مخلوقاته ، من أول السورة إلى قوله : « وهو عليم بذات الصدور » .

القسم الثالث في الخوض على الاتفاق من قوله تعالى : « آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ » إلى قوله : « وله أجر كريم » .

القسم الرابع في عشر جواهر (١) بشرى المؤمنين بالنور يوم القيامة (٢) وحث لهم على الجنة وذكر الله (٣) وثواب المتقين (٤) وذم الدنيا (٥) والترغيب في الآخرة (٦) والتسلية على المصائب (٧) وذم البخل (٨) والحث على العدل (٩) والاعتبار بالأعمال السابقة (١٠) والأعمال التي توجب النور المتقدم ذكره ، وذلك من قوله تعالى : « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو النور العظيم » إلى آخر السورة .

القسم الأول في تفسير البسملة

نجلت رحمة الله في عالمنا هذا ، وما علمنا هذا اسنادي ، أليس عالمنا عديميا ؟ وكيف لا يكون عديميا وما هو إلا حركات في عالم سموه الأثير ، وما الأثير إلا عالم أشبه بخيالنا نحن ، عالمنا حركات في خيال الفضاء ، وهذه الحركات المذكورة هي التي أجمع عليها علماء زماننا شرقا وغربا في مدارسهم وشرحنها في دور كشيخة في هذا التفسير لاسيما في [سورة النور] عند آية : « الله نور السموات والأرض » وأثبتنا هناك أن الحديد والصاب والهواء والماء والضوء جميعها حركات والاختلاف بينها لن يكون إلا بعدد الحركات ، فإن كان عددها نحو ٦ آلاف مليون مليون في الثانية فهي المواد التي نحس بها بحاسة اللمس والشم والذوق من طعام وشراب وفاكهة وما حوّلها ، وإن كانت أقل من ذلك فنقصت عن هذا العدد فكانت من نحو ٤٠٠ مليون مليون في الثانية إلى نحو ٧٠٠ مليون في الثانية فهي الأضواء كضوء الشمس ، فلأحر ذوالعدد الأقل ، والبفسجي ذوالعدد الأكبر ، وبقية الألوان بينهما كالأخضر والأصفر والبرتقالي والبيبي والأزرق . هذا القول وأمثاله مشروح في هذا التفسير كثيرا ، ولكن المقصود الآن التجيب من هذا العالم ، فما هو إلا أشبه عدم ، هو خيال ، وهذا الخيال فيه حركات ، وهذه الحركات أشبه بحركات أفكارنا في خيالنا فلان نجيب نحن من ذلك لأن الله يقول : « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » فلما أبصرنا أنفسنا ألقينا فيها أمرا موجودا لانشك في وجوده وهو الخيال ، وهذا الخيال نحس بأننا مجبولون على أن نجندره ونصفيه ونهذهبه . ونصنع فيه حركات فكرية تنتج لنا علوما ومعارف ، فلان نجيب إذن إذا رأينا خيال الفضاء فيه حركات أحدثت آثارا

أبصرتها غير أننا أحدثت حركات الأفكار في الخيال آراء شهدتها عقولنا ، إن نفوسنا نبراس علومنا ، ومهيح تفكيرنا ، إن نفوسنا في صفاتها وجناتها واتساعها حوز العلوم أشبه بما نشاهد في المادة المحسوسة من أنها كإعطائنا غذاء ودواء وفاكهة هي نفسها تكون مجال أفكارنا ومناط علومنا كما أن نفوسنا كما تكون سببا في حياتنا وأعمالنا في الحياة تكون هي مدرسة لنا وكتابتنا قرؤة ، فكما تفكر في أعراضها المختلفة ومواهبها العجيبة تفكر في هيئتها فنجعلها لنا مجال دراسة ، فنحل المشكلات بقراءتها ودراستها ونقول : لقد رأينا فيها خيالا قامت به حركات أفكارنا ، وهذان علمان موجودان حيث لا مظنة للوجود ، هكذا هذا الفضاء فيه خيال نسميه أثرا ليس مظنة الوجود ، وفيه حركات لا ندرى ماهي ، رتبت فصارت علما تحس به حواسنا .

الله أكبر : لقد أجمع علماء الطبيعة أن البعد بين النرة والنرة في المادة كالبعد ما بين الشمس والأرض إن دقائق الماء والهواء والسحاب والأرض والحجر والمدر كلها متباعدات تباعدا يقف العقل دونه ، فلماذا فضلا عن أنها مجرد حركات وتلك الحركات تنقلب أنوارا كهربائية ، وهذه الأنوار يجري سالبها حول موجبها فتكون الأشكال المختلفة عند حواسنا باختلاف أعداد حركاتها وهيئتها ، هي متباعدات تباعدا مدهشا عجيبا ، وبأيت أمرها وقف عند كونها أشبه بالأمور الوهمية من كونها حركات فيما يشبه الخيال ، بل أمرها تعدى ذلك فصار هذا الأمر الشبيه بالوهمي هو نفسه قليل أيضا يشبه المعدوم ، وماذا نقول في علمنا هذا الذي نعيش فيه ، وقد أثبت ذلك علم الطبيعة الذي يقرؤه أصغر تلميذ في مدارس العالم الإنساني فقد قيل فيه : إن المسام الصغيرة وإن تكن لشدة صغرها لا ترى بالمكروسكوب فهي أكبر من الجواهر بما لا يقاس ، فلو تصورنا أن في المسام حيوانا صغيرا جدا بحيث يعيش على جوهر من الجواهر كما يعيش إنسان منا على الأرض وفرضنا أن ذلك الجوهر واقع في وسط حجر لسان الحيوان المشار إليه يرى أقرب الجواهر إليه بعيدة جدا عنه كما نرى نحن الشمس والقمر والنجوم ، وربما كان يحتاج لمعرفة تلك الجواهر إلى نظارات كبيرة كما يحتاج نحن إليها لمعرفة الأجرام السماوية ، فيظهر من ذلك اتساع المسام بالنسبة إلى الجواهر .

هذاما جاء في كتب الطبيعة في عصرنا الحاضر ودرس للتلاميذ ، إذا كانت هذه صفات المادة ونفس جسمي والفكر الذي أكتب به هذه المقالة والخبر والقرطاس ، وكلها إن هي إلا فضاء واسع كالفضاء بين السماء والأرض والنجوم تتخلله حركات تكون أنوارا كهربائية ، وماتلك الحركات وأنوارها إلا ذرات أشبه بالمعدوم وسط هذا الخلاء ، فهي أمور أشبه بالخيالية نادرة جدا في وسط جو فسيح تأوهات فيه ومع ذلك نرى جسما وقلمنا وقرطاسا ونقول نحن موجودون وماذا لنا ملتزمة مسدودة الأبواب مقفلة ، إذن هذا العالم الذي نعيش فيه حركات وأنوار لا غير ، وهي مع كونها كذلك نادرة جدا ، فأجسامنا هذه أشبه بفضاء واسع لا مخلوق فيه ، فالورق كقطار في ذلك الخلاء صادفنا في كل بضعة أيام نباتا تراه أبصارنا ثم يختفي بسبب سرعة القطار ، إذن علمنا مبنى على العدد .

يا عجبنا : وهل امتاز الحديد والرصاص والماء والهواء والضياء إلا بالعدد ، حركات وأضواء امتازت بأعدادها إذن العدد كأنه أصل الوجود ، وكيف لا يكون أصل الوجود وبه انتظام الأجسام ، وهل الأجسام إلا حركات في أثير تتججت عنها أضواء ، وهذه الأضواء والحركات لا امتياز لبعضها عن بعض ولا تفرق إلا بعدد الحركات ، فان قلت كانت لطيفة كالأضواء ، وإن كثرت كانت كثيفة كالأجرام الثقيلة والصلبة .

سبحان الله : إذن العدد به تباينت الأجسام ، والعدد قرآنه في نفوسنا ، هل أحد منا يجهل الأعداد ؟ الأعداد مرتبة ثابتة في نفوسنا ، فهذه الأعداد بها نظمت النفوس العالوية أمر الأجسام فباعدت ما بينها بمراتب الأعداد ، إذن مراتب الأعداد في نفوسنا كانت سببا في مراتب ما نصنعه في أرضنا ، وهكذا هناك نفوس كبيرة نسبتها إلينا كنسبة العوالم المحيطة بنا إلى أعيننا لنا الضئيلة البؤسية ، إذن الأعداد كأنها أصل الوجود

لأن الأعداد ثوابت والحركات غير ثوابت ، وما كان غير ثابت لا يصلح أصلاً ، إن الأعداد ثابتة في نفوسنا ، وفيها أنواع الواجب والجائز والمستحيل ، فإن ٦ في ٦ يساوي ٣٦ وهذا واجب ، ومستحيل أن يكون أقل أو أكثر ، ٣٦ كما يكون من ضرب ٦ في ٦ يكون من ضرب ٣ في ١٢ و ٢ في ١٨ و ٤ في ٩ ومن واحد ونصف في ٢٤ ففيه الواجب والجائز والمستحيل ، والعلم كنه لم يخرج عن هذه الأقسام المرتبات في عقولنا ، العالم الذي نعيش فيه لا يخرج كنه عن عالمين اثنين : رياضي وطبيعي ، فالعالم الرياضي راجع للعدد لأن العدد سار في الحساب والهندسة والفلك والموسيقى ، كل العالم الطبيعي موزون محسوب بحساب مهندس بهندسة ، نظامي بشكله ، راجع للوحدات ، تلك الوحدات المرتبات في نفوسنا ، فالعالم من عرشه أقرشه مقتر موزون محسوب ، والحساب مبدؤه ثابت في نفوسنا .

من هذا البيان يفهم الناس في زماننا قول [فيثاغورس] : أن العدد أصل العالم ، وذلك لأنه لا عالم أن هو إلا حركات في أمر يشبه المعدوم ، والحركات وجودها ضعيف ، وهذا معنى قول علماء عصرنا : إن المادة لا وجود لها ، وإن هي إلا حركات ، وللحركات أضواء ، وإذا كانت معدومة فظاهاها العدد ، والعدد مرتب في نفوسنا ، لذلك نسمع الله يقول : « والفجر وليال عشر » ، والشفع والوتر « وما الشفع والوتر إلا جميع الأعداد ، وهذا أيضا يوضح لنا قول القدماء : « إن المادة لم يظهر وجودها إلا بالصورة » وهل هذه الصورة المادية إلا ما حدثت بالعدد أي عدد الحركات .

نتيجة هذا المقام

إن نتيجة هذا المقال أن الأمر كل الأمر أن علمنا ثبت أنه أشبه بالذي ليس بوجود ، وأن ما يشبه الموجود منه ما هو إلا حركات مع كثرتها في نفسها هي معدومة في جانب الخلاء الذي تقع فيه وتضيء في مواضع نادرة منه ، وهذه المظاهر الباهرة كلها أشبه بالوهم ، والوهم أخو العدم ، أليس هذا به نفهم « بسم الله الرحمن الرحيم ، سبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » فإذا كان العالم أشبه بالمعدوم ومع ذلك نراه ونسمعه ونتمتع به ، ولم يتز بعضه عن بعض إلا بالعدد ، إذن الأمر فوق ذلك أن هو لإتجاهات ومظاهر للمحيط علماء بالعوالم كلها ، لأن هذه العوالم لا ظهور لها إلا بامتياز أعدادها وأقدارها ، والأعداد أمور معقولة لا محسوسة ، وهذا العالم محسوس مشاهد ، إذن الموجود الحق الذي لا وهم بإحقه هو الموجود الذي يستحق اسم الوجود ، وما هذه الصور والأشكال إلا مظاهر أعماله هو أو آثار معلوماته ، طبعت في هذا الجوّ الفسيح طبعاً ظهرت لنا أصوله بهيئة حركات وأضواء ، وتجلي لعيوننا بهيئة نبات وحيوان وشمس الخ . فهذا معنى قوله : « هو الأول والآخِر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم » فأما هذه التي ذكرناها فما هي إلا مظاهر رجائه وآثارها .

ضرب مثل

اعلم أيها الذكي المطلع على هذا المقال أن هذا المقام خطر فإن عقولنا لا تقدر أن تجمع بين وجود ولا وجود : أي لا تجمع بين الوجود والعدم ، هما نقيضان ، والنقيضان مستحيل جمعهما ، فنحن الآن موجودون فكيف ساغ لنا أن نقول إن هذا كله وهم كما يقوله علماء الطبيعة أجمعون ، وكيف يقول الله : إن الله هو الأول والآخِر والظاهر والباطن الخ فالعلم والقرآن اتحدا على أمر واحد وهو أن هذا العالم وجود ولا وجود ، فإذا نقول إذن ؟ لا سبيل لنا إلا ضرب الأمثال ، هذه الشمس مشرقة ، وذرات النور مسافرة في الجوّ الفسيح : أي في العدم باعتبار النظر الظاهري ، أوفها يشبه العدم وهو الأثير ، وهذه الذرات الضوئية لا يظهر

ضوءها في الجوّ إذ لا تظهر إلا على جسم ، ولا جسم في جوّ السماء إلا ما طار فيه ، فإله ضرب مثل الشمس ، وأرواح المخلوقات ضرب مثل للذرات المادية وهي تدافر في العدم المحض بحسب الظاهر أوفيهما يشبه العدم وهو عالم الأجسام الذي هو رتبة في مراتب عالم الأثير ، إن الذرات الضوئية مخفية في أثناء سفرها من الشمس إلى الأرض أى في ثمان دقائق و ١٨ ثانية ، وإنما يكون ظهورها إذا وصلت إلى أرضنا لاغير ، غاية أرواحنا في أجسامنا أشبه بظهور ضوء الشمس على الأرض التي أشبهنا أجسامنا في أن كلا منهما مظهر ، فأحدهما مظهر للنور ، وثانيهما مظهر للروح ، فإذا نظرنا ضوء الشمس على الأرض فإنا لانجده شيئا سوى حركات مبدؤها الشمس ظهرت لنا بهيئة نور ، وإذا نظرنا للشمس ونحن في الجوّ لم نجد إلا ظلمات متراكمة تنتهي بوجود مضيء عظيم هي الشمس ولا نرى للذرات الضوئية أثرا في تلك الظلمات التي لاحد لها ، نعم لها وجود مستعار من الشمس يظهر لنا إذا ظهرت على جسم معتم كالأرض ، فن وقف في جوّ السماء فإله لا يرى إلا الشمس المشرقة بنورها فيقول عجباً ! هي الأول وهي الآخر وهي الظاهر وهي الباطن ، لأن هذه كلها ظلمات وغاية الأمر أن لها آثارا مستعارة منها على الأرضين ، وهذا ضرب مثل لاغير « والله انثل الأعلى » والله ليس كمثل شيء ، ولكن مرادنا هنا الإيضاح لاغير ، فإله منزّه عن المادة وعن التشبيه والنظير ، وإياك أن تظن أن ضوء الشمس جزء منها . كلا . بل هو حركات في الأثير لاغير ، وهذه الحركات غير الشمس كما أن الأرواح غير ذات الله ، فالمخلوق غير الخالق .

بهذا نفهم : « هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم ، هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم » أى بعلمه ، ولولا أنه معنا ما علمنا بوجود أنفسنا ، كما أنه لولا أن الشمس مع أضوائها المنبعثات منها ما ظهرت تلك الأضواء على وجهه الأرض ، هذا ما فتح الله به في تفسير البسملة في ﴿ سورة الحديد ﴾ والحمد لله رب العالمين . كتب يوم الثلاثاء ٨ مارس سنة ١٩٣٣ م .

مقدمة في اتصال هذه السورة بما قبلها

(١) إن السورة المتقدمة والسور قبلها سور ترجع إلى العلم ، وهذه السورة أكثرها للاعمال .
(٢) إن آخر السورة السابقة قوله : « فسبح باسم ربك العظيم » الذي هو مراتب على ما قبله من جزاء كل فريق من أصحاب اليمين وأصحاب الشمال والسابقين كل بما هو أهل له ، وههنا بين صفات الذي أمر بتسبيحه ، وأن تسبيحه ليس خاصا بأهل الأرض ، بل هو عام ، وهذا كقوله « فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون » من بعض الوجوه . انتهت المقدمة .

القسم الثاني : في صفات الله ، وأسمائه الحسنى ، وظهور آثاره ، في بدائع مخلوقاته

التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

[سبح] ذكر التسبيح بالماضي هنا وبالأمر في السورة قبلها ، وذكر بالماضي أيضا في الحشر والصف ، وذكر بصيغة المضارع في الجمعة والتغابن الإشارة إلى أنه يسبح في جميع الأوقات ، بل هو مأمور به ، ويقال سبحته وسبحت له كما تقول فصحت له ونصحته ، ونزبه الله وتسبيحه من العلاء هو القول الدال على تنزيهه كما هو معروف ، فأما غير بني آدم والملائكة ، فالتسبيح منها الدلالة على العظمة والتنزيه ، أو الانقياد والتسخير

لله تعالى ، فأشارتك لصاحبك بيدك على هيئة مخصوصة يفهم منها تأن وأصبر ، وأشارتك بها على هيئة أخرى خاصة يفهم منها لا تفعل وهكذا ، فهذه الدلالة في الحاليين أفهمت صاحبك أفهاما كافهما الكلام بل أشد تفهما وأبلغ أثرا ، وكما للإنسان في حركانه من معاني يفهمها الآخرون ، فإذا كان هذا من الإنسان المحدود العلم ، فأياك بما أطلعنا الله عليه من بدائع العلم والحكمة معاشر بني آدم وفهمنا منه ما لا نفهم بالقول ، ولو أنك وقفت في الحوات ، وراقبت المزارع والجنات ، والشجر مترنحات ، والحشائش متحرركات ، والأوراق تفتى بموزون الأصوات ، وقد أرسى الليل سدوله ، وأرسل من الخافقين جحافل جنوده ، وتخلها بريق الكواكب تلمع في السبابس ، هناك تتجلى لك العبر ، وتقرأ علوم المتبدأ والخبر ، وتغني لك السموات ، على أعواد الغابات ، بما يشنف سمعك ، وترتب أنسك ، ويشرق شمسك ، وهناك هناك تناجيك اللذات ، وتشارك الآيات ، وتحيط بك الاشارات ، وتقصص عنها العبارات ، وترى فيها ما لا تراه العيون ، والناس حولك ساهون لاهون ، هنالك الأنس والنور ، وهنالك الجنات والجور ، وهنالك السعادة والخبور ، وهنالك تفهم قوله تعالى (سبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز) المنتقم ممن يعيش ويموت وهو لا يعقل ذلك التسبيح الذي نطق به النرات ، وشهدت به الآيات ، فضلا عن تركه التسبيح هو ، فإذا أمر المسلم أن يسبح في آخر السورة السابقة فإن الله يعاقبه إذا تمكن من إدراك بعض أسرار الكائنات التي يعبر بها عن التسبيح وأقفل عنها عينيه ، وأصم عن سماعها أذنيه ، وقوله (الحكيم) أى في مجازاة من عقل ذلك وسبح لله فيكون عالما عاملا ، ويعم نوره بقية السالمين من حيث العلم والاقتداء به (له ملك السموات والأرض) لأنه الخالق المتصرف حال كونه (يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير) أى يحيي الأموات ويميت الأحياء ، وهو على كل شيء من الإحياء والامانة وغيرهما قدير (هو الأول) السابق على سائر الموجودات ، لأنه أوجدها (والآخرة) الباقى بعد فنائها ، وأيضاً منه ابتدأت الأسباب ، واليه انتهت المسببات (والظاهر والباطن) فقد ظهرت دلائل وجوده وتكاثر ، وبطنت ذاته فلم ترها العيون ، واحتجبت عن الظنون ، فهو ظاهر بآثاره وأفعاله ، باطن بذاته ومشرق بجلاله وكماله ، قد ظهرت غلبته على المخلوقات وعلم حقائقها ، ولم يخف عليه بواطنها فهو ظاهر بغلبته عليها ، باطن لعلمه بما بطن منها (وهو بكل شيء) من الظاهر والباطن والجلي والخفي (عليم هو الذى خلق السموات والأرض في ستة أيام) تقدمت الحكمة في أنها ستة في سورة الفرقان ولماذا اختيرت الستة (ثم استوى على العرش) تقدم الكلام عليه في سورة يونس وفي سورة هود (يعلم ما يلج في الأرض) ما يدخل فيها من الكنوز والبذور والموتى والمعادن ، ومن أهمها الحديد الآتى ذكره ، الذى فيه بأس شديد ومنافع للناس ، فلم يدخل البذر في الأرض إلا للقت ومنفعة الناس والدواب ، ولم يدخل الناس في الأرض إلا لإخراج أرواحهم من عالم المادة وإسعادهم ، أوتريتهم إذا كانوا عاصين الخ ، ولم يدخل الكنوز في الأرض إلا ليبحث الناس عنها ويستخرجوها ، فهو لم يولج المعادن إلا يعلم يعلم منافعها ، فلذلك دفنها لمن هم مستعدون لاستخراجها (وما يخرج منها) كالمعادن المذكورة والزرع والموتى إذ يخرجون من القبور (وما ينزل من السماء) من الملائكة والمطر ونحوهما (وما يعرج فيها) كالأشجار والأعمال والدعوات (وهو معكم أينما كنتم) لا ينفك علمه وقدرته عنكم بحال (والله بما تعملون) في أمور دينكم ودنياكم (بصير) فيعطى كل ذى فضل فضله « ولا يظلم ربك أحدا » ثم قال (له ملك السموات والأرض) وإنما كرره ليرتب عليه ما بعده (والى الله ترجع الامور ، يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل) تقدم شرح ذلك في (سورة البقرة) وغيرها (وهو عليم بذات الصدور) أى بمكنوناتها . انتهى التفسير اللفظي للقسم الثانى من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

لطيفة في قوله تعالى : يعلم مايلج في الأرض ومايخرج منها

اعلم أن الكلام على هذه الآية قد تقدم في ﴿سورة سبأ﴾ وشرحت لك هناك ما تشير له الآية من السكروز والآثار والعلوم المدفونة في خرائب بلاد اليمن ، وكيف سخر الله الفرنجة فقاموا بالحفر والتنقيب والمسلمون هم النائمون لا يدرون ما حولهم كأن البلاد ليست بلادهم ، وكأن هذه الآية ليست من دينهم ، أو كأنها نزلت لمن لا يتفكرون فيها ، لهذا يذكر الله الابلج في الأرض في قول سورة ذكر فيها قصة سبأ ، فهكذا هنا بدأ الله هذه السورة بما يفيد أنه يعلم مايلج في الأرض ومايخرج منها . ثم رأينا بعد ذلك يقول : « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » فاعلمنا أنه يرسل إلى نعمة المعادن التي هي من قبيل الحديد والتي هي الآن في قبضة الفرنجة ، وكيف نام المسلمون عنها والله يقول انه يعلم مايلج في الأرض ومايخرج منها ، فيعلم منفعتها ، ويعلم الذين ينتفعون بها ، ويعلم متى ينتفعون بها ، ويعلم متى يستخرجونها ، ويعلم من الذي يحرم منها فتكون الدائرة عليه لجهله فلم يذكر الله ذلك لمجرد معرفة الله بمجرة من كمال العباد ومنافعهم والالم يقل في ﴿سورة ق﴾ : « والنخل باستات لها طلع نضيد رزقا للعباد » فهذه المخلوقات بها الاستدلال تارة وبها الرزق أخرى ، فليستخرج المسلمون الحديد والذهب والنحاس وجميع المعادن ، ولا يكونوا عالة على أوروبا .

وعما يستخرج من الأرض آثار الأولين كما تقدم في ﴿سورة سبأ﴾ أيضا ، ولن يكون هذا إلا اذا ملكت الدولة رسلها ، وكل نظامها ، وعظم عمراتها ، فهل أنبتك بأمر عجيب قرأته في إحدى جرائدنا المصرية يوم الأحد الخامس من شهر مايو سنة ١٩٣٥ عند تفسير هذه الآية : ذلك أن القواصين الذين يفوضون على [السفنج] ليستخرجوه في البحر الأبيض أمام تونس ، كان أحدهم قد غاص ونزل في البحر على عمق ثلاثين قدما ، وبينما هو يعالج الاسفنج إذ لمح من بعيد امرأة جميلة لم يرَ الرايون مثلها ، معتدلة القوام ، باهرة النحاس ، باسمه الحيا ، والحشائش نابتة حول جسمها ، والسماك يغدو وبروح حولها ، فلما رأى هذا المظهر دهش وظن أن عقله ليس في حالة العادية ، فأشار إلى رفاقه في البر إشارة الخطر ، ورفعوه ، فأخبرهم الخبر ، فنزل رفاقه فوجدوا الأمر كما قال ، وأن هناك مدينة ذات شوارع ومنازل والسماك ذاهب آيب فيها ، فأخبروا الحاكم الفرنسي بتلك الأقطار بالجزائر ، فطير الخبر إلى بلاده ، فأرسلوا إلى عالم كبير بالآثار من أمريكا فلما درس الموضوع ، قال : ان هذه المرأة هي صورة آلهة الجبال في قديم الزمان ، وأنه يظن أن تلك المدينة ومنازلها قد ابتلعها البحر منذ ثلاثة آلاف سنة ، وأنه يريد أن ينظر في أمورها هل يبني سورا حولها ان كان ميسورا ، أم يرفع الأشياء الثمينة منها ويتركها إن لم يتيسر الأول ؟ .

هذا ملخص الخبر في جريدة البلاغ المصرية ، فهذه الحادثة مما يلج البحر ومايخرج منه والله يعلمها ، وذلك ان الله أوجها في البحر الذي هو بمثابة الأرض لعلهم أن قوماسيتفعون بها بعد خروجها ، فان المتأخر اذا اطلع على صناعة المتقدم أدهشه الحسن والجمال والدقة في الصنع فيستمسك بما اس عنده ، ويبحث في الوصول إلى الكمال ، فان العلم منشؤه التعجب ، ومتى تعجب الناس من جبال صنعة المتقدمين زادهم ذلك نشاطا وجدا ، ولأن أقول لأمة الاسلام : هذا كلام ربنا وهذه آثاره في الأرض ، وهناك آثار سبأ المتقدمة في سورة سبأ وهي في أرض المسلمين الآن ، وآثار هذه المدينة المجهولة التي أغرقها الله في البحر أمام تونس ، تونس التي هي بلاد اسلامية والمسلمون هم الآن نائمون ، ملكت فرنسا تونس ، فأصبح أهلها وأهل الجزائر وطرابلس وغيرها من شمال افريقيا لا يعلمون شيئا في بلادهم ولكن الله يقول : « يعلم مايلج في الأرض »

نعم يعلمه ويخبر عباده به ، فانظر لآمة الاسلام التي تركت الدنيا تنبى من بناها ، وتقول لأهنتم بشيء ، فلا علم ولا مال ولا دولة ، وقد آن أوان أن نشرق أيهم ، وتردان مدنتهم ، ويكون منهم في كل جيل طوافون في الأرض ، وعلماء في كل فن كما هو أواخر شرعنا أن يكون في المسلمين طوائف لكل فن طائفة تسكني المسلمين الحاجة ، وهذا هو المسمى فرض كفاية بحيث لو ترك لأهم المسلمون جميعا ، فسيعلم المسلمون ذلك ، وسيولون نظام الأرض كما تولها أوروبا التي ضيقت الحصار على المسلمين ، وأرغمتهم دهم في كل واد يهيمنون ، وسيأخذ المسلمون حظهم الموعود ، ويومهم المقبل « ولما نحن نبأه بعد حين » انتهى الكلام على القسم الثاني من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

القسم الثالث : في الحظ على الاتفاق

قال تعالى (آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) من الأموال التي هي ملكة في الحقيقة وما أنتم إلا خلفاؤه في التصرف فيها (فلذين آمنوا) بالله ورسوله (منكم) وأنفقوا لهم أجر كبير ، وما لكم لا تؤمنون بالله) أى وأى عذر لكم في ترك الإيمان بالله والرسول يدعوكم اليه ويتلو عليكم كتابه الناطق بالبرهان ، وهذا قوله (والرسول يدعوكم لتؤمنوا به) (بلالة حالية) (وقد أخذ ميثاقكم) بالإيمان قبل ذلك بنصب الدلائل والتحكيم من النظر (ان كنتم مؤمنين) أى إيمان كان لموجب ما ، فان الإيمان لهذا الموجب أعظم وهو أخذ الميثاق (هو الذي ينزل على عبده) محمد ﷺ (آيات بينات) القرآن (ليخرجكم) الله تعالى أوثنيه بدعوته (من الظلمات إلى النور) من الكفر إلى الإيمان (وإن الله بكم لرؤوف رحيم) إذ أنزل عليكم الكتاب ولم يقتصر على نصب الدلائل العقلية (وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله والله ميراث السموات والأرض) أى وأى غرض عرض لكم في ترك الاتفاق في سبيل الله والجهاد مع رسوله مع أنكم ستمتنون وتتركون أموالكم لغبركم ، فالأولى لكم أن تنفقوها فيما يقر بكم إلى الله تعالى وتستحقون به الثواب ، ثم أخذ يبين درجات المنفقين فقال (لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير) الفتح فتح مكة فن قاتل وأنفق قبله فأجره أعظم ممن أنفق وقاتل بعده مع أن كلا منهما وعد الله الثوبة الحسنى وهي الجنة كما تقدم في [سورة الواقعة] من الفرق بين السابقين وأصحاب اليمين والله يعلم بظواهر أعمالكم وباطنها فيجازى كلا بما فعل ، وأعظم من قاتل وأنفق قبل الفتح أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، وأكثر المفسرين يرون أن الآية نزلت فيه ، ولكنها بحسب حكمها أعم (من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا) أى من ذا الذي ينفق ماله في سبيله رجاء ثوابه ، ففيه استعارة لفظ القرض ليفيد لزوم الجزاء (فيضاعفه له) أى يعطيه أجره أضعافا (وله أجر كريم) أى ان هذا الأجر في نفسه كريم حسن فكيف وقد ضوعف أضعافا . انتهى التفسير اللفظي للقسم الثالث من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

القسم الرابع

قل تعالى (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم) وهو ما يوجب نجاتهم وهذا يتم إلى الجنة من العلم والعمل والعبادات والحكمة (بين أيديهم وبأيمانهم) لامن شمالكهم ولامن وراء ظهورهم كالكافرين ، فاختصاص النور بالأمام وبجهة اليمين للأشعار بأنهم هم الذين بحسناتهم سعدوا ، وبصحاتهم البيض أفلحوا فاذا مروا على الصراط يسعون يسعى بسعيهم ذلك النور وتقول لهم الملائكة (بشراكم اليوم جنات) أى دخول جنات (تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم) ثم أبدل من « يوم ترى » قوله

(يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا) أى انتظرونا ، وذلك اذا رأوهم قد أسرعوا كالبرق الخاطف إلى الجنة ، أو انظروا إلينا فثمهم اذا أقبلوا عليهم بوجوههم استضاءوا بنورهم ، ان تنظروا (نقبس من نوركم) نستغي من نوركم (قيل ارجعوا وراكم فالتمسوا نورا) وهذا نهكم بهم وتخييب لآمنهم من المؤمنين والملائكة ، أو قيل ارجعوا وراكم إلى الدنيا فالتمسوا نورا بتحصين العلوم والمعارف الإلهية والأخلاق الفاضلة فلا نور إلا منها ، وأما هنا فلا سبيل لكم أن تتلوا نورا ، إذ لا ينفع المرء إلا عمله ، ومن لم تستعد نفسه للهداية فلا ينفعه آخر (فضرب بينهم) أى بين المؤمنين والمنافقين (بسور) بحائط (له باب) يدخل فيه المؤمنون (باطنه) باطن السور أو الباب (فيه الرحمة) لأنه إلى الجنة (وظاهره من قبله العذاب) من جهته لأنه إلى النار (ينادونهم) أى ينادى المنافقون المؤمنين من وراء ذلك السور حين حجز بينهم وبقوا في الظلمة (ألم نكن معكم) في الدنيا أصلى ونصوم وتركى ونحج (قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم) أهلكتموها بالفساد والمعاصي والشهوات ، فهذه كلها فتنة (وتربصتم) بالمؤمنين وبالنبي صلى الله عليه وسلم الدوائر (وارقبتم) وشككتم في الدين (وغرتمكم الأمانى) الأباطيل وما تمنونه كامتداد أعماركم (حتى جاء أمر الله) وهو الموت (وغرتم بالله الفرور) أى الشيطان أو الدنيا (فالיום لا يؤخذ منكم فدية) فداء (ولا من الذين كفروا) ظاهرا وباطنا (ماؤاكم النار هي مولاكم) أى مصيركم النار هي أولى بكم لما أسلفتم من الذنوب ، وهي مكانكم الذى يقال فيه هو أولى بكم (وبئس المصير) النار : اعلم أن المؤمنين لما قدموا المدينة أصابوا من لين العيش ورفاهيته فقتروا عن بعض ما كانوا عليه فعوقبوا ونزل في ذلك : « ألم بأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق » الآية . وقال ابن مسعود ما كان بين اسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين . وقال ابن عباس : ان الله تعالى استبطأ قلوب المؤمنين فعاقبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن فقال (ألم بأن للذين آمنوا أن تخشع) أى ترق وتلين وتخضع (قلوبهم لذكر الله) لمواعظ الله (وما نزل من الحق) أى القرآن ، وقوله « ألم بأن » أى ألم بأن وقته ، يقال أنى الأمر بأنى اذا جاء إناه أى وقته (ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل) معطوف على تخشع (فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون) أى فطال عليهم الزمان بينهم وبين أنبيائهم وكثير منهم خارجون عن دينهم ، رافضون لما في كتبهم ، من فرط قسوة قلوبهم ، والمقصود أن الله نهى المسلمين أن يكونوا في صحبة القرآن كاليهود والنصارى الذين قست قلوبهم لما طال عليهم الدهر . ويرى عن أبى موسى الأشعرى أنه بعث إلى قرءاء البصرة ، فدخل عليه ثلثائة رجل قد قرءوا القرآن ، فقال أنتم خيار أهل البصرة وقرءوهم فأتوه ، ولا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم .

أقول : ولما كانت الأمة الإسلامية اليوم قد أصابها الوهن بطول المدة التي ليست ثلاث عشرة سنة [كما قال ابن عباس بل مضاعفة مائة مرة ، فقد اتهمنا الآن من القرن الثالث عشر] كانت هذه الآية أقرب إلى التعبير عن حالها ، واذا كان الله قد وعظ أصحاب رسول الله ﷺ بأنهم قد ضعفت عزائمهم ، فالمسلمون بعد ذلك بثلاثة عشر قرنا ظهر الوهن في عزائمهم ظهورا فاضحا أكثر مائة مرة وأفرط الافرنج في إذلالهم ، واذا كان الله يقول لآبائنا الأولين أيام النبوة (اعلموا أن الله يحى الأرض بعد موتها) أى يحيى القلوب القاسية بالذكر والتلاوة والنشاط في العلم والعمل .

أقول : اذا كان الله يبشرهم بذلك ونبينا ﷺ بينهم فالبشارة لعمري اليوم لنا أكثر تحقيقا وأقرب رحمة ، ألا ترى أن الأرض اذا نزل المطر عليها بعد طول الفترة كانت قد استراحت فتعطى ثمرا أعظم بشروط خاصة ، وكلما كان الليل أشد ظلاما كان النهار أبهر إشراقا ، وطول المشتات يعتبه الفوز ، والضد يتبعه ضده

- وتلك الأيام نداؤها بين الناس - واني أنا أبشر المسلمين اليوم بهذه الآية وبأشياء أخرى لا محل لذكرها ،
 أبشر المسلمين وأقول لهم قد جاء يومهم الموعود ، وأقبل أسعادهم المأمول ، وسترون العلم والحكمة ،
 وستكونون أمة لها شأن وأى شأن ، وسيكون قرآء هذا التفسير من أول العالمين لرفعة شأن هذه الأمة
 وليقومون في شمال إفريقيا وفي الحجاز والشام وبلاد العراق واليمن وبقى بلاد الاسلام علماء قريبا ، وحكام
 يحددون الأمر ، ويقفون أثر أجدادهم ، ويجددون ما أدرس من العلم ، وستكون الأمة الإسلامية
 بعد هذا الزمان أمة مفكرة ، بحثة ، نافعة لنوع الانسان ، رحة للعالمين ، قال تعالى (قد بينا لكم الآيات
 لعلكم تعقلون) أى كى تكمل عقولكم (إن المصدقين والمصدقات) أى المتصدقين والمتصدقات ، وقرئ
 بتشديد الدال وحده من التصديق (وأقرضوا الله قرضا حسنا) عطف على المصدقين (يضاعف لهم) يضاعف
 لهم (ولهم أجر كريم) هى الجنة (والذين آمنوا بالله ورسوله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم) أى
 ان المؤمنين عند الله بمنزلة الصديقين والشهداء ، وهم الذين سبقوا الى التصديق واستشهدوا فى سبيل الله
 (لهم أجرهم ونورهم) أى لهم مثل أجر الصديقين والشهداء ومثل نورهم ، والفرق بين هؤلاء وهؤلاء أن
 نورهم من غير تضعيف ، فأما الآخرون فتواهبهم مضاعف (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب
 الجحيم) والى هنا تم الكلام على بشارة المؤمنين بنورهم يوم القيامة ، وعلى حضهم وختمهم على بذل الجهد
 وترك الغفلة ، وعلى ثواب المتصدقين والمتصدقات ، ثم أخذ يشرح وصف سرعة زوال الدنيا فقال (اعلموا
 أنما الحياة الدنيا لعب) كعب الصبيان فى الملاعب من غير فائدة (ولهو) يلهوون به أنفسهم عما همهم
 كلهم الفتيان (وزينة) كالملابس الحسنة ، والمراكب البهية ، والمنازل الرفيعة . وكزينة النساء (وتفاخر
 بينكم) كتفاخر الأقران بالأنساب (وتكاثروا فى الأموال والأولاد) مباحاة بكثرة الأموال والأولاد ، ثم
 قرأ ذلك فقال (كمثل غيث أعجب الكفار نباته) الكفار الزراع لكفرهم : أى سترهم الأرض بالبذر ، والنبات
 ما نبت بذلك الغيث (ثم يهيج) يهيج (فتراهم مصفرا) بعد خضرته (ثم يكون حطاما) يتحطم ويتكسر
 بعد يسه ويفنى (وفى الآخرة عذاب شديد) لمن كانت حياته بهذه الصفة ، فمن انهمك فى الدنيا كانت
 عاقبته شدة العذاب ، وقوله (ومغفرة من الله ورضوان) أى لمن جعلها سبيلا للآخرة (وما الحياة الدنيا إلا
 متاع الغرور) لمن عمل لها ولم يعمل للآخرة ، ثم شرع فى ترغيب العباد فى العمل للجنة فقال (سابقوا
 إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض) أى عرضها كعرضها ، فإذا كان ذلك عرضها
 فإذا يكون طولها ؟ (أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله) فهى مهينة الآن مخلوقة (ذلك) الموعود (فضل
 الله يؤتیه من يشاء) يفضل به على من يشاء من غير إيجاب (والله ذو الفضل العظيم) فالفضل منه يمكن
 وان عظم قدره ، ثم أعقبه بتبويب المصائب على المؤمنين تحجيلا للسعادة ، لان هذه المسألة أهم المسائل
 فى الحياة الدنيا ، وعليها تكون السعادة ، وبخلافها يكون الشقاء ، ألم ترالى ما نقلته لك عن الحكيم قابس
 اليونانى ، وكيف شرح جميع أنواع النعم من مال وولد وعلم وصيت ، وانتهى فى آخر الأمر إلى أنه لا سعادة
 إلا من حيث الصبر ووصول النفس إلى نهاية كمالها الأخلاقى بحيث يمر المال والولد والقوة والعلم عليها
 فتصيبها نارة وتخطئها أخرى وهى بحالها مطمئنة ، لا يزددها الاتصاف بما تقدم ، ولا يحزنها القوت .

هذا آخر آراء المتقدمين من الفلاسفة فى سعادة الأنفس البشرية فى هذه الحياة الدنيا ، فكأن الله
 يقول : أيتها المؤمنون : الحياة الدنيا غرور فسابقوا إلى الجنات ، واعلموا أنكم فى هذه الحياة التى سمينها
 غرورا واقعون فى خيرها وشرها ، فلنعجل لكم السعادة قبل الموت حتى تشموا رائحة الجنة وأنتم أحياء ،
 وذلك بما نصفه فنقول (ما أصاب من مصيبة فى الأرض) الأولى كالجذب والفاقة واحتلال الأجانب من

الظالمين ، واستيلاء الحكام الفاسقين من المسلمين (ولاني أنفسكم) كمرض وفاقه (إلا في كتاب) المكتوبة في التورح المحفوظة مثبتة في علم الله (من قبل أن نراها) نخلقها أي المصيبة (إن ذلك) أي إنباته في كتاب (على الله يسير) لاستغفائه تعالى عن العدد والمدة. أتى أثبت ذلك وكتبته وأخبرتكم (الكتابات أسوا) تحزنوا (على ما فاتكم) من نعيم الدنيا (ولانفروا بما آتاكم) بما أعطاكم الله منها ، فانظروا كيف يقول قابس اليوناني : « إن الصبر مخرج من الشقاء » ويحيى القرآن بما هو أقرب من أول دهلة فيقول : إن كل شيء قدر في الكتاب فكيف تفرح أو تحزن أقل عكرمة « ليس أحد إلا وهو يحزن ويفرح ، ولكن اجعلوا الفرح شكرا ، والحزن صبرا » . وقال صاحب الكشاف : « المراد بالحزن المخرج إلى ما يذهل صاحبه عن الصبر والتسليم لأمر الله ورجاء الثواب ، وبالفرح المطفئ للمهي عن الشكر » (والله لا يحب كل مختال) متكبر بما أعطاه الله في الدنيا (غفور) بذلك الذي أوتي على الناس :

ذم البخل

قال تعالى (الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل) والخبر محذوف مثل فإن الله غني عنهم محمود وإن لم يحمده ، وهذا الخبر مأخوذ من قوله (ومن يتول) أي يعرض عن الاتفاق (فإن الله هو الغني الحميد) أي الغني عنه وعن اتفائه ، محمود في ذاته ، لا يضره الاعراض عن شكره .

التحريض على العدل

قال تعالى (لقد أرسلنا رسلا) الملائكة إلى الأنبياء ، والأنبياء إلى الأمم (بالبينات) بالحجج والمعجزات (وأنزلنا معهم الكتاب) المتضمن للأحكام وشرائع الدين (والميزان) أي العدل : أي وأمرنا بالعدل (ليقوم الناس بالقسط) ليتعاملوا بينهم بالعدل ولا يظلم بعضهم بعضا ، ولما كان ما يزرع السلطان أكثر مما يزرع القرآن وكان الناس فريقين : فريقا يقوده العلم والحكمة ، وفريقا يقوده السيف والعصا ، وكان العدل والقانون لا بد له من حام يحميه وهو الدولة والملك وجنوده وأعدائه ، وهؤلاء لابد لهم من عدة يحمونها بها القانون والعدل في داخل البلاد وخارجها أعقبه بأنه أنزل الحديد لتكون منه السيوف والرماح والسفن البحرية وما أشبه ذلك ، وهذا قوله (وأنزلنا الحديد) قبل أن نخلق الإنسان والحيوان على الأرض حينما كانت آخذة في التبرّد شيئا فشيئا فإنه كان هو وبقية المعادن سائلا تارة وبخارا أخرى ، يرتفع كالسحب في الجوّ ، ويمطر على اليابسة ، وينزل في شقوق الأرض عاما بعد عام هو والذهب والفضة ، وباقي المعادن فانها كلها في تلك الدهور القديمة كانت مرتفعة الحرارة جدا ، وكلما بردت الحرارة نوعا ما أخذت تلك المواد تبرّد بالتدرّج ، ومنها الحديد في دوره الخاص به كما تقدم إيضاحه بالتفصيل في الأجزاء السابقة من هذا التفسير مع بيان الدرجة التي يصبر فيها سائلا ، والدرجة التي يصبر فيها جامدا صلبا فلانعيده ، فصيح أن الحديد أنزل من السماء كما ينزل المطر ، وهذا من عجائب القرآن التي أظهرها علم طبقات الأرض الآن في المعادن والحديد الذي قال الله فيه (فيه بأس شديد) قوة شديدة ، فيه يقاتلون ، ومنه يصنعون السفن في هذا العصر للقتال والدروع (و) منه (منافع للناس) في جميع الصناعات ، فهو في قطارات السكك الحديدية في سائر أقطار الأرض كما هو في الآبرة وما بينهما ، لافرق بين صنع الكرسي وصنع القصر العظيم ، كلاهما داخل فيه الحديد ، وإنما فعلنا ذلك لتجاهدوا في سبيل (وليعلم الله من ينصره) باستعمال الأسلحة في مجاهدة الكفار ، والمحافظة على سلامة الأوطان ، التي هي من أهمّ الجهاد كما قال تعالى : « ومالتنا لألقا في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا » ومعنى [ليعلم الله] ليرى الله (من ينصره) أي من ينصر دينه (ورسله بالغيب) أي حال كونه

غائب عنهم : أى ينصرونه ولا يبصرونه (إن الله قوى) يدفع بقوته بأس من يعرض عن ملته (عزيز) يربط بعزته جأش من يتعرض لنصرته . واعلم أن كتاب الله المنزل من السماء ، والعدل الذى أمر الله به والحديد الذى يجعل فى المدافعة عنهما مرتبطان كما شرحته لك .

ذكر بعض الأمم السالفة التى أنزل عليها الكتاب والميزان

وأن منهم من اهتدى ، ومنهم من فسق ، ايرت عليه ما بعده

قال تعالى (ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب) فجعلناهم أنبياء وأوحينا إليهم الكتب (فهم مهتدون) أى فى المرسل إليهم مهتدون (وكثير منهم فاسقون) خارجون عادلون عن الطريق المستقيم (ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم) وذلك بأن أرسلنا رسولا بعد رسول حتى انتهى إلى عيسى (وآتيناه الانجيل وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رافة ورحة) الرافة المودة واللين ، والرحمة التعطف على الاخوان (ورهبانية ابتدعوها) وهى انهم يترهبون فى الجبال ، فارين من الفتنة فى الدين ، مخلصين أنفسهم للعبادة ، والرهبانية هى الفعلة المنسوبة للرهبان نخشيان من خشى ، والرهبان المبالغ فى الخوف ، ومعنى ابتدعوها أخرجوها من عند أنفسهم ، وذلك بعد المسيح بقرون ، أيام اضطهاد النصرانية بمصر ، فان بعض العلماء ترك البلاد وخرج الى الجبال كما جاء فى كتاب [الخريدة النفيسة ، فى تاريخ الكنيسة] الذى ألفه أحد الرهبان بمصر وطبع سنة ١٨٨٤ م (ما كتبناها عليهم) ما فرضناها عليهم ولكنهم ابتدعوها (إلا ابتغاء رضوان الله فإرغوا حق رعايتها) أى الذين جاءوا بعدهم (فآتيناهم الذين آمنوا منهم أجرهم) أى الذين ابتدعوها ابتغاء رضوان الله (وكثير منهم فاسقون) وهم الذين جاءوا بعدهم فلما أرسل النبي صلى الله عليه وسلم انحط رجل من صومعته وجاء سائح من سياحته وصاحب دير من ديره فآمنوا به وصدقوه فقال الله (يا أيها الذين آمنوا) بالرسول المقدمة ومنهم عيسى (اتقوا الله) فيما نهاكم عنه (وآمنوا برسوله) محمد صلى الله عليه وسلم (يؤتكم كفلين) نصيبين (من رحمته) لايمانكم بمحمد وعن قلبه (ويجعل لكم نورا تمشون به) وهو المذكور فى قوله « يسى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم » (ويغفر لكم) الكفر والمعاصي (والله غفور رحيم) وإنما فعلنا ما ذكر (لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتیه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) أى فعلنا ذلك ليعلم أهل الكتاب أنهم لا ينالون شيئا مما ذكر من فضله ، ولا يتمتعون من الكفلين من رحمته ، ولا من النور والمغفرة اذا لم يؤمنوا برسوله محمد ^{صلى الله عليه وسلم} فليس ينفعهم إيمانهم بمن قبله وحده ولا يكسبهم فضلا فتكون إذن لازائدة وقوله « وأن الفضل بيد الله » عطف على « ألا يقدرون » أى ليعلموا عدم قدرتهم على ما ذكره يعلموا أن الفضل المذكور فى ملك الله وتصرفه يؤتیه من يشاء من عباده ، واذا جعلت لا غير مزيدة يكون المعنى لأجل ألا يعتقد أهل الكتاب أنه لا يقدر النبي والمؤمنون به على شيء من فضل الله ولا ينالونه أن الفضل بيد الله فلذلك أعطاه للنبي والمؤمنين . انتهى التفسير اللفظى للقسم الرابع من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

لطائف هذه السورة

- (١) فى قوله تعالى : « فضرِب بينهم بسور » أى بحائط الخ .
- (٢) وفى قوله : « وجنة عرضها كعرض السماء والأرض » .
- (٣) وفى قوله : « ورهبانية ابتدعوها » الخ .

اللطيفة الأولى في قوله تعالى : فضرب بينهم بسور

اعلم أن هذه الآية تفيد أن بين الجنة والنار حائطا له باب ومن دخله دخل الجنة ، ومن هو خارجه فهو في النار ، والمتفقون واقفون خارج هذا السور يقولون لمن كانوا معهم من المؤمنين « انظرونا نقبس من نوركم » وأولئك لا يجيبونهم إلا بالتفريع والتوبيخ . واعلم أن هذا الوصف له نظير في الدنيا ، بل إن مراتب الناس في الدنيا على هذا المنوال ، بل جميع العوالم النامية من حيوان وإنسان ، ولأضرب لك ثلاثة أمثال : [المثال الأول] كل فاكهة من الفواكه ، أحب من المأكول ، أزهرة في شجرة ، تجدها ذات قشر غليظ من أعلى يليه ماهو ألطف منه ، ولا يكون في داخل الجميع إلا الفاكهة المطلوبة ، ولا يكون في المركز إلا ماهو أهم وهو المقصود ، فترى الزهرة يحجبها أولا الورقات المسماة بالكأس ، ولاجرم أنها أغلظ مما بعدها وهي الوريقات الملونة المسماة بالتويج ، وفي داخل هذين نجد أعضاء الذكور وأعضاء الاناث في داخل الزهرة ، إذن ظاهر الزهرة أقرب إلى العالم الخشن ، وباطنها أقرب إلى العالم اللطيف ، وهو المقصود بالذات ، انظر إلى البندق وإلى الجوز كيف كان القشر الأعلى غليظا ومتحته لطيف ، وفي داخله المادة المأكولة المحفوظ عليها ، وهكذا البطيخ والمان وجميع الفواكه ، وترى النخلة كإنها خوامم لنواة النخلة تكون أصلا لشجرة أخرى ، وهكذا كل نواة فهي محافظ عليها بمثل ذلك .

[المثال الثاني] إن جرائم الأجنة في أرحام الأمهات من كل حيوان برى أو بحرى تمر في أدوار من الخلق ، ثم انها اذا وصلت إلى ماهى أهل له من الخلق وقفت ولم تجاوز ما استعدت له ، فترى الحيوانات النعابية التي هي في آخر مراتب الحيوانية تبقى على حالها لا ترقى وهي في دور التربية ، وترى أنواع العنكبوت والفمل والنحل اذا خرجت من البيض لا تعدو مرتبة أصلها ، أما الحيوانات الفقرية فانها تجاوز تلك المراتب ولا تتجاوز مرتبتها هي ، والانسان يجاوز المراتب كلها ويرتقى إلى مرتبة الانسانية ، فكأن كل درجة من درجات الحيوانية غلاف يحفظ ماتحته ، وآخرها ارتقاء هو الانسان الذي أحاط الجميع به محافظة عليه كما يحافظ القشر على لب الثمار ، وكما يحافظ الكأس والتويج في الزهرة على أعضاء الالتحاق .

[المثال الثالث] : دراسة العلوم في اللغة العربية ، مثلا : الخط ، الإملاء ، النحو والصرف ، البلاغة القرآن : حكمه وعلمه ، اشراق النفس به . وانظر الى نوع الانسان كيف كان كل لا يتعدى حده الذي حده له استعداد ، والبيئة التي هو فيها .

يكتب الانسان ويقرأ ثم يقف بعد ذلك لا يتعدى القراءة البسيطة ، وهو قد امتاز عن لم يقرأ ومن لم يكتب . ثم يتجاوز ذلك طائفة علماء النحو ويجاوزهم علماء البلاغة ، ويظن هؤلاء انهم وصلوا إلى قمة العلم ، فيرتقى عنهم قوم إلى قراءة أشعار العرب ونثرها وخطبها في الجاهلية والاسلام ، ويظن هؤلاء انهم أعلى الجميع ، ويزيد عليهم آخرون فيقرءون تاريخ العرب وأنسابهم ولا يتعدون ذلك ، ويتجاوزهم آخرون فيعرفون معاني القرآن وبلاغته ويظنون انهم أرقى ، ويتجاوزهم آخرون فيدركون مقاصده من الأخلاق والعلوم ويقفون ، ويتجاوزهم آخرون فيعملون بذلك ويدرسون هذه الدنيا ونظامها ، ويتخلقون بحمائل الأخلاق ، ويقفون عند هذا الحد ، ويتجاوزهم آخرون فيكونون مخلصين لربهم ، نافعين لأمتهم ، وهؤلاء هم الصديقون والحكماء ، فكل طائفة متقدمة كالقشر لما بعدها ، وكأن كل واحدة تقول لمن تقدم عليها وتجاوزها ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم ظلمتم أنفسكم ، واشترىتم بعلمكم ، ووقفتم عند حد مخصوص ، ولكن نحن عرفنا الحقيقة ووصلنا ، فلا تلوموا إلا أنفسكم ، انك ترى هذه الحقائق بحسبة أمامك في كل آن ، وإلى هنا تم الكلام على اللطيفة الأولى ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثانية في قوله تعالى : وجنة عرضها كعرض السماء والأرض

نقدم هذا في سورة ﴿ آل عمران ﴾ فارجع إليه هناك إن شئت .

اللطيفة الثالثة في قوله تعالى : ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم

لنشرح هذا المقام من كتاب [الخريدة النفيسة ، في تاريخ الكنيسة] فنقول : جاء في الكتاب المذكور الذي ألفه أحد رهبان دير السيد بزموس في برية أنبا مقاريوس الطبعة الأولى بالمطبعة الأميرية ببولاق مصر القاهرة سنة ١٨٨٣ هدية لطلاب السكلى الوقار [أنبا يوانس] مطران البحيرة ووكيل الكرازة المرقسية صفحة ١٦٢ وما بعدها مانصه :

« في أبناء القرن الثالث للمسيح أى في أواخره أن [بولس السائح] قد انفرد للوحدة وانقطع للعبادة منذ صغره ، فكان قدوة بفضائله للأولاد الآخرين ، وقد ارتشد منه القديس [أنطونيوس] مقتفياً أثره ، ومنتهجاً منهجه الصارم لما كشفه وهو مخفى في مغارة ، وبيان ذلك أن القديس أنطونيوس اختلجه فكر العظمة ظاناً أنه هو أول من سلك طريق الرهبنة منفرداً للعبادة والفكر في البرية ، فتداركته نعمة الله باعلان إلهي بأن في البرية رجلاً أقدم منه زمناً ، وأفضل قداسة ، فأخذ عكازه وخرج يطوف في البرية قاصداً مكان عبده ، وبعد ما سار يوماً بتمامه ولم يجد أثراً بذل عليه قام مصلياً الليل أجمع مستمداً الارشاد من البارى ثم أخذ يطوف في اليوم الثانى ، فرأى غروباً ذئبة صاعدة إلى جبل ، فتعقب أثرها ولم يدعها حتى خيم الظلام ، فتركها ومال إلى مغارة يريد أن يبيت فيها ، وبينما هو سائر في الظلام دنأ من النور فشمع به القديس بولس ، فأسرع وأغلق دونه الباب ، فلما وصل إليه جثا على الأرض باكياً وصارخاً ، إني لوائق بأنك تعلم من أنا ، ومن أين جئت ، ولماذا أتيت ؟ ولا يخفى عليك اننى لا أخرج من هنا أو أبصرك ، فهل يمكنك إذا الذى يقبل الحيوانات أن تطرد الانسان ، إني طلبتك وقد وجدتك ، وقد قرعت بابك لتفتح لى فإن لم تقبل فاقى أموت هنا ، فأقل ما يكون انك تجدنى بعد موتى ، ففتح له الباب ، وعانق كل صاحبه مسلماً عليه بقمه ، فقال له القديس بولس : أبصر الآن من فتشت عنه بهناية عظيمة ، فترى أعضائى قد وهنت من الشيخوخة ، وقد ابيضت لحيتى كلها ، وجفت جلدى ، فانظر انساناً يرتد إلى الزماد سريعاً قد تكبدت كثيراً بالاستقصاء عني ، فأخبرنى عن حال العالم من بعدى ، وهل يوجد من يعبد الشيطان فيه ؟ فأجاب أنطونيوس على ذلك بالتفصيل ، ثم سأله عن السبب الذى أحضره إلى ذلك المكان ، فأجابه القديس بولس قائلاً : انه بينما كان الملك [ديسيوس] يفتك بنصارى مصر والصعيد حيث ولدت مات والذى إذ كان عمرى ١٢ سنة ، فدخلت مدارس الفلاسفة ، وحزرت علومها وافرة ، فلما اشتدت المصائب على المؤمنين انفردت في منزل كان لى بين مزارعى ، فعرض لى خطر عظيم ، وذلك أن زوج أختى قام على ورام أن يختلس أموالى ، أو يشكونى إلى الوالى بأئى مسيحى ، وكنت سمعت بأن هذا الوالى أرسل إلى كل مكان رسلاً يفحصون عن المسيحيين ليعذبهم ، أو ينكروا المسيحية فهربت إلى هذه البرية وتخلصت من خبث خصمى ، وبينما كنا نتفاوض طار إلينا غراب حاملاً في منقاره رغيفاً وتركه بين أيدينا وطار ، فقال القديس بولس : مبارك الرب الذى أرسل إلينا ما كنا نحتاجه ، فاعلم يا أختى أن منذ ٢٠ سنة يأتينى هذا الغراب كل يوم بنصف رغيف ، واليوم أتى برغيف كامل من أجلك ، فشكروا لله الذى يهتم بقديسه ، ثم صرفنا الليل كله فى الصلاة ، وفى الغد استدعانى وقال لى : أنا عرفت منذ زمان أنك مستوطن هذه البرية ، وقد وعدنى الله بأنك مزعم أن تزورنى وتوارىنى التراب ، وقد وافى الوقت الذى فيه أفارق هذا الجسد البالى ، وأنت لى إلى الرب ، فأطلب

إليك أن تعود إلى ديرك وتأتيني بالرداء الذي أعطاه لك أنطانيوس لتكفني به ، فبدأت أذرف الدموع متأسفاً ، وطلبت أن لا يفارقني قبل أن يلتمس من المسيح أن أنطق معه ، فقال لي : يجب أن تمكث مدة من أجل خير اخوانك ، ثم أخبرني عن مستقبل مجد الرهينة وفضلها ، فودعته وعدت مسرعا إلى ديري ، ولما صادفت اثنين من الرهبان وسألاني عن سبب غيابي لم أجبهما بكلمة ، بل قلت لهما اني رجل خاطئ لا أستحق أن أسمى راهبا (للكلام وقت ، وللصمت وقت) ثم أخذت ذلك الرداء ورجعت إلى حيث القديس راجيا أن أعانيه وهو حي ، فلما لم يبق إلا مسافة قليلة أبصرت جوقا من الملائكة يرتلون وبينهم نفس البار [القديس بولس] خرفت وبكيت بكاء مرثيا ، ولما دخلت المغارة وجدت جسده جالسا جاثيا على ركنيته ، ورأسه مستقيما ، وبديه مرتفعتين ، فظننت أنه حي ، فوثقت أصلى بقربه ، ولما نظرت انه لم يتهدد كعادته في الصلاة ، ففرست فيه جيدا فتأكدت أنه توفي ، فوثقت على جسده أقبله ذارفا الدموع ، ثم كففته بذلك الرداء ، وفيها أنا مفكر في كيف أنا أدفنه إذ لم يكن معي آلة أحفر بها حفرة ساق الله لي أسدين وبدءا يحفران في الأرض حتى أكلأ قبرا ، وجثيا أمامي كأنهما يطلبان إذنا للانصراف ، فأشرت لهما بيدي ، ثم وارتب الجسد في القراب ، وأخذت ثوبه المنسوج من الخوص ، وعدت به إلى ديري ، وكنت ألبسه في الأعياد الإلهية » انتهى .

هذا هو الذي نقلته من ذلك الكتاب ، أنا أكتب هذا وأنا في غاية العجب ، هذا كتاب لم يظهر إلا في هذه الأيام ، والمسيحيون في مصر لم يعلموا به إلا في هذه الأيام ، والسبب في نقل هذه الرواية على علانها أني كنت أطلعت في بعض الجرائد على مقالة لمسيحي مصري يقول : « الرهبانية مبتدعة وليست من أصل الدين » وما كنا نعلم ذلك من قبل ظهور قصة القديس بولس الذي عثر عليه أنطونيوس في كتاب الخريدة المذكور ، فقلت في نفسي عجب ! يقول الله « ورهبانية ابتدعوها » وجميع المسيحيين لم يعلموا أنها مبتدعة إلا في هذه السنة لما عثروا على تاريخ [القديس بولس] الذي ظنمه الملك بمصر ، وقلت في نفسي لابد من البحث على هذا الكتاب ، فاهتديت إليه ، ونقلت منه العبارة بنصها ، وهأنذا قرأتها وعرفتها .

أقول : أني يقظة أنا أم في منام ؟ هذه معجزة تفوق جميع المعجزات النبوية الإسلامية ، هذا الابتداع للرهبانية لا يعلمه المسلمون إلا إيماننا بالقرآن ، أما اليقين فهو محتاج إلى العلم ولا علم عندنا ، وإذا كان المسيحيون أنفسهم لا يعلمون فن الذي يعلم منا إلا بالسماع من القرآن ، إلى أجد الله إذ وفقت هذه النعمة وهي المعجزة الكبرى للإسلام والقرآن ، وهل لك أن أسمعك ما جاء في الآثار ، فقد ورد عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر أن طائفة لم يستطيعوا القيام مع الملوك الذين ظلموهم لأجل إقامتهم على دين المسيح فأساحوا في البلاد ، وترهبوا ، وهم الذين قال الله فيهم : « ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم » .

وقال أيضا : « كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم على حمار وذكر نحو هذا ، ومنه : ففترقوا في غيران الجبال وأحدثوا الرهبانية ، ثم قال صلى الله عليه وسلم رهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله ، وقال ابن عباس « كانت ملوك بعد عيسى عليه السلام يتلوا التوراة والانجيل ، وأطال في ذلك إلى أن قال : فجعل الرجل يقول نكون في مكان كذا تنعبد كما تنعبد فلان ، ونسبح كما يسبح فلان ، ونتخذ دورا كما اتخذ فلان ، إلى أن قال : فذلك قول الله « ورهبانية ابتدعوها » أي ابتدعها الصالحون منهم ، والذين جاموا بعد الصالحين « مارعوها حق رعايتها فآتيننا الذين آمنوا منهم أجورهم » وهم الصالحون المبتدعون « وكثير منهم فاسقون » أي الذين جاموا بعدهم » انتهى ملخصا .

واني ليأخذني العجب كل مأخذ أن أجد ابن عباس والآثار والأحاديث كلها تنحو منحى قصة بولس

وأنطونيوس ونحوهما ، فذكر النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه اضطهاد الملك والسياسة في البرية والقفار والخوف من الملوك والفتنة من اتباعهم في عدم الرعاية أمر عظيم ، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وهذا من أعظم توفيق في هذا التفسير من الله عز وجل ، وإلى هنا تم الكلام على قوله تعالى : « ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم » والحمد لله رب العالمين .

اللطائف العامة في هذه السورة (١)

- (١) في قوله تعالى : « سبح لله » .
- (٢) في قوله تعالى : « يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها » .
- (٣) في قوله تعالى : « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو » .
- (٤) في قوله تعالى : « ما أصاب من مصيبة » .

اللطفية الأولى في قوله تعالى : سبح لله مافي السموات والأرض وهو العزيز الحكيم

له ملك السموات والأرض يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير . الآيات

حضر صديق العالم الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير فقال : نحن نسبح الله ويسبحه مافي السموات والأرض ، فهو منزّه في ذاته وصفاته وأفعاله ، فأذكرك الآن بسؤال وجهته لك في ﴿ سورة النجم ﴾ تحت عنوان [لطيفة في قوله تعالى : وأنه هو أضحك وأبكى ، وأنه هو أمات وأحيا ، وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى ، من نطفة إذا تمنى ، وأن عليه النشأة الأخرى ، وأنه هو أغنى وأبغى ، وأنه هو رب الشعري ، وأنه أهلك عادا الأولى ، وتمودفا أبقى ، وقوم نوح من قبل إسمهم كانوا هم أظلم وأطغى ، والمؤتفكة أهوى ، ففشاها ماعشى ، فبأى آلاء ربك تتمدري] فقد قلت لك مانصه :

الله أضحك وأبكى ، الله أمات وأحيا ، الله أهلك عادا ، الله أهلك ثودا ، وقوم نوح ، وأهوى المؤتفكة ، وانتهت الآية ان هذه آلاء الله ، والآلاء النعم ، أمن النعم أن يبكي العيون ويهلك الأمم ؟ نعم هذا السؤال ورد كثيرا في هذا التفسير ، وكثرت الأجوبة عليه ، ولكن النفس لا تزال تطلب بالمزيد ، فحدثني أليس الله أرحم الراحمين ؟ ليس الله قدوة لنا في أفعاله ؟ الله أهلك أمما وأبكى عيونا ، وإذا قتل أحدنا انسانا عمدا دخل جهنم ، الله يهلك أمما ، الله يسلط الميكروب على الأمم فيهلكها ، ويسلط الأمم القوية على الضعيفة فتذلتها ، الله يسلط الوحوش على آكلات الحشائش فتأكلها ، كل هذا فعل الله ، لأن هذا نظامه ، ثم نشره به لنا على خلاف ذلك ، فنحن بقننا انسانا عمدا نغذب في جهنم يوم القيامة ، ونحكم شر بعنا علينا بالقتل ، وإذا كان الله أرحم الراحمين هذا فعليه فكيف بنا نحن الضعاف في الأرض ؟ هذه المعاني تتردد في نفسى صباحا ومساء ، وكل ما جاء في هذا التفسير من الأجوبة فيما مضى فانما هي أجوبة جزئية ، والجزئيات لا تغنى عن الكلليات ، فأنا الساعة يوم الأربعاء ١٢ رمضان سنة ١٣٥٠ هجرية — ٢٠ يناير سنة ١٩٣٢ م أريد إجابة شاملة كاملة حتى لا أحتاج إلى سؤال بعدها في هذا الشأن . فقلت : ماذا تقول في آية : « لا يسأل عما يعمل وهم يسألون » . فقال : وإذا تقول في آية : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط » فنحن الآن في مقام السبر في طريق أولى العلم الذين يشهدون ببصائرهم أن صانع العالم قائم

(١) يقول المؤلف : هذه اللطائف لم يكن لها وجود عند التأليف ولم يفتح الله بها إلا عند تقديم هذه السورة للطبع .

في عمله بالقسط والعدل ، نريد أن نشهد ونعلن في الأرض كيف كان الله قائما بالقسط في تدبير الخلق ؟ وفوق ذلك نريد أن نفهم كيف يمكن الجمع بين هذا الإهلاك والابكاء والتدمير وابتداء الأمم واذلالها وبين اسمه [الودود] ! ألم يقل الله « وهو الغفور الودود ، ذو العرش المجيد ، فعال لما يريد » ولا جرم أن الودود يفعل ما يريد ، ولكن هل يلقي وده إليهم ، ويكون فعله محبوبا ، لأنه أتى على سبيل المحبة ، وهو إهلاك المدن ، وإزالة الدول ، وابتكاء العيون . أيكون ذلك وذا ؟ وأيضا جاء في القرآن آيات في سور كثيرة كلها دالة على تنزيهه في ذاته وصفاته وأفعاله ، وذلك بصفة التسبيح ، والتسبيح تنزيه ، وهذا المعنى جاء مصدرا وفعلما ماضيا وفعلما مضارعا وأمرًا مثل : « سبحان الذي أسرى بعبده ليلا ، وسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون » وفي سورة النجم ، وفي آخر السورة قبلها : « ومن الليل فسيبحه وأدبار النجوم » وكذلك في (سورة الحديد) « سبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » وذكر الأحياء والأموات ، وفي آخر (سورة الحشر) « يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » ، وفي آخر (سورة المجادلة) « رضى الله عنهم ورضوا عنه » .

إن رضا العبد عن ربه ، وتنزيهه وجهه ووده يعوزه الاطلاع على جلال الأفعال ، والأفعال الإلهية المذكورة مشكلة مع أوصاف الحب والود والرضا الخ . فأرجو الاجابة على هذا حتى لا أعود إلى السؤال كررة أخرى . فقلت : سأوضح الكلام في هذه اللطيفة إن شاء الله تعالى في هذه المعاني ، وهناك تتجلى المعاني التي تربدها وإن كان أكثر ما سأقصه عليك هنا قد مضى كثير منه متفرقا فيما مضى من التفسير ، وسأشرح :

- (١) النظام التكويني .
- (٢) والنظام التشريعي وأنهما متفقان .
- (٣) وأربع درجات التربية الست :
- (٤) تربية الأم لولدها .
- (٥) وتربية الأب له .
- (٦) وتربية المعلم .
- (٧) وتربية الحكومة للأفراد مع ما يتبع ذلك من نظام الجندية .
- (٨) والتربية الإلهية وأنواع الزلازل والحوادث العظيمة .
- (٩) وأن الأم حين تمنع ولدها ما يضره وهو يكتفى لم يمنع ذلك حبا له ، وقد ضربت مثلا لدرجات التربية التي بعدها ، وبمقدار ازدياد العلم تعرف حقائق تلك التربية ويزداد الحب للربي .
- (١٠) وبيان أن العلم إما بهيئة سطحية كعلم الشعراء والأدباء ، وإما بهيئة حكمية فلسفية عالية كعلم الحكماء ، وإيضاح ذلك وتفصيله من كلام [كوفوشوس] فيلسوف الصين الذي توفي في القرن الرابع قبل الميلاد .

- (١١) ثم بيان أن الحب على مقدار العلم .
- (١٢) بيان أن الله تبارك وتعالى عنا بحجبه ، ولكنه قذف لنا كرات جميلة لاحصر لعددتها وهي الشمس والكواكب ، وهو يقرّبها ويبعدها ليحبذنا إلى حضرته ، وجعل الشطر نج والبرد عند اللاعين مثلا لذلك كما جعل الجبال والحب الأدينيين مثلين لجماله وحبه الأعلى ، وصنع للناس في الأرض عجائب لولا حوادث الموت والحياة ومن عجائب الليالي لذهلت عقولهم ، فمن سرج تجرى في سقف مرفوع تدور حولهم ، ومن حدائق وحقول حولهم ومناظر بهجات ، وثارة يرسل لهم شهابا تقرب

من أرضهم ليوصلهم إلى العلا ، ونسبة هذه الأعاجيب إلى صانعها كنسبة صفات السكره والصولجان والنرد والشارنج إلى مخترعها ، والتعجب يكون على مقدار اتقان الصنعة .

هذا ماسأذكره هنا قريبا ان شاء الله مع شذرات في الآيات التي ذكرتها أيها الأخ الذكي ، فلنسمع ذلك قل : إن هذا لعجب ! وإني لفي غاية الشوق إلى ما رصفت ، وهاتحن أولاد وصلنا بعناية الله في التفسير إلى المقام الذي وعدتني أن تجيبني فيه . فقلت : ها أناذا أني بعهدى الآن والله هو الموفق :
أيها الأخ الذكي : مدار سؤالك على أن حب الله وودّه وتنزيهه وعدله متوقفات كلها على ادراك مقاصد أفعاله ، فلا يجعل هذا المقام في اثني عشر فصلا مرتبات على مقتضى السؤال :

الفصل الأول في النظام التكويني

اعلم أيها الأخ الذكي أن نظام التكوين مهما قلبنا طرفنا فيه لانجد فيه إلا مقاصد الاصلاح والبقاء ، وكل هدم وتخريب واهلاك فانه موجه إلى الاصلاح ، خذ لك مثلا : هذه العوالم حولنا ، نراها في تفسير مستمر ، وهذا التغير منشؤه كله أن المادة لن تقبل إلا صورة وراء صورة فليست كعقولنا التي هي أشرف منها وأرقى ، إن عقولنا تسع ملاحظته من الصور والعلوم في آن واحد ، ولكن هذه المادة التي جعلت لخدمة عقولنا لن تقبل إلا صورة وراء صور ، وصانع العالم يعلم صورا من الوجود لاحد لها ، وهذه الصور بحسب الرحمة العامة لا بد من وجودها ، ولكن وجودها يستحيل أن يكون في آن واحد ، فلا يحصى إذن من شتاء وصيف وموت وحياة ، وهكذا جميع المتناقضات ، ولا مفر إذن من زلازل وبراكين لاحداث تربة جديدة ، ولا يحصى من موت الأحياء لتنبس أجسامهم صورا جديدة لارواح حديثة ترسل إلى الأرض ، وهكذا كل حيوان وكل نبات ، فالعقل بهذا البرهان يقضي أن تتعاقب الصور على هذه المادة ، وأن هذا عدل وخلافة ظلم ، وأيضا الحياة في هذه المادة فيها شقاء ، فلا بد من عروج هذه النفوس إلى عالم الأرواح لتستريح من هذا الشقاء .

فلئن رأينا موتا وحياة فذلك عدل وسواء ظلم بهنا البرهان ، وكل ما تفرع على هذه القاعدة تابع لها فمن فروعها عوالم الحيوانات الذرية التي تسمى بالميكروبات ، تلك العوالم التي أعدت لابادة أمم وأمم من الحيوان والانسان ، ومن فروعها عوالم الطيور الكواسر في الجو ، والوحوش والسباع في الخلاء ، والحز والبرد المفرطان ، المهلكان بعض الحيوان ، وعوالم الأمراض القاتلات ، وعوالم الجيوش الانسانية الفاتكة بجيوش أخرى من بني آدم فوق الأرض كما في الحرب الكبرى المبتدئة سنة ١٩١٤ م المنتهية سنة ١٩١٨ م فهذه كلها من النظام التكويني ، وصانع العالم كما أظم الحيوانات الذرية أن تفك بالانسان والحيوان أظم الجيوش الانسانية في الأمم التي تسمى نفسها [متمدنة] باهلاك جيوش أخرى ، وعامهم اختراع المهلكات والمدمرات لابادة اخوانهم ، كل هذه أفعال صادرات عن نفوس تلك النفوس مخلوقة لصانع هذا العالم الذي صنعها وصنع نفوس الوحوش والأسود ، فهذه الفروع كلها ترجع للأصل الذي قرّرناه وهو أن المادة لا تسع إلا صورة وراء صورة ، فلا بد من تلاحق هذه الصور ، وكل ما رأيناه من هذه الأعمال تنوعات ترجع لذلك الأصل ، إذن أيها الصديق نظام التكوين معقول ومقبول . انتهى الفصل الأول .

الفصل الثاني في النظام التشريعي

ولا جرم أننا اذا أقررنا النظام التكويني السابق فليس معناه أن نجعل النظام التشريعي على مقتضاه . كلا . بل التشريع شيء والتكوين شيء آخر . فقال صاحبي : أليس الأمران من صانع واحد ؟ فقلت نعم ولكن

الصانع ميز عالم الانسان عن هذه العوالم التي حوله كلها من شمس وكواكب وحيوان ، أعطاه قوة عقلية وقال له : أنا وضعتك هنا بين المتناقضات ، ووهبتك قوة فاستعملها ، وإياك ثم إياك أن تحتاج بأني خلقتك ، فلك قوة تميز فاعمل بها ، فإذا قتل الانسان انسانا عمدا وقال لصانع العالم انك أنت تقتل الالوف والالوف ، وتهدم المدن ، وأنا يارب ماقتلت إلا واحدا أو مائة ، فأنا أفعل ما تفعله السباع في البرية ، وما تصنعه الكواسر في الجو ، وما تصنعه الحيوانات الذرية من إهلاك الناس ، فهبني يارب ميكروبات ، أوفهني يارب من كواسر الطيور ، أو من أسد البرية ، أو هبني جنديا من جنود أمة من الأمم تغزو أمة أخرى فانك سلطتها على غيرها فتبديد منها جنودا وجنودا ، وقد قضى نظام نكوبيتك أن تلبس المادة صورة وتخلع أخرى ، وأنا من الذين ساعدوا في ذلك ، فهل على من سبيل ؟ .

إذا قال الانسان ذلك لصانع العالم يقول له مجيبا : أيها الانسان : هذه الكواسر والسباع وحيوان الميكروب القاتلات كلها مسخرات بأمرى ، لها غرائز قضت عليها بذلك ، ولا حياة لها إلا به ، فلم يكن مقصدها الإهلاك والتدمير ، وإنما غرائزها موجّهات لما خلقت له ، فهي أشبه بالحرة والبرد والزلازل ، فلامقاصد شريرة هنا ، فالحر والبرد لا ادراك لهما ، وكذا الزلازل ، وهذه الحيوانات مرغمات على ذلك ، أما أنت وإن كنت مثلها في أنك مساعد على أن تلبس المادة صورة غير الصورة التي تلبسها فتخلع قديما وتلبس حديثا ، فإن عملك عمل موجه لفكرة جزئية وهي فكرة الانتقام ، إما كراهة في المقتول ، وإما أن تفعل ذلك لتأكل ثمرات كسبه ، والأمور بمقاصدها ، فإذا فعلنا الإهلاك والتدمير في أرضنا فذلك قام عليه البرهان السابق الذي لا منقاص ولا مناهض له ، لأننا نريد الإصلاح العام ، فأما أنت فلم ترد بهلاك الإصلاح العام ، وإنما أنت أردت شهوة خاصة وهو اشباع قوتك الغضبية انتقاما ، أو اشباع شهوتك البهيمية اغتناما لمال المقتول وفرق بين عملنا وعملك ، فوجود هذه القوة فيك أصبحت بهام شولا أمامنا ، نعم أنت بقتلك انسانا ، فعلت ما تفعله نحن بحسب الظاهر ، ولكن ليس المدارع على الفعل بل على الباعث عليه ، وباعثك شهوتك وغضبك وباعث فعلنا رحمة عامة موجهة للمجموع ، وقد تفرّع عن هذه الرحمة كل ماحولكم مما اشتبه عليكم ، وأهلك بهذا تفهم قولنا في الكتاب الكريم « فلة الحجة البالغة » فهذه من حججنا البالغة التي ادّخرناها في عوالمنا لتظهر للعقول الكبيرة في أرضكم . انتهى

أقول : هذا هو الجواب الذي خطر لي اليوم ، الموجه من جناب صانع العالم إلى عبد من عباده يسأله السؤال المتقدم ، كتبته اليوم صباح الجمعة ١٦ رمضان سنة ١٣٥٠ هجرية — ٢٢ يناير سنة ١٩٣٢ م وعلى هذا يتفرّع أن قتل الخطأ لا قتل فيه ، وإنما فيه الدية ، وبه يظهر معنى « متعمدا » في الآية . وإلى هنا تم الكلام على الفصل الثاني ، والحمد لله رب العالمين .

الفصل الثالث : في ذكر الآلام التي تحيق بالانسان

فقال صاحبي : هذا الجواب جميل وبهيج وحسن ، ولكنني أريد أن أثبتين وجوه تلك الآلام التي تعترينا وما وجه الحكمة فيها ؟ فقلت : لقد شرحت هذا في التفسير في مواضع كثيرة جدًا ، لاسيما في تفسير البسملة التي تكررت هي وتفسيرها في كل سورة . فقال : ولكننا نريد أن نعرف هنا معرفة عامة . فقلت :

الفصل الرابع : أول مثل ضربه الله لفعله في خلقه هو فعل الأم في طفلها

معلوم مما تقدم أن الأم أكثر الناس عطفًا على ولدها ، ولكنها قد تجرعه الدواء ، وتلبسه اللباس ، وتفعل جسمه ، وهو كاره وكثير البكاء ، ولكن الأم لا تنأى بذلك كله ، بل تفعل الصالحة ولا تنأى بالآلام ، ولما كانت

الأم أقل من المربين لولدها ادراكا ، تلقفه بعدها من هو أولى بتدريبه وتعليمه وتهذيبه منها ، وهو الأب المذكور في :

الفصل الخامس

ذلك ان الأب يأخذه إلى الحقل ، أو إلى العمل ، أو إلى المدرسة ، ويحكم عليه بأن يعمل ويحج ، والأم غالبا تشفق عليه في ذلك كله ، ولكن الأب لا يبايى بما يقاسيه ولده ، وهناك من هر أوسع علما من الأب ، وهو المذكور في :

الفصل السادس

ألا وهو المعلم ، فيزيد في تثقيفه وتعليمه وتدريبه ، وهذا يسلمه إلى الأمة وإلى الحكومة في :

الفصل السابع

ذلك ان هناك ما هو أوسع مدى من الأم ومن عطف عليها حتى المعلم ، ذلك ان في الأمة حكومة وقضاء والقضاء قد يحكم عليه بالتغريب ، أو بالأشغال الشاقة ، لجرم ارتكبه ، فهنا رجة أوسع من رجة من تقدم ، ذلك ان الرجة هنا شاملة لمجموع الأمة وهذا فرد منها ، وحياة الفرد لا قيمة لها إلا بحياة المجموع ، فإذا ظهر من الفرد ما يخل بحياة المجموع مرض المجتمع ، ويتبعه الأفراد ، وهذا واحد منهم ، فهذه رجة أوسع ، وقد تجمع الأمة الجوع لحرب غيرها ، دفاعا عنها ، أو اغتيا لا وظلمها ، فالفرد هنا مسير بقوة المجموع ، وبنيت هنا (وان كانت تابعة للمجموع في حال الاغتيال والظلم) موجهة لعموم أمته لاله وحده ، والقاتل لغيره عمدا أكثر اجراما من هذا وان كان كلاهما مجرما ، وهل هناك تربية فوق هذه إلا الآتية في :

الفصل الثامن

في التربية الإلهية التي لا تنقف عند ماتقدمها ، فهناك المصلحة العامة ، فلتكن الزلازل ، ولتكن البراكين وتزلزل بلاد ، ولتجت أهلها ، وليكن وباء عام ، وانخسف أرضون ، بل تنزل شمس وأرض من لوح الوجود فهل هذه كلها إلا كموت زبد وولادة عمر ، القاعدة مطردة والفعل في غاية النظام ، والمثل لهذا كله مافي :

الفصل التاسع

وهو ما نشاهده من رجة الأم بولدها مع صبرها على بكائه عند اعطائه الدواء الذي أمرها به الطبيب ، وهل بعد ما يناله من درجات التربية من أدناها إلى أعلاها إلا أن نذكر في :

الفصل العاشر

التربية العامة في مدارس العالم الانساني قديما وحديثا ، وإلى أي حد وصل هذا الانسان ؟

وهل الأولون والآخرون برموز افترض واحد ؟ وما هو ذلك الغرض ؟

فاعلم أيها الذكي أن التعليم إما ظاهري سطحي ، وإما هيئته حكيمية عالية ، فالأول كعلم الشعراء والأدباء والخطباء والوعاظ ، ورجال الديانات في الأرض ، والثاني كعلم الحكماء والفلاسفة ، وهما وصلنا إلى أبواب المحبة والجمال والسعادة ، لاجال ولاسعادة إلا بالحكمة ، نعم الأم تربي ، والأب والمعلم ، والمدن تنظم ولكن المقصود من وجود هذه الأرواح الأرضية استنارتها وحبها ومعرفة الجمال ، ثم عروجها إلى أعلى ، وذلك لم يكن ولا يكون ولن يكون إلا بحجّة الانسان نفسه ومحبة هو ، إن مباحث الانسان كلها موجّهات إلى ادراك حقائق جميع

الأشياء إجمالا ، وذلك من الحب والشغف الموجه للمعرفة ، فلنذكر أولا أوصاف هذا الحب إجمالا ، ثم نقف على آثاره بوصف الشعراء له ، ثم ننبه بالآثار العالية للحب وهي الفلسفة ، فهنا ثلاث جواهر :

الجوهرة الأولى في وصف الحب

ولقد عجبني الموضوع الآتي في وصفه

قال بعض الأدباء : « إن الإنسان الذي يعتنى أن يعيش بالسلام والهناء لابد له من معرفة قواعد الحب كما يعرف قواعد الكيمياء مثلا ، وأنظمة البلاد التي يقيم فيها ، وهي مسألة حياة أو موت ، فليس الحب أعظم كما يزعم بعضهم ، بل هو بعكس ذلك يعرف دون سواء أن يبصر الحقيقة ، ولا يقتصر في ذلك على العلاقات بين البشر ، بل يتناول غير ذلك أيضا ، فلماذا بعد [اديسن] في مضاف الدهاء حينما يدور الكلام على اختراعاته على اختلاف أنواعها ؟ فقد يحاوب بعضهم على هذا السؤال بقوله : لأنه أوتي دهاء وعلم ، لا تنفي ما للدهاء والعلم من المقدرة ، ولكن الأمر الجوهرى الذى مهد له سبيل الوصول إلى أغراضه هو حبه للعمل في مختبره ووقف نفسه عليه .

إن الذى لا يحب الخيل لا يستطيع أبدا قيادة الخيل ، إن الطاهى البارع هو الذى يسرف في مزاولة الطبخ إن القصصى القدير هو الذى يحب الأشخاص الذين يختلفهم محبة شديدة ، إن الممثل الممتاز هو الشديد الولوع بفنه ، والخطيب المصقم هو الذى يميل ميلا شديدا إلى الفصاحة ، وليس في العالم قوة أعظم من قوة الحب ، وليس فيه رؤيا جليلة أجل من الحب ، وليس فيه حكمة أسمى من الحب ، وليس فيه فضيلة دينية أفضل من الحب ، ولا يستطيع المعلم أن يعلم التلاميذ شيئا إذا لم يكن يحبهم ، ولا ينشأ عن المال خير دائم ، ولكن القلب المحب ينشأ عنه خير حقيقى أكبر مما ينشأ عن جميع هبات [كارنجى] و [روكفلر] .

الحب يرى الأشياء واضحة أما عدم الاكتراث فيها قائمة ، وليس في العالم سوى مأساة واحدة وهي فقد الحب ، والحب دون سواء مبدع أما البرودة فعقيمة ، ويزعم [غوتى] أن [مفيستوفيلس] روح الشر هو تخيل محض وأنه لم يحب أحدا ، وقد جاء في الانجيل : ان الله محبة ، ولم تصنع الأرض إلا للذين يحبون ، أما الذين لا يحبون فمعدودون في جملة الأموات وان كانوا أحياء برزقون ، وكانوا على سطحها يمحرون » انتهى ما أردته من جريدة الاهرام ، وبهذا تم الكلام على الجوهرة الأولى ، والحمد لله رب العالمين .

الجوهرة الثانية وهي طبقة الشعراء

فهل لك أن تسمع قصيدة بدیعة لشاعر صينى يرى نفسه قبل موته ، عاش سنة ٢٣٥٠ ق . م . جاء في جريدة « الجهاد » يوم الاثنين ١٨ يناير سنة ١٩٣٢ — ١٠ رمضان سنة ١٣٥٠ هجرية مانصه بالحرف الواحد :

نشرت « البرلنر تاجيلاط » ترجمة قصيدة بدیعة عثر عليها المنقبون حديثا ، وقد كتبها برئ بها نفسه الشاعر الصينى [تاو يانج] الذى ولد في سنة ٤٢٧ قبل الميلاد وتوفى في سنة ٣٦٥ ق . م . والقصيدة تدل على خيال بدیع ، وزهد في الحياة ، واحتقار لمتاع الدنيا ، واليك ترجمتها :

« نحن في الشهر الأخير من سنة [تنجماو] والبرد شديد ، والليل طويل ، كأنما لا آخر له ، والريح تعصف بقوة ، وطيور الليل تضرب بأجنحتها ، وترسل صراخها الناقب . أما الأشجار فقد رأيتها في النهار وقد ذبلت أوراقها ، وجفت غصونها ، ودب فيها الجفاف كما يدب الموت في الحياة ، وهأنذا أنا تائب للمغادرة دار الضيافة (الدنيا) التي عشت فيها غريبا وحيدا ، اسكني أعود إلى الأبدية التي لانهاية لها ، والتي هي

موطئ الحقيقى ، سيبكى الذين عرفونى ، وسيتصدق أهلى بالنبيذ النقى ، والفاكهة الناضجة ، وستترقرق الدموع فى عيونهم فما أنعس الحياة ١ .

أنتم يامن ستقرءون مرثيتى لنفسى ، انكم وفرتم لأبدانكم كل أسباب النعمة ، أما أنا فولدت فقيرا ، وعشت فقيرا ، وكنت دائما فى حاجة إلى الطعام ، وكانت شرايبنى تنقصها الدماء ، كنت فى الشتاء أرندى ملابس الصيف ، واسكنى عشت سعيدا وأموت الآن سعيدا ، ولطالما انحدرت إلى الغدير أملا من مائه آتيتى ، وأعود منه مسرورا أغنى قصائدى ، وأردد مقطوعاتى .

كنت أختبئ تحت كومة من الأوراق الذابلة ، وأواصل الليل بالنهار فى نظم القصائد ، ومتى فرغت من قصيدة أخذت أغنيها كالبلبل الغرد ، أغنيها واشتغل فى حديثى ، والربيع يقبل وينقضى ، والخريف يأتى تلو الخريف ، وأنا أزرع ، وأحصد ، وأنظم القصائد . كنت أجد فى القراءة ، والعزف على القيثارة سرورا ليس بعده سرور ، وكنت فى الشتاء أبحث عن الشمس ، وفى الصيف أسبح فى ماء الغدير ، وكانت حياتى مجموعة من العمل الشاق ، ولكنى كنت سعيدا مرتاح البال ، أقبل إرادة السماء بنفس طائفة مطمئنة ، وهأنذا أوشك أن أغادر الحياة كما دخلتها .

الناس يحبون الحياة ، ولديهم دائما أعمال ، يشفقون أن يخترهم الموت قبل أن يفرغوا منها ، فهم عبيد الأيام والساعات وهم محبوبون طالما هم يعيشون ، ومتى طواهم الموت فقل أن يذكركم أحد ، وإن ذكروا فبطيئة أوحيدة ، أما أنا فأغادر الحياة وحيدا ، ولم أخلف فيها مابشرتهنى أو يوصنى ، وليس لى فيها ما أحرص عليه ، فأنا سعيد فى الحياة ، سعيد فى الممات ، وسبب عندى البقاء والعدم « انتهى ماجاء فى الجريدة المذكورة .

أقول : إنما اخترت هذا الشاعر لأنه من الامور الغريبة لتوغله فى القدم ، فلنجر هذه الدرجة إلى ما هو أعلى منها ، وهى الآتية فى :

الجوهرة الثالثة : آثار الحب العالية وهى الفلسفة

فالعجب لحكمة الأمم المتوغلة فى القدم وهى التى ساذكرها لك الآن كيف اصطلحت واتفقت مع الحكم التى عرفتها أم بعدها ، ولامواصلة بين الأولين والآخرين ، فاعجب هنا من قصائد [المهابارانا] السنسكريتية ومعلوم أن [المهابارانا] مجموعة علوات ، أوقصائد حماسية ، تحوى أكثر من مائتى ألف بيت فى وصف الحروب القديمة ، ويقدررون أنها وضعت فى القرن الخامس عشر أو السادس عشر قبل المسيح ، فأصبحت وكأنها دائرة معارف لعلوم الحكمة البرهمانية وتعاليمها ، ومنبع آداب وجمال لا ينضب .

ومن المجموعة الشعرية الأخرى التى تضارعها شهرة وأهمية هى [الرامايانا] فهذان الكتابان فى الهند بمثابة [الإلياذة] و [الأوديسا] فى بلاد اليونان ، ولئن نسب كتابا الاغريق الى شاعر فرد هو [هوميروس] (رغم قول القائلين اليوم بأن هذا الشاعر لم يوجد أصلا) فإن شاعر [الرامايانا] يدعى فالميكي ، أما علوات [المهابارانا] فتعرف باسم [فياسا] جامعها فقط . إن المهابارانا المذكورة تشمل قسما عظيما منها يختص باسم [البهجاوات جيتا] وهذه خاصة ترجمتها إلى الإنجليزية السيدة [انى بيرزانت] فاطلع عليها قراء اللغة الإنجليزية فى زماننا . ولقد وصفت [مسز بيرزانت] المذكورة هذه القصيدة التى ترجمتها إلى الإنجليزية قائلة ماملخصه : « بين التعاليم الثمينة المودعة فى [المهابارانا] الكتاب الهندى العظيم ، ليس من تعليم أندر وأتمن من [البهجاوات جيتا] ومعناه « نشيد السيد » فخذ أن أرسلت هذا النشيد الفخم شفا [كريشنا] الالهتان فى ميدان الوغى ليهدى انفعالات تليذه وصديقه [ارجونا] . كم من قلب هو طمأن وشدد ، وكم

من روح معذبة قد اقتاد إليه ، إنما الغرض منه رفع طالب الرفعة ، من أدنى دركات التضحية السطحية إلى أعلى المراتب حيث تتضامل الرغبات ، وحيث يملك الحكيم الصميم في تأمل هادئ ، بينما جسده وعقله يقومان في نشاط بالواجبات المنوطة به في الحياة ، بالحكمة الحكيمة حقا لاتعنى انفصال الجانب الروحي من الانسان ، بل توجب تحقيق اختبارانه في الأعمال الزمنية اليومية كأنه حقارتها ما كانت ، على أن يفكر المرء في رفقه الخلق والروحي ، وعلى أن يعلم أن الحواجز القائمة دون ذلك الرقي ليست متأتية من الخارج ، بل هي منبثقة من داخل النفس ، وابلوغ الرفعة الروحية لابد من الحصول على كية خاصة من التوازن والانسجام النفسى بحيث يصبح المرء غير متأثر بالمسرات والآلام ، بالشوق والنفور وغيره من الانفعالات المتناقضة المتعاقبة فلا تعلم القارئ إذن فن ترويض نفسه على أن لا يتجذبه الجواذب ، ولا تزجره الزواجر ، بل يستخلص من هذه وتلك دروسا تقوده وتهديه إلى أعلى المبادئ في وسط المحن والغموم ، فيقوم بواجبه كله على أتم وجه ممكن ، لا لأنه ينتظر نتائج عمله بل لأن القيام بالواجب مفروض عليه ، يعمل لأن في العمل شرفا وترويضاً وفائدة ، يعمل ليعمل ، ويزرع البذور دون أن ينتظر لنفسه جنى الثمار . انتهى

أنا اخترت نقل هذه القطعة من كلام هذه السكابة المترجمة مجبها بتعاليم صدرت قبل الميلاد بنحو ١٦ قرنا ونارانبعت من الوجدان الانساني العميق ، ثم ظهرت الآن حديثا ، فأدهشنا والله هذا القول ، أدهشنا لأننا نرى روح الانسان الوثابة لم تفتأ تجتد ، ولن تفتأ حتى تقرب من الحقيقة ، وهل الحقيقة النامة إلا أن نعمل حبا في نفس العمل ؟ نعم هو ذلك ، فههنا يقول الله : « سبح لله مافي السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ، له ملك السموات والأرض يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير » . ان عمل الله موجه للمصالح العامة كما قدمناه ، وكل من كان أقرب إلى نفس المصالح العامة بشوق فهو إلى الخدمة العليا أقرب ولن يبلغ هذه المرتبة أحد بمجرد القراءة ، بل لابد من شعور يفيض من النفس بعد الاطلاع والتعمق ، أما ظواهر العلم فلا تعطى هذا الشعور والادراك الجليل . وقد آن أن أحدثك عن سير علم الحكمة في العالم بعد ذلك التاريخ ، ولقد تقدم في (سورة الحجرات) عند آية : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا » حكمة [كنفوشيوس] حكيم الصين المتوفى سنة ٣٧٨ ق . م . وانه جعل نظامها هكذا :

(١) أولا مشاهدة الأشياء والأفعال المحيطة بنا

(٢) ثانيا : متى كملت المعرفة خلصت الأفكار ونزعت الأغراض .

(٣) ومتى نزهت الأغراض تهذبت الأخلاق وتنقت النفوس .

(٤) ومتى تنقت النفوس انتظمت الأسر .

(٥) ومتى انتظمت الأسر انتظمت الدول .

(٦) ومتى انتظمت الدول أصبحت الأرض كلها ترح في السعادة والحبور .

هذا ملخص ما تقدم هناك وهو هنا أكثر وضوحا مع الاختصار ، اللهم انك أنت العزيز الحكيم ، سبعت لك الأفلاك ، سبح لك مافي السموات والأرض ، لأن كل ما فيهما يرى لك عزة بها قهرت كل مادة فصارت مصوغة كما تريد ، وهذه الصياغة محكمة ، فأنت عزيز ، وأنت حكيم .

ينظر العقلاء في سمواتك وأرضك فيرون مادة بلا نهاية يرونها ، وحكمة في تلك الصور لاحد لها ، ثم يرجعون إلى الحقائق والعقول فإذا يرون ؟ يرونك جعلت العقول المنقطعة التواصل ، المتباعدة المناهج ، المنفصلة المساكن ، المتطاولة الأزمنة ، ترمى لغرض واحد ، وما هو هذا الغرض ؟ هو تسديدك وتقديسك بحب وشوق وغرام لك ودلوع .

بارباه : هاهي ذه [المهابارانا] باللغة السنسكريتية قبل ٣٥ قرنا وهي مائتا ألف بيت ، هذه [ارامايانا] هتان موسوعتان لعلوم أمم وأمم قبلنا ، وهاهي ذه خلاصة من أولى المجموعتين ، فكانت النتيجة نظرة عملة في الوجود ، ربح الخالق ، وصبر على السراء والضراء ، وذلك كله تابع للحب ، وهاهوذا الشاعر الصيني منذ ٢٤ قرنا نراه يحوم حول هذا المعنى بدون تعمق ، وهاهوذا في نفس ذلك القرن الفيلسوف كنفوشيوس الصيني يلقي لنا درساً في عمدة أسطر ، فعزى علم الفلسفة كلها لمصلحة فيها ، فقد ذكر طواهر الطبيعة التي تشمل الرياضيات والطبيعات ، وانتقل إلى تهذيب النفس ، وآداب الأسرة ، ونظام الدولة .

هذا ملخص فلسفة الأمم الحديثة قد ظهرت عند الصين قبل الميلاد ، والترتيب هو نفس الترتيب ، ولما كانت فلسفة اليونان قد نقلت إلى علماء الاسكندرية ، وإلى الفرع الشامي والفرع الأثيني بعد الميلاد وأيام حكم الرومان قرعوا نفس هذه الفلسفة على هذا الأسلوب نفسه ، وانتقلت إلى المسلمين بنفس هذا الترتيب ، طواهر الأشياء ، ثم معرفة الله ، ثم تهذيب النفس ، ثم الأسرة الخ وهو نفس ما قاله كنفوشيوس الصيني ، ولما وصلت هذه الفلسفة إلى أوروبا وقرأها [بيكون] الانجليزى غير النظام ، ولكن الجوهر واحد ، فقال : أولاً ان جميع العلوم نسميها تواريخ ، والتواريخ ترجع لقوة الذاكرة ، فالذاكرة تذكرنا بالتاريخ البشرى والتاريخ الأثرى الذي جاء في البيانات والتاريخ العلمى ، فنقول التاريخ الطبيعى والتاريخ الرياضى الخ وهما يختص أناس بعد هذه العلوم بالبحث في نظام الطبيعة ومعرفة الله ومعرفة النفس ، فهنا نظام علم في مقابلة نظام أجسامنا الخاص ، وهنا مدبر عام لهذا النظام في مقابلة المدبر الخاص لأجسامنا وهي نفوسنا فكان علم النفس انتهى بها يعرف المنطق فعلم الجمال فنظام الأمة والأسرة والقوانين العامة ، إذن نظام الفلسفة الذى صوّره [بيكون] هو نفس النظام القديم المنقول عن اليونان ، وهو هو ذلك الذى أجله [كنفوشيوس] .

الله أكبر : علم واحد ونظام واحد تهتدى به العقول قديماً وحديثاً ، ونسمعك في كتابك تقول : « سبح لله مافى السموات والأرض » فكان جميع المسلمين على نمط واحد ، وكيف لا يكونون على نمط واحد والمنع واحد ؟ وكيف لا يكونون على نمط واحد ونحن نرى كنفوشيوس الصينى الذى بهر الصين بحكمته مغرماً بك غرام كتاب [المهابارانا] وما فيه من [البهجاوات جيتا] الذى اتضح فيه معنى آية هي في نفس سورة الحديد ، كتاب البهجاوات جيتا الذى ترجم إلى الانجليزية حديثاً ، وقد ترجمته فتاة ، هذا الكتاب نتيجته قد ظهرت في آية في نفس هذه السورة ، أى سورة الحديد ، يقول الله : « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاً ما وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ، سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير ، لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور » .

أفلا نتعجب مع أيها الذكى المطالع على هذا التفسير ، فهل كان يدور بخلدى حينما ابتدأت فى كتابة تفسير [سورة الحديد] وأنا أرتب هذا الموضوع أن خلاصة مافى كتاب [البهجاوات جيتا] هي نفسها في آية من هذه السورة ، إذ يقول تعالى : ان ما يصيبكم أيها الناس قد كان عندى فى كتاب ، وانما أقص عليكم ذلك لأجل ألا تفرحوا ولا تحزنوا ، فإذا كان كل شيء مرتباً منظمًا عندى فما شأنكم أنتم ؟ وكيف تفرحون بشيء لا عمل لكم فيه ، أم كيف تحزنون على شيء فاتكم وأنا الذى قضيت بفواته لكم ؟ فلتكن حياتكم حياة تسامح

في كل وقت ، وقد ضربت لكم المثل المحسوس ، وهي الأم تستعذب العذاب في سبيل مرضاة ابنها لأنها تحبه ، فالحب يجعل الصعب سهلا ، أحبت الأم ابنها فهي لا يهينها طعام ولا شراب ولا حياة إلا بإرضائه وسعادته .

هذا مثل مشاهد لأنار الحب ، وليست الفلسفة المتخصصة من تاريخ عاوم الأمم قديما وحديثا المعبر عن نتائجها بقوله تعالى : « سبح لله ما في السموات والأرض » الخ إلا نبراسا للحب : أى حب صانع العالم ، وحب نفس العالم من حيث نظامه ، وحب الناس وسعادتهم ، وهذا الحب نتائج استعذاب العذاب في سبيل انتهاز اللحظة المثلى التي اختطها مبدع العالم من حيث المعرفة العامة وسعادة المجموع ، فإذا كانت الأم مفرمة بابنها ، وهذا الغرام أنساها الآلام ، فهكذا كان حكماء الأمم قديما ، وهكذا سيكون حكماء هذه الأمة الإسلامية في مستقبل الزمان .

يا الله : تقطعت قلوبنا أسمى وحسرة على أم الاسلام ، فألطنا ما نريد فوق ما أثلطنا ، يا الله : أنا لأدري وأنا أكتب هذا الموضوع بأي فكر أكتب ، أكاد أكون منفذا لفكر ليس لي .

تحدثنا بنعمة الله ، جالست حين أردت الابتداء في هذا الموضوع ، فرأيت موضوعا مشتتا غير منتظم ، وكل ما ليس منتظما فليس بمشوق لقراءته ، لأن الجبال يتبع النظام ، وما ليس منتظما ليس بمجيب ، هنالك ودعت القلم والقرطاس وقلت إلى الملتقى ، ثم رأيت الشمس أمامي ضحى ، وقد تقدم في هذا التفسير في أول (سورة يونس) عند الكلام على الشمس وضياؤها كيف نصيح الأطباء بأن يجلس الانسان في الشمس عاريا ماعدا العورة شرعا ، وماعدا الرأس طبيا ، ففعلت ذلك ، وبقيت فيها ألتقي أشعتها ، وأجد خالقها ، الذي علمنا علما يجهله أكثر هذا النوع المتمدين الانساني ، الذي حرمت عاداته عليه أن تبشر أشعة الشمس جسمه ، وهي أكبر نعمة حظي بها النبات والحيوان ، وحرمها الانسان لجهالته ، وبذر وأسرف في الملابس جهلا وغرورا ، ورثها عن الآباء تقليدا ، وما أقبح التقليد ، جلست نحو ساعتين ، وفي أثناء ذلك كنت أحس بسعادة ، لأنني تلاقيت أشعة الشمس ولو قليلا من ساعات النهار ، وما كدت أقوم من مجلسي حتى رأيت في نفسي عجبا ! رأيت هذا الموضوع المنشعب قد رتب اثني عشر فصلا منظمة مرتبة ، فلم يسعني إلا أن أقت من فوري وقيدت الفصول التي أسمعتها لك قريبا ، وأخذت أشرحها ، وهذا تمام الفصل العاشر منها .

الفصل الحادي عشر : في بيان أن الحب على مقدار العلم

إن هذا المقام ظاهر في كثير من مواضع هذا التفسير ، ولكن نذكر هنا جملة وجيزة تناسب هذا المقام ، الأم تسبح ربها ، وما في السموات والأرض تسبح لله ، وفلاسفة الصين واليونان والعوالم كلها تسبح له ، والتسبيح ذكر ، والذي يتبعه الفكر ، ألم تر إلى قول الله تعالى : « الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض » الخ والتفكير يوجب المعرفة ، والمعرفة يتبعها الحب .

الأعمى لا يحب الصورة الجميلة لأجل جلالها ، لأنه لم يعرف ، هكذا عجمي القلوب لا يعرفون جلال هذه الدنيا ، لأن عيون قلوبهم لم تشاهدها ، وهذا باب واسع لا آخر له ، وانظر آخر حديث في البخاري ، قال حدثني أحمد بن اشكاب حدثنا محمد بن فضيل عن عمارة بن القعقاع عن أبي زرعة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال النبي صلى الله عليه وسلم : « كلمتان حبيبتان إلى الرحمن ، خفيفتان على اللسان ، ثقلتان في الميزان : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » اهـ

فهاتان الكلمتان الخفيفتان على اللسان هما التسبيح المقرون بالحمد تارة وبهظمة الله أخرى . الله أكبر : انطق اللسان بها وهي سهلة عليه ، ولكن الميزان بها ثقل ، وهل يشغل الميزان إلا بما أودع في التسبيح من العاوم

التي يعقلها الانسان ، وهل لعلوم النسيح آخر ؟ أليس له ملك السموات والأرض ، أليس يحيى ويميت ، وهو الأول والآخ والفناهر والباطن الخ . كل هذه مقرونة بالترية ، وهذه يعوزها علوم وعلوم ، وعلى مقدار الغرام بالعلم والوصول للحقائق يشغل الميزان ، وإذا لم نحس في أنفسنا في الحياة الدنيا بيهجة العلم وارتقاء النفس به والابتهاج بآثاره فلا وزن في الآخرة ، إن الميزان في الآخرة على مقدار ما حصلنا في الدنيا ، فإن كنا من العباد ، فالميزان على مقدار احساسنا بآثارها ، وإن كنا من المفكرين فعلى مقدار علومنا وتأثرنا بها يزداد ميزاننا رجحانا « إن ربي على صراط مستقيم » . انتهى الكلام على الفصل الحادى عشر والحمد لله رب العالمين .

الفصل الثانى عشر

فى أن الله عز وجل توارى عنا بحجبه ، ولكنه قذف لنا كرات لاحصر لعددها ، وهى الشمس والكوكب ، وهو يقرّبها ويبعدنا ليجذبنا إلى حضرنه العلية ، وجعل الشطرنج والند عند اللاعبين مثلاً لذلك كما جعل الجال والحب الأدينين مثلين لجلاله وحبه الأعليين وضع الله للناس فى الأرض عجائب لولا حوادث الموت والحياة ومزججات الليالى لذهلت عقولهم ، فن سرج تجرى فى سقف مرفوع تدور حولهم ، ومن حدائق وحقول تحيط بهم ، ومناظر بهجات ، ولم يكتف بتلك الكرات البعيدة الجميلة ، بل أرسل لهم شهاباً تقترب من أرضهم ليوقظهم إلى العلا ، كأنه يقول : هذه نموذج للشمس والكوكب ، ونسبة هذه إلى صانعهما كنسبة صفات الكرة والصولجان والند والشطرنج إلى مخترعها ، أو كنسبة آلات النور وآلات الصوت إلى مخترعها ، وهو [أديسون] فى زماننا .

الله أكبر : صنع العبد بالنسبة لصنع صانعه أقرب بما لاحد له من عمل الأطفال وهم يركبون العيدين ويجردون فى الطرقات بالنسبة لأبائهم وهم يركبون الجال والخليل . جلّ الله : أين نحن من عجائب مدهشات أشار لها الله تبارك وتعالى هنا فى هذه الآيات فقال انه له ملك السموات والأرض وانه يحيى ويميت وانه على كل شىء قدير الخ فما هو هذا الملك ؟ هذا الملك منه شمسنا ، منه مجرتنا ، مجرتنا التى يقول [سيزر] (وهو أحد علماء مرصد جبل ولسن) ان فيها ٣٠ ألف مليون نجم ، ويقول [نتايلى] وهو أحد أساتذة الفلك فى [هارفرد] انها مائة ألف مليون نجم ، ويبلغ قطع المجرة الأطول ٢٢٠.٠٠٠ سنة ضوئية ، وهى المسافة التى يقطعها الضوء فى ٢٢٠.٠٠٠ سنة بسرعة ١٨٦.٠٠٠ ميل فى الثانية الواحدة ، هذه مجرة واحدة ، وهذه جزيرة واحدة من الجزائر التى خلقها الله فى هذا البحر الواسع ، ذلك البحر الذى امتلأ بمادة ليست ماء ولكنها أمر أشبه بخيالنا سموه الأنبر ، تبارك الله رب العالمين .

فهذه الجزيرة التى سمينها مجرة فيها شمس كشمسنا أو أعظم بما لاحد له ، وعدد الشمس من ٣٠ ألف مليون شمس إلى مائة ألف مليون شمس ، فهذه الجزيرة الواحدة لها أخوات فى عدد هذه الأخوات يترى ؟ عدد ما يمكن معرفته منها مليونان (كما يقوله هبل أحد علماء مرصد جبل ولسن) على اعتبار أن تلسكوب المرصد المذكور فى الوقت الحاضر ١٠٠ بوصة ، وكل واحد من هذه الجزائر التى سمينها مجرات يبعد عن الآخر مليونى سنة ضوئية ، وأبعدها عنا يبعد ١٤٠ مليون سنة ضوئية ، ومعنى تم بناء التلسكوب الجديد الذى سيكون قطر مرآته ٣٠٠ بوصة يتمكن الراصدون من الوصول به إلى ١٦ مليون مجرة من هذه المجرات بدلا من مليونين ، والمجرة الواحدة من هذه الستة عشرة مليون فيها مادة تكفى أن يكون منها نحو ألفى مليون نجم .

هذه آراء علماء الفلك في معرفة ملك الله (وبعبارة أخرى) هذا آخر ما يفهمه النوع الانساني في تفسير قوله تعالى : « له ملك السموات والأرض » فيقال :

أولاً : ما الذي عرف الناس من ملك السموات

وثانياً : ماذا عرفوا من ملك الأرض

والاجابة عن الأول أن الناس يظنون اليوم أن هذا الملك يصل إلى ١٦ مليون مجرة تضرب في ألفي مليون شمس كشمسنا ، ماهذه العظمة ؟ ماهذا الملك العظيم ؟ ماهذا الابداع ؟ هذا هو قول المصلي « الله أكبر » وهذا قوله في صلاته « الحمد لله رب العالمين » وهذا قوله « الرحمن الرحيم » وهذا هو التسبيح : « سبح لله ما في السموات والأرض » . يقرأ المسلم : « ومن الليل فسبحه وادبر النجوم » في آخر سورة الطور ، ثم يقرأ بعدها « والنجم اذا هوى » . أقسم الله بالنجم وهذا بيت القصيد ، أقسم بالنجم ليأفنتنا إليه لتعرف سمة ملكه الذي ظهر بعضه في زماننا ، ولذلك يقول في [سورة الواقعة] « فلا أقسم بمواقع النجوم » ، وانه قسم لوتعلمون عظيم .

عجب ! يقول « لوتعلمون » ولقد علمنا اليوم بعض تلك العظمة التي بها نفهم أمرنا بالتسبيح في آخر نفس سورة الواقعة ، ونفهم الاخبار بأنه « سبح لله ما في السموات والأرض » في أول الحديد . أيها المسلمون : القرآن لهذا نزل ، أيها المسلمون : أنتم مأمورون أن تسبحوا ، وهذا هو التسبيح ، وهل يكفينا في هذا المقام : أي في الاجابة عن السؤال الأول ، وهو ملك الله المذكور في آية : « سبح لله ما في السموات والأرض » أن تؤلف صفحات أو كتباً ، إن الاجابة يعوزها آلاف آلاف من العلماء في آلاف الآلاف من السيارات والأرضين وهم يدونون فلا يستطيعون سبيلاً لنهاية الاجابة ، هاهوذا علم ذلك أرونا شذرة من العلم فأدهشنا ، هاهوذا علم الفلك يحدثنا :

فيسعد حدثنا بأخبار من مضى * فأنت خير بالأحاديث يسعد

وقال ابن الفارض :

وعلى تفنن واصفيه بحسنه * يفتي الزمان وفيه مالم يوصف

يقول علم الفلك ولو على سبيل الظن إذ هو المحكن لنا ونحن على هذه الأرض : أن ١٦ مليون من المجرات التي قدر علماء الفلك بحسب المرصد الذي بنى الآن وقطره ٢٠٠ بوصة بضررها في ٢٠٠٠ مليون كوكب يبلغ الحاصل من ذلك كله ٣٣ ألف مليون مليون كوكب (وبعبارة أخرى) أن الشمس التي يقدّر وجودها الناس اليوم في ملك الله الذي نسبحه ونعظمه في هذه الآيات ، هي هذه الأعداد التي يذهل العقل في تقديرها بعد أن كان هذا النوع الانساني لا يعرف من عظمة الله إلا شمساً واحدة ، وهي شمسنا هذه التي يذهل العقل حين يرى أن ذوات الأذناب الدائرات حولها كسمك البحر عداً ، وهكذا النيازك والشهب ، فالمجموعة الشمسية تذهلنا عظمتها ، والمجرة التي تشمل المجموعة أشد إذهالاً لنا ، وعدد المجرات أعظم وأعظم . هذا هو الذي به نفهم قوله تعالى : « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي » وهذا مبدأ تفسيره ، إن تفسير كتاب الله كل علم ظهر وكل علم يظهر ، وإذا كان الاجال هكذا مدهشاً لا حد له فالتفصيل من باب أولى ، فليقل علماء الفلك اليوم أننا نظن أن الشمس الآن قد مضى من عمرها خمسة ملايين مليون سنة ، وأن الأرض قد مضى لها نحو ألفي مليون سنة ، وأن عمر الحياة عليها نحو ٣٠٠ مليون سنة ، وعمر الانسان عليها ٣٠٠ ألف سنة .

وايقولوا كذلك (١) : « إن الشمس ستبقى مدة تتراوح بين ٥٠ مليون مليون سنة و ٥٠٠ مليون مليون سنة . فليقولوا ذلك ، وسيعول غيرهم كلاما غير هذا : وهكذا ليقولوا ان هناك شموسا أكبر من شمسنا ٢٥ مليون مرة كشمس من شمس الجوزاء ، وضوء شمسنا بالنسبة لضوء ذلك الكوكب كضوء الحياح بالنسبة لضوء الشمس ، ثم ليقولوا ان هناك شموسا لا تبلغ سوى جزء من عشرة آلاف جزء من تألق شمسنا ، فليقولوا ذلك وليقولوا فالأمر عظيم ومدهش ، فليقولوا فانهم انما يفسرون قوله تعالى هنا : « سبحانه ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ، له ملك السموات والأرض » فهذا هو ملك السموات وهذه هي الاجابة على السؤال الأول .

الاجابة على السؤال الثانى ، وهو ملك الأرض

فما هو ملك الأرض يا ترى ؟ الأرض سيار يتبع الشمس ، إذن هو عدم صرف ، وكيف لا يكون عدما وهذا الملك الذى اطلعت عليه بحسب ماوصل إليه العقل الانسانى لوأن الأرض صغرت فصارت جوهرا فردا يـكون كله ألف مليون أرض كأرضنا بحجمها الحالى : أى ان الملك يصغر بنسبة صغرها هي ، فهى صغرت حتى صارت جوهرا فردا ، فيكون الملك كله ألف مليون أرض ، كهذا الحجم الحالى ، إذن الأرض عدم والسكان عليها لامعنى لذكرهم أيضا لأنها هي أشبه بالعدم فهى إذن عدم ، ولكن عند البحث نجد ما فوقها من العوالم يدهشنا أيضا ، فهو يفعل فى عقولنا ما فعلته أعداد المجرات اللاتى يظن أنها ربما تبلغ ١٦ مليون مجرة ، وهى الآن مليونان اثنان : أى ما علم منها ، ثم هذه الأعداد بالنسبة لما عرفناه وما لم نعرفه أعظم وأعظم ، والمجرة الواحدة تحوى مادة لاتقل عن أن يصاغ منها نحو ألفى مليون شمس وهكذا إلى آخر ما نتقدم ، فنفس هذه الحيرة قد أذهلتنا فى العوالم التى على أرضنا التى تشبه عدم ، حيوان أنواعه تعد بمئات الألوف ، ونبات كذلك ، ومعادن ، وغرائب لا حصر لها ، والذى قلناه فى تلك العوالم نقوله فى هذا العالم الذى يشبه عدم .

عجب حياتنا كلها ! عجب هذا الوجود اسعادة ننظر نفوسنا بعد مفارقة هذه الدار ، نور ، بهجة ، جال ، لك الحد يا الله على العلم وعلى الحكمة ، فلنقتصر فى هذا المقام الذى لا حصر له على زهرات من العلم ، ولنذكر بعض جبال النبات وجبال الحيوان مما تقدم شرحه فى هذا التفسير ، ولنذكر بعض جبال النبات المذكور فى المجلد التاسع عشر :

(١) فمنها أن هناك شجرة تسمى [شجرة البقرة] من كرا كاس وهى تعطى لبنا خالصا سائغا للشاربين وأهل كرا كاس يتغذون منه ، ومن العجب أن صفات هذا اللبن هى نفس صفات لبن البقر ويفضل عليه بأن الأحاض لاتؤثر فيه ، ومن عجب أيضا أنه يستخرج منه عطر .

(٢) وشجرة [ذات اليد] يستعمل ورقها لعلاج الصرع ، وهى تنبت فى البرازيل .

(٣) وشجرة الحرير : وهى شجرة باسقة جدا [والمسيو برتران بوكانديه] يقول : ان فى كازاما منسى مراكب طولها ١٥ مترا فى عرض مترين ونصف ، تصنع الواحدة من ساق إحدى هذه الأشجار ، وتزرع الشجرة عند ميلاد الغلام ، فإذا كبر وعقل واستقل أخذ كل ما يلزمه من هذه الشجرة ، فلها فاكهة ولها وبر قطنى حريرى كثير جدا تقذفه على الأرض إلى مسافات بعيدة ، تراها كأن السماء أمطرت لؤلؤا وثلجا ، وهذا البر يجعل فى الوسادات والفرش الوثير .

(١) يقول المؤلف : إن أكثر هذه الحقائق من الكتاب السنوى الثانى الذى يحتوى على مجموعة المحاضرات التى ألقىت فى مؤتمر الجمع المصرى للثقافة العلمية لسنة ١٩٣١ .

(٤) وشجرة الدّهن : تزرع في الصين ، يصنع منها شمع كشمع العسل فيضيء ، وهكذا يستخرج منه دهن ونوع من الزيت .

(٥) وشجرة الثعابين : تزرع في البرازيل ، وجذرها يستعمل في الشفاء من لسع الثعابين .

(٦) وشجرة [السكثري الياباني] ولها لبن وقشده .

هذا ملخص ما تقدمت هناك ، أنا لست الآن إلا في مقام ذكر ملك الأرض ، وملك الأرض اكتفينا منه ببعض زهرات انعم ، وهذا التفسير فيه كثير من علم النبات في مواضع مختلفة تكفي للبيب فلنقف عند هذا الحد ، اننا ذكرنا ستة أشجار فقط ، فألفينا حريراً وفاكهة ، وشفاء من الصرع ، وشفاء من لدغ الحيات ، ولبناً ، ودهناً ، وعطراً ، ومراكب كبيرة ، وعجائب كثيرة ، فأصبحنا أمام هذه الشجرات الست وما يماثلها مما يعدّ بمئات الألوف من النبات كأننا في حيرة الحجرات والشموس والسيارات والأرضين العظيمة عظيمة لأحد لها فيما قلّ وفيما كثر ، إذن فلنقف في الكلام على شذرات من علم الحيوان ، فنقول :

شذرات من علم الحيوان

أنا الآن في مقام التسبيح ، والذي نسبحه وهو صانع العالم له ملك السموات والأرض ، ومن ملك الأرض الحيوان ، وقد قلنا أن في هذا التفسير ما يكفي للثقافة العامة في أم الإسلام ، ولكن لا بد من ذكر نبذ من أجل ما تقدم ، فأذكرك أيها الذكي بما تقدم في ﴿سورة طه﴾ عند قوله تعالى : « قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » فانظر هناك نجد :

(١) الثعالب ونحوها تعلم منها الانسان حرفة الصيد .

(٢) ومن الفيران تعلم سكنى الكهوف .

(٣) ومن نحو الطباء تعلم أن يعيش في الآجام .

(٤) ومن النمل اتخذ البيوت .

(٥) ومن حيوان يسمى [السكثور] بنى الجسور المتينة لبنج السيل .

(٦) ومن اللب في الأقطار الشمالية تعلم صناعة السفن .

(٧) ومن العنكبوت تعلم الصيد بالشبكة .

(٨) ومن بعض السمك تعلم صناعة النجارة باستعمال البلطة والمفشار .

(٩) ومن السرطان في البحر تعلم صناعة الدروع التي تقي جسمه النبال .

(١٠) ومن أمّ الخلول تعلم أحقاق النشوق .

(١١) ومن الخنزير تعلم حوانة الأرض .

(١٢) ومن الهرّة تعلم الاحتراس من الروائح المتصاعدة من الفحج .

وهكذا من الصناعات التي تبلغ ٣١ صناعة مذكورة ، وهذه قلّ من جلّ من تلك الصناعات الحيوانية التي عرفها الحيوان وقلده الانسان فيها ، فملكه الحيوان مملوءة من العجائب كملكة النبات فيما تقدم ، فافقرأ بقية ما ذكر في ﴿سورة طه﴾ .

ثم اعجب مما حفظ به الحيوان من الهلاك ، فهو كما كل بالصناعات العجيبة النافعة فعاش قرير العين أسبغت عليه نعم أخرى بها حفظ من الهلاك ، فانظر ما تقدم في ﴿سورة المؤمنون﴾ عند آية : « وما كنا عن الخلق غافلين » وتأمل الفيران مثلاً كيف كان لونهم السواد ، ذلك لأنها مضطهدة من جميع الناس لأنها مساطات على زروعهم بأكلها ، وعلى أجسامهم بما تنقل لهم من العدوى ، ولكن الصانع الحكيم الذي برأها هو

الذى يدافع عنها ، بماذا يكون ذلك الدفاع ؟ يكون الدفاع بأمر عدى ، ما هو ذلك العدى ؟ هو عدم اللون ، وهو السواد ، فإنه اذا حرم من الخروج نهرا ، فلا بد له من السعى ليلا ، ولو كان لونه غير السواد لظهر ، فهذا حفظ .

أيها المسلمون : لهذا يقول الله : « سبح لله ما فى السموات والأرض وهو العزيز » عز أى غلب وقهر هذه المواد ولم يبل بالأهواء ، كأن يقال : لماذا لا يكون الفأر كإطاردس جالا وبهجة ؟ فلا يكون هناك جواب غير نفس العلم (الحكيم) ، فهو حكيم فى صنعه ، وبحكمته سؤد الفيران لتجاربته للإنسان ، لأنه يريد حياة الخصمين معا لا أحدهما ، وبهذه الخاصمة تتم الحياة ، ولوعاش الإنسان بغير مضاد له لكان أقرب إلى البله ، ولضعف تفكيره ، ومثل ما قلنا فى الفيران نقول فى عشرات الحيوانات المذكورات هناك من الاسود والتمور الملائى تشبه آجامها ماحوطها فى الصحارى والقفار ، ولأن ألوانها لم تكن كذلك وكانت واضحة لرأيتها فرائسها فقرت منها فهلكت تلك الحيوانات المفترسة فى يوم أو بعض يوم ، وهكذا نقول فى نحو الجبال (الإبل) إنما كان لونها كنون ماحوطها فى الجبال والوهاد ، لأنها لو لم تكن كذلك لافترسها السباع لظهور ألوانها . الله أكبر : « يسبح لله ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ، له ملك السموات والأرض » .

وهكذا يقال فى طائر ليلي بأمر يكاد كور هناك ، فهو ذو ذيل طويل أبيض يقق ، ولكن هذا البياض ليلا لا يضره لأن له سلاحا يقيه العطب ، وهى الرائحة الكريهة كرائحة الظربان ، كما ان الزناير الملوثة ألوانا براقة بالنهار لا تخشى العطب من هجوم أعدائها ، لأن هؤلاء الأعداء يعلمون ما عندها من السلاح والكرام وقس على هذا بقية الحيوانات المذكورة هناك فراجعها .

ومثل ذلك يقال فى أنواع الحشرات من أى دقيق المذكورات فى (سورة الرزم) المرسومة صورها هناك كما رسمت صور كثيرة للحيوانات المتقدمة فى (سورة المؤمنون) فى هذه التى فى سورة الرزم ترى نوعا من حشرات أى دقيق لها لون جيل شديد اللعان ، وهذه الحشرات اذا أمسكتها بيدك لونت جسمك ونيابك بمادة قدرة ، عرفت ذلك كل الحيوانات فتحاسنها ، ولكن المدهش أن هناك حيوانات أخرى لاسلاح لها تعيش مع هذه فى مكان واحد ، وتلون كلونها حدوا القذة بالقذة فتتجاسمها أعداؤها فيكتمنسلها (ارجع إلى هذا المقام هناك نجد تفننا فى أساليب الدفاع بالمشابهة فى الألوان اختصارا فى صور الطبيعة البديعة . نعم هذا هو الملك ، وهذا هو الابداع ، وحسن الصنع والتزويق ، واطهر الزجلال ، تفنن فى الحجرات ، تفنن فى الشمس ، تفنن فى السيارات ، تفنن فى النبات ، كل هذه أفانين وأفانين لاحد لها ولا انتهاء .

جمهوريات الحيوانات

ضرب مثل يذكرنا باجتماع الأرواح بعد مفارقة الأجسام

يظهر لنا أن كل ما تصف به جعل ضرب مثل لنا ، ومن الأمثال المضروبة لنا جبال الصور فى كل مازاء ، فاننا نفرح به ثم يزول ، كأنه يقال : هناك جبال لا يزول وهذا جبال زائى ، فابحث عما لا يزول من الجبال الذى هو السبب فيما يزول ألا وهو جبال الله ، نفرح بملك وبسلطان ثم يزولان ، فيقال هناك ملك وسلطان دائمان فابحثوا عنهما « واذا رأيت ثم رأيت نعيها وملكا كبيرا » .

تنظر النحل والنمل ونحوه نفرح بالملكات التى تحكمها وتكون لها أشبه بالأستاذ للتبذير والأم لولدها والأب انزوف لأبنائه ، ونرى السيارات تدور حول الشمس ، والأقمار تدور حول الأرض ، والأبناء ترجع

مثل محسوس لأمر معقول وهو حب الله اعظما ، واتحاد النفوس أديا ونظاما ، وهذا المعقول عبر عنه بالتكبير والسلام ، وهاتان الكلمتان وزعت عليهما أقوال الصلاة كلها ، فهنا أمور معقولة وأمر محسوسة بحاسة البصر ، وأمر سموعة بالأذن ، فلنشاهد بحاسة البصر نظام الحيوان ، والمسموع بالأذن الصلوات مختصرة بالتكبير والسلام ومطولة بتفصيلها ، والمعروف بالاعتل الأرواح وصانعها ، فالمحسوس بالبصر ضرب مثل للمسموع بالأذن مختصرا ، والمسموع بالأذن مختصرا ضرب مثل للصلاة مطولة ، والصلاة خوارها توجه الأرواح إلى خالقها ، إذن العوالم كلها متشابهات . فقلت : لقد أحسنت تلخيصا . فقال : كفى هذا البيان في تفسير الآيات في أول (سورة الحديد) . كتب قبل غروب يوم الجمعة ٢٩ رمضان سنة ١٣٥٠ هجرية .

بهجة هذا المقام في التسبيح وجماله

يوم الأربعاء ٢٩ من شهر رمضان المعظم سنة ١٣٥٠ هجرية — الثالث من شهر فبراير سنة ١٩٣٢ م حضر صديقي العالم الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير ، فأخذ بجادتي في المقالة السابقة التي تختص بآية « سبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » له ملك السموات والأرض يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير » وقال : لقد تجلت معاني هذه الآيات واضحة بحيث يرى المسيح كأنه في روضات الجنات ، وكيف لا يكون في روضات الجنات وهو عند النطق بالتسبيح مستحضرا تلك المعاني ، يشعر كأنه منضم إلى أرواح أخرى تعطف عليه ويعطف عليها ، وهم يتسابقون معا إلى الزاني إلى صانع العالم فتجدد في نفوسهم السعادة وروح الحياة والبهجة .

سبحان الله : أهذا هو التسبيح وما في معناه من التمجيد وأمثالها ، وهذه المعاني كلها مخبوءة فيه ؟ أهذا هو جمالها ؟ إذن التسبيح الذي يخطر لأغلب المصلين والمسبحين تسبيح جاف لا يطنى غله ، ولا ينفى من غلة ، فقلت : نعم إن التسبيح مرتبط بحياة النفس وسعادتها وبهجتها ، وهو التفاعل في العلوم والجمال ، هذا سر الآيات في آخر (سورة الحشر) . فقال : وما سرها ؟ فقلت : من سرها الذي ستقرؤه هناك قوله تعالى : « له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض » . إن حسن أسماء الله راجع إلى المدلول ، ومن آثار ذلك المدلول هذا الجلال المشاهد في هذا العالم الذي عبر عنه بقوله : « له ملك السموات والأرض » فوصف الأسماء بذلك فتح باب يلج منه الحكماء العاشقون الممتثلون حياة وحكمة المرموز لهم بآية : « يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا » . إن هذه الأرض خلق فيها أناس لهم طبائع خالفت أهل عصرهم إذ يحسون بدافع قوى في أنفسهم ، ذلك هو الحياة الحقيقية فيكونون بذلك نورا لأنهم ، ذلك النور هو سر خفي في أنفسهم التي أحست بجمال العالم المرموز له بأن أسماء الله حسنة ، فهذه النفوس هي التي بها ترتقي أم وأم في معراج الحياة بحسب درجتها الحسية أو المعنوية ، ولقد تجلى في نفسى معنى أحب أن أبدية الآن وهو أن في هذه الأرض أناس يشعرون من الآن بأنهم في حضرة ربهم مجذوبين بعواطف هم مجبولون عليها فينطبق عليهم المثل الذي ضربناه في المقال السابق من حيث أنهم مع أنهم مسوقون إلى ربهم ، فهؤلاء يرون في نفوسهم عطفًا على أنهم وحبا لربهم ، فنفسهم من الآن تشعر كأنها في حضرة ربها ، وهؤلاء يستوى عندهم الموت والحياة ، والأحوال العارضة عليهم ، فلا الفرح يستحفظهم ، ولا الحزن يعدهم ، وهذا هو الكمال الحقيقي .

ومن أعجب العجائب أن هذه المعاني التي تجلت في نفسى من اشراق أنوار التسبيح في آيات أول الحديد يكاد ينطق ببعض نتائجها عالم أمريكى يسمى [ستانلى هول] وهو أكبر علماء النفس في أمريكا ورئيس

إحدى جامعاتها الكبرى ، وقد بلغ ٧٧ سنة من عمره ، هذا العالم لما اطلعت على آرائه دهشت فأنها أشبه بأثر من آثار الآبئة والله يقول في القرآن : « بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم » وقد قررنا مرارا في هذا التفسير أن نتائج مباحث العقلاء كلها وحكماتهم التي أدركتها عقولهم يتضمنها القرآن ، وهذا من عجائبه ، بل من معجزاته . فقال صديقي : لقد شوقني لمقاله ، فأريد أن أسمع ملخصا ؟ فقلت : قرأت في بعض الكتب مانصه :

« كتب [مسترولز] الكاتب الانكليزي المعروف مقالا عن النجاح قال فيه : ان مسترولويدجورج ليس من الناجحين بينما هو يعد [ايفشتين] صاحب نظرية النسبية منهم ، وقد ختم مقاله بهذه العبارة : « ليست الثروة ، أو الشهرة ، أو النقام دليلا على النجاح ، فأنما يقاس النجاح الحقيقي بنسبة ما عملنا إلى ما كان يمكن عمله » .

أما [ستانلي هول] وهو أكبر علماء النفس في أمريكا ، ورئيس إحدى جامعاتها الكبرى ، وقد بلغ السابعة والسبعين من عمره ، فاز بذلك الشيخوخة الهنية ، والسمعة الطيبة ، وخدم أمته بجملة تأليف قيمة فانه يرى شروطا أخرى للنجاح ، فقد وضع هذا العالم كتابا حديثا عن تاريخ حياته ، وعقد فصلا عن شروط النجاح الانساني قال فيه : « إن أول شرط لذلك هو الصحة ، فإن الأعمال العظيمة التي قام بها عظماء الناس في هذا العالم إنما أدوها وهم في أحسن أيام صحتهم ، وليس من يشك في أن المرضى قد أتوا أحيانا بالمجائب ولكن هذا من الشذوذ فأنما القاعدة هي أن الصحة شرط للنجاح حتى ليدع أن يقول : « لكي تنجح يجب أن تكون حيوانا صحيحا » .

والشرط الثاني هو معرفة القوى الكامنة في أنفسنا ، ففي كل منا قوى كامنة يعرفها الصوفيون عند ما يشعرون بأن فيضا من الذات القدسية اتصل بهم ، وكأن حياة جديدة قد لابت بشرتهم ، فملؤف يشعرون بها عند ماتملكه الفكرة ، وتندفع في ذهنه تريد أن تتكشف وتوضح .

والشرط الثالث هو كيفية ضبط عواطفنا ، فنحن في أغلب أيامنا نراوح بين التفاؤل والتشاؤم ، فإذا تعلمنا كيف نضبط عواطفنا ، فلا يستخفنا النجاح ، ولا يثبط عزيمتنا الفشل الطارئ ، وإذا وقفنا عند حد الاعتدال دون غلو في السرور والافتخار كان النجاح أقرب إلى أعمالنا .

والشرط الرابع هو غرس العطف في أخلاقنا ، فإن الذين لا يعطفون يفقدون صلتهم بالطفولة بل بطفوليتهم ولا نجاح للأديب ، أو الشاعر ، أو السياسي إلا بغرس العطف في نفسه ونفشتها عليه .

والشرط الخامس هو حب الطبيعة ، فيجذب على الناس أن يكثر من المشي في الحقول ، لرؤية أحسن المناظر وأسرها ، ويحسن أن يمشي الانسان صحبة آخرين ، وخير الوطنية ما كانت أصولها ثابتة من الحقول .

والشرط السادس هو رقي فن العواطف ، فعاطفة الغضب ، أو الخوف ، أو الطامع ، إذا تركت في حالها الأولى تنج عنها أضرار كبرى ، فإذا هذبت عادت بالفائدة ، وخير مثال لذلك هو العاطفة الجنسية ، فهي إذا لم تهذب صارت غلظة حيوانية ، وإذا لم تضبط أدت إلى خراب العائلات وهدم البيوت ، بينما هي عند رفعها تصير حيا جيلا يعمل على ارتقاء الانسان ، وهي في هذه الحال أصل للأدب وخير ما يحرك القرائح للشعر وسائر الفنون .

الشرط السابع هو إيجاد توازن بين المزاج العملي والمزاج الذهني ، فمن الناس من يكون مزاجهم ذهنيا يحبون البقاء ، وأدعيين ، يتأملون ويفكرون ، كما هو شأن أكثر التجار ورجال الأعمال ، وكلاهما لا يمكن أن يعتبر ناجحا راقيا ، لأن الترقى والنجاح إيجاد توازن بين هذين الخلقين .

در را ، أو بايعدن ٣٠٠ مرة من قيمة مجموع ديون بريطانيا العظمى كلها في الحرب للولايات المتحدة ، ومن الغريب أن تذكر هذه الثروة الضائلة ، مدفونة بين مدّ الأمواج وجزرها في مساحة صغيرة هي أوطان من سطح البحر بـ ١٢٩٢ قدماً .

وعلاوة على المعادن الطبيعية يمكن للفلسطين أن تستفيد من البحار الميت استفادة مهمة ثانية ، فقد قدم المهندسون الألمان تقريراً بكيفية إيصال البحر المتوسط بنهر الأردن الأعلى بواسطة نفق ، وهذه الطريقة لا تحفظ المياه الموجودة في البحر الميت لحسب ، بل تستخرج منها قوة كهربائية تعادل مليون حصان يمكن توزيعها لإدارة دولاب الأعمال في كل فلسطين وسوريا حتى تركيا .

أما الأتراك فقد كانوا يعيشون في بلدان تدرّ عليهم الذهب أنهاراً ولكنهم كانوا غافلين لا يعرفون كيف يستثمرونها ، ولم تكن الحياة يوماً إلا فريسة للنشاط المجتهد ، وكفى اهـ



ومما يلاحظ هذه الآية أيضاً ما جاء في جريدة الاهرام بتاريخ يوم الاثنين ٢٣ مارس سنة ١٩٣١ م الموافق ٤ ذى القعدة سنة ١٣٤٩ هجرية فقد جاء فيها تحت العنوان التالي مانصه :

كهربة القطر المصري ومشروع القطارة

خلاصة خطبة حسين بك سرى في المجمع العلمي

قال : لقد آن نصر أن تفكر جدياً في تحويل جهود بنينا نحو الصناعات حتى تتمكن من الزيادة المطردة في عدد سكانها من إيجاد موارد رزق جديدة لهم بجانب الزراعة ، وحتى يتمكنوا مواجهة الصعوبات الاقتصادية بصورة متنوعة الموارد ، وهي أن تصبح بلداً صناعياً حقاً حتى يتمكن رجالها الفنيون من إيجاد حلّ موفق لتوليد القوى المحركة من موارد داخل حدود المملكة وبأسعار قايضة تمكن المصنوعات المحلية من منافسة مثيلاتها الأجنبية .

ثم ذكر أن هذه الموارد هي مساقط المياه التي يمكن بواسطتها توليد الكهرباء لإدارة مختلف الآلات ، مبيناً أفضلية هذا النوع من التوليد على غيره ، ثم استعرض الموجود حالياً من القوى في القطر المصري ، وحلّل ما يحتاج إليه التطور من القوى الكهربائية في مدى قرن يبدأ من سنة ١٩٤٥ قاصراً الحساب التفصيلي على التوجه البحري ، وذاكراً في النهاية حساباً اجالياً للوجه القلبي .

وقال : انه يؤمن كل الايمان بأن الصناعات التي يجب أن تزدهر في هذا القطر هي تلك الصناعات التي تستخدم مواردنا الأولية من ناتج الزراعة كالنسيج والسكر والورق والسكر والسكتان والتي تستخرج موادها الأولية من تربة مصر كالزجاج والأسمدة ، أو تحويل ناتج الزراعة إلى مواد غذائية كالذيق ، وعمل حساباً لتتوى اللازمة لسكل ذلك في خلال القرن من ١٩٤٥ — ٢٠٤٥ وعلى حسابه تحتاج مصر سنة ٢٠٤٥ إلى نحو ٣٥٠ ألف كيلو واط .

ثم بين أن هناك موردان للنّوة الكهربائية الأولى : منخفض القطارة للوجه البحري ، وخزان اسوان للوجه القلبي ، ثم أخذ يشرح مشروع منخفض القطارة موضحاً ذلك بخرائط مساحية ورسومات هندسية ، مشيراً إلى أن النقص في اكتشاف ذلك المنخفض العظيم يعود إلى الدكتور [بول] مدير مساحة الصحاري . وقد أشاد به سائر بك لما يقوم به من المباحث الجليلة في مشروع الانتفاع بالمنخفض لتوليد القوى المحركة . ثم وصف المنخفض وصفاً جغرافياً وبيولوجياً ، وهو كائن في الجزء الشمالي من صحراء ليبيا في منتصف

المسافة بين وادى النيل والحدود الغربية ، ويبلغ متوسط عمقه ٦٠ مترا ، وأوطأ نقطة فيه منخفضة عن سطح البحر ١٣٤ مترا ، وهى أوطأ نقطة اكتشفت حتى الآن فى قارة افريقيا ، ثم أشار المحاضر الى تبليغه الحكومة خبر هذا الاكتشاف فى سنة ١٩٢٧ ويانه الفائدة العملية التى تعود على البلاد من استغلال سقوط المياه فيه ، ونلخص الأسس التى وضعها لهذا المشروع ، وأهمها :

- (١) حفر نفق تمرّ فيه المياه من البحر إلى هذا المنخفض .
 - (٢) حفظ منسوب المياه ثابتا ، وذلك يقتضى أن الوارد من مياه البحر ، وما يسقط من المطر يساوى ما يتبخر من سطح البحيرة التى تكون فيه أولا وما يتسرب إلى الأرض .
 - (٣) تقدير منسوب سطح المياه فيه ، وبالتبعية مقدار سقوط المياه ما بين النفق والريينات .
- ثم فصل هذه الأركان وماتم من البحث حتى الآن ، وخصوصا التجارب التى جرت فى [بحيرة قارون] لمعرفة مقدار التبخر ، ومقدار ما يتسرب من الماء إلى الصحراء لحفظ النسبة بين الوارد من المياه من البحر أو من الأمطار ، والفاقد تبخرا فى الجو ، وتسربا فى الأرض .
- ثم ذكر النقطة الجوهرية فى المشروع ، وهى القوة التى يمكن توليدها من سقوط المياه مفصلا جعل منسوب سطح البحيرة خمسين تحت الصفر وهكذا تتولد لدينا قوّة مقدارها ١٨٠ ألف كيلو واط عند مخرج المحطة ، ولا يؤثر ذلك على عملية الصرف فى مديرية الفيوم التى تنسرب مياهها الآن من بحيرة قارون إلى القطارة .
- ثم عرض لبناء القناة التى توصل المياه من البحر إلى المنخفض مفضلا أن تكون فى العشرين كيلومترا الأولى المجاورة للشاطئ رعة عادية تحفر فى الأرض الجيرية ، ثم تدخل المياه فى نفق طوله ٤٥ كيلومترا وقطره ١٧ مترا حتى تصل إلى المنخفض .

واقترح تنفيذ هذا المشروع على ثلاث درجات ، لأن الوجه البحرى لا يستطيع أن يستعمل ١٨٠ ألف كيلو واط رأسا ، لذلك يقترح جعل النفق ثلاثة أنفاق حقيقية ، فيولد أولا نحو ٦٠ ألف كيلو واط ، فإذا تحققت آماله فى كهربية القطر المصرى فيبدأ سنة ١٩٧٠ ببناء نفق ثان لتوليد نحو ٦٠ ألف كيلو واط أخرى وفى بداية القرن الحادى والعشرين يبنى الثالث وينمّ المشروع .

ثم ردّ على الأسئلة التى وجهت اليه فيما يتعلق بنفقات المشروع ، فقال : ان الجواب تقريبا لا يتحمل مسؤوليته لكثرة المباحث الاختبارية التى يجب اجراؤها فى أرض لم تدرس درسا جيولوجيا وافيا ، وانما يقدر النفقات اللازمة لتتيمم الثلث الأول من المشروع وتوليد نحو ٦٠ ألف كيلو واط بنحو ١٧ مليون ونصف مليون من الجنيهات .

ثم وازن فى الختام بين هذا المشروع ومشروع مماثل لتوليد الكهرباء باقانة محطة ريينات بخارية على النيل ، وبرهن على أن مشروع القطارة من الوجهة المالية وبصرف النظر عن مميزات الوطنية وفوائده الاقتصادية الأخرى أفضل من المشروع البخارى . انتهى ما جاء فى الجريدة المذكورة .

هذا هو نهاية الكلام على اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : « يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها » والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثالثة

في قوله تعالى : اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو الخ

دخلت أحد المساجد التي يقرب من منزلنا بشارع زين العابدين يوم الجمعة ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٣٢ فسمعت القارئ يتلو في ﴿سورة الكهف﴾ آية : « إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء » فما أسرع أن سنح لي ما يأتي : وهو أن تمثيل الحياة بالماء النازل من السماء ظهر بعض سره الآن ، ذلك أنه تقدم في هذا التفسير أن علماء عصرنا يقولون : إن الحياة ليست من هذه الأرض ، بل هي من عالم آخر ، وأقول إذن : كما أن الماء والضوء والحرارة تنزل من السماء هكذا الحياة وهي منزلة من عالم روحى يمثل له بالماء ، ومن أراد فهم هذا الموضوع حق فهمه فليقرأ رسالتى المسماة « مرآة الفلسفة » المذكورة في ﴿سورة محمد﴾ صلى الله عليه وسلم عند آية : « فاعلم أنه لا إله إلا الله » انتهت اللطيفة الثالثة . كتب ليلة أول أكتوبر سنة ١٩٣٢ م

اللطيفة الرابعة

في قوله تعالى « ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن

نبرأها إن ذلك على الله يسير . لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم .

والله لا يحب كل مختال فخور »

خطر لي في صلاة العشاء قبيل فجر يوم الثلاثاء ١٣ سبتمبر سنة ١٩٣٢ م وأنا أقول : « السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » ما يأتي :

السلام على قسمين : سلام أدنى ، و سلام أعلى ، فالسلام الأدنى هو السلام العام الذى تنشده أم الاسلام في الأرض الآن ، وهذا الذى جاء الاسلام مقدمة له ، أما السلام الأعلى فهو الذى يعظم الأمم والأفراد ، وهو الذى إليه تشد الرجال ، وتعقد الآمال ، وهو أن يدرس هذه الدنيا دراسة صادقة ، ويعرف مادب وطار ، ولا يفادر حكمة إلقاها ، ولا علما إلا اطلع على مجائبه ، لافرق بين العلويات والسفليات ، حتى تقتنع النفس اقتناعا تاما بحسن النظام وجمال الوضع .

ومنى وصل الانسان الى هذا المقام أصبح في عبشة راضية وهولم يزل في الدنيا ، ودخل فيمن قال الله فيهم « رضى الله عنهم ورضوا عنه » وذلك لأنه يرى أن كل دقيق وجليل قد وضع بحكمة ، ويرى أن كل مصيبة في الحياة أو الموت لا يحصى منها لرقينا ، وأنه لولا ذلك لم يكن ارتقاء ، وذلك على سبيل العلم والبحث والاستقراء ، وههنا يفهم العاقل آية : « ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير ، لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » وهذه الطاقة في النوع الانسانى قليلة جدا ، بل نادرة وإن كانوا يقرمون هذه الآية ويؤمنون بها ، لأن الايمان غير الايقان وإن كان مقدمة له ، وهذا هو السر في كون أمة الاسلام هم الحادون ، وفي أن ذكر أهل الجنة « سبحانه الله وبحمده » كل ذلك يرجع إلى وصول أقوام إلى ذلك يقينا لا تقليدا . انتهت اللطيفة الرابعة . وبهذا تم تفسير ﴿سورة الحديد﴾ والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة المجادلة

هي مدنية

آياتها ٢٢ - نزلت بعد المنافقون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا
 إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُم مِّنْ نِّسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا
 اللَّائِي وَلَيْسَ لَهُنَّ لِقَاؤُهُمْ لِيَقُولُوا مَنكُراً مِّنَ الْقَوْلِ وَزُوراً وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ * وَالَّذِينَ
 يُظَاهِرُونَ مِنْ نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ
 بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا
 فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَاِطْعَامُ سِتِينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِمُؤْمِنِي بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ
 وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كَذَبُوا كَمَا كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ
 قَبْلِهِمْ وَكَذَٰلِكَ أَتَيْنَا آيَاتٍ يَتَذَكَّرُ فِيهَا لِكُلِّ شَيْءٍ شَاهِدٌ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي
 السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ
 سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا
 يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَزَلَ عَنْ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا
 نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْأَلَمِ وَالْعُمُورِ وَإِذَا جَاءَكَ حَيُّوكَ بِمَا لَمْ يَحْجِبْكَ
 بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصَلَوْنَهَا فَبِئْسَ
 الْمَصِيرُ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْأَلَمِ وَالْعُمُورِ وَمَصِيَّتِ الرَّسُولِ
 وَتَهْجَرُوا بِالْبُرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ

يَخْرُجُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ *
يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا
قِيلَ انشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ
ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ
يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ
وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ
عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ
عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ * لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ
النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ
أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ * اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ
أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَالِسُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِينَ * كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَيْنَ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ *
لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ
أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ
مِنْهُ وَيَدْخُلُهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ
أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *

هذه السورة ثلاثة أقسام

- القسم الأول في تفسير بسملة [سورة المجادلة] وما بعدها إلى [سورة تبارك] .
القسم الثاني في أحكام المظاهرة من أول السورة إلى قوله : « وللكافرين عذاب أليم » .
القسم الثالث في أحكام المجالس من السجوى والفسح فيها ومناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومن دم
المنافقين وما بقية من قوله تعالى : « إن الذين يحادون الله ورسوله » إلى آخر السورة .

القسم الأول في تفسير بسملة سورة المجادلة

ومابعدھا إلى سورة تبارك

(١) — ملخص السورة

اللهم إنا نحمدك ونشكرك على نعمة العلم وبهجة الحكمة ، لقد أنرت بصائرنا وأسعدتنا بالعرفان ، هذه الرجات المترادفات في أول هذه السور : [المجادلة ، والحشر ، والمنحة ، والصف ، والجمعة ، وسورة المنافقين ، والتغابن ، والطلاق ، والتحريم ، وسورة الملك] .

هي عشر سور ذكرت الرجات في أوائلها عشرين مرة ، إن هذه الرجة موجهة في هذه السور العشر غالباً لمنهج خاص ، وطريق معبد ، ومهيج طريق بديع ، ذلك أن الأمم يعوزها علم وعمل ، والعمل هنا في هذه السور العشر راجع إلى نظام الأسرة ونظام الدولة ، فلئن رأينا التي تجادل رسول الله صلى الله عليه وسلم في زوجها ، وتشتكى إلى الله ، والله يسمع تحاورهما ، وقد رحم المرأة وجعلها قويرة العين مع زوجها ، فهذا كله من الرجة الإلهية العامة التي يراد بها حفظ الأسرة ، وبقاء الألفة بين الزوجين ، وثبات الأحوال ، وزوال الشقاق ، فهذه رجة وجهت لنظام الأسرة ، وحفظ العشرة ، ودوام الألفة ، فعلى الولاة أن يستيقظوا للم شعث الأسرات والأمم أسوة برسول الله ﷺ ، فهذا إنما هو مثل ضربه الله لذلك وليس خاصاً بهذه المرأة ، نعم هي حادثة وقعت أيام النبوة ولكنها مضرب أمثال للولاة والحكام أن يستنبطوا الطرق للم شعث وجع الكلمة ، وينبع ذلك آداب المعاشرة من ترك التجوى التي بها يحزن الإخوان في المجلس ويسوؤهم فعل المتناجين ، وهكذا التفسح في المجالس ، ثم ترك مضابغة الرسول ﷺ لأن وقته لا ينسج لذلك ، فليقدم الذي يريد مناجاته صدقة ، ثم التخفيف بترك تلك الصدقة ، ثم النهي عن موالاة الأعداء بخيانة الأمة وتفريق الكلمة . إذن [سورة المجادلة] راجعة في جملة إلى :

- (١) ألفة الأزواج في المنازل .
- (٢) وألفة الأصحاب في المجالس .
- (٣) والأدب مع الحكام بترك مضايقتهم لكثرة أعمالهم .
- (٤) ورفق الحكام بالمحكومين إذا رأوا أمراً ينقلهم .
- (٥) ومجانبة خيانة الأمة بموالاة أعدائها ، وبالنفاق والشقاق ، فإن ذلك يضعفها ويفرق جمعها وبهذا إذن الرجة في [سورة المجادلة] موجهة بنوع أخص إلى حفظ الأسرة وحفظ الدولة .

(٢) — تفسير البسملة وتلخيص سورة الحشر

أما في [سورة الحشر] وهي السورة الثانية فإن الرجة فيها موجهة إلى حفظ الدولة كالشقي الأخير من [سورة المجادلة] فكان السورتين سورة واحدة ، لحفظ الأسرة ، وحفظ نظام المجالس ، وحفظ الدولة في المجادلة تبعها في الحشر ما يفيد ذلك . وبيانه أن اليهود هنا تخاذلوا وتباغضوا ، والتخاذل يتبعه انبعاث الرعب في القلوب ، ومنى انبعاث الرعب في القلوب زال الأمن ولم تنفع الحصون ، وقطعت الأشجار ، وكان الجلاء عن الوطن ، أو الاستعباد فيه . يقول الله في الموالين لهؤلاء : « لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله » ويقول : « بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » فهؤلاء اليهود المذكورون في هذه السورة تقدم في بعضهم ما يقرب من هذا في [سورة آل عمران] عند آية : « ألم تر إلى الذين أتوا

نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون « فانهم هناك اتسكروا على شفاعة آبائهم وهم مذنبون ، فنبذوا كتاب الله وهو التوراة في الأحكام الشرعية ، فأصابهم التخاذل فتفرقوا شذرمز ، وأخذ المسلمون ديارهم ، وذلك مشروح هناك شرحاً ضافياً ، وهناك سرّ [ا ل م] في أول السورة فارجع إليه إن شئت ، فما هنا وما هناك ضرب مثل للأُم كلها ، ومنهم المسلمون ، فإذا سمعت الله يقول : « تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » فعناه أن كل أمة على هذه الشاكلة فانها لا تعقل ، فأبونا العرب في الجاهلية يصح أن نقول فيهم ذلك ، لأنهم كانوا فريقين : فريق يتبعون الأَكسرة في جهة بلاد الفرس ، وفريق يتبعون القياصرة في جهة بلاد الشام وما والاها ، وإذا رأينا الأُم الإسلامية العربية بعد العصر الأول قد تفرقوا ، وذاق بعضهم بأس بعض ، فلنا الحق أن نحترس مما وقعوا فيه ، وأن نقول : تحب المحبة العامة ، والاحقت علينا كلمة الله إذ يقول : « تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » .

وإذا رأينا بلاد العراق قد دخلت في عصبة الأُم في هذه الأيام وأنا أكتب هذا صباح يوم الجمعة ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٣٢ م — الموافق ٢٨ جمادى الثاني سنة ١٣٥١ هجرية ، وزال عنها احتلال الانجليز وأعلن ذلك في الجرائد شرقاً وغرباً ، وإذا رأينا أمة الترك استقلت من قبلها ، وأمة الأفغان كذلك ، وأمة الفرس أيضاً ، فعني هذا أن هذه الأُم الإسلامية التي استقلت بعد الحرب الكبرى المنتهية سنة ١٩١٨ م قد نبذت الشقاق ، وخلعت من النفاق ، ولم يصبها ما أصاب الأُم الجاهلة المتخاذلة التي قال الله فيها : « تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » أي ان هؤلاء قوم لا يعقلون ، وهذه الشنشة وهي الاتحاد طارئة على هذه الأُم بسبب ما أنعم الله عليهم به من رجة النواصي بالحق ، فأصبحوا على نمط الذين ذكروا هنا في [سورة الحشر] إذ جاء فيها أن الأنصار يحبون المهاجرين ويؤثرونهم على أنفسهم ، وهؤلاء المتحدون على الضد من الذين ناقضوا .

(٣) — تفسير البسملة وتلخيص سورة الممتحنة

ثم أليس من العجب العجيب أن نرى [سورة الممتحنة] تجري على نفس هذا الأسلوب إذا ابتدئت بالنهي عن اتخاذ الأعداء أولياء كما في سورة الحشر قبلها ، وكما في آخر سورة المجادلة من حيث المعنى ، إذن هذه السور أشبه بسورة واحدة فصل بينها بذكر الرجة لذكير الناس بنعمة العلم وإيقاظهم للاتحاد ولم الشمل وحفظ الجمع ، ومن أجل الحكم أن يذكر فيها امتحان المهاجرات ، وهل هن مؤمنات حقاً ؟ وربما كن منافقات ، ومعنى هذا ألا نذكر أحداً من الأُم التي تناوئنا يدخل معنا إلا بعد امتحانه ، سواء أكان ذكراً أم أنثى ، وإن كان الامتحان في السورة خاصاً بالاناث ، وإذا احترسنا من المرأة فلا حتراس من الرجل من باب أولى

(٤) — تفسير بسملة سورة الصف

والرجة في [سورة الصف] واضحة متممة لما نقستم ، فانا إذا حفظنا الأسرار والمجالس والدولة ، ونبذنا المنافقين ، فقام ذلك أننا إذا حاربنا الأعداء لا نكون متخاذلين ، بل نكون صفاء واحداً كأننا بنيان مرسوم ، ومستحيل أن يكون الناس كالبنيان المرسوم في الحرب ، وقتال العدو ، وحفظ الدولة ، والتعاون في الأعمال العامة إلا بعد نبذ ذوى النفاق بعد امتحانهم وإخراجهم من صفوف الأمة حتى لا يكونوا سبباً في تفرق الصفوف ، ومتى اجتمعت الصفوف كان النصر المذكور في آخر (سورة الصف) نصر من الله وفتح قريب .

(٥) تفسير بسملة سورة الجمعة

ومن أعجب العجب أن يتبع اتحاد الصفوف في الحرب باتحاد النفوس في صلاة الجمعة ، فليس الاتحاد على العدو بمن عن الاتحاد في العبادات الموجب لتقارب القلوب وانتظام الألفة ، بل لا انتظام للصفوف القتال إلا بعد الانتظام في الأعمال العامة والعبادات كصلاة الجمعة ، ومن عجب أن يذكر فيها أن الذين آتاهم الله كتابه ثم لم يصلوا إلى أمثال هذه النتائج فأولئك مثلهم كمثل الجار يحمل أسفارا ﴿ وبعبارة واضحة ﴾ أن أم الاسلام الحالية ، وأخص بالذكر الأمة العربية التي أنا واحد منها إذا لم يصلوا هذه الدرجة من المنعة والقوة بترك التغافل والعمل بكتاب الله في الأعمال العامة فانهم يحسم نصيب من « مثل الذين حلوا التوراة » ومن آية : « تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » لأنهم اجتمعوا في اللغة والدين والعبادات والنسب وتجاور الأوطان ، واختلفوا في أمور فرعية في الدين بفعلوها أصلا وتخاذلوا .

وأنا أحد الله إذ رأيت في هذه الأمم من سعدوا بالألفة ، وهن الأمم الأربعة المتقدمة ، وإحداهن عربية والأخرىات منها تركية ، ومنها أفغانية ، ومنها فارسية ، ولقد رأيت من اهتمام بقية أبناء العرب ما يشرح الصدر في زماننا ، فهذه اليمن ، وهذه نجد ، وهذه الحجاز ، كل هذه الأمم مستقلة ، ولكن بقيت مصر وبقيت بلاد سوريا وفلسطين وبلاد شمال أفريقيا طرابلس وتونس والجزائر ومراكش .

أيها الأمم العربية المستقلة وغير المستقلة : عار عليكم أن يكون هذا كتاب ربكم وأنتم تتلون ، والحوادث قد أيقظتكم ، ومع ذلك لاتتحدون .

يجب أن يكون السوداني المسلم العربي وغير العربي مع المصري ، وسكان شمال أفريقيا وأهل فلسطين وسوريا والحجاز ونجد واليمن والعراق كلهم أمة واحدة ، إن لم يفعلوا ذلك فإن مثلهم كمثل آبائنا العرب في الجاهلية ، وكمثل اليهود إذ قال الله فيهم : « تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » .

أيها المسلمون : أيها العرب : هذا هو المقصود الأعظم من هذه السور ، ولهذا أنزل القرآن ، وإذا ظنت هذه الأمم أن اختلاف أوطانها أو ملوكها أو مذاهبها كالشافعية والحنفية والمالكية والحنبلية والزيدية والوهابية والشيعة وغيرها يوجب تخاذلها وعدم اتحادها ، فإن ذلك يدل على عدم تبصرها وعلى جهلها .

فيا عجباً لأمة الاسلام ! (تلك الأمة التي جاء الدين لها ، وهو يجمع الأمم كلها في دلة واحدة ، يضم تحت رايها كل نخلة وملة ، ويحافظ على عباد الله) كيف تجعل مابه الاتفاق عين مابه الشقاق ، ويقول كل أصحاب مذهب نفسى نفسى ، وبقيّة العرب وبقيّة المسلمين كفار أو فساق : وربما استحلوا دماءهم وأموالهم وقتلهم قتيلا .

والحق الصراح أن هذا اذا ظهر في هذه الأمم فانه ينطبق عليها قوله تعالى : « تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » وانى أرى أن أم الاسلام عربية وغير عربية تسمى جهدها للكمال والاتحاد .

(٦) — تفسير بسملة سورة المنافقين

ولما كانت السور الخمس السابقة مدارها على نظام الألفة المنزلية نارة ، ونظام الأمة بنذ النفاق ثانيا أكد الشق الثاني في سورة المنافقين : إن هذه السور وتناسقها وتلاحقها يدعوا للبحث والتفكير فيها : كررت السور التي تدعو إلى الوفاق وترك الشقاق ، وهذه السورة سادستها ، وذلك دلالة على أن هذا الدين يسمع أما وأما ، وليس ديننا ضيق الصدر ، وسع ديننا منافق المدينة ، وسع صدر رسول الله ﷺ عبد الله بن أبي

ابن سلول ، وسعه وهو القائل في إحدى الغزوات كما سيأتي : « لن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » ، وسعه ولم يكتد صفر ابنه المسلم بقتله لهذا القول ، خيفة أن يقال : ان محمدا يقتل أصحابه ، دين واسع ، ولكن بعض الفرق الإسلامية تبسح قتل المسلمين تدينا لأنهم كفار في نظرهم ، نظريات خاطئة ، ونفوس ضائعة ، وعقول نائمة بالتقليد الأعمى ، وسع ديننا المنافقين فيه ، وسع جميع الديانات أن تعيش تحت كنف دولة الاسلام ، ولكن الأمم الإسلامية العربية لم تقدر في القرون المتأخرة أن تعيش في دولة واحدة تباعدا عن الحق وجهلا بالدين :

(٧) تفسير بسملة سورة التغابن

ولما كان مقام حفظ الدولة من اتفاق قد جاء فيه ما يكفي لذوى الألباب أتبعه بسورة التغابن يراد بها استراحة القلوب وشرح الصدور بتذكير الناس بعوالم السموات والأرض المسبحات لربها فيها ، وتذكير الناس بالأمم الخالية ، والقرون الماضية ، وانذار بعضهم بالنار ، وتبشير آخرين بالجنة ، ثم إراحة الأفئدة بأن المصائب مقدرة في الأزل ، فعلى الناس أن يرجعوا نفوسهم ، ولا يحملوها ما فوق طاقتها من الغم على ما فات ، لأنهم لا يد لهم في وقوعه ، فعلى الانسان إذن أن يصفح عن ذنوب أهله وذريته لأنهم مسخرون ، وقد جعلوا اختبارا له لينظر أيسر ، فكما صبر رسول الله ﷺ على المنافقين في المدينة يجب على رب الأسرة أن يتحمل ما يصيبه في سبيل حفظ أسرته اقتداء بنبيه صلى الله عليه وسلم ، وليعف وليصفح .

(٨) تفسير بسملة سورة الطلاق

وإذا طلق المسلمون أزواجهم ، فعلى المطلق ، وعلى القاضى ، وعلى سائر الحكام أن يكونوا عادلين في المعاملة ، وليلاحظوا النفقة والعدة ، وذلك رجوع الى نظام الأسرة اقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم ، إذ عامل أزواجه أمهات المؤمنين بالرفق واللين والشفقة ، فكما أن الله سمع قول المرأة التى تجادل في زوجها وتشكى إلى الله .

(٩) تفسير بسملة سورة التحريم

هكذا هو سبحانه ألهم رسوله أن يكون قدوة في حفظ الزوجات والمعاشرة ، فأعرض عن إذاعة بعض الأسرار التى أذاعتها إحدى أمهات المؤمنين ، وضرب الله الأمثال لحسن المعاشرة في الدنيا والصبر على مضض المعاملة فيها بامرأة نوح إذ صبر عليها ، وكذا امرأة لوط ، فهذان مثالا لضربا لرسول الله صلى الله عليه وسلم اطمئنانا لقلبه فيصبر على الزوجات كما صبر نوح ولوط ، وهكذا مريم ابنة عمران وآسية امرأة فرعون صبرتا فدخلتا الجنة ، فهذه الأمثال الأربعة المضروبة مثلا لدوام المعاشرة والصبر على المعاشرين وان كانوا كافرين أو منافقين رجالا ونساء ، وهكذا صبره ﷺ وحفظه لأهل بيته ، كل ذلك ليثبت به فؤاد المسلمين في معاشرة الأهل المذكورة في سورة التغابن : « يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم » . هذا نموذج لأهم المقصود بهذه السور التسع المتتابعات .

(١٠) تفسير بسملة سورة تبارك

ثم أتبعها بعاشرتها ، وهى [سورة تبارك الذى بيده الملك] وأشار إلى ما قلناه كله في هذا المقام فقال في أولها « ليلوكم أيكم أحسن عملا » . فكأنه يقول : إن جميع ما تقدم من أحوال الأمم ، ونفاق بعض رجالها ، وشقاق نساءها ، وما يتبع ذلك ، كل هذا إنما جعلته اختبارا لكم وامتحانا ، وهنا أخذ يخرج بعقل المسلم

من ساحات الأرض الضيقة إلى ساحات السموات الواسعة ، ويشرح عالم السموات والأرضين ، والليل والنهار ، والجبال والحيات الواسعات في الدنيا وفي الآخرة ، وكذلك جهنم ترويحاً لنفوس الناس ، وارشاداً إلى أن هذا هو المقصود الأنتم من الحياة ، وما تقدم إنما هو مقدمات ، وقد تقدم نظير هذا في { سورة البقرة } عند آيات الطلاق والخلع ونحوها . وإلى هنا تم الكلام على القسم الأول في تفسير بسملة سورة المجادلة وما بعدها إلى سورة تبارك ، وإنما فعلنا ذلك لأن الرحمة تقدم الكلام عليها كثيراً في هذا التفسير ، فاكثفنا هنا بذكر ملخص السور العشر مخافة التلويل . كتب صباح يوم الجمعة ٢٨ جمادى الثانية سنة ١٣٥١ هجرية - الموافق ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٣٢ م والحمد لله رب العالمين .

القسم الثاني في احكام المظاهرة

التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

روى أن خولة بنت ثعلبة ظاهر منها زوجها أوس بن الصامت فاستفتت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالت يا رسول الله : إن زوجي أوس بن الصامت تزوجني وأنا شابة غنية ذات أهل ومال حتى إذا أكل مالى وأفنى شبابي ، وتفرق أهلي ، وكبرسني ، ظاهرمني وقد ندم ، فهل من شيء تجمعني وإياه وتفتني به ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : حرمت عليه ، فأعادت الكرة وهو يعاود الجواب حتى قالت : أشكو إلى الله فاقني ووحدني ، قد طالت له محبتي ، ونثرت له بعثتي ، وإن لي صبية صغيراً ، إن ضممتهم إلي جاعوا ، وإن ضممتهم إليه ضاعوا ، وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتستغيث وتشكو إلى الله ، فزل هذه الآيات الأربع فقال لها صلى الله عليه وسلم : ادعي لي زوجك ، فتلا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها) تجادلوك : أي تخاصمك وتكلمك في شأن زوجها (وتشكي إلى الله) تظهر ما بها من المكروه (والله يسمع تحاوركما) مراجعتكما الكلام (إن الله سميع) يسمع شكوى المضطر (بصير) بحاله (الذين يظاهرون منكم من نسائهم) الظهار أن يقول الرجل لامرأته : أنت علي كظهر أمي ، وألحق بالظهار الفقهاء كل جزء من أنثى محرم ، وهذا كان من أيمان الجاهلية (ماهن أمهاتهم) أي ما للأنثى يجعلونهن من زوجاتهم كالأمهات بأمهات : أي لسن بأمهاتهم (إن أمهاتهم إلا اللاتي ولدنهم) فلا تشبه بهن في الحرمة إلا من حكم الله بالخافقين كالمرضعات وأزواج الرسول ﷺ (وأنهم ليقولون منكراً من القول) لا يعرف في الشرع (وزوراً) كذباً (وإن الله لعفو غفور) لما سلف إذا تاب الإنسان منه (والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا) أي يعودون لتحليل ما حرّموا ، أو يعودون لنقض ما قالوا ، أولتدركه ، والعود للنقض أولتدركه أولتدركه أولتدركه نتيجة متقاربة ، وذلك إما بالسكوت عن الطلاق بعد الظهار زماناً يمكنه أن يطلقها فيه ، وإما بالندم فيرجع إلى الألفة بعد الظهار ، أو استباحة الوطء والملاسة والنظر بشهوة ، أو مجرد العزم على وطئها أو نفس الوطء ، والأول قول الشافعي ، والثاني قول ابن عباس ، والثالث قول أبي حنيفة ، والرابع قول مالك والخامس للحسن وقتادة وطاوس والزهرى ، وهناك وجه سادس : أن الظهار كان في الجاهلية فالتلفظ به نفسه رجوع إلى حال الجاهلية ، ووجه سابع : أنه لا يقع الظهار إلا إذا كرّر لفظ الظهار ، وإلا لم يكن عود ، فإن لم يكرّر اللفظ فلا كفارة ، وهذا الأخير قول أهل الظاهر .

هذا ملخص الأقوال ، فإذا عاد المظاهر بعدم التلفظ بالطلاق ، أو بالندم ، أو بالعزم على الوطء ، أو بنفس الوطء إلى آخر ما تقدم (فتحرر برقة) أي فالواجب عليهم إعتاق رقة (من قبل أن يخاس) أي أن يستمتع

كل من المظاهر والمظاهر منها بالآخر فيحرم عليه الاستمتاع قبل التكفير فلا جاع ولا إس بشهوة ونحو ذلك (ذلكم) أي ذلكم الحكم بالكفارة (توعظون به) أي إن غلط الكفارة وعظاكم حتى تركوا الظاهر ولا تعاودوه (والله بما تعملون) من التكفير وتركه (خير) ثم أخذ يذكركم من لم يقدر على الرقة فقال (فن لم يجد) الرقة (فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يجاسا) فإن أفطر بغير عذر فليستأنف، وإن أفطر بعذر ففيه خلاف، وإن جامع ليلا عصي الله، ولا ينقطع التتابع عند الشافعي، وعند أبي حنيفة ومالك ينقطع التتابع (فن لم يستطع) الصوم لهرم، أو مرض مزمن، أو شبق مفرط (فإطعام ستين مسكينا) ستين مقدا، وهو رطل وثلاث مما يخرج في زكاة الفطر، ويقول أبو حنيفة: يعطى كل مسكين نصف صاع من بر، أو صاعا من غيره، ولم يذكر الخماس مع الطعام اكتفاء بذكره مع الآخرين (ذلك) البيان والتعليم للأحكام فرض (لتؤمنوا بالله ورسوله) أي لتصدقوا بالله ورسوله في قبول شرائعه ورفض ما كنتم عليه في جاهليتكم (وتلك حدود الله) لا يجوز تعديها (وللكافرين) الذين لا يقبلونها (عذاب أليم) في نار جهنم :

مسائل

- (١) من ظاهر من أمراته مرارا، فالشافعي وأبو حنيفة يوجبان لكل مظاهره كفارة ما لم يكن في مجلس واحد وأراد التأكيد فتكون كفارة واحدة، وأما مالك فجعل المظاهر في مجالس متفرقة ليس عليه إلا كفارة واحدة .
- (٢) يقول مالك رحمه الله : إن أراد التكفير بالطعام يجوز له الوطء قبله، وعند غيره يحمل الإطعام على غيره .
- (٣) إذا جامع قبل أن يكفر فعليه كفارة واحدة عند مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد وسفيان، وبعضهم يقول : عليه كفارتان . انتهى القسم الثاني من السورة، والحمد لله رب العالمين .

القسم الثالث

في أحكام المجالس من النجوى والتفصح فيها، ومناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم ومن ذم المناققين وما يتبعه

قال تعالى (إن الذين يحادون الله ورسوله) يعادونهما، أو يختارون حدودا غير حدودهما (ككبتوا) أخزوا أو أهلكوا (ككابت الذين من قبلهم) من كفار الأمم الماضية (وقد أنزلنا آيات بينات) تدل على صدق الرسول وما جاء به (وللكافرين عذاب مهين) يذهب تكبرهم وعزهم (يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا) الظرف متعلق بمهين (أحصاه الله) حفظ الله ما عملوا وأحاط به عددا لم يغيب منه شيء (ونسوه) لأنه كثير، وهم به متهاونون (والله على كل شيء شهيد) لا يغيب عنه شيء .

الكلام على النجوى وأحكامها

قال تعالى (ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض) السكيات والجزئيات (ما يكون من نجوى ثلاثة) ما يقع من أسرار ثلاثة : أي مسارة ومشاورة : أي ما من شيء يناجي به ثلاثة بعضهم بعضا (إلا هو) رابعهم) بالعلم يعلم نجواهم كأنه حاضر معهم ومشاهدهم (ولا خسة إلا هو سادسهم) وإنما خص هذه الأعداد لأن الله وتر يحب الوتر (ولأدنى من ذلك) ولأقل كالأحد والاثني (ولأكثر) كالسنة فما فوقها (إلا

هو معهم) يعلم ما يجري بينهم (أئمتا كانوا) بالعلم والقدرة (ثم ينشئهم بما عملوا يوم القيامة) اظهرا لنزولهم ليفتضحوا ويحازوا (إن الله بكل شيء عليم) ثم إن اليهود والمنافقين كانوا يتناجون ويتعاضدون بأعصمهم إذا رأوا المؤمنين فيظن المؤمنون أنهم يتناجون بما يسوءهم كأن يكون بلغهم خبر عن سرية هزمت أو كثر فيها القتل فيحزنون لذلك ، فنهاهم رسول الله ﷺ ثم عادوا لمثل ما نهوا عنه ، فهذا قوله تعالى (ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالإثم والعدوان) وهو ذلك السر الذي كان بينهم لأنه يكون إما مكرا وإما كيدا بالمسلمين أو شيئا يسوءهم ، وهذان إثم وعدوان ، وقوله (ومعصية الرسول) أى بوحى بعضهم بعضا بمعصيته ﷺ (وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله) فقد كان اليهود يدخلون على رسول الله ﷺ ويقولون : السام عليك يا محمد ، والسام الموت ، والله يقول : « وسلام على عباده الذين اصطفى » و « يا أيها الرسول » و « يا أيها النبي » (ويقولون فى أنفسهم لولا يعذبنا الله) أى يقولون فيما بينهم : لو كان نبيا لعاقبنا الله (بما نقول) من الاستخفاف به (حسبهم جهنم يصلونها) أى حال كونهم يدخلونها (فبئس المصير) المرجع جهنم .

ورد فى حديث البخارى أن رهطاً من اليهود دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : السام عليك فقال : وعليكم ، فقالت عائشة : السام عليكم ولعنكم الله وغضب عليكم ، فقال صلى الله عليه وسلم : يا عائشة عليك بالرفق ، وإياك والعنف والفحش اهـ

ثم خاطب الله المؤمنين فقال (يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتهم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول) كما يفعل المنافقون (وتناجوا بالبر والتقوى) تحيّر المسلمين وعدم معصية الرسول (واتقوا الله الذى إليه تحشرون) فيما تأتون وتذرون (إنما النجوى من الشيطان) أى إنما النجوى بالإثم والعدوان منه فانه المزين لها والمحرّض عليها (ليحزن الذين آمنوا) أى إنما يزين الشيطان ذلك ليحزن المؤمنين ، وفى البخارى ومسلم أن رسول الله ﷺ قال : إذا كانوا ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث ، فان ذلك يحزنه ، وهذه الجملة الأخيرة لأنى داود (وليس بضارهم شيء) الضمير فى ليس إما للتناجى وإما للشيطان (إلا باذن الله) إلا ما أراد الله تعالى (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) فليكل المؤمنون أمهم لله .

الكلام على التفصح فى المجالس

قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس فافسحوا) أى إذا قيل لكم توسعوا فيها وليفسح بعضكم عن بعض فوسعوا وتوسعوا ، وقد كانوا يتنافسون فى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحبون القرب منه ، فكانوا إذا رأوا رجلاً مقبلاً قضاؤوا فى مجلسهم ، فأمرهم الله أن يفسح بعضهم لبعض بقوله « فافسحوا » (يفسح الله لكم) فيما تريدون التفصح فيه من المكان والرزق والصدر وفى الجنة . واعلم أنه لا فرق فى هذا بين أن يكون المجلس فى صلاة الجمعة ، أو فى صف القتال ، أو فى حلقة العلم ، أو الذكر وفى بعضها وردت أحاديث أسندت السبب إليها ، والآية أعم (وإذا قيل انشروا فانشروا) أى ارفعوا عن مواضعكم حتى توسعوا لآخوانكم فارفعوا (يرفع الله الذين آمنوا منكم) بامتنال أوامره (والذين أوتوا العلم) والعالمين منكم خاصة (درجات والله بما تعملون خبير) وهذه الدرجات فى الدنيا بالرتبة والشرف ، وفى الآخرة فى الجنة ، فكان ابن مسعود إذا قرأها يقول : يا أيها الناس افهموا هذه الآية ولترغبكم فى العلم ، وقال صلى الله عليه وسلم : « فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب » وعنه صلى الله عليه وسلم أيضاً : « يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ، ثم العلماء ، ثم الشهداء » .

وورد أن سليمان خير بين العلم والمال والملك ، فاختار العلم ، فأعطى المال والملك معه ، وورد أيضاً : أوحى

الله إلى إبراهيم عليه السلام : يا إبراهيم إني علمت أحب كل علم . ثم ان في قوله « انشروا » تفسيرا آخر : أى اذا قيل لكم انهضوا إلى الصلاة ، وإلى الجهاد ، وإلى كل خير ، فانهضوا ولا تقصروا عنه ، وقوله « والله بما تعملون خير » تهديد لمن لم يمثل الأمر .

حكم مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم

قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة) أى فتصدقوا قدامها ، شبهت النجوى بمن له يدان على سبيل الاستعارة المكنية ، وذلك فيه [أمران : الأول] اعظام مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فان الانسان اذا وجد النسيء بمشقة استعظمه ، واذا ناله عفو وبسهولة احتقره [والثاني] نفع الفقراء ، وذلك أن أهل اليسرة منهم كانوا يكثر من المناجاة معه صلى الله عليه وسلم دون الفقراء حتى تأذى بذلك النبي صلى الله عليه وسلم فنهاهم الله عن ذلك وأمرهم بالصدقة قبل أن يناجوا مع النبي صلى الله عليه وسلم (ذلك) أى الصدقة (خير لكم) من الامساك (وأطهر) لقلوبكم من الذنوب ، وأطهر لقلوب الفقراء (فان لم تجدوا) الصدقة يا أهل الفقر فتكاملوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بما شئتم بعد التصديق (فان الله غفور رحيم) لمن ناب منكم ، وهذه تفيد طاب الصدقة من الأغنياء دون الفقراء قبل المناجاة ، قيل انهم يتصدقون لكل كلمة بدينارهم ، ومع الاختلاف فيها أهى للندب أو الوجوب نسخت الآية « أأشفقتم » الآية ، وعن علي رضي الله عنه : « ان في كتاب الله آية ما عمل بها أحد غيري ، كان لي دينار فصرفتة فكنت اذا ناجيته تصدقت بدينارهم » وقوله (أأشفقتم) أى أبخلتم وخفتم العيلة والفاقة ان قدتم ، وهذا هو قوله (أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات فاذ لم تفعلوا) ما أمرتم به (وناب الله عليكم) تجاوز عنكم ونسخ الصدقة قبل المناجاة بعد عشريال ، وإذ معنى ان (فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله) فيما امر ونهى (والله خير بما تعملون) فهو محيط بأعمالكم ونياتكم .

الكلام في المنافقين

قال تعالى (ألم تر إلى الذين تولوا) والوا (قوما غضب الله عليهم) وهم اليهود (ما هم منكم ولا منهم) لأنهم منافقون مذنبون بين ذلك ، ولولا النفاق لم يوالوا اليهود المفضوب عليهم (ويحلفون على الكذب) وهو ادعاء الاسلام (وهم يعلمون) أنهم كاذبون . روى أنه صلى الله عليه وسلم كان في حجرة من حجراته فقال بدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبار ، وينظر بعين شيطان ، فدخل عبد الله بن نبتل المنافق ، وكان أزرق فقال صلى الله عليه وسلم له : علام تشعني أنت وأصحابك ؟ خلف بالله ما فصل ، ثم أمر أصحابه خلفوا ، فنزلت (أعد الله لهم عذابا شديدا إنهم ساء ما كانوا يعملون) فتمرتوا على سوء العمل وأصروا عليه (اتخذوا أيمانهم جنة) وقاية دون دماءهم وأموالهم (فسدتوا عن سبيل الله) فسدتوا الناس عن الايقان بدين الله بتبسيطهم وتخريشهم (فلهم عذاب مهين) ذكر العذابين : الأول للقبر ، والثاني عذاب الآخرة (لن نغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) تفسيره واضح مما سبق في التفسير (يوم يبعثهم الله جميعا) الطرف متعلق بقوله « لن نغني » (فيحلفون له كما يحلفون لكم) لأن الأخلاق تلازم الانسان في الآخرة كما كانت ملازمة له في الدنيا (ويحسبون أنهم على شيء) في حلفهم الكاذب ، ذلك أنهم لاعتبادهم رواج الأيمان الكاذبة في الدنيا وخدعهم يظنون أن الله كذلك تروج عنده الأيمان الكاذبة (ألا إنهم هم الكاذبون) البالغون غاية الكذب (استحوذ عليهم الشيطان) استولى عليهم ، يقال حذت الإبل وأخذتها اذا استوليت عليها (فأنساهم ذكر الله) لا يذكرونه بقلوبهم ولا بالسقم

(أولئك حزب الشيطان) جنوده وأتباعه (ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون) وأي خسر أعظم من أن يهت عليهم النعيم الأبدى (إن الذين يحادّون الله ورسوله أولئك في الأذلين) أى في جلة من يلحقهم الذل في الدنيا والآخرة ، فإذا كانت عزّة الله لانهاية لها فذل أعدائه عظيم (كتب الله) في اللوح المحفوظ وأبرز آثاره في نظام العالم أن يغلب هو ورسله ، وهذا قوله تعالى (لأغلبن أنا ورسلي) فهم من ألقنه الحجة فيغلب بها ، ومنهم من أعطيه القوة فيغلب بالسيف ، لأنه لا يبقى في الوجود إلا ما هو أصلح له وأنفع (إن الله قوى) فهو ينصر أنبياءه (عزيز) غالب أعداءه (لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله) فإذا إن إيمان المؤمنين يفسد بموادّة الكافرين ، ومن كان مؤمنا حقا لا يوالى كافرا ، لأن من أحبّ أحدا امتنع أن يوالى عدوّه . واعلم أنه ليس في مخالطتهم ومعاشرتهم محذور ، إنما المحذور مناصبتهم وإرادة الخير لهم دينا ودنيا مع كفرهم ، قال تعالى مبالغا في زج مودّتهم (ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم) فهو لاء وإن كان الميل لهم أمرا طبيعيا يجب أن يقاوم هذا الميل لكفرهم . ومن ذلك أن حاطب ابن أبى بلتعة كتب إلى أهل مكة كما سيأتى في (سورة المتحنة) بالنصحة فنهى عن ذلك بهذه الآية هو وأمثاله (أولئك كتب في قلوبهم الإيمان) أثبتة فيها (وأيدهم روح منه) من عند الله ، وهو نور القلب والبصر والإيمان والقرآن (ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه) ولا جرم أن رضوان الله بعد دخول الجنة أعظم من الجنة (أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون) أى الفائزون . انتهى التفسير اللفظي للقسم الثالث من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

لطائف هذه السورة

- (١) في قوله تعالى : « قد سمع الله قول الذى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما »
- (٢) في قوله تعالى : « أأشفقتم أن تقدّموا بين يدى نجواكم صدقات » .
- (٣) في قوله تعالى : « كتب الله لأغلبن أنا ورسلي » .
- (٤) في قوله تعالى : « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله » .

اللطيفة الأولى والثانية

اعلم أن هذه السورة كالمتمة لسورة الحديد ، وكالصلة لبعض ما فيها ، ذلك أن الله قال في أواخر سورة الحديد « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » وقد تقدّم أن الآية تفيد أن الله تعالى أعطى أنبياءه العدل ، وأعانهم بالقوة للمادية ، فيستعملون القهر بالسيف والرج عند الاقتضاء ، فهنا أمران : قانون ونظام نام في الدولة ، وجيش وسلاح يحافظ على ذلك النظام ، فإذا لابت من شريعة وقضاة وحكام ، ثم لابت من جند ودفاع وشرطة يحملون السيوف ليحافظوا على الأمن في الداخل ، ويصدّقوا العدو من الخارج ، وهذا كل النظام ، ولا ريب أن من يعطى هذه القوة فليس هناك من قوة فوق قوته ، ولا رادّة لقضائه ، وعلى الناس أن يسمعوا ويطيعوا وليس ذلك للأنبياء وحدهم ، بل إذا ولى عليهم عبد حبشى وخاطبهم بالقانون ورفع السيف فوق رؤسهم وجب عليهم أن يطيعوه ، فلما كان ذلك مقتضى القانون وقوة السيف جعل الله سورة قد سمع بعد ذلك ليبين أن من الحوادث ما يقبل الأخذ والردّ ، ومراعاة الجمهور ، وحفظ القلوب ، ألا ترى أن الله سمع قول امرأة شكت إلى الله ضياع عيالها عند أبيهم وجوعهم عندها فما أسرع أن نزل الوحي بماسر قلبها ، هكذا لما نزلت آية المساجاة وظهر أن ذلك فيه صعوبة عليهم نزلت الآية بعدها لتفسخ ذلك الأمر ، والمقصود من هذا

أن الله عز وجل يعلم الحكام كيف ينظرون في أمر رعاياهم ، فإذا أصدروا أمرا فليبحثوا في أمر الرعية فإن وجدوه قد أخرجهم وشق عليهم فلا عار عليهم إذا رجعوا عنه فإن في ذلك المصلحة العامة للحكام والمحكومين ، جاء في آخر (سورة الحديد) : « وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة » فأراد أن يعلم حكام المسلمين هذه الرأفة والرحمة ، ويقول : إذا أمرتم بأمر ترون فيه مصلحة الجمهور ، ثم تعسر تنفيذه على الرعية فلا ترهقوهم من أمرهم عسرا ، ولا تجعلوا القوة التي خولتكموها من السيف والجيش الحافظين للقانون عسفا بالناس وظلما لهم ، بل كونوا ذوي رأفة ورحمة كما جاء في آية أخرى : « ولو كنت فظا غليظ القلب لانقضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر » فهذا من العفو عنهم ، جاء من طريق الوحي ، أن القرآن إنما نزل ليعلم الناس ، وهذا من أعظم التعاليم ، ولذلك نجد الأمم العظيمة تراعى مصالح الجمهور ، بل انهم زادوا على ذلك أنهم جعلوا البلاد تحت أمر نوابهم المنتخبين من تلك البلاد ، فكان الله يقول : أيها الحكام المسلمون : إذا كنت أنا الذي نسخت آية الصدقة بآية أخرى وليس بينهما إلا عشر ليل ، وأنا العليم بكل شيء ، وأعلم أني سأنزل الآية ، وأنها ستشق عليهم ، وأني سأنسخها ، وأنكم ستقولون : اثبات الاتفاق ونفيه معناه أنه لفائدة في هذه الآيات التي شغلت بها هذه السورة ، وإذا كان الله يعلم كل شيء فما أجدره أن لا يأمر ولا ينهى توفيرا للزم ، وهو بكل شيء عليم ؟ كأنه تعالى يقول : أنا أعلم أنكم تقولون ذلك ، ولكني فعلت ذلك وأثبت الآيتين تعليما لكم حتى تنهجوا نهج الكمال وتحفظ قلوب الرعية ، ولا تكونوا كالفرجة الذين يضربون المسلمين بالمدافع في شمال إفريقيا وفي الهند إذا عصوا لهم أمرا ، إن ذلك مما يزيل ملكهم سريرا ، فلذلك علمتكم بهذه الآيات كيف تحفظون القلوب وتحافظون على الدولة . هذا هو السر في جعل هذه السورة بعد سورة الحديد . انتهى الكلام على اللطيفتين ، الأولى : والثانية . والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثالثة في قوله تعالى : كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز

اعلم أن القانون المسنون في هذه الدنيا ، وفي نظام البرية أن من عمل عملا لمصلحة عامة وكان جديرا بها فإن الله يساعده ويحفظه ، ويخلصه من المصائب ، وإذا أصابه مكروه فذلك لرفعة شأنه وزيادة معونته لتقوى روحه على ذلك الأمر العظيم ، فلتنجرب ذلك أيها الذكي ، بل ليكن استدلالك على صحة الدين بمثل هذا ، فذلك هو البرهان على صدق النبوة ، ففكر فيما أقول وقم بنصيبك من منفعة الإنسانية بشرط أن تكون قادرا عليه ، وثابر بجدة على ما تقدر عليه من نفع المسلمين أو بقية النوع الإنساني ، فانك تجد الله معك في كل حركة وكلية ، لا يفوتك ولا يتركك ، فإن وجدت الأمر كما ذكرت لك بأن لك صدق قوله تعالى : « لأغلبن أنا ورسلي » ، وكلما كان العمل أعم كان نظر الله للعامل أتم ، وكلما كان العمل أضعف كانت المساعدة على مقتضاه .

وكم من مسلم يتصدق على من يقدر على العمل ويظن أنه يفعل حسنا ، وكم من مؤمن يكتب على عمل مبرور كالخج ، أو الصلاة ، أو الصيام ، ويظن أن المبالغة في ذلك العمل هي كل شيء ، والحق أن الاسلام أمر أعم مما يظن هؤلاء ، الاسلام يوجب أن يقوم الناس بالآداب النفسية ، والأعمال الجسمية ، ومساعدة الناس ما استطاعوا لذلك سبيلا ، ومن قصر أو اقتصر على بعض ذلك فهو مذهب متى كان له قدرة على ما هو أعظم وهي المنافع العامة للمسلمين ، أول العالمين ، لأن الله رب كل شيء ، وأقرب الناس إليه من كان خيره أعم هذا معنى : « لأغلبن أنا ورسلي » فهذا فليعرف الناس صدق الأنبياء عملا لاسماعا على شريطة أن يلاحظوا ما كتبناه . وبهذا تم الكلام على اللطيفة الثالثة ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الرابعة

في قوله تعالى : لا تجدد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حادَّ الله ورسوله الخ
اعلم أن الله كرّر هذه الآيات في سور كثيرة ، وجعل الوعيد شديدا على من والى الأعداء ، وذلك هو
مصيبة الاسلام اليوم ، إن الأمة الاسلامية اليوم أصبحت في أخريات الأمم ، وأبناؤها في شمال افريقيا وفي
مصر وغيرها يوالون الفرنجة وينصرونهم على أبناء جنسهم ، ذلك داء عضال قد استحکم ، وقد كررنا أن
هذه الأمة سيزول منها هذا الشر المستطير ، وتأخذ حظها بين الأمم في زمن قريب . انتهت اللطيفة الرابعة .
والى هنا تم الكلام على سورة المجادلة ، والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة الحشر

هي مدنية

آياتها ٢٤ — نزلت بعد البينة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ
الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرِجُوا وَظَنُّوا
أَنْهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ
الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ * وَلَوْلَا أَنْ
كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ
شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ
تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْرِجَ الْفَاسِقِينَ * وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ
مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي
الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا
آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ *

لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا
وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ
يَجِئُونَ مِنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ
وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ
بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا
لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ
كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا
وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ
مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُوهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُؤْلِنَ الْأَذْبَارَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ * لَأَنزِمُ
أَشَدَّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ * لَا يِقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا
إِلَّا فِي فُرُجٍ مُحْصَنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى
ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ * كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ * كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ
إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ
الظَّالِمِينَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مِمَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ
خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ
الْفَاسِقُونَ * لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ * لَوْ
أُنْزِلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ
نَضَرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ * هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ
هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيِّمُ
الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ
الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى * يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *

هذه السورة ثلاثة أقسام

- (١) في ذكر غلبة الله ورسوله لأعدائه في قوله : « هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب »
إذ أخرجوا من ديارهم وأخذ منهم التي وما يتبع ذلك من أول السورة إلى قوله : « ربنا انك رهوف رحيم »
- (٢) في ذكر أخلاق المنافقين ، وأنهم هم وأهل الكتاب الذين نافقوا لهم مغلوبون على أمرهم كمثل
أهل بدر ، أو بنى قينقاع ، وكمثل الشيطان الذي يغتر الإنسان ثم يتبرأ منه من قوله تعالى : « ألم تر إلى الذين
نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا
وان قوتكم لنصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون » إلى قوله « وذلك جزاء الظالمين » .
- (٣) في ذكر نصائح للمؤمنين ، واعظام أمر القرآن ، ووصف الله بأوصاف الجلال والجلال ، لأن هذا
هو المقصود من هذه الحياة من قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا
الله إن الله خير بما تعملون » إلى آخر السورة .

القسم الأول من السورة

التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

اعلم أن الله لما ذكر سورة المجادلة وكانت ترجع إلى أحكام شرعية ، وتقرع للمنافقين ونحو ذلك ، وأعقبها
الله بهذه السورة ، وكانت في جللتها تشبه سابقتها ، ولم يكن في ذلك ذكر الله الذي هو المقصود الأعظم ابتداء
هذه السورة وختمها بالنسب ، وبذكر أوصافه تعالى حتى يكون القارئ متذكرا لأوصافه العالية ، سبحانه ،
وهذا قوله (سبح لله ما في السموات وما في الأرض) باللسان وبالقلب من غفلاتهم ، فأما غيرهم فبلسان الحال
بحيث يدل كل مخلوق على أن صانعه منزّه عن المادة ولواحقها ، وأن كل مخلوق منقاد له ، يتصرف فيه وينفذ
فيه أمره كيف يشاء ، لجميع أجزاء السموات والأرض فيها هاتان الدالتان : ترفع فاعلهما وتنزهه ، وانقيادها له
وخضوعها (وهو العزيز) القاهر لكل مخلوق ، الغالب من حاد عن الجادة (الحكيم) فيما يصنعه . روى أن
هذه السورة نزلت بأسرها في بني النضير ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة صالح بنو النضير
رسول الله صلى الله عليه وسلم على ألا يكونوا عليه ولالة ، فلما ظهر يوم بدر قالوا هذا النبي الذي جاء نفعه في
التوراة ، فلما هزم المسلمون يوم أحد ارتابوا ونكثوا ، فخرج كعب بن الأشرف في أربعين راكبا إلى مكة
خالف أبا سفيان عند الكعبة ، فأمر صلى الله عليه وسلم محمد بن مسعدة الأنصاري فقتل كعبا غيلة ، ثم خرج رسول الله
صلى الله عليه وسلم مع الجيش إليهم فحاصروهم إحدى وعشرين ليلة ، وأمر بقطع نخيلهم ، فلما قذف الله
الرعب في قلوبهم طلبوا الصلح ، فأنى عليهم إلا الجلاء على أن يحمل كل ثلاثة آيات على بعير ماشاءوا من
متاعهم فجاءوا إلى الشام وأذرعوا ، ثم إن عبد الله بن أبي سؤل قبل ذلك قال لهم هو وأصحابه
لا تخرجوا من حصنكم ، فإن قاتلوكم فنحن معكم ولا نخذلكم ولنصرنكم ، ولئن أخرجتم لنخرجن معكم ،
فحصنوا الأزقة ، وبعد ذلك أرادوا مكيدة فكشف أمرها ، فخرج إليهم صلى الله عليه وسلم مع الجيش
وحاصروهم كما تقدم ، وهذا قوله تعالى (هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحنتر)
أي في أول حشرهم : أي جمعهم من جزيرة العرب ونفيهم إلى الشام ، وآخر ذلك الحشر بجلاء عمر يابهم من

خير إلى الشام ، وكان هؤلاء من سبط لم يصيبهم جلاء قط ، وهم أول من خرج من أهل الكتاب من جزيرة العرب ، والخشر اخراج جمع من مكان إلى آخر (ما ظنتم أن يخرجوا) لشدة بأسهم ومنعهم (وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله) أي أن حصونهم تمنعهم من بأس الله (فأتاهم الله) عذابه وهو الرعب والاضطرار إلى الجلاء (من حيث لم يحتسبوا) وهو أن الله أمر نبيه ﷺ بقتلهم واجلائهم ، وكانوا لا يظنون ذلك (وقذف في قلوبهم الرعب) الخوف الشديد بقتل سيدهم كعب بن الأشرف (يخرجون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين) فانهم كانوا ينظرون إلى الخشب في منازلهم فيهدمونها ، وينزعون ما استصحبوه منها فيحملونه على إيلهم ، ويحرب المؤمنون بأقبا ، ويقلعون العمد ، وينقضون السقوف ، وينقبون الجدران ، فلا يسكنها المؤمنون حسدا منهم وبغضا (فاعتبروا يا أولي الأبصار) أي فاعتظوا بحاطم فلا تفتدروا ، ولا تعتمدوا على غير الله ، وهذه الآية استدلت بها على ريع الدين الاسلامي ، وهو القياس ، وأنه حجة من حيث أنه أمر بالمجازرة من حال إلى حال ، وحالها عليها في حكم لما بينهما من المشاركة المقتضية له (ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء) الخروج من أوطانهم (لعذبهم في الدنيا) بالقتل والسبي كما فعل بيني قريظة (ولطم في الآخرة عذاب النار) سواء أجلوا أم قتلوا (ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب) . ولما نزل صلى الله عليه وسلم بنى النضير وأمر بقطع النخيل ، قالوا : قد كنت يا محمد تنهى عن الفساد في الأرض فما بال قطع النخل وتعريقها ؟ فوجد المسلمون في أنفسهم من قولهم وخشوا أن يكون ذلك فسادا في الأرض فقطع بعضهم ، وقال بعضهم : لا تقطعوا فإنه مما أفاء الله عليكم ، وقال الآخرون : بل نفيظهم ، فنزلت هذه الآية بتصديق من نهى ، وبتحليل من قطع ، وهي (ما قطعتم من لينة) أي أي شيء قطعتم من لينة ، واللينة النخلة السكرية ، والجمع ألبان (أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله) فبأمره : أي فقطعها وتركها بإذن الله ، وإنما أذننا في ذلك و قطعتم بأذننا النخل لنطهر البلاد منهم (وليخزي الفاسقين) على فسقهم بما غاظهم (وما أفاء الله على رسوله) أي ما أعاده عليه ، وصبره إليه ، وأورده إليه ، لأنه أولى به ، لأن المصلحين في الأرض أولى الناس بما فيها (منهم) من بنى النضير (فما أوجفتم) أي فما أجريتم على تحصيله ، والوجيف سرعة السير (عليه من خيل ولا ركاب) والركاب ما يركب من الإبل ، غلب فيه كإغلب الراكب على راحته وذلك أن قري بنى النضير كانت على ميلين من المدينة ، فمشوا إليها رجالا إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه ركب جلا ، أو حارا ، ولم يكن ليجرى معهم عظيم قتال (ولكن الله يسلم رسوله على من يشاء) بقذف الرعب في قلوبهم (والله على كل شيء قدير) فهو يسلم ظواهر الأسباب تارة وبواطنها أخرى .

ولما تم السلام على جلاء بنى النضير وعلى فيهم أعقبه بالكلام على مصرف هذا النية فقال سبحانه (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى) أي من أموال كفار أهل القرى كقريظة والنضير وفدك وخيبر (فإنه وللرسول ولذي القربى) وهم بنوهائهم وبنو المطلب (واليتامى والمساكين وابن السبيل) كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم) أي إنما حكمنا بذلك وجعلناه هؤلاء المذكورين كي لا يكون النية الذي حقه أن يعطى للمذكورين ليعيشوا به متداولين الأغنياء دائرا بينهم كما كان في الجاهلية يتكاثرون به ، والدولة ما يدول للإنسان : أي يدور من الجدة والحظ (وما آتاكم الرسول فخذوه) أي ما أعطاكم من قسمة غنيمة ، أو نية فاقبلوه (وما نهاكم عنه فانتهوا) أي ما نهاكم عن أخذه فانتهوا عنه ولا تتلبوه (وانقوا الله) أن تتخالقوه وتهاونوا في أمره (إن الله شديد العقاب) لمن خالف رسوله ﷺ ، وليست الآية خاصة بالنبي فنعن مأمورون أن يتبعه في كل شيء أمرا ونهيا ، ثم أبدل من «لذي القربى» وما بعده قوله (للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم) فإن كفار مكة أخرجوهم وأخذوا أموالهم (يبتغون فضلا من الله

ورضوانا وينصرون الله ورسوله) بأنفسهم وأموالهم (أولئك هم الصادقون) الذين ظهر صدقهم، ثم عطف على المهاجرين قوله (والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم) وهم الأنصار، فهم لزموا المدينة والايمان وتمكنوا فيهما من قبل هجرة المهاجرين (يحبون من هاجر إليهم) ولا يثقل عليهم (ولا يجحدون في صدورهم) في أنفسهم (حاجة) ما تحمل عليه الحاجة من الطلب والحسد والحزارة والغيظ (عما أوتوا) مما أعطى المهاجرون من النية وغيره (ويؤثرون على أنفسهم) أي ويقدمون المهاجرين على أنفسهم، حتى ان من كان عنده امرأتان نزل عن واحدة وزوجهما من أحدهم (ولو كان بهم خصاصة) أي فاقة (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) الفائزون بالثناء العاجل، والثواب الآجل.

روى أن عمر رضي الله عنه قرأ: «ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى» حتى بلغ «للفقراء المهاجرين» إلى قوله: «والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم» وهي الآية الآتية، ثم قال هذه قد استوعبت المسلمين عامة، قال: وما على وجه الأرض مسلم إلا وله في هذا النية حق إلا ما ملكت أيمانكم.

وللشافعي قولان: أحدهما أن النية للقاتلة، والثاني وهو الأنسب بالآية لمصالح المسلمين، ويبدأ بالمقاتلة ثم بالأهمل فالأهم من مصالح المسلمين، وأكثر العلماء أنه يصرف جميعه لجميع المسلمين كما هو قول عمر، وأحد القولين عند الشافعي، قال تعالى: (والذين جاءوا من بعدهم) عطف على المهاجرين، ودخل في هذا النية كل من هو مولود إلى يوم القيامة في الاسلام: أي وذلك من العطف المذكور على المهاجرين كما تقدم عن عمر (يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان) أي لاخواننا في الدين السابقين، وهم المهاجرون والأنصار، وهذا خبر بمعنى الأمر، أمر الذين جاءوا بعد الصدر الأول أن يستغفروا لهم، قالت عائشة رضي الله عنها: أمروا بأن يستغفروا لهم فسيبوهم (ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا) أي حقدا لهم (ربنا إنك رؤوف رحيم) خفيق بنا أن نجيب دعائنا. انتهى الكلام على القسم الأول من السورة، والحمد لله رب العالمين.

القسم الثاني

في ذكر أخلاق المنافقين، وأنهم هم وأهل الكتاب الذين نافقوا لهم مغلوبون على أمرهم كمثل أهل بدر أو بنى قينقاع، أو كمثل الشيطان الذي يغري الانسان ثم يتبرأ منه

ولما أتم الكلام على بني النضير وعلى تقسيم النية أعقبه باتمام الكلام على ما حصل من المنافقين قبل الجلاء كما تقدم في التفسير قريبا من مناصحة عبد الله بن أبي سؤل لليهود هو ومن معه، وقرله لهم: «لئن أخرجتم لنخرجن معكم» الخ فقال (ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب) أي الذين بينهم وبينهم اخوة الكفر والصداقة والموالة (لئن أخرجتم) من دياركم (نخرجن معكم ولا نطيع فيكم) في قتالكم وخذلانكم (أحدا أبدا) أي من رسول الله والمؤمنين (وان قوتلتم لننصرنكم) لنعاونتكم (والله يشهد إنهم لكاذبون) لعلهم بأنهم لا يفعلون ذلك، وهو قوله (لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم) وهذا هو الذي كان، فانهم أخرجوا من ديارهم وما خرجوا معهم، وتوجه المسلمون لقتالهم فلم يدافعوا عنهم (ولئن نصرهم) على الفرض والتقدير (ليؤان الأدبار) منهزمين (ثم لا ينصرون) أي ينهزم اليهود ثم لا تنفعهم نصرة المنافقين (لأنتم أشد رهبة) أي أشد رهوبة (في صدورهم من الله)

فلذلك يظهرون لكم في العلانية خوف الله وأتم أهيب في صدورهم منه (ذلك بانهم قوم لا يفقهون) لا يعلون الله وعظمته حتى يخشوه حق خشبته (لا يقاتلونكم) أي اليهود والمنافقون (جميعا) مجتمعين (إلا في قرى محصنة) بالدروب والخنادق (أومن وراء جدر) لفرط رهبتهم (بأسهم بينهم شديد) أي ان البأس الشديد الذي يوجهون به إنما هو إذا حارب بعضهم بعضا ، ولو قاتلوكم لم يبق ذلك البأس والشدة ، لأن من حارب الله ورسوله يجن (تحسبهم جميعا) مجتمعين متفقين (وقلوبهم شتى) متفرقة لا ألفة بينهم لا فراق عقائدهم ، واختلاف مقاصدهم (ذلك بأنهم قوم لا يعقلون) ما فيه صلاحهم ، ولا يعلمون أن تشتت القلوب يوهن القوى ويضعفها . ثم قال : مثل اليهود (كمثل الذين من قبلهم) أي كمثل أهل بدر ، أو كمثل بني قينقاع (قريبا) أي في زمان قريب ثم بين ذلك فقال (ذاقوا وبال أسره) أي سوء عاقبة كفرهم في الدنيا (ولهم عذاب أليم) في الآخرة ، ومثل المنافقين مع بني قريظة حيث خذلوهم (كمثل الشيطان) مع الانسان (إذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال إني برئ منك إني أخاف الله رب العالمين) فهؤلاء المنافقون فعلاوا مع اليهود كما فعل الشيطان مع الانسان ، إذ يستعويه بكيد ثم يتبرأ منه ، ومن هذا الاستغواء أنه استغوى قريشاً بدم بدر وقال : « لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم » الخ (فكان عاقبتهم) أي عاقبة الانسان الكافر والشيطان (أنهما في النار خالدن فيها وذلك جزاء الظالمين) وهذا القول يدخل فيه ما ذكر من استغواء الشيطان للكفار يوم بدر . وماروى عن برصيصا الراهب الذي حكى أنه كان كثير العبادة ، ثم أغواه الشيطان أن يتعلم الاسم الأعظم الذي تجاب به الدعوات ، ثم تكاثرت عليه الناس ، وأخيرا أتوا له بأجل فتاة ليقوم بأمرها ، فأبى أولا ، ثم أخذ يدعو الله لها وهي تشفى كلما مرضت بدعائه ، ثم ان الشيطان سؤل له فواقعها ، غملت منه ، ثم أغواه أن يقتلها ويدفنها ، ثم جاء إلى اخوتها في المنام فأخبرهم ، فوجدوها مدفونة ، فهتدوا صومعة برصيصا وقتل الملك ذلك الراهب ، وانهى الأمر ، وهذه الحكاية وإن كانت من أقاصيص بني اسرائيل فهي ذات مغزى يناسب ما نحن فيه وإن لم تكن حقيقة .

فانظر كيف فعل المنافقون بالمدينة مع اليهود ما شاهدته كل يوم من أعمال الناس يضل بعضهم بعضا ويقعونهم ثم يتركونهم ، وهذا العمل بعينه هو الذي يفعله أمم أوروبا الآن ، ألم ترأنهم فتحوا مدارس في بلاد سوريا وأظهروا أنهم خلقوا لرق الأعم واسعادها وأن الله خلقهم لذلك ، وأذاعوا العلوم والمعارف ، واشتاق الشبان والشيوخ لذلك الشعب الفرنسي النافع للانسانية ، وكانت نساؤهم تتنى أن يشاهدوا هؤلاء الرافقين للانسانية ، فلما كانت الحرب الكبرى أخذوا تلك البلاد ، وأخذوا يذيقونهم سوء العذاب ، ويوقعون بهم النكال .

اللهم إن فعل المنافقين مع اليهود ، وفعل الشيطان مع برصيصا العابد هو الذي نشاهده كل يوم من أوروبا ، إن الله أنزل هذا القرآن ليبين للمسليين وجوه النفع ، يقرأ بعض المسليين هذه الآيات فيقولون في أنفسهم « تلك أمة قد خلت » وأي شيء المنافقون ويهود بني النضير ؟ لقد ماتوا ، ومن هو برصيصا الراهب وشيطانه الذي هو من أقاصيص بني اسرائيل ؟ نقول لهم هذا هو الذي ترونه كل يوم ، إن الشيطان الذي ظهر لبرصيصا في تلك الحكاية كان يتظاهر بالصلاة ، فلا يزال يصلي أربعين يوما ولا ينفلت من صلاته ، فظن برصيصا أنه أحسن منه ، فلما لقنه الدعوات قبلها ، وكان قبوله للدعوات سبب وقوع الفتنة عنده .

إن هذه حال أوروبا الآن حرفا بحرف ، يتظاهرون بالمدينة ، ويفتحون المدارس ، ويقولون نمدن الشعوب ، ونزق الجنس البشرى ، ثم هم في الوقت نفسه يمتصون دماء الشعوب ، ويقتلون الأعم ، وبيتزون المال ، ويجعلون الناس طعمة لهم ، وفاكهة وأبا ، متاعا لهم ، وتقوية لشهواتهم وفسوقهم .

ومن هذا القبيل ما قاله [غاندى] الحكيم الهندي في زماننا مامعناه : « إن الشيطان يفلح في إضلال الناس اذا ظهر وفي غم ذكر الله » .

فهذا كمثل قصة برصيصا الكاهن ، فهذه الآيات يجب على المسلمين أن يتذكروها ، ويؤلفوا رسائل سياسية تناسبها بألفاظ وأمثال يفهمها الناس ، وفي كتاب « كيلة ودمنة » من الأمثال ما فيه مقنع ، لأنه كتاب كله سياسة ، فانظره إن شئت . وإلى هنا تم الكلام على القسم الثاني من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

القسم الثالث

في ذكر نصائح للمؤمنين ، واعظام أمر القرآن ، ووصف الله تعالى بأوصاف الجلال والجمال لأن هذا هو المقصود من هذه الحياة

ولما تم الكلام على أخلاق المضلين من المنافقين والضالين ، وحذر من أفعالهم ، شرع ينصح المسلمين بلزوم التقوى فقال (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد) ليوم القيامة ، وانما ساء غدا لدنوه وقربه ، أو اقرب ما يدل عليه من عذاب الدنيا وعذاب القبر (واتقوا الله) تكريره للتأكيد (إن الله خير بما تعملون) وهذا وعيد (ولاتكونوا كالذين نسوا الله) نسوا حقه (فأنساهم أنفسهم) أى أنساهم حظوظ أنفسهم فلم يقدموا لها خيرا ينفعها ، ولم يدرسوها ويعرفوا العالم حوطها حتى يفتنوا لها (أولئك هم الفاسقون) السكاملون في فسوقهم (لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة) وهم الذين كملت نفوسهم فدخلوا الجنة ، والذين استمهنوها فاستحقوا النار (أصحاب الجنة هم الفأزون) بالنعيم المقيم .

إن الآيات المتقدمة فيها عبر وأمثال ، ومنها قوله : « كمثل الشيطان » وقوله « كمثل الذين من قبلهم قرىبا ذاقوا وبال أمرهم » فإن ذلك رمز إلى ما ذكرناه من انخداع النفوس الانسانية بشياطين الإنس تارة وبشياطين الجن تارة أخرى ، ألا ترى أن وعد المنافقين بالمدينة لليهود ، ووعد الشيطان لأهل مكة يوم بدر مثالان ينطبقان على كل ما ابتلى به الناس في هذه الدنيا ، إن الناس لا عذاب عليهم ولا شقاوة إلا من جهة الجهل ، فالجهل هو الباب الواسع الذى فتح لهذا الإنسان فأدركه في الشقاء . والاضلال والاعواء لا يخرجان عن أمرين : إما أن يكونا بلسان الأحياء من بنى آدم ، وإما أن يكونا بهواجس في نفوسنا ، وآراء داخل قلوبنا ، وهذا منسوب لشياطين الجن :

- (١) فالشره في الطعام الذى يعقبه المرض .
- (٢) والبخل بالمال الذى يعقبه كراهة الناس .
- (٣) والخوف من الموت الذى يورث الجبن فيقبعه قهر الأعداء .
- (٤) والاسراف في المال الذى يقبعه الفقر .

كل ذلك من آراء من داخل النفس ، فهى شيطانية من شياطين الجن أو الهوى أو النفس ، وإما من خارجها فهى من شياطين الإنس ، وأعم الأمور وأهمها في أيامنا الحاضرة ما ابتلى به المسلمون من ضحك الفرجة عليهم ، وابتلائهم بإيهم بالأنسجة المزخرفة ، والصناعات الجميلة ، والنساء البهيات الطلعة ، واستفواهم بإيهم تارة بالماديات ، وتارة بالعنويات ، كأن يعلموهم في مدارسهم ، وينشون على عقولهم ، ويقولون لهم : نحن نفكر المدنية والحربة حتى اذا ما أنابوا العقول ، وابتزوا الأموال ، وأصبح الشرق كأنه منوم [بالفتح] تنوعا مغناطيسيا انقضوا على البلاد فأورثوها التشكال والبوار ، وجروا عليها الخراب ، وورثوا أرض المسلمين

وديارهم ، فهذا من الأمثال المضروبة في هذه السورة : « كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال إني برئ منك إني أخاف الله رب العالمين » .

إن الأوروبي لا يقول للشرقي اكفر ولكنه يقول له : دع الامور القديمة ، واعلم أن الديانات أصبحت لا قيمة لها ، ويغضونه في عادات آباءه وأجداده ، ويحرقون ذلك في عينيه ، وهكذا ينقضون عزائمهم حلقة حلقة حتى ينخلع من وطنه ودينه وهولاءشعر ، فإذا جاء دور الاحتلال ، وأخذ البلاد ، أصبح ذلك المفتون بهم فيمن شملهم الذل « ولات حين مناص » .

ذلك هو الذي صنعه الاسبانويون في بلاد الأندلس ، وهو الذي استمر بعد ذلك في مصر وسوريا وشمال أفريقيا ، دخل الفرنجة بلادنا وكان دخولهم أشبه بالحكاية الموقولة عن بني اسرائيل التي ابتدعوها كضرب الأمثال من باب الاستعارة الثقيلية ، وقد أشرنا إليها فيما تقدم ، فإن الشيطان المسمى بالأبيض الذي أرسله إبليس لاضلال برصيصا الراهب فيما يزعمون هم العلماء في الكليات في أوروبا ورجال الدين ، ثم إن حضور الأبيض في صومعة برصيصا واطهاره العبادة والصلاة والصيام حتى صار لا يأكل إلا كل أربعين يوما صرعة أشبه بما يقوله أولئك العلماء الأوروبيون ورجال الدين في المدارس من أنهم جاءوا لترقية أبناء الشرق ، ثم إن قول ذلك الشيطان لبرصيصا : سأعلمك كلمات تدعوها الله فيستجيب لك ، كقول الأوروبي لأحد الخديويين في مصر سابقا : « قل للعسكر يتركوا الدعوات والعبادات ، لأن المتسدين ضعيف الارادة ، أما حرة العقيدة فانه شجاع » .

وأما دعاء برصيصا بتلك الدعوات واستجابها وحب الناس له والتفافهم حوله ثم وقوعه أخيرا في الذنب الذي نصبه له ذلك الشيطان إذ أوقع بنت الملك في مرض أشبه بالجنون ، ودلهم على برصيصا فحضرت عنده ، وأغراء بالفسق بها ، فعملت ، ثم أمره فقتلها ، ثم أخبر أهلها في المنام ، وعرفتهم محلها الذي دفنت فيه في الجبل فهو بعينه ما فعله أوروبا الآن ، يتدخلون في كل شيء بصفة الإصلاح ويكتبون الى دولهم حتى إذا حان وقت ابتلاع البلاد أحاطوا بها من كل جانب بسبب ما لديهم من الرسوم وعرفة الاماكن والعورات ، فيسهل فتح البلاد وتصبح ملكا لهم ، وهذا قتل للأمة كما قتل الملك برصيصا الراهب لوقوعه في جر يمتين : الزنا والقتل ، وهؤلاء الشرقيون وقعوا في جر يمتين : الانحلال من الفضائل ، وهذا بالزنا أشبه ، وترك حب الامور على غاربها ، وهذا قتل للأمة ، فاذن يستحقون القتل ، وقتلهم استعبادهم .

ألا ترى أن هذا كله في ضمن الآية ، أفلا ترى معي أن جميع ما نخطئ فيه في محنتنا ومآلنا وسياستنا وتجارتنا إنما هو من آراء تكون في أفئدتنا من داخلها أو من الخارج ، أفلا ترى أن قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد » بعد ما تقدم للإشارة إلى أنه يجب الحرص على مافي هذه السورة ونحوها من المعاني ، أفلا ترى أن قوله تعالى « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » إنما جرى به بعد هذه التشبيهات للإشارة إلى عظم خطرها وأهميتها بالنسبة للمسلمين ، والا فلماذا لم يذكر هذا القول إلا في هذا المقام ؟ ولماذا يمثل الجبل برجل ذي عقل وقد قرئ عليه القرآن فيكون خاشعا مشفقا من باب التخويل ، ثم يعقبه بقوله « وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » وذلك كله لأجل تعليم المسلمين التفكير ، وطريق التفكير يكون بمثل ما كتبناه ، فإن القرآن لم ينزل إلا ليتفكر فيه ، وفي هذه السورة فتح أعظم باب للفكر ، ولذلك أعظم أمر القرآن وأمر الأمثال ، وقل : « لعلهم يتفكرون » .

إن جميع بني آدم مسحورون إما بفكر داخلي ، وإما بشيطان انسي ، إن شياطين الإنس هم كثير من أهل أوروبا

يختصون بأموال الشرقيين لاسيما المسلمين ، ويحقدون في بقاهم جاهلين ، ليسكونوا لهم خولا وعبيدا خاضعين .
لعمري لقد أعطيت الآية من العناية ما يليق بهذا التفسير ، فلأنهم الكلام على بقية السورة (هو الله الذي
لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة) ما غاب عن الحسن من عوالم الملائكة ، وما حضر من الأجرام المادية ،
والسر والعلانية ، والآخرة والدنيا ، والمعدوم والموجود (هو الرحمن الرحيم ، هو الله الذي لا إله إلا هو الملك
القدوس) المنزه عن القبايح ، وعن كل ما يلبس المادة وما فيه نقص (السلام) الذي سلم الخلق من
ظلمه ، إذ جعلهم على نظام يكفل رقيهم ، ولا تعرف هذا حق المعرفة إلا إذا رجعت إلى تفسير قوله تعالى :
« بيدك الخبز » في (سورة آل عمران) . وأيضا هو الذي سلم من النقائص وكل آفة تلحق الخلق فيكون
السلام أعم من القدوس (المؤمن) واهب الأمن ، ولذلك نرى كل مخلوق في الأرض يعيش وهو في أمن
نسي ، فالطائر في جوه ، والحية في وكرها ، والسمك في البحر ، والانسان في القرية . ولا يعيش قوم على
الأرض مالم يكن هناك حراس يحرسون قراهم والا هلكوا ، فهذا من معاني « المؤمن » (المؤمن)
الشهيد على عباده بأعمالهم الذي لا يغيب عنه شيء ، أو الرقيب الحافظ لكل شيء ، فهو على الأول راجع للعلم
وعلى الثاني للقدرة (العزيز الجبار) أي الغالب الذي جبر خلقه على ما أَراد ، أو جبر حاله : أي أصلحه ،
وربما دخل المعنى الثاني في عموم الأول ، لأنه يسوقهم إلى ما يريد ، ومن ذلك اصلاح حالهم (المتكبر)
البلوغ الكبرياء والعظمة (سبحان الله عما يشركون) نزه ذاته عما يصفه به المشركون (هو الله الخالق)
المقدر للأشياء على مقتضى الحكمة (الباري) الموجد لكل شيء بريثا من التفاوت (المصور) الموجد
لصورها وكيفياتها كما أراد ، ولا جرم أن هذه المعاني يمكن معرفتها من تتبع أجزاء هذا التفسير ، فان آثار
ذلك فيما كتبناه من جلال هذه الدنيا ونظامها وعجائبها (له الأسماء الحسنى) لدلائلها على محاسن المعاني ،
ومحاسن المعاني تظهر في مظاهر هذا الوجود ، فمن جهل نظام هذه الدنيا انى نحن فيها فقد جهل آثار صفات
الله ، ومن جهل أثر الصفة جهل نفس الصفة ، والله لا يعرف بذاته ، وانما يعرف بصفاته ، فهذا كله حث
على العلوم التي أنزلها الله على قلوب عباده في الشرق والغرب والحكمة في هذا الوجود من الفلك وعلوم
الطبيعة ، ومن ظن أن تلاوة أسماء الله ، أو معرفة معانيها وشرحها كافية فهو جاهل ، وانما تعرف الأسماء
بالآثار ، فمن جهل الآثار فقد بار ، ولعمري ما أوقع أمة الاسلام في الخبال ، وأضاعها فيما مضى من القرون
والأجيال ، إلا لما اعترأها من الجهالة ، وما أحاط بها من الجهال الذين اكتفوا بالشعور وتركوا العلوم فعميت
الابصار ، فبالت شعري كيف نعرف المصور إلا بآثاره : أي بالصور التي صورها في المعادن والنبات والحيوان
وكيف نعرف أنه رحمن رحيم إلا اذا درسنا نظام الحيوان فنذكر لطفه ورحمته به ؟ وكيف ندرك حفظه لكل
شيء إلا اذا تتبعنا الأشياء بقدر طاقتنا البشرية ؟ وكيف نفهم قوله : (يسبح له ما في السموات والأرض)
وأنه منزّه عن النقائص كلها إلا اذا شاهدنا كمال صنعه بالدراسة فهتدى بالكمال في الأثر إلى الكمال في المؤثر
وقوله (وهو العزيز) أي الغالب (الحكيم) الجامع للكمالات بأمرها ، فان الحكمة ترجع للكمال في القدرة
والعلم . والى هنا تم الكلام على القسم الثالث من السورة ، والحمد لله رب العالمين .



بهجة الحكمة ونور العلم

في قوله تعالى : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ، هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون ، هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له مافى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم »

إن أول هذه الآيات ضرب مثل وتخييل ، وهذا التخييل مثل ما جاء في قوله تعالى : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا » . والمراد من ذلك توبيخ الإنسان على عدم تخشعه عند تلاوة القرآن ، لقساوة قلبه ، وقلة تدبره ، والتصدع التشقق ، إن الجبل مع صلابته ووزاته لو أعطى تمييزا لأشفق من خشية الله وحذر من ألا يؤذى حق الله تعالى في تعظيم القرآن ، والكافر مستخف بحقه ، معرض عما فيه من العبر والأحكام ، كأنه لم يسمعها ، وصفه بقساوة القلب ، فهو غافل عما يتضمنه القرآن من المواعظ والأمثال ، والوعد والوعيد ، وتمييز الحق من الباطل ، والواجب مما لا يجب ، بأحسن بيان ، وأوضح برهان ، ومن وقف على هذا وفهمه أوجب له الخشوع ، ولقد دل على أن ذلك تمثيل لقوله تعالى بعد ذلك « وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » ثم شرع في المقصود الأعظم والمهم الأتم من هذه المقدمة العظيمة ، وهو تبيان أسماء الله الحسنى (وبعبارة أخرى) أن الله عز وجل ابتداء سورة الحشر بقوله : « يسبح لله مافى السموات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم » فهو منزّه عن كل ما لا يليق بالربوبية في ذاته وصفاته وأفعاله ، وذلك كله مقتضى التسبيح ، فلا يكون من أفعاله ما يشعر بالنقص ، أو الشر ، وكل مافى العالم من الشرور والنقصان إن هي إلا مقتضات للخير والكمال ، وهو الذى عزّ في سلطانه ، وقهر كل مخلوق أن يسير على مقتضى أمره ، وهو حكيم فيما يدره من النظم العجيبة ، والأفعال البديعة ، وختم السورة بوصف القرآن بأن الجبال تصدع من خشيته ، وجعل هذا مقدمة لما بعدها ، وهو الإشارة إلى أسمائه الحسنى ، تلك الأسماء التى تبلغ ٩٩ اسما ، وقد دخل في معانيها هذا الوجود كله من سموات وأرضين ، ودخل فيها أيضا أفعال المكلفين ، ففيها العلم وفيها العمل ، وهذا عجب والله وألف عجب ! أن يصف القرآن بأن الجبال تخشع من خشية الله لو أنها سمعته ، ثم ينبع ذلك بأسمائه التى وصفها بأنها حسنى ، وهذه الأسماء تتضمن الوجود كله ، والقرآن كله ، لأن معانى القرآن كلها وجيع هذه المخلوقات لتخرج عن معانى هذه الأسماء .

(١) ألم تر أن الرحمة التى تضمنها اسما [الرحمن الرحيم] تدل على إرادته الخير والنعمة والاحسان إلى خلقه جميعهم ، وأن كل نعمة ، وكل نازلة ، وكل خطب أسود يلهم لم يخرج عن كونها مهاديات ومعدّات لرحمات واسعة تشمل هؤلاء المنكوبين الأذلاء ، ولين يعرف هذا حق المعرفة إلا أناس صفت نفوسهم ودرسوا علوم هذه الدنيا دراسة كاملة ، أو قوم قرءوا هذا التفسير بامعان أو أكثره ، فانهم لا جرم يرقنون بأن كل نعمة فى هذه العوالم نعمة عظيمة لأنها مقدمة لها ، بل لانتم تلك النعم العظيمة إلا بتلك النقصان والآلام التى جعلت أساطين لها ودعائم ومقومات .

(٢) ولما كانت الرحمة بدون حكمة فى الفعل تدعو إلى عدم النظام والخلل فى الأحكام أعقبه بما يدل على نظام الأمور وحفظ التوازن فى العوالم كلها ، ولو لم ذلك الأحياء من هذه المخلوقات فقال : « هو الله الذى لا إله إلا هو الملك » فوصف نفسه أولا بالرحمة حتى يعلم نوع الإنسان أن انفراده بالحكم فى هذه العوالم وسياسته

في نظامها لا يقتضى ظاهراً ، فهو منفرد بالملك ، متصرف بالأمر والنهي في جميع خلقه ، وهم تحت ملكه وقهره وأرادته ، ولكن ذلك كله مسبوق بالرجة ، فليس انفراده بالملك كإنفراد ملوك الأرض بملكهم ، لأنهم يظلمون الناس ويسخرونهم لشهواتهم ، وتلك الشهوات تطمس وتغطي تلك الرجة الكامنة في النفوس ، ذلك أن المستبدين بالملك يرون أنهم إن لم يكن لهم في ذلك الملك منافع فإفادة فيه ، والمنافع عندهم خاصة بالشهوات واللذات التي تعرفها البهائم ، وهم في قلوبهم رجة ، ولكن تلك اللذات تغطي هذه الرجة وتطمسها كما تطمس تلك اللذات رجحات الناس بالحيوان عند ذبحه ، فهو يعلم أن الحيوان متألم عند ذبحه ، وفي قلبه رجة له ، ولكن تلك الرجة قد نامت تحت ذلك الغطاء ، لاسيما أن الشرائع المزعلة أيدت ذلك ، هكذا هؤلاء الملوك والأمم المستبدون قد نامت الرجحات التي كانت في قلوبهم تلك اللذات العاجلة فلم يحسوا بالآلام تلك الأمم المظلمة ، لاسيما إذا أيد ذلك كتابهم (بتشديد التأه) ورجال سياستهم الذين يشيرون الجشع في أئدتهم ، ويبيحون لهم الفتك والظلم ، وهذه الاباحة من مخلوق لا تدفع إنما ولا تمنع ذنباً بخلاف الاباحة الدينية فهي مقدسة . هذا كله في أفعال العباد ، فهم إذا ملكوا بطشوا بطش الجبارين ونامت الرجحات ، وليسوا عند الظلم والبطش بمرئيين للخير للظالمين المبطوش بهم . كلا . بل هم إنما يريدون منافع نفوسهم لا غير ، أما الله عز وجل فانه منفرد بالملك والتصرف ، ولكنه ليس كالملوك والأمم المستبدة ، بل رحمته كاملة نامة شاملة . هذه هي الحكمة في أنه ذكر انفراده بالآلوهية والملك بعد وصفه بالرجة .

(٣) ويشير إلى ما قررناه في هذا المقام أنه ذكر بعد ذلك أنه [القدوس] أي البليغ في النزاهة عما يوجب نقصاناً في ذاته وصفاته وأفعاله . ولذلك يقول الملائكة : « سبوح قدوس رب الملائكة والروح » . لأنجب أيها الأخ معي كيف يكون ذكر انفراده بالآلوهية والملك بعد وصفه بالرجة قد اقتضى أن يخالف من انفردوا بالملك من الخلق في أن هذا الانفراد وسيلة لسلب الرجة من قلوبهم ، فهم إذن غير منزهيين ولا طاهرين والله يخالف لهم ، فهو منزّه من كل ما لا يليق له ، ثم كيف يصريح بما فهم ضمناً مما تقدم بقوله [القدوس] (٤) و (٥) ثم أكد ذلك المعنى بقوله بعده [السلام المؤمن] وهو ذو السلامة من كل نقص وآفة ، وهذا مصدر وصف به للباقة ، وزاده تأكيداً بوصفه بأنه واهب الأمن ، فقد أمن الخلائق من ظلمه ، وقد أمن من آمن به من عذابه إذا كان مطيعاً بخلاف المنفرد بالملك من الناس ، فهم ليسوا منزهيين عن الظلم ، ولا ساملين من النقص ، ولا آمنة رعاياهم بوائقهم كما نرى ذلك في الأمم الأوروبية التي تحكم بعض بلاد الإسلام فهؤلاء المحكومون أبداً في فزع وجزع من ظلم هؤلاء وحقهم وشرهم ، ولكن هذه الأمم الإسلامية يجب أن تظلمن ، لأن الله رحمن رحيم ، ملك قدوس ، سلام مؤمن ، وإذا كان هو المتصرف في الخلق بالرجة فهو لم يسلط هؤلاء على المسلمين تشفياً وانتقاماً . كلا . ثم كلا . جلّ الله وجلّ الله ، ولكنه سلطهم على المسلمين حتى يستيقظوا من غفلتهم ، ويقوموا من رقدهم ، وهناك يخرج تلك الأمم من ديار الإسلام ، لأنه قدوس ، ولأنه سلام ، ولأنه مؤمن ، فالناس في أمان وريحهم منزّه عن الظلم ولكنه يلهم بعض عباده أن يؤذوا آخرين ليوقظهم هو بذلك الابداء ، كما أنه سبحانه يلهم الأسود والنمور والوحوش أن تنهجم قطعان الناس ، وتقتنص منها ما يكون به قوتها ، فتستفيد الأسود قوتها ، وتستفيد القطعان الاتحاد والوثام والمحبة ، لأن القطيع كله يجري حينئذ عند مهاجمة الأسود والنمور له ، وهناك لا يقتنص إلا واحدة من مائة أو ألف ، وهذه الواحدة تكون ضعيفة ولكن بقية أفراد القطيع يحتمى بعضها ببعض ، ويتدخل بعضها في بعض ، وهذا هو الاتحاد الذي لا يتم إلا بالمحبة ، وهذه المحبة يعيش القطيع بالسعادة والسلام ، فهذه الأمم الهاجعة على ديار الإسلام لن تبقى فيها إلا ريتما تستيقظ تلك الأمم ، ولن تأخذ منها إلا ما تأخذ الأسود من قطعان الماشية ، حفظها شعب بطونها ، ولكن حظ

الأُمّ المقهورة الإسلامية الاتحاد والوثام وانتشار العلم الذي يوجب توالى الضغط والظلم المنصب على هذه الأُمّ ،
إن الله قدوس وسلام ومؤمن .

(٦) وهو الرقيب الحافظ لكل شيء ، الشهيد على عباده بأعمالهم فلا يغيب عنه شيء ، والقائم على خلقه
برزقهم ، وذلك معنى اسمه [المهيمن] ، ويقال إنه مأخوذ من الأمن فهو [مؤمن] قلبت الهمزة هاء .
(٧) و (٨) و (٩) ثم أتبع ذلك بصفات العزة والغلبة ، فهو [العزيز] الغالب غير المغلوب [الجبار]
الذي جبر خلقه على ما أراد [المتكبر] الذي تكبر عن كل ما يوجب حاجة أو نقصا ، وهو البليغ الكبرياء
والعظمة ، وهذه الصفات المسبوقات بالرحمة والأمن وبالسلمة متممات لها ، وكيف تكون رحمة وأمن
وسلمة إلا بالاحتياط لها والأخذ بأسبابها ؟ وكيف يداوى الطبيب المريض إذا لم يقطع عضوه الفاسد حفظا
لسلامة جسمه ؟ فلا يبالي بألم المريض ولا أذنه ، لأن رحته بهذا المريض رحمة صادقة بخلاف رحمة الأم المشفقة
على ولدها أن يلاقى المصاعب ، فهي رحمة جاهلة ، فذكر الملك أولا والعزة والجبروت والكبرياء ثانيا ، وذكر
القدس والسلام والأمن والهيمنة فيما بين ذلك لإفادة أن الرحمة ليست كرحمة الأمهات ، بل يضرب لها المثل
برحمة الأب ورحمة الحكومات العادلة التي لا تبالي بالآلام القليلة في جانب المنافع الكثيرة ، ولذلك يقتلون
القاتل ، لأن الألم الناجم من قتله يختص بعشيرته ، ولكن المنافع نعم الأمة كلها لأنها تكون في أمان من
الظلم ، ويصبحون في سلام واطمئنان ، فالآلام القليلة إذا أدت إلى منافع كثيرة تكون خيرا لا شرا ، فاذلال
العرب للشرق الآن من الله عز وجل ، فهو سبوح قدوس ، منزّه عن العبث في أفعاله : أي أنه لم يسلط
هؤلاء على هؤلاء للاذلال أوللائتقام . كلا والله . وإنما هو سبحانه يريد اليسر ولا يريد العسر ، وإنما فعل
ذلك كما يفعل الطبيب بالمريض ، يؤلمه ساعة ويريمه عشرات السنين ، وليس هناك سبيل للطبيب في نفع
المريض غير ذلك ، هكذا الله عز وجل قد علم سبحانه أن هذه الأُمّ لا يرفعها إلا هذا الاذلال والاحراج
وتسليط الظالمين عليها ، وتكون فائدة الظالمين مادية حقيرة ، وفائدة المظلومين معنوية دائمة ، ثم هو بعد ذلك
قد يخفف هذه الأُمّ الظالمة ويرفع المظلومة : « وتلك الأيام نداولها بين الناس » ، ثم رجع إلى التنزيه
ثانيا يؤكد هذه المعاني فقال : [سبحانه الله عما يشركون] .

واعلم أن معاني الرحمة ومسامحة ، والكبرياء وما شاكلها ، تجتمع كلها في نظام هذه المخلوقات ، أليس من
العجب أن ترى العناصر التي تبلغ فوق الثمانين متضادة متنافرة ، فنها محرق كالاكسوجين والصودا والبوتاسا ،
ومنها مائس كذلك كالادروجين ، فهو غاز لا يورث احتراقا ، ولكنه هو قهرها وأذنها وصورها ، يخلق الماء
من الاكسوجين والادروجين ، وجعل القطن من مواد محرقة ، وأخرى غير محرقة كما تراه موهجاني ﴿ سورة
البقرة ﴾ عند آية الطير وإبراهيم ، أليس هذا معنى قوله بعد ذلك :

(١٠) و (١١) و (١٢) : [هو الله الخالق] المقتر للآشياء على مقتضى الحكمة [الباري] الموجد
لها بريثا من التفاوت [المصور] الموجد لصورها وكيفياتها كما أراد ، فهذه الصفات أفادت الأمرين معا : قهر
هذه العناصر واذلالها ، وقد خلع عنها ما لبست من صفاتها وألبسها لباسا آخر كما ترى ، أن الصودا والبوتاسا
في القطن قد عريت عن الاحراق وأصبحت ملبسا ، فهنا اجتمعت الكبرياء والعظمة والقهر مع الملك والسلامة
والأمان والهيمنة والرحمة . ومن أعجب العجب أن تصبح هذه المادة المتنافرة متوافدة متحاببة
ولم يكن ذلك إلا برحمة وأمان وسلام أولا ، وكبرياء وقهر ثانيا ، وهذا معنى قوله : « سبحانه الله عما يشركون »
ومعنى قوله في أول السورة : « سبح لله ما في السموات والأرض » وهذا هو قوله بعد ذلك : « له الأسماء
الحسنى » لأنها دالة على محاسن المعاني ، وختم ذلك بمجمل ما تنقسم كله ، بل بمجمل هذا الوجود ، فذكر أنه

يسبح له مافى السموات والأرض ، وأنه عزيز حكيم ، فالتسبيح راجع للتنزه عن قصود الشر ، والعزة راجعة لصفات القهر المتقدمة ، وباجتماعهما معا اتصف بأنه [حكيم] وحكمته ظاهرة واضحة عند الحكماء وحدهم وأولئك الذين يشهدون في صور الموجودات كالقواكه والأقوات والملابس عناصر متنافرات ، قهرها وذللها لتسلب صفات الشر عنها وتلبس خلق الخير ، فأما سلبها صفات الشر فذلك بصفات السلام والتهم والكبرياء والبطش والعلو والملك ، وأما إلباسها لباس النفع فذلك بصفات الرحمة والسلامة والأمان والهيمنة والقدس والتنزه .

واعلم أيها الذكي أن هذه المعاني جميعها ظاهرة واضحة لذوى البصائر في هذه الدنيا وهم أحياء يرونها بأعينهم في ملابسهم وما كانهم ومشاربهم ، فكأن الماء وهم يشربونه يخاطبهم قائلا : هاأنذا مصور مبروه مخلوق من عناصرين متنافرين ، فبالكبرياء والملك كان اجتماعي ، وبالرحمة والرأفة والسلامة والأمان كانت هذه المنافع المزجاة إليكم بشرى ، وهكذا يقول القطن للابس له لو كان يعقل ما لبس ، أو يفهم لغة الجادات الناطقات المتكلمات لذوى البصائر لا الجاهلين الغافلين إذ يقول :

أيها الانسان : أنت تلبسني ولا تعلم أنى مكون من عناصر بعضها نيران محرقة ، ولكن هذه النار أصبحت بردا وسلاما عليك وعلى الناس أجمعين كما كانت النار بردا وسلاما على إبراهيم .

أيها الانسان : إنك لجهلك وقلة عقلك وغفلتك وقف علةك عند إبراهيم وناره ، وظننت أن آيات الله خاصة بخوارق العادات . كلا . ثم كلا . إن آيات الله تحيط بك من كل جانب ، وهاأنذا أحيط بجسمك ، وأقربك حر الشمس ، وأنا نفسى منك من مواد بعضها محرقة ولم أحترق أنا ولم أحرقك ، فالجنان تحيط بك أيها الانسان وأنت لا تشعر بما هو ظاهر واضح لك : « قتل الانسان ما أكفره » . « إنه كان ظلوما جهولا » .

هذه لغة الماء ولغة القطن ، ومثلها لغة الذرة والقمح ، وكل ما تراهم يحيط بك ، تذهب إلى حقل الذرة فيجبك رونقه ، ولكن ذلك بالنظر الظاهري ، أما هو فانه يخاطبك بلسان حاله الذى هو أفصح من لسان المقال ، ويدكر بك بما فيه من العناصر المذكورة في (سورة البقرة) فارجم اليها ، وربك أن الكبريت الذى يستوقد الناس النار به هو نفسه داخل في ضمن الذرة ، ويقول لك :

أيها الانسان : أنت تأكل المحرق لجسمك وهو الكبريت الداخل ضمن أجزائى ، ولكنك لا تحترق وأنا لا أحترق به ، فأنا معجزة ماثلة أمامك ، الجاهل لا يعرف من آيات الله في هذا المقام إلا نار إبراهيم ، والحكيم العالم يشاهد ابداع الله في المشاهدات أمامه والله يقول اسمك يا بنى آدم : « وما نرسل بالآيات إلا تخويفا » . فالجاهلون لا يعرفون إلا خوارق العادات ، والحكماء يرون هذه المعاني تحيط بهم فلا يعوزهم خوارق العادات .

محاورات بينى وبين أحد الأصدقاء

اطلع على هذا بعض الأصدقاء الأعزاء العلماء ، فقال : إن ما تقدم كله حسن ، ولكننى الآن أريد أن أفهم معنى كون أسماء الله حسنى وأفهم هذا الحسن بالمشاهدة والعيان تفصيلا ؟ ، وأما هذا فما هو إلا إجمال ، وأريد أن أقص عليك ما ذكره الغزالي في كتابه الذى جعله شرحا لأسماء الله الحسنى ، وبعد أن أتم مقالة أود أن تربى هذا الحسن عيانا ؟ لأن الله يقول : « سنبهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم » وأنت طالما قلت لنا ان هذا هو الزمان الذى يرى الله الناس فيه الآيات ؟ فقلت : أنا لا أمتنع أن تذكر مقالة الامام الغزالي فى هذا المقام ، وأنا ان شاء الله أريك هذه المعاني عيانا ومشاهدة لتتال اليقين والسعادة فى الحياة الدنيا قبل

الموت ، وأسأل الله أن يلهمنا جميعا الخير ، فذلك إذن [فصلان : الفصل الأول] ما قاله الامام الغزالي في معنى هذه الأسماء [الفصل الثاني] في عجائب ومحاسن أسماء الله الحسنى في العوالم المشاهدات :

الفصل الأول في معاني هذه الأسماء

من كلام الغزالي رحمه الله تعالى

فقلت : أسمعني ما قاله الغزالي رحمه الله في معاني هذه الأسماء . فقال : [الرحمن الرحيم] هما اسمان مشتقان من الرحمة ، وملخص المعنى الذى قاله : أن الرحمة لا تكون تامة إلا اذا شملت المستحق وغيره ، وشملت الضروريات والحاجيات والكاليات والدنيا والآخرة ، والرحيم من الناس عادة يحسن بألم في نفسه من رفته على المرحوم ، وهذا الألم مستحيل في جانب الله ، فتكون الرحمة أتم ، لأن رحمتنا فيها إزالة الألم عن أنفسنا ، وليست كذلك رحمة الله ، والرحمن أخص من الرحيم ، ولذلك لا يسمى به غير الله ، فهو جار مجرى العلم ، فالرحمن للسعادة الآخوية ، وهذه الرحمة خاصة بالله :

(١) هو عطوف على العباد بالايحاد .

(٢) والهداية إلى الإيمان وأسباب السعادة .

(٣) والاسعاد في الآخرة .

(٤) والانعام بالنظر إلى وجهه الكريم .

وحظ العبد من اسم الرحمن أن يرحم العبد الغافل فيعظه باللطف ، وأن ينظر إلى العصاة بعين الرحمة ، وأن تكون معاصي الناس كأنها معاصيه ، فيسبى في إزالتها .

وحظ العبد من اسم [الرحيم] أن يسبى في إزالة فاقة كل محتاج ، فان عجز فبالدعاء واطهار الخزن اه [الملك] هو الذى يستغنى في ذاته وصفاته وأفعاله وبقائه عن كل ماسواه ، ويستمد سواه الوجود وسائر الصفات منه ، والعبد لا يتصور أن يكون ملكا مطلقا بهذا المعنى ، فهو لا يستغنى عن كل شيء ، بل هو مفقر أبدا ، ولما كان يملك شيئا ويفقر إلى شيء ، كان له شوب في الملك ، وأعظم ملك في العباد هو المستغنى عن كل ماسوى الله ، وقد أطاعته رعيته الخاصة به قلبه واسانه وقالبه وجنده وشهوته وغضبه وهواه وسائر أعضائه وقواه ، فاذا ملكها ولم تملكه واستغنى عن الناس واحتاج الناس إليه في حياتهم العاجلة والآجلة فهو الملك في العالم الأرضي ، وهذه رتبة الأنبياء ، ويلهم العلماء ، وملكهم على قدر ارشادهم واستغنائهم عن الاسترشاد ، وبهذه الصفات يقرب العبد من الملائكة ، وهذا الملك عطية من الحق .

أوصى بعض العارفين تلميذه فقال : « كن ملكا في الدنيا تكن ملكا في الآخرة » ، ومعناه اقطع طمعك وشهوتك عن الدنيا فان الملك في الحرية والاستغناء .

[القدوس] الله قدوس أى منزّه عن كل صفة من صفات العباد الكاملة كالقدرة والعلم الخ فضلا عن نوانصها وقدرته ، وجميع صفات الكمال فيه ما كان ينبغى أن يعبر عنها بالألفاظ التى تدل على ما يظنه الخلق كالا فيهم ، ولولا أن الرخصة وردت في الشرع باطلاق ذلك لم يجز ، إن الناس نظروا في أنفسهم فوجدوا نقضا وكالا ، فنفوا عنه النقص وأثبتوا الكمال ولكن الله فوق كمالهم فضلا عن نقصهم .

[تنبيه] حظ العبد من هذا الاسم أن يكون علمه متعلقا بما هو دائم فيكون منزلها عن كل ما يشارك فيه البهائم من كل محسوس ومتخيل وكل متغير بحيث لو سلب آلة العلم بقي العلم في نفسه ، وهكذا تكون ارادته قدسية : أى أنه لا يلاحظ في نفسه إلا لقاء الله والفرح بقربه ولا يكتفى بالجنة ونعيمها ، وبالجنة جميع الادراك الحسية والخيالية يشارك الانسان فيها البهائم فيتعالى عنها في الدنيا والآخرة ، ومن لم تكن منه

إلا في الله قدرته على قدرته ، وبالجملة من رقى علمه عن درجة المحسوسات والتخييلات وقدس إرادته عن مقتضى الشهوات فقد نزل بحجوة حظيرة القدس . هذا ملخص كلامه رحمه الله .

أقول : وإياك أيها الذكر أن تظن أن هذا ينافي ما كتبناه في هذا التفسير ، بل هو عينه ، وحب الله وحب لقائه لن يتم لا مسمى في هذه الحياة الدنيا إلا بأمر واحد ، وهو عشق العلم والغرام بالطبيعة ودرسها درسا مدققا ، وكتابنا هذا كاف لنيل هذه الدرجة وفتح باب المزيد منها .

[السلام] هو الذي تسلم ذاته عن العيب ، وصفاته عن النقص ، وأفعاله عن الشر . أقول : وقد تقدم في هذا التفسير براهين كثيرة على أنه لا شر في هذا العالم إلا وقد جعل مقدمة خير ، حتى أن الموت مقدمة لصفاء الروح وخروجها من سجنها ، وحظ العبد من هذا الاسم أن يسلم قلبه من الخلق والغش وإرادة الشر ، وأن تسلم جوارحه من الآثام والمحظورات ، ومثل هذا العبد يأتي الله بقلب سليم ، فهذا العبد سلام قريب من السلام المطلق الحق ، ولا سلام لمن أصبح عقله أسير شهواته .

[المؤمن] هو الذي يعزى إليه الأمن والأمان بفادته أسبابه ، وسدته طرق المخاوف ، والمؤمن المطلق هو الذي يستمد منه كل أمن وأمان ، وجميع حواس الإنسان تعطيه من الأمن ما يلائمها كالمؤمن تبصر العدو فتتحاشاه ، واليد تبطش به فيكون الأمان من شره ، فالمؤمن هو الذي خلقها ، ولا جرم أن الإنسان في أصل فطرته ضعيف ، وهذه الجنود من العقل والجوارح قوة له بها يتعاطى الطعام والشراب ، ويدافع الأعداء فذلك كله من صنع المؤمن ، ومن جنود الأمن والأمان الدين والعقائد ، والآراء الشريفة التي تجعل الإنسان في أمان في الدنيا والآخرة ، وحظ العبد من هذا الاسم أن يأمن الناس شره ، وأن يكون عضدا لكل خائف ، وأحق الناس بشرف هذا الوصف من يكون سببا في أمان الناس من عذاب الآخرة بتعليمهم وتقويمهم ، وأفضل الناس في ذلك الأنبياء ، وليس وصف الله بأنه مؤمن بمنازع أن يكون الله مخوفا ، فإنه منه الأمن وأسبابه ، ومنه الخوف وأسبابه ، كما أنه معز ومذل ، وخافض ورافع ، ولا يمنع أحد الوصفين الآخر ، وقد ورد التوقيف بالمؤمن ولم يرد بأنه مخوف .

[المهيمن] أي القائم على خلقه بأعمالهم وأرزاقهم وآجالهم ، فهو مطاع ومستول عليهم وحافظ ، وكل من هو مشرف كنه الأمر مستول عليه حافظ له ، فهو مهيم عليه ، والاشراف يرجع إلى العلم ، والاستيلاء إلى كمال القدرة ، والحفظ إلى الفعل ، فالجامع لهذه المعاني اسمه المهيمن ، وهل يحجمها على سبيل الإطلاق إلا الله ، وحظ العبد من هذا الاسم أن يهيمن أو يشرف على أغوار أسرارها ، ويستولى على تقويم أحواله وأوصافه ، ويحفظها على الدوام ، فذلك مهيم على قلبه ، فإن أشرف على عباد الله بتعرف بواطنهم بالاستدلال بطواهرهم والتفريغ فيها كان نصيبه من هذا المعنى أوفر وحظه أتم .

[العزيز] هو الخطير الذي يقل وجود مثله ، وتشتد الحاجة إليه ، ويصعب الوصول إليه ، فهذه أربعة معان إن لم تجتمع في الموصوف لا يسمى عزيزا ، فالأرض والشمس فعهما عظيم ولا نظير لهما (بحسب الظاهر عند أهل الأرض والأفكم من شمس وأرضين كما تقدم) والحاجة مشتدة إليهما ، ولكن نحن نشاهدهما فلم يصعب الوصول إليهما ، فأين العزة إذن ؟ وحظ العبد من هذا الاسم أن يحتاج إليه العباد في أهم أمورهم في الحياة الدنيا والآخرة ، والأنبياء أولى بهذه الصفة ، ويقرب منهم الخلفاء الراشدون والعلماء الخ .

[الجبار] هو من تنفذ مشيئته في كل أحد على سبيل الاجبار ، ولا تنفذ فيه مشيئة أحد ، ولا يخرج عن قبضته أحد ، وتقصر الأيدي دون حى حضرته ، والجبار من العباد من ارتفع عن الاتباع ونال درجة الاستتباع بحيث يجبر الخلق بهيئته وصورته على الاقتداء به ومتابعته في سمعته وسيرته فيفيد الخلق ولا يتفقد ولا يشاهده

أحد إلا ويغنى عن ملاحظة نفسه ويصير متشوقاً إليه غير ملتفت إلى ذاته ، ولا يطمع أحد في استدراجه ، وهذه صفة الأنبياء لاسيما خاتمهم صلى الله عليه وسلم .

[التكبر] هو الذى يرى الكل بالنسبة حقيراً بالإضافة إلى ذاته ، ولا يرى العظمة والكبرياء إلا لنفسه ، وذلك هو الله ، والمتكبر من العباد على هذا المنوال تكبره باطل ، والمتكبر من العباد هو الزاهد العارف فينزه سره عما يشغله من الخلق ، ويتكبر على كل شيء سوى الحق فيحقر الدنيا والآخرة جميعاً بحيث لا يشغلانه عن الحق تعالى .

أقول : وأنت أيها الذكيّ خير أن عجائب العوالم تحصل في النفس قرباً لمبدعها ، وإرشاد الخلق واتخاذ الأمم من ضعفها ، كل هذا لم يخرج عن كونه مقرّباً لله تعالى .

[الخالق البارئ المصور] : فالأول راجع للتقدير ، والثاني للإيجاد ، والثالث للتصوير ، إن المهندس يشكر في نظام المنزل ، فهو له مقدر ، يقدر ما لا بد منه من الخشب واللبن والمساحة الخ ، ثم يكون البناء ، ثم يكون الذى ينقش ظاهره ، وهذه بالترتيب : « الخالق البارئ المصور » ولكن الله هو الذى يتولى هذه الأفعال الثلاثة بنفسه .

أقول : ومن نعم الله عز وجل أن هذا التفسير من قرأ أكثر ما فيه أومقداراً كبيراً منه أدرك بحقّ وصدق ويقين عجائب اسمه تعالى المصور ، فإنه يرى الاتقان في كل صغير وكبير كالعين والأذن وتركيبهما وبدائع النظم في أعالي العوالم وأسافلها ، ولقد أطل في ذلك الامام الغزالي ، ولكن زماننا والحمد لله زمان هذه العلوم فذلك فليفرح المسلمون ، فبشرى لهم بنابغين سيظهرون في بلاد الاسلام ، يزرعون ما بذرنا في الأفتدة ، وسيكونون حقا خيرة أمة أخرجت للناس . وحظ العبد من اسمه تعالى المصور أن يحصل في نفسه صورة الوجود كله على هيئته حتى يحيط بالعالم علويه وسفليه من المجرات والشموس والسدم .

أقول : ومن قرأ أكثر هذا التفسير فقد نال هذه الأمانة إن كان من الأذكياء العاشقين للعالم ، وهكذا يشرف على صورة الانسان من حيث بدنه وأعضاؤه الجسدية ، فيعلم فصلها بالشرع وترتيب أجزائها ، وعددها والحكمة في خلقها ، ثم يشرف على صفات الانسان المعنوية ومعانيه الشريفة التى بها إدراكه وإراداته ، وكذلك يعرف صور الحيوانات والنباتات ظاهراً وباطناً بقدر وسعه حتى يحصل نفس الجميع وصورته في قلبه ومعرفة الامور الجسدية صورة مصغرة للامور الروحية ، وههنا يدخل في عالم اللائكة وهم المتصرفون في عالم السموات والأرضين ، وهم الملهمون بأمر الله لكل انسان وحيوان ، فخط العبد من هذا الاسم اكتساب الصور العلمية المطابقة للصورة الوجودية ، فان العلم صورة في النفس مطابقة لصورة المعلوم ، وهذا في الحادث أما علم الله بالصور فهو سبب في وجود الصور في الأعيان ، هذا كله في الاسم [المصور] .

أما الخالق والبارئ فليس للعبد حظ فيهما إلا بطريق المجاز ، إن للعبد علماً وقدرة ، وهذان لا ارتباط لهما بالتأثير في عوالم السموات والأرضين ، نعم للانسان أعمال كالصناعات والسياسات والعبادات والمجاهدات ، فاذا هذب العبد نفسه وساسها وانفرد بأمور لم يسبق لها نظير كصنع الطائرات والراديو في زماننا ، فان المخترع يطلق عليه هذا الاسم مجازاً فيقال خالق وبارئ ، فهذا في حق الله حقيقة وفي حق العبد مجاز بخلاف الصبور الشكور ، فهما في حق العبد حقيقة ، وفي حق الله مجاز . وينبغى أن تلاحظ أيها الذكيّ مع المشاركة في الاسم التفاوت بين المقامين .

هذا ملخص ما كتبه الامام الغزالي مع تغيير يسير كضرب الأمثلة ، فهو قد مثل للمخترعين بالشرطيخ ، وأنا أمثل الآن بما لاحصر له من الأمثلة ، ومن أعجب العجب أن يكون دين الاسلام هذا مقامه ، وأن يكون

المسلم باختراعه قريبا من ربه ، والمسلمون نيام كأنهم لم يقرءوا كلام علماءهم فتناموا ففقر العلم والاختراع إلى بلاد أوروبا ، وانتقل إلى أمريكا والشرق الأقصى ، أما بلاد الاسلام فلا ، وأنا أنذر أئمة الاسلام قاطبة صاعقة العذاب الهون بما كانوا يجهلون .

اللهم لك المشتكى ، أمة تكون أسماؤك أنفسها أعينها نبراسا لهدايتهم للاختراع ، والاختراع بقرتهم من من حضرته العلية وهم لا يعلمون ، ولا يدرسون إلا القشور .
اللهم إني أبرأ إليك من السكتان ، وهاتان إذ أنشر لهما ما فتحت به عليّ وألهمتني حتى ألقاك ، وقد فعلت ما قدرت عليه ، ولا تؤاخذني بتقصيري فاني وعزتك قد نشرت مع اعانتك لي بقدر امكاني ، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، وهو أرحم الراحمين . انتهى الكلام على الفصل الأول ، والحمد لله رب العالمين .

الفصل الثاني

في تبيان محاسن أسماء الله الحسنى بالمعانية والمجاهدة

مصدقا لقوله تعالى : « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها » وقوله : « إن علينا للهدى »

وقوله : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق »

هنالك ابتدأ صاحبي يسألني قائلا : ما معنى كون أسماء الله حسنى ؟ أمحاسنها في ألفاظها أم في معانيها ؟ أم في الآثار المنطبقة على معانيها ؟ وأنا أذكر أنه ورد في بعض الآثار أن من أحصى أسماء الله الحسنى عددا دخل الجنة ، ورأيت للعلماء أقوالا في ذلك ، فمن قائل من حفظها ، ومن قائل من فهم معناها ، ومن قائل من تخلق بها ، وأنا لا أدري ماهو الحق من ذلك ، وأيضا هاهوذا الامام الغزالي يضرب أمثالا في تفسيره لهذه الأسماء بذكر أعضاء الخلقة وتركيبها ، وتركيب العين وعجائب طبقاتها وهكذا مما تقدم شرحه ، فهاتان إذ أريد أن أرى بعين البصر بعض هذه العجائب على شريطة أن تكون داخلية تحت أسماء الله الحسنى دخولا حقيقيا ؟ فقلت : يا صاح : أنا أجيبك بعون الله في المقامين [المقام الأول] في تبيان ماهو الحق من هذه الأقوال [المقام الثاني] في تبيان محاسن الأسماء الحسنى بالعيان والمجاهدة .

المقام الأول في تبيان ماهو الحق من هذه الأقوال

اعلم أيها الأخ الذكي أن هذه الأقوال لم تسكن في أمة الاسلام سدى ، فالقول الأول يناسب الأطفال ليحفظوا هذه الأسماء ، وهذا يناسب عقولهم لأنهم لا يعقلون المعاني ، والقول الثاني يلقى إلى الطفل متى عقل فيقال له : إن الجنة ودخلها لن تكون بمجرد اللفظ ، لأن اللفظ يراد به المعنى ، ومتى زاد تعقلا يقال له : أيها الفتى : أنت فهمت المعنى ، وعرفت أن الله رحيم وقُدوس الخ فاقرا القرآن وادرس العلوم تجد في الأول محرمات فاجتنبها ، وواجبات فقم بها ، تبرا من العيوب الانسانية ، وتتجلى بالصفات الملكية ، فلا بد لك من علم وعمل ، ثم اذا ازداد تعقلا يقال له : أيها الانسان : لاسعادة في هذه الحياة إلا بالتوقف على الحقائق ، ولن يقف الانسان على الحقائق وقلبه مغمم بالذائل ، فذا صفت نفسه قيات الحكمة والعلم ، وظهرت له نفس هذه الدنيا بصورة بهجة جيلة ، وكأنها جنات ، يحس بها والناس لا يعلمون ، ويكون ذلك مقدمات للجنات الحقيقية ، والسعادة الأبدية ، بمشاهدة صانع هذه العوالم بعد الموت ، ولن يطمع امرؤ عدم عشق هذه العجائب في الدنيا في أن يرى ربه إلا من وراء حجاب ، وعلى مقدار حجاب المسدول عليه في هذه الحياة الدنيا يسدل عليه الحجاب يوم القيامة وبعد الموت ، لأنه لادرجة هناك مستألفة ، فالحياة الدنيا هي أس

السعادة ونس الشقاء ، وهنالك يشاق العاقل إلى أن يسمع :

المقام الثاني من الفصل الثاني

فقال صديق : أريد أن تذكر لي بالمشاهدة معنى [اللطيف ، والنور الهادي] فاني رأيت في شرح الغزالي في معنى اللطيف أنه هو العالم بدقائق المصالح وغوامضها ، وما دق منها والطاق ، ثم يسلك في ايصالها إلى المستحق سبيل الرفق دون العنف ، فإذا اجتمع الرفق في الفعل والطاق في العلم ثم معنى اللطف ، ولا يتصور كمال ذلك في العلم والفعل إلا لله تعالى ، فأما إحاطته بال دقائق والخفايا ، فلا يمكن تفصيل ذلك ، بل الخفي مكشوف في علمه كالجلي من غير فرق ، وأما رفته في الأفعال ولطفه فيها فلا يدخل أيضا تحت الحصر ، إذ لا يعرف اللطف في الفعل إلا من عرف تفاصيل أفعاله ، وعرف دقائق الرفق فيها ، وبقدرة اتساع المعرفة فيها تنسع المعرفة بمعنى اسم اللطيف ، وشرح ذلك يستدعي تطويلا ، ثم لا يتصور أن يبي بعشر عشره مجندات كبيرة ، وإنما يمكن التنبيه على بعض جله ، فمن لطفه خلقه الجن في بطن الأم في ظلمات ثلاث وحفظه فيها وتغذيته بواسطة السرة إلى أن ينفصل فيستقل بالتناول بالقم ، ثم إلهامه إياه عند الانفصال التمام الشدي وامتصاصه ولو في ظلام الليل من غير تعنيم . ومشاهدة ، بل فلق البيضة عن الفرج ، وقد ألهمه التقاط الحب في الحال ، ثم تأخير خلق السن عن أول الخلقة إلى وقت الحاجة للاستغناء في الاغتذاء باللبن عن السق ، ثم انبائه السن بعد ذلك عند الحاجة إلى طحن الطعام ، ثم تقسيم الأسنان إلى عريضة للطحن ، وإلى أنياب لكسر ، وإلى ثنايا حادة الأطراف للقطع ، ثم استعمال اللسان الذي الغرض الأظهر منه النطق في رد الطعام إلى المطحن كالجرفة ، ولو ذكر لطفه في تيسير اقامة يتناولها العبد من غير كلفة يتجشمها ، وقد تعاون على إصلاحها خلق لا يحصى عددهم من مصلح الأرض وزارعها ، وساقيا وحاصدها ، ومنقيا وطاحنها ، وعاجنها وخازنها ، إلى غير ذلك لكان لا يستوفي شرحه . وعلى الجلة فهو من حيث دبر الامور حكم ، ومن حيث أوجدتها جواد ، ومن حيث ربها مصور ، ومن حيث وضع كل شيء في موضعه عدل ، ومن حيث لم يترك فيها دقائق وجوه الرفق لطيف ، ولن يعرف حقيقة هذه الأسامي من لم يعرف حقيقة هذه الأفعال ، ومن لطفه بعباده أنه أعطاهم فوق الكفاية وكافهم دون الطاقة ، ومن لطفه أنه يسر لهم الوصول إلى سعادة الأبد بسعى خفيف في مدة قصيرة ، وهي العمر ، فانه لانسبة لها بالاضافة إلى الأبد ، ومن لطفه اخراج اللبن الصافي من بين الفرت والدم واخراج الجواهر النفيسة من الأحجار الصلبة ، واخراج العسل من النحل ، والابرسم من البرد ، والدر من الصدف . وأعجب من ذلك كله خلقه الانسان من النطفة القدرة ، وجعله مستودعا لمعرفته ، وحاملا لأمانته ، ومشاهدا للمكوت سمواته . وهذا أيضا رفق لا يمكن احصاؤه .

[تنبيه] حظ العبد من هذا الوصف الرفق بعباد الله تعالى والتلطف بهم في الدعوة إلى الله ، والهداية إلى سعادة الآخرة من غير ازدراء وعنف ، ومن غير خصام وتعصب ، وأحسن رجوه اللطف فيه الجذب إلى قبول الحق بالشمالك والسيرة المرضية ، والأعمال الصالحة ، فانها أوقع وأطف من الألفاظ المزينة اه

وقال في معنى [النور الهادي] مانصه : « النور هو المظهر الذي به كل ظهور ، فان المظهر في نفسه المظهر لغيره يسمى نورا ، ومهما قوبل الوجود بالعدم كان المظهر لا محالة للوجود ، ولا ظلام أظلم من العدم ، فالبرى عن ظلمة العدم ، بل عن امكان العدم والمخرج كل الأشياء من ظلمة العدم الى ظهور الوجود جدير بأن يسمى نورا ، والوجود نور فائض على الأشياء كلها من نور ذاته ، فهو نور السموات والأرض ، وكما أنه لازمة من نور الشمس إلا وهي دالة على وجود الشمس المنورة ، فلا ذرة من موجودات السموات والأرض

وما بينهما إلا وهي بجواز وجودها دالة على وجوب وجود موجدتها ، وما ذكرناه في معنى الظاهر يفهمك معنى النور ويفنيك عن التعسف المذكورة في معناه .

[الهادي] هو الذي هدى خواص عباده أولا إلى معرفة ذاته حتى استشهدوا بها على معرفة مخلوقاته وهدى عوام عباده إلى مخلوقاته حتى استشهدوا بها على ذاته ، وهدى كل مخلوق إلى مآلبد منه في قضاء حاجاته ، فهدى الطفل إلى التقام الثدي عند انفصاله ، والفرخ إلى التقاط الحب وقت خروجه ، والنحل إلى بناء بيته على شكل التسديس لكونه أوفق الأشكال لبدنه ، وأحواها وأبعدها عن أن يتخللها فرج ضائعة وشرح ذلك عما يطول ، وعنه عبر قوله تعالى : « الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » ، وقوله تعالى : « والذي قدر فهمدى » والهداية من العباد الأنبياء والعلماء الذين أرشدوا الخلق إلى السعادة الأخروية ، وهدوهم إلى صراط الله المستقيم ، بل الله الهادي لهم على أنفسهم ، وهم مسخرون تحت قدرته وتديره . اهـ

هذا ما قاله الامام الغزالي ، وأنا أريد أن أشاهد هذه الأمور عيانا : أى أشاهد هدايته لمخلوقاته بالصور المشاهدة ، وكيف كان لطفه بهم مشاهدة أيضا ؟ فقلت بإصاح : إن هذا التفسير مفعم بهذه العجائب ، فارجع إلى ﴿ سورة البقرة ﴾ في الطبعة الثانية ، ففيها عجائب كثيرة مثل تدرجه في خلقه طبقا عن طبق ، فتراه هناك مصورا بالتصوير الشمسي عند آية الطير وإبراهيم ، والعزير وحماره ، وهكذا في سور كثيرة . فقال نعم ولكني أريد الآن أمرا آخر ، وهو التلطف في هداية الناس في الأرض ، وكيف يتوصلون إلى أعظم الامور بأصاغرها ؟ فقلت : ذلك هو علم الهندسة والحساب والجبر والفلك والطبيعة ، فن درس هذه العلوم أدرك ذلك اللطف والهداية والنور ، فإذا كان ذا بصيرة فانه يعرف أنه قد ارتقى في الهندسة من الخط والزواية والمثلث والمربع إلى الكرات والمكعبات ودراسة الكواكب في السموات ، ذلك مدون في كتب جميع الأمم غاية الأمر أن أكثر هذا النوع الانساني يدرسون ويفهمون ولكنهم لا يعقلون أن هذا لطف بهم وهداية بل يعشون ويموتون وكأنهم لا يدرسون ولا يعلمون .

فقال نعم ، هذا حسن ، ولكن الأحسن منه أن ترين مثلا واحدا كما وعدت في أول المقال ؟ فقلت : الآن أحدثك حديثا جيلا ، ولكن هذا الحديث سأحدثك به إن شاء الله في ﴿ سورة الملك ﴾ عند آية « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح » الخ فارتقب ذلك هناك ، إن هذه العلوم السماوية والأضواء كلها مرتبطات بأسماء الله ، وهل الأسماء إلا دالة على الصفات ، وهذه الآثار دالات على الصفات ، وهكذا ستشاهد عجائب النبات والأزهار في ﴿ سورة النبأ ﴾ في المجلد الخامس والعشرين من هذا التفسير .

هذا هو نهاية الكلام على قوله تعالى : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ، هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون ، هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » وبهذا تم تفسير سورة الحشر ، والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة الممتحنة

هي مدنية

آياتها ١٣ - نزلت بعد الأحزاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ ءَوِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتٍ تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ * إِنْ يَشَقُّوْكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمُ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ * إِنْ تَنَفَّعْتُمْ أَرْحَامَكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ * رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَآخِرُ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةَ وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ *

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مِهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُنَّ مَا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَسْئَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلَيْسَ لَكُمْ أَنْفَقُوا ذَلِكَكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ * يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعُنَكَ عَلَى أَنْ لَا يَشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْنَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَفْسُوْا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَفْسُ الْكُفَّارُ مِنَ أَصْحَابِ الْقُبُورِ *

هذه السورة فيها مسئلتان

- الأولى ألا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء فيفشون إليهم أسرار المسلمين .
- الثانية مسئلة المؤمنات المهاجرات وامتحانهن ونحو ذلك .

مقدمة

قال المفسرون : ان سارة التي كانت مغنية وناتجة بمكة أنت المدينة تشكو الحاجة ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى عبد المطالب أن يعطوها ما تحتاج إليه ، فأعطوها نفقة وكسوة ، وحاجوها ، فجاء لها حاطب ابن أبي بلتعة ، وكتب معها كتابا إلى أهل مكة ، وأعطها عشرة دنانير ، وكساها ، وهذا نصه : « من حاطب ابن أبي بلتعة إلى أهل مكة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريدكم نفذوا حذركم ، فأخبره جبريل ، فبعث صلى الله عليه وسلم عليا وعمارا وعمر وطلحة والزبير والمقداد وأبا مرثد ، وكانوا فرسانا ، وقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فان بها ظعينة معها كتاب من حاطب إلى أهل مكة نفذوه منها واخلوها ، فان أبت فاضربوا عنقه فادركوها فجحدت وحلفت ، فهموا بالرجوع ، فقال علي : والله ما كذبنا ، ولا كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسل سيفه ، وقال لها : أخرجي الكتاب أو نضحي رأسك ، فأخرجته من عقاص شعرها ، فاستحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطبا ، وقال : ما حالك عليه ؟ فقال يا رسول الله ما كفرت منذ أسلمت ، ولا غشيتك منذ نصحتك ، ولا أحببتهم منذ فارقتهم ، ولكني كنت امرأ مصلقا في قريش ، ولم أكن من انفسها ، وكل من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون أهلهم وأموالهم غيري نفثت على أهلي فأردت أن اتخذ عندهم يدا ، وقد علمت أن الله ينزل عليهم بأسه ، وأن كتابي لا يغني عنهم شيئا ، فصدقه وقبل عنده ، فقال عمر : يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق ، فقال صلى الله عليه وسلم : وما يدريك

يا عمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال لهم اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ، ففاضت عينا عمر رضى الله عنه ، فترل :

بسم الله الرحمن الرحيم

(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تنقون إليهم بالمودة) تفضون إليهم المودة بالكاتبة ، والباء زائدة ، أو تلقون إليهم أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم بسبب مودتكم لهم (وقد كفروا بما جاءكم من الحق) الجملة حالية (يخرجون الرسول وأياكم) من مكة (أن تؤمنوا بالله ربكم) أى لأن آمنتكم : أى يفعلون ذلك لأجل إيمانكم بالله الخ (ان كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى وابتغاء مرضاتى) فلا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء ، وأبدل من قوله « تلقون » قوله تعالى (تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم) أى منكم (ومن يفعله منكم) أى من يفعل الاتخاذ منكم (فقد ضل سواء السبيل) أخطأه (إن يتفقوكم) يظفروا بكم (يكونوا لكم أعداء) ولا ينفعكم إلقاء المودة إليهم (ويسلطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء) ما يسوءكم فيقتلون ويشتمون (وودوا لوتكفرون) أى وتحنوا كفركم : أى ارتدادكم فتكونون سواء ، والمقصود أن الاختلاف فى العقائد يجعل التناصح معدوما ، فلا تخاصمهم لأنهم لا يرجونكم إذا ظفروا بكم (لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم) أى قربانكم ولا ذرتكم الذين توالون المشركين لأجلهم (يوم القيامة يفصل بينكم) يفرق بينكم من شدة الهول (والله بما تعملون بصير) فيجازيكم عليه . والى هنا تم لأمر فى اتخاذ الأعداء أولياء ، فلم يبق إلا ما يقوى ذلك بالاعتداء بالأنبياء السابقين كما هى طريقة القرآن ، فلذلك قال (قد كانت لكم أسوة حسنة) قدوة ، وهى اسم لما يؤتى به (فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم) كظريف وظرفاء (وما نعبدون من دون الله كافرين) أى بدينكم أو بعبودكم (وبدأ بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده) فإذا تبرأ إبراهيم وأصحابه من قومهم فليتأسس حاطب والمؤمنون بهم ، فاسم أن تناسوا إبراهيم فى جميع أموره إلا فى الاستغفار لأبيه المشرك فلا تناسوا به ، فإن إبراهيم كان قد قال لأبيه « لأستغفرن لك » فلما تبين له أقامته على الكفر تبرأ منه ، وهذا قوله تعالى (إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء) وهذه الجملة ليست مقصودة بالاستثناء إنما المقصود به قوله لأبيه ، ثم أمر الله المؤمنين أن يقولوا تيمنا للوصية السابقة قبل الاستثناء (ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ، ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا) بأن تسلطهم علينا فيفتنونا بعذاب لا نتحملة ، أوفيطنوا أنهم على الحق ، أولا تعذبنا بأيديهم ، ولا بعذاب من عندك ، فيقولوا : لو كان هؤلاء على الحق ما أصابهم ذلك . وملخص ذلك أن الفتنة إما عذاب المؤمنين ، وإما ما يترتب عليه من ظن الكافرين أنهم على الحق لنصرتهم عليهم (واغفر لنا) ما فرط منا من مكائبة الكافرين (ربنا إنك أنت العزيز الحكيم) ومن هذه صفته فهو حقيق أن يحير من يتوكل عليه ، ويحجب داعيه ، ثم أكد ما تقدم من الناسى فقال (لقد كان لكم فىهم أسوة حسنة) اقتداء حسن ، ثم أبدل من « لكم » (لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول) أى يعرض عن الإيمان ويوال الكفار (فإن الله هو الغنى الجيد) أى الغنى عن خلقه الحمود المستحق الحمد من جميع خلقه ، ثم إن هذه الآيات جلت المسامحة أن يظهروا براهمهم من أقر بأنهم ، وعداوتهم لهم ، ولما كان ذلك شديدا عليهم أردفه بوعده قد تم فيما بعد فقال (عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير) على ذلك (والله غفور) لما فرط من موالائهم (رحيم) بالتوفيق فى المستقبل ، وقد فعل الله ذلك ويسر فتح مكة وأظفرهم الله عليهم ، فألم

قومهم وتم بينهم التحاب ، وعسى من الله وعد على عادات الملوك حيث يقولون : عسى أولهل ، والحناج لا يشك في تمام ذلك ، ومن تمام ذلك الوعد أنهم خالطوهم : وناكحوهم ، وتزوج النبي صلى الله عليه وسلم أم حبيبة بنت أبي سفيان ، ولان لهم أبو سفيان ، ثم أسلم أخيرا .

ثم أخذ الله سبحانه يبين من نهى المؤمنين عن موالاتهم : ومن لم ينهم عنها ، فمن ذلك أن خزاعة صالحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أليقاتلوه ولا يعينوا عليه أحدا ، فرخص الله في برهم ، ومن ذلك أن أسماء بنت أبي بكر قدمت أمها إلى المدينة بهدايا وهي مشركة ، فقالت أسماء : لأقبل منك هدية ولا تدخليني حتى أستاذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فأذن لها ، وفي هذين وأمثالهما قال الله تعالى (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرؤهم) أي لا ينهاكم الله عن برّ الذين لم يقاتلوكم في الدين الخ (وتقسطوا إليهم) وتعبدوا فيهم بالاحسان إليهم والبر (إن الله يحب المقسطين) العادلين (إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم) كمشركي مكة ، فانهم قسمان : قسم سمى في إخراجهم من مكة ، وقسم ساعدتهم على ذلك وأعانهم (ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون) لأنهم وضعوا الموالاة في غير أهلها ، وهنا أخذ يذكر القسم الثاني من السورة الذي ابتدئ بمسألة المؤمنين المهاجرات . وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما صالح أهل مكة بالحديبية اشترط سهيل بن عمرو [كما تقدم في سورة الفتح] أنه لا يأتيك منا أحد وإن كان على دينك إلا رددته إلينا وخليت بيننا وبينه ، فلا يأتيه أحد من الرجال إلارده ، وأولهم أبو جندل بن سهيل المذكور وهم جميعا مسلمون ثم جاءت مؤمنات مهاجرات منهن سبيعة بنت الحارث الأسدية وهي مسلمة ، فأقبل زوجها مسافر المخزومي طالبا لها ، ففزلت : (يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن) فاختبروهن بما يغلب على ظنكم وانظروا هل توافق قلوبهن ألسنتهن ، أم هن منافقات ؟ فكان صلى الله عليه وسلم يستحلف المرأة أنها ما خرجت من بغض زوج ، ولا رغبة عن أرض إلى أرض ، ولا حدث أحدثته ، ولا التماس دنيا ، وما خرجت إلا رغبة في الاسلام ، وحبا لله ورسوله ، فإذا حلفت على ذلك لم يردّها ، فاستحلف صلى الله عليه وسلم سبيعة حلفت فلم يردّها ، وأعطى زوجها مهرها وما أنفق عليها ، فتزوجها عمر بن الخطاب رضي الله عنه . وقوله (الله أعلم بأيمانهن) أي المطلع على ما في قلوبهن ، وإنما أتم تكتمون بالطواهر (فان علمتموهن مؤمنات) أي ان ظنتموهن ظنا غالبا بالخلف وظهور الأمارات (فلا ترجعهن إلى الكفار) أي إلى أزواجهن في الكفر ، وبين سببه في قوله (لهن حلّ لهم ولا هم يحلون لهن وآتوهن ما أنفقوا) مادفعوا من مهر إليهن (ولا جناح عليكم أن تنكحوهن) نفي عنهم الجناح في تزوج هؤلاء المهاجرات (إذا آتيتموهن أجورهن) مهورهن (ولا تمسكوا بعصم الكوافر) العصمة ما يعتصم به من عقد وسبب ، والكافرة مفردة الكوافر هي التي بقيت في دار الحرب ، أو التي لحقت بدار الحرب مرتدة فلا يكن بينكم وبينهن عصمة ، ولا علاقة زوجية ، فمن كانت له امرأة كافرة بمكة فلا تعد من أسائه ، لأن اختلاف الدارين قطع العصمة بينهما كما قاله ابن عباس (وأسألوا ما أنفقتم) من مهور أزواجكم اللاحقات بالكفار ممن تزوجهن منهم (وليسألوا ما أنفقوا) من مهور نسائهم المهاجرات ممن تزوجهن منكم (ذلكم حكم الله) أي جميع ما ذكر في هذه حكم الله . ثم استأنف فقال (يحكم بينكم والله عليم حكيم) يشرع ما تقتضيه الحكمة ، وليس في إبقاء النساء نقض للعهد ، لأنه روى عن عليّ أن سهيلا قال : لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته : أي بخلاف المرأة ، فردّ المهر إذن يكون مندوبا لا واجبا ، وقيل إن ردّ النساء واجب كالرجال ، إذن يكون ردّ المهر المذكور واجبا ، وهل الآية منسوخة أو هي غير منسوخة ؟ فلا ردّ المال على الأول وتردّه على الثاني إذا

شرطنا ذلك مع الكفار رآبان . ولما نزلت الآية المتقدمة أى المشركون أن يؤدوا مهر الكوافر فقال تعالى : (وان فاتكم) سبقكم وانفلت منكم (شئ من أزواجكم) أى أحد من أزواجكم (إلى الكفار فعاقبتهم) أى ظهرتم وكانت العاقبة لكم على الكفار بأن أصبتم الغنيمة منهم (فاتوا الذين ذهب أزواجهم مثل ما أنفقوا) فاعطوا المسلمين الذين ارتدت زوجاتهم بدار الحرب مهوور زوجاتهم من هذه الغنيمة (واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون) . ثم بين مبايعة النساء فقال : (يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبائعنك) الجملة حال (على ألا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن) ، وهو وأد البنات (ولا يأتين بيهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن) ذلك أن المرأة كانت تلتقط المولود فتقول لزوجها هو ولدى منك ، فالبهتان مجاز عن الولد إذ تلصقه بزوجها كذبا ، وذلك أن بطنها التى تحمل الولد فيه بين اليدين والفرج الذى هو محل الولادة بين الرجلين ، وقد بايعه صلى الله عليه وسلم نحو ٤٥٧ امرأة ، ولم يصافح امرأة منهن قط ، ومن بايعه هند ، فلما سمعت هذه الجملة من الآية قالت : إن البهتان للقيح ، وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق (ولا يصينك فى معروف) أى فى حسنة تأمرهن بها ، ومن كلام هند له صلى الله عليه وسلم لما قال : « على ألا يشركن بالله شيئا » والله انك لتأخذ علينا أمرا ما رأيناك أخذته على الرجال ! وكان قد بايع الرجال يومئذ على الاسلام والجهاد فقط ، ولما قال « ولا يسرقن » قالت هند : ان أباسفيان رجل شحيح وإنى أصبت من ماله هبات فلا أدري أيجل أم لا ؟ فقال أبوسفيان : ما أصبت من شئ فيها مضى فهو حلال ، فضحك صلى الله عليه وسلم وعرفها وقال لها : وانك لهند بنت عقبة ؟ قالت نعم ، فاعف عما سلف عفا الله عنك ، ولما قال « ولا يزنين » قالت هند : أوترى الحرمة ؟ ولما قال « ولا يقتلن أولادهن » قالت هند : ربيناهم صغارا وقتلنهم كبارا ، فأتم وهم أعلم ، وكان ابنها حنظلة بن أبى سفيان قد قتل يوم بدر ، فضحك عمر حتى استلقى ، وتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والباقي تقدم ، وجواب الشرط قوله (فبايعهن) على هذا (واستغفر لهن الله) عما مضى (إن الله غفور) لما ساف (رحيم) بالتوفيق فى المستقبل ، وهذه البيعة كانت بعد فتح مكة بعد أن فرغ من بيعه الرجال ، وقد كان صلى الله عليه وسلم على الصفا وعمر قاعد أسفل منه يبايعهن عنه بأمره ، ويبلغهن عنه ، وكانت هند متقنعة متكررة خوفا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يعرفها لما صنعت بحمزة (يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم) وهم اليهود ، إذ كان بعض الفقراء من المسلمين يوالونهم ليصيبوا من ثمارهم (قد يشوا من الآخرة) أى من حظهم فيها ، لعلهم بأنهم خالفوا ما فى التوراة التى فيها وصف النبي صلى الله عليه وسلم ، فعاندوه وقاوموه ، فهم يأتسون من ذلك الحظ كيأس الكفار من رجوع من ماتوا ودفنوا فى القبور منهم ، وهذا قوله (كما يئس الكفار من أصحاب القبور) انتهى التفسير اللفظى للسورة كلها ، والحمد لله رب العالمين .

خاتمة تفسير هذه السورة

اعلم أن هذه السورة مناسبة لما قبلها من حيث أن السورة المتقدمة فيها ذم المنافقين الذين حرضوا اليهود على القتال ، وذم اليهود الذين يظنون جميعا وقلوبهم متفرقة ، ووصفهم بعدم العقل ، وذم الذى يتبع الشيطان فى وسوسته وخداعه ، فأما هذه السورة فانها تعليم للمسلمين ، ينهاهم عن موالاته الأعداء لئلا يكونوا جميعا وقلوبهم شتى ، ولئلا يوصفوا بعدم العقل ، وإذا فعلوا ذلك ينطبق عليهم « مثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني برىء منك » ، جاءت هذه السورة بعد المتقدمة إيقاظا للمسلمين أن يكونوا بيدا واحدة ، ولألا يطلعوا العدو على أسرارهم ، فإذا فعلوا ذلك انطبقت عليهم الأمثال المضروبة فى الكفار فى

السورة السابقة ، علم الله أن المسلمين سيصابون بهذا الداء ، فحذرهم عاقبة سوء فعلهم ، وكرره في مواضع كثيرة ، وهذا الداء قد استفحل في المسلمين اليوم ، وغلبوا على أمرهم ، أما القرنيحة فأنهم متحدون لما بينهم من الاشتراك في اقتسام أمم الاسلام وظلمهم .

حكاية مصرية

أخبرني رجل من الصالحين : تركي الأصل : ذكر لي أن ابنه كان ببلاد فرنسا بصحبة أحد أبناء الأمراء ليربيته هناك ، قال : وبينما هو يوما جالس في جماعة من عليقة القوم ، إذ قدم له أحدهم طباقا [التبغ] ليشر به ، فقال : لا أدخن اليوم فاني صائم ، فقال له رئيس إحدى الكليات : عجبا لك ! أتبقى على هذه العقائد العتيقة بعد ما تنورت وعظم شأنك ، وارتقي عقلك ، وكان بين الجالسين فيلسوف من علماء الهنود البوذيين ، فلما أرادوا الانصراف قال ذلك البوذي للشاب التركي المصري : إذا كان الغد فقابلني في مكان كذا ، فلما قابله توجه به إلى كنيسة تقام فيها الصلوات ، وفيها رئيس تلك الكلية يصلي ، فقال له انظر ماذا ترى ؟ قال أرى رئيس الكلية يصلي ، قال : لهذا طلبتك ، إن هؤلاء يريدون أن يرجعونا عن أدياننا حتى يصطادونا بسهولة فلنحذرهم فانهم لنا مهلكون مخادعون اهـ

وأقول : لقد قرأت في جرائدنا المصرية اليوم أن كثيرا من علماء فرنسا ، ومدرسي الكليات ، وعلماء الأدب والحكمة قد أرسلوا خطايا إلى العسكر المحاربين ببلادهم تكشف يحضونهم على مواصلة القتال لاستعباد المسلمين هناك ، فهؤلاء من الذين حذرنا الله منهم ، ووجب على المسلمين أن يفهموا أهل أوروبا فانهم يريدون هلاك المسلمين وابتلاعهم اهـ

لطائف هذه السورة

الأولى في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء » .

الثانية في قوله تعالى : « فامتنعوا عن الله أعلم بإيمانهم » .

اللطيفة الأولى

إن آثار هذه الآية اليوم ظاهرة في مصر والشام والهند ، وأظهر حركات اليقظة بادية اليوم في بلاد الهند فقد جاء في جرائدنا المصرية يوم ٢ فبراير سنة ١٩٣٢ م ما ملخصه أن الكتلة الوطنية هناك قامة بحركة العصيان المدني : أي أنهم لا يريدون أن يشتروا شيئا من تجار الانجليز ، والانجليز يذيقونهم العذاب الشديد ولكن هؤلاء لا يبالون بما يصيبهم حفاظا لحريةهم ، وجبا لبلادهم ، وقد زاد الانجليز عليهم الظلم ، فأمرروا بالأخذ بمجرّد الشبهة بدون تحقيق ، وبالجلّة فإن المقالة قد ختمت بهذه العبارة : « وهذا السلاح الاقتصادي الوحيد هو الذي يشجع الكثيرين على الاعتقاد أن أشدّ الحكومات اربابا وسطوة لابتد وأن تخفى رأسها في النهاية أمام الحركة الوطنية الهندية ، حتى ان الذين يعتقدون بأن مذهب غاندي خشن وقديم ، ويرجع إلى عتة أجيال إزاء التقدم العصري أصبحوا الآن من الساخطين على أساليب الحكومة الحاضرة » وهذا أشبه بقبس من قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء » وهذا تم الكلام على اللطيفة الأولى ، والحمد لله رب العالمين .

اللطفية الثانية في قوله تعالى : فامتنعوا عن الله أعلم بإيمانهم

حضر صديق العالم الذي اعتاد مباحثي في هذا التفسير ، فقال : لقد تقدم في ﴿ سورة الحجرات ﴾ عند آية : « أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى » أتى سألتك في أمر امتحان النساء والرجال ، وقلت لك ما معناه : إن الله عز وجل شرع الامتحان ، وامتنح القلوب كما في ﴿ سورة الحجرات ﴾ وأمرنا أن نمتحن المؤمنين كما في هذه السورة ، فالامتحان إذن مشروع في الجلالة ، ولقد ذكرت أنت قبل صفات الرجل الكامل وما شابه ذلك ، فحزني ذلك أن أسألك في هذا الموضوع ، فهل ما يشاع من أن الحكومات تريد بحث جسم الرجل وجسم المرأة ، أهم قوياً ، وهل بهما عاهة أو مرض ؟ وهل هناك عارض عرض لهما يجعل ذريتهما ضعيفة كداء الزهري وغيره ؟ ولكنك أحلتني على هذه السورة ، وأنا أسألك فيها ، فقلت : أتذكر ذلك ، وهاهوذا الجواب :

اعلم أن الله عز وجل أعطى جميع الناس والحيوان في الأرض قوة يحكمون بها ، حكم الحيوان ظاهري بالفرزة ، والمقصود من وجود الأرواح في هذه الأرض كمالها ، ولا كمال إلا بالعقول ، ولعقول كاملة إلا في أجسام قوية ، ولانفعلة لعقول وأجسام قويتين إلا مع حسن الأخلاق التي بها كمال المعاشرة ، وإذا كان الرجل لا يكمل إلا بقوة بدنه ، وحسن خلقه ، ورجاحة عقله ، وهكذا المرأة ، فوجب أن ينظر في أمر الزواج نظراً محدوداً بحيث تكون الأخلاق والأجسام والعقول سالحة للمشاركة في الحياة ، وهذه يستحيل أن يحددها القانون ، وقد جاء في شريعتنا في مذهب الشافعي أن الجنون والجذام والبرص كلهم مبيحات فسخ العقد وافتراق الزوجين ، والتفصيل في الفقه ، وليس هذا محله ، إذن أيها الصديق شريعتنا المطهرة لم تذر هذا الباب أيضاً ، فالجنون مرض في العقل ، والجذام مرض في الجسم ، ولا جرم أن الأخلاق يضعفها ضعف الجسم كما يضعفها أيضاً ضعف العقل .

وعليه أقول : إن هذا المقام لا يعوزه كثير عناء ، فعلى العقلاء بعدنا أن يبحثوا هذا الموضوع ، وأن يفكروا في أقوال الأئمة ، ويلخصوها ، ويرجعوا لأصل الدين ومقاصده ، وليدينوا أحكامهم الاجتهادية على ذلك الأصل ، وعلى ما استنتجوه منه ، ولتسكن الأحكام على مقتضى ما يصل إليه نظرهم ، وما يفتح الله به عليهم ، فليس لي الآن أن أحكم بما لم أشاهد من أحوال ستكون في المستقبل ، فلكل مقام مقال ، والله جعل ديننا يسراً « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » فديننا يسر ، واليسر والعسر تعرفه العقول في كل زمان بحسبه مع حفظ أصل الدين والمحافظة على أساسه وقوانينه « والله يقول الحق وهو يهدي السبيل » . فقال حسن هذا ، ولكنني أريد ضرب مثل يقرب لي هذا المقال ؟ فقلت له :

اعلم أن الله عز وجل أودع في الإنسان وفي الحيوان كما قدمت لك قوة يحكم بها على ما يراه ، أهو موافق أم مباين ؟ والحكم بالفرائض لا يعوزه نصب ولا بحث عميق ، فالحشرات ترى النار فتسرع إليها حينئذ ، فتقع فيها فتموت ، وهي إنما قصدت الضوء ولم تقصد الاحتراق ، فهي حفظت شيئاً وغابت عنها أشياء ، ومامن رجل أو امرأة إلا وهو يفرق بين من يحب ومن لا يحب بمن يريد أن يصاحبه أو يعاشره ، فالرجل يرى المرأة فيجبهه جاهلاً فيتزوجها ، وأصل الوضع الإلهي أن حسن الشكل وصباحة الوجه واعتدال القامة ، كل ذلك منشؤه الصحة ، ومتى كانت المرأة محيطة الجسم والوالد كذلك كان النسل على مقتضاها ، فإذا رأينا الشاب يهوى شابة لهجة جاهلاً ، فهما لم يطلبوا إلا قضاء شهوتهما المبنية على بهجة الظواهر ، والحكمة الأصلية بقاء النسل الجبوة تحت تلك المظاهر البراقة المهيجة المنعشة ، يريد الله بقاء النسل بهذه المظاهر ، ويريد الإنسان بها التمتع .

هنا تقابل المقصدان : المقصد الإلهي ، والمقصد الانساني الحيواني ، الله يريد بالزواج أو أي اقتران الولد وهو الذي سلب الشهوة المنبثة بسبب نتائج الصحة على الحيوان والانسان ، هنا تقابل المقصدان ورجعا إلى نقطة واحدة ، صانع يريد أن تكون صناعته في الولد مثقفة ، وذو شهوة يريد أن يكون المشتهي مقبولا ، فقبول الصورة للتمتع ، وقبولها لجودة الذرية اتحدا وبهما نال الحيوان شهوته ، وأجاد الله صنعته ، هذا أصل الصنع الإلهي في كل حيوان ومنه الانسان .

الله أكبر : حصل اقتران وتزاوج واختلاط على أي سبيل كان وبأي وسيلة ، ولكن ليس ذلك بكاف لنوع الانسان ، لأن أحواله غير أحوال الحيوان ، فان أحواله مختبطة مختلطة ، مشتتة متشعبة ، لا تجزبه نظرة ، ولا تكفيه لحظة ، وإذا كنا نراه لم يكن في تعاطي الطعام والشراب بمجرد لذته وحسن ظواهره ، بل رأيناه يحث في البحث ويقاسي الأمرين في الدقة ، حتى انه في أيامنا هذه أخذت أوضاع الطعام والشراب تتغير ، وصار ما كان خيرا بالأمس شرا اليوم ، وما كان مقبولا أصبح مردولا .

الله أكبر : ألم يصبح الخبز المنخول الذي تصنع منه الفطائر وأنواع الرقاق وأمثالها مردولا مبغضا مكروها يحدث الامساك والمرض ، إذن لذة الطعام ليست بدالة على جودته ، أليس الخبز الذي فيه نخالته بحيث لا يدخل هو الذي أصبح المعول عليه الآن في الصحة ، وبهذه النخالة وماعمها مما يسميه الناس [السن] في بلادنا المصرية يصبح الخبز نافعا في الصحة ، لأن ما يرميه الناس هو الذي فيه قوة الأبدان وصحتها ، ويتبع ذلك قوة العقل ، ومتى نخل الدقيق كان الخبز المصنوع منه أقل تغذية ، وهو يوجب الامساك والعكس بالعكس . وإذا كان طبخ الطعام أصبح اليوم في كشف الطب الحديث من مسببات الأمراض ، وكذلك السكر ، بل الأطعمة الطازجة التي لم تدخل النار في انضاجها كالخضر والفاكهة هي النافعة في الصحة على شرط النظافة .

أقول : إذا كان الأمر كذلك في الطعام وقد تغير الرأي الآن فيه ، ومعلوم أن البدوي الغر الجاهل في البداية أسعد وأصح بدنا من المتعلم المترف المنعم ، والعالم الجليل ، والفيلسوف العظيم ، والملك الكبير ، فكل هؤلاء يأكلون متبعين عادات أسلافهم ، يتغالبون في التفنن في المأكول والمشرب ، ويتبع ذلك ضعف أبدانهم ، وسقم أجسامهم ، وموت أحاسهم ، ثم موتهم الأدبي ، ثم الطبيعى ، ويتبع الجليل الجليل ، والملك الملك ، والعالم العالم ، وهم يرون أهل البدو في سعادة لأنهم يقللون البذخ في طعامهم وشرابهم ، فأما هم فانهم لا يدركون ولا يفقهون ، ويعيشون ويموتون وهم ساهون سامدون لاهون ، فناء العلم الآن ، وقال : أيها النائمون : استيقظوا أنتم غافلون ، هذه اللذة معناها أنكم تمرضون وتموتون في عناء .

أقول : إذا كان الأمر كذلك في الطعام والشراب أفلا يكون كذلك في اقتران الرجل بالمرأة ؟ فنقول : إذا كانت لذة الطعام لا يكتفى بها في جودته ، فأحر بنا ألا نحكم ظواهر الجلال في صلاحية المرأة للحياة الزوجية وإذا كان الطبيب لا يكتفى في معرفة المرض بما يسمعه من وصف مرضه ، ولا بما يسمعه بواسطة آلة السمع التي يسلطها على دقات قلبه ، ولا بما يراه من لون بوله ، ولا بحسن نبضه ، بل نراه يسلط الأشعة على بعض أعضائه لتخترق الأشعة جلده ، وتغلغل في جسمه ، فتظهر لنا ما خفي عنا ، وحينئذ يحكم على حال المريض ويصف الدواء .

حقيق بنا ألا ندع بابا من أبواب البحث إلا ولجناه ، ولا طريقا من طرق التدقيق إلا سلكناه ، فليبحث الرجل ، ولتبحث المرأة ، ولينظر في أمرهما ، أي أحدهما مرض معد ؟ أضعف قوة عقلية أو جسمية ؟ وهل ذريتهما إذا حصلت تكون ضارة بالمجتمع لما فيها من المرض المعدي ؟ وإذا لم تكن ضارة من هذه الجهة هل تكون على الأمة لضعف أجسامها ، أضعف عقولها ؟ وهل يكون ضررها أكثر من نفعها أم بالعكس ؟

وكل ما كان ضرره أكثر من نفعه يحجب الاحتباس من بقاءه ، لأننا نرى الحكمة الالهية والميزان المنصوب في السماء والأرض ألا موجود إلا على هذه الشريطة نفعها أكثر من ضررها .
هذا هو المثل الذي ضربته لك أيها الأخ الذكي ، وعلى العلماء بعدنا البحث والتقصي بكل ما أوتوا من علم ، وما نالوا من حكمة ، والله هو الولي الجيد ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، فاكثفي صاحبي بذلك ، وقال : الحمد لله رب العالمين ، انتهت اللطيفة الثانية ، وبها تم تفسير [سورة الممتحنة] .

تفسير سورة الصف

هي مدنية

آياتها ١٤ — نزلت بعد التغابن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ * إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ * وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ
تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ * وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ
مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ
بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى
إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ
مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ
عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ
مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ * تُوَمِّنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَنُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ
ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ
تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَآخِرَى

تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْخَوَارِجِينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِجُونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ *

وهذه السورة فيها لوم وتعنيف على مخالفة الفعل والقول ، فانهم وعدوا الصدق في القتال فولوا يوم أحد ، وفيها ذكر ما يحبه الله من القتال ، وفيها ذكر موسى وعيسى عليهما السلام .

تفسير بعض الألفاظ

بسم الله الرحمن الرحيم

(سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم) تفسيره معلوم (لم تقولون مالا تفعلون) إذ قلتم لوعائننا أحب الأعمال إلى الله تعالى لبذلنا فيه أموالنا وأنفسنا ، فأنزل الله : « إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا » فوليتهم يوم أحد (كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون) المقت أشد البغض (صفا) مصطفين (كانهم ببيان مرصوص) في تراصهم من غير فرجة ، والرّص اتصال بعض البناء ببعض واستحكامه (وإذ قال موسى) أي واذكر إذ قال الخ (لم تؤذوني) بالعصيان والقدف بما ليس في (وقد تعلمون أني رسول الله إليكم) أي بسبب ما جئكم به من المعجزات (فلما زاغوا) عن الحق (أزاع الله قلوبهم) صرفها عن قبول الحق والميل إلى الصواب (والله لا يهدي القوم الفاسقين) هداية توصلهم إلى معرفة الحق (مصدق لما بين يدي من التوراة ومبشرا) حالان (اسمه أحد) يريد محمدا صلى الله عليه وسلم ، يقول عيسى : إن ديني مصدق بالكتب الإلهية السابقة التي أشهرها التوراة وبآخر الرسل وهو محمد صلى الله عليه وسلم (ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الاسلام) أي لا أحد أظلم ممن يدعى إلى الاسلام فيضع موضع إجابته الافتراء على الله بشكذيب رسوله صلى الله عليه وسلم (يريدون ليطغوا نورا لله) أي أن يطفئوا ، واللام من زيادة للتأكيد ، ونور الله دينه ، أو كتابه ، أو حجته (بأفواههم) يطعنهم (والله متم نوره) مبلغ غايته بفسره وإعلانه (ولو كره الكافرون) أرغاما لهم (أرسل رسوله بالهدى) بالقرآن (ودين الحق) الملة الخفيفة (ليظهره على الدين كله) ليعليه على جميع الأديان (ولو كره المشركون) لأنهم لا يحبون إلا الأشرار ، وهو فيه التوحيد المحض ، وقوله (تؤمنون بالله ورسوله) مستأنف لبيان التجارة المنجية من عذاب أليم ، وذلك أمران : إيمان مكمل للنفس ، وجهاد مكمل للغير (ذلكم) أي ما ذكر من الإيمان والجهاد (إن كنتم تعلمون) أي إن كنتم من أهل العلم ، فإن هؤلاء يعلمون أن الإنسان عليه أمران تكميل نفسه وإكمال غيره ، ثم قال : إن تؤمنوا وتجاهدوا (يفضل لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم) ، ثم قال : ولكم إلى هذه النعمة المذكورة نعمة أخرى عاجلة محبوبة ، وهذا قوله (وأخرى تحبونها) ثم أبدل من أخرى قوله (نصر من الله وفتح قريب) عاجل أي تنصرون على قريش وتفتح لكم مكة وما بعدها من البلدان

وفي قوله « تحبونها » شيء من التوبيخ على حجة العاجلة (وبشر المؤمنين) معطوف على تؤمنون : أي كأنه يقول : آمنوا وجاهدوا أيها المؤمنون ، وبشرهم يا أيها النبي بما وعدتهم عاجلا وآجلا (من أنصاري إلى الله) أي من جندى متوجها إلى نصرته الله (نحن أنصار الله) أي الذين ينصرون الله ، والحواريون أصفياء محبوبون ، وهم أول من آمن به ، وكانوا اثني عشر رجلا ، وحواري الرجل صفيه من الحور ، وهو البياض الخالص (فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم) بالحجة أو بالحرب بعد رفع عيسى عليه السلام (فأصبحوا ظاهرين) أي فصاروا غالبين . انتهى تفسير بعض الألفاظ .

إيضاح

كأن الله يقول : كيف تعدون أيها المسلمون وتخافون ، وتعاهدون وتنقضون ؟ فما أشد المقت والغضب والعقاب على من اتصف بهذه الخلة الشنعاء ، والطريقة السوءى ، فليكن فعل المؤمن مصدقا لقوله ، وهذا القول يشير إلى ما حصل للمسلمين اليوم من يوار التجارات ، وضياح الأقوات ، وذهاب المجد ، وبيان أن المسلم يستبيح اخلاف الوعد لإقلا من الصادقين ، وكذلك الكذب والخلف . والفرجة بين ظهرانينا قد أصبحت التجارة في أيديهم بأعلى الأثمان ، لأنهم غالبا يحفظون الوعد ، ويتظاهرون بأنهم صادقون مخلصون ، وقلة يخافون . فأما المسلمون : أي الجهلة منهم ، فخلق ذائع شائع ، والكذب واخلاف الوعد كل ذلك مباح في نظرهم ، لذلك تنصرف الناس عنهم ويتوجهون إلى محال الفرجة التي يقولون فيها ان الثمن محدد ، مع أنهم يعاونه أضعافا مضاعفة ، ولكن صدق القول وعدم اخلاف الوعد هما الخلتان اللتان اتصف بهما الفرجة بيننا مع نظافة محالهم وحسن اللقاء والبشاشة ، وأهم هذه الأوصاف صدق الوعد الذي من خالفه وقع في أشد الغضب ، وهو مقت الله ، وأي مقت أشد مما نحن فيه الآن ؟ أصبحنا لا يأمن بعضنا بعضا إلا قليلا . فبارت التجارة ، وقلت الأمانة ، هذا من المقت الذي حل بأمة الاسلام اليوم .

يطلب الله منا أن تطابق أفعالنا أقوالنا ، وأن نكون صفا واحدا في قتال العدو ، ومقتضى ذلك أننا نكون صفا واحدا في أمور الحياة كلها ، فلاجهاد إلا مع نظام الأحوال الداخلية ، وجميع مرافق الحياة ، فالجندى في الحرب محتاج للطرق الحديدية وما قبلها من زراعة وتجارة وصناعة وأمن ومدارس ، وهذا كله لا يكون إلا بحكومة منظمة تحفظ البلاد ، وهناك يكون الاتحاد ، والاتحاد هو الذي عليه نظام هذا العالم ، فهذا هو سر قوله تعالى : « إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا » ، ثم أتبع ذلك بفرضين : الفرض الأول أن يوقع اليأس في قلوب الكافرين من محاولتهم اضعاف الاسلام ، وأن الله سيظهره ، وأن يسلي النبي صلى الله عليه وسلم على كفر من كفر ، الفرض الثاني تحريض المسلمين على كمال أنفسهم ، وتكميل غيرهم ، ووعدهم بالنصر ، فقال في الفرض الأول ما يفيد أن موسى أرسل لقومه فزاعوا عنادا فغتم الله على قلوبهم لأن الأعمال الظاهرة من الأقوال والأفعال لها آثار تقع في القلب فتكسبه نورا تارة وظلمة أخرى ، وهؤلاء زيفهم عن الحق وعنادهم أكسب قلوبهم ظلمة فغتم عليها ، وهكذا عيسى عليه السلام جاء مصدقا بالتوراة مبشرا بمحمد صلى الله عليه وسلم فسكف به قومه ، فليكن لك يا محمد أسوة بمن سبق من الأنبياء فقد صبروا على ايذاء قومهم وتكذيبهم ، ثم قال : وأن الله قضى أن من قام بالحق منصور ، فهل يتصور هؤلاء أن يمنع الهداية عن عباده ، إن الله حكيم أن يرفع منار الحق ويهدم ببيان الباطل ، إذ لا يبقى إلا الأصلح للوجود ، فليس يؤخر الله رقي الانسان لأجل طائفة تكبر الفضائل .

والفرض الثاني كأن الله يقول فيه : أيها المسلمون : الإيمان بالله والجهاد هما الخلتان اللتان بهما تفوزون في الدارين ، إذ لا فوز في الدنيا ولا في الآخرة إلا بعلم وعمل ، والإيمان أفضل مافي العلم ، والجهاد أفضل مافي

العمل ، فلتكن فيكم الخصلتان أضمن لكم ثلاث خلال : غفران الذنوب ، ودخول الجنة ، والنصر المصحوب بالفتح قريباً ، وانتقدوا بحواري عيسى إذ قالوا : « نحن أنصار الله » ونصرناهم على أعدائهم فأصبحوا ظاهرين عليهم ، ولا جرم أن النصارى ظاهرون على اليهود إلى الآن ، وإلى يوم القيامة ، هكذا ستكونون أيها المسلمون ظاهرين على أمم العالم قاطبة ، هذا معنى هذه السورة .

أقول : ولكن في هذا الزمان لا ظهور للمسلمين إلا قليلاً ، ذلك لأنهم لم يقوموا بالصدق والجهاد ، والجهاد لا يتم إلا بنظام تام في الدولة كما تفعل الأمم المحيطة بنا .

ثم لتعلم أيها الذكي أنى موقن أن هذا التفسير سيكون من دلائل الرقى الاسلامي المنتظر قريباً ، وأن الله سيؤيد الدين بنشره ، وأنه سيقروء الأذكىاء من المسلمين في حياتنا وبعد موتنا ، وستكون لهم آثار حسنة .

إن وعد الله حق ، وقد وعد المجاهدين بالنصر ، والجهاد يبتدىء من تعليم الصبيان في المساجد ، إلى المزارع والحقول ، إلى التجارة ، إلى إنشاء الطرق والتلغراف (البرق) إلى صنع الطائرات والمدافع ، إلى علم السياسة والعمران والاقتصاد ، كل ذلك من الجهاد ، وتحماته غلبة العدو وحفظ البلاد ، وقد تضمن هذا التفسير ذلك كله وحض عليه ، فلتكن مجاهداً بما سمعت ، واتحرض المسلمين على الأخذ بأسباب العمران والرقى ، فهذا أوائل أسباب الجهاد ، بل لا جهاد إلا به ، فإذا لم يكن علم فلا جهاد كما هو حاصل في الاسلام اليوم .

جهلوا جميع العلوم التي بها الحياة فناموا فأخذتهم الفرنجة ، فأول كل شيء في الجهاد اليوم هو العلم ، هو بث الفكرة ، إن العالم اليوم هو المجاهد الأكبر ، هو الذي يحيي ما اندرس من المجد ، فإذا كانت هذه حال العلم أفلا أقول لك بحق أن الله سيذيع هذا التفسير وينشره ، وينشر نظيره من آراء أرباب الأفكار الثاقبة في مصر والهند وجميع بلاد الاسلام ، ويقروءه ويقروءها الأذكىاء من المسلمين ، ويخرجون الناس من الظلمات إلى النور ، نعم هذا سيتم حقاً كما قال تعالى : « والله متم نوره » وكما قال : « ليظهره على الدين كله » . أقول : ولا أخشى في الحق لومة لائم أن ظهور الاسلام سيكون في الأزمان المقبلة ، وسيظهر فضله ، ويعلو شأنه .

أيها الذكي كن عبداً لربك مخلصاً ، واقصد بالاسلام منفعة الجنس البشري كله والمسلمين خاصة ، وتعرف هذا من سابق هذا التفسير ، ثم ان قوله تعالى : « وبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد » قد تقدم الكلام عليه في (سورة البقرة) و (آل عمران) وغيرهما فلا عن انجيل برنابا ، فارجع إليه هناك إن شئت ، وإلى هنا تم الكلام على سورة الصف ، والحمد لله رب العالمين .



ملا يفعلون ، فإذا أصبح ذلك خلقا فيهم والعياذ بالله أصبحوا مثل اليهود يحملون الكتب ولا ينتفعون بها ، فلم يواجه الله المسلمين بذلك بل وكلفها إلى الفطن والعقول الذكية ، وأيضا ذكر في السورة السابقة التجارة الأخروية الراجعة بالجهد ، وهنا ذكر التجارة التي هي دنيوية ، وهذه السورة مبدوءة بما يفيد أن النبي صلى الله عليه وسلم مرسل للأمة ولأن بعدهم إلى يوم القيامة ، وبلى ذلك ذم اليهود على عدم عملهم بكتابتهم ، وبليته وجوب السعي لنداء الجمعة وتوبخ من لم يسارع إليها . ولنشرع في تفسير السورة فنقول :

التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

(يسبح لله مافي السموات ومافي الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم) فشكل شيء في السموات والأرض اذا نظرت إليه ذلك على وحدانية خالقه وعلى تنزيهه ، وجب الأشياء مسخرة له مقهورة ، فالنسيج إما دلالة للعقلاء ، وإما حصول الآثار في الأشياء المسخرة لله (هو الذي بعث في الأميين) هم العرب ، والأئمة هو الذي يكون على ما خلق عليه كأنه منسوب إلى أمه (رسولا منهم يتلوا عليهم آياته) مع أنه هو نفسه أمي مثلهم (ويزكهم) يظهرهم من دنس الشرك (ويعلمهم الكتاب) أي القرآن (والحكمة) السنة (وإن كانوا من قبل) من قبل ارسال محمد صلى الله عليه وسلم (لئلا ضلال مبين ، وآخرين منهم) أي من المؤمنين ، وهم المؤمنون إلى يوم القيامة من جميع الأمم ، ومنهم الفرس .

روى عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : [كنا جلوسا عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ نزلت سورة الجمعة ، فتلاها ، فلما بلغ : « وآخرين منهم لما يلحقوا بهم » قال له رجل يا رسول الله : من هؤلاء الذين لم يلحقوا بنا ؟ فلم يكلمه حتى سأله ثلاثا ، قال : وسلمان الفارسي فينا ، فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على سلمان وقال : والذي نفسي بيده لو كان الإيمان باثريا لتناوله رجال من هؤلاء [أخرجاه في الصحيحين وقوله (لما يلحقوا بهم) أي لم يلحقوا بهم بعد وسيلحقون (وهو العزيز) في تمكنه من هذا الأمر الخارق للعادة (الحكيم) في اختياره وتعليمه (ذلك فضل الله) أي ذلك الفضل الذي امتاز به على أقرانه فضل الله (يؤتيه من يشاء) تفضلا وعطية (والله ذو الفضل العظيم) الذي يحقر في جانبه نعيم الدنيا والآخرة ، فإذا كان محمد قد أرسلته إليكم أيها الأميون وإلى من يأتي بعدكم فإني أمرهم أن يعملوا بالكتاب ولا يكونوا كاليهود الذين لم يعملوا بكتابتهم : وهو قوله (مثل الذين حملوا التوراة) أي عملوها وكافوا العمل بها (ثم لم يعملوها) لم يعملوا بها ولم ينتفعوا (كمثل الجار يحمل أسفارا) أي كتابا من العلم يتعب في حياها ولا ينتفع بها ، وقوله « يحمل أسفارا » صفة لاجل ، لأن الجار لم يقصد أن يكون معينا (بنس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين) وهم اليهود ، والمخصوص بلذم محذوف ، ثم إن شأن من لم يعمل بالكتاب الذي أنزل إليه أن يكون غافلا جاهلا محبا للحياة الدنيا ناركا للآخرة ، فأعقبه بما يدل على ذلك بأوضح سبيل كأنه يقول : أيها الناس : أتم كالجر ، فلا عقل ولا تفكير ، ولا هدى ولا كتاب منير ، ولو كنتم مهديين وللاحق عارفين لفرحتكم بالموت وتمنيتم لقاء الله ، ومن كره لقاء الله كره لقاء الله ، فنشوا في صدوركم ، وانظروا ما نقش في قلوبكم ، وسلوا ضمائركم ، أستم للموت كارهين وللقاء الله مبغضين ، ولالحياة محبين ؟ ولو كانت الأعمال مرضية ، والنفوس مضية قوية ، مشرقة بنور ربها لأعرضت عن الدنيا أعراضا ، وفرحت بلقاء الله ، وتمنت الموت ، والموت باب يدخله الله المحبون ، ويلج به سرور وفرح الصالحون ، ولكم لتحبون الموت لما ران على قلوبكم من الحباث ، وماخن عليها ، وهذا قوله تعالى (قل يا أيها الذين هادوا)

يهودوا (إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين) كانوا يقولون : نحن أبناء الله وأحباؤه : أى إن كان قولكم حقا وأنتم على ثقة منه فتمنوا على الله أن يمتكم وينقلكم سريعا لتحفظوا بكرامته ، وتفرحوا بإسعاده ، والتمتع بالنظر إلى وجهه الكريم (ولا يمتنونه أبدا بما قدمت أيديهم) بسبب ماقدموا من الكفر والمعاصي (والله عليم الظالمين) فيجازيهم (قل إن الموت الذى تفتنون منه فإنه ملاقيكم) أى لا يمتنعكم الفرار منه ، فما الانسان فى الدنيا إلا كما قال طرفة بن العبد :

لَعَمْرُكَ إِنَّ الْمَوْتَ مَا أَخْطَأَ الْفَتَى لَكَاطُولُ الْمُرْخَى وَثَنِيَاهُ بِالْيَدِ
مَتَى مَا يَشَأُ يَوْمًا يَقْدُهُ لِحَنَفِهِ وَمَنْ يَكُ فِي حَتَفِ الْمَنِيَةِ يَنْقَدِ

وقوله (ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) فيجازيكم عليه (يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة) أى إذا أذن لها عند جلوس الامام على المنبر للخطبة (من يوم الجمعة) أى فى يوم الجمعة ، وسعى بذلك لاجتماع الناس فيه للصلاة ، وكانت العرب تسميه العروبة (فاسعوا إلى ذكر الله) فامضوا إليه مسرعين قصدا ، والسعى دون العدو ، والذكر الخطبة ، أو الصلاة (وذروا البيع) وتركوا المعاملة (ذلكم) أى السعى إلى ذكر الله (خبركم) من المعاملة فى ذلك الوقت (إن كنتم تعلمون) مصالح أنفسكم ، وأمن أهل العلم (فاذا قضيت الصلاة) أذيت وفرغ منها (فانشروا فى الأرض وابشعوا من فضل الله) كعبادة المريض ، وحضور الجنازة ، وزيارة الاخوان فى الله ، وطلب العلم ، والتصرف للتجارة ، وهذا الأخير هو المباح ، وما سواه مندوب أو واجب .

وعن عراك بن مالك : أنه كان إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد ، وقال : اللهم أجبت دعوتك ، وصليت فريضتك ، وانتشرت كما أمرتني ، فارزقني من فضلك وأنت خير الرازقين .
وقوله (واذكروا الله كثيرا) واذكروه فى مجامع أحوالكم ، ولا تخلصوا ذكره بالصلاة ، بل اذكروه قياما وقعودا ومضطجعين ، والطاعة أيضا من أنواع الذكر (لعنكم تفلحون) .
روى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخطب للجمعة فترت غير تحمل الطعام من دقيق وبرّ وزيت وغيرها ، قدم بها دحية بن خليفة الكلبي من الشام بالتجارة ، وكان إذا قدم لم تبقى عاتق بالمدينة إلا أته ، ثم يضرب بالطبل ليؤذن الناس بقدمه ، فيخرج إليه الناس ليداعوا منه ، فخرج الناس إليه إلا اثني عشر ، فبزلت (وإذا رأوا تجارة أو طهوا انفضوا إليها) أى إذا رأوا تجارة تفرقوا إليها ، أو طهوا تفرقوا إليها ، والاهو هنا الطبل المذكور (وتركوك قاعما) على المنبر (قل ماعند الله) من الثواب (خير من الهموم من التجارة والله خير الرازقين) إذ لا يفوتهم رزق الله بترك البيع ، فهو خير الرازقين . انتهى التفسير اللفظي للسورة كلها ، والحمد لله رب العالمين .

فى هذه السورة لطيفتان

- (١) فى قوله تعالى : « فتمنوا الموت إن كنتم صادقين » .
- (٢) فى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » .

اللطفية الأولى فى قوله تعالى : فتمنوا الموت إن كنتم صادقين

اعلم أن فى هذه السورة تبيان حقيقة الولاية وشرح أصولها ، وأحوال الأمة الاسلامية ، وبيانه أن الله

ابتدأ السورة بأن الأمة الأتية أرسل الله لها رسولا أميا ليتلو عليهم الكتاب ويعلمهم ، ثم أردف ذلك بذكر اليهود على أنهم أعطوا الكتاب فلم يعموا به فأصبحوا كالخير ، ولاداعي لذلك في كتابنا المقدس إلا اذا كان لتهديتنا ورقينا واسعادنا ، إن القرآن ذكر للعالمين ، وليس مجرد ذم اليهود بدون فائدة لنا ، وإنما ذمهم بأنهم جبر تلميحاتنا اذا خالفنا ونعريضا بالأمم الاسلامية الناشئة اليوم الذين ناموا عن العلم والحكمة ، وللأمة الاسلامية [مراتب ثلاث : الأولى] انها حين أنزل عليها القرآن كانت بدوية ، فكانت تلقن الكتاب تلقينا [الثانية] أنها بعد اتساع الملك أصبحت دارة للعلوم ، ملحة بالمعارف الواسعة [الثالث] أن يصطفى الله منها أناسا يكونون واقفين على أسرار هذا الوجود ، محبين لربهم ، عاشقين له ، مواهين بالآخرة ، متمنين أن يكونوا معه ناظرين إلى وجهه الكريم بما قدموا من صالح الأعمال ، فأول المراتب رمز لها بأول السورة ، وهو قوله : « هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين » . والثاني رمز له بذكر اليهود على عدم العمل بالكتاب ، فاذن هو يمدح العالمين بالكتاب العالمين به ، ومعرفة الكتاب تستلزم علوما شتى ، والثالث رمز لها بقوله لليهود : « قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين » .

واعلم أن هذا هو السر المصون ، والجوهر المكشوف ، والنور المبين ، والحسن والبهاء ، والاشراق الالهي الذي أرسله الله للأمة الاسلامية تعلما لهم وتفهما .

علم الله أن المسلمين سيقعون في هذا الدور الذي أصبحنا فيه ، فأخذ يعلمنا اليوم ما جهلناه ، ويدرس لنا ما أغفلناه ، ويذكرنا مانسيناه ، يذم اليهود ويقول : انكم أيها اليهود كالخير ، لماذا ؟ لأنكم أعطيتكم كتابا فلم تعلموا ما فيه ، وإن علمتم لم تعملوا .

أيها الذكي : قل لي : أليس هذا هو الذي وقعنا فيه الآن ؟ أليست هذه حالنا ؟ أصبحت الأمم كلها في الشرق والغرب متعلمين ، وأمم المسيحية تلاميذ آباءنا هم العلماء في سائر العلوم ونحن أقل الأمم علما ، وأخسهم منها حظا .

يا عجب كل العجب ! أمة يأتي نبيا بلا كتابة ولا قراءة ويقول الله « ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم » ويقول في آية أخرى : « ن ، والقلم وما يسطرون » ، وفي أخرى : « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » .

يقول الله : « علم الإنسان ما لم يعلم » لعلمه أن كتاب الله يستلزم قراءة جميع العلوم واستيعابها ، أمة هذا شأنها تصبح أقل الأمم علما وأكثرها جهلا ، أمة ينزل القرآن عليها ويحفظه أبناءها عن ظهر قلب ويكتفون بذلك في أكثر البلاد الاسلامية ، وهم عن العلم معزولون ، وعن طريق الرشاد ناكبون ، وفي ميدان الحرب والسياسة مخذولون ، ألسنا ما يصنع الجاهلون ، يكتفون بما دون الأئمة رحمة الله من علم الفقه ، ويظنون أنه لا شيء وراءه كذبوا والله ، القرآن بحاله لم يغير منه شيء ، ولم ينسخ ، وهو باق ، فليدرس القرآن وليفهم ، لما وقع المسلمون في هذا الداء الويل قرونا وقرونا أصبحوا عبدة الأمم ، ومثلا في الجهالة والضعف ، ولكن بعد ما بينا في هذا التفسير ، وهكذا كثير من علماء الاسلام شرقا وغربا ستكون أمة لم ينجب الدهر مثلها . وما مثل الأمم الاسلامية المستقبل إلا كمثل زرع وضع في أرض خصبة لم تضعف بتكرار الزراعة فيها ، ثم سقيت وسمدت ، فإن زرعها يكون أسرع نباتا ، وأغزر ثمرا ، وأعظم نفعا ، ذلك مستقبل المسلمين ، فاتهم سيجيئون عقب أم نامت نوما عميقا ، والعقول بحالها مهيتة مستعدة للعلم والعمل فينبغون ويرشدون ، والله هو الولي الحميد .

الكلام على الولاية

علم الله أن المسلمين في القرون التأخرة سيكثر فيهم الكلام في الولاية والأولياء ، فأُنزل هذه الآية بشكل لا يكتدر صفو المسلمين ، فلم يقل : أيها المسلمون : إذا أتم كرهتم الموت فلدنتم خواص الله ، لم يقل ذلك وترك الأمر للعقول تفكر فيه ، بل خاطب اليهود وقال لهم : إن كنتم خواص الله حقاً فإلّاكم لا تعجبون الموت بقلوبكم ؟ كلا . أنتم لستم خواص الله ، بل أنتم كهاتمة الناس تفرّون من الموت والموت ملافيكم . هذا ظاهر القول ، ولكن حقيقة تعاليم المسلمين ، فهو من حيث الظاهر ذمّ لليهود من جهة وتكذيب ومن جهة أخرى تعليم للمسلمين ليعرفهم من هم أولياء الله .

من هو الولي ؟

اعلم أن النوع الانساني وكل أنواع الحيوان يكرهون الموت بالطبع كراهة تامة ، إن في الموت قطع اللذات وفراق الأحباب ، والانسان بعد الموت جيفة قدرة ، يأكله الدود ، وتعافه النفس ، فالموت أكبر المصائب في أرضنا ، لذلك فرّ منه الانسان والحيوان ، وهذا الفرار نعمة من الله عليهم ، إن العالم الذي نحن فيه أحيط بالجهالة العمياء من جميع جهاته ، وبعض الجهالة نافع ، فإذا سلط الله على الحيوان وعلى الانسان الجهل بمصيره بعد الموت ، فذلك ليحافظ الحي على حياته ، إذ لو علم أن هناك حياة أخرى في عالم أظلم من هذا لدارع إلى الخروج من هذه الحياة مع أن وجود الانسان في الأرض دروس لا بد منها حتى يهتأ له المقام هناك ، لحياتنا إذن نعمة وجهلنا بالموت نعمة ، وانما كان الجهل بالموت نعمة لأننا لانعرف المصالح لضعف قوانا العاقلة ولو كملت عقولنا لعرفنا مصالحنا ، وأن الحياة في الأرض دروس نحافظ عليها ولو كان هناك عالم أجمل من هذا ونقى في سجن الأرض حتى يأتي الوقت الذي فيه نفارقها ، ونحن مزودون بالقوى والأخلاق التي تساعدنا على الرقي هناك ، ولكن علم الله أننا لانقدر على الاطاحة بهذه العلوم ، واننا لأقلّ مرض أو حزن أو ألم نغادر الأرض ونتركها لعلنا أننا أحياء في عالم آخر ولو في أدنى درجات الحياة ، لذلك ترى الانسان والحيوان كل منهما مجبول على كراهة الموت وحبّ هذه الحياة ، فلافرق بين المسلم واليهودي والمجوسي والحيوان في هذه الحياة . ولما كانت حياتنا في الدنيا للدراسة والعلم للارتقاء هنا ، وكان ترك الناس بلامدكر يحملهم على النفقة ذكروا نارة بالأنبياء ، واخبروا بالحكماء ، وآونة بعلماء الأرواح ، فيقولون لهم : « إن لكم حياة بعد الموت فجئوا للوصول إليها » وهؤلاء اذا سمعوا هذا القول يعملون كل على قدر جهده وطاقته مع كراهة الموت التي غرست في القلوب ، فترى المسلمين يصلون ويصومون ، وكذا جميع الأمم تعبد على طريقتها ، ولكنهم يكرهون الموت لأنه لا يقين عندهم بأن هناك حياة بعد الموت . اذا فهمت هذا فلتبحث في معنى [الولي] :

اعلم أن كل مسلم في الأرض ، أوتابع لنبي لم ينسخ دينه ، فهو وليّ الله ، قال تعالى : « الله وليّ الذين آمنوا » والوليّ من تولاه الله برعايته وتولى هو الله بطاعته ، فكل مؤمن في الأرض فهو وليّ ، وليس المقام في الولاية العاقلة إنما نحن الآن في مقام الولاية الخاصة كما قال تعالى : « ان زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين » وهنا يكون الكلام فنقول :

قد علمت نظرية الموت وانها مبغضة عند جميع الناس ، ولكن في كل جيل وفي كل أمة نبغ أناس سارعوا إلى العلم والعمل والدراسة والنظر والفكر ، واطلعوا على أعاجيب الخليقة ، وأسرار الطبيعة ، وأدركوا أن هناك جنالا وبهجة وحكمة وعلم ، وأن هذه العوالم تدار بيد لم نرها ، وبحكمة فوق متاولنا فيشتاقون شوقاً حقيقياً ، بل يهيمون هياماً ، ويفرطون في العشق : أي عشق تلك الادارة التي أدارت هذا العالم ،

وهؤلاء يحبون النوع البشرى حبا جافا فيفيضون الخير عليه ، ويرسلون من قلوبهم أشعة العرفان إلى أقاصيه وأدانيه ، ويرون أنهم خلفاء الله في أرضه ، وامهم بما استكملت نفوسهم من علم ، وبما تحلت جوارحهم من عمل جديرون أن يكونوا آباء للنوع الانساني ، فهم إذن خلفاء الأنبياء والقائمون مقامهم ، وهؤلاء يعينهم الله آتانا يوقظون المؤمنين ، وينصجون المستيقظين ، وإذا حرصوا على الحياة فأنما يحرمون عليها للغاية المذكورة ، والأعمال المشكورة ، وفي الوقت نفسه يقول الواحد منهم : « رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت ولي في الدنيا والآخرة توفني مسلما وألحقني بالصالحين » يقولها لا كما يقال الآن بل يكون هذا القول خارجا من النفس بل هو حالها وان لم ينطق به ، فترى الرجل منهم يعيش ليكمل نفسه ويكمل غيره ، فإذا علم أنه قد أتم ما عليه ، وأنه لم يبق عنده كمال إلا وقد أخذه عنه تابعوه ، فانه إذ ذاك يحب الموت لعله أن الحياة لم يبق لها قيمة ، وأن روحه قد أصبحت ملائمة لذلك العالم العلوي مناسبة له فتألف إذ ذاك من البقاء هنا ، وهذه الطائفة القليلة في أرضنا إذا جاءها الموت كانت مستريحة مطمئنة منسريحة الصدر ، وإذ ذاك تموت موتا يسرها .

هذا هو الولي كما تقدم في قوله تعالى : « أنت ولي في الدنيا والآخرة توفني مسلما وألحقني بالصالحين » لأن روحه تناسب تلك الأرواح الشريفة وترتاح لمناجاتها ، هذا هو الولي الخاص ، وهذه الطائفة هي التي قال الله فيها : « وقليل من عبادي الشكور » . وقد قلنا في هذا التفسير مرارا أن الأمم الإسلامية سيذيع فيها التعليم وترقى وتأخذ حظها في الأمم ، ومماثل الأولياء في المسلمين في العصر الحاضر بالنسبة للأولياء في الأجيال المقبلة إلا كمثل جهل المسلمين اليوم بالنسبة لرقى الأمم الإسلامية المستقبلية ، فالأذكى في أمة أشبه بالأمم ، وكذلك الحكماء ، فهذا ولي الله الخاص الذي امتاز عن الناس حوله من مسلمين وغيرهم كما قال تعالى : « إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين » .

هذا هو الولي أوضحه القرآن ، فأما ذلك الذي يفرح بكثرة الأتباع للشهوة أو بتقبيل اليد أو نحو ذلك فأنما هو رجل ابتعد عن ولاية الله واقرب من ولاية الشيطان ، فإن القرب من الله يستدعي احتقار الحياة الدنيا ، وقد قلنا ان هذا لا يكون إلا لمن ذكرناه .

ثم اعلم أيها الذكي أن عذاب النوع الانساني في الدنيا والآخرة إنما يكون بالجهل ، فكل عذاب ناشئ من الجهل ، والعلم هو الذي يمنع العذاب ، ومن عذاب الدنيا أن الموت موكل بنا ونحن له كارهون ، فالنظام العام لا يتغير ، ونحن للنظام العام كارهون ، والكمال يقضي أن تكون العقول تحب ما يقتضيه النظام العام ، ولا سبيل إلى ذلك في أرضنا كما قدمنا إلا بصرف النفس إلى الكمال العلمي والكمال الخلقى ، فلا تذرحجرا ولا شجرا إلا فسكرت فيه ، ولا تدع علما إلا اطلعت عليه بقدر الامكان ، وابحث عن الأسباب والنتائج ، وفي هذا التفسير ما يغني الريب ، وفكر في كل شيء عام وخاص ، وخذ من كل شيء عبرة ، واجعل هذا ديدنك ، وأحب منفعة الناس بقلبك وبعملك لأن الناس أشبه بنفس واحدة قد تفرقت إلى نفوس كثيرة ، وليكن هذا ديدنك ، فانك إذا فعلت ذلك وواظبت عليه تجد الله أمامك في كل أمر ، وتجد به عينك ولا يتركك ويأخذ بيدك ، ولا تزال تنقرب إليه وهو يلحظك حتى تعرف الحقائق التي ذكر في هذا التفسير بعضها ، وإذا ن تصيب نفسك موافقة للنظام العام ، فلا ترى في الموت إلا خروجا من سجن إلى حرية ، فان لم تجد في نفسك هذا اليوم فستجده غدا ، ومن جد وجد ، فاحرص الحرص كله أن تكون نافعا للناس بعلم أو بعمل أو بهما ، وأن تكون عاشقا للحكمة التي نقشها الله بيده في هذا الوجود ، وأبرزها في كل موجود ، وأذن تكون ولي الله حقا فلا تخاف ولا تعز ، وكيف تحزن على ما خلقت وأنت موقن أن الله يحفظه ، أو تخاف من أمر في المستقبل وأنت عرفت الحقائق ، والله هو الولي الحميد . انتهى الكلام على اللطيفة الأولى .

اللطيفة الثانية في قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة ارحلوا

لأخص تلك أيها الذكي هنا ما جاء في الأخبار وأقوال الفقهاء :

(١) — [مسلم] : « خير يوم طاعت عليه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها » .

(٢) — [البخارى ومسلم] : « فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو يصلي يسأل الله شيئا إلا أعطاه إياه ، وأشار بيده يقللها » .

(٣) — [البخارى ومسلم] : « من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح في الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ، وذكر في الثالثة الكبش الأقرن ، وفي الرابعة الدجاجة ، وفي الخامسة البيضة ، فإذن أحرم الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر » .
(٤) — [مسلم] : « من توضأ فأحسن الوضوء ثم أتى الجمعة واستمع وأنت غفر له ما بين الجمعة والجمعة » .

(٥) — [البخارى] : « لا يغتسل رجل يوم الجمعة ويتطهر ما استطاع من الطهور ، ويدهن من دهنه ، ويمس من طيب بيته ، ثم يخرج فلم يفرق بين اثنين ، ثم يصلي ما كتب له ، ثم ينصت إذا تكلم الإمام إلا غفر له ما بين الجمعة إلى الجمعة الأخرى » .

(٦) — [مسلم] قال صلى الله عليه وسلم لقوم يتخلفون عن الجمعة : « هممت أن آمر رجلا أن يصلي بالناس ثم أحرق على رجال يتخلفون عن الجمعة بيوتهم » .

(٧) — [الفقهاء] : تجب على كل مسلم حرّ بالغ عاقل ذكر مقيم إذا لم يكن له عذر في تركها ، ولا الجمعة على صبي ، ولا مجنون ، ولا على النساء ، ولا العبيد .

(٨) — [الفقهاء] يقول أبو حنيفة : لا الجمعة على أهل السواد سواء أكانت قريتهم قرية أم بعيدة ، وقال الشافعي : يلزمهم إذا سمعوا نداء مؤذن جهوري الصوت ، وحدّد الزهري ذلك بستة أميال ، وربيعة بأربعة أميال ، ومالك والليث بثلاثة أميال .

(٩) — التخلف عنها لعذر جائز إذا كان هناك طين ودحض وزلق أو نحو ذلك .

[١] كان النداء يوم الجمعة أوله إذا جلس الإمام على المنبر على عهدده صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر ، فلما كان عثمان وكثير الناس زاد النداء الثاني على الزوراء ، وهو موضع عند سوق المدينة قريب من المسجد ، ويقال أنه مرتفع كالمنارة .

[ب] السعى إلى ذكر الله بالقلب والخشوع ، وقد نهوا أن يأتوا إلى الصلاة إلا وعليهم السكينة والوقار ، وفي حديث البخارى ومسلم : « إذا سمعتم الإقامة فامشوا إلى الصلاة وعليكم السكينة والوقار ولا تسرعوا ، فما أدركتم فصلوا ، وما فاتكم فاتموا » .

(١٠) — [الفقهاء] : لا تنعقد بأقن من أربعين رجلا عند الشافعي وأحمد واسحق ، ابن عمر شرط أن يكون في الأربعين وال ، والشافعي لم يشترط هذا الشرط : على ابن أبي طالب شرط أن تكون الجمعة في مصر جامع ، وأبو حنيفة على هذا الرأي :

[١] انعقد عند أبي حنيفة بأربعة ، والوالى شرط عنده .

[ب] الأوزاعي وأبو يوسف قالا لا تنعقد بثلاثة بشرط أن يكون الوالى فيهم .

[ج] الحسن : تنعقد باثنين كسائر الصلوات

[د] ربيعة : تنعقد باثني عشر رجلا .

[هـ] لا تنعقد إلا في موضع واحد من البلد ، وهو قول الشافعي ، ومالك ، وأبو يوسف .

[و] وقال أحمد : تصح بموضعين إذا كثرت الناس وضاق الجامع ، ورد في البخاري ومسلم أنه صلى

الله عليه وسلم قال : « إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة أنصت والامام يحطّ بقدر لغوت » .

هذا هو نهاية الكلام على اللطيفة الثانية في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم

الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لکم ان کتم تعملون ، فإذا قضيت الصلاة فانثربوا في

الأرض وابتغوا من فضل الله واذکروا الله كثيرا لعلکم تفلحون ، وإذا رأوا تجارة أو هبوا انفضوا إليها

وترکوک قائما قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين » وبهذا تم تفسير [سورة الجمعة]

يوم الجمعة ١٩ من ذى الحجة الحرام سنة ١٣٤٣ هجرية — الموافق ١ يوليو سنة ١٩٢٥ م .

تفسير سورة المنافقون

هي مدنية

آياتها ١١ — نزلت بعد الحج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ .

إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ

إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ * اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا

يَعْمَلُونَ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ * وَإِذَا

رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خَشَبٌ مُسْتَنْدَةٌ يَتَخَسَّبُونَ كُلًّا

صِیْحَةً عَلَيْهِمْ هُمْ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا

يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ * سَوَاءٌ

عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ

الْفَاسِقِينَ * هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ * يَقُولُونَ لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ

لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلُّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا

يَعْلَمُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ

يَقَعْلَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ * وَأَنْتَقُوا بِمَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ *

في هذه السورة مسئلتان : وصف المنافقين ، والحض على الانفاق قبل الموت

التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

(إذا جاءك المنافقون) عبد الله بن أبي وأصحابه (والله يعلم أنك لرسوله) كلام مستأنف ليس من كلام المنافقين (والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) أى فى قولهم : « نشهد أنك لرسول الله » لأنهم أضمرُوا خلاف ما أظهرُوا ، وكل من أخبر بشئ وهو يعتقد خلافه فهو كاذب ، فالكذب هنا مخالفة اللسان للجنان (اتخذوا أيمانهم جنة) سترًا يستترون به من القتل ، وقد كانوا يحلفون بالله أنهم لكم ويقولون « نشهد أنك لرسول الله » (فصعدوا عن سبيل الله) أى منعوا الناس عن الإيمان والجهاد فى السر (ذلك) إشارة للحال المذكورة من النفاق والكذب الخ (بأنهم آمنوا ثم كفروا) أى بسبب أنهم آمنوا ظاهراً ثم كفروا سراً فتمرت نوا على الكفر وصار التأون سجية لهم (فطع على قلوبهم) ختم عليها واستحكم الكفر فيها (فهم لا يفقهون) حقيقة الإيمان ولا يعرفون صحته .

ثم وصف هيئاتهم الظاهرة والباطنة ، فهم فى الظاهر ضخم الأجسام صباحها ، ومنطقهم عذب ، ولكلهم عذوبة وحلاوة ، وهم فى الباطن كأنهم خشبات نخر جوفها ، فهمى فى الظاهر ضخمة حسنة ، وفى الباطن فارغة مجوفة ، فلذلك تراهم جبناء ، حتى إذا سمعوا منادياً ينادى ، أو انفلتت دابة ، أو نشدت ضالة ، ظنوا أنهم هم المقصودون ، وأن أمرهم افتضح ، فهم سيهانون ، لأن المريب يكاد يقول خذونى ، والشارق يكاد إذا رأى القياد أن يقول ضعوفى ، فخذ حذرَكَ منهم فإله كافيك أمرهم ولا عنهم ، وهذا قوله تعالى (وإذا رأيتم نَجْجِكَ أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة) الخشب جمع خشباء ، وهى الخشبة التى نخر جوفها ، شبهوا بها فى حسن المنظر ، وقبح الخبر ، فهم كأشباح بلا أرواح ، وأجسام بلا أحلام ، ومعنى « مسندة » أى إلى الحائط ، فليست بأشجار مثمرة ينتفع بثمرها وغيره فى المستقبل (يحسبون كل صيحة) واقعة (عليهم هم العدو فاحذرهم) لأنهم منهزمون ، وقوله (فأنظروا الله) دعاء عليهم كأنه سبحانه يطلب من ذاته أن يلغى عنهم (أنى يؤفكون) أى كيف يصرفون عن الحق (وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوأروا رؤوسهم) أى أمالوها وأعرضوا بوجوههم رغبة عن الاستغفار ، وقوله (يصدون) أى يعرضون عما دعوا إليه (وهم مستكبرون) عن الإيمان .

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين لقي بنى المصطلق على المريسيع وهو ماء لهم وهزمهم وقتلهم ازدحم على الماء رجلان : رجل يقال له [جهجاه] وهو أجبر عمر ، ورجل يقال له [سنان الجهنى] وهو حليف عبد الله بن أبي واقتلا ، فصرخ جهجاه وقال للمهاجرين ، وسنان قال بالأناصير ، فأعان جهجاه رجل من المهاجرين وأقام سنانا فقال عبد الله للمهاجر : ما صبحنا مجداً إلا للطعم ، والله ما مثلنا ومثلهم إلا كما قال : [سمن كنبك يا كلك] أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل [يريد بالأعز نفسه ، وبالأذل رسول الله صلى الله عليه وسلم] ، ثم قال لقومه : لوأسكتكم عن هذا وذو به فضل الطعم لم

يركبوا رقابكم ، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من حول محمد ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر : دعني أضرب عنق هذا المنافق يا رسول الله ، قال إذن ترعد أنف كثيرة يثرب ، قال فإن كرهت أن يقتله مهاجر فأمر به أنصاريا ، قال : فكيف إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ! ثم قال صلى الله عليه وسلم لعبد الله : أنت صاحب الكلام الذي باعني ، قال والله الذي أنزل عليك الكتاب ما قلت شيئا من ذلك وإن زيدا [يريد زيد بن أرقم المبلغ] لكاذب ، فترأت هذه الآيات ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد بن أرقم : يا غلام : إن الله صدقك وكذب المنافقين ، فلما بان كذب عبد الله قيل له : قد نزلت فيك آي شدد ، فاذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستغفر لك ، فلوى رأسه وقال : أمرتموني أن أومن فأمنت ، وأمرتموني أن أزكي فزكيت ، وما بقي إلا أن أسجد لمحمد ، ولم يلبث إلا أياما حتى اشتكى ومات ، وقوله (سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم) أي سواء عليك الاستغفار وعدمه (إن يغفر الله لهم) لرسوخهم في الكفر (إن الله لا يهدي القوم الفاسقين) الخارجين الذين لا يمكن إصلاحهم (هم الذين يقولون) للأنصار (لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا) يريد فقراء المهاجرين (ولله خزائن السموات والأرض) فهو الذي بيده الرزق والقسم (ولكن المنافقين لا يفقهون) ذلك لجهاهم (يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل) ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين (أي ولله الغلبة والقوة ولن أعزّه من رسوله والمؤمنين ، وهذا القول قد تقدم شرحه في ذكر السبب (ولكن المنافقين لا يعلمون) افطر جهلهم ثم قال (يا أيها الذين آمنوا لا تلهمكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله) نهى للمؤمنين أن تشغلهم الأموال وتديرها عن ذكر الله بالقلب واللسان في الصلاة والعبادات وفي سائر الأوقات كما شغلت المنافقين (ومن يفعل ذلك) اللهوبها (فأولئك هم الخاسرون) وأي خسر أعظم ممن باع حقيرا فانيا بعظيم باق ! (وأنفقوا مما رزقناكم) أي بعض أموالكم (من قبل أن يأتي أحدكم الموت) أي دلائله (فيقول رب لولا) هلا (آخرتي) أمهلتي (إلى أجل قريب) أمد غير بعيد (فأصدق) فأصدق (وأكن من الصالحين) بتدارك مافات (ولن يؤخر الله نفسا) ولن يمهلهما (إذا جاء أجلها) آخر عمرها (والله خير بما تعملون) فجاز عليه . انتهى التفسير اللفظي للسورة كلها ، والحمد لله رب العالمين .

إيضاح

اعلم أن [سورة الجمعة] إنما دعت إلى فهم كتاب الله وحوز العلم والحكمة ، وألا يكون المؤمنون كاليهود الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها ، واتضح فيها صفة الولي ، وأنه هو الذي سارع إلى الخبرات ، ولم يبال بالموت بل يتمناه ، ثم ذكر الصلاة ، وذكر الله في كل حين لإتمام المحبة الإلهية في النفس حتى تحب لقاء الله ، فلما فرغ منها أتى بهذه السورة التي أماطت اللثام عن الصبر على إيذاء المنافقين ، وعداوة الأصحاب المخادعين ، وبيانه أن الإنسان في هذه الدنيا يقوم بما قسم له من الأعمال ، وكلما كان أكثر نفعا وأبعد أثرا كانت العداوة له أعظم خطرا ، وحساده أشد ضررا : وترى الزوج يسعى على زوجته ، والوالد يكسب لأبنائه ، والأستاذ يجد لارتقاء تلاميذه وينصحهم ، ومع ذلك كم من زوجة كانت هي الداء العضال لزوجها ، وكم من ولد كان حسرة ونقمة على والديه ، وكم من تلميذ كان حرجا عوانا على أستاذه ، فأمر الله في القرآن : « يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم » ، وقال : « إنما أموالكم وأولادكم فتنة » وأنزل [سورة التحريم] الآتية قريبا ، وذكر فيها إيذاء الزوجات لأزواجهن ، وأنزل هذه السورة بعد [سورة الجمعة] ، كل ذلك ليعلم الصبر على المصائب ، والحق أن في أكثر الناس استعدادا لأعمال الشريعة ، ولكن من يجوز الامتناع ويصبر عليه قليل ، ألا ترى أن كثيرا من الناس يسعى في الأعمال النافعة حتى إذا صدمته صدمة ،

أو أصابته نكبة ، أو آذاه من أحسنوا إليه ، أو واجهوه بالازدراء والسخرية والتهكم ، فانه ينصرف عن نفعهم ويقطع عن نصحتهم ، ويرجع لعقريته مدحورا ، ذلك لأنه لاقدرة له على السير في الامتحان ، وليس من رجال هذا الميدان ، ولا هو من طالبي الجليلات الحسان ، فيرجع القهقري ، ويترك الوري ، كأنه لا يسمع ولا يرى ، خائبا وهوكايل ، كأن الله بهذه السورة يقول : أيها المؤمنون : هاهوذا نبي أمددته بالقرآن ، وجعلت الناس يلتفتون حوله ويعظمونه ، فليس منكم من يعظمه الناس ويحلمونه مثله ، فالعلمون منكم والمدرسون لا ينالون من تعظيم تلاميذهم ما ناله ، ولا يؤثرون في قلوبهم ما أثره ، ثم انه آذاه المنافقون من أصحابه ، وأوحى الله إليه بما أسروا في أنفسهم ، وما أظهروا بالأسفهم ، ومع ذلك لم تهن عزيمته ، ولم تضعف همته ، بل دام على النصيح والارشاد ، وهذا من خلة الصبر والعزيمة ، فصاحب العزيمة لا يثنيه عن عزيمته الجيوش الجائرة ، ولا السيوف البتارة ، ولا الأصدقاء الخائتون ، ولا الأبناء العاصون ، ولا الزوجات الماكرات ، فالعزيمة والهمة يخضع لها الجبارون ، ويذل لها المتكبرون ، ولا يقف في طريقها أعظم الصعاب ، ولا عيب من عاب . يستعظم المعلم أئمة من تلقى علمه ، أفلا يذكر هذا المعلم أن خير الخلق قد آذاه من أسلم على يديه ، ثم ظهر نقاقه وثبت بالقرآن ، والنبي صلى الله عليه وسلم صابر على من آذوه ، ماض في عمله ، مطيع لربه ، والله هو الولي الجيد .

فتكون إذن [سورة الجمعة] للعلم والعمل [والمنافقون] للصبر وقوة الأمل : « والعصر ، إن الإنسان لفي خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » فلا وصيك بالحق فتم به في هذه الأمة التي خفضها الجهل ، وأزرى بها الكسل ، وسترى من تلاميذك وبعض أسرتك من يناوئونك إما سرا وإما جهرا ، فلتسر في طريقك . واعلم أن الرجل اذا سافر فشا كته شوكة فانه لا يضيع الزمن في الكلام عابها ولا في الشكوى منها ، بل يتبع الركب ولا يتوقف فيضيع الزمن لأجل الشوكة وكيف دخلت ، وبأخذ في سبها ، فان ذلك كله ضياع لمصلحه ، فهكذا هنا هؤلاء المنافقون الذين يحيطون بالعامل الصادق من كل جانب لا ينبغي أن يصدوك عن عملك : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن الجاهلين ، إنا كفيناك المستهزئين » . انتهى تفسير سورة المنافقون ، والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة التغابن

هي مدنية

آياتها ١٨ — نزلت بعد التحريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَتَكُونُ كَافِرًا وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ * يَعْلَمُ مَا فِي

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * أَلَمْ
يَأْتِكُمْ نَبُوءُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * ذَلِكَ بِأَنَّهُ
كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ
غَنِيٌّ حَمِيدٌ * زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ
وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ *
يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنِ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ
سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ *
وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * مَا أَصَابَ
مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنِ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ
وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى
اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ
فَاخْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ
وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا
وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * إِنْ تَقَرُّضُوا اللَّهَ
قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ * عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *

مقدمة

هذه السورة مع ما قبلها تتحدثان في أمر ، وهو الصبر على القرآن ، فسورة المنافقين فيها صبر النبي صلى
الله عليه وسلم على نفاق من حوله ، حتى بها لتكون ذكرى للعلماء ، وللحكام أنهم إذا رأوا منافقين من
أخوانهم وتلاميذهم ورعاياهم فلا يبعدن ذلك بهمهمهم عن الجِدِّ والتشمير في خدمة المجموع ، وسورة التغابن
ذكر فيها أن من الأزواج والأولاد أعداء ، فيكون الملخص من هذين ألا يبتسئ الإنسان بما يقاسى من
الأحباب والتلاميذ والرعية والزوجة والولد ، وملخص ذلك أن الإنسان في الدنيا وحده ، فلا يطمعن فيها أن
يكون واثقا كل الثقة بأحد ، فإذا كانت [سورة الجمعة] للعلم والعمل فسورتا [المنافقين والتغابن]
للسبر ، فاذن ديننا يحرص على الأعمال القلبية وهي عنده بالمقام الأول ، فبغير الصبر لا علم ولا عمل ، ثم إن
السورتين اشتركتا أيضا في الاتفاق والحث عليه في آخرهما ، ولنشرع في التفسير اللفظي فنقول :

التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

(يسبح لله ما في السموات وما في الأرض) التسييح بالدلالة على تنزيه الصانع وكلمه ، وبأن هذه المخلوقات مسخرة منقادة ، فلا تقياد تسييح ، والدلالة تسييح ، وقوله (له الملك وله الحمد) فهو يتصرف تصرف اختصاص ، فلا جد إلا له ، لأنه مصدر الخبرات ، ومفيض البركات (وهو على كل شيء قدير) يفعل ما يشاء ، ولا جرم أن عدم تناهي القدرة على الأشياء مما يوجب جلال الملك واتساع نطاق الحمد (هو الذي خلقكم فكفر ومنكم مؤمن) فإذا متم وبعثتم رجعتم إليه بصفاتكم التي متم عليها .

وفي حديث مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله خلق للجنة أهلها خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم ، وخلق للنار أهلها خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم » اهـ

وانما كان ذلك لأن كل مخلوق تابع لاستعداده المستمد من النظام العام ، وهذا الاستعداد مخلوق فيه للترية كما يربي النبات والحيوان ، ولذا أعقبه بقوله (والله بما تعملون بصير) أي عالم وبصير بكفركم وإيمانكم اللذين هما من عملكم ، وبما كان سببا لهما من استعدادكم ، وبما يكون نتيجة لهما من جزائكم (خلق السموات والأرض بالحق) بالحكمة البالغة ، ولقد ظهر أثر تلك الحكمة في تصوريكم فكنتم مختلفين في الصور كما اختلفتم في العقائد ، فإذا كان في صوركم السوداء والبيضاء والتي بينهما ، فهكذا في عقائدكم الكفر والإيمان والعصيان ، فالكفر كالسواد ، والإيمان كالبياض ، والوسط بينهما كالصفرة والحرة في أهل الصين وأهل أمريكا الأصليين ، فإذا كانت هذه حالكم في صوركم التي اقتضاها النظام ولم يكن هناك تناقض بل النظام محكم ، ولم يقل أحد من الحكماء ولا الفلاسفة أن السواد خطأ ، أو البياض خطأ ، أو الصفرة ، أو الحرة النحاسية ، هكذا سيكون في العالم الروحي نظام مستقوهونه بعد الموت إذا انكشف عنكم الغطاء ، فانكم سترون أن كفر الكافر من حسن نظامنا كما كان إيمان المؤمن من حسن نظامنا ، فإذا كان الحنظل في الأرض والبطيخ والعقرب والجراد والذئب والفزال والسم والغذاء والنار والماء ، كل ذلك من مقومات هذا الوجود أومن حسن نظامه ، هكذا ستعرفون في عالم الأرواح أن اختلاف العقائد لمصالح كصلاح اختلاف الأغذية والأدوية والمهلكات في هذه الحياة ، وسترون أن الأنبياء والعلماء والحكماء أشبه بالزراع يزرعون المزارع لمصالح الانسان ، وأن العقائد الزائفة كالحشائش التي يعتمد الفلاح اقتلاعها من الأرض بفأسه ، هذه المعاني بعض ما يفهم من قوله (وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير) فليجد المرء منكم أن يكون ممن تأهلوا للقاء الله بقلوب صافية عاقلة ، وليحذروا أن تكون صورته القلبية مشوهة فلا يصلح للقاء الله كما لا يصلح المشوه الوجوه للقاء الملوك ، ولا لأنس الأصحاب (يعلم ما في السموات والأرض ويعلم ما تسرون وما يعلنون والله عليم بذات الصدور) فلا تخفى عليه خافية ، قد استوى في علمه ظواهر الأمور وبواطنها ، ثم خاطب أهل مكة قائلا (ألم يأتكم نبي الذين كفروا من قبل) كقوم نوح وهود وصالح (فذاقوا وبال أمرهم) أي ضرر كفرهم في الدنيا وهو ما لحقهم من العذاب ، وهكذا الأمم العاصية التي كسبت وتركت ما يجب عليها من أمة الاسلام في القرون الآخرة ذاقوا وبال أمرها في الدنيا فأصبحوا عبرة الأمم وضرب الأمثال بالجهل والذل ، فهؤلاء يصلحون للاعتبار بهم ، فهم قد وقعوا في عذاب الاختلال واحتلال أهل أوروبا لعقولهم وجناتهم ، فهؤلاء يصلحون لأن يعتبر بهم المسلمون الحاليون والذين يأتون بعدهم ، بل الاعتبار بهم أقرب ، لأنهم ذاقوا وبال أمرهم ، وفي التعبير بقوله : « ألم يأتكم نبي الذين كفروا من قبل » فتح باب للاعتبار بالتاريخ ، لافرق

بين قوم نوح وقوم من أمم الاسلام كأهل الأندلس الذين أذاقهم أوروبا كأس الفلّة ، وأخرجتهم من ديارهم كما أخرج المسلمون اليهود من جزيرة العرب ، بمثل هؤلاء فليعتبر المسلمون ، وقوله (ولهم عذاب أليم) أى فى الآخرة ، وهكذا المسلمون المقصرون فى فروض الكفايات ، وهى جميع العلوم والصناعات سيُعذبون بعد الموت عذاب التقصير لعذاب الكفر لأنهم مؤمنون . واعلم أن كثيرا من أهل العلم اليوم فى بلاد الاسلام غافلون ناعون ، فقد بلغنى أن أحدهم اطلع على ما كتب فى (سورة البقرة) من قولى : [إن علم الأجنة يحرم تركه على المسلمين] فظن ذلك الغافل أن هذا القول شىء اخترعته ، ففرح بذلك وقال : إن هذا ليس فى الدين ، وقد وهم ، لأن هذا ليس واجبا عينا بل هو فرض كفاية ، وهكذا جميع العلوم والصناعات والأمة كلها تعذب بترك فرض الكفاية ، لأنه نقص لاحق بالأمة كلها (ذلك) المذكور من الوبال والعذاب (بأنه) بسبب أن الشأن (كانت تأنيهم رسلهم بالبينات) بالامحجرات (فقالوا أبشريهدونا) أى أنكروا أن يكون الرسل بشرا ، فهم لا يشكرون أن يكون معبودهم حجرا ، وينكرون أن يكون رسول المعبود انسانا ، كأن الرسول يجب أن يكون أشرف من المرسل الذى أرسله (فكفروا) أى جحدوا وأنكروا (وتولوا) أعرضوا (واستغنى الله) عن إيمانهم وعبادتهم (والله غنى) عن خلقه (جيد) فى أفعاله . هذا تمام الكلام فى كفرهم وتكذيبهم الأنبياء ، ثم أتبعه بذكر انكار البعث فقال : (زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل) يا محمد لهم (بلى وربى لتبعثن) هذا قسم ليؤكد به الجواب (ثم لتنبؤن بما عملتم) بالحاسبة والمجازاة (وذلك على الله يسير) أى أمر البعث والحساب يوم القيامة (فآمنوا بالله ورسوله) محمد صلى الله عليه وسلم (والنور الذى أنزلنا) وهو القرآن (والله بما تعملون خبير) فجاز عليه وقوله (يوم يجمعكم ليوم الجمع) متعلق بنبؤن ، ويوم الجمع هو يوم القيامة ، إذ يجمع الله فيه الأولين والآخرين ، وأهل السموات وأهل الأرضين (ذلك يوم التقابن) مستعار من تقابن القوم فى التجارة ، وهو أن يفتن بعضهم بعضا ، كأن يبيع أحدهم الشىء بأقل من قيمته ، فهذا غبن للبائع ، أو يشتريه بأكثر من قيمته ، فهذا غبن للمشتري ، وأى غبن أعظم من أن قوما ينعمون وقوما يعذبون ، وأن قوما مغبونين مظلومين فى الدنيا أصبحوا فى الآخرة غائبين لمن غبنوهم فى الدنيا وظلموهم : إن الكفار غبنوا فى شرائهم ، لأنهم اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة ، فأما المؤمنون فقد ربحوا تجارتهم (ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا) أى عملا صالحا (يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم ، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير) وهذا هو التقابن ، فلئولئك الذين عملوا الصالحات فى الجنة ، والكافرون فى النار ، وهذا هو ملخص التقابن .

وهنا يرد السؤال فيقال : وإم هذا ؟ وكيف خلقتهم ونوعتهم ؟ هلا جعلتهم جميعا سعداء ، مع أنك قادر على كل شىء ؟ وكيف تعذب وأنت أرحم الراحمين ؟ إن العقل هنا لا يستطيع الإجابة على هذا . ومما يؤيد هذا السؤال وبقوّه أنه يقول (ما أصاب من مصيبة إلا باذن الله) أى بقضاء الله وقدره وإرادته ، ولا جواب على هذا السؤال إلا ما جاء فى أول السورة : «هو الذى خلق السموات والأرض بالحق» وصوركهم فأحسن صوركم . وقد تضمن الاختلاف فى الصور ، فالاختلاف هنا كالاختلاف هناك ، ومن الحكماء وأرباب البصائر من يعرفون سرّ هذا الاختلاف ، وأن وجود الخنظل والبطيخ ، والبقعة والقيط ، والحرق والبرد والموت والحلو ومشابهات تمام المشابهة لما فى العقول من كفر وإيمان ، وخير وشر ، وجهل وعلم ، وأن النظام فى الحالين واحد ، ولكنهم لا يريدون أن يذكروا الحقائق التى عرفوها ، لأن جمهور النوع الانسانى غير كفوف لفهم هذه الحقائق ، فلذلك يكتمونها ، وهكذا أنت أيها الذكى إذا كنت ممن عرفوا الحقائق ، فأنت مضطر

أن تكتمها عن الناس في هذا الموضوع وحده ، لأن عقولهم لاتتحمله ، وهذا المقام فيه مثال واسع في (سورة الأعراف) عند قوله تعالى : « ورحمتي وسعت كل شيء » فارجع إليه إن شئت .

هذا في معنى الآية من حيث العلم ، أما مغزاها من حيث العمل فإن سورة المنافقين المتقدمة ، وإنهم كانوا يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما يأتي في هذه السورة بعد هذه الآية من إيذاء الأزواج والأولاد للبعولة والآباء فإن الله يبين لنا أن هذه المصائب مقدرة ، فإذا عاب المنافقون نبيهم وأنكروا نعمته ، وإذا أنكر التلاميذ نعمة أساتذتهم ، والأبناء نعمة آبائهم ، فلا يحزن النبي ولا الأساتذة ولا الآباء ، وكيف يحزنون على شيء قدر عليهم قبل خلقهم ؟ كما لا ينبغي أن يحزن الناس على الاختلاف في الكفر والإيمان والجنة والنار ، لأن ذلك الاختلاف من جلة النظام الذي وجد عليه العالم ، وليس معنى هذا أن الإنسان لا يعمل ولا يجتهد في هداية الكافرين ، ونصح العصاة ، وتأييد المنافقين ، وإرشاد وتأييد الساء والبينين كلا : إنما ذلك القول ليستروح به الناس بعد أن يكونوا قد عملوا ما يجب عليهم وأتموه ، فلما إذا لم يتجوا ما يجب عليهم من هداية أو تهذيب لأنفسهم ولغيرهم ، رسي في الكسب والعمل لهم ولغيرهم فانهم معذبون بهذا عذابا شديدا ، ويكون ذلك وفق القضاء .

وما يخص هذا أن الإنسان يتم ما يجب عليه له ولغيره ، ثم بعد ذلك لا يبالي بما يأتي به القضاء ، وهذا هو التوكل . ولما كان هذا تمام السعادة في الدنيا والآخرة بحيث يكون الإنسان مجتادا في عمله ، والقيام بأمره ، والسعي لتمام الأمور ، مريحا نفسه من عناء الهم والغم ، لعلمه أنه قد فعل كل ما يجب عليه ، وأن ما فوق ذلك ليس في طاقته ، فهما كان من خير أوشر بعد ذلك فلن يهوله أمره ، وإن يحزن عليه ، لذلك أعقبه بقوله (ومن يؤمن بالله يهد قلبه) بوفقه لليقين ، وهذا هو عين اليقين ، وأي نعمة أعظم من هذه النعمة ، جت في عمل ، واستراحة من غم وحزن ، واطمئنان نفس ، وثوق بفضل ، وعلم بأنه لم يقصر (والله بكل شيء عليم) والقلوب من جلة الأشياء فهو مطلع عليها (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتهم) فلا بأس عليه (فاعلموا على رسولنا البلاغ المبين) لأن وظيفة التبليغ وقد بلغ فإذا عليه بعد ذلك ؟ هل يكلف بما فوق طاقته ؟ إذن هو لا يحزن بعد ذلك ، وقد هدى الله قلبه ، وعرف أن للقضاء والقدر أثرا تاما في البرية ، هكذا كل امرئ في الأرض فليفعل ما يجب عليه ، وليس عليه غير ذلك ، ولهذا أشار بقوله (الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون) أي فليفعلا غاية جهدهم ، ثم ليكفوا إلى الله نتائج أعمالهم ، ولا يحزنوا على ما يصيبهم ، إذ ليس في طاقته رده ، وإنما الحزن يكون على التقصير ، ونموذج التوكل مسألة التبليغ ، فقد بلغ النبي صلى الله عليه وسلم وليس عليه بأس إذا لم يؤمنوا ، نعم إذا أمر بقتالهم وهو قادر وقصير فانه يؤاخذ على ذلك ، لأن في القتال ضررا قليلا لطائفة من الناس فيدخلون في الإيمان ثم يأتي بعدهم مالا نهاية له من الأمم إلى يوم القيامة فيدخلون في الدين طوعا لا كرها .

ثم أعقبه بمسألة تصيب الناس في داخل منازلهم ، وهي مما ينبغي التوكل فيه بعد التأديب الشديد والقيام بالنظام على أتم وجه فقال (يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم) أي أن من الأزواج أزواجا يعادون بعولتهم وبخاصتهم ، ومن الأولاد أولادا يعادون آباهم ويعقونهم ، وهكذا الأزواج والأولاد يكونون سبب جنسكم عن القتال ، ويحلمكم بالمال ، وجهلكم ، لأنهم يشغلونهم بحلب المال لهم ، كما اتفق لعوف بن مالك الأشجعي ، وكان ذا أهل وولد ، فإذا أراد أن يغزو بكوا عليه ورقوه وقالوا إلى من ندعنا ؟ فبرق عليهم فقيم ، وأيضا كان رجال آخرون من أهل مكة أرادوا أن يأتوا النبي صلى الله عليه وسلم ، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم أن يأتوا النبي ﷺ فلما أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم رأوا

الناس قد فقهوا في الدين فهموا أن يعاقبهم فترل قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم
عدوا لكم » (فاحذروهم) ولا تأمنوا غوائلهم (وإن تغفوا) عن ذنوبهم بترك المعاقبة (وتصفحوا)
بالاعراض وترك التريب عليها (وتغفروا) باخفائها وتهيد معذرتهم فيها (فإن الله غفور رحيم) يعاملكم
بمثل ما عملتم ويتفضل عليكم ، وهذا العمل هو الذي فعله ﷺ مع المنافقين فإنه لم يعاقبهم وعفا عنهم وحذرهم
فلافسان إذن في منزله أشبه بقائد الجيش في سومة الوغى لايفك عن مهاجرة عدوه وصيانة عسكره ، فهو
دائما في حذر ، ثم أتى بالنتيجة وأبان أننا اليوم سائرون لله في هذه الحياة ، وليس هؤلاء الأولاد ولا النساء
ولا الأصحاب هم المقصودون ، بل المقصود الأعظم الوصول الى الله ، ولوكان المقصود هؤلاء لكانوا نعمة
لازمة فيهم ، ونعما لا عذابا ، ولكن الله جعل السم في دسمهم ، والعذاب في نعيمهم ، والشفاء محبوا في
الاسترواح لهم ، ليكون ذلك دليلا أن هؤلاء لبسوا نهاية الأعمال إنما هم عن ابتلينا بهم في طريق سفرنا
الطويل الشاق ، والنتيجة أننا نكون في دار لا يكون الخير فيها مشوبا بالشر ، وهذا قوله تعالى (إنما
أموالكم وأولادكم فتنة) اختبار لكم (والله عنده أجر عظيم) لمن أثر محبة الله وطاعته ، إذن فليكن
المقصد الأعظم نهاية الأمر لا الوقوف في أثناء السفر . ولما كانت هذه الامور فيها اختلاط على النفس واختباط
فلا يدري الانسان ماذا يعمل وجب عليه صيانة أهله وولده ، ووجب عليه جهاد عدو البلاد والنزال معه
للحرب فلا يدري ماذا يصنع ان حارب العدو ترك أهله وان بقي مع أهله دخل العدو البلاد ، وهكذا يعيش
الانسان بين المتناقضات وهو في حيرة ، والفؤاد معذب بين الامور العامة والخاصة ، لذلك أعقبه بما يفيد
أن الانسان يفسكر فيما فيه المصلحة بقدر طاقته ، وهذا قوله تعالى (فاتقوا الله ما استطعتم) أي ابدلوا في
تقواه جهدكم وطاقنكم (واسمعوا) مواظله (وأطيعوا) أوامره (وأنفقوا) في وجوه الخير لوجهه
وانتوا (خيرا لأنفسكم) أو وأنفقوا اتفاقا خيرا (ومن يوق شح نفسه) الذي استوجبه الفتنة بالأموال
والأولاد (فأولئك هم المفلحون) أي هم الفائزون (إن تقرضوا الله) بصرف المال فيما أمرم به (قرضا
حسنا) مقروبا بالاخلاص وطيب القلب غير مكترئين بما تسمعون من أولادكم وأزواجكم (يضاعفه لكم)
عشرا وسبعمائة أو أكثر (ويغفر لكم) بركة الاتفاق (والله شكور) يعطي الجزيل بالقليل (حلیم)
لا يعاجل بالعقوبة (عالم الغيب والشهادة) ما غاب وما شوهد (العزيز الحكيم) تام القدرة والعلم . انتهى
تفسير [سورة التغابن] والحمد لله رب العالمين .



تفسير سورة الطلاق

هي مدنية

آياتها ١٢ - نزلت بعد الانسان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ مِنْ أَمَدَّتَيْنِ وَاحِدَةٍ وَأَحْضُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تَخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا * فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا * وَاللَّائِي يَتَسَنَّوْنَ مِنَ الْمَجْزِئِصِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحْضُنْ وَأُولَاتِ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا * ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا * أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأَتَمُّوا رِزْقَهُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتْرُضِعْ لَهُ أُخْرَى * لِيُنفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُفْسِقْ إِنَّمَا وَهَّاءُ اللَّهِ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً آتَاهَا سَيِّجَعُلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا * وَكَأَيُّنَ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَبْنَاهَا عَذَابًا نُكَرًا * فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا * أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا * اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا *

مقدمة

هذه السورة فيها معاملة الزوجات حال بقائهن في العصمة وحال مفارقتهن من الامساك بالمعروف ، ومن الطلاق والعدّة ، ومن الاتفاق في مآتها ، فاسب أن تذكر بعد [سورة التغابن] التي ذكر فيها الصبر والعفو عن الأزواج والأولاد الذين هم فتنة ، فهنا بيان أن من هؤلاء الذين فتنهم بهم من تقدرهم على مفارقتهم ، فلتكن المفارقة بالمعروف كما يكون الامساك بالمعروف ، أما الأولاد والأصحاب الذين لا مفر من صحبتهم كالأبناء العاقين ، وكل المنافقين أزمان النبوة ، فليس هؤلاء حال يتبرأ منهم الانسان إلا حال الكفر ، فاذن نكون البراءة ، أما فيما عدا ذلك فلتكن النصيحة والتأديب نارة والعفو والصفح أخرى ، ثم يتخلل تلك الأحكام الشرعية في هذه السورة ذكر التوكل وإرجاع الأمور إلى الله كما في [سورة التغابن] إذن هذه السورة كالتممة التي قبلها والموصحة لبعض ما أجمل فيها .

ولما طال الكلام في هذه السور على علوم المعاملة وهذا يجعل الانسان اذا استغرق فيه ناسيا ذكر ربه ختم السورة بأن الله خالق سبع سموات وسبع أرضين ، وأزل قضاءه وأمره ينفق بنظام حسن ، ليعلمنا علم مبدعانه ، وبرق نفوسنا ببدايع حكمه ، وعظيم آياته ، هذا ملخص هذه السورة اجالا .

ملخص الأحكام في هذه السورة

- (١) إن المطلقة عدتها ثلاثة قروء وهي الاطهار ، أو الحيضات رأيان .
- (٢) ولا تخرج من البيت حتى تنقضي عدتها إلا في أحوال خاصة .
- (٣) فإذا شارفت العدّة أن تنقضي فالرجل الخيار إما أن يراجعها وإما أن يفارقها بالمعروف .
- (٤) وإذا راجعها أو فارقها فليشهد على ذلك ذوى عدل .
- (٥) المرأة التي يشئت من الحيض ، واثني لم تحض عدّة كل منهما ثلاثة أشهر .
- (٦) الحامل عدتها بوضع الحمل وينفق على الحامل حتى تضع حملها وتخرج من العدّة .
- (٧) فإذا أرضعت المرأة فلها أجر الارضاع .
- (٨) الاتفاق من المعسر ومن الموسر كل بقدره . اهـ

التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

(يا أيها النبي) قل لأمتك (إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن) أي لزمان عدتهن ، وهو الطهر لأشهر تحصل في العدّة عقيب الطلاق فلا يطول عليها زمان العدّة ، وقد كان ابن عمر يطلق امرأته وهي حائض فذكر

ذلك عمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتعظيمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : مره فليراجعها
ثم يمسكها حتى تظهر ، ثم تحيض ، ثم تطهر ، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها قبل أن يمسه ، فذلك العدة التي
أمر الله أن يطلق لها النساء . وفي رواية لمسلم أنه قال : « مره فليراجعها ثم ليطلقها طاهرا أو حاملا » .
(وأحصرا العدة) واضبطوها وأكثروا ثلاث أفراء كوامل لا نقصان فيها ، وانما خوطب الأزواج لغزالة النساء
(وانتوا الله ربكم) في تطويل العدة والاضرار بهن و (لا تخرجوهن من بيوتهن) أى من مساكنهن التي
يسكنها قبل العدة ، وهى بيوت الأزواج ، فتكون السكنى إذن واجبة ، فلا تخرجوهن البعولة غصبا عليهن
وكرهه لمساكنتهن ، وألحاجة لهم إلى المساكن ، وألا يأذنوا لهم في الخروج إذا ظن ذلك ، إذ لا أثر لآذنه
في دفع الخطر (ولا يخرجن) بأنفسهن إن أردن ذلك (إلا أن يأتين بفاحشة مبينة) كالبذاءة على أهل
زوجها فيجوز إخراجها لسوء خلقها ، وتخرجها قبل انقضاء عدتها (وذلك) الأحكام المذكورة (حدود
الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه) بأن عرّضها للعقاب (لا تدرى) أيها المطلق (لعل الله يحدث
بعد ذلك أمرا) فرمما حصلت لك الرغبة في المصلحة فراجعها ، وفي الحديث : « أبغض الحلال إلى الله
الطلاق » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « أيما امرأة سألت زوجها بالطلاق من غير ما بأس به حرام عليها
رائحة الجنة » أخرجه أبو داود والترمذي (فإذا بلغت أجلهن) شارفن آخر العدة (فأمسكوهن) فراجعوهن
(بمعروف) بحسن عشرة وانفاق مناسب (أو فارقوهن بمعروف) أى أتركوهن حتى تنقضى عدتهن فتبين
منكم (وأشهدوا ذوي عدل منكم) على الرجعة وعلى الفراق ، وهذا مندوب كالأشهاد على التبايع ، وعن
الشافعي أنه واجب في الرجعة (وأقيموا الشهادة لله) أيها الشهود عند الاقتضاء (ذلكم) أى جميع ما في الآية
(يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر) فإنه الذي ينفع به . ولما كان هذا المقام فيه الكلام على الطلاق
والعدة وعدم الإخراج من المسكن وتعدى حدود الله وإقامة الشهادة وما يناسب ذلك من القضايا والمشاكل
الكثيرة التي تنفس العيش وتورث الألم أنزل الله فيه هذه الآية (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من
حيث لا يحتسب) فإذا لم يطلق الرجل امرأته في الحيض فتطول مدة عدتها ولم يخرجها من مسكنها ولم يتعد
حدود الله ولم يكتف بالشاهد شهادته ، ولم يعص الله المؤمن على وجه العموم في سائر أحواله فإن الله يخرجها
من العموم والوقوع في المضائق ويفرج عنه ويعطيه الخلاص ويرزقه من جهة لا يتخطر بباله ، وبالاختصار
من اتقى الله جعل له مخرجا ومخلصا من غموم الدنيا والآخرة ، ومن غمرات الموت ، ومن شدائد يوم
القيامة ، قال صلى الله عليه وسلم : « إني لأعلم آية لو أخذ الناس بها لكفهم : ومن يتق الله ، فإزال يقرؤها
ويعيدها » . وروى أن عوف بن مالك أسر المشركون ابنا له ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال :
أسر ابني ، وشكا إليه الفاقة ، فقال : ما أمسى عند آل محمد إلا مة ، فتق الله واصبر ، وأكثر من قول :
لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، فعاد إلى بيته وقال لامرأته : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرني
وإياك أن نستكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، فقالت نعم ما أمرنا به ، فجعل يقولان ذلك
فبينا هو في بيته إذ قرع ابنه الباب ومعه مائة من الإبل تغفل عنها العدو فاستاقها فنزلت ، وقوله (ومن
يتوكل على الله فهو حسبه) أى ومن يكل إليه أمره فهو كافي في الدارين (إن الله بالغ أمره) أى يبلغ
ما يريد لا يفتره مراد ولا يجزئه مطلوب (قد جعل الله لكل شئ قدرا) تقديرا وتوقيتا ، وهذا بيان
لوجوب التوكل على الله وتفويض الأمر إليه ، لأنه إذا علم أن الرزق وغيره لها أوقات ومقادير محدودة لم
يحزن على ما فات منها .

دفع وهم

ثم اعلم أيها الذكي أن كثيرا من الناس يقرءون أمثال هذه الآيات ولا يفهمون المتصود منها ، فربما ترك
الإنسان الحزم في أمر والتفكير فيه والسمي في طلبه فيقوته فيقول اني توكلت على الله ، وهذا توكل لاقيمة
له ، بل التوكل أن تعمل كل ما يمكنك عمله ، وتكمل ماعداك إلى الله ، وكما من مسلم يسمع حديث عوف
ابن مالك ويظن أن هذا هو التوكل ، ولم يدرك أن هذا قد انقطعت به الأسباب ، فلم يبق له إلا الاتجاء إلى
رب الأرباب ، أما من عنده قدرة وعقل فعليه أن يسخرهما في عمله مجدا ، ولا يترك فرجة ولا خلا في نظمه
ويكمل أمر النتيجة لربه ، فأما من ليست لديه حيلة فليس له إلا الرجوع بالقلب إلى الله ، فاذن اتوكل للقادر
علم وعمل وتوجه بالقلب إلى الله ، فأما العاجز فليس له إلا الاتجاء بالقلب ، هذا تحقيق المقام ، فأكثر المسلمين
يأخذ الامور من وجه واحد وينسى ماعداه ، وهذا هو الذي قعد بالهمم ، وأما الأمم ، فرجعت القهقري ،
قال تعالى (واللاتي ينسن من الحيض من فسائكم) لكبرهن (ان ارتبتم) أى أشكل عليكم حكمهن
وجهنتم كيف تكون عدتهن (فعتهن ثلاثة أشهر) أى فهذا حكمهن ، وقيل : ان ارتبتم في دم البالغات
مبلغ اليأس أهودم حيض أو استحضاضه فعتهن ثلاثة أشهر ، وإذا كانت هذه عدة المرتاب بها فغيرها أولى
بذلك ، وقد قدر العلماء سن اليأس بستين سنة ، أو بخمسين سنة (واللاتي لم يحضن) وهن الصغيرات
فعتهن ثلاثة أشهر ، فأما الشابة التي كانت تحيض فارفع حيضها قبل بلوغ سن لايسات فهذه تنظر سن
اليأس ثم تعتد بثلاثة أشهر إلا أن يعاودها الدم فتعتد بثلاثة أقراء ، وهذا مذهب أكثر العلماء ، وقال عمر
رضي الله عنه : تتربس تسعة أشهر فان لم تحض تعتد بثلاثة أشهر ، وهذا قول مالك وماتقه قول الشافعي
وعطاء وعثمان وغيرهم ، وقال الحسن : تتربس سنة فان لم تحض تعتد بثلاثة أشهر ، وهذا كله في الطلاق ،
وأما المتوفى عنها زوجها فعتهن أربعة أشهر وعشرسواء أكانت ممن تحيض أولا تحيض ، وأما الحامل فعتهن
بوضع الحمل سواء أطلقها زوجها أو مات عنها ، وهذا قوله تعالى (وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن)
مطلقات كن أو متوفى عنهن أزواجهن (ومن يتق الله) في أحكامه فيراعي حقوقها (يجعل له من أمره
يسرا) يسهل عليه أمره ويوفقه للخير (ذلك) أى ما ذكر من الأحكام (أمر الله أنزله إليكم ومن يتق الله)
في أحكامه فيراعي حقوقه (يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا) بالمضاعفة (أسكنوهن من حيث سكنتم) أى
بعض مكان سكنكم (من وجدكم) أى من سعتكم وطافتكم ، فلو سربوسع عليها في المسكن والنفقة ،
والفقير يفعل على قدر طاقته (ولا تضاروهن) لا تؤذوهن (لتضيقوا عليهن وان كن أولات حمل فأنفقوا
عليهن حتى يضعن حملهن) فيخرجن من العدة ، وهذه الآية أوجبت النفقة للحامل مدة الحمل ، والرجعية
حكمها أنها لها النفقة والسكنى على الزوج مادامت في العدة ، لأنها في حكم الزوجة فلتبقى في البيت المملوك له
والموثر ، والا فلها أجرة السكن ، وأما البائن بالطلاق الثلاث ، أو بالخلع ، أو باللعان ، فلها السكنى حاملا
وغير حامل ، وقيل لا سكنى لها إلا إذا كانت حاملا ، وهل لها نفقة ؟ قيل لا نفقة لها إلا أن تكون حاملا ،
وهو قول الحسن وابن عباس والشافعي وأحمد ، وقيل يجب بكل حال ، وهو قول ابن مسعود والنخعي والثوري
وأصحاب الرأي ، فاذن أصحاب الرأي يجعلون السكنى والنفقة عاتين في الجميع ، ثم قال تعالى (فان أرضعن
لكم) بعد انقطاع علة النكاح (فاتوهن أجورهن) على الارضاع (وأنتمروا بينكم بمعروف) أى ليقبل
بعضكم من بعض اذا أمره بالمعروف ، أو لنفراض الأب والأم على أجر مسمى ، فهو أمر للزوجين معا أن
يأتوا بالمعروف وما هو الأحسن ، ولا يقصدوا الضرر ، وعلى ذلك لا يقصر الرجل في حق المرأة ونفقتها ، ولا المرأة
في حق الولد ورضاعه (وان تعاسرتم) في حق الولد وأجرة الرضاع فلم يعط الرجل الأم الأجرة ، ولم ترض

الأمّ بارضاعه فليس له اكراهها على الارضاع ، إذن فليست أجرة للصبي مرضها غير أمه ، وهذا هو قوله تعالى (فسترضع له أخرى) أى امرأة أخرى (ليفلق ذوسعة من سعة ومنه رزقه فليفلق مما آتاه الله) فليفلق كل من الموسر والمعسر ما بلغه وسعه (لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها) فإن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها ، وهذا القول طيب قلب المعسرين الذين وعدهم باليسر فقال (سيجعل الله بعد عسر يسرا) عاجلا أو آجلا ، وهذه الآية وهو قوله تعالى : « لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها » تفتح بابا واسعا لمباحث العلوم والصناعات المذكورة في (سورة البقرة) عند قوله تعالى : « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » ، فإذا رأيت القضاة يحكمون على زيد بمائة قرش في الشهر للمرأة ، وعلى خالد بألفي قرش على حسب طاقتهم ، هكذا يجب على زيد من العلوم أو الصناعات ما يطيقه ، وعلى خالد بأكثر أو بأقل ، وإن خلق الله في الأمة الأغنياء والفقراء ، هكذا خلق فيها قدرا وطاقت مختلفات في العلوم والصناعات فليمتحن التلاميذ في العلوم التي يجب أن يعمم تعليمها ، وليجعل كل تلميذ في العلم الخاص به ويدفع فيه .

ولما كان هذا المعنى المذكور في : « لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها » ينتقل من الفرد إلى الجماعة ، ومن مسألة الاتفاق على النساء إلى سائر فروع الحياة وكانت الأمة التي تهمل القدر والاستعداد لبعض المسلمين اليوم آيلة للخراب ، لأنها أهملت ما خلقه الله لها من العقول الثيرة الخبوة في أجسام أبناء الفقراء وأبناء الأغنياء فلم تستخرج تلك المواهب ولم تستقص القوى والقدر التي خيأها الله في بنائها ، فضاعت سياستها ، وبارت أرضها ، وقلت حاصلاتها ، وزاد الفسوق فيها ، وأصبحت طعمة لغيرها من الأمم ككثير من أمم الشرق الآن ، لما كان الأمر كذلك أعقب ما تقدم سبحانه بقوله (وكأين من قرية) أى أهل قرية (عتت عن أمر ربها ورسله) أى عرضت عنه أعراض الرسل العاتى المعاند فأهملت شئون أرضها وطبقاتها وجباها ومعادنها وحاصلاتها وقوى الشبان فيها (لحاسبنا حسابا شديدا) أثبتنا ذنوبهم جميعها في صحف الحافظة (وعدنا بها عذابا نكرا) منكرنا في الدنيا بالذل والاستعداد مثلا (فذاقت وبال أمرها) أى عقوبة كفرها ومعادنها (وكان عاقبة أمرها خسرا) لا يرجح فيه أصلا (أعد الله لهم عذابا شديدا) يوم القيامة (فاتقوا الله يا أولى الألباب) ياذي العقول ، ثم نعمتهم فقال (الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكرا) هو القرآن ، وأرسل إليكم (رسولا يتلوا عليكم آيات الله مبينات) صفة لرسول ، ويصح أن يكون رسولا مبسولا من ذكر كائن الرسول نفس الذكر مبالغة (ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور) أى ليخرج من علم سبحانه وقدّر أنه يؤمن (ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يده خله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا قد أحسن الله له رزقا) في هذا القول تعظيم لما رزقوا من الثواب ، ثم إن هذه السورة مرجع أحكام شرعية ومناهج دينية ، وأدلة فقهية ، وفتاوى اسلامية ، وضعت لاقامة العدل ونهج الصراط السوي ، وذلك العدل على نهج العدل الذي في السموات والأرض الجاري بين المشرقين والمغربين ، وما أهل الأرض ولا أحكامهم ولا شرائعهم ولا دياناتهم إلا لمحمة من نور العدل العام ، وقبسة من اشراقه ، وقبضة من نوره ، وزهرة من شجرته فلئن قضى القضاة على كراسي الحكم بين العباد ، وأعطوا زيدا ما يجب على عمرو ، وقالوا للحامل عدتك وضع الحمل ، ولتلي تحيض عدتك ثلاثة قروء ، فكم بين السموات والأرض من قضاء في هذا القضاء الصامت لفظا الناطق معنى ! فكم من حكم بيننا نرى أثره ولا نسمع النطق بحكمه ، نرى الشمس محكومة عليها أن تطلع من مواضع في الشرق وتغرب في أما كن في الغرب لا تتجاوزها في دقائق وثوان لا تنفك عنها بحسب النظر الظاهري وإن كانت الأرض هي الجارية ولكن الحكم لا يتغير ، ونرى الرياح قد حكم عليها والسحب مأمورة والأنهار جارية بالحكم المحتم عليها والمزارع يحكم عليها أن تكون في زمن خاص ومكان خاص ، فليس للقطن

أن ينبت في البلاد الباردة ، ولا أن يثمر في زمن الشتاء ، ولا للنخل أن ينبت في البلاد الباردة ، ولا أن يثمر إلا بعد عدد من السنين ، وقضى على المزارع أن تكون قصيرات الأعمار ، فيزرع القمح والذرة والشعير والعدس والفول وتحصد كلها بعد أشهر معدودات ، ولا تنمو إلا في فصول خاصة ، كل ذلك حكم لمصلحة الناس فلو أن تلك المزارع لا تثمر إلا بعد سنين كالنخل لضاع الناس ذرعا في الحياة ، ونقل سكان الكرة الأرضية ، هذه أحكام حكم بها الله وتأنجها سعادة الناس وراحتهم ، كما أن حكم القاضي بنفقة الحامل على المذاهب كلها وبنفقة غيرها على بعض المذاهب لمنفعة المطلقة ، فانظر أي الحكيم أكثر منفعة ، أحكم لمصلحة أشخاص مخصوصين متنازعين ، أم حكم لسعادة هؤلاء المتنازعين وغيرهم من كل أهل دين ونحلة ؟ بل كل حيوان ونبت على الأرض ، لذلك أعقب ما تقدم سبحانه بقوله (الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن) أي وخلق مثلهن في العدد من الأرض ، وهذا العدد ليس يقتضى الحصر ، فإذا قلت عندى جوادان تركب عليهما أنت وأخوك فليس يمنع أن يكون عندك ألف جواد وجواد ، هكذا هنا فقد قل علماء الفلك كما تقدم : « إن أقل عدد يمكن من الأرضين الدائرة حول الشمس العظيمة التي نسميها نجوما لا يقل عن ثلاثمائة مليون أرض » ، هذا فيما عرفه الناس ، وهذا القول من هؤلاء ظني ، فلم يدع أحد أنه رأى أوقف بشيء من ذلك ، اللهم إلا علماء الأرواح ، فانهم لما سألوها قالت : « عندنا كواكب أهلة بالسكان لا يحصى عددها وفيها سكان أتم بالنسبة لهم كالنخل بالنسبة للإنسان ، هذا معنى ما قالوا ، أرجع لما نقلته لك عن الأستاذ [غالي] لما أحضرت روحه وسألوها ، وإياك أن تقول اني أجزم بهذا القول ، بل أقول لكم : فكروا وادرسوا فالعلم علمكم والدين دينكم ، ولا يجوز أن تختص أوربا بالبحث ونحن سنترك لكم الأرض ونمضى منها ونهاجر إلى الله متى جاء الأجل ، وقوله (ينزل الأمر بينهن) أي يجري أمر الله وقضاؤه بينهن وينفذ حكمه فبهن (لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما) فأنه خالق السموات والأرض وهن ينزل الأمر بينهن لندرس هذه العوالم ونعقلها ، فنعلم عموم القدرة والعلم فيهما ، ولا يتم ذلك إلا إذا كانت دراستنا لتلك العوالم كدراسة الفقهاء لعلم الفقه ، إن الفقيه لا قدرة له على إصدار الأحكام ، والقاضي ليس بقادر أن يصدر حكما ، والمفتي لا يستخرج الأحكام من الدين إلا بعد دراسة تامة ، هكذا لا يعرف سعة علم الله وقدرته ، ولا يفرح بنظام السموات إلا من أضع العمر في مباحث العلوم الفلكية والطبيعية ، وقد تضمن هذا التفسير حظا عظيما من تلك المباحث . انتهى تفسير سورة الطلاق ، والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة التحريم

هي مدنية

آياتها ١٢ - نزلت بعد الحجرات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * وَإِذْ أَسَرَّ

النَّبِيِّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَمِمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ * إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةِ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ * عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظُ شِدَادٍ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُحْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتِ نُوحٍ وَامْرَأَتِ لُوطٍ كَاتَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ * وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتِ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَلَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ لَهَا وَكَانَتْ مِنَ الْقَائِمِينَ *

هذه السورة قسمان

القسم الأول في نساء النبي صلى الله عليه وسلم ، وحلف النبي صلى الله عليه وسلم ألا يشرب الخمر إرضاء لبعضهم ، وفي اطلاع الله على ما أفشين من سر أمرهن بكتمه وما يتبع ذلك من قول السورة إلى قوله : « ومأواهم جهنم وبئس المصير » .

القسم الثاني ضرب مثل لذلك بامرأة نوح وامرأة لوط عليهما السلام من قوله تعالى : « ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما » إلى آخر السورة .

مقدمة في مناسبة هذه السورة لما قبلها

سورة الطلاق كلها في حسن العاشرة مع النساء والقيام بحقوقهن . وهذه السورة فيما حصل منهن مع النبي صلى الله عليه وسلم تعلما لأئمة ، وأن يحذروا أمر النساء ، وأن يعاملوهن بالسياسة اللطيفة كما عاملهن صلى الله عليه وسلم بذلك ويصحوهن نصحا مؤثرا .

أسباب نزول هذه الآيات ما جاء في البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها ، قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الخلاء والعسل ، وكان إذا انصرف من العصر دخل على نسائه ، وكان يمسك عناء زينب بنت جحش ، فيشرب عندها عسلا ، فتواطأت أنا وحفصة أن أيتنا دخل النبي صلى الله عليه وسلم عليها فلتقه له إلى أجد منك رج مغاير أكلت مغاير ، فدخل على إحدهما ، فقالت ذلك له ، فقال بل شربت عسلا زينب بنت جحش ولن أعود . والمغاير صمغ حلولة وأتمة كريمة ينضجه شجر يقال له العرفط يكون بالحجاز .

وقد كانت عائشة وحفصة متمافتين متظاهرتين على سائر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، ويقال أن النبي دخل عليها النبي صلى الله عليه وسلم وحرم على نفسه العسل أمامها هي حفصة ، فأخبرت عائشة بذلك مع أن النبي صلى الله عليه وسلم استكتمها الخبر كما استكتمها ما أسرته لها به من الحديث الذي يسرها ويسر عائشة إذ قال لها لا تخبري أحدا ، وذلك الحديث أنه قل : [إن أباك وأبا عائشة يكونان خيفتين على أمتي من بعدى] ، فصار السر لها بأمرين : بتحريم العمل الذي كان يبقيه عند زينب بنت جحش ، وبأمر الخلافة اهـ

هذا ملخص ما جاء في الأحاديث ، وفي الروايات تناقض يسير ، ولكنني استخلصت الزيد المتفق مع سائر الآيات ، وهناك روايات أخرى مثل كون النبي صلى الله عليه وسلم شرب عند العسل هي حفصة ، ومثل كون التحريم إنما كان لمارية القبطية لا للعسل ، لأن مارية القبطية كان ^{صلى الله عليه وسلم} دخل معها في بيت حفصة ففضبت حفصة لذلك فأرضاهما بما تقدم ، فلندع ذلك الاختلاف ولنسرف في التفسير على وجه واحد ، لأن قصة مارية لم تأت من طريق صحيح ، وكون التظاهرتين حفصة وعائشة هو من حديث لابن عباس المروي في الصحيحين ، والنشرع الآن في تفسير السورة فقول بمن الله التوفيق :

التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

(يا أيها النبي لم تحرم) من شرب العسل (ما أحل الله لك تبغى مرضاة أزواجك) أي حال كونك تبغى (والله غفور) لك تحريم ما أحل لك (رحيم) رحمتك حيث لم يؤخذك (قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم) أي قدر الله لكم ما تطلون به أيمانكم ، وهي الكفارة المذكورة في سورة المائدة ، فيقال إن النبي صلى الله عليه وسلم لما قالت له حفصة أكلت مغاير وقال لها كما قال لعائشة : سقني زينب شربة عسل قالت : جرت تحلة العرفط : أي أكلته فصار منه العسل ، حينئذ حلف ألا يشربه ، فعوتب على ذلك ، وأُشْرِعَ الله لكم الاستثناء في أيمانكم ، يقال حل فلان في يمينه إذا استثنى فيها ، وذلك أن يقول إن شاء الله عقيبها حتى لا يثبت ، ويقال : إن تحريم الحلال يمين فيكفر عن فالأمر ظاهر ، لأن الكفارة مشروعة ، وما بعدها حلف فعلا فكفر ، أو مجزئة تحريم الحلال يمين فيكفر عن فالأمر ظاهر ، لأن الكفارة مشروعة ، وما بعدها أخذ به بعض الأئمة ، والاستثناء في اليمين مشروع ، وقوله (والله مولاكم) متولى أموركم (وهو العليم)

بما يصلحكم (الحكيم) المتقن في أفعاله وأحكامه (وإذ أسرت النبي ﷺ إلى بعض أزواجه) وهي حفصة (حديثاً) تحريم العسل ، ومسئلة الخلافة المذكورتين (فلما نبأت به) فلما أخبرت حفصة عائشة رضي الله عنهما بالحديث (وأظهره الله عليه) وأطلع النبي ﷺ على افشائه الذي يحزن قلب زينب إذا علمته ، إذ ينكسر قلبها لما ترى من أن إحدى أزواجه ﷺ قدرت أن تحتال حتى حاف ألا يشرب العسل في بيتها ، وذلك نكايه لها وألم عظيم ، وفي افشاء أمر الخلافة خلل في سياسة الأمة وتفريق جلمعتها ، إذ يحصل التافر والشقاق قبل وفات النبي ﷺ على الخلافة كما حصل بعد وفاته ، وفي هذا تعجيل لما لا تحمد عقباه وجواب لما قوله (عرف بعضه) أي عرف صلى الله عليه وسلم حفصة بعض ما أفشت من السر (وأعرض عن بعض) أي عن إعلام بعض ، كأن يذكر لها افشاء مسألة تحريم العسل ويترك مسألة الخلافة لئلا تهلع وتعزن على افشائه أشد من الحزن على افشاء مسألة العسل مثلاً أو العكس (فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال نبأني العليم الخبير) أي العليم بما تكنه الضمائر وبخفيات الأمور ، ثم خاطب حفصة وعائشة فقال (إن تنوبا إلى الله) فقد وجد منكما ما يوجب التوبة ، وهو ميل قلوبكما عن الواجب من امتحان حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم بحب ما يحبه وكره ما يكرهه ، وهذا قوله (فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه) أي وإن تظاهرا عليه بما يسوءه (فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين) فهو لاء جميعاً ينصرونه (والملائكة بعد ذلك ظهير) متظاهرون ، أوفوج مظاهر له ، وإنما ذكر ذلك كله لعظم أمر افشاء السر ، لاسمياً في مسألة السياسة ، فإنه ربما أزال دولة بتمامها بالثورات والفتن عسى ربه أن تطلقكن أن يبده أزواجه خيراً منكن مسلمات مؤمنات) منقادات مصدقات (فانتات) مواظبات على الطاعات (تائبات) عن الذنوب (عابدات) متعبدات (سائحات) صائمات : إذ الصام يسبح في النهار بلا زاد (ثيبات وأبكارا) أي عذارى جمع بكر ، يقال انه ﷺ غضب من افشاء سره وجزاءى حفصة بأن طلقها فجاءه جبريل وأمره بمراجعتها ، وقيل لابل هم بطلاقها ، فقال له جبريل لا تطلقها فإنها صوامة قوامه ، وأنها من نساءك في الجنة . ولما كان هذا القول خاصاً بأمر النبي ﷺ وأزواجه أردفه بخطاب عام فقال : (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم) بترك المعاصي وفعل الطاعات (وأهلكم) بالنصح والتأديب (نارا وقودها الناس والحجارة) أي نارا تنقد بهما انتاد غيرها بالخطب (عليها ملائكة) تلي أمرها وهم الزبانية (غلاظ شداد) غلاظ الأقوال شداد الأفعال (لا يعصون الله ما أمرهم) فيما مضى (ويفعلون ما يؤمرون) فيما يستقبل ، فليتق الله الناس ، وليتركوا المعاصي ، وليؤدبوا نساءهم ، وينهون عما لا يحل ، قرب امرأة أفشت سرّاً فأهلكت أمة بتمامها ، وأوقدت فيها نار الفتنة ، فاذروا أن تعطوا سرکم إليهن ، فإذا كان الله عصمى أن يذيع سرى وأطلعني عليه فليس يتفق لكم ذلك ، فليكنتم المرء سره لئلا تقسد أمراته عليه أمره ، وتنقص عيشه ، وتصبح حياة المرء في قلق ونقص وهكذا تكن المرأة صالحة ، والا كانت الحياة لا تطاق بين الزوجين ، وتفوت على أهل المنزل المصالح المادية والمعنوية فيكون الموت ، فيجد الزوجان أنهما أضعافاً حياتهما فلا يكون لهما جزاء إلا جهنم ، لأن الناقص في أخلاقه وأعماله ليس له إلا ذلك « ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً » .

واعلم أن الحياة المنزلية هي أس الحياة العمرانية ، ومن لم ينظم أهل بيته فهو عن تدبير أمر الدولة أعجز فلم يستعن صلى الله عليه وسلم على امرأتين من نسائه بالله وجبريل والملائكة والمؤمنين إلا لما في أمر تدبير المنزل وحياته من الأهمية ، ولم يذكر جهنم وزبانيته إلا لما في ذلك من سر حياة الأمة ، فالأمة مركبة من أسر ، والأسرات إذا كانت حياتها على غير أساس حياة المجموع كذلك ، لأن الأمة ماهي إلا أفرادها ،

وهي فرد مكرّر، والفرد إذا كانت سياسته في الداخل غير منتظمة فقد ضاعت دولته ، هذا هو السرّ في ذكر الله والملائكة ، وذكر جهنم ونارها وحجارتها .

أمر الله المسلمين أن يقوا أنفسهم وأهلهم نارا ، فثار يوم القيامة مما جنيده في الدنيا ، وهو في هذا المقام تنقيص العيش ، وضبايع أمر الأسرة ، والشتاق والزراع المتوالى ، وفي قوله : « لا يعصون الله ما أمرهم » إشارة إلى أن الأسرة إذا كانت مفككة الأوصال غير مجتمعة الرأي لا تطيع المرأة زوجها ولا الولد أباه كانت سائرة على نهج يخالف نظام الله الذي نظم السموات والأرض وجعلهما مرتبطين ، وجعل ملائكته طوع أمره : « ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه » وذلك هو الموجب لجهنم ، إن تار جهنم في هذا المقام لم تخرج عن كونها نتيجة المنافرات والمشاجرات والأكدار والتنقيص المرققات للقلوب في الدنيا ، فإذا مات الناس دخلوا في جنس ما كانوا فيه في الدنيا ، فهل جزاء السيئات إلا السيئات ؟ قوم كانوا في نزاع دائم وقلوبهم لم تعرف في الدنيا إلا المشاجرات والشتائم ، فأبن يذهبون إلا للمدارس التي استعدوا لها في الدنيا ، وهي مدارس نارية محرقة ، فقد أحرقت القلوب في الحياة بتنقيصهم ، فأحرقت الأجساد والقلوب معا بعد الموت جزاء وفاقا ، ليكون ذلك طهارة لهم ان كانوا مؤمنين ، فأما الذين كفروا فيقال لهم (يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم) وذلك حين يعاينون النار (إنما تجزون ما كنتم تعملون) فإن أعمالكم السيئة ألزمتكم العذاب ، فإن الهالة والعناد وانكار الحق قد وضعت على قلوبكم حجابا في الدنيا فلما تم حجبتكم عن الجلال المطلق كما يعذب المؤمنون بفعل المعاصي كترك تأديب زوجاتهم ، وكفساد نظام الأمور المترتب على ذلك ، ولذلك قال تعالى لهم : (يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا) بالغة ، أودات نصح تنصح صاحبها بترك العود إلى الذنب . والتوبة النصوح تجمعها ستة أشياء :

- (١) على الماضي من الذنوب الندامة .
- (٢) وللغرائض الاعادة .
- (٣) وردة المظالم .
- (٤) واستحلال الخوصم .
- (٥) وأن تعزم على الانعود .
- (٦) وأن تربي نفسك في طاعة الله كما ربيتها في معصيته .

ثم قال تعالى (عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار) وفي ذكر عسى اطماع جريا على عادة الملوك ، وقوله (يوم لا يحزى الله النبيّ والذين آمنوا معه) متعلق بيدخلكم ، وفيه تعريض بأن المنافقين لهم يحزون ، حال كونهم (نورهم يسرى بين أيديهم وبأيمانهم) على الصراط (يقولون) إذا أظنى نور المنافقين الذين - مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون - (ربنا آتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير) ولا جرم أن الأنوار على مقتضى الأعمال فيسألون أتمامها (يا أيها النبيّ جاهد الكفار بالسيف) والمنافقين بالحجة والزجر والوعيد (واغلاظ عليهم) واشدد على الفريقين بالقول والفعل (ومأواهم) مصير المنافقين والكافرين (جهنم وبئس المصير) جهنم ، ولما كانت هذه الدورة مدوقة لأزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وأعقب ذلك أن أمر المؤمنين أن ينصحو زوجاتهم ويؤدّبوا أنفسهم وهدّدهم بالنار ، ثم أتى بنصائح عامة أعقبها بما يفيد أن الرجل لبس عليه إلا ما أمر به ، والمرأة لبس عليها إلا ما أمرت به ، فإذا خالفت المرأة الرجل بعد نصيحها وأذنبت ، أو كان الرجل فاسقا والمرأة سالحة فلا ذنب إلا على الذنوب منهما وليس على الآخر من سبيل ،

وبين ذلك بمثلين : مثل للمرأة الفاسقة التي صلح زوجها ، ومثل للمرأة الصالحة التي كفر زوجها ، فذكر عليه وزره ولا يحمل من إثم صاحبه شيئا مادام قائما بما عليه خير قيام ، فقال تعالى (ضرب الله مثلا) بين الله صفة (للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين نفاثتهما فلم يغبيا عنهما) أى لم يدفعا عنهما (من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين) فهاتان المرأتان لما خانتا الرسولين أدخلتا النار ولم ينفعهما صلتهما بالنبيين ، بل ذاقتا وبال أمرهما : هكذا هؤلاء الكفار يعاقبون على معاداتهم للمؤمنين بالإحابة ولا ينفعهم ما بينهم وبين المؤمنين من النسب والمصاهرة ، ولو كان الذي يتصل به الكافر نبيا ، كما لم ينفع المرأتين لما خانتا الرسولين أنهما زوجتاها فعذبتا على خيانتهم وافشائهما أسرارهما ، فدخلت المرأتان النار مع سائر الداخلين ، إذ لافرق بين الشريف والصعلوك في العقوبة ، فهي لا تترك أزواج الأنبياء كما لا تترك أزواج العصاة والعصاة جميعا (وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون) وهي آسية بنت مزاحم ، فقد آمنت لما غلب موسى عليه السلام السحرة ، فلما علم فرعون بإيمانها عذبها فصرفت الله العذاب عنها ، شبه حال المؤمنين في أن اتصلهم بالكافرين لا يضرمهم بحال آسية ، فهي مرضية عند الله مع أنها متصلة بمن ادعى الألوهية ، إذ كر (إذ قالت) وهي تعذب (رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة) قريبا من رحمتك ، أوفى أعلى درجات المقرين (ونجنى من فرعون وعمله) من نفسه الخبيثة وعمله السيئ (ونجنى من القوم الظالمين) من القبط التابعين له فى الظلم ، ثم عطف على امرأة فرعون قوله (ومريم ابنت عمران) التى لازوج لها فليقتل بها الأراذل ، ففضل الله يسع المتزوجات واللاتى لأزواج لهن ، ثم وصف مريم فقال : (التى أحصنت فرجها) حفظت فرجها من الرجل (فنفخنا فيه) فى فرجها (من روحنا) من روح خلقناه بلا توسط أصل (وصدق بكلمات ربها) بالشرائع التى شرعها الله لعباده بكلماته المنزلة على أنبيائه (وكتبه) الكتب المنزلة على الأنبياء (وكانت من القانتين) المطيعين ، وهم رهطها وعشيرتها ، لأنهم كانوا أهل بيت وصالح . انتهى التفسير اللفظى للسورة كلها ، والحمد لله رب العالمين .



خاتمة لتفسير هذه السورة

وازن أيها الذكى بين أول السورة وآخرها تجد المعنى متسقا ، فإذا تظاهر على النبي صلى الله عليه وسلم امرأتان فهما امرأتان : امرأة نوح ، وامرأة لوط تظاهرتا على عبدين صالحين وهما زوجها ، فإذا حل بهما ؟ أدخلتا النار ، ولم ينفعهما اتصاها بالنبين ، وهذا المثل وما بعده لم يجعل لأزواج خصب ، بل عم الأمر لكل امرأة عاصية أو كافرة اتصلت بمؤمن ، ولكل امرأة صالحة أو رجل صالح انفصل بكافر ، فهو فى معنى : « لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم » ، وبهذا تم الكلام على [سورة التحريم] والحمد لله رب العالمين . كتب يوم الأحد ٢٣ ذى الحجة سنة ١٣٤٣ هجرية — الموافق ١٤ يوليو سنة ١٩٢٥ م .



تفسير سورة الملك

هي مكية

آياتها ٣٠ — نزلت بعد الطور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ
أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ * الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي
خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ فَإِذْ جَعَلَ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ * ثُمَّ أَرْجَعِ الْبَصَرَ
كَرًّا تَنْ يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ * وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ
وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ * وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ
جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ * تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ
النَّيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ
فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ * وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ
أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ * فَأَعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ *
إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ * وَأَسِرُوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا
بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ * هُوَ الَّذِي
جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ * أَمْ أَنْتُمْ
مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمْ أَنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ
عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٌ * وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ
نَكِيرٌ * أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُنْسِكُهنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ
بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ * أَمْ مَنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرُّكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنْ
الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ * أَمْ مَنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ

وَأَقْرَبُ * أَفَنَ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ *
 قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ *
 قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ
 صَادِقِينَ * قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ * فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّدَتْ وُجُوهُ
 الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ
 مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ
 تَوَكَّلْنَا فَسْتَعْمِلُوا مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ
 يَأْتِيَكُم بِمَاءٍ مَعِينٍ *

هذه السورة تشتمل على وصف السموات ، وأن نظام هذا العالم لاعوج فيه ولا اختلاف ، وعلى وصف
 عذاب الكافرين في الدنيا والآخرة ، وتخلل ذلك تذكير الانسان بخلقه ورزقه وما أشبه ذلك .
 إن الكلام على هذه السورة ينحصر في [ثلاثة أقسام : القسم الأول] في تفسير البسملة : أى ما ذكر
 فيها من الرحمتين مع جميع الرحات العشرين اللاحقة في البسملة التي في السور العشر التابعة لها إلى سورة
 المرسلات [القسم الثاني] في التفسير اللفظي للسورة كلها [القسم الثالث] في اللطائف .

القسم الأول

في الكلام على الرحمتين المذكورتين في البسملة هنا مع جميع الرحات في السور العشر التي بعدها
 لما كانت الرحتان المذكورتان في البسملة هنا في [سورة الملك] تقدم الكلام عليها في أول [سورة
 المجادلة] وجب أن نحصر الكلام الآن في الرحات العشرين المذكورات في السور العشر التي تليها من أول
 [سورة القلم] إلى [سورة المرسلات] فنقول :
 إن الرحات في هذه السور موجهات إلى تخليّة الأمم من الرذائل وتحليتها بالفضائل ، ألا ترى أن العذاب
 الشديد والانذار للناس في هذه السور يقصده الإقلاع عن الآراء الشريرة ، والأعمال الخبيثة ، ولذلك تجد
 هذه السور مشحونة بالكلام على إهلاك الأمم في الحياة الدنيا ، وعلى عذاب الآخرة ، فهنا وجه الرحات
 إلى الانذار وبه يتخلى الناس عن رذائلهم ، فلاتخليّة بالفضائل إلا بعد التخليّة من الرذائل ، فأما التخليّة
 بالفضائل فذلك ما جاء في غضون هذه السور من أخلاق نوح وصبره على قومه سنين وسنين ، وما أبدع في
 الدعوة من شرح العوالم العالوية والسفلية ، فهذه فضائل في الأنبياء تحلوا بها ، وهكذا نبينا صلى الله عليه
 وسلم الذي نودى مرة بصفة المذتر في ثيابه والزمل ، فهذه نفوس كاملة تحلت بصفات الجلال وتاجت ر بها
 في دياجي الظلمات ، وعرفت أخبار الأرواح الناقصة المسماة بالجن تريد تكميلها كما عرفت النفوس
 الكاملة في ذاتها اللاتي هي ملقيات ذكرا ، فهذه النفوس الكاملة القائمة بذلك ذكرت في مقابلة الناقصة
 المتردية في هاوية الهلاك ، وهؤلاء الكاملون يدعون الناقصين للحقوا بهم في الكمال ، وهناك نفوس
 متوسطة ، وهي النفوس اللوامة ، ولكن لها فضلها في الجهاد ، وهناك نفوس أخرى كملت أخلاقها فقل

لها : « يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا » ، وهالك نفوس مفارقة للسادة ، وهي التي عبر عنها بالملقيات ذكرنا للاعذار واللاذنر ، فهذه مجامع ما في هذه السور من الرحمة ، إن الانذار بالهلاك والتدمير والعذاب الأليم رحمة ليمتخلى الانسان بذلك عن الرذائل خوفا من نتائجها ، وهكذا معرفة أخلاق النفوس السكاملة (المتوجهة لربها في ظلمات الليالي ، وهي تدعوه وتناجيه وتسهر على إسعاد غيرها) تدعو حثيثا إلى الاقتداء بها ، فتتوجه لخلافها ، وتدعوه ليساعدها في ارتقاؤها وفي انتشال غيرها من أحوال المادية ورذائل الأخلاق .

هذه مجمل الرحمت في هذه السور إلى آخر [سورة المرسلات] فلنبدا في تفصيلها سورة سورة فنقول ومن الله التوفيق :

الرحمت في سورة القلم

أقسم الله فيها بالقلم دلالة على شريف منزلته وعظيم قدره ، إن رحمة الله بالأقلام وفق الكتابة ونشر الصحف واتساع نطاق المعارف رحمة عامة تضاهي في عمومها اشراق الكواكب والشموس واضاءتها الأرباء ، وإذا أقسم الله بالقلم فقد أقسم بالشمس والقمر والنجم ، ولكن نعمة القلم أعلى منزلة وأشرف وأكمل ، ألا ترى رعاك الله أن العلم هو وحده الذي يرفع الأرواح إلى العلى ، بالعلم الهداية ورقى النفس إلى الكمال ، وبدون العلم الذي لا قيام له إلا بديلة القلم والانشاء لا كمال لهذه النفوس ، تلك النفوس التي أنزلت إلى الأرض وعاشت بالأضواء المشرقة من الشمس والقمر والكواكب ، فالكواكب السماوية المشرقة على الأرض كنهن أظفار بين النفوس الانسانية تربية أولية ، ولكن نفوس الأنبياء والأقلام التي تكتب ما يقولون ، ولأقلام الحسنة هي المكملات لهذه النفوس ، فالكواكب والأقلام والنجوم مقدمات ، والأنبياء والعلماء نهايات ، جل الله وجل العلم ، سيأتي القسم بالشمس ، وتقدم القسم بالنجم والقمر ، والقسم بالقلم جاء في الوسط بينهما ، إن أمة الاسلام وإن كانت اليوم ضيفة القوة ، فهي هي الأمة التي كانت سببا في انتشار التعليم بين الأمم كلها في أوروبا وفي الشرق الأقصى ، العلم قد ملأ الأقطار ، ولكنه في القرون الماضية قد تخطى أمة الاسلام ، وأحاط بها من الشرق والغرب ، كأنه يقال لهم : أيها الأمم الاسلامية : أقسم ربكم بالقلم ، وبالقلم علمتم الأمم ، وبالقلم تعلمت الأمم ، إن هذه الأمة اليوم أخذت تتعلم وستعود الأمم إلى الفلاح ، لأنها أمة وسط ، وهم شهداء على الناس ، وإن يكونوا شهداء على الناس بحق وصدق إلا بتعميم العلم الذي أقسم الله بالقلم انذى يسطره ، إن رحمة الله عز وجل قد ظهرت نتائجها التي لاحصر لها في نشر العلم في العالم كله بالقلم بعد الرسالة المحمدية التي كانت سببا في بث هذه الروح في الأمم ، وأي رحمة أعظم من هذه ! وهي التي لأرحمة توازيها في كوكب ولا شمس ولا قمر وقد ظهرت على يديه صلى الله عليه وسلم ، والأجر سيكون على مقدار ذلك الانتشار ، فإن نعيم الانسان على مقدار آثاره بين الأمم ، وهل يكون الفضل منتشرا لامرئ إلا على مقدار ماله من الفضائل ! رحمة عاقبة بالعرفان ، ناجية من الاتصاف بأخلاق حسان ، فهل صاحب هذه الفضائل والعوارف ينسب له اجنون ! كلا . بل انه جاء ليكمل النفوس الناقصة اللاتي لاتعرف إلا المداينة ورذائل الأخلاق ، ولذلك أمر بالصبر على تكذيب المكذبين ، وحكم عليه ألا يقف في الفضائل دون الغايات ، فإذا رأى نبيا من الأنبياء كيونس عليه السلام الذي لولا أن تداركه نعمة من ربه انبذ بالعراء وهو مذموم فاجتنباه ربه فجعله من الصالحين ، فإنه يصدع بما أمر به ويصبر لحكم ربه ولا يكون كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم ، إذن رحمة الله تعالى تجلت واضحة لرسوله صلى الله عليه وسلم في أخلاقه وعوارفه ، فهو صبور كما أمره الله . ومن الرحمت في هذه السورة تبيان نتائج البخل الخاصل من أصحاب القرية ، وكيف كان هذا

الشح سببا في إبادة أهلها ، وكيف كانت التوبة عليهم نعمة وفيها بيان الفرق بين المتقين والمجرمين اه
[سورة الحاقة] — إن سورة الحاقة أشبه بتمصيل لما أجل في [سورة القلم] فالرحات فيها مفصلة
لبعض ما أجل في تلك ، ففي سورة القلم جعل الناس فريقين : فريق مجرمون ، وفريق مسلمون ، ولكل
جزاؤه ، وفيها أصحاب الجنة وأشجارها الذين لا يراعون الأخوة العامة ، وإنما يريدون اتباع شح نفوسهم ،
فهؤلاء ذاقوا عذاب الدنيا بآبادة أشجارها وأندارها ، وهذه المناسبة ذكر عذاب الآخرة وأنه أكبر ، فهنا
جاء ذكر العذابين ، فشمود وعاد وفرعون وقوم نوح هلكوا ، وسبيلك العالم كله يوم القيامة ، فهنا تفصيل
أثم للهلاك ، ففي سورة القلم هلكت جنة بشح أهلها ، وهنا ذكر هلاك أمم بل زوال الأرض وما عليها ،
وتبع هذا ذكر ما سيلقيه الفريقان من عيشة راضية وعيشة ليس فيها طعام إلا من غسيل ، كل هذا من
الرحات الواسعة ، فذكر العذاب في الدارين يوجه النفوس إلى الأعمال الشريفة التي تؤدي إلى النعيم .
[سورة المعارج] — ويقرب من ذلك وصف أوسع في [سورة المعارج] ، أفلا تعجب معي كيف أبان
سبب ذلك كله . الله أكبر : إن الجنة والنار خافتا لأجل هذه النفوس ، هذه النفوس المسكينة المخلوقة في
أرضنا المحبوسة فيها قد جعلت مهيئة محزنة ، كيف لا وهي التي إذا مسها الشر جزعت ، وإذا مسها الخير منعت ،
هذا هو السر الأكبر في هذا الإنسان ، الإنسان في عمومته أشبه بالطفل يبكي لأدنى شيء ، وإذا أعطى المال
يحل به كأنه يظن أنه مخلوق وحده والناس مسخرون جميعا له وقد عني عن هذا الجلال الرائع في السموات
والأرض والأنهار ، والجلال الذي به ينتفع الباري والفاجر ، جهل هذا الإنسان المسكين أنه يشترك مع جميع
نوع الإنسان في المنافع ، فإذا لم يفكر إلا في نفسه ، فهذا هو المبدأ الأول لاذلاله وشقائه ، فأصحاب الجنة
بادت أشجارهم فيها ، لأنهم لم يفكروا في غيرهم من الناس ، فهذا أشبه بذكر السبب الذي به عوقبوا
بذلك ، لأنهم منعوا الخير عن الناس (وبعبارة أخرى) أن الإنسان خلق ليعلم ويعمل ، ومن أجل الأعمال
اتجه النفس للنفعة العامة عموم الأنوار وعموم المنافع القلبية العلمية بين الأمم ، ومن أجل الرحات في هذه
السورة تلك الصفات الشريفة التي بها يصل الإنسان نفسه فتنسى وتشرق بعد اظلامها بحب النفس ،
(وبعبارة أخرى أيضا) أن النفس في أول أمرها تميل إلى أن تختص بكل نعمة ولا تفكر في غيرها كما
قدمنا ، وعلمها وحدها بإغاثة الله لها أن تصقل بمقال الكمال فتصير مهذبة ، وذلك بالعبادات وانفاق المال
في وجوهه ، فتكون للإنسان في حياته وجهات ثلاث : وجهة إلى نفسه يكملها ، ووجهة إلى ربه ليعبده ،
وجهة إلى الناس فيكون نافعاً لهم . فأما تكميل نفسه فذلك بالأخلاق الفاضلة كحفظ الأمانة ، والصدق في
الوعد والعهد ، وإليه الإشارة بقوله : « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » . وأما توجهه إلى ربه
فذلك بنحو الصلوات ، وإليه الإشارة بقوله : « إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون » . وأما وجهته إلى
الناس ، فذلك أنه يعتد بالمساعدة لهم ، وإليه الإشارة بقوله : « والذين في أموالهم حق معلوم لأسائل
والمحرم » . إذن أعظم أسرار هذه السورة أنها كشفت القناع عن سر الأسرار ، وهو هذه النفس ، وأبانت
أنها ناقصة ، ولن يخرجها من هذا النقص إلا تهذيبها باجتهد الإنسان وجده هو بنفسه والمثابرة على الصبر
على الأعمال الشريفة وعن الشهوات ، وذلك تفصيل لما أجل في آخر [سورة القلم] من قوله تعالى :
« فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم » والحياة لا تكال فيها إلا بالصبر ، ومن
الصبر ما أسبغ عليه صلى الله عليه وسلم إذ كان الذين كفروا عن يمين وشمال يؤذونه فصبر ففاز ، هكذا كل
امرئ في الدنيا لاسعادة ولا فوز له إلا بالصبر على تحمل المشاق في أمر تهذيب نفسه وتكميل غيره ، هذا من
أسرار تسمية هذه السورة بالمعارج ، إذ لا عروج ولا صعود إلا باستخراج ما كمن في النفوس من الكمال والجلال
ولن يتم ذلك إلا بصفاؤها من الأدران والأخلاق الناقصة ، فهي إنما تخرج من حال نقصها المعبر عنه بقوله

تعالى : « إن الإنسان خلق هلوعا » إلى كمالها بالآداب التي شرحنها هنا ، وهي مأخوذة من آيات السورة .
 [سورة نوح] — ويتلو ذلك في وضوح الرحمة انذار نوح عليه السلام لقومه ، وكيف هلكوا بعد أن
 أنذره فلم يسمعو ، ولكن في هذه السورة اتضح جلال النفوس وبهاؤها ، ففي التي قبلها شرح الله كيف
 يكون معراج النفس من خستها ، وفي هذه السورة أبان كيف تلبس تاج العرفان . وكال الإنسان كمالان :
 كمال علمي ، وكمال أدبي ، فالكمال الأدبي تقدم في السورة قبلها إذ يصف قوما بأنهم ينفقون من أموالهم ،
 وبأنهم حافظون فروجهم الخ ، وههنا ذكر الكمال العلمي بطريق شيق ، إذ ذكر خلق السموات والنار
 القمر فيها ، واشراق الشمس ، وذكر النبات بعد أن ذكر التوبة والاستغفار ، فهو لم يطل القول في الكمال
 الأدبي لأنه تقدم في السورة قبلها ، ولكنه فصل القول تفصيلا في الكمال العلمي الذي لاتمام له ولا كمال إلا
 باستيفاء الكمال الأدبي أولا ، ولذلك عوقب القوم أشد عقاب : هلاك في الدنيا وعذاب في الآخرة ، لماذا
 ذلك ؟ لأنهم أعطوا علما جا فأعرضوا عنه .

[سورة الجن] — طال القول في هذه السورة في الكفر والايمان ، والمعاصي والطاعات ، والنعم والعقاب
 يفصل بعضه بعضا ، ويتبع بعضه بعضا ، ولكن بقيت هناك نقطة لابد من تفصيلها ، وهي قوله تعالى :
 « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » ، فالعالم متشابه ، فهذه الأرض التي نكسها ظهر اليوم أن العناصر
 فيها هي أنفسها من عناصر الشمس ، واستبان أيضا بالكشف الحديث أن أشعة المعادن في الأرض مثلا
 كالأشعة العناصر التي في الشمس ، فهذه العوالم من هذه الجهة لاتفاوت فيها ، وإذا كان ذلك كذلك في
 العالم المادى فهكذا يرى العالم الروحي ، فإذا كان في عالم الإنسان وهو العالم العاقل المنظور فيه مسالمون وفيه
 مجرمون ، هكذا في عالم الجن العاقل الذي لا نراه مسالمون ومجرمون ، فإذا كان هناك تشابه بين عناصر الأرض
 والشمس في العالم المادى ، فهكذا هناك تشابه بين عالم الجن وعالم الإنسان باعتبار أن الجميع من العالم الذي
 يحس ويعقل ، وهذه الدرجات المختلفة في نوع الإنسان يرى نظيرها في عالم الجن الذي لا نراه ، وهذا كله
 طبعا سمعي لا دخل للعقل فيه ، ولذلك جاء في هذه السورة بطريق الوحي ، فكأن السور السابقة على هذه
 السورة كانت أقرب إلى عالم الشهادة ، وهذه السورة صارت أقرب إلى عالم الغيب الذي جاء به الوحي .
 ولما وصلت الحال إلى ذلك العالم الغائب عنا وجاء فيه ذكر الوحي ناسب أن يشرح كيف كان بدء ذلك الوحي
 فأتى بسورتي :

[المزمل والمدثر] — وفيهما صفتان علامتان : صفة الاشراق في النفس ، وصفة هداية النفوس الأخرى ،
 فأما اشراق النفس فلن يكون إلا بالتهجد وقيام الليل ، لأن الروح لا تقوى على تحمل المشاق إلا بأشراقها ،
 والقيام بالليل معين لها على ذلك ، لأن الإنسان إذ ذاك يخاطب ربه كأنه يراه ، وهذه ترفع النفس عن هذا
 العالم المادى ، فإذا اكملت بذلك رفعت إلى درجة أعلى ، وذلك بأنها تفيض النور على غيرها ، وأول الأمرين
 واضح في سورة المزمل ، وثانيتها واضح في سورة المدثر ، ففي أولاهما تكميل النفس ، وفي ثانيتهما تكميلها
 لغيرها ، والثاني مرتب على الأول ، ولذلك جاء بعده :

[سورة القيامة] — ولما كانت النفس الكاملة في نفسها تكمل غيرها (والكمال على قسمين : كمال
 مبدئي ، وكمال نهائي ، فالكمال المبدئي أن تصير النفس لقائمة تجاهد للكمال ، والكمال النهائي أن تكون
 النفس كاملة ، وإن لم تصل لدرجة من علمها) جى بسورة القيامة أولا وفيها ذكر النفس القائمة ، وأتبع
 بسورة [الإنسان] وفيها ذكر النفس الكاملة التي وإن كانت مخلوقة من أمشاج وابتليت بأنواع من الخن
 فاسها فازت ونجت ، وصارت من الأبرار ، وشربت من كأس كان مزاجها كائورا ، وصارت نفسا مطمئنة
 تعطي لا جزاء ولا لشكور .

[سورة المرسلات] وهذه النصوص المتقدمة نهاية سعادتها أن تكون في جوار تتلقى الأمر والنهي عن الله نفسه في العالم الثاني كما يتلقى الملائكة الكرام المذكورون في أول [سورة المرسلات] عند آية « فالملقيات ذكرا » ويتخذ ذلك الإنذار والتبشير ، وذكر العذاب والنعم .

هذا مجمل الرجات في هذه السور العشر من [سورة القلم] إلى [سورة المرسلات] وإنما فعلنا ذلك هنا مخافة التطويل ، لأن الرجة تقدم الكلام عليها كثيرا في هذا التفسير ، والرجة لاحد لها ولا حرج عليها ، ولنشرع الآن في تفسير السورة فنقول ومن الله التوفيق :

التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

(تبارك الذي بيده الملك) فله الأمر والنهي والسلطان ، فيعز من يشاء ويذل من يشاء (وهو على كل شيء قدير) من الممكنات ، ومن ذلك الانعام والانتقام (الذي خلق الموت والحياة) قدرهما (ليبلوكم) ليعاملكم معاملة المختبرين أيها المكفون (أوبكم أحسن عملا) أصوبه وأخلصه ، وأحسن عقلا ، وأورع عن محارم الله ، وأسرع في طاعته (وهو العزيز) الغالب المنتقم من عصاه (الغفور) لمن تاب إليه (الذي خلق سبع سموات طباقا) طباقا على طبق بعضها فوق بعض ، يقال : طبقت العمل إذا خصفتها طباقا على طبق ، فهو من باب الوصف بالمصدر ، والكلام على السموات وتحقيقها وكونها سبعا قد سبق في سورة البقرة فلا نعيد (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت) وقرئ : من تفاوت ، كالتعهد والتعاهد وهو الاختلاف وعدم التناسب ، فإن كلا من المتفاوتين قلت عنه بعض ما في الآخر ، والجملة صفة ثانية لسمع ، وضع فيها خلق الرحمن موضع الضمير للاشعار بأنه يخلق ذلك بقدرته الباهرة رجة وتفضلا ، وأن الرجة عامة في هذه العوالم (فارجع البصر هل ترى من فطور) الفطور الشقوق ، والمتصود منها الخلل من فطره إذا شقه فكأن الخلل في نظامه مشقوق متباعد كل شق منه عن الآخر (ثم ارجع البصر كرتين) رجعتين أخريين في ارتداد الخلل : أي ارجع البصر مرارا كثيرة كما في ليك ومعديك أن أرجعت البصر تطلب أن ترى ذلك الخلل (ينقلب) ينصرف (إليك البصر خاسئا) صاغرا ذليلا مبعدا لم يرميهوى من الخلل كأنه طرد عنه طردا (وهو حسير) قليل منقطع لم يدرك ما طلب من أن يرى خلا في النظام ، ثم أعقبه بذكر بعض ما يرى من النظام المشاهد وجاله لتكون زينته وحسنه دليلا على جمال ما رآه من حسن النظام والاتقان والاحكام فقال (ولقد زينا السماء الدنيا) القربى من الأرض ، وهي التي يراها الناس (بمصابيح) كواكب مضيئة بالليل ، فكما زين الناس منازلهم ومساجدهم بمصابيح ، وهي السرج التي يوقدونها فيها هكذا زين الله سمواته بمصابيح ، ولكن لانسبة بينها وبين مصابيحهم ، والتعبير بمصابيح لينبه الناس إلى المقابلة والموازنة بين السرج والكواكب التي سماها بأسماء السرج في البيوت ليلاحظوا الفرق بين النظامين نظام منازلنا ونظام السموات العام ، فإذا كان الناس ينظمون منازلهم وينتهي نظامها بالسرج ، هكذا نظم الله السموات وزينها بالكواكب والنسبة بين نظامنا ونظامه كالنسبة بين سرجنا في البيوت وبين الكواكب فليس رجح البصر كرتين يجعله ينقلب مقطوعا عن أن يرى خلا في النظام خسر بل الأمر أعظم ، إن النظام يفوق جماله الحصر ، وأي نسبة بين سرج الناس وسرج الله ، فأرضنا بالنسبة لبعض الكواكب لا قدر لها فضلا عن جبالها وعن السرج في البيوت ، فكأن قوله : « الذي خلق سبع سموات طباقا » انتقال من الكلام عن اليأس من رؤية الخلل إلى القول بأن النظام لاحد لنهايتها ، فهو تنزيه في الوصف ، يقول أولا إن النظام لا خلل فيه ، ثم يقول بل

الأمر أعظم من ذلك ، وضرب مثلا بالسراج والكوكب ، كل هذه المعاني تؤخذ من التعبير بلفظ مصابيح ، ولعمري من هذا تنم بلاغة القرآن ، وبهذا فلتعرف ، نهر بالمصابيح مشبرا إلى عدم تنامي الحسن ودقة النظام ، وليس عند نوع الانسان من قوة يدرك بها علق النظام وغاية الاتقان أكثر من التعبير بمصابيح ، وقوله (وجعلناها رجوماً للشياطين وأعدنا لهم عذاب السعير) إتمام للكلام على النظام ، يقول : إن النظام المنتهي في الحسن لا يتم إلا بتجمع الأضداد بحيث لا يكون أحد الضدين بدون الآخر ، فهذه المصابيح التي زيننا بها السماء لا تنقف عند الزينة بل بأضواء الكواكب والشموس يكون مافي الأرض من رزق وحياة وموت تبعاً للناموس الذي سنناه ، والقدر الذي أمضيناه ، فيصكون في العالم الانساني وعالم الأرواح التي فارقت أجسادها نفوس تنقاد في الأهواء في عالم المادة ، وتضطهر بأنواع الذنوب والشهوات في الدنيا ، وتقتحم ما نهينا عنه بحيث تفتتها الشهوات . وتجذبها اللذات التي نجحت من العناصر المتفاعلة بسبب الأضواء المشعة النازلة من عالم الكواكب المشرقة في السماء التي هي زينتها ، فهي كما كانت زينة السماء ، وأسباباً لرزق ذوى الصلاح والأنبياء والعلماء والحكماء ، هكذا هي سبب لتكون الأرزاق المهيجة لشهوات شياطين الانس وشياطين الجن وهذا العالم قد اختلط فيه الضرر بالنفع بحسب ما يظهر ، وخلق كل على حسب ما استعد له ، فالنفوس التي هي مستعدة للفضائل والنفوس الشريرة كلاهما استعد من هذه المادة المسخرة المقهورة بالقدر التي أضادت الكواكب فأشرقت عليها وبها تكونت صور الحيوانات والنباتات ، فاذن النجوم دارت سبباً لعذاب النفوس الخبيثة بما سببت لها بأمر الله غذاءها وشهواتها ، ومن ذلك أن المنجمين تكون لهم فيها رجوم وظنون ، فهم أيضاً من شياطين الانس ، فالعصاة شياطين ، والمنجمون شياطين ، وانعاندون الجاحدون شياطين ، كل هؤلاء استمدوا شيطنتهم من مظاهر الطبيعة المصورة بواسطة الحرارة والضوء من الكواكب ، وهذا معنى قوله : « وأعدنا لهم عذاب السعير » أي في الآخرة ، فمن كان محترق القلب باللذات في الدنيا وانجذب إلى الشهوات وقالت له نفسه هل من مزيد منها ، وغفل عن جمال هذه العوالم ، ولم يعرف من هذه العوالم إلا شهواتها ، أما عقله فانه قد حجب عن الجمال والكمال ، فهذا هو الذي هي له عذاب السعير على مثال ما عود نفسه في الدنيا ، إن الجمال في العالم الذي لاحذله المديح في ذكرهم مصابيح لا تعرفه النفوس المحجوبة ، إن السماء قد أضادت على البر والفاجر ، فالفجار حصرت نفوسهم في شهواتهم فلم ينظروا إلى السماء فوقهم نظراً فكرياً وعقلياً ، وكأنه قيل : أرجع البصر يا محمد هل ترى من اختلاف في طراز هذا العالم ، بل ليس لهذا النظام نهاية في الحسن ، ولكن ليس يعقل هذا إلا نفوس شريفة لم تنحصر في شهواتها ، بل كان لها إدراك يفوق غيرها من الناس ، فأما الشياطين وهي النفوس الناقصة فليس لها حظ من الحياة إلا ما به قوام الجسم ، وكما أن أنوار الشمس فيها حرارة وضوء ، وبالحرارة تكون الحياة ، والضوء تكون الهداية ، هكذا النفوس الناقصة لم تأخذ من آثار الكواكب والشموس إلا ما به الحياة الناجمة من آثار الحرارة ، أما هداية العاقلة التي ترسمها الأضواء للأبصار وتتألقها البصائر بالبحث والتنقيب ، فيؤثرون الشياطين بمعونتها ، وهؤلاء هم الذين أعدنا لهم عذاب السعير في الآخرة لأننا نضع كل شيء في موضعه فندخلهم فيما يشاء كل حاكم في الدنيا وهم كانوا محبوسين في نيران الغضب ، ونيران الخرص ، ونيران البخل ، ونيران الحقد ، ونيران الطمع وهكذا ، فهذه النيران كلها تطلع على القلوب بعد الموت ويوم القيامة ، ثم تصير ناراً مشاهداً : إما كل امرئ ملازمة : « إن عذابها كان غراماً » .

ولما كان الكفار من شياطين الانسان أوتلام يذمهم الذين يدعون لوسوستهم أعقبه بقوله : (وللذين كفروا برهيم عذاب جهنم وبئس المصير ، إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً) صوتاً كصوت الجير (وهي تقور)

تغلي بهم غليان الرجل بما فيه (تكاد تميز من الغيظ) تنفترق غضبا عليهم ، وهذا من باب الاستعارة
 التخييلية يمثل شدة اشتغالها بهم (كلما أتقى فيها فوج) جماعة من الكفرة (سأطعم خزنتها ألم يأتكم نذير)
 يخوفكم هذا العذاب ، وهذا سؤال توبيخ (قلوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا مازلنا نكفر بالله من شيء إن
 أنتم إلا في ضلال كبير) والمعنى أفرطنا في التكذيب (وقلوا لو كنا نسمع) كلام الرسل فنتقبله اعتمادا على
 ملاح من معجزاتهم (أولنعقل) فنتفكر في حكمه ومعانيه ، مستبصرين حتى نوقن بعقولنا (ما كنا في
 أصحاب السعير) في عذابهم (فاعترفوا بذنبهم) حين لا ينفعهم ، والاعتراف اقرار عن معرفة (فسحقا
 لأصحاب السعير) أى بعدا : أى أبعدهم الله من رحمته (إن الذين يخشون ربهم بالغيب) يخافون عذابه
 حال كونه غائبا عنه لم يعابوه بعد ، أحوال كونهم هم غائبين عنه (لهم مغفرة) لذنوبهم (وجر كبير)
 فلان نسبة بينه وبين لذات الدنيا ، ثم أخذ يشرح عموم علم الله بالغيب والشهادة لمناسبة قوله « يخشون ربهم
 بالغيب » (وأسرّوا قولكم أو أجهروا به إنه عليم بذات الصدور) أى بالضمائر قبل أن يعبر عنها سرا أو جهرا
 (ألا يعلم من خلق) ألا يعلم السر والجهر من أوجد الأشياء على مقتضى علمه وحكمته ، وكيف يخلقها وهو
 لا يعلمها ؟ (وهو اللطيف) باستخراج ما في الصدور (الخبير) بما فيها من السر والوسوسة ، فهو
 حقيق إذن أن يخشى بالغيب ، فكأن هذه الآيات لتبين أن خشية الله بالغيب واجبة (هو الذي جعل لكم
 الأرض ذلولا) لينة سهلة ليسهل لكم السالك فيها ولا يمنع المشي فيها الحزونها وغلظها وخلق فيها أنواع المعادن
 والحجارة والطين وسائر المواد التي تصلح لأنواع المختلفة من الصناعات والأعمال ، فن طين خاص للأواني
 إلى حجارة مختلفة للبناء ، إلى جبال طلقة الهواء ، وأخرى مكسوة بالأشجار ، إلى أرض صالحة للزراعة ، إلى
 أخرى لا تصلح ولكن تستخرج منها المعادن ، إلى صحارى واسعة وفيافي قاحلة كالتي بين مصر وطرابلس ،
 يقل فيها الماء لتصعب سكنها لتكون فاصلة بين الممالك ، ليقن تحرش بعضها ببعض ، ولينظف فيها الهواء
 من العفونات ويلطف ويكون بمثابة مرشح الماء ليصلح للشرب إلى جهات ناجية في القطبين تبقى مئات
 الألوف أو عشراتهما لتستخرج من الأعمال النباتية والحيوانية حتى إذا جاء أجلها أديرَت الأرض دورة بحادث
 فجأى فصار القطب خط استواء وبالعكس ويبتدىء دور العمل ، والدليل على ذلك أن جهة القطبين قد وجد
 بالقرب منها فيسلة عظيمة مطبوعة في باطن الأرض مما دلّ على أن هذه الجهات كانت خط استواء فانقلبت
 فجأة إلى قطبين ، فالأرض ، بذلة لنا وفيها ما لا يحصى من المنافع فلذلك أعقبه بقوله (فامشوا في مناكبها)
 في جوانبها مشيا عقليا ومشيا عمليا ، فاعلموا بالاستدلال والبحث في منافعها ، والعمل باستخراج ما فيها من
 المنافع والمعادن (واكلوا من رزقه) واتقوا من نعم الله (وإليه النشور) المرجع فيسألكم هل شكرتم
 نعمه ؟ هل قبلتموها وانتفعت بها حتى تؤدّوا شكره ؟

ولما ذكر نعمه أخذ يحذر من عقوبته فقال : (أأنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي
 تمور) أى أأنتم الله الذي هو في السموات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم : أى أأنتم خسفه بكم الأرض
 كما خسف بقارون فإذا هي اضطرب أى تحرك الأرض عند الخسف بكم حتى يقلبكم إلى أسفل وتعلو الأرض
 عليكم وتمور فوقكم ونحيى ونذهب (أم أأنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا) أى ريحا ذات حجارة
 صفار كما فعل بقوم لوط (فستعلمون كيف نذير) كيف انذارى إذا شاهدتم المنذره ولكن لا ينفعكم العلم
 حينئذ ، وكيف يأمنون من في السماء أن يصب عليهم العذاب من فوقهم ومن تحتهم ، وقد ذال لهم الأرض
 وزين لهم السماء بمصابيح ، فإذا لم يشكروا النعمة بالبحث فيهما والانتفاع والتفكير فهو حرق أن يقلب
 النعمة نقمة ، فإذا زين السماء وذلل الأرض فهو قادر أن يجعل المزين والمذلل للتدبير لا للإنعام إذا لم يكن
 للنعمة موضع ، وكيف يأمنون ذلك وقد حصل لمن قبلهم من الأمم (ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف

كان نكبر) أى انكارى عليهم بانزال العذاب نارة من تحتهم ونارة من فوقهم ، إن الله كما ذلّل الأرض وزين السموات لم يذر ما بينهما بلا نظام ورحمة (أولم يروا إلى الطير فوقهم) فى الهواء (صافات) باسقاط أجنحتهم فى الجوّ عند طيرانها (ويقبضن) أى ويضممنها اذا ضربن بها جنوبهن وقتا بعد وقت للاستظهار بذلك القبض على التحريك ، والمعنى ويصفقن ويقبضن ، وذلك أن الطير فى أكثر الأوقات يكون صافا أجنحته ، ثم هو يقبضها وقتا بعد وقت ، فالبسطة هو الأصل ، والقبض يكون آتافنا (مايسكنهن) فى الجوّ حال القبض والبسطة وهن أجسام كثيفة من طبعها أن تقع على الأرض بالجاذبية (إلا الرحمن) الذى خلقهن على شكل خاص أدهش علماء العصر الحاضر حينما شرعوا فى فن الطيران فأدركوا بعض تلك الحكمة التى قاومت طبع الجاذبية وجعلت الهواء مسرعا للطير كما تدرج الأنعام فى البرية ، إن هذه الخلقة دقيقة الصنع حتى ان الطائر فى خافه مختصرا من الأنعام فوق الأرض ، فلكل عضو كسيف فى الأنعام عضو يقابله فى الطير غاية فى الخفة أو الصغر أو اللطف ، فكيف ترى الجناحين قد خفت جملهما وقد كسبا بالريش الخفيف المكوّن من أنابيب مجوّفة وشعرات حريرية ، وجعل لها المقارمديا كيلا تصادم الهواء فى طيرانها فيعيق جريها بخلاف ذوات الأربع فإن وجوهها عريضة وأرجلها المقدّمة القائمة مقام الجناحين ثقيلة متباعدة بما تعتمد عليه عند سيرها فى الأرض من حافر أو خف أو ظلف ، لذلك أعقبه بقوله (إنه بكل شىء بصير) أى يعلم كيف يخلق الغرائب ويدبر العجائب ، واذا كانت هذه بعض العجائب التى أبرزناها والحكم التى أظهرناها فهل أمتن أن ندبر بحكمتنا عذابا نصبه عليكم صبا ، فنحن نغير النظم بحكمتنا ، فقد أبدعنا الطيور فى الجوّ فقويت على مغالبة ثقلها فلم تسقط على الأرض ، هكذا نحن نقدر أن نغير حالكم ونهلككم بقدرتنا وحكمتنا فن ذا الذى ينصركم منا ؟ ألكم جنود يمنعونكم من عذابنا وقد رأيتم سطوتنا وبطشنا ؟ (أمن هذا الذى هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا فى غرور) لامتد لهم ، وعبر بلفظ الرحمن فى مقام العذاب اشعارا بأنه برحمة أبى الناس فى الأرض مع ظلمهم وجهالتهم ، لأن رحمة وسعت كل شىء ، وسعت البار والفاجر ، والطير فى السماء ، والأنعام على الأرض (أمن هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه) أم من يشار إليه ويقال هذا الذى يرزقكم ان منع المطر عنكم أو أوقف الهواء فلم تجر الرياح ، أو جعل ماء البحر غورا ، ومحصل ذلك أنكم لاجند لكم ينصرونكم إن عذبكم ، ولا رازق يرزقكم ان حرّمكم ، فلما لم يتعظوا أضرب عن ذلك وقال (بل لجوا) تمادوا (فى نتق ونفور) فى عناد وشراد عن الحق (أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أمن يمشى سويا على صراط مستقيم) يقال كيبته فأكب : أى أمن يمشى وهو يتعثر كل ساعة ويختر على وجهه لوعوث طريقه واختلاف أجزائه أهدى أمن يمشى قويا سالما من العثار على طريق مستوى الأجزاء والجهة ، فالكب على وجهه مثل المشرك ، والذى على صراط مستقيم مثل الموحد ، وهذا المكب على وجهه هو الذى يحشر على وجهه فى النار يوم القيامة ، ومن يمشى سويا الآن بالتوحيد هو الذى يحشر على قدميه إلى الجنة .

ولما ذكر فيها تقدّم زينة السماء وتذليل الأرض وامساك الطير فى الهواء أخذ هنا يذكر ما هو أقرب إلينا وهو خلق أنفسنا فقال : (قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار) لتسمعوا المواعظ ولتنظروا صنائعه فتبهجوا بزينة السماء بالكواكب وتسبحوا الأرض وتذليلها ، وتعلقوا كيف أمسك الطير فى جوف السماء (والأفئدة) لتتفكروا فيما ذكر واعتبروا وتستفيدوا فوائد مادّية وأخرى عقلية (قليل ما تشكرون) باستعمالها ، ثم لخص هذا كله فقال : (قل هو الذى ذرأكم فى الأرض) فقله «ذرأكم» أى خلقكم يشمل السمع والبصر والعقل ومنافع الأعضاء ، وقله «فى الأرض» يشمل جميع المنافع المذكورة من

تذليلها وتسهيلها وإشراق الكواكب عليها الخ وما فوقها من طيور في أخى ، وقوله (وإليه تحشرون) أى للحساب ، هل شكرتم هذه النعم ؟ هل فكرتم فيها ؟ هل عقلتكم ذلك ؟ .

ولما أتم الكلام على النعم والحساب عليها أخذ يذكر المنكرين لتلك النتيجة الغائبة عنا ، وهى الحشر والعقاب فقال : (ويقرولون منى هذا الوعد) أى الحشر وما يتقدمه من الخسف فى الدنيا وإرسال الماصب (إن كنتم صادقين) أيها النبى والمؤمنون (قل إنما العز عند الله) أى علم وقته (وإنما أنا نذير مبين) أئين لكم الشرائع (فلما رأوه) أى العذاب الموعود (زلفه) أى حال كونه قريبا منهم (سيئت وجوه الذين كفروا) أى ساءت رؤىة الوعد وجوههم بأن عذبنا الكآبة والساعة ، وغشيتهم القفرة والسواد (وقيل هذا الذى كنتم به تدعون) أى وقال الزبانية هذا الذى كنتم تسألون تحجيلة وتقولون ائتنا بما تعدنا استهزاء فقوله « تدعون » على هذا من الدعاء لامن الدعوى فهو على وزن تفتعون (قل أرأيتم ان أهلكنى الله) أمائنى (ومن معى) من المؤمنين (أورحنا) بتأخير آجالنا (فن يحير الكافرين من عذاب أليم) وهذا القول لمشركى مكة الذين كانوا يخشون هلاكه صلى الله عليه وسلم ومن معه ، يقول : إن هلكنا أورحنا فلا يحير لكم من العذاب ، وقد فسرهما ابن عباس بما يأتى :

« أرأيتم ان أهلكنى الله » أى فعذبنى « ومن معى أورحنا » أى ففقرنا فنحن مع إيماننا خائفون أن يهلكنا بذنوبنا ، لأن حكمه نافذ فينا ، فن يحيركم أو يمنعكم من عذاب أليم وأتم كفرون ؟ اه ثم قال (قل هو الرحمن آمناب به وعليه توكلنا فستعلمون من هو فى ضلال مبين) منا ومنكم (قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا) غائرا فى الأرض بحيث لا تناله الدلاء (فن يأتيكم بماء معين) جار أوظاهر سهل المأخذ : أى أخبرونى ان صار ماؤكم ذاهبا فى الأرض فن يأتيكم بماء ظاهر تراه العيون ؟ إذن لا بد أن يقولوا هو الله تعالى حينئذ يقال لهم : فلم تجعلوا معه من لا يقدر على شىء أصلا شريكا له فى العبادة انتهى تفسير السورة اللفظى ، والحمد لله رب العالمين .

لطائف هذه السورة

- (١) فى قوله تعالى : « الذى خلق الموت والحياة » .
- (٢) وفى قوله : « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح الخ »
- (٣) وفى قوله : « أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات » .
- (٤) وفى قوله : « قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار » الخ

اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : الذى خلق الموت والحياة

لننظر الآن لم قدم الموت على الحياة ، وكيف ابتدئ السورة بما يفيد أن خبره عام شامل ، ثم ابتدئ بذكر الموت مع ان الموت عدم ، والعدم ليس خيرا لا كثيرا ولا قليلا ؟ فتجيب على ذلك فنقول : إن النظر السطحي فى هذه الأرض التى نساكنها والجهل هما اللذان جعلاهما معذبين ، فالجهل سبب العذاب فى الدنيا بالذلة وسبب العذاب فى الآخرة بجهنم وبأنواع الذل والاهانات ، ومن الجهل عدم فهم نعمة الموت ، إن الموت مزرعة الحياة وحققها ، ولولا الموت لم نساكن الحياة ، فتقديم الموت أشبه بتقديم السبب على المسبب والأصل على الفرع ، وإيضاحه أن تقول :

إن الحيوان والنبات هما اللذان يعترهما الموت والحياة ، وقد وضع الله فى طبيعة أكثر النبات وأكثر

الحيوان كثرة الذرية كثيرة مفرطة جداً ، وتلك الكثرة الطبيعية لحكمة ، وهي أنها تكون ضماناً لبقاء الأنواع على الأرض ، فلولا هذه الكثرة المفرطة لانقرض كثير منها ولم يعوض بمثله في الأرض ، فلوتركت تلك الذرية المتعاقبة حيناً من الدهر لامتلاء وجه الأرض بالحيوان فلم تعد الأرض تصالح لحيوان جديد ، فبوت هذه المخاوف وسرعة فنائها هي النعمة العظمى لأنها تخلي وجه الأرض لما بعدها ، فانوت أشبه بالتخلية ، والحياة أشبه بالتخلية ، وهذا هو السر في تقديم الموت ، ولأضرب لك مثالا لذلك فأقول :

(١) إذا نظرت إلى مقدار ما في النخل من لقاح ، وما في الذرة مما ينتشر في الهواء أو يقع على الأرض تجده لو صاف صلاحاً وأثمر كله لم تسعه الأرض .

(٢) كنا نرى السمك وما في بطنه من المقادير الكبيرة من البيض الصغير الدقيق جداً وهو عدد غزير كثير يسمى [البطروخ] يأكله الناس ويبيع في الأسواق ، فلأن هذا البيض كله صار سمكاً لأصبح البحر الملح قنطرة جامدة .

(٣) نرى أن في البيوت من أنواع الحشرات كالبق والبراغيث وأمثالها ما لو تركت ولم يهلكها الناس ولم يسلط عليها البرد فهلكها وغيرها من الحشرات كالجراد وغيره لأصبحت الأرض كلها مغلفة بطبقة منها فامتنت الحياة عليها .

(٤) ذكر العلامة [وولاس] عشباً ينتج من البسدر كل سنة ثلاثة أرباع مليون بذرة ، وقد تراه لو عاش هذا النسل ثلاث سنين فقط وأعقب كل بذرة في هذه المدة ما بقي مكان في الأرض غير مغطى بها ، وقال : لو أن كل نبات أنتج حبتين اثنتين في السنة واستمر النسل على الانتاج لبلغ عدد الانتاج في السنة الحادية والعشرين ١٠٤٨٠٥٧٦

(٥) إن بعض الحيوانات الدقيقة المسماة [ميكروبات] إذا استمرت على التوالد مدة خمسة أيام بدون انقطاع للماء المحيط كله بنسله إلى عمق ميل .

(٦) وميكروب الوباء [الكوليرا] الذي يتضاعف كل عشرين دقيقة لو نضى عليه يوم واحد وهو يسير بهذا المعدل بلا عائق لبالغ وزنه ٧٣٦٦ طناً ، وبلغ عدده رقم ٥ والى يمينه ٢١ صفراً .

(٧) والقليل معلوم أنه أبداً الحيوان ولادة ، فإن الفيلة لا تلد إلا مرة واحدة في كل عشرين سنة ، وقد حسب أحد العلماء أنه إذا استمر التناسل بدون عائق لبلغ نسل الزوجين بعد ٧٥٠ سنة ١٩ مليون فيل .

(٨) الجراد كثيراً ما يهجم على القرى والمزارع وهو كالسحاب فيأكل ما أمامه ، ومتى لم يجد ما يأكله أكل بعضه بعضاً .

(٩) السمك الذي يشرب الناس زيتاً لتقوية الجسم ، تبيض في العام الواحد الواحدة من أنثاه مليوني بيضة ، فلوأصبحت كل هذه البيضات المستخرجة من سمكة واحدة في سنة واحدة سمكاً لصار البحر كتلة جامدة .

(١٠) بعض المحار في البحار تبيض الواحدة ستين مليوناً من البيض ، وهذا النسل لو بقي كله ما بين عام وعامين ل زاد على الكرة الأرضية .

(١١) الذباب الذي ينفس عيش الإنسان إذا تكاثر أمامه تبيض الأثني منه خمس أوست مرات ، وفي كل مرة تبيض من ١٢٠ بيضة إلى ١٥٠ بيضة ، فلوأعاشت كلها لم يعيش شيء على الأرض معها . هذا قل من كل من سرعة تكاثر الحيوان والنبات ، فلولا الموت لم تكن حياة ، هذا هو السر

في تقديم الموت على الحياة .

(١٢) ربما كان حيوان يعيش على آخر ، فإذا انقرض ذلك الآخر مات الحيوان ، مثل ذلك الثعابين تعيش في بعض البلاد على الجرذان ، وبموت الجرذان وانقراضها تموت الثعابين وتقرض من تلك الجهة ، فإذا كثرت القطط أكلت الجرذان وبفنائها نفى الثعابين ، إذن تكون حياة القطط هلاكاً لنوعين الجرذان والثعابين ، وذلك في بعض البلاد ، وهذه رحمة عظيمة .

(١٣) جرثيم المرض المسمى [الملاريا] إنما تعيش في جسم الناموس ، فإذا أزيل الناموس زال معه ذلك الحيوان المهلك .

(١٤) لولا حياة البقر ما ابتلى الإنسان بالدودة الوحيدة ، إنما تعيش أولاً في لحم البقر ، ثم تنتقل إلى جسم الإنسان وتعيش في أمعائه ، فلو لم يكن بقر لم تكن دودة وحيدة .

بهذا وأمثاله من الحكمة التي أشرفت بها الأرض وأضاء نورها نعرف نعمة الله في الموت ، ونعرف السر في تقديم الموت على الحياة في هذه السورة .

يا سبحان الله : ظهر أن الموت نعمة على الأحياء ، هو أصل الحياة لمن في الأرض غير الميت ، ولكن هل هو نعمة للميت ؟ نعم هو نعمة كبرى لسببين : الأول أن ينتقل من هذه الأرض الضيقة التي ضاقت صدورهم وضائق هي بمن فيها فكثر الموت ، الثاني أن يدخل في عالم أوسع منها ، فهذا من سر تقديم الموت على الحياة .

البلاغة في القرآن

أنظر أيها الذكي - لكلمتين في هذه السورة : الموت في أولها ، ولفظ مصابيح في وسطها ، وكيف اختير اللفظان فيها ، انظر كيف كان تقديم الموت على الحياة نظر فيه لعلم الطبيعة والتاريخ الطبيعى ، وكيف كان اختيار لفظ المصابيح لذلك الجلال وللوازنة بين نظامنا في بيوتنا ونظام العالم كله كما تقدم ، وليكون مذكراً بقوله تعالى : « الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح » فكل هناك لنظام الله في العالم بنظام مصباحنا حتى نعقل كيف نظم على مقدار عقولنا ، وهنا يشير إلى أن نوازن ما بين الدقة هناك والضعف هنا ، فنرى ما لا يتناهى من المحاسن في ذلك النظام ، مثل هذه المعاني لا يدركها ولا يعقلها من تصبروا بلاشة القرآن على أساليب الكلام ، وقد بينا بعضه في سور كثيرة وواربنا بينه وبين كلام العرب ، فأين الثريا وأين الثرى ، من أين للبلغ اللفظي أن يستعرض علوم الحيوان والنبات كلها لأجل تقديم لفظة على أخرى ؟ من أين له أن يستعرض نظام الدواكب ونظام البيوت لأجل لفظة جاءت مجازاً ، فالحق والحق - قلت إن هذا القرآن يطلب جميع العلوم ، فيدرس المسلمون علوم الطبيعة ، وعلوم الفلك ، وعلوم هذه الدنيا كلها والافلا رقى لهم ولا قرآن لهم إلا ما تحفظه الأطفال ويعر به النحويون ويستدل به الفقهاء في أحكام القضاء ثم يحرمون من كل نعيم في الحياة بعد ذلك في الدنيا والآخرة ، ولقد نصحت وأفرغت جهدي ، وسيتولى الله الأمة برعايته ، ويهيئها بكرامته ، ويجرسها بكلامه . انتهى الكلام على اللطيفة الأولى ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثانية في قوله تعالى : ولقد زيننا السماء الدنيا بمصابيح

لقد كتبنا فيها في سور متقدمة ، وفي هذه السورة ، قال الله في [سورة النافات] : « إنا زيننا السماء الدنيا بزينة الكواكب ، وحفظنا من كل شيطان مارد ، لا يسمعون إلى الملائ الأعلى ويذفون من كل جانب دحوراً ولهم عذاب واصب » ، وهنا قال فيها : « وجعلناها رجوماً للشياطين وأعدنا لهم عذاب السعير » فهنا أمران : طرد عن الاستماع ، وعذاب في الآخرة ، إن كل ما في القرآن من عذاب في الآخرة يتقدمه .

عذاب في الدنيا ، فهذه الشياطين في الدنيا يحجبون عن الاستماع ، وفي الآخرة لهم جنم ، وإن أردت أن تفهم نتائج هذه المعاني بنفسك فانظر في أمتك التي أنت فيها وفي مجالسها وتأمل الناس حولك فاجلس في مجلس عام وخطبهم بحال النجوم وبهجة هذا العالم ، فانك ستجد قليلا منهم يفرحون والباقي لا يباليون ، فهؤلاء الذين لا يحبون هذه المباحث هم تلاميذ الشياطين الذين هم عن السمع معزولون ، تلك الشياطين عزلت عن السمع لما في العالم الأعلى ، وهؤلاء نظراؤهم عزلوا عن معرفة بهجة العلوم ، وهي من بهجة العالم الأعلى ، فأوثقت عن السمع معزولون ، كلاهما غير مستعد لهذه الامور العجيبة ، ثم تأمل أيضا في الناس حولك تجد الجهال منهم قد تلوح منهم التفاته إلى العلماء فيعززون على جهلهم ، وقلة علمهم ، وحرمانهم من التمتع بالمباحث العلمية الشريفة ، فهذا مبدأ العذاب في الدنيا ، وسيكون بعد الموت ويوم القيامة أشد ، فينتقل من العذاب النفسي ويرتقى إلى الجسدي ، فهذا أثر من آثار هذه الآيات تراها في الدنيا وأنت حتى ترزق . انتهى الكلام على اللطيفة الثانية ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثالثة في قوله تعالى : أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما عسكنهن إلا الرحمن والكلام عليها في مقامين : المقام الأول في علم الطيران الحديث ومناسبته لطيران الطير ، المقام الثاني في بنية الطيور ، وأن أجسامها مختصرة من أجسام ذوات الأربع

المقام الأول

إن قارئ هذه الآية يمر عليها مرة الكرام ، يقرأ : « أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن » وقد خرج منها خاوي الوفاض ، بادي الأنفاض ، يمر عليها كما يمر الطير في الهواء ، ولكن مسألة طيران الطير ليست سهلة المتناول ، انها أمر عجب ! لقد صرّت العصور والدعور والناس يتقصون في حكاياتهم ويتخيّلون أنه لو كان لهم أجنحة كأجنحة الطير لطاروا إلى أحبهم ، وسعدوا كما سعد الطير في طيرانه في الهواء ، ألا ترى أن هذا مذكور في قصة حسن الصائغ البصري ، وفي أدب اليونان ما يشير إلى ذلك الخيال ، ولما أفاق الانسان من سباته العميق أخذ يفكر عسى أن يكون هذا الخيال يوما ما حقيقة ، وعسى أن يتاح له أن يطير كما يطير الطير ، ظن الناس أن الانسان ليس عليه ألا يجعل له ريشا كريش الطائر بحيث تكون نسبته إلى جسمه كنسبة ريش الطائر إلى جسمه ، وتكون أجنحته أيضا على تلك النسبة ، ففكر الناس في ذلك وقاموا بهذه التجربة ، وأذكر لك منهم :

(١) رجلا إيطاليا في بلاط الملك جيمس الرابع الاسكوتلندي في بدء القرن السادس عشر .

(٢) وبعد ذلك بنحوقرن قام راهب ألماني بالتجربة أيضا .

(٣) وحاول مركيز فرنسي عاش في أواسط القرن الثامن عشر أن يطير بالأجنحة .

(٤) وعباس بن فرناس صاحب صحاح الجوهري .

فهؤلاء الأربعة نموذج لمن حاولوا الطيران قبل هذا القرن الذي نحن فيه فأخفقوا جميعا ، فأما الأول فانه لما حاول الطيران لعبور بحر المانش ، وقد استعد بجناحين عظيمين مصنوعين من ريش طيور مختلفة ونسب عن برج قصر [سترلنغ] فهوى إلى الحضيض فكسر عظمه ورض جسمه ومات ، والثاني سقط فمات كذلك ، والثالث وهو المركيز حاول أن يقطع نهر الرين ، فعمل تجارب ، فبدا له أن يقلع عن العمل فنجبا ، والرابع أراد أن يطير فسقط فمات كما هو معروف ، هذه أول خطوة .

[الخطوة الثانية] : في هذه الخطوة رأى الانسان أن طيران الطير ليس بقوة الأجنحة خشب ، وإنما هناك أمر آخر فليس يكفي الانسان أن يلبس ريشا على الدبة المتقدمة ليطير . كلا ، والذي عرف ذلك رجل يسمى [بوري] سنة ١٧١٣ م فدرس حركات الطيور ، وقدر قوة عضلاتها الصدرية ، فبين له عجز الانسان أن يضارع الطير بهذه الوسيلة ، كما ثبت بالاختبار أن الانسان فشل في هذه التجربة ، فبئس الناس من الطيران .

[الخطوة الثالثة : عمل المناطيد ^(١)] في هذه الخطوة وقد يش الناس من الطيران كالطير رجعوا إلى مشكلة السفينة في البحر ، إن السفن إنما تسير في البحر لأنها مصنوعة بطريقة خاصة بحيث يكون حجمها أكبر من حجم الماء الذي يحاثلها وزنا ، فلو أن حجمها كان أقل من حجم الماء المذكور لغرق ، هكذا هنا صنعوا المناطيد من مواد خفيفة تصكون أخف من الهواء ، كما أن السفينة أخف من الماء ، كما نرى الريش يطير ، وكما نرى طيارات الأطفال في الأعياد ، وكان اختراع المنطاد سنة ١٧٨٢ م فلم يكن غير ثلاث سنين حتى قطع بحر الماش من [دوفر] إلى [كاليه] في المنطاد سنة ١٧٨٥ م والذي قام به [جان بيار بلانشاد] وهو معدود من أكابر الذين جادوا بأنفسهم ، وهو معروف عند جميع المشتغلين بهذا الفن ، ومعنى هذا أن الانسان لا يمكنه أن يطير لأن جسمه أثقل من الهواء ، فالمنطاد شيء وطيران الانسان في الجو شيء آخر ، وبقى الناس في حيص بيص من أجل طيران الانسان كما يطير الطير ، الطير يطير بجسمه أثقل فلم لا يطير الانسان وقد عرفنا أن الأجنحة لا تكفي فأين السر إذن ؟ وهنا جاءت :

[الخطوة الرابعة] وابتدأوا سنة ١٨٩١ م إذ قام [ليلانتال] وراقب الطيور في حركاتها عشرين سنة ، وبنى عدة على شكل طيارة مبسطة الأجنحة ، ووضع آلة للوازنة في طيارته وقوة محرك لا طالة مدة الطيران ، وقال : أتى درست من هذه الطيور أن سر الطيران يتم للانسان اذا تسنت له قوة رافعة كافية لأن تدفعه بالسرعة الواجبة للارتفاع عن الأرض ، وحينئذ يمكنه أن يحوم في الفضاء كما يشاء ، ولكنه مع نجاحه المبدي أيضا سقط فوات سنة ١٨٩٦ م .

ومما كشفه أيضا أن الأجنحة المحدودة فيها قوة للرفع تزيد عنها في الأجنحة المبسطة ، ولكن كان هناك شابان أمريكيان في تلك الآونة هما الأخوان [ويلبور] و [أورفيل رايت] يشتغلان سرا في بلدهما [دايتن أوهايو] في درس علم الطيران وإجراء الامتحانات الصغيرة الابتدائية من المركبات الطوائية ، وقد كان محرّكهما إلى ذلك نجاح [ليلانتال] في الامتحانات التي قام بها بما اصطنع من الطيارات المبسطة الأجنحة والمسيرة بالقوة ، لكنهما لم يعمدا إلى بنیان مركبة كبيرة قبل سنة ١٩٠٠ ، ومنذ ذلك العهد أخذتا امتحانها وبحثان فيها ويضيفان إليها حتى كانت سنة ١٩٠٥ م : فطار أحدهما في الهواء مسافة أربعة وعشرين ميلا في مدة ثمان وثلاثين دقيقة فوق حقل بالقرب من بلدهما ، فكان الأخوان أول من توفى إلى النجاح في اكتشاف سر مبدأ الطيران وفتح ملكة الهواء لمساعي الانسان .

وفي سنة ١٩٠٧ م أعلنت حكومة الولايات المتحدة رغبتها في الحصول على طيارة من أوصافها أن تكون أجزاؤها سهلة التركيب والتفكيك تسهلا لنقلها في مدة لا تتجاوز الساعة الواحدة ، ومعقدة لحل رجلين يبلغ وزنها على الأقل ٣٥٠ بونا ، ويقطع مسافة أربعين ميلا ، فجوابا على هذا الاعلان قدم الأخوان إحدى طياراتهما للامتحان ، وفي سنة ١٩٠٨ جاء [أورفيل رايت] بالطيارة إلى [واشنطن] وفي خلال الامتحانات الابتدائية غير الرسمية طار طيارنا مدهنا استمر فيه ساعة و٢٥ دقيقة و٢٠ ثانية ، ثم

(١) انظر صورة المنطاد والكلام عليه في المجلد الحادي والعشرين من هذا التفسير اه

أراد القيام بالامتحان الرسمي فعين الملازم في الجيش [سلفردج] لركوب معه ، خافت الطائرة في الفضاء ، وكانت في بدء الطيران عند رغائب المراقبين ، ولكن الرصاص الخشبي انكسر من سرعة دورانه فسقطت الطائرة ، وقتل الملازم [سلفردج] ، أما [أورفيل] فأصيب بجراح ورضوض بليغة حالت دون إجراء الامتحانات في تلك السنة ، ولكن في السنة الثانية امتحنت طائرة [رايت] مرة أخرى فأتمت شروط الحكومة التي قبلتها واشترتها ودفعت لاختراعها الأخوين جائزة مالية قدرها ٢٥ ألف دولار .

أما في فرنسا فكان تقدم الطيران سريعاً وعجيباً ، لأنه لم يكن أحد قبل بدء سنة ١٩٠٨ قد طار أكثر من ثمانمائة واثنتين وأربعين ذراعاً ، ولكن لم تنقُص تلك السنة حتى كان الطيار الفرنسي [فارنهام] قد تمكن من الطيران مسافة ٢٥ ميلاً ونصف ميل ، وحتى كان [ويلبور رايت] الأمريكي في أواخر تلك السنة قد طار مدة ساعة و٥٤ دقيقة و٢٢ ثانية وقطع ٦١ ميلاً .

سنة ١٩٠٩ م ينزل ذكرها في التاريخ بأنها فاتحة العهد الجديد في فن الطيران ، لأن ماتم فيها من الأعمال العجيبة يدل على سرعة تقدم هذا الفن إلى درجة تفوق حد التصديق ، ففي الولايات المتحدة طار [كان كورتس] مدة ٦٧ دقيقة ونصف دقيقة ، وطار [أورفيل رايت] في فورت ماير مدة ساعة و٢١ دقيقة يحمل معه راكباً ، وقد قطع مسافة ٥٠ ميلاً ، وفي فرنسا ربح [كورتس] الجائزة في السباق الذي جرى في [ريمس] وقام [بليريو] بمطيره التاريخي المشهور ، إذ قطع لأول مرة بحر المانش من فرنسا إلى إنجلترا مسافة ٣٩ ميلاً في مدة ٣٧ دقيقة ، وقام [فارنهام] بمطير عجيب استمر فيه ٤ ساعات و١٧ دقيقة و٣٥ ثانية قطعاً مسافة ١٣٧ ميلاً ، وطار كل من [أورفيل رايت] و [لاتام] و [بولمان] خلق إلى أعلى من ألف وخمسمائة قدم ، وطار [بولمان] من لندن إلى مانشستر ، وطار [لورنس] من البني إلى نيويورك ، وطار [همتون] من نيويورك إلى فيلاديفيا ، وطار القبطان [رولز الانجليزى] من إنجلترا إلى فرنسا ، ثم عاد دون توقف فقطع بحر المانش ذهاباً وإياباً في مطير واحد ، وما زال فن الطيران في ذلك العهد بين تجربة واختبار وإصلاحات وتحسينات وإضافات هامة حتى قام الكونت [زابلين] الألماني المشهور الذي نظر إلى هذا الفن نظرة باحث ، فأنشأ في بلده المعامل الكبيرة ، وكانت فاتحة أعماله الجديدة اجتياز الاوقيانوس الأتليتيكي في الهواء ، وبعدها ابتداءً ببناء الماطيد الهوائية التي تنقل الركاب جاعلاً لها أوقافاً محددة للسفر على نحو هو الأمر مع البواخر والقطارات الحديدية ، فافكر فيه [الكونت زابلين] الألماني من عشرات السنين يفكر فيه الآن دول الحلفاء ويقومون بتنفيذه ، كان فن الطيران في عهد طفولته يوم استلم زمامه الألمان ، وهذا ما وجه له الأنظار والأفكار بجزيد الاهتمام ، ولا سيما من حيث استخدامه في الحرب للاستكشاف والدفاع والهجوم براً وبحراً ، ولقد كان للركبات الهوائية [الأيروبلان] أو بساط الريح شأن يذكر في الحرب العالمية الماضية من سرعة قضاء المهمات ، أو من حيث قيام رجل أو اثنين في مركبة هوائية بما لا يقدر على القيام به غير كوكبة من الفرسان .

وتستخدم الطائرات في تدمير الأساطيل وتشيت الجيوش وتخريب الحصون برمي القذائف الانفجارية من عل ولا ينالها فيه رصاص البنادق وكرات المدافع .

ها أنا ذا ألخص لك علم الطيران ، فن أجنحة أهلك الطائرين ، ومن بأس قعد بالطائر ، إلى منطاد يطير بخفته ، إلى طائرات تطير كما يطير الطير ، أجسامها خفيفة وطح محركات وقوات موازنة وترتفع بقوة ثم تحوم إلى أساطيل في الهواء تحمل الجيوش والمدافع ، وأنواع التجارات المختلفة حتى يحده وجه الأرض من الطرق الحديدية .

لعلك تقول : انك قرأت موضوعا فكنته مناسبة الآية ، وأى علاقة للآية بهذا التارخ الطويل العريض ؟ أقول لك : إن الآية بهذا القول يظهر سرها ، أليس من العجيب أن [ليلىا تال] أخذ يدرس الطيور في طيرانها عشرين سنة ! لم هذا كله ؟ ولم كان الطيارون في أول أمرهم اذا طاروا بالأجنحة يتوتون ولم لجأوا إلى أليطير إلا المناطيد ، ونكسوا على أعقابهم فلم يجسروا على ضربان الانسان ؟ ثم ما هذا الجهد والجد والعناء كله ؟ ثم لم يوفق الناس إلا في أيامنا هذه للطيران ، ومعنى هذا كله أن قوله تعالى : « أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن » لا تعرف بعض حقايقه إلا بهذا العلم ، أى ان طيران الطائر ليس أمرا سهلا كما يتصوره الناس ، فاهو إلا أن يزود بأجنحة ويطير . كلا . فقد سقط الناس وماتوا لما ظنوا ذلك ، واذا قلنا ان السفينة تجري فوق البحر فالطير ليس على هذا النظام ، بل الطير جسمه أثقل من الهواء ، أما السفينة جسمها أخف من الماء الذى على مقدار حجمها ، ولذلك تزيح من البحر ماء على مقدار وزنها ، ولم يعرف الانسان سر الطيران حتى قطع شوطا بعيدا ، فقوله : « ما يمسكهن إلا الرحمن » ليس مما يدرك بسهولة ، بل يدرك بهذا العلم : أى ان هذا العلم هو الذى نعرف منه مقدار الصنائع والحقائق والحكم التى أودعها الطائر حتى طار ، إن كل شئ فى نظر الجاهل سهل ، وفى نظر العالم يحتاج إلى أبحاث ، باليت شعرى : من كان يظن من أمم الأرض قبل هذا القرن أن طيران الطائر فيه هذه الحكم والأسرار . بهذا نفهم فى هذا العصر وحده معنى قوله تعالى : « إنه بكل شئ بصير » ، هذا العصر هو الذى فيه يظهر سر القرآن وسر الوجود ، فاذا كان العالم يظهر سره الآن فالقرآن يظهر سره الآن ، لأن هذا فعله وهذا قوله وهما متلازمان ، فليقرأ هذا المسلمون وليعلموا « بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ » وبهذا انتهى الكلام على المقام الأول ، والحمد لله رب العالمين .

المقام الثانى فى بنية الطيور ، وأن أجسامها مختصرة من أجسام ذوات الأربع

اعلم أن الأصناف الأربعة من الحيوان البرى وهى : الأنعام ، والبهايم ، والسمك ، والوحوش أكل بنية وأتم نظاما من الطيور والجوارح ، وكأن هذين قد جعلتا مختصرتين من الأربعة الأول ، ولوانك نظرت إلى الطير صافات فى جو السماء لحيل لك أنها صورة مصغرة من البقر والجاموس اذا كنت من الناظرين فى علم الطبيعة بعقولهم لامتصرتين على حواسهم ، فاذا رأيت أبا قردان وهو يأكل الدود فى الأرض المصرية والجاموس يرعى فى مرعاه رأيت للجاموس أسنانا وآذانا ظاهرة ومعدة وكرشا ومثانة وخزرات ظهر وجلدا نخينا وشعرا كما كان للفم صوف وللاليل وبر ، وهو ينزو وبلد ويرضع أولاده ويربها ، أما أبو قردان مثلا وسائر الطيور فانها مختصرة من الحيوان البرى ، فليس لها أسنان ولا آذان بيئة ولا معدة ولا كرش ولا مثانة ولا خزرات ظهر ولا جلد نخين على أبدانها ولا شعر ولا صوف ولا وبر ، وهذا جدول ذلك :

فى حيوان البرى	فى الطير
المبدل منه	البديل
الأسنان	المنقار
المعدة	الحوصلة
الكرش	القائصة
الجلد النخين وما عليه	الريش
الحمل والولادة والارضاع	البيض وتربية الفراخ
رأس عريضة	مناقير مدببة ورموس صغيرة

ثم إن الريش جعل لباسها وذئارا يقيها الحر والبرد ، وهو غطاء ووطاء ووقاية من الآفات العارضة ، وهو فوق ذلك يعينها على النهوض والطيران ، أما المتأقير والرئوس الصغيرة فتنها لولم تكن كذلك بل كانت كاللهاثم لعاقها ذلك عن سرعة الطيران ، لأنها تصادم الهواء فيعوقها عن سرعة الطيران . انتهى الكلام على اللطيفة الثالثة ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الرابعة في قوله تعالى : هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والابصار والافئدة الخ
يقول الله انه أنشأنا ، وانه خلق لنا السمع والابصار ، ثم يقول ان شكرنا قليل ، وبأيت شعري : أى شكر لمن يخلق في هذا العالم ثم يغادره وهو غافل عما فيه ، هذه مسألة الطيران يراها أمرا سهلا في بادى النظر ، ثم يتضح في آخر الأمر انها احتاجت إلى أعمار وعصور حتى عرفها الانسان ، وكما في الدنيا عندنا من مجهول ، إن أسماعنا وأبصارنا وعقواتنا نحن مسئولون عنها يوم القيامة ، ومسئولون عنها في الدنيا ، أما سؤال الدنيا فواضح ، اتنا لما أهملنا التفكير فيها حولنا حرمتنا منافعها ، والآخرة أدهى وأمر .

إن المسلمين اليوم مهملون مواهبهم وعقولهم وأسماعهم وأبصارهم ، أفلا نخجل حينما نرى أن علم الطير وطيرانه في الجوّ لم يقدّم به إلا قوم ليسوا مسلمين حتى اضطررنا أن ننقل أبحاثهم ونجعلها تفسيراً للقرآن . إن المسلمين لا تظهر مواهبهم التي أودعت فيهم إلا إذا عمموا التعليم للذكور والانات تعمياً تاماً ، ثم اصطفوا منهم طوائف للتعليم العالي ، وقامت مدارسهم بكل ما يطلبه المجتمع من نجارة وحدادة وحياتة وكهرباء وما شابه ذلك بحيث تكون المدارس كلها كأنها مكتبة لا تحتاج إلى إبرة من الخارج ولا آلة ، فهم الذين يصنعون الآلات والأدوات ، وهم الذين يحرقون ويزرعون ويطبخون ويخدمون وينظفون الآواني ، وبالجملة يفعلون كل شيء ، ولا يفوتهم علم من العلوم الطبيعية والرياضية وغيرها إلا خصص له منهم طائفة انظر هذا المقام في سورة آل عمران عند الكلام على قوله تعالى : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم » .

ذلك كله فرض كفاية باجتماع أئمة الدين ، وفرض الكفاية إذا أهمل أهم المسالمون جميعاً ، فلمسلمون آثمون اليوم ، والعذاب واقع الآن في الدنيا بتسلط الفرنجة ، وفي الآخرة بعذاب أليم ، قال تعالى : « ولعذاب الآخرة أشد وأبقى » انتهى الكلام على اللطيفة الرابعة ، والحمد لله رب العالمين .

وإذ فرغنا من الكلام على هذه اللطائف الأربع فلنشرع الآن في ذكر اللطائف العامة التي لم يكن لها وجود عند التأليف ، والتي لم يفتح الله بها إلا عند تقديم هذه السور للطبع :

اللطائف العامة في هذه السورة

(١) اللطيفة الأولى في قوله تعالى : « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور » .

(٢) في قوله تعالى : « ولقد زيننا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين » .

(٣) في قوله تعالى : « أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يسكنن إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير » .

اللطيفة الأولى

في قوله تعالى : ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور

اعلم أن هذه الآية فيها من العلوم المنتشرة اليوم عجبتان تعذبان معجزتين في القرآن ، وبيانه أنك اذا نظرت في المادة وفي ألوانها لاتجد أبدا فيها شقوة وفطورا ، فاذا رجعتا البصر ألف مرة وألف مرة إلى الألوان وإلى الأجسام كالخجر والشجر فانتا لا ترى فطورا ، فاعجب ثم اعجب من العلم اليوم في أمر المادة وفي أمر الألوان ، أما المادة فلقد تقدم الكلام عليها في مواطن كثيرة ، ومن أهمها ما جاء في [سورة النور] عند آية : « الله نور السموات والأرض » فان هي إلا ذرات كهربائية سالبة جاريات حول أخرى موجبة وعدد حركاتها في الثانية نحو ٤ آلاف مليون مليون مرة ، فتراها حجرا وشجرا وجبلا وجلا وسحبا وكتبا وذقبا ورحبا ، وبين كل ذرة من ذرات الحجارة والشجر وغيرها فروج وفطور بحيث لو كان على ذرة منها سكان تناسبها لم يكن لأحدهم أن ينظر الذرة التي تليها إلا بمنظار معظم (وبعبارة أخرى) ان الفروج بين كل ذرة من ذرات المادة والأخرى كالسافة التي بين الأرض وبين النجوم والشمس والقمر ، إذن مع كون المادة عبارة عن حركات ضوئية نرى ذراتها غير متصلة ، إذن كلها فطور وشقوق ، ولكن لشدة الاحكام والاتقان وعدم التفاوت لا ترى شقوة تخيفنا وتزعجنا ولا فطورا ، فالمادة مع انها مفعمة بالفطور بل هي أولها وآخرها فطور تكاد تكون فراغا كالذي بين السماء والأرض ومع ذلك ترى لافطور فيها ، إذن عالم المادة عجيب فطور ولا فطور كما أن أرضنا دائرة غير دائرة ، نحن نراها ساكنة ولكنها دائرة لاتهدأ وذلك لشدة الاحكام والاتقان ، وازدياد الأمان لمن عليها .

الفطور في الألوان

وكما قلنا في المادة نقول في ألوانها ، ألوانها سبعة : البنفسجية ، والبنية ، والزرقة ، والخضرة ، والصفرة والبرتقالية والحرة ، ولم نرى لون منها فطورا وشقوقا ، فهذا لون الزرقة الذي يراه الانسان في السماء فلننظره فهو أحد الألوان السبعة ، فاذا نظرناه ولم نجد في المادة التي قام بها شقوقا لأنها محكمة مع كونها ذات فروج عظيمة جدا وهوات واسعات كما تقدم ، فهكذا نفس الزرقة لانجد فيها لونا يداخلها ويقاطعها ، وهذا بحسب الظاهر وما نراه بالعين ، ولكن الحقيقة أن في كل لون من الألوان السابقة خطوطا سودا . مقاطعة كشفها وأبرزها في الرسم العلماء ، فكل معدن من المعادن له ضوء خاص ، وهذا الضوء تقاطعه خطوط سود ، وهذه الخطوط السوداء تختلف في ضوء كل معدن عن الخطوط السوداء في ضوء كل معدن سواء ، وبهذا الاختلاف في الخطوط السوداء : أي الفطور والشقوق اللونية قدر الناس أن يعرفوا ما في الكواكب والشموس من المعادن المختلفة بخطوطها السوداء في أضوائها ، وبهذه الطريقة عرفوا أن عناصر الأرض من عناصر الشمس ، فهاتان معجزتان قرآنيتان ظهرتا في الكشف الحديث ، وعسى أن يزيد المقام تبياننا في [سورة النبأ] عند آية : « وبينا فوقكم سباع شدادا » وإلى هنا تم الكلام على اللطيفة الأولى في قوله تعالى : « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور » كتب قبيل الفجر يوم الأربعاء ١٤ ديسمبر سنة ١٩٣٢ م — ١٦ شعبان سنة ١٣٥١ هجرية .

اللطيفة الثانية في قوله تعالى : ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح

مسامرة بيني وبين صديق العالم الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير

حضر اليوم ٣١ مايو سنة ١٩٣٢ م وأخذ يحادثني قائلا : لقد ذكرت في [سورة الذاريات] مجمل الكلام على ضوء الشمس ، وكيف عرف الناس منه عجائب وعجائب ، ووعدت أنك تشرح المقام كله في هذه السورة ، ووعدت أيضا بذلك في آخر [سورة الحشر] كما أنك وعدت أن تشرح عجائب النبات وبدائعه بأوضح مما تقدم في التفسير في [سورة النبأ] فأرجو أن تفي بما وعدت الآن . فقلت : حبا وكرامة : « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا » هاأنذا أحدثك حديثا جديلا ، انظر هداك الله إلى ضوء الشمس يأتي من نافذة في مصراع الباب ويدخل في حجرتك ، فأما الجاهل فإنه لا يرى في هذا النور سراً ولا علما وإنما هو أمر عادي ، ولكن أهل العلم يقولون :

[أولا] — ان هذا النور بدخوله في الحجرة المظلمة قد أعطانا علمين : العلم الأول أن النور يسير على خط مستقيم ، العلم الثاني أن هذا النور الذي يسير على خط مستقيم في الحجرة تصحبه حرارة ، فهذان علمان : علم أدركناه بحاسة البصر ، وعلم أدركناه بحاسة اللمس ، فالأول هو الخط المستقيم ، والثاني هي الحرارة [ثانيا] — ان هذا النور يدهشنا أمره ونعجب من سره ، ذلك أن النور الداخل في الحجرة المستقيم الخط الحار الملمس نراه يحمل صور الأبنية والأماكن والأشجار التي مر بها ولكنه يعكسها فيكون الأعلى أدنى وبالعكس ، وذلك بسبب سيره على الخطوط المستقيمة كما سنراه واضحا قريباً .

[ثالثا] — ان هذا النور السائر المستقيم الخط الملازم للحرارة الذي يقلب وضع الصور فيجعل عاليها سافلها سريع السير جدا ، فهو يسير في الثانية الواحدة ١٨٥٧١٨٥ ميلا في الثانية ، ويدور حول الأرض في سبع ثمانية واحدة .

[رابعا] — ان هذا النور اذا أخذنا امرأة صغيرة وتلقيناه بها فاننا نراه أخذ يعكس على الخائط في الحجرة ، وتكون هناك زاويتان : إحداهما زاوية السقوط ، والأخرى زاوية الانعكاس ، وهذا مشاهد في الأماكن التي فيها ماء وقد سقط ضوء عليه من الواصل فان الضوء ينعكس على الخائط الآخر المقابل لما سقط منه الضوء ، وكلما اضطرب الماء اضطربت صورة الضوء المنعكسة على ذلك الخائط هكذا هذه المرأة كلما حركناها تحركت الضوء المنعكس عنها تبعاً لها ، فهذا هو المسمى عند علماء الطبيعة انعكاس الضوء .

[خامسا] — وبما تقدم يفهم الناس أولا لماذا يرون صورهم في المرآة كأن المسافة التي بين صورهم وبين المرآة مماثلة للمسافة التي بينهم وبين تلك المرآة ، ثانيا : لماذا تكون أيمانهم في الصورة جهة الشمال ؟ ولماذا تكون شمالهم جهة اليمين في الصورة .

[سادسا] — يرون أن الماء كالمراة سواء بسواء ، فهو يعكس الضوء كما تعكسه المرآة كما قدمناه . [سابعا] — اذا وصلوا إلى هذه النقطة : أي مسألة الماء يرون أمرا عجبا ! يرون أن الصور في الماء يحصل لها انكسار ، إذ معلوم أن النور يمشي على خط مستقيم ولكنه في الماء ينكسر ولا يستقيم . فقال صاحبي : الانكسار ليس جالا . فقلت : ستعلم علم اليقين أن هذا الانكسار هو الجال كله ، فلو لا انكسار الضوء الآتي من الشمس السائر في الجو الملاقى للهواء الجوى وما فيه من الدرات والهباء ، تلك اللاقي تجعله يجري على غير استقامة ، فينتشر في الكرة الأرضية ، ويكون عند الناس شفق وغر وصبح .

أقول : لولا ذلك الانكسار لم يكن صبح ولا شفق ولا جال في المناطق الباردة ، فالانكسار هنا اعتدال ،

اقرأ هذا المقام في أول [سورة الزمر] فهناك ترى العجب العجيب ، وترى علم الطبيعة وعز الفلك متآخين ومتصاحين ومتعاقبين ، وذلك كله موضح بالصورة الشمسية هناك . فقال حسن . فقلت :

[ثامنا] — إن العقلاء متى وصلوا إلى هذا المقام أخذوا يبحثون في الزجاج كما بحثوا في الماء من حيث انكسار الضوء ، فهو ينكسر في الزجاج كما انكسر في الماء ، وهناك يستخرجون [قاعدتين : القاعدة الأولى] أن الماء ينكسر إلى جهة من الجهتين عند مروره من جسم لطيف إلى كثيف وينكسر إلى الجهة الأخرى إذا مر من كثيف إلى لطيف .

[تاسعا] — وهناك يدخلون في علم العدسات ، وكل ما تقدم مقدمة له ، وذلك بأن يظفروا أولا في أنواع الزجاج المذكور ، ذاك أن الزجاج طوع أيدي الناس وليس كائنا ، فهم يقدرون أن يجعلوا الزجاج محدبة الوجهين فتكون منتفخة من الناحيتين ، ويقدر أن يجعلوها مقعرة الوجهين ، فتكون من وسطها كالخصر النحيل ، وقد وجدوا لها في الحال الأولى خاصة تخالف الحال الثانية ، ولكن الماء ليس كذلك ، بل هو جسم لا يقدر الإنسان أن يحكمه كما قدمناه ، فالعدسات المحدبة الوجهين تكبر الأجسام وقد تقرأ بها ، والمقعرة الوجهين تصغر الأجسام وتبعدها ، وهناك يدخل الناس في باب العمل بهذا العلم والانتفاع به فيجعلون هذه الزجاجات مقويات لأبصارهم ، مقويات للصورتارة مبعديات لها أخرى على حسب الأبصار طولاً وقصرًا [عاشرا] — وهناك يركبون الزجاجات المكبرة بعضها مع بعض بهيئة مخصوصة فيكون المظهر العظيم والآلة المكبرة التي قد تكبر الجسم عشرين ألف مرة في زمانها هذا .



فقال صاحبي : حسن والله ما نقول ، إذن الناس انتقلوا من ضوء داخل من نافذة في حجرة مظلمة إلى انعكاسه على الخائط وانقلاب صورته ، وهكذا تدرجوا في العلم من انعكاس الضوء إلى انكساره وإلى تكبيره للصورة وتصغيره وقرنها وبعدها ، إلى مساعدة العلماء في الأرض بتقوية أبصارهم بالزجاجات البصرية ، إلى تكبير الجسم ٢٠ ألف مرة لازدياد العلم واليقين .

الله أكبر : هذا أحسن جدا ، ولكن هذه الهدايا والمطاف اللذان تضمنتهما أسماء الله الحسنى كاسمه اللطيف ، واسمه النور ، واسمه الهادي التي كلانا فيها لا يتم ذلك فيها إلا بالمشاهدة التي عليها بنيت سؤالي فأريد أن أشاهد ذلك عيانا وإن كنت تصوريته بذهن كما تصورت كلام الامام الغزالي رحمه الله تعالى بعقلي فقلت : هذا المقام لحصه الأستاذ [بول برت] الأستاذ بالسربون بفرنسا ، وزير وزارة المعارف الفرنسية الذي ترجمته من الفرنسية إلى الإنجليزية زوجته [جوسيفيا كايون] الإنجليزية الاسكتلندية ، وهالك ترجمته من صفحة ١٦٤ من ذلك الكتاب المسمى « العلوم الطبيعية » إلى صفحة ١٧٦ فقد جاء فيه تحت العنوان التالي مانعه :

أشعة الضوء

أخذ الأستاذ [بول برت] يخاطب تلميذه في الفصل قائلا :

(س) جورج : من أين جاءت الحرارة ؟

(ج) من النار يا سيدي .

(س) نعم ولعل هذه النار خارج حجرة الفصل الذي ندرس فيه .

(ج) آه : أمن خارج الحجرة . كلا . بل هي من الشمس .

(س) حسن جدًا ، ولكن أترى النار والشمس ليس لهما إلا الحرارة وحدها ؟

(ج) كلا . انهما يعطيان أيضا نورا .

(س) حقا هذا ، وإذا كانت الحرارة مصاحبة للنور فإنا إذا نظرنا إلى النور نعرف بواسطة رؤيته أن

هناك حرارة ، وهذا أسهل من معرفة الحرارة بواسطة الترمومتر [مقياس الحرارة] .



(شكل ٢٩)

وهنا أخذ المؤلف يثبت أن الضوء يجرى على خط مستقيم ، وأن الحرارة تصاحبه ، فقال : اننا أولا نرى النور يتحرك على خط مستقيم ، انظر في هذه الحجرة من حجرات المدرسة ، فانك ترى ضوء الشمس يسقط على مصراعي بابها من الخارج وهما مقلان (انظر شكل ٢٩)

ولكن لما كان في هذين المصراعين ثقب رأينا الأشعة دخلت منها على استقامة في الحجرة مختربة مالا حصر له من الثرات الصغيرة الثرية الرائعة في جو الحجرة .

ثم قل للتلميذ : ضع يدك في خط من هذه الخطوط الضوئية ، انك ستحس بحاسة اللمس بالحرارة .

ثم قال : لاجرم أن هذا برهان آخر على أن الحرارة مصاحبة للنور .

الحجرة المظلمة

ثم قال الأستاذ : إن هذه المسألة تدعوني أن أريك أمرا غريبا يابول اذهب إلى الحجرة المظلمة

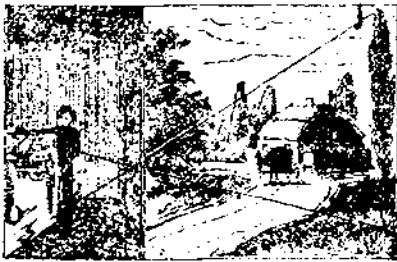
وضع قطعة ورق مقوى أبيض حرف [س] (انظر شكل ٣٠) تحت خطوط الشعاع الشمسية [ا د]

و [ب ج] وهكذا تلك الخطوط اللامعات من خلال مصراعي الباب .

الآن يجب ممي من ذلك : فهذه المناظر وان كانت واضحة متميزة مفصلة على اللوحة (فدونك هذه البركة

التي بجانب منزل [جيمس] وهذه الطرقي المرتفعة وفيها العربة) تراها منقبة ، وهذا عجب عجب ! قد

جعلت أعاليها أسافلها وأسافلها أعاليها ، ولكن لتعليل ذلك أمر سهل ، فانك ترى أطراف شجرة الخور عند



(شكل ٣٠)

الصور الخارجة ظهرت واضحة . فصلة على لوحة الورق

المقوى حرف (س) ولكن جعل عاليها سافلها

حرف [ا] مثلا قد جرت الأشعة الشمسية منها على خط

مستقيم كما تقدم ، ولكن بعض تلك الأشعة فقط أمكنها

أن تدخل من ذلك الثقب حتى وصلت إلى لوحة الورق

المقوى عند حرف [د]

ثم ان بعض أشعة أخرى من تلك الأشعة اللامعة

الحاملة لصورة جذع [شجرة الخور] المذكورة أمكنها

أيضا أن تخترق الثقب وتدخل الحجرة ، وهي جارية على

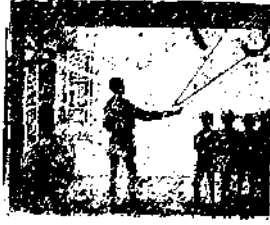
خط مستقيم فتصل إلى [ج] انظر شكل ٣٠

وكما أمكن ذلك عند الحرفين [د] و [ج] يمكن أيضا فيما بينهما ، وبسبب ذلك ترى أن شجرة الخور

عاليها سافلها ، ومثل ما قلناه في ذلك نقول بكل وضوح في جميع مناظر النقط الأرضية ، فتكون الأعلى أسافل

وبالعكس يجرى النور على خطوط مستقيمة متقاطعة فتكون صور مقلوبة . ثم شرع المؤلف يذكر سرعة

ضوء الشمس ، وهذا تقدم ، وأخذ يشرح بعد ذلك انعكاس الضوء فرسم هذين الشكلين :



(شكل ٣٢)

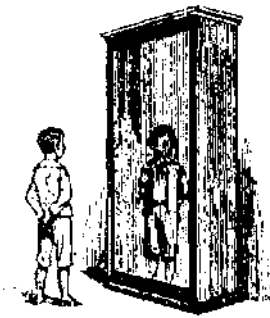
هناك علاقة بين اتجاه الشعاع
الضوئي الواصل للزجاجة والشعاع
الضوئي المنعكس عن الواصل تارة
الى حرف (أ) وتارة الى حرف
(ب) بحسب اتجاه الشعاع الواصل
الى الزجاجة أولا .



(شكل ٣٣)

شعاع الشمس يرى منكبا
على الحائط عند حرف (أ)
بواسطة الزجاجة العاكسة
المنعكسة .

وهنا نأخذ يوضح ذلك ، فقال : فهأنت ذاترى على حائط حجرة المدرسة جزءا من الشعاع الشمسى قد ظهر عند نقطة (أ) فنى حركنا المرآة تحرك ذلك الشعاع مثل حركتها فى اتجاهها : إن هذه النقطة الشعاعية صورها ضوء الشمس ثم سقطت على المرآة ، ومن المرآة أخذت تظهر ثانيا ، وهذا يسمى انعكاس الضوء ، ثم أخذ المؤلف يشرح هذا الموضوع فقال : لندخل الحجرة المظلمة (شكل ٣٣ المتقدم) ثم لنضع المرآة فى وسط ضوء الشمس الذى يخترق النافذة (ر) التى فى مصراع الباب مخترقا ظلام الحجرة ، ومتى وصل إلى المرآة أخذ ينعكس عنها مرتدا إلى الحائط الآخر جاريا فى الهواء المفعم بالذرات الهوائية القارية واصلا إلى نقطة (أ) اذا أنا أمسكت بالمرآة على هيئة استقامة ، فاذا أنا أملت المرآة فإن نقطة الشعاع تصل إلى حرف (ب) فى الشكل المذكور ، وعلى هذا نكون هناك علاقة تامة بين اتجاه الشعاع الساقط على المرآة واتجاه الشعاع المنعكس عنها .



(شكل ٣٤)

المرآة التى انطبعت فيها الصورة

وهانحن أولاء الآن شارعون فى معرفة قيمة هذه العلاقة شيئا فشيئا فنقول : فهذه توضح لنا كيف كانت المرآة مظهرة لنا صورنا اذا نحن وقفنا أمامها ، وكيف ترى تلك المرآة أن صورنا تبعد عن المرآة خلفها بمقدار البعد الذى بين أجسامنا وبين تلك المرآة ، ولذلك نرى المتوحشين اذا نظروا وجوههم فى المرآة لا يزالون يبعثون وراءها عن ذلك الذى يرونه مائلا أمامهم من خلفها ، وكيف نرى الصورة فى الناحية الخالفة لناحية أجسامنا ، وأيضا نرى الناحية اليمنى من أجسامنا مصورة فى الناحية اليسرى والعكس بالعكس .

قال : ولما كان هذا البحث يعوزه بعض المذكرات الهندسية ليتجلى واضحا وجب تأجيله حتى نعرف تلك المذكرات ، ثم نشرع بعد ذلك فى هذا البحث ، وهنا أخذ يشرح المرآة فقال : هذه المرآة التى استعملتها منذ دقائق لم تكن إلا من زجاج مغطى بالقصدير ، وبعض المرايات تصنع من المعادن بعد أن تصقل صقلا جيدا ، وهكذا كل سطح مصقول لامع يمكننا استعماله مرآة .
فهناك شكل ٣٥ وهو الآتى فى الصفحة التالية :



(شكل ٣٤)

سطح الماء قد انعكست
فيه الصور وظهرت كما
ظهرت في وجه المرآة
سواء بسواء .

فهاهي ذه الزجاجاة المملوءة ماء (شكل ٣٤) ، انظر فهاأناذا أرفعها قليلا إلى مسافة أرفع من عيني حتى يمكنها أن تنظر سطح الماء من أسفل الزجاجاة ، إن هذا السطح قد ظهر لي كأنه فضة مصقولة صقلا جيدا ، انظر إليها أنت نفسك ، فهاأنت ذا ترى جميع الصور التي حولها قد انعكست عليها واضحة ظاهرة كما تنضح وتظهر على وجه المرآة الحقيقية سواء بسواء . هذا تمام المقال في هذا الموضوع ، والحمد لله رب العالمين .

ثم أخذ بشرح انكسار الضوء فقال : فلنذكر الكلام في موضوع انعكاس الضوء ، ولنبتدى المقال في انكساره فنقول :

انكسار الضوء



(شكل ٣٦)

الصفاة من التبن ظهرت
كأنها مكسورة في الماء ،
وهذا هو الانكسار



(شكل ٣٧)

ان الشعاع اللامع هاهوذا
أخذ ينكسر حينما دخل الماء
وهو الذي أظهر أن قطعة النقد
(بني) قد ظهرت عند حرف
(أ) في الماء . وهذا
المنكسر جاء ببل النقطة
الحقيقية التي كان عنها هذا
الانكسار .

إن لفظ انكسار الضوء قد وضع للحقيقة التي تراه منطبقا عليها ، فانظر رعاك الله هذه الزجاجاة المملوءة ماء (شكل ٣٦) هاأناذا وضعت فيها عصافاة من التبن ، والعصافاة قد ظهرت لأعيننا وهي مكسورة في الماء ، وهكذا تراها تزداد اقترابا من الوضع الأفقي كلما أوغلت في دخولها في الماء ، هاأنت ذا تعلم علم اليقين أن العصافاة ليس بها انكسار ، هذا لا تشك فيه ، ولكنك لن تقدر أن تمنع مخيلتك من تصوورها مكسورة . وهناك تجربة أخرى تثبت نفس النتيجة التي قدمناها ، وهو ما تراه في (شكل ٣٥) هنا .

ثم أخذ يصف الصندوق في هذا الشكل ، فقال : هذا صندوق من القصدير ، وقد وضعت فيه قطعة [بني] من النقود في قاعه ، وهاأناذا أضعت الماء في قاع الصندوق ، تعال هنا يا جيمس وقف بحيث تقدر أن تنظر الحافة البعيدة من البني ، هاأناذا أصب الماء في الصندوق قليلا قليلا مع الاحتراس حتى أتجنب أن يتحرك البني من مكانه ، فقل لي يا جيمس ما الذي تراه ؟ فأجاب : هاأناذا أرى قطعة النقد ترتفع وتتحرك رويدا رويدا نحو نقطة (أ) . فقال الأستاذ : نعم ذلك حاصل بسبب أن الشعاع الضوئي اللامع من قطعة



(شكل ٣٨)

ان شعاع الكتاب في سروره
من الزجاجاة الى الهواء يميل
وهذا انكسار بسيط .

النقد أخذ ينكسر كما انكسر من العصافاة المتقدمة قريبا ، هذا هو المسمى « انكسار الضوء » . وههنا قاعدة مطردة ، وهي ان الشعاع متى مر من وسط لطيف إلى وسط كثيف فإنه يميل إلى جهة من جهتيه كما رأيت فيما تقدم وإذا مر من وسط كثيف إلى وسط لطيف مال إلى الجهة الأخرى .

واعلم أن الزجاج المسطح يفعل في الضوء ما يفعله الماء من حيث الانكسار . هاأناذا أضعت قطعة من الزجاج سميكة مسطحة (انظر شكل ٣٧) . ويمكنك أن ترى الشعاع الضوئي يميل كما مالت العصافاة فيما تقدم ، فإذا



(شكل ٣٨)

الشعاع حينما فارق
الكتاب مال في سروره
أولا من الهواء إلى
الزجاجية ، ثانيا من
الزجاجية إلى الهواء فهذا
العكس مرتين



(شكل ٣٩)

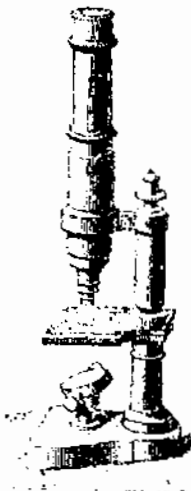
عدسات محدبة الوجهين
مدورة التاجيتين

خذ هذه في يدك وانظر الى حروف المطبعة الدقيقة في هذا الكتاب (شكل ٤٠) . ثم قال له : حسن ما الذي جعلك متعبا في دهنس ؟ فأجابته التلميذ قائلا : ولم لا أعجب ياسيدي ، انني لم أرى شيئا ألبته ، فقال



(شكل ٤٠)

زجاجتان محدبتان
الوجهين مكبرتان



(شكل ٤١)

المكروسكوب يعظم الصور أكثر

أنارضعت تلك القطعة من الزجاج على بعد مسافة كبعدهما من الكتاب (انظر شكل ٣٨) فان ميل الشعاع في هذه الحال ينكسر انكسارين : الانكسار الأول يكون حينما يسير الشعاع من الكتاب في الهواء إلى القطعة الزجاجية ، ويتخللها . الثاني حينما يخرج الشعاع من قطعة الزجاج إلى الهواء ثانيا .

العدسات : (البلوريات)

وهنا أخذ يشرح أحوال الزجاج الذي ليس مسطحا ، بل هو إما محدب وأما مقعر ، والمحدب والمقعر أمرهما عجب ، فكل منهما عمل خاص في الصور الواردة عليه ، فهذا مكبر وهذا مصغر ، ويانه أننا إذا وضعنا قطعة من الزجاج غير مسطحة بل هي محدبة الوجهين فان ميل الضوء عنها يكون آتم وأكمل .

(س) — يا بول بماذا تسمى هذه القطعة الزجاجية التي في شكل ٣٩ المعنونة بحرف (ا) التي هي محدبة الوجهين ؟

(ج) فأجاب قائلا : أسميها زجاجة معظمة للصورة .

(س) نعم هو كذلك ، ولكن علماء الطبيعة يسمونها [عدسة] أو [بلورية]

ان اسمها العادي [الزجاجة المكبرة] يدل على حقيقةها ، لأنها تكبر الأشياء الصغيرة

خذ هذه في يدك وانظر الى حروف المطبعة الدقيقة في هذا الكتاب (شكل ٤٠) . ثم قال له : حسن ما الذي جعلك متعبا في دهنس ؟ فأجابته التلميذ قائلا : ولم لا أعجب ياسيدي ، انني لم أرى شيئا ألبته ، فقال

الأستاذ : انتظر رويدا ، لاتضع العدسة على عينك ، ولا تجعل أنفك على

الكتاب ، بل انظر كما جرت به عادتك ، ولكن بواسطة الزجاجة المكبرة ،

فاجعلها أولا قريبة من الكتاب (انظر شكل ٤٠) ارفعها قليلا قليلا إلى

أعلى وأنت لاتزال تنظر بها ، فهأنت ذا ترى الحروف أكبر شيئا فشيئا ، فاستمر

في الرفع حتى تراها مفصلة ، ولكن اذا داومت على ذلك واستمرت في رفع

الزجاجة المكبرة فانك ترى الحروف تصغر شيئا فشيئا حتى لاتعود ترى ألبته ،

إذن البعد المناسب يجب أن يعرف ، وكل ما كان أطول منه أو أقصر يجب أن

توضع له عدسة ، وهذه العدسة التي معك الآن تكبر الأشياء بالضعف ،

ويجب أن تجعل العدسة قريبة من الجسم المنظور بمقدار بوصة .

الزجاجة المركبة المعظمة : (المكروسكوب)

أولا : اذا وضعنا عدة عدسات معا بهيئة خاصة فانها ترينا الشيء أكبر

عما هو عليه من حيث حجمه ١٠ مرات أو ١٢ مرة مثل حجمه الحقيقي

وهذه تسمى [الزجاجة المركبة المعظمة]

ثانيا : [المكروسكوب] يصنع من عدسات أكثر نظاما في ترتيبها

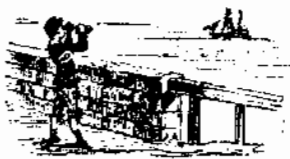
وأبعد إحكاما في تركيبها (انظر شكل ٤١) .

إن [المكروسكوب] ^(١) فيه قوة عظيمة جدًا على تكبير الصور ، فقد يعظم الحجم ١٠٠ مرة ، و ٢٠٠ مرة ، بل ألف مرة أكبر من الحجم الحقيقي .

ثم قال : إن ما أقوله في أمر [المكروسكوب] ربما لا يدهشك ، ولا يحدث عندك غرابة ، لأنك تقول في نفسك : وما قيمة تكبير الشيء عشرة أو مائة أو ألف ؟ إن الرجل المخترع الدجال ربما يقول لنا : أنا أكبر الشيء ألف ألف مرة ، فإذا كبرت بالمكروسكوب الجسم عشرات أو مئات فذلك ليس بدهش ، لأننا سمعناه والجواب على ذلك أن أقول لك : أن طريقة البعد عند الدجال غير طريقة هنا في المكروسكوب ، لأن طريقة هنا أننا إذا قلنا أن المكروسكوب يكبر الشيء عشر مرات فعناه أنه إذا كان طوله عشر البوصة يصبح ذلك الطول بواسطة المكروسكوب طول البوصة بتمامها ، وهذا ليس معناه أنه كبر عشر مرات حسب كلال . بل أننا إذا قلنا أن هذا الجسم كبر طوله عشر مرات فعناه أنه كما كبر في طوله كبر في عرضه كبر في عمقه ، وبضرب ١٠ في ١٠ في ١٠ يصير ألف ، فقول الدجال : اني أكبره مليون مرة ليس أمرا أكثر من أنه زاد طوله فجعله ١٠٠ ومتى زاد طوله مائة كان عرضه كذلك وعمقه ، فهذا هو المليون بعينه ، إذن تعبيرنا نحن أقرب إلى عدم ضجيج الجهلاء ودهشتهم وتعبيره أدنى إلى ضجيجهم ودهشتهم .

لا أمر أعجب ، ولا منظر أدهش وأدعى إلى سرور نفسك وبهجتها من أن تشهد بنفسك أيها القارئ الكريم بالزجاجة المكبرة عجائب المخلوقات أمامك ، أنا لا أقدر أن أعبر لك عما يحتاج نفسك من الدهشة والغرابة والبهجة والاستحسان والروعة عند امتحانك حشرة ، أو زهرة ، أو أي شيء حولك ، أو نفس جلدك وثوبك وغيرها ، بماذا تدرس هذه العجائب كلها ؟ بزجاجة مكبرة تمنها شلنان اثنان لا غير . هل في الوقت سعة لتفصيل ما تظهره هذه الآلة البديعة من العجائب التي تدهش اللب وتحير العقل وتبعث على الحيرة والعجب : آلاف من الأحياء الصغيرة السابحات في قطرة ماء في ستنقع ، وملايين كثيرة من الأجسام الصغيرة الجراء في قطرة من الدم ؟ أنا لا أجد وقتا للتوسع والتفصيل ، فذلك ليس في الامكان .

التلسكوب ، أو (سيكلاس) : الآلة القرية



(شكل ٤٢)

تلسكوب يكبر الجسم من حيث المسافة ، وينتج ذلك أن الجسم يصير قريبا

وهناك نوع من [المكروسكوب] يكبر الأحجام باعتبار قربها (وهي هذا أن الأحجام البعيدة صغرها البعد ، فهذا التلسكوب متى كبرها ظهرت قريبة ، فهذا تكبير للبعيد فيصير في النظر قريبا) فهذه مكبرة تكبيرا يظهر أثره في اقتراب الأجسام (انظر شكل ٤٢)

وهذا التلسكوب بواسطة وضع عدسات مختلفات بهيئة أخرى ونظام خاص ، فهذه كما تسمى سيكلاس تسمى تلسكوب (شكل ٤٢) ، بمساعدة هذه الآلة نقدر أن ندرس النجوم وننظر فيها عجائب مفصلة تفصيلا بدعيها لا ترى بالعين المجردة .

(١) كلمة مكروسكوب كلمة مركبة من كلمتين يونانيتين : ميكروس صغير ، وسكوبو : تنظر إلى : اه

زجاجة العين ، أو المنظار

وهناك نوع آخر من الزجاجات المكبرات للأحجام معلوم للعموم ، وهو المنظار المعتاد ، وهو عبارة عن قطعة من الزجاج صغيرة يضاوية الشكل يضعها أمام عينه من اعترى نظره ضعف .

قال المؤلف للتلاميذ : وهأنذا ملزم أن أضع هذا المنظار على عيني لأنني كبير السن ، فها أنت ذا ترى أن هاتين عدستان بسيطتان مكبرتان ولكن قليلا ، فخذها



شكل ٤٣

عدستان مقعرتان من الجانبين معا ، فهذه بدل أن تجعل الحجم كبيرا ترى للاعين صغيرا ، وبدل أن تجعله قريبا تجعله بعيدا .

فقال الأستاذ : أنا أشرح الموضوع لكم تمام النرح : يجب أن تعلموا أن هناك عدسات أخرى غير المحدبة وهي المقعرة (انظر شكل ٤٣) .

فقال هنا يا جيمس بجانبى ، وأحضرمعك منظاريك ولكن لاتضعهما على عينيك وأنا كذلك لا ألبسهما ، ثم قال هنا يا هنرى ، يامن عيناه قويتان سليمتان ، لا قصر فيهما ولا طول ، فقال معنا أيضا ، فلنقرأ نحن الثلاثة فى كتبنا ذات الحروف المتحدة من حيث مطبعتهما ، أما أنا فأتى ملزم أن أجعل الكتاب بعيدا عن عيني جدا على طول ذراعى حتى أقدر أن أتبين حروف الكتاب ، لأن نظرى طويل ، فأما جيمس فإنه على العكس منى ملزم أن يجعل الحروف بجانب عينيه ، لأن نظره قصير ، وأما أنت يا هنرى فان نظرك معتدل ، لذلك نضع الكتاب فى المسافة المعتدلة التى تبعد نحو ثمان بوصات عن عينك (انظر شكل ٤٤) فلنضع مناظرنا على أعيننا أنا وجيمس ، الآن صار المنظران ، نحن الثلاثة قد وضعنا كتبنا فى مسافة واحدة (انظر شكل ٤٥) .



(شكل ٤٥)

نحن لبنا مناظرنا أنا وجيمس ، ونظرنا المنحرف قد اعتدل الآن كنظر جيمس



(شكل ٤٤)

هنرى سليم النظر ، وأنا طويل النظر ، وجيمس قصير النظر .



(شكل ٤٦)

إن جميع الأشعة الضوئية قد اجتمعت عند نقطة (١) المسماة بؤرة .

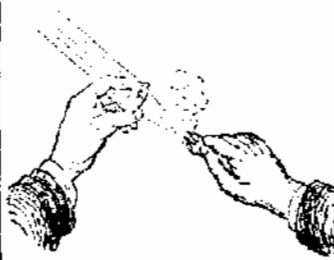
ثم قال الأستاذ : إن سبب هذه العجائب سأوضحه عند قراءة علم التشريح ، والآن نريد أن ندع الكلام على العدسات المصغرة ، ولنجعل كلامنا خاصا بالعدسات المكبرة ، إنا إلى الآن لم نستعملها إلا فى أمر واحد ، وهواننا نضعها بين أعيننا وبين الأشياء التى نريد أن نبصرها ، ولكننا الآن نريد أن نستعملها استعمالا آخر ، وهو [بؤرة العدسة] ، انظر الآن هذه العدسة قد وضعناها فى ضوء الشمس (انظر شكل ٤٦) .

ثم قال : انظر هذه المرة ما يأتي : هاأنذا وضعت العدسة في ضوء الشمس (شكل ٤٦) وقد وضعت وراء قطعة من الورق ، وهذه الورقة أخذت أوجه نحوها بالتدريج العدسة ، فما أنت ذا [أولا] ترى أن بقعة بيضاء حرف (ا) حاصلة في الورقة في بعد خاص ، ظاهرة على الورقة أمامك ، وهذه البقعة يأخذ شكلها في الصغر شيئا فشيئا كلما اقتربت منها العدسة شيئا فشيئا أيضا ، ولا تزال تصغر حتى تصبح نقطة صغيرة في مقدارها ، ولكنها في أثناء تدرجها في الصغر تدرج أيضا في ازدياد لمعانها وضياؤها ، ولا عجب في ذلك ، لأن ألوان ضوء الشمس كلها التي سقطت على العدسة قد اجتمعت معا في هذه النقطة [ثانيا] هذه النقطة نسميها [بؤرة العدسة] في الاصطلاح ، ومعناها في اللغة العربية حفرة النار [ثالثا] إذا أردنا أن نستعمل هذه العدسة زجاجة مكبرة وجب علينا إذ ذاك أن نضع الجسم المراد تكبيره بين العدسة وبين بؤرتها ، إياك أن تنسى ذلك .



(شكل ٤٧)
عند البؤرة (ا)
فوق يدك كل الأشعة
قد اجتمعت معا

ثم قال الأستاذ : تعال هنا يا جيمس وضع يدك فوق قطعة الورق (شكل ٤٧) انظر تجد أن بؤرة العدسة تضيء على يدك ، ولكن لماذا أراك تسحب يدك فترجعها إلى الوراء ؟ فأجاب : ذلك لأنني أحس بأن النقطة شديدة الحرارة .
[رابعا] فأجاب الأستاذ : حسن جدا ، إن هذا يدل على أن الحرارة دائما تصاحب النور ، وأن البؤرة الجامعة للألوان هي عينها أيضا بؤرة جامعة للإشراق والاضاءة فهي تجمع الألوان والإشراق ، كلما كانت العدسة أوسع وأكبر كانت كميات النور التي تجمعها من الشمس في مركز النور وهي البؤرة أعظم ، وكانت تلك البؤرة أكثر إشراقا وأشد حرارة على مقدار ما جمعت من الأنوار .



(شكل ٤٨)
عند بؤرة عدسك الصغيرة (ا)
كل أشعة الحرارة اجتمعت معا
فأوقدت قطعة الصوفان

[خامسا] اتنا هذه العدسة الصغيرة نقدر على إيقاد النار في الصوفان (شكل ٤٨) ، ولكن ليس من الواجب الختم علينا للوصول إلى هذه النتيجة الجيدة ، وهي إيقاد النار بسبب هذه البؤرة أن تكون العدسة من زجاج . كلا . بل تكون هذه النتيجة ، ولو كانت العدسة من أي جسم شفاف ، مثلا الثلج جسم شفاف ، ولقد نعلم أن قائد السفينة في الأقطار الشمالية القطبية يوقد النور بالأشعة الشمسية الضعيفة في الأقطار القطبية الشمالية المجتمعة في بؤرة عدسة كبيرة جدا متخذة من الكتل الثلجية الكبيرة .

الله أكبر : فكيف يتعجب سكان تلك الأقطار ، وهم الأكسيمو من ذلك المنظر البديع ، وكيف يدهش البحارة التابعون لقائد السفينة من ذلك المنظر البديع الذي أبرزه العلم فأخرج الحرارة من البرودة وكأن الضد نشأ من ضده ، ذلك أمر عجيب .



(شكل ٤٩)

القطعة الزجاجية حلت النور الشمسي إلى سبعة ألوان : البنفسجي والنيلي ، والأزرق . والأخضر والأصفر ، والبرتقالي ، والأحمر ، واجتماع هذه السبعة يسمى : سبكتروم .

الألوان

ها نحن الآن نريد أن نبحث في تجارب خاصة بأمر أكثر عجبا ، وأجل منظرا ، وأشد بهجة في القلوب ، مظهر تحليل النور وتفرق أشعته والكلام على ألوان الشمس السبعة ، ها هي هذه قطعة بلور ذات ستة وجوه (انظر شكل ٤٩) .

فهاهي ذه أنا أدبرها في ضوء الشمس فوق هذه الورقة ، فهاتحين أولاء نرى أنها في وضع خاص تحدث فوق الورقة نقطة ذات ألوان كثيرة ، فإذا نظرنا بعناية إلى هذه النقطة وتأملناها نجد أن مركزها يشتمل على لوزين ، وهما أصفر وأخضر ، وعلى أحد الناحيتين الزرقاء ، وعلى الناحية الأخرى الزرقاء والبنفسجية ، ولا جرم أنكم قد لاحظتم [قوس قزح] ، ومعلوم أن الألوان المجتمعة فيه سبع ، فإذا ابتدأنا بالبنفسجي الذي هو أسفل الألوان التي في [قوس قزح] قدام هكذا : البنفسجي ، النيلي ، الأزرق ، الأخضر ، الأصفر ، البرتقالي ، الأحمر .

هذا بحسب الظاهر ، ولكن في الحقيقة أن هناك أنواعا من الطيف كثيرة يختلط بعضها ببعض منتزعات متجدات من الأحمر إلى البنفسجي بحيث لا يقدر الانسان أن يميز أولها من آخرها ، ولا مبدأها من منتهاها .



وعلى ذلك تكون دراسة ألوان ضوء الشمس تختص بهذه الألوان السبع المجتمعة في صورة [قوس قزح] المعروف ، وهي التي أظهرتها لنا الزجاجة البلورية المستدسة الأوجه التي بها عرفنا كيف يتفرق النور وينتشر فيصير ألوانا مختلفة .

إن ما تقدم به نعلم أن الألوان كلها مجتمع في ضوء الشمس وإن كانت بحسب الظاهر بيضاء لا لون لها .

(شكل ٥٠)
الضوء الأبيض حاصل
بسبب اتحاد الألوان
السبع (ألوان ضوء
الشمس)

تركيب ضوء الشمس الأبيض

لنبرهن الآن بتجربة بسيطة على ما تقدم فنقول : ها هي ذه قطعة من الورق المقوى مدورة ، إلى لونها سبعة الألوان الظاهرة في [قوس قزح] (شكل ٥٠) .

إن الورق المقوى المتقدم في مركزه فتحة صغيرة ، وفيها قد أقت عودا ، وعلى ذلك ها أنا ذا أدبرها بسرعة على هذا العود كأنها تدور حول محور ، ها أتم أولاء ترون الألوان قد اختفت اختفاء تاما بعد الدوران وكانت ظاهرة قبله ، وأصبحت هذه الورقة المقواة بيضاء تسر الناظرين .

على أنه ليس من الضروري أن أرسم الورقة بسبعة الألوان حتى تظهر بيضاء عند دورانها السريع ، انه ليجزئي في ذلك أن أرسم الثلاثة الألوان الرئيسية ، وهي : الأحمر والأصفر والأزرق ، وسبب ذلك أن بقية الألوان مشتقات من هذه الثلاث ، وهي : البرتقالي ، والأخضر ، والبنفسجي (المؤلف : لم يذكر السابعة ، وهو النيلي) .

ثم شرع يبين ذلك فقال : إن هذه الثلاثة تحصل بإعداد اثنين اثنين من هذه الثلاث ، وبيانه أننا ننظر في قطعة أخرى من الورق المقوى ونلون نصفها بالحمرة والنصف الآخر بالزرقاء ونفعل فيها ما فعلناه بسابقتها ، فلما فعل ذلك ظهر اللون البنفسجي ، ثم انه لَوْن قطعة أخرى نصفها بالحمرة ونصفها الآخر بالصفرة ، فأدارها بسرعة فظهر اللون البرتقالي ، ثم ان لَوْن الصفرة والزرقاء انتجا الخضرة .

ما معنى ألوان المادة المشاهدة ؟

ما الذي نعني بقولنا هذا : الورق المقوى أو غيره أبيض أو ذاك أخضر أو أحمر أو أسود ؟ [الجواب] : إن معنى ان الورق المقوى أبيض ، أو أي شيء آخر أبيض انه قد نشر وأذاع كل ما وصل إليه من الألوان السبعة ولم يمتص منها شيئا ، والأزرق والأحمر قد امتص كل منهما ما وصل إليه من الأشعة ، ولم يمتص الأول الزرقاء ، ولا الثاني الحمرة ، أما الأسود فإنه قد امتص جميع الأشعة فلم يبق منها شيئا ينكسر عنه وينتشرناشرا فسال أحد التلاميذ المؤلف قائلا : ما سبب هذا ؟ فأجاب : أنا الساعة لست على استعداد للإجابة ، فلتتبعوا

مؤقتا بهذه المعرفة .

وعلى هذه الطريقة يكون قولنا : إن الماء أبيض ، وإن الخمرة حمراء ، وإن الخبز أسود معناه أن الماء أجاز لجميع الألوان السبعة أن تقاطعه وتغمر في طريقها به ، ولم يحبس لونا منها ، ولم يمر لون من الألوان السبعة في الخمر إلا لون الخمرة ، والبقية قد امتصها ذلك السائل ، أما الخبز فقد امتص جميع الألوان ولم يسمح بمرور واحد منها به ، ذلك هو المعنى الذى يفهم من هذه الصفات اللونية ، إن التلون يحصل باحدى حالتين : إما بانتشار الضوء ، وأما بمروره من جسم شفاف ، فقال الأول ما تقدم من انتشار الضوء بواسطة الورق المرقى الملون ، ومثال الثانى أن نضع بين أعيننا وبين الضوء أجساما غازية ، أو أجساما سائلة ، أو أجساما صلبة شفافا كالزجاج .

ومن أندر ما عرف من صفات الأجسام ومجائنها أن الجسم الواحد يكون لها لوانان باعتبارين مختلفين : أى بانتشار الضوء عنه ، أو بمروره منه بهيئة جسم شفاف ، ثم أتى بورقة شفافة رقيقة جدا من الذهب وقال : انظروا هذه ، فهى صفراء متى انتشر الضوء عنها : أى أن لونها نفس لون الذهب المعروف ، ولكن إذا نظرناها فى حال وضعها بين أعيننا وبين ضوء الشمس فانها تظهر لنا خضراء ، ومثل هذه الحال فى المواد قليل جدا اه .

ملخص ما تقدم

فقال صاحبي : ما ملخص هذا ؟ فقلت : ملخصه أن هذا العقل الانسانى يستنتج أعظم الأشياء من أصاغرها ، فانه لما رأى الضوء دخل حجرتة على خط مستقيم ومعه الحرارة استخرج منه أمرين : ملازمة الحرارة للضوء ، وذلك بحاسة المس ، وكون جريه على خط مستقيم بحاسة البصر ، ثم أخذ يستنتج ما فوق ذلك مثل ان الأجسام ترسم على الأجسام القابلات للضوء على هيئة مقلوبة ، وأن الضوء اذا وقع على جسم شفاف كالماء فانه ينعكس عنه وتكون هناك زاويتان : زاوية للسقوط ، وزاوية للانعكاس ، ومن وضع فى يده مرآة وانعكس عنها النور كان ذلك المنعكس تابعا لحركة المرآة ، ثم انتقل العقل الانسانى من هذه المبادئ إلى ما هو أشرف منها ، فنظر فى أمر الصور المرسومة فى المرآة ، فوجد أن المسافة التى بين الانسان وبين المرآة مساوية للمسافة المقطرة بين نفس المرآة وبين الصورة التى يخيّل له أنها وراء المرآة ، وهذه راجعة إلى المسئلة المشابهة لها هنا ، ثم رأى أن يمينه أصبح فى الصورة يسارا وبالعكس ، فوجد هذه المسئلة راجعة إلى أن الصور ترسم مقلوبة كما تقدم قبل ذلك .

هناك أخذ يوازن ما بين الماء والزجاج ، فوجدهما يقبلان الصور لأنهما شفافان ، ثم أخذ الانسان يبحث فى انكسار الضوء كما عرف انعكاسه ، وهو فى حال الانكسار تغتر به أحوال : مثل ان الجسم فى بعض أحواله يكون حجمه أكبر مما هو عليه اذا غمره الماء ، فبدأ لهذا الانسان الفسط أن يتخذ العدسات ، فجعل منها ما هو مكبر لا لجسام الصغيرة ، ومنها ما هو مصغر لها ، ومنها ما هو مقرب لمسافاتها ، فكانت العدسات المحببة الوجهين مكبرات للأجسام ، وبوضع عدد منها بهيئة منتظمة أمكنه أن يكبر الحشرات بالآلات المعظمة [مكروسكوب] وبوضع آخر منتظم أمكنه أن يقرب مناظر الأشياء البعيدة [تلسكوب] .

ثم انتقل من هذا إلى أمر طبي ، فاستعمل العدسات على العيون الانسانية ، فان كانت محدبة ففقت طويلا النظر ، وان كانت محدبة (وظيفتها تصغير الأجسام) ففقت قصيرا النظر ، وههنا أخذ الانسان ينظر فى الألوان فوجد أن [قوس قزح] فى السماء شرح له ضوء الشمس شرحا وافيا ، فدهش إذ رأى سبعة ألوان واضحة أمامه مبتدئة من الأسفل إلى الأعلى على هذا الخط : بنفسجى ، نيلى ، أزرق ، أخضر ،

أصفر ، يرتقلى ، أحر . فالأحر أعلى في قوس قزح ، والبنفسجى أقرب إلى الأرض ، هنالك خطر لهذا الانسان أن ينظر جسمًا شفافا عسى أن يرى هذا المنظر ، فإذا فعل ؟ أخذ صمامة من البلور ، ذلك الجسم الجليل المستخرج من الرمل مع أجسام أخرى مثل البوناسا أو الصودا ، وجعله مضاعفا ، فرأى هذه الألوان واضحة خلفه ، فكان الأزرق والبنفسجى من جهة ، والأحر من جهة أخرى ، والأصفر والأخضر في الوسط .

سبحانك اللهم : زوّقت السحاب وجلته بقوس قزح ، وجعلته للناس درسا جيلا لينتهجوا بالنماظر الجيلة ، عجب ! هذه حدائق وجنات ، الأزهار في الحدائق ذوات ألوان كألوان الطيف ، وهذه الباوره المضاعفة تصنع نفس هذه الألوان البديعة التي تكاد تكون مجردة عن المادة .

اللهم انك لا تحجبك عن الابداع أمرا ، فهذا السحاب في السماء خلقته لاصلاح حال كل حي على الأرض ، ولكن في أثناء ذلك لم تدع الترويق والابداع وتحسين أشكال السحاب .

فقال صاحبي : هل ما ترجمته من هذا المقال أحدث أثرا غير ما ذكرته الآن في نفسك . فقلت : لقد تقدم ذكر الآلة المكبرة للأجسام فشاقني ذلك أن أقابل الأستاذ شوقي بك بكبر الذي هو أعظم عالم طبيعي في مصر ، وهو يسكن حلوان ، وأرائي [المكركوب] الذي عنده ، وأطاعني على رجل الذبابة التي كبرها أربعة آلاف مرة ، وذلك في يوم [شمس النسيم] سنة ١٩٣٢ ثم وضع حجرا صغيرا لا يؤبه به استخرجه من جهة تسمى [الخوف] وهو واد يتدفق في وسط الجبل الشرقى بالبلاد المصرية ، وما كاد يضع هذا الحجر تحت الآلة حتى ظهرت أنواع من القواقع مختلفات الشكل مما دلّ على أن هذه الأحجار وهذه الصخور وهذه الجبال قد خلقت في البحر ، ثم اعتزتها أحوال عظيمة غيرت نظام الأرض وأوضاعها ، فظهرت تلك الجبال على ظهر الأرض كما هو الرأي السائد عند علماء هذا الزمان .

ومما قاله إذ ذاك : إن في وادي الخوف المذكور نباتات تخرج بالفطرة تنفع للدواة ، فإذا زرعناها فقدت خواصها ، وهذا عجب يدل على أن العناية الإلهية رتب نظام العوالم لقورات خاصة وأكثر الناس لا يعلمون . هنالك أرائي أمرا عجبا ! فقال انظر : فنظرت اذا فوق سقف منزله سلكان مصنوعان من النحاس ، دقيقا صنعهما ، موضوعان بهيئة هندسية بحيث يميل السلك الأول عن خط الشمال إلى الغرب عشرين درجة ويميل الثاني عن الأول نحو ٦٠ درجة ، وهذان السلكان يجتمعان في زاوية عند الحائط ، وقد اتصل بهما سلك نزل إلى أسفل المنزل واتصل بالآلة [الراديو] .

فهذان السلكان فوق سقف المنزل يتلقيان ما يأتي به الجو من الأصوات التي في الجهات الأوروبية وغيرها المحصورة بين هذين السلكين ، فشكل موج من الأوج الواقعة بينهما يلتقطهما هذان السلكان ويتلقاه عنهما السلك النازل إلى الآلة في الدور الأسفل من المنزل : « فتبارك الله أحسن الخالقين » .

سلوك من النحاس تكون فوق السقف توضع بهيئة خاصة ، تعطى قوة سحرية بأن تسلب من الجو حركات الأصوات الجارية في الأثير فتحياها إلى صوت كالذي صدر هناك في باريس أو لندن أو برلين أو فينا ، إن هذا الأمر عجيب ! فقال صاحبي : هذا من أعجب العجائب فكيف هذا في الاستطارد ، فهل من رجوع إلى المبحث الذي كنا فيه ، وهو ضياء الشمس ؟ فقلت : نعم .

ضوء الشمس كما يفيد الهداية يفيد الحياة

أيها الصديق : تقدم كلامنا في أن ضوء الشمس منه صنع الناس الأعاجيب ، في الهداية به اهتموا إلى غرائب وغرائب تقدم وصف بعضها في هذا المقام .

رباه : خلقت الشمس وأرسلت منها ضوءا لأرضنا برحمتك ونعمتك ، وجعلت لها نظاما تاما في سيرها ،

فنظمنا أعمالنا بنظام سيرها ، ثم توعدنا في الانتفاع بذلك النور البديع .
ثم اننا نظرنا نظرا آخر فأقينا هذا النور ليس قاصرا على هدايتنا . كلا . بل هو مفيد للنفس حياتنا ،
فهو حياة كما هو هداية ، إن النور يسطع على الورق في الأشجار والحشائش وسائر النبات ، فيمتزج بالعصارات
الجارية في تلك النباتات ، فيكون التفاعل والامتزاج ، فيتم نمو النبات (تقدم هذا واضحا في سورة يس
مشروحا . مصورا بالتصوير الشمسي عند آية : سبحانه الذي خلق الأزواج كلها) وكيف كان النور مساعدا
على تغذية النبات وجلبه من الهواء مواد الكربون السائحة فيه فيقوى النبات ويعيش ، وبه تكون حياة
الحيوان والاندان .

فقال صاحبي : ما أجل هذا القول ، فهلا أفضت فيه كما أفضت في هداية النور . فقلت : أيها الصديق :
أنت تعلم أن هذا تقدم في سور كثيرة . مستوفى . موضعا ، ولكن إن شاء الله تعالى سأبحث بحثا مفصلا في
[سورة النبأ] ، وأذكر هناك إن شاء الله تعالى عجائب أبهرج مما تقدم عند آية : « لنخرج به حيا ونباتا ،
وجنتات ألقافا » وهناك إن شاء الله تعالى ترى بهجة الأشجار والشجرات والنجوم : أي النبات الذي لا ساق
له ، وكيف تنوع الشجر في هيئة أغصانه وأوراقه ، وكيف تكون الأزهار وهي مصورات قد تبدلت أنواع
كأنها وتوحيها ، وأعضاء ذكورها ، وأعضاء أنثىها بحيث ترى واضحة في الشكل ، وكيف كان من الذكور
والإناث ما جاء في زهرة واحدة كالقطن ، ومنها ما جاء في زهرتين في نبات واحد كالذرة ، ومنها ما جاء في نباتين
وهما إما في جهة واحدة فيحصل اللقاح فالثمر كالنخل ، لأن اللقاح قد يحصل بالهواء ، أو بفعل الإنسان ،
وأما أن يكون الذكر في قارة والأنثى في أخرى كما في الصفصاف ، فكل صفصاف أوروبا إناث ، وكل
صفصاف آسيا ذكور ، لذلك لم ير الناس هذا النوع ثمرأ أبنة ، وهناك ترى عجائب الأزهار ، وكيف حار العلماء
فلم يهندوا لتظيم أنواع النبات إلا بواسطة أزهارها ، وما عدا ذلك لم يجدوا له قيمة ، وهناك ترى كيف كان
ماله فلة واحدة كالقمح وكالنخل يخالف تركيبة ماله فلةتان كالقول والبطيخ ، وكيف كانت العلاقة بين
الثمرات والحبوب وبين نظام أجزاء النبات محكمة كما ستره هناك إن شاء الله تعالى ، وبهذا انتهى الكلام
على اللطيفة الثانية في قوله تعالى : « ولقد زيننا السماء الدنيا بمصابيح » ، والحمد لله رب العالمين . كتب
يوم الخميس ٥ صفر سنة ١٣٥١ هـ - ٩ يونيو سنة ١٩٣٢ م قبيل الظهر .

اللطيفة الثالثة

في قوله تعالى : أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يعسكنهن إلا الرحمن الخ

سألني العلامة صديق الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير . فقال : ما السر في ذكر : « إنه بكل شيء
بصير » بعد ذكر أن الطير صافات في جوف السماء ، وأن الله هو المسك لها ؟ ثم ما عجائب الطيور وما تعريفها ،
وما أقسامها ؟ انني أرجو أن تذكر لي هنا مجلا من ذلك ليعلم المسلمون في أقطار الأرض أنهم مقصرون في
هذه الآية ، وأنهم عليهم أن يفهموا هذه العجائب ، فلن يشكروا النعمة حتى يعرفوها ، والمعرفة أساس
السعادة في الحياتين . فقلت : لقد ذكرت في هذا التفسير مقالات كثيرة على الطيور وعلى غيرها . فقال :
ولكن المجلد في هذا المقام لا بد منه مع بيان صور أهم الطيور ومنافعها بقدر الامكان . فقلت : أملي الآن
كتاب الأستاذ [بول بيرت] الوزير الفرنسي الذي ترجمته زوجته الانجليزية [جوسفينا كلايتون] مدام
بول برت الاسكوتلاندية ، وفيه المختصر المطرب وصور الطيور ، ولا بد قبل الشروع في مختصر الكلام على
الطيور أن أقدم مقدمة في مجمل علم الحيوان فأقول :

أقسام الحيوان أربعة (١)

القسم الأول : الحيوانات الفقرية

وهي تشمل : الانسان ، وذوات الأربع ، والطيور ، والزواحف ، والسماك

فهذه الخمس هي أقسام الحيوان الذي اشتمل على هيكل عظمي وفقرات ودم ، فالانسان والبهائم من الخيل والبغل والخيول : والأنعام من الإبل والبق والغنم : والسباع كالذئب والكلب : والطيور الجارحة وغير الجارحة : والزواحف كالحيات والعقارب : والسماك في البحر وهو معروف ، كل هذه لها عظام ودم ، ولكل نوع من هذه أصناف كثيرة .

القسم الثاني : الحيوانات الحلقية

أى التي تركب جسمها من حلقات مجتمعات منضمة يكون منها جسم هذا الحيوان ، وهذا القسم أنواع وهي : الحشرات ، والعناكب ، وذوات الأرجل الكثيرة ، والحيوانات القشرية ، والدود .

أما الحشرات فهي ما كان لها ستة أرجل ، ولها إما جناحان كالذباب ، وإما أربعة أجنحة كأبى دقيق الذى يعيش فى بلادنا المصرية ويكون منه الدود الذى يفسد شجر القطن ، وهذا سلينا قطننا ، فلذلك يدرسه الناس الآن فى مصر بعض الدراسة ، وهناك حشرات أخرى لها أربعة أجنحة تسمى بالانسان الافرنجى [دراكوفلاى] .

وأما العناكب (جمع عنكبوت) فهي ما لها ثمانية أرجل ضعف ما لذوات الأربع . وأما ذوات الأرجل الكثيرة فهي ما قد تصل أرجلها إلى عشرين زوجا من كل ناحية عشرون رجلا ، ويقال لها فى بلادنا المصرية [أم أربعة وأربعين] .

وأما الحيوانات القشرية فهي تشمل قراض الخشب وحيوانا يسمى [كرايفش] بالانسان الافرنجى ، وهو مركب من حلقات مدبجة قوية . وأما الدود فهو يشمل دود الأرض والعلق ، وهذان رؤسهما متصلتان بجسمهما ، وليس لهما أرجل ، وليس جلد لهما صلبا قشريا بجلد كرايفش .

القسم الثالث

الحيوانات الهلامية التي جسمها أشبه بالفلوج الذى هو نوع من الأطعمة ، ومن هذا حيوان يسمى [القوقعة] وهذا الحيوان جسمه يكون من هذا الهلام ، وقد أعطى دقاية من المحار ققيه العاديات والمهاككات ، وهي معدة كمنزل تسكن فيه ، ومنه حيوان يسمى باللسان الافرنجى [ميوزل] وجسمه محفوظ بين صدفتين من المحار ، فهذا القسم وهو الثالث من أقسام الحيوان لا عظم له ، فليس من ذوات الفقرات ، ولا حلقات له فليس من ذوات الحلقات ، فهو إذن حيوان هلامي .

القسم الرابع : الحيوانات الشعاعية

وهذه منها ما هو على شواطئ البحار المسمى [سمك النجم] ومنها ما هو فى البحار يعيش كهيئة مستعمرات مكونة من تلك الحيوانات الصغيرة ، ومن اجتماعها تتكون أجسام صخرية ، وقد تتكون منها جزائر ،

(١) انظر تفصيل هذا المقام فى المجلد الحادى عشر من هذا التفسير فى سورة الحج عند الكلام على آية « يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له » اهـ

فترى هذين النوعين يختصان بأمرين : الأول أن لهما فها مركزيا يشاهد في الوسط . الثاني أن الحيوانات حول ذلك الفم ترجع إلى حلقات ضوئية تحيط بذلك الفم أو المدخل ، ثم ان مشاهدة صورتها تدخل في النفس عجبا ! فان سمك النجم تراه على هيئة برجعة ذات خمسة فروع تحيط بمركزها ، وتلك الفروع ككأنها أصابع الانسان ، وذلك الوسط كالكف ، وكل أصبع من هذه الأصابع محلي بأهداب تعطيه ، وفي أصول تلك الأهداب تشاهد نقطة مضيئة كأنها مصابيح لامعة على طول تلك الأصابع ، وهناك أيضا الحيوان المسمى باللسان الافرنجى [بوليبا] فانك ترى الفم المتقدم أو المدخل ليس متسعا كما في سمك النجم ، بل تراه نقطة صغيرة تحيط بها حيوانات لا حصر لها مجتمعة بهيئة ثمان ورقات جيلا ذات شعاع جميل ، كل هذا تراه موضحا بالصورة الفوتوغرافية في سورة الحج عندآية : « يأبى الناس ضرب مثل فستعواله » الخ فراجعهم هناك إن شئت اه .

وقد جاء في الكتاب الانجليزي المذكور في صفحة ٤٤ وما بعدها ما ترجمته : « إن الطيور لها منقار وريش وجناحان ورجلان ، فالمنقار يمكن رؤيته في رأس هذا الطائر الذي أحضرته لأجل الدرس (هذا كلام المؤلف الفرنسي) ، ثم وصف هذا المنقار فقال : انه حجاب عظمي يكون غلافا وغطاء للفكين ، أما الريش فانه في حال كمال نموه يشتمل على ما يأتي :

(١) أولا : أنبوبة بها ينبت الريش في جلد انطائر .

(٢) وبلى هذه الأنبوبة ساق تحمل فوق كل واحد من جانبيها (دائرة تدل على جهة الريح) وهذه الدوائر أيضا تحمل دوائر أصغر منها ، وهؤلاء أيضا قد يحملان (كما في الأوز) دوائر هوائية أقل من الحملات لها ، وكل هذه الدوائر ملتصقة ببعضها بإحكام ومنسوجة نسجا بدنيا منتظما .

وليس كل ريش تلم النظام على هذا المنوال ، وإنما وصفنا هذا لما تم نماءه كما قدمناه ، أما الأجنحة فانها عادة قوية متينة ، بها يقدر الطائر أن يطير في الهواء ، وبعض الأجنحة ترى قصيرة جدا مثل أجنحة النعامة بها تقدر أن ترفع عن الأرض ، وبعض الأجنحة يستعملها الطائر استعمال السمك لزعانفه وبمساعدها تعوم تحت الماء ، إن كل طائر بيض ، ومعظم الطير ينبت عشا ، إن البيض مركب أولا من قشرة حجرية تحوى في داخلها مادة بيضاء ، وفي داخل هذه مادة أخرى صفراء .

ثم يقول المؤلف : انه أرى التسلايمذ بيضتين : إحداهما بيضة والأخرى منضجة بالنار ، فلما فتح الأولى أمام الطلبة فما كان داخل القشر أسرع إلى الانحدار في الطبقة . ثم قال : انظروا ألسنتهم ترون في وسط المادة الصفراء مادة صغيرة بيضاء ، هذا هو أصل الجنين الذي يتخلق في البيضة ومنها يخرج فرّج صغير اذا حافظنا عليه مدة كافية لينمو في البيضة تحت حضن السجاجة . ثم قال : هاأنذا الآن أنتزع قشر البيضة المنضجة بالنار ، وهاأنذا أقسمها بهدوء تام ومحافظة عليها إلى قسمين حتى تميزوا . موضع المادة البيضاء وموضع المادة الأخرى الصفراء .

كيف تصير البيضة طائراً صغيراً ؟

إن البيض متى حفظ في مكان دافئ في مدة طويلة معينة من الزمان فان الجرثومة البيضاء التي تلمع وسط المادة الصفراء التي هي أصل الفروج تنقلب بالتدرج طائراً صغيراً ، ينمو في سجنه وفي أثناء نموه يمتص ما حوله من المادة الصفراء والبيضاء حتى يصير كبيراً يملأ داخل القشرة ، وحينئذ يكسرها هو بمنقاره ، هنالك يخرج أعشى لاحتراكه مثل هذه الحامة الصغيرة (انظر شكل ٥١ في الصفحة التالية) أو كمثل ما يخرج من

البيضة ، وهو نشيط الحركة خفيف عالم كيف يلتصق من الأرض ما بقوته من الطعام ، وكيف يجري على الأرض وذلك كهذا الفروج (شكل ٥٢) ومن صفات الطير ما يخرج وقد استعد لما هو فوق ذلك ، فلا يكتفى بالجرى في الأرض ، بل يعوم في البحر أو النهر ، وذلك كالأوز والبط ، وهما أخذ المؤلف يشرح حضن البيض بالطريق الصناعية بحيث يقوم الانسان بهذه العملية بدل الأم ، وأبان صورة الصندوق الذي يقوم مقام الأم في حفظ حياة الجنين ، ودوام الحرارة المماثلة للحرارة الطبيعية فلا تم في عشها المناسب لحال نوع الطير هيئة ومقدارا .



(شكل ٥٢)

فروج خارج من بيضة
الدجاجة قادر على
السمي



(شكل ٥١)

حمامة خرجت من
بيضتها وهي عمياء
ولا تدر على الحركة

الطيور على قسمين : طيور مهاجرة ، وطيور غير مهاجرة

ثم أخذ المؤلف يقول : لست أقصر معكم في الطير على ما تقدم ، بل أقول لكم : إن من الطير ما له هجرة كل عام في أوقات محددة تحديدا تاما ، مثال ذلك : الخفاف والسماوي (١) ، وهو [السلوى] والبلبل ، فهذه طيور تعيش في البلاد الحارة في زمن الشتاء ، فإذا أقبل فصل الصيف هاجرت إلى بلادنا (يريد المؤلف بلاد أوروبا) فتعيش على الحشرات المخالوقات فيها ، وتبنى أعشاشها ، وتحضن بيضها ، وترى صفارها ، ومتى أقبل فصل الشتاء وقت الحشرات قفلن راجعات إلى أقطارهن الحارة في إفريقيا ، وذلك أبد الأبد ، ودهر الدهر . وهناك طيور أخرى مهاجرة بهيئة مخالفة للسابقة كالأوز والبط الوحشيين ، فإن هذه تعيش في الأقطار الشمالية الباردة ، فإذا اشتد عليها البرد شتاء أقبلت تسمى إلى بلادنا (يريد أوروبا) . وهما أخذ يشرح أنواع الطيور وهي :

(١) الجارحة .

(٢) والطيور المقلدة للانسان (كالقروذ) ذوات المناظر الجلية ، والأصوات البديعة .

(٣) والحمام .

(٤) والطيور الدجاجة .

(٥) والطيور الخائضة .

(٦) والنعام .

(٧) والطيور المنسوجة الأرجل .

(٨) وأنواع العصفور الدوري . وهناك تفصيلها :

أولا — [الطيور الجارحة] : إن من الطيور ما تعيش على لحم الحيوان الحية من طيور أخرى ومن ذوات الأربع ومن الزواحف فلذلك سميت طيوراً جارحة ، ولذلك نراها قد وهبت سلاحاً حاداً قويا به تحدث تمزيق فرائسها .

(١) ألا ترى إلى هذا المنقار الحاد المصنوع كهيئة الشص والخفاف والكلاب (انظر شكل ٥٣ في الصفحة التالية) .

(١) بضم أوله وآخره نون مقصورة بوزن حباري .

(ب) وإلى هذا المخالب الطويل الممدد لاختراق أجسام الفرائس والقبض عليها (انظر شكل ٥٤)



(شكل ٥٤)

مخالب الجوارح



(شكل ٥٣)

منقار الطيور الجارحة
الحادة القوس

(ج) وإلى الجناح الطويل الممدد : إنهم يطرون سرعا بخفة ، ومن أمثلة ذلك أن صقرا من النوع المسمى بالافرنجية [فلسكون] فر من غابة بلدة في وسط فرنسا تسمى [فوندينبل] عثر عليه في اليوم الثاني بحزيرة مالطة .

الجوارح على قسمين

إن الطيور الجارحة تنقسم إلى قسمين : جارحة ليلية و جارحة نهارية ، فمن الثانية النسر (شكل ٥٥) وهو يعيش على لحوم الحيوانات الميتة ، وبعض هذا النوع عظيم الحجم يعيش في أوروبا ، إن النسور لها منفعة عظيمة جدا في الأقطار الحارة ، لأنها تنظف الجوف من الرمم التي اذا بقيت أفسدت الهواء ، وأمانت الأحياء ، ومن طيور هذا النوع الحدأة الكبيرة التي تعيش في شمال أمريكا (شكل ٥٦) ، وهي حدأة كبيرة الحجم فقد يصل مقياسها (إذا مدت جناحيها) من طرف إلى طرف ١٢ قدما ، ومنها نسر جبال الألب (شكل ٥٧) وهذا أيضا كبير الحجم كسابقه ، وهو ذولحية ، ومنها الصقر (شكل ٥٨) ، وهذا أقوى أجنحة وأحد مخالب من النسر ، وهذه تعيش على لحم الحيوان الحية ، ومنها الباز ، وهو نوع من الصقور (شكل ٥٩) وهو أشد قوة على مقتضى حجم جسمه رأ أكثر جرأة ، وهذا النوع قديما كان الناس في بلادنا (يريد بلاد أوروبا كالانجليز) يربونه ، ولا يزال أهل الجزائر يصيدون به إلى الآن ، وهكذا في بلاد الشرق ، ومن ذلك نوع آخر من الصقور (شكل ٦٠) وهالك صورها بالترتيب :



(شكل ٥٥)

نسر الألب



(شكل ٥٦)

حدأة شمال أمريكا



(شكل ٥٧)

النسر



(شكل ٥٨)

صقر آخر



(شكل ٥٩)

الباز



(شكل ٦٠)

الصقر

ونوع آخر من الصقور أيضا (شكل ٦١) ومنه نوع يسمى صقر العصفور الدوري (شكل ٦٢) ومنه الحدأة (شكل ٦٣) وهك صورهن .



(شكل ٦٣)
حدأة



(شكل ٦٢)
صقر العصفور الدوري



(شكل ٦١)
صقر آخر أيضا

هذا هو نهاية الكلام على الطيور الجارحة النهارية . ولنشرع الآن في الكلام على الطيور الجارحة الليلية ، فنقول ومن الله التوفيق :

الكلام على الطيور الجارحة الليلية

- (١) هي طيور لها ريش زغبي به تقدر أن تطير فلا يسمع لها برائها صوت .
- (٢) ولها آذان مفتحة واسعة جدًا .
- (٣) وأعين مدورة متجهة إلى الأمام . وهك صور بعضها :



(شكل ٦٧)
أصفر البوم حجا
كالطائر الاسود



(شكل ٦٦)
بومة الصقر



(شكل ٦٥)
بومة الهرى



(شكل ٦٤)
البومة العادية

إن هذه الجوارح الليلية لا تذر فأرا ، ولا حيوانا ضارا إلا أهلكته ، لأجل ذلك يحافظ عليها الناس لتساعدهم في إبادة المهلكات ، ومن الناس من يجهلون فائدتها فينلعبون بها ، ويسمرونها في أبواب بيوت مواشيهم حجارة وهم لا يعقلون ، وبهذا تم الكلام على الطيور الجارحة بقسمها ، والحمد لله رب العالمين .

النوع الثانى : الطيور المقلدة للإنسان كالقروود

وهي فصيلة الببغاء



(شكل ٦٨)
الببغاء

والببغاء له منقار غليظ ولسان لحمي به يقدر على تقليد الانسان في النطق ، واثنين من أصابع رجليه متجهتان إلى الأمام ، واثنان إلى الخلف ، وبذلك يسهل له الاستمساك بالأغصان والتسلق عليها ، وعجيب ذكائه وفهمه جعله يسمى [قرد ذوات الريش] كالتقرد ، وهذا النوع يسكن الأفطار الحارة ، وبهجة ألوانه وبديع صوته الظريف يسحران قلوب سكان الأفطار الاستوائية في الدنيا الجديدة والقديمة ويستهوون أفئدتهم وهم طربون .

النوع الثالث : الحمام

وهو ظاهر ، فلاحاجة بنا إلى انكلام عليه .

النوع الرابع : الطيور الدجاجية

وتسمى بالفرنجية [كائناسن] و [كالينا] باللاتينية معناها الدجاجة ، ومن هذا النوع ما يسمى [بيرنت] (شكل ٦٩) والطادوس (شكل ٧٠) والدبك الروى (شكل ٧١) وهذه الطيور الدجاجية تشبه الدجاج في أنها تأكل الحبوب وهاك صورها :



(شكل ٧١)
دبك روى



(شكل ٧٠)
طاووس



(شكل ٦٩)
بيرنت

النوع الخامس : الطيور الخائضة

سميت بذلك لأنها ذات أرجل طويلة عارية ، وأكثرها تعيش في المستنقعات ، وتخوض في الوحل والماء ، وقد منحت رقبا طويلة ، ومناقير كذلك فضلا عن أرجلها الطويلة ، بها قدران تقتنص الحيوانات الصغيرة التي عليها مدارحياتها ، وهاك منها البجع (شكل ٧٢) وما يسمى بالفرنجية [هيرون] (شكل ٧٣) والكركي (شكل ٧٤) وطير الماء (شكل ٧٥) وهاك صورها :



(شكل ٧٥)
طير الماء



(شكل ٧٤)
الكركي



(شكل ٧٣)
هيرون



(شكل ٧٢)
البجع

النوع السادس : النعام

وهذا النوع حجمه كبير وأجنحته (وان كانت قصيرة جدا) تساعد على أن يحير بسرعة عظيمة ، إن هذا النوع يسكن بلاد أفريقيا ، وله أصابعان فقط ، و يبلغ ارتفاعه أكثر من سبعة أقدام ، وترى في (شكل ٧٦) الآتى في الصفحة التالية نعامة افريقيا وارتفاعها ٧ أقدام ، وفي (شكل ٧٧) نعامة أمريكا المسماة [رهيا] ، وهى أصغر ، ولها ثلاثة أصابع ، وفي (شكل ٧٨) نعامة استراليا وبورنيو المسماة : [كسورى] انظر الأشكال الثلاثة في الصفحة التالية .



(شكل ٧٨)
نعامة استراليا ،
وبورنيو النعامة :
كسوري



(شكل ٧٧)
نعامة أمريكا الشمالية
(رهايا) وهي أصغر
لها ثلاثة أصابع



(شكل ٧٦)
نعامة أفريقيا ،
وارتفاعها سبعة
أقدام



(شكل ٧٩)

هيكل طائر كبير من
الجزيرة الجديدة لم
يبق لها وجود الآن
ارتفاعها ١٠ أقدام

وهذا النوع كبير الحجم ولكنه يتضاءل أمام ما كشفه الكاشفون من نوعه في
[مداغشقر] و [زيلنده الجديدة] مما لم يبق له وجود الآن من هذا النوع ، وإنما
عثر الناس على بعض عظام وبيض له ، وكل بيضة تعادل ست بيضات من الكسوري
الحى الآن ، أو تعادل مائة وخمسين بيضة من بيض الدجاج ، وهالك دورتها التي
عثروا عليها (انظر شكل ٧٩) .

النوع السابع : الطيور المنسوجة الأرجل

وهذا النوع ترى أصابعه متحدة مع بعضها بنوع من الجلد أو النسيج لتقدر به
على العوم بسهولة (انظر شكل ٨٠) وهذا يساعد الطائر على أن يعوم بسهولة
ويخترق الماء بدون أقل مقاومة ، إن هذا الطائر إذا دفع برجليه إلى خلف ، فإن
ذلك يساعده على السير إلى الأمام ، ومن هذا النوع (شكل ٨١) و (شكل ٨٢) و (شكل ٨٣) وهالك
صورها بالترتيب :



(شكل ٨٣ : نوع من
الأوز يسمى : سوال)



(شكل ٨٢)
الأوز



(شكل ٨١)
البط



(شكل ٨٠)

وهذه الثلاثة تتحد في أنها منسوجة الأكف كما قدمنا فتتحد من العوم والطيران ، ولكن مشبه ضعيف
جدا ، وطقن مناقير عريضة مساحة بنوع فصل حاد يقوم بما تقوم به الأسنان الابتدائية ، ومن هذا النوع
أيضا طائر الماء (شكل ٨٤ الآتى في الصفحة التالية) وطائر يسمى بالفرنسية [البروس] (شكل ٨٥)
وآخر يسمى بالفرنسية أيضا [بلكان] (شكل ٨٦) ومنها الأشهر النهم (شكل ٨٧) وسترى هذه
الأشكال الأربعة في الصفحة التالية ، وبهذا تم الكلام على النوع السابع من الطيور ، والحمد لله
رب العالمين .



(شكل ٨٧)
الاشتر النهم



(شكل ٨٦)
بلكان



(شكل ٨٥)
البتروس



(شكل ٨٤)
طائر الماء

النوع الثامن

من الطيور المصفورة الدورية ، فهذا النوع لا هو من الطيور الجارحة ، ولا من المنسوجة الأرجل ولا غيرها وهذا النوع يشمل كثيرا من الطيور الصغيرة ، وبعضها له أصبعان متجهان إلى الأمام وآخران متجهان إلى الخلف ، بها يسهل للطائر أن يتسلق على سوق الأشجار ، ومن هذا النوع [قرعاض الخشب] (شكل ٨٨) الذي بضرت بظلمه وعسفه أشجار غاباتنا (يريد أنكثرا) ضررا بليغا ، وهو إنما يبحث في الثقوب التي صنعتها الحشرات من قبله ، وترى في (شكل ٨٩) صورة الغراب وهو معروف ، وهالك صورته :



(شكل ٨٩)
غراب



(شكل ٨٨)
قرعاض الخشب

وبعض هذا النوع يشبه بعض الشبه الطيور الجارحة ، وبعضه ذو منقار لطيف به يقتص الحشرات مثل البليل ، ومثل الطير الأسود ، ومثل الطير المستأنس بأمرىكا وهو جميل ومغير جدا حتى أن أصغره لا يكون أكبر من ذكر النحل ، وبعضه له

منقار واسع يأكل به الناموس ، والخطاف يفعل ذلك ، ومنه ماله منقار غليظ قصير به يأكل كل نوع من أنواع الحب ، وذلك كالقنبرة وخطاف المنازل ، ومنه نوع آخر يستعمل منقاره القوي كما يستعمل الناس القناس فيقلب به الأرض ليستخرج بعض الجثث الميتة فيها فيأكلها ، ومن ذلك أيضا الغراب المتقدم في (شكل ٨٩) وهو معروف .

يقول مؤلف الكتاب الذي ترجمت منه هذه القطعة : « إن في بلادنا نحو ٢٠٠ مائتي صنف من هذا النوع » ، وهذا آخر ما ترجمته في هذا المقام من الكتاب المذكور ، والحمد لله رب العالمين .

تبصرة في هذه الطيور

أيها المسلمون : يقول الله : « أدم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن » ثم يختم الآية بقوله : « إنه بكل شيء بصير » .

الله أكبر ، الله أكبر : جلّ الله ، جلّ الله : قد قدّمنا في [سورة : ق] أن (ال م) التي ابتدئت بها [سورة البقرة] هي مفتاح خزائن العلوم كلها ، وقدّمنا بعض هذا في سورة البقرة عند طبع الجزء الثاني عند آية الطير وإبراهيم وما حولها ، وفي سورة آل عمران ، ولشدة ما اتضح لي اليوم وأيقنته حقا وصداقا ، أن (ال م) جعلت مفاتيح للعلوم ، ومما يميز بها يساق المسلمون إلى السعادة في الدنيا والآخرة .

وأقول بأعلى صوتي : أيها المسلمون : هذا السرّ قد ظهر الآن ، يقول المسلم : ما معنى هذه الحروف ؟ فيصل في البحث إلى ما قلناه في سورة البقرة ، ظهر سرّ (ال م) في العفة وفي بدائع الكيمياء ، فأقرأه هناك ، وظهر في سورة آل عمران في عدم اتكال المسلمين على غيرهم من الأولياء والصالحين ، بل عليهم

الجد ، وهما يوحنا الله على جهلنا بعلوم الطير التي نام عنها المسلمون وعرفه أهل أوروبا وأهل الشرق الأقصى .
رباء : إليك المشتكى . رباء : نام المسلمون . رباء : ناموا وناموا . اللهم أيقظهم أنك سميع الدعاء ، وأنا
موقن بسماع الدعاء ، سبحان الله : أليس من عجائب هذه الطيور أن منها النسر الذي ينظف الأقطار الاستوائية
من رمم الحيوان ، ولولاه لم يعيش هناك انسان ولا حيوان ، أوليس منها البوم التي تأكل أمثال الفيران
المهلكات لزرع الانسان بأكله ونفس الانسان بالعدوى كما قدمناه في هذا التفسير عن كبار الأطباء في هذا
العصر ، أفليس من هذه الطيور كما قدمنا المهاجرات من الأقطار الحارة إلى الأقطار الباردة فتأكل الحشرات
حياة لها وسعادة لنوع الانسان ، ألسنا نرى الطيور مقسمة على الأقطار ، وعلى الليل والنهار ، وعلى الهواء
وعلى الأشجار ، وعلى الشواطئ والمستنقعات ، وعلى البحار ، لتكون من المنظمات المساعدة على نظام
هذه العوالم العجيبة (١) .

هذا معنى قوله تعالى : « ما يسكنهن إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير » فهاهي ذه الرحمة ، رحمة نفس الطائر
مثلا بأكله الحشرات ، ورحمة الحيوان والانسان ببقاء الزرع لموت المهلكات من تلك الحشرات .
هذا بعض السر في اختصاص المقام بالاسم [الرحمن] وبالاسم [بصير] ، والى هنا تم الكلام
على (سورة الملك) والحمد لله رب العالمين . كتب صباح يوم الأربعاء ١٣ سبتمبر سنة ١٩٣٢ م

تفسير سورة القلم

هي مكية

إلا من آية ١٧ إلى آية ٣٣ ، ومن آية ٤٨ إلى آية ٥٠ غدنية

آياتها ٥٢ — نزلت بعد العلق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ
تَمْنُونَ * وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ * فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَيِّكُمْ الْمَقْتُولُ * إِنْ
رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ * فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ * وَذُوا
لَوْ تُذْهِنُ فَيُذْهِتُونَ * وَلَا تُطِعِ كُلَّ خَلَّافٍ مَهِينٍ * هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ * مَنَّاعٍ لِلْخِيزِ
مُعْتَدٍ أَيْمٍ * عُدُلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ * أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ * إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا
قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * سَنَسِفُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ * إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ

(١) مما يناسب الطير مسألة الطيران في الجوّ بالطيارات التي تقدّمت قريبا ، ونريد أن نبين هنا أن
الطيارات قد صوّرت بالتصوير الشمسي في أوائل سورة النحل ، وقد شرحت أيضا في سورة المائدة عند آية
ابن آدم : [المؤلف] .

إِذْ أَقْسَمُوا لَيْصَرِمُنْهَا مُصْبِحِينَ * وَلَا يَسْتَشْنُونَ * فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ * فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ * أَنْ أَعْذُوا عَلَى حَرِّكُمْ * إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَأَنْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ * أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهُا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ * وَغَدُوا عَلَى حَرٍِّ قَادِرِينَ * فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْ لَا تُسَبِّحُونَ * قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ * عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ * كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ * أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ * إِنْ لَكُمْ فِيهِ لَمَّا تَحْيُرُونَ * أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بِاللَّغَةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنْ لَكُمْ لَمَّا تَحْكُمُونَ * سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ * أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فُلْيَئَاثُوا بِشْرِكَاهُمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ * يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهُقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ * فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهِذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ * أَمْ تَسْأَلُهُمْ أُجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ * أَمْ عَنْدهُمْ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ * فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْخُوْتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ * لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ * فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ * وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ *

هذه السورة أربعة مقاصد

- (١) حسن الأخلاق النبوية من أوّل السورة إلى قوله : « وإني لك على خلق عظيم » .
- (٢) سوء أخلاق بعض الكفار وجراؤهم من قوله « فستبصرون ويبصرون » إلى « سنفسمه على الخرطوم »
- (٣) ضرب مثل لهم بأصحاب الجنة البخلاء من قوله « إنا بلوناهم » إلى قوله « لو كانوا يعلمون »
- (٤) تقرّيع للمجرمين ، وأمر بالصبر لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أملا يكون كصاحب الخوت من قوله « إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم » إلى آخر السورة .

المقصد الأول : حسن الأخلاق النبوية

التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

(ن) النون الدواة . قال الشاعر :

إذا ما الشوق برح بي إليهم * ألفت النون بالدمع السجام
ويطلق على الحوت ، وفي بعض الحيتان مادة تصلح للكتابة (والقلم) وهو كل ما يخط به (وما يسطرون)
وما يكتبون : أي والذي يكتب به من الكتب (ما أنت بنعمة ربك بمجنون) أقسم الله بالدواة والقلم ،
وبكل ما يكتب من كتب الخير ، أنك يا محمد ما أنت مجنوناً حال كونك بنعمة عليك بالنبوة وحصافة الرأي ،
وكيف تكون مجنوناً والكتب والأقلام والمداد قد استعدت للعمل في الشرق والغرب بما ينزل عليك من
الوحي ؟ أهذا هو المجنون ، إن الله أنعم عليك بنعمة العلم والنبوة ، وقد أعد الأمم للتألق عنك فلمست بمجنون
وأى شهادة أعظم من نتائج الأعمال ، فهي الشواهد النواطق ، وإدخالها بطريق القسم أبلغ في الشهادة
من قول المتنبي :

الحيل والليل والبيداء تعرفني * والسيف والرحم والقرطاس والقلم

قال المؤلف الانجليزى كارليل في كتابه المسمى [البطولة والأبطال] حينما تكلم على صاحب شريعتنا
صلى الله عليه وسلم في نحو سنة ١٢٠٠ هجرية ما ملخصه : « إن البناء الذي لا يحسن البناء لا يدوم بناؤه
طويلاً ، وكلما دام البناء دلّ على صدق البناء (بنشيد النون) في صناعته والنبى محمد صلى الله عليه وسلم
أخرج أمة إلى الوجود فدامت هذه الأمة ألفاً ومائتى سنة ، إن البناء الدعى لا يدوم بناؤه عشرات السنين
فضلاً عن المئات والألوف ، ولو كان محمد صلى الله عليه وسلم غير نبى وبناؤه على غير أساس لم يدم هذه الأزمان كلها ،
ثم أخذ يكذب الأوروبيين في دعواهم أنه غير نبى ، وأنه اخترعها حاجة في النفس ، وشنع غاية التشذيع « اه
أقسم الله بالدواة والقلم والكتب عالماً أن هذا الدين يبق ، وأنه سقنحرك به الأقلام وتسطر الكتب
وتخط ، وكل ما انتف بذلك لا يكون باطلاً ، إذا باطل لا ثبات له ، والحق هو الباقي .

أقسم بهذه الثلاثة مستدلاً بشحقتها في الزمان المقبل بعد القسم وهو عالم بذلك على صدق الرسالة لأن
الزبد وهو ما يعلو وجه الماء عند سقى الأرض يذهب ويرى به ولا بقاء له ، والماء الذي تحته هو الذى يبق
في الأرض ويسقى للزرع ، فكل باطل ذاهب ، وكل حق باق ، فبقاء هذا الدين بكتابة الأقلام وتسطير الكتب
دليل على أن محمد صلى الله عليه وسلم غير مجنون .

أقسم الله بهذه الثلاثة فتحة لباب التعليم العام بالقلم والكتابة ، إن هذا الدين لم ينزل لأجل ألف وثلاثمائة
وثلاث وأربعين سنة . كلا . ثم كلا . لم ينزل القرآن لأجل جيلنا والأجيال قبله فقط ، إن الله جعل أمتنا
الحالية ومن قبلها مقدمات لأنهم ستأتى بعدنا ، ونكون أرقى منا علماً وأخلاقاً ونظاماً ومدنية ، فهؤلاء حينما
يقومون هذه الآية يفكرون فيها ويقولون : إن الله لا يقسم إلا بأمر عظيم ، فإذا أقسم بالشمس والقمر
والليل والفجر ونحو ذلك فأنما هو أعظمه الخلق وجل الصنع ، أما الدواة والقلم والكتب فما عظمه صنع الله
فيها كالشمس هي ، أم كالقمر والكواكب ؟ إن الله لم يقسم بها إلا ليعلمنا ويدكرنا بأعمالنا نحن ، فكما
خلق وصوّر وزوّق في سمواته وأرضه فليكن لنا في الكتب والأقلام أعمال نرقى بها نفوسنا ومدننا وأحوالنا
الاجتماعية ، فلنعلم التعليم .

إن الله أقسم بالكتب والأقلام هنا : وأقسم بالرق المنشور في سورة الطور لذكر المسلمين لاسما في هذه العصور أن يكون التعليم علما حتى يكون الرق منشورا ، والأقلام متحركة ، والكتب مسطورة عامة ، ذلك من مضمون هذا القسم فضلا عن نبي الجنون المصريح به في الآية ردًا على قول الكفار : « يأياها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون » .

وكأنه يقال : كيف تسمونه بالجنون وقد استعدت الكتب أن تنشر باسمه والأقلام أن تخط ونشر ما يقول وسيكون هناك أم وأم تتعاقب بعده ولها نظام عظيم ، ويكون القلم والكتاب في كل مكان .

أقسم الله بهذه الثلاثة لذكر المسلمين اليوم قائلا : هاأنذا أقسمت بالقلم والكتاب ، ولم تكن أمة من أم الفرس والروم والصين حين نزول الوحي تعمم التعليم ، ولم يعم التعليم في أوروبا وأمريكا إلا بعد اصطدام الشرق والغرب في الحروب الصليبية ، إن اصطدامهما ولد هذه الحركة القلمية ، وأول ظهورها في الغرب ، وهما هي هذه امتدت إلى الشرق ، وستأخذون حظكم منها موفورا ، إن تعمم التعليم وعصر الكتب والورق لم يكن إلا بعد نزول القرآن بل بفضل القرآن لاسما بعد التحارب والتصادم ، وكأنا الشرق والغرب كانا زندين قد حتهما العناية الربانية فتولدت بينهما شرارة ، تلك الشرارة هي العلم ، وأول من أثرت فيه هو الغرب ، إن الغرب قد طغى على الشرق ، فتحرك لقتله ، فرجع الغرب بخفي حنين ، ولكنه حل بين جنبيه العلم والنور ، فرقى الأم في بضع مئات السنين ، ذلك كله سر القرآن .

الله أقسم بهذه الثلاثة علما منه بتحققها وانتشارها في كل بيت في الأم بعد أزمان النبوة ، فهو رمز وإشارة إلى ما حصل في العالم الآن ، وستكون أمة الاسلام لها القدر المأملي ، وكما كان نبيها آخر الأنبياء فهما هي هذه الآن ستكون آخر الأمم تعمميا للتعليم ، وكما كان شرعها ناسخا للشرائع هكذا سيكون تعليمها العام بشكل يفسخ الأشكال الحاضرة الآن في أمريكا وأوروبا ، وسيكون في نظام تعليمنا ما يدهش الشرق والغرب ، ونكون رجة للعالمين ، لأننا سندخل فيه أمتنا خير الأمم ، وأمتنا رجة للعالمين ، وأن جيوشنا تكون أقوى الجيوش ، لا لنهدم بل لنصلح الأم الظالمة ، ولا نبتغي وراء ذلك مأربا ، وسيكون في هذه الأمة مجتهدون يأخذون الأحكام من القرآن ، وينظرون بعقولهم نظرا ثاقبا ، وسيكون تعليم جميع العلوم السماوية والأرضية للمستعدين مشوبا بذكر خالقه وحبه ، واذن تكون العلوم كلها مرتبطة بالصانع .

هذا هو الذي سيكون ميزة أم الاسلام ، وهذا المهيح يحدث فيهم حكماء نابغين لانظير لهم يقودون أمتهم والأمم الأخرى إلى سبيل الفلاح « ليظهره على الدين كله » وسيكون عصر المسلمين المستقبل عصر سلام مع الأمم ، وعصر علم ، وعصر حكمة ، ولذلك أعقبه بقوله (وإن لك لأجرا غير ممنون) أي لثوابا على احتمال ما يتولون والصبر عليه غير مقطوع ، فكون الأجرا غير ممنون فيه رمز إلى عدم انقطاع هذه الأمم التي تتعاقب فيزداد الأجر بازدياد الأم ودوامها ، وقوله (وإنك لعلى خلق عظيم) هو المذكور في قوله تعالى : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهل » وذلك بالتساهل مع الناس فيأخذ بظواهرهم ولا يبدق على البواطن ، وذلك بالتساهل والتعافل لا العقلة ، وهذا معنى العفو ، والباقيان مفهومان .

قالت عائشة رضي الله عنها : « كان خلقه القرآن » ، أليست تقرأ القرآن : « قد أفصح المؤمنون » ، وإذا رجعت إلى مافي سورة المنافقين وقد ظهر نفاق عبيد الله ابن أبي وقيل به الوحي ، وأنه لم يقتله أدركت مكارم أخلاقه صلى الله عليه وسلم وحلمه وصبره . انتهى الكلام على المقصد الأول من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

المقصد الثاني : سوء أخلاق بعض الكفار وجزاؤهم

قال تعالى (فستبصر ويبصرون ، بأيكم الفتون) أى بأيكم الجنون ، فلفنون كالمقول والمجلود كلها مصادر (إن ربك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله) وهؤلاء هم المجانين على الحقيقة (وهو أعلم بالمتسدين) الفائرزين بكمال العقل ، ثم أمره أن يصمم على معاصيهم ، إذ قلوا : نعبد الله مدة وآلئنا مدة أخرى ، فقال (فلا تطع المكذبين) وهم مشركو مكة (ودّوا لو تدهن) أى ودّوا لو تلىّن لهم وتوافقهم بترك الطعن في آلهتهم أو توافقهم في شركهم أحيانا (فيدهنون) فهم تمنّوا أن تترك بعض ما أنت عليه مما لا يرضونه مصانعة لهم ومداهنة فيفعلوا مثل ذلك ويتركوا بعض ما لا ترضى به فتلىّن لهم ويلينون لك فلا تطعهم (ولا تطع كل حلاف) كثير الخلف في الحق والباطل (مهين) حقير الرأى من المهانة وهى الحقارة (هزاز) عياب (مشاء بنيم) يقال للمتحدث على وجه السعاية (مناع للخبر) يمنع الناس عن الخبر كالانفاق والايتمان والعمل الصالح (معتد) متجاوز الحد في الظلم (أثيم) كثير الآثام (عتل) جاف غليظ ، يقال عتله إذا قاده بعنف وغلظة (بعد ذلك) أى مع ما وصفناه به من الصفات المذمومة (زنيم) وهو الدعى الملتصق في القوم وليس منهم فهو دعى قريش وليس منهم ، وهذا وصف الوليد بن المغيرة ، وقد ادّعى أبوه بعد ثمانى عشرة سنة من مولده ، ويقال : الزنيم هو الذى له زئمة كزئمة الشاة ، وكانت له زئمة يعرف بها ، ويعرف أيضا بالشر كما تعرف الشاة بزئمتها ، هذه معان ثلاثة ذكرها المفسرون : فهو ملتصق في قريش ، وله زئمة ظاهرة ، وأيضاً يعرف بالشر ، فربما كانت هذه الثلاثة كلها أو بعضها فيه ، ولقد وصف بعشرة أوصاف هى سيئات الأخلاق فى مقابلة عظمة خلقه صلى الله عليه وسلم ، ثم أخذ يقرعه على غروره فقال (أن كان ذا مال وبنين) أى كذب بآياتنا وهو القرآن لاجل كونه ذا مال وبنين ، وكان ماله تسعة آلاف مثقال من فضة ، وبنوه عشرة ، وإنما قدرنا فعل كذب لأنه دلّ عليه بقوله (إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير) أحاديث (الأولين) فى كذبهم (سندسمة على الخراطوم) على أنفه مهانة له وعلمها يعرف به ، وتلك السمة هى المهانة والاذلال كما تقول : جدد أنفه ، ورجم أنفه ، وكفى بسوء سمعته فى الدنيا بهذه الآيات وفى الآخرة بالفضيحة والعذاب مهانة ، وأهى سمة ظاهرة على الأنف بدون مجاز فيقال : أن أنفه أصيب بجراحة يوم بدر فبقى أثرها سمة له ، وإذن يكون ذلك من علامات النبوة . انتهى المقصد الثانى من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

المقصد الثالث

ضرب مثل لأهل مكة ولكل ذى جهالة من أهل الأرض وحرص وطمع

وقصة أصحاب الجنة أنهم قوم من أهل الصلاة كانت لأبيهم جنة بقرية يقال لها ضرّواز ، وكانت على فرسخين من صنعاء ، وكان يأخذ منها قوت سنة ويتصدق بالباقي على الفقراء ، فلما مات قال بنوه : إن فعلنا ما كان يفعل أبونا ضاق علينا الأمر ونحن أولوا عيال ، فلفقوا ليقطعنها وهم داخلون فى الصباح خيفة من المساكين ولم يستنوا حصّة المساكين فأحرقها الله ، وهذه هى القصة (إنا بلوناكم) أى بلونا أهل مكة بالقطط (كما بلونا أصحاب الجنة) التى ذكرناها الآن (إذ أقسموا ليصرمنها) ليقطعنها (مصبحين) داخلين فى الصباح (ولا يستنّون) ولا يخرجون حصّة المساكين كما كان يفعل أبوهم (فطاف عليها) على الجنة (طائف) بلا طائف (من ربك) أى من عذاب ربك ، ولا يكون الطائف إلا ليلا (وهم نائمون فأصبحت كالصريم) كالاستان الذى صرم قطع ثماره بحيث لم يبق منه شيء (فتنادوا مصبحين ، أن

اغديا على حرككم) أى بأن اخرجوا إليه غدوة (إن كنتم صارمين) قاطعين له (فانطلقوا وهم يتخافتون) يتسارون فيما بينهم لئلا يسمع المساكين يقولون (أن لا يدخلها اليوم عليكم مسكين) أى لئلا يكتفون من الدخول فإن مفسرة (وغدوا على حرد قدرين) أى وغدوا على جد في المنع قادرين عند أنفسهم (فلما رأوها) أول ما رآها وهي محترقة بالطائف الرباني (قلوا إنا اضالون) طريق جنتنا فأين الطريق إليها ؟ ثم تأملوا زعموا أنها هي جنتهم وأنها احترقت ، فقالوا مضر بين عما تقدم : (بل نحن محرومون) حرمانا خيرها لجأينا على أنفسنا (قال أوسطهم) أى أفضلمهم في الرأي وفي السن (ألم أقل لكم لولا تسبحون) أى هل اتدكرون الله وتوبون إليه من خيب نيتكم (قلوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين) جمعنا المساكين (فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون) يلوم بعضهم بعضا (قلوا يا ويلنا) دعوا على أنفسهم بالويل (إنا كنا طاغين) في منعنا حق الفقراء والمساكين ولم نشكر نعمة الله بالاتفاق منها (عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها) ببركة التوبة والاعتراف بالذنب ، وروى أنهم أبدلوا جنة خيرا منها (إنا إلى ربنا راغبون) راجعون العفو طابون الخير (كذلك العذاب) أى مثل ذلك العذاب الذي ذكرناه من عذاب الدنيا ففعل بمن تعدى حدودنا وخالف أمرنا سواء أكان من أهل مكة مشركي العرب أومن غيرهم من أمة الاسلام أو أمة أوروبا وبلاد الشرق ، فهذه قاعدة عامة مطردة لا يفلت منها فرد ولا مجموع ، ولقد أصبحت هذه القاعدة مشاهدة الأثر في زماننا ، وقد كنا منذ سنين نطلق معاشر المسلمين أن دول أوروبا التي ظلمت الشرق لارادع لها ولا زاجر ، وكنا نقول : أين وعد الله بإهلاك الظالمين ، فخصت وقائع غيبت وجه المسكونة ، فإذا حصل كانت دول أوروبا في بلاد الشرق لها في كل دولة منها امتياز واختصاص وتعظيم ، فيكونون في البلاد ضيوفا في حين أنهم ساداتها بقوانين يصدرونها ، فيقتل الرجل منهم المسلم الوطني أو الشرقي الصيني والهندي ثم يفلت من العقاب إذ لا يحاكم إلا في محاكم دولته ، فلقد قلب الله الآية ، والدهر قلب ، فطردهم الترك من بلادهم ، فلا اختصاص لهم في البلاد ولا امتياز ، وهكذا دولة إيران ، وفي أثناء كتابة هذا التفسير بل في أثناء تفسير هذه السورة ظمت ضجة وثورة في بلاد الصين ضد أوروبا يطالبون ألابسود عليهم الأجنبي في بلادهم ، وقد أجبنا الأمم إلى ذلك ويمتدون المعدات لأجابة الطلب كما أجابوا بلاد الترك من قبل ، ومن قبل هؤلاء فعل أهل اليابان ذلك ، ولقد ساط الله دولة الروس [البلشفية] هؤلاء يساعدون كل من أراد أن يطارد هؤلاء الظالمين من بلادهم ، ولهم قواد عند الأمير عبد الكريم ببلاد مراكش للساعدة على اخراج الظالمين .

كل ذلك مبدأ لما سيحصل في الأمم المستقبلية فستكون حرة لاسلطان عليها اظلم أوروبا التي هزمت وشاخت وستقوم دول شابة في الشرق ، وقد ابتدأت تتحرك اليوم وتحل محل هؤلاء الظالمين ، كل ذلك داخل في معنى هذه الآية ، فإن أصحاب الجنة استأثروا بالثمر وحرمو الفقراء ، وهذه الدول ظنت أن الناس مخلوقون لخدمتهم فأرادوا استعبادهم فقلب الله الآية ، وسيدور الفلك دورته ويتم الله نصر المظلومين الذي ابتدأ الآن وسيزيد ارتقاؤه في المستقبل القريب .

فهذه الأمم تذوق عذاب الحزى في هذه الحياة الدنيا بالفقر المدقع الذي استولى على بلادها ، وبالبلشفية التي أصبحت كالسوس تنخر في عظامها ، وقريبا يذهب ظلمها المداعى إلى السقوط (ولعذاب الآخرة أكبر) أعظم منه (لو كانوا يعلمون) لاحترزوا عن الفعل الذي يؤدي إليه . انتهى الكلام على المقصد الثالث من السورة ، والحمد لله رب العالمين .



المقصد الرابع

تقريع المجرمين : وأمر بالصبر لنبينا صلى الله عليه وسلم لئلا يكون كصاحب الخوت

قال تعالى (إن للذين عند ربهم جنات النعيم) أى جنات ليس فيها إلا التمتع الخالص ، لا الجنات النبوية التى يشوبها العذاب بزوال نعيمها وخلو اليد منها . ثم أخذ يرد على من قال من الكفار : ان صح أننا نبعث كما يزعم محمد ومن معه لم يفضلونا بل نكون أحسن حالا منهم ، لأن من أحسن فى الدنيا إلينا فهو محسن إلينا فى الآخرة ، فقال : (أفجعل المسلمين كالمجرمين) ثم خاطبهم على طريق الالتفات فقال : (مالكم كيف تحكمون) هذا الحكم المعوج وكيف تدعون بين العاصي والطيع فضلا عن أن تفضلوا العاصي على الطيع . ثم أخذ يقطع عليهم الحجج ويستدل عليهم أبوابها فقال : هل تلقيتم كتابا من السماء فقرأتم فيه أنكم تختارون ما تشاءون بحيث تكونون وأنتم مجرمون كالمسلمين الصالحين بل هل أعطيناكم عهدا أكدناها بالأيمان المؤكدة عاهدناكم عليها فاستوثقتم بها ، فهى ثابتة إلى يوم القيامة فأقسمنا لكم بها أنا حكمناكم وأعطيناكم ما تحكمون لأنفسكم ، بل ألهم أناس يشاركونهم فى هذا القول ويذهبون مذهبهم مع أنه لا يسلم لهم بهذا القول أحد ولا يساعدهم ، ولا كتاب لهم ينطق به ، ولا عهد لهم عند الله ، وإذا زعموا أن لهم أناسا يذهبون مذهبهم فليأتوا بهم يوم شدة الأمر وصعوبة الخطب ويقال لهم اسجدوا وقت تلك الشدة توبعنا لهم على ترك السجود فى الدنيا ، وذلك إما فى الزرع أو بعد الموت فلا يقدرون على السجود وأبصارهم خاشعة ، والدلة محيطة بهم ، مع أنهم كانوا يدعون إلى السجود فى الدنيا وهم متمكنون منه . هذا هو قوله تعالى (أم لكم كتاب فيه تدرسون ، إن لكم فيه لما تخيرون ، أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون ، سلمهم أيهم بذلك زعيم ، أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم ان كانوا صادقين ، يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون ، خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالون) .

فقوله : تدرسون : أى تقرعون ، وتخبرون : أى تختارون ، وأيمان : أى عهد ، وبالغة : أى متناهية فى التوكيد ، وقوله : إلى يوم القيامة : أى ثابتة لكم علينا إلى يومها ، وقوله : سلمهم أيهم بذلك زعيم : أى أيهم بذلك الحكم قائم بدعيه وبصحيحه ، وقوله : يكشف عن ساق : متعلق بآتوا : أى يوم يشتد الأمر ويصعب ، وهو كناية عن الشدة ، وقد كانوا إذا ابتدأ بهذه كشفوا عن الساق ، وذلك كما تقول للأقطع البخیل : يده مغولة مع أنه لا يده ولا غل ، فهكذا هنا لا ساق ولا كشف ، وقوله : خاشعة أبصارهم : أى ذليلة وقوله : وقد كانوا يدعون إلى السجود : أى فى الدنيا ، وقوله : وهم سالون : أى أصحاب . ثم ان قوله فى أول هذه الآيات : « أم لكم كتاب فيه تدرسون ، إن لكم فيه لما تخيرون » أصله أن بالفتح ، لأنه مدرّوس لوقوع الدرس عليه ، وإنما كسرت لوجود اللام فى خبرها .

ثم قال تعالى (فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، وأملى لهم إن كيدى متين ، أم تستلهم أجرا فهم من مغرم مثقلون ، أم عندهم الغيب فهم يكتنون ، فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الخوت إذ نادى وهو مكظوم ، لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم ، فاجتبه ربه فجعله من الصالحين ، وان يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون انه لمجنون ، وما هو إلا ذكر للعالمين) .

يقول الله سبحانه : خل يا محمد بنى وبين من يكذب بهذا القرآن فأتى عالم بما ينبغي أن يفعل به مطبق

له فلا تشغل قلبك بشأنه ، وتوكل على في الانتقام منه ، انا سندنيهم من العذاب درجة درجة ، واستنزهم إليه حتى نورطهم فيه فتوالى النعمة عليهم وبرزقهم الصحة والعافية فتزداد معاصيهم من الجهة التي لا يشعرون أنها استدراج ، فكأما جددوا معصية جددنا لهم نعمة وأنسيناهم شكرها وأنا أمهلهم فإن استدراجي لهم وكيدى قوى متين .

ثم كأنه يقول : يا محمد : ماذا يقومون منك ؟ أنت تسألهم أجرا على تبليغ الرسالة فتثقل عليهم فامتنعوا ؟ كلا . بل هل عندهم علم الغيب المكتوب في اللوح المحفوظ فهم يكتبون منه ما يحكمون به ؟ فلا هذا ولا ذاك ، إذن القوم معاندون ، لم يبق إلا أن تصبر لحكم ربك فقد حكم بأهلهم وتأخير نصرتك ، فانهم إن أمهلوا لم يمهلوا ، وأخذ يذكره بحادثة يونس عليه السلام ، إذ غضب على قومه وفرقهم ، ونزل إلى السفينة فابتلعه الحوت ، ودعا ربه في بطنه فقال : « لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين » وهو مملوء غيظا ، وهذا هو قوله تعالى « قدرني ومن يكذب بهذا الحديث » أى كله إلى « فإني أكفيكم » سندسدرجهم من حيث لا يعلمون « سندنيهم ونقرتهم من العذاب « وأملى لهم » أمهلهم « إن كيدى متين » جعل الاحسان كيدا كما جعله استدراجا لكونه في صورة الكيد « متين » شديد « أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون ، أم عندهم الغيب فهم يكتبون ، فاصبر لحكم ربك » وهو أمهلهم « ولا تكن كصاحب الحوت » وهو يونس عليه السلام « إذ نادى وهو مكظوم » مملوء غيظا ، وقوله « لولا أن تدركه نعمة من ربه » أى رحمة « لنبذ بالعراء » أى طرح بالفضاء من بطن الحوت « وهو مذموم » أى ملئم مطرود من الرحمة والكرامة « فاجتباه ربه » وذلك بأن رد الوحي إليه « فجعله من الصالحين » أى الكاملين في الصلاح بأن عصمه فلم تبق له زلة ، وهذه الآية نزلت لما هم أن يدعو على قبيص ، أو بأحد حين حل بالمسلمين ماحل فأراد أن يدعو على المنهزمين « وان يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم » أى انهم لشدة عداوتهم ينظرون إليك شزرا بحيث يكادون يزلون قدمك وبرمونتك ، يقال نظر إلى نظرا يكاد يصرعني : أى لو أمكنه أن يصرعني بنظره لفعله ، أو يقال انهم يكادون يصيدونك بالعين ، وذلك أن العين كانت في بني أسد فكان الرجل منهم يتجوج ثلاثة أيام فلا يمر به شيء فيقول فيه : لم أر كاليوم مثله إلا هلك ، فطلب من بعض العيانيين أن يقول في رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل ذلك ، فقال : لم أر كاليوم مثله رجلا فعصمه الله من ذلك ، وفي الحديث : « العين حق » وان العين لتدخل الجبل القدر والرجل القبر . وعن الحسن : رمية العين هذه الآية .

وقوله : « وان يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم » ان مخففة من الثقلية ، فهي للتأكيد واللام واقعة في خبرها ، وقوله « لما سمعوا الذكر » أى حين سمعوا القرآن « ويقولون » حسدا على ما أوتيت من النبوة « إنه لجنون » ان محمدا لجنون حيرة في أمره وتغيرا عنه « وما هو » أى القرآن « إلا ذكر » إلا وعظ « للعالمين » للجن والانس : أى جنوه لأجل القرآن مع أنه ذكر عام لا يدركه ولا يتعاطاه إلا من كان أهلا له اه

ايضاح

إن هذه الآيات متلاحقة متواصلة المعنى ، فان أصحاب الجنة ضربوا مثلا ان أعطوا نعمة فبخلوا بها عن الناس ، وحرصوا عليها ، فنزل بهم السوء وأحاط بهم ، فزالت نعمتهم ، وهكذا الاستدراج في النعم ، فالانسان يعطى النعمة ولا تزال تتوالى عليه وهو غافل ساه ، فيظن أن الله أحبه ، وأن هذا العز يدوم

فاذا نعمته زائلة وهمه حاضر ، هذا الحكم يشمل الأفراد ويشمل الأمم ، الأفراد والأمم مشتركون في هذه القواعد .

واعلم أن هذه القضية مسلمة عند علماء الاجتماع ، فإما من دولة إلوها زمان ترتقي فيه ، وتكون أشبه بالدابة ترعى في مرعائها سائمة هائمة آمنة مطمئنة ، فلا تلبث أن تأكل ما يضرها فتمرض أو تموت ، وما مثل الأمة وهي في عنفوان عظمتها إلا كمثل ما وصفه علماء الطب الحديث في الفسأ والمأنا إذ قالوا : إن أكثر من نراهم أحماء الأبدان أقوياء الجسم جر الحدود ، مودى الوجنات ، لما في تغذيتهم من المواد الكثيرة الغذاء كاللحم والبيض واللبن ، فهؤلاء لا يزالون هكذا حتى تتخطفهم المنون وهم لا يشعرون ، وأما ذلك الذى نراه ضعيف الجسم كثير الأمراض فهو الذى نسميه قويا لأن جسمه قدر أن يخرج منه الفضلات الباقيات في جسمه التى لو بقيت لأهلكته : أما الأول الذى يظن الناس أنه قوى ويحسدونه فإنه هو الضعيف في نظرنا ، لأنه دائما أو غالبا يموت فجأة وهو غافل ، وما مثل جسد الأول وجسد الثانى إلا كمثل بيت لم تجعل له مصارف لما فيه من القاذورات ، وبيت قد جعل له ذلك ، فالثانى خير من الأول قالوا : وهذا هو السر في أننا نرى كثيرا من الضعفاء المزهولين يعمرن وكثيرا من الأقوياء يموتون فجأة وهم في عنفوان الشباب .

إذا عرفت هذا فهت أحوال الدول : فالأم إذا استبحر عمراتها ، وتكاثر نسلها ، واستعمرت الأرض واستكثرت من الشهوات جرّها ذلك الى البطنة وسوء الحال ، فيقول غيرها من الأمم ما أحسن حالهم وبها بونهم ، ولكنهم يكونون قد أشرفوا على الهرم وقاربوا الهلاك .

وهذه دول أوروبا الحالية أمرها على هذه الحال أصبحوا وهم شرهون متعمون لم يظهرهم الاتقوهم في الصناعة ، ولكنهم مشرفون على حال الهرم وضياع المدنية ، كما ذهبت دولة اليونان والرومان وآبائنا العرب القدماء ، وهذه الحال طبيعية في الأمم : فأما الأمم التى هي في حال البداوة فإن أخلاقها وعقولها قابلة للرفق ، ومتى جاء دورها ولم شعنها ، وسبقت لحرب الأمم العظيمة أهلكتها وحلت محلها ، فدولة الرومان أزالها أولئك المتوحشون من الأمم التى نزلت قديما من آسيا ، فأزالوا تلك الدولة وحلوا محلها ، وذلك في نحو القرن الرابع والخامس بعد الميلاد ، وهكذا دولتنا العربية زالت قديما وحلت محلها أم أخرى كالتار والبلجوقيين وغيرهم ، وأم أوروبا لاحقة بهم قريبا ، ألا ترى الى بلاد مرا كس في أيامنا الحاضرة كيف اتحدت دولتان عظيمتان على قتالهم ، وتعدادهم رجالا ونساء نحو مليون كما يقال ، وهم جهال ، ومع ذلك دوخوا الدولتين معا ، وفرنسا تستعين بأم كثيرة من السنغال وتحارب اخواننا مع أنهم جزء قليل من بلاد مرا كس ، فهذه الأمم الاسلامية التى لم يقتل النعيم والبطنة هممها ، ولم تدنس الشهوات عقولها ، متى جاء وقتها ، وتسلت مقاليد المدنية أزال تلك الأمم من مرا كرها ، فأمر الشرق اليوم أشبه بذلك الرجل النحيف المريض ، وأم الغرب أشبه بذلك الرجل الضخم الجسم الآكل من المواد الكثيرة التغذية ، فهذا هو الاستدراج والاستنزال ثم يكون الهلاك .

أمر الله الصادقين في أعمالهم أن يصبروا لأن دولة الباطل زائلة ، ودولة الحق غالبة ، فهذا هو ذاسبحانه يقول للقاتلين بالحق صبرا صبورا ، لا يكن أحدكم مستجلا فان هؤلاء مستدرجون وفي العذاب واقعون .
فاذا قرأت هذا أيها المسلم فاعلم أن يوم الأمم الشرقية آت وإياك أن تقول : لم لم ينصرنا الله ؟ وأذكرك بصاحب الحوت فإن أم الاسلام الحالية تحتاج الى مدة تستكمل قوتها فيها ، فاعمل لها أجر الفاتحين وان لم يكن على يدك ، وان ركبت متن العجلة بوث بالندامة ، وندمت ندامة الكسبي ، فاعمل لأمتك وانتظر النتيجة ، وأذكرك أيضا بأن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم أخبر بفتح فارس والروم ، وفتح القسطنطينية ،

وفارس لم تفتح في زمانه ، والقسطنطينية فتحت بعده بسبع وتسعين قروناً ، فاصبر لحكم ربك كما صبر ولانك
كصاحب الخوت فتولى هارباً وتدخل كسر بيتك وتقول مالي ولللهين . كلا . ثم كلا فانت سائلك لاسيما بعد
التبيان في هذا التفسير الذي أنا موقن أن حركة الشرق ستنهض في إبان ظهوره وتشتد بقرائه وقراءة
ما يمثله من كتب العلماء في البلاد الإسلامية ، وبهذا تم الكلام على [سورة القلم] والحمد لله رب العالمين
كتب عصر يوم الخميس ١٦ يوليو سنة ١٩٢٥ م (١)

تفسير سورة الحاقة

هي مكية

آياتها ٥٢ — نزلت بعد سورة الملك

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ * كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ * فَأَمَّا
ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ * وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ
سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمَازِيَةً أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُفْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَعَلُّ
تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ * وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ * فَمَاصَوْا رَسُولَ
رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَابِيَةً * إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ * لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ
تَذَكُّرَةً وَتَعْيَبًا أُذُنٌ وَاغِيَةٌ * فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ * وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ
وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً * فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ
وَاهِيَةٌ * وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشُ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ تَمَازِيَةً * يَوْمَئِذٍ
تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ * فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ يَمِينًا فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُ وَ
كِتَابِي * إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَةٍ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ *
قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ
بِشِمَالٍ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِي * وَلَمْ أَذِرْ مَاحِسَابِي * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ *
مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِي * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِي * خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي

(١) [تذكرة] على ضيق المقام من أن نبين أنواع القلم من : الطومار ومختصره ، وثلثه ، وقرن ، وقرن
الغبار ، وقرن الرفاع ، فأخونا الكلام على ذلك كله مع صور حروفه إلى سورة العلق إن شاء الله تعالى .

سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ * وَلَا يَخِضُّ
عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ * وَلَا ضَعَافٌ لِلْمَنِّ غَسِيلِينَ * لَا يَأْكُلُهُ
إِلَّا الْخَاطِئُونَ * فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ *
وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ * تَنْزِيلٌ
مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقْوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ
لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ * وَإِنَّهُ لَتَذَكُّرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ *
وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُّكَذِّبِينَ * وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ * وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ *
فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ *

هذه السورة مقصدان

المقصد الأول : هلاك الأمم في الدنيا من أول السورة إلى قوله « أذن واعية » .
المقصد الثاني في عذاب الآخرة محتوماً بآيات النبوة ودحض مفترياتهم من قوله : « فإذا نفخ في الصور
نفخة واحدة » إلى آخر السورة .

المقصد الأول : هلاك الأمم في الدنيا

التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

(الحاقة) أي القيامة ، الساعة الواجبة الوقوع ، الثابتة المجيء ، التي هي آتية لا ريب فيها ، يقال حق الشيء بحق : أي وجب ، وهذه مبتدأ خبره هذه الجملة (ما الحاقة) أي أي شيء هي ؟ (وما أدراك ما الحاقة) أي أي شيء أعلمك ماهي ؟ فلا علم لك بكنهها ، فلقد بلغت من الشدة والهول أنه لا يبلغها علم المخلوقين (كذبت نود وعاد بالتارعة) أي الحاقة المذكورة التي تفرع قلوب الناس بالخافة والأهوال ، وتفرع الأجرام بالانفطار والانفجار فتكون هاء متفرقة في كل مكان (فأما ما، وأفأهت كوا بالطاغية) وهي الواقعة التي تجاوزت الحد في الشدة ، وذلك بالصيحة أو الرجة ، لأنهم كذبوا بالفارسة (وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر) شديدة الصوت في الهبوب لها صرصر ، أو الباردة (عاتية) جاوزت الحد والمقدار (سخرها عليهم) سطرها عليهم ، هي جملة مستأنفة لبيان فعلها (سبح لبان ومة آتية أيام حسوما) حاسمت حسمت كل خير واستأصلته ، وحسمتهم أي قطعهم بعذاب الاستئصال ثم تدق منهم أحداً ، وهي جمع حاسم ، وهذا من شؤمها ونعسها ، وهي كانت أيام العجوز من صبيحة الأربعاء إلى غروب الأربعاء الآخر ، وسميت عجوزاً لأنها عجوز الشتاء (فترى القوم فيها صرعى) موتى جمع صريع (كانهم أُنْجِزَ نَجْلٌ خاوية) أصول نخل متأكدة الأجواف (فهل ترى لهم من باقية) أي من بقاء ، أو من نفس باقية (وجاء فرعون ومن قبله) ومن

تقدمه (والمؤتفكات) أى المقلبات ، وهى قرى قوم لوط انقلبت بهم (بالخطاثة) أى بالخطأ ، أو بالأفعال ذات الخطأ العظيم (فقصوا رسول ربهم) لوطا (فأخذهم أخذة راية) شديدة زائدة فى الشدة بنسبة زيادتهم فى القبح (إنالما طعنا الماء) أى ارتفع الماء وقت الطوفان ارتفاعا جاوز الحد (حملناكم) فى أى آباءكم (فى الجارية) وهى سفينة نوح عاينه السلام (لنجعلها) أى الفعلة (لكم تذكرة) عبرة (وتعلمها) (أذن واعية) حافظة لما تسمع منتفعة به . انتهى الكلام على المقصد الأول من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

المقصد الثانى : فى عذاب الآخرة واختصاصه بأثبات النبوة

فهو لشرح أحوال القيامة بعد ذكر ما حلّ بالمكذبين بها فى الحياة الدنيا وهلاكهم
فيكون العذاب مذكورا على الترتيب الطبيعى

قال تعالى (فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة) وهى النفخة الأولى (وحملت الأرض والجبال) أى رفعت عن أماكنها (فدكتنا دكة واحدة) أى ضرب بعضها ببعض حتى تندق وترجع كشيء مهيل (فيومئذ) أى حينئذ (وقعت الواقعة) نزلت النازلة ، وهى القيامة ، وهذه الجلة جواب إذا ، وقوله (وانشقت السماء) أى فتحت أبوابا (فهم يومئذ وأمية) مسترخية ساقطة القوة (والملك على أرجائها) على جوانبها ، وهى جمع رجا بالقصر ، وهذا تمثيل لخراب السماء بخراب البنيان فى الأرض وانطلاق أهلها إلى أطرافه وحوله ، فكأن الملائكة وهم سكان السموات لجأوا إلى أطرافها بعد خرابها (ويحمل عرش ربك فوقهم) فوق الملائكة الذين هم على الأرجاء (يومئذ ثمانية) أى ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عددهم ، وهم اليوم أربعة ، وهذا من باب التمثيل لعظمة يوم القيامة بما نشاهد من أحوال المذنب يوم خروجهم على الناس للقضاء العام (يومئذ تعرضون) للحاسبة تشبيها بعرض السلطان العسكر ليتعرف أحوالهم (لا تخفى منكم خافية) سريرة على الله تعالى ، فاذن ليس العرض للاطلاع عليها ، وإنما المراد افشاء الحال والمبالغة فى العدل . ثم أخذ يفصل أحوال العرض فقال : (فأما من أوتى كتابه بينه فيقول هاؤم) أى خذوا كتابي (اقرأوا كتابي) وهاء اسم فعل ، والميم تلحق بها عند مخاطبة جمع المذكور ، وهاء كتابيه لاسكت (إني ظننت أنى ملاق حسابه) أى علمت أنى معائن حسابى (فهو فى عيشة راضية) ذات رضى يرضى بها صاحبها (فى جنة عالية) مرتفعة المسكان لأنها فى السماء والدرجات والأبنية ، والأشجار (قطوفها) ثمارها (دانية) قريبة من صريرها ، يناها القاعد والقائم والمنكبي ، ويقال لهم (كلوا واشربوا) أكل وشربا (ههنا بما أسلفتم) بما قدتم من الأعمال الصالحة (فى الأيام الخالية) الماضية من أيام الدنيا (وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول) حين يرى سوء العاقبة ، وقبح عمله ، وشناعة مرآة (ياليتنى لم أوت كتابيه ، ولم أدر ما حسابه ، ياليتنى) ياليت الموتة التى منها (كانت القاضية) القاطعة لأمرى فلم أبعث بعدها (ما أغنى عني ماليه) أى لم ينفعنى ما جمعت فى الدنيا ، والمفعول محذوف لم يغن عني شيئا (هلك عني سلطانيه) تساطى على الناس ، وبقيت فقيرا ذليلا ، أوخلت عني حجتى التى كنت أحتج بها فى الدنيا ، فيقول الله لحزنة جهنم (خذوه فقلوه) أى اجعوا يديه إلى عنقه (ثم الجحيم صلوه) أى لاتدخلوه إلا النار العظمى (ثم فى سلسلة ذرعها) طوط (سبعون ذراعا) أى طويلة (فأسلكوه) فأدخلوه فيها بحيث تنف على جسده فلا يقدر على التحرك ، ثم ذكر سببه فقال (إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ، ولا يحض على طعام المسكين) أى ولا يبحث غيره على بذل طعامه ، وعن بعضهم أنه كان يأمر أهله بتكثير المارقة لأجل المساكين ويقول :

خلعنا نصف السلسلة بالإيمان أو لا نخلع النصف الثاني بلا طعام (فليس له اليوم ههنا حيم) أى ليس له فى الآخرة قريب ينفعه ويشفع له (ولا طعام إلا من غسيلين) أى صديد (لا يأكله إلا الخطاطون) أصحاب الخطايا ، يقال : خطئ الرجل إذا تعد الخطأ المضاد للصواب (فلا أقسم) أى فأقسم ولفظ لا زائد (بما تبصرون وما لا تبصرون) أى بالمشاهدات والتي لم تشهد ، وهذا جمع كل شئ من الخلق ، وشمل الخالق (إنه) أى القرآن (لقول رسول) يباغىه عن الله (كريم) على الله ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم ، أوجبريل (وما هو بقول شاعر) كما يزعم بعضكم (قليل ما تؤمنون) أى تصدقون تصديقاً قليلاً لما ظاهراً لكم صدقه (ولا يقول كاهن) كما يدعى آخرون منكم (قليل ما تذكرون) أى تذكرون تذكر أفعالاً ، هو (تنزيل من رب العالمين) نزل على إسمان جبريل عليه السلام (ولو نقول علينا) أى اختلق علينا محمد (بعض الأقاويل لأخذت منه باليمين) أى بينه (ثم لقطعنا منه الوتين) وهو عرق يخرج من القلب ويتصل بالرأس ، وهو تصوير لاهلاكه بأفطع ما يفعله الملوك بمن يغضبون عليه ، وهو أن يأخذ المقاتل بينه ويضرب عنقه بالسيف ، والمقصود أنه لو كذب علينا وتكف الأخبار عنا لقتلناه إما قتلاً معنوياً وذلك بأن نهى له من يبطل حجته ، ويميت دعوته ، أو نسلبه قوة البيان فلا يتكلم بهذا الكذب ، وإما أن نمنعه ، إذن ليس المقصد من الأخذ باليمين وقطع الوتين إلا النتيجة ، وهى ألا ينشر الأكلاذيب ، ولا جرم أن كل متكف يقول غير معبر عما امتلأ به فؤاده ، ودعاه صدره ، وجاشت به نفسه ، بحيث يفيض القول منه فيضا ، لا تفتد دعوته ، ولا يسمع قوله ، وهذه عادة الله فى خلقه ، فليس لأمري متكف من نصيب فى قبول السامعين ، إن المؤمنين والخطباء والشعراء إذا لم يكن تأليفهم وخطابهم جائدة بها صدورهم فإن قولهم صرف ورض والسماع يله ، وقارى كتبهم لا يميل إليها ، ولا يخامر قلبه حبها ، وفى التنزيل : « وما أنا من المتكفين » . ثم قل تعالى (فما منكم من أحد) أيها الناس (عنه) عن قتل محمد صلى الله عليه وسلم (حاجزين) ولقد أؤسد فى معنى الجاعة فذلك وصف بالجمع (وإنه) أى القرآن (لذكر) لعلظة (للتقين) إذ غيرهم لا ينفع به (وإننا لنعلم أن منكم مكذبين) فنجازيهم عليه (وإنه لحسرة على الكافرين) حينما يرون ثواب المؤمنين (وإنه لحق اليقين) الذى لا ريب فيه (فسيح باسم ربك العظيم) أى نزه ربك العظيم واشكره إذ جعلك أهلاً لأن يوحى إليك ، أو فسيح الله بذكر اسمه العظيم تنزيهاً له عن الرضى بالتقوى ، وشكراً على ما أوحى إليك . انتهى التفسير اللفظي للمقصد الثانى من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

إيضاح

اعلم أن هذه السورة سبقت لتبيان هلاك الأمم الجاهلة فى الدنيا بخرابها ، وفى الآخرة بعذابها ، إن التكذيب بالقيامة الذى بنى عليه هذان العذابان : عذاب الدنيا بخراب الدول ، وعذاب الآخرة بهم إنما هو عنوان على الجاهلة ، فليس خراب تلك الأمم التكذيب بالقيامة وحده ، فقد جاء فيها أن منهم من طغى المكيد والميزان ، ومنهم من ظلم عباد الله ، ومنهم من استغنى بالذكران عن النسوان ، فأذن يرجع الأمر إلى الجاهلة ، فيصير الأمر هكذا : أن الأمم التى أقفلت عقول أبنائها وغفل رجالها تعذب عذابين : عذاباً فى الدنيا ، وعذاباً فى الآخرة ، وإذا ضرب الله مثلاً بعباد ونمود وقوم لوط وقوم فرعون ففى هذه الأمم كل أمة غافلة جاهلة العواقب لم تنق ما يطرأ عليها من حوادث الدهر بأعداد المعقات وإحياء أرضها وعقول أبنائها . ومعرفة ما فى هذه الدنيا من الصناعات والعلوم ، وإذا كان جهل الآخرة التى هى غائبة عنا لم نشاهدها بوجوب عذاب جهنم ، فكيف إذن يكون جهل ما أحاط بالناس من مدمرات ومهلكات ! إنه أحرى أن يوجب الحزى فى الدارين .

وايضاحه أن الآخرة أعد فيها عذاب جهنم ونعيم الجنة ، فمن جهل هذه العاقبة دخل جهنم ، ومعلوم أن الآخرة لم يعرفها الناس بعقولهم وإنما عرفوها بكلام أنبيائهم الصادقين المؤيدين بالمعجزات ، فيقال : إذا كانت هذه حال الناس إذا كذبوا أمرا سمعوا لم يروه فكيف تكون حالهم إذا رأوا الأمم حوّلهم قد استخرجت منافع مافي الأرض وملكت منها حظا وافرا الغرضين : إحياء أمتهم وإماتة غيرهم ، فإذا هم أهملوا ما هو يقين عندهم ، وهو أن تلك الأمم المحيطة بهم ستقتضي عليهم ورع بما أفنتهم كما أفنى أهل أوروبا سكان أمريكا الأصليين ، واستأصل الانجليز سكان استراليا الأصليين إلا قليلا فإن العذاب يلحقهم في الدنيا بانقضاء تلك الأمم عليهم : « ونعذاب الآخرة أشد وأبقى » .

ثم إن الإيمان بالآخرة لا نتيجة له إلا العلم والعدل في الدنيا ، فأى أمة غفلت عما أحاط بها من العلوم في الأمم حوّلها ، وما دبرت من كيد ودلّ للضعفاء فإن هذه السورة تبين لها مقدار عذابها في الدنيا بذلها وفي الآخرة بجهنم .

ولقد قلنا في هذا التفسير إن المسلم إذا ظن أن العذاب خاص بأمة معلومة في الدنيا والآخرة ، وأنه هو مبرأ منه فليعلم أن هذا غرور اختلقه الوعاظ الكاذبون (انظر هذا الموضوع في سورة آل عمران عند قوله تعالى : « وغرّهم في دينهم ما كانوا يفترون » وفي سورة البقرة عند مسألة الشفاعة) .

إن سنة الله واحدة ، ولن يغيرها لأجل مسلم جاهل مغتر في دينه . وأما تعال المسلم بأنه خير مخلد في جهنم فليعلم أن العذاب الطويل لا يطاق ، فالمسلم الذي يتكلم بهذا الاتكال يحرم من السعادة في الدنيا والآخرة ، فإذا ذكر الله ثمود وعادا ، أوقوم لوط الخ فلنا أن نذكر أيضا خراب الأندلس التي كان يعمرها المسلمون واحتلال مصر بالانجليز وبلاد شمال أفريقيا يقوم من الفرنجة ، وهكذا العراق والشام ، أليس هذا هو عذاب الدنيا ، ألم يعذب الله المسلمين بجهلهم ، نعم هم يؤمنون بالآخرة ولكنهم لا يؤمنون بالمحسوسات المشاهدة من ظلم الأمم فلا يحافظون على بلادهم ، ولا يكون ذلك إلا بالعلوم والمعارف .

أيها المسلمون : ألسنم تعدون أن هذا عذاب من الله : أليس هذا تهجيلا للعذاب ؟ ألسنم ترون أنكم بنومكم عن معرفة جلال الله وعظمته ، والاطلاع على آثاره وحكمته ، وبحرمانكم من خيرات ما خلق من البدائع والمنافع قد استحققت غضبه ، لأنكم غير شاكرين ، ولا متقربين نعمه .

يا عجب ! أليظن المسلم أن الله يكتب منه بأن يقول أمنت ؟ عجباً لأمة الاسلام ! ألم يقرأ المسلمون : « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون » أى وهم لا يختبرون ، فهذا هو الاختبار ، اختبر عقولكم فوجدها غافلة ، أحاط بها جلال الله في صنائعه ، أحاط بها أمة الفرنجة بالمدافع والطائرات ، أحاطت بها صناعات الفرنجة تدخل بلادهم فبشرونها بأعلى الأثمان فتفتقر البلاد فتصير ملكا للأجانب ، أليس هذا من الاختبار ؟ ألم يقل الله على لسان قوم ؟ « وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير » ، ألم يقل الله : « إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » ، ألم يذكر الله آيات كثيرة في الخضر على النظر والتفكير في السموات والأرض ، غفل المسلمون فلبستهم قضاوا ، ماتوا فليتبهوا ، فقد جاء دورهم ، أفلم يقرأ المسلمون : « خذوه فعلاوه ثم الجحيم صلوه ثم في سلسلة ذرعتها سبعون ذراعا فاسلكوه إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين » .

أفلا يعلم المسلم أن الاقتصاد على جمع المال وإدخاره يحبس العقل فيظلم ، وتصبح النفس مكبله به لا انفكاك لها منه ، فيعيش للمال ويموت متحسرا عليه : أى يعيش ولا نظره في حكمة ، ولا علم ، ولا دولة ، ولا منفعة أمة من الأمم ، لأنه حوّل وجهته إلى غرض واحد هو المال ، ومن كان هذا شأنه تكون جميع أحواله راجعة

لهذا المعنى ، حتى ان كثيرا من عشاقه يعتبرهم الوسواس في آخر حياتهم ، فيقول أحدهم : أين سفنى البحرية أين قصورى ؟ أين كنوزى ؟ أين أموالى ؟ .

وإذا مات لا يفارقه هذا الوسواس ، ولا يغادره هذا الخناس ، فهو كالقيد بالسلاسل لا خلاص له منها ولا انفكاك ، فلاه في الدنيا علم ولا عمل ، ولا فكر في أمته ، وفي الآخرة يكون على منهجه لا يتعداه ، فلا يزال في الجهالة العمياء .

حكاية

وهل لك أن أذكرك بحكاية البخيل الذى مات فى [مدينة أنجوليم] وقد رمز له بحرف (ل) وكان يسكن الطابق السفلى من داره ، فلما مرض لم يعلم أحد بمرضه ، فدخل رجال الحكومة فوجدوه شاخص البصر إلى كعبة من النقود الذهبية الملقاة على مائدة أمامه ، فأخرجوه إلى المستشفى فمات ، حينئذ أحضره الجامعة الروحية بعد موته : أى أحضروا روحه ، فقال : إني لم أمت ، وكان ذلك فى ٢٥ أيلول سنة ١٨٩٣ ثم أحضره مرة أخرى ، فقال : ماذا تريدون منى ؟ الأخرى بكم أن تردوا لى مالى الذى سرقوه منى ، ما أقبح عملهم ، أنا الذى تعبت مدة حياتى كلها لأجمع قليلا من النقود أستعين بها عند الحاجة فسرقوها منى وأحلوا لى الدمار ، أرجوكم سادى أن تأخذوا بنصرتى وتسعوا فى رد ما أخذوه منى ، فلما قيل له أنت ميت ولا تحتاج لئال ؟ قال : ماهذه الوقاحة ، هل الجنهات فى نظركم لاتعد شيئا ، فلما ذكره بأن الأجدربه أن يبحث عن كنزه فى السماء ، ردت الروح قائلة : ما أبلدكم دلونى على المسكان الذى فيه كنزى ، وكفوا عن المزاح ، فقيل له ألا تعرف الله ؟ قال : ليس لى هذا الشرف ، أريد استرجاع مالى . انتهى المقصود منه نقلا عن كتابى [الأرواح] الذى ألفته فى هذا الصدد .

أقلبس هذا المعنى الذى كان المال هو المقصود الأكبر من حياته قد كبله المال فصار فى سلسلته التى كبلته فلا يقدر على الانفصال عنها ، أليس قوله تعالى : « فى سلسلة ذرعاها سبعون ذراعا فليسلكوه إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين » يشير لنحو هذه الحكاية وأمثالها مما فى ذلك الكتاب وغيره مما امتلأت به بلاد أوروبا كلها ، و بلاد الاسلام محرومة منه .

ألم يجعل الله وضعه فى السلسلة الطويلة للجهل واللبخل بالمال ، ولا جرم أن العقل متى كان غير منطابق من قيود الجهالة لا يعقل المنافع ، فهذا القرنسى الذى لم ير بعد الموت أمامه إلا المال هو موضوع فى سلسلة معنوية أعظم من السلسلة الحسية ألف مرة ، إن المحبوس فى سجن قد يعيش فيه عشرات السنين ، ولكن الذى اعتراه عشق فلك قلبه وهو مطلق السراح فى الفضاء قد يموت ، وقد يقتل نفسه ، وكثير من العشاق ماتوا لأنهم حبست عقولهم فى صورة واحدة لم ينالوها ، وربما جعلت لهم سلاسل حسية وان كانت أقل فى التعذيب من السلاسل المعنوية .

إن عذاب الدنيا والآخرة بالسلاسل والضيق والاستعباد يكون بسببين : جهل بالعقول ، وتقصير فى الأعمال وللأول الإشارة بقوله : « لا يؤمن بالله العتاج » والثانى بقوله : « ولا يحض على طعام المسكين » . إن للعقول لذة غير لذة المال : لذة العلم ، لذة ارتقاء الأمة ، لذة النصر على أعداء الأمة ، لذة ارتقاء الصناعات الخ فما المال إلا آلة من آلات الحياة .

إيضاح السلسلة والعذاب بها

اعلم أن الناس عليهم واجبان : واجب للعائى ، وواجب للمخلوق ، فالواجب عليهم لخالقهم أن يعرفوه

(وبعبارة أخرى) أن يدرسوا نظامه في العوالم كلها على قدر الامكان ، فالعالم بالدراسة ، والجاهل بالعبادة ، لأنها تذكر بهذا العالم في أثناء القراءة ، فإن قراءة الصلوات فيها الكلام على العالين وعلى الربوبية الخ وفيها قراءة القرآن ، ولا جرم أن القرآن مذكر لهذا العالم .

وأما الواجب للمخلوق ، فهو المساعدة العامة والعاشرة الجميلة ، فلن يصل الله إلا بعلم وصولا حقيقيا ، أو بعبادة وصولا ثانويا إيجابيا ، ولن تكون روحه في الحياة وبعد الممات فرحة بالأرواح الأخرى إلا إذا كانت تجلب لهم المساعدة ، وتتخذ مودتهم شعارا لها ، فليعاشر الناس بالأخلاق الحسنة إن لم يمكن بالمساعدة العامة لهم ، فاذن الانسان يحظى بربه ويخلق به بالعلم والعبادة أولا ، وبالفع العام والأخلاق ثانيا ، فإذا لم يوفق إلى إحداها أو كليهما فإنه في سلسلة لا تراها العيون ، ولكنها سلسلة أشد ضنكا وتعذبا من سلسلة الحديد ، وهالك المثل المتقدم في حكاية البخيل الذي أحضر روحه : ألم يقل بعد موته أنه محتاج لئله ، ألم يقل أنه لا يعرف الله وليس له هذا الشرف ، أليس هذا مصداق : « ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا » ، أليس هذا الرجل أعمى في الدنيا وأعمى في الآخرة ، ألم يكن محروما من معرفة الله كما أقر بنفسه ، ومن معرفة الحياة بعد الموت ، ومن محبة الناس ، لأنه بخيل ، أليس هذا هو قوله تعالى : « إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ، ولا يحض على طعام المسكين » فضلا عن أنه هو نفسه ملزم أن يواسيهم بماله ، ولعلك تقول : أين السلسلة التي في رقبته ؟ أقول لك : السلسلة هنا سلسلتان : حسية ومعنوية ، أما السلسلة المعنوية فانظر :

(١) أليس ترى أن رجلا ارتكبته الديون وهو شهير بالثروة فقام الدائنون عليه فحجزوا ما يملك ، فبعض أمثال هذا يتحرون ؟ لماذا ؟ لأنهم يفتضحون ، فم يتخلص هذا ؟ يتخلص من سلسلة معنوية أشد من السلسلة الحسية .

(٢) ألم يقل الله تعالى على لسان مريم : « يا ليتني كنت نسيا منسيا » فاذن مريم تمت الموت وفضلته على الحياة ، لماذا ؟ لأنها وضعت في سلسلة العار التي لا تنفصل عنها .

(٣) العاشق الذي تقدم ذكره يقدم على الموت تخلصا من السلسلة العشقية التي ربطته ربطا محكما ، وكمن من امريء اعتاد شرب الدخان ، أو الخمر : أو عادات أخر ، فلازمته فلم تنفك عنه حتى أوردته الهلاك ، وأمثلة هذا المقام كثيرة .

وأما السلسلة الحسية ، فهالك وصفها : انظر : أليس ترى أن القمر يدور حول الأرض ، وهي تدور حول الشمس ، وهي دائرة حول كوكب آخر ، وهكذا سلسلة متناسقة إلى أن تصل إلى الشمس الكبرى في المجرة فهذه شمس متصلات متناسقات كأنها أوراق شجرة كل جماعة في غصن ، فهذه السلسلة المركبة من شمس وسبارات وأرضين باعتبار العلم الحديث متتالية متجاذبة متماسكة تماسك حلقة السلسلة ، والانسان من بني آدم حتى على الأرض فوق حلقة من حلقات تلك السلسلة المحيطة بها كما وصفها المفسرون ، إذ قالوا : إن السلسلة تلتف عليه وتحيط به ، فالانسان فوق هذه الأرض العائش فوق حلقة من السلسلة مربوط بها وهي محكمة عليه لا يقدر على فراق الأرض لأنه مجذوب إليها ، وهو مع ذلك جاهل بما يحيط به ، لم يخترق حجب الكون حتى يعرف قاعه ، فذلك أحكم عليه رباط السلسلة ، لأنه لا يدرس إلا ما يستجوعه ، وأما هذا الوجود فإنه عنه في غفلة ، فلا يمكنه أن ينفذ منه ويخترق حجبه ليدرك بعقله ما وراءه ، وكيف ينفذ فيعرف إلا بسلطان العلم ، وقوة النفس ، وأجنحة الهمة ، فهو من هذه الوجهة محبوس لا قدرة له على معرفة ما وراء شهوانه ، فإذا مات بقي محبوسا كما هو ، لأنه لم يتأود من الأرض معارف تعينه على السير هناك ، ألا ترى قول البخيل

المتقدم : [أنا لبس لي شرف معرفة الله] ، فكأنَّ الإنسان في الدنيا مربوط في سلسلة عظيمة جدًا طولها آلاف الآلاف من الأميال ، بل لا يعرف مقياسها ، فاذن الواجب أمران : أولهما العلم بنظام العالم ولو بطريق العبادة ، وإليه الإشارة بقوله : « إنه كان لا يؤمن بالله العظيم » فهذه العظمة لا تعرف إلا بدراسة هذا العالم لكل امرئ بمقدار طاقته ، وثانيهما العمل ، وإليه الإشارة بقوله : « ولا يحض على طعام المسكين » ثم إن السلسلة حسية ، وهي هذا الوجود إذا كان مجهولاً للإنسان فإنه يموت وهو محبوس الفكر عن الصعود إلى ما وراء الحس . وسلسلة معنوية ، وهي ما ركز في النفوس من التعاني بأمر مخصوص ، فليس للإنسان من دواء إلا بالعلم بالفضائل الخلقية . انتهى تفسير سورة الحاقة يوم الجمعة ١٧ يوليو سنة ١٩٢٥ م

تفسير سورة المعارج

هي مكة

آياتها ٤٤ — نزلت بعد سورة الحاقة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ * مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ *
تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ * فَأَصْبَحَ صَبْرًا
جَبِيلًا * إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَتَرَاهُ قَرِيبًا * يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَلْهِلِ * وَتَكُونُ
الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ * وَلَا يَسْأَلُ حِمِيمٌ حَمِيمًا * يُصْعَقُونَ فِي الْيَوْمِ الْمَجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ
يَوْمَئِذٍ بِنَبِيٍّ * وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ * وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ
يُنْحِيهِ * كَلَّا إِنَّهَا لَأُظْلَى * زُرَّاعَةُ الشُّوَى * تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى * وَجَمَعَ فَأَوْعَى *
إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا
الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ * وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلْسَّائِلِ
وَالْمَحْرُومِ * وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّتَ الَّذِينَ * وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ *
إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ
مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَلَهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنْ أَتَعْنَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ *
وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ
عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَّمُونَ * قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ

مُهْطِعِينَ * عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ * أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ * كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْمَلُونَ * فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ * عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * فَذَرْنَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ * يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَانَتْهُمْ إِلَى نُصُوبٍ يُوفِضُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ *

هذه السورة ثلاثة مقاصد

وهي أشبه بالتي قبلها ، فلذلك ذكرت عقبها ، فهي مبدوءة بوصف يوم القيامة وأهواله ، والنار وعذابها وذلك من أول السورة إلى قوله : « وجمع فأدعى » وهذا هو مقصدها الأول . ومقصدها الثاني في صفات الانسان التي أوجبت له الجحيم ، وغواثره الفطرية التي أوجبتها ، وكيف يجتهد لازالة ذلك النقص حتى يرتقى إلى المعارج ، ويخرج من عالم المادة ، وذلك من قوله « إن الانسان خلق هالوعا » إلى قوله : « أولئك في جنات مكرمون » . ثم المقصد الثالث فيه وعيد لأولئك الكافرين من قوله : « فال الذين كفروا قبلك مهطعين ، عن اليمين وعن الشمال عزين » إلى آخر السورة .

المقصد الأول : وصف يوم القيامة وأهواله والنار وعذابها

التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

(سأل سائل بعذاب واقع . للكافرين) كان أهل مكة يقول بعضهم لبعض : إن محمداً يخوفنا بالعذاب فن أهل هذا العذاب ؟ ولمن هو ؟ وكان النضر بن الحرث خاصة ونحوه يقولون : « اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء » فزلت هذه الآيات . يقول الله : دعا داع ، وطلب طالب ، كالنضر بن الحرث عذابا واقعا كائننا للكافرين ، فالباء في بعذاب زائدة ، ويجوز أن يكون كقولك : دعا بكذا اذا استدعاه وطلبه فلان تكون الباء زائدة ، وقوله (ليس له دافع) أى ان العذاب واقع بهم لاجحالة فلماذا يطالبونه استهزاء ؟ فسيكون في الدنيا بالقتل ، وفي الآخرة بالنار ، وقد قتل النضر بن الحرث يوم بدر ، فليس لهذا القتل ولا لعذاب الآخرة دافع يدفعه عنهم (من الله) أى برده من جهته ، وكيف برده وقد تعلق به إرادته ؟ (ذى المعارج) أى ذى المصاعد ، وهي الدرجات التي يصعد فيها الكلام الطيب ، وذى النعم التي تكون درجات متفاضلة ، وهي تصل إلى الخلق على مراتب مختلفة ، وذى المراتب التي جعلت حقوق الملائكة فيها ، وذى السموات التي هي درجات بعضها فوق بعض .

يقول الله : إن العذاب الذي طلبه السائلون واستبطئوه واقع بهم لاجحالة ، وهو لم يفعل ذلك إلا لحكمة لأنه لم يفعل ذلك إلا ليضعهم في دركاتهم التي أهالوا لها باستعدادهم ، وهو قد نظم العوالم كلها ، فجعل منها مصاعد ، ومنها دركات ، فليكن هؤلاء في الدرجات ، وليكن المؤمنون والملائكة في الدرجات طبقا عن طبق بنظام تام . ثم أخذ يستأنف مينا ارتفاع تلك الدرجات فقال (تخرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره

خمسین ألف سنة) قسم الملائكة لأنهم في عالم الأرواح : أى العالم المبرأ عن المادّة ، وأنعمهم بالروح أى أرواح المؤمنين ، فانها تذهب صاعدة عند الموت إلى مصاعد صعودها الملائكة ، يقتفون آثارهم على مقدار مراتبهم ، فيصعد هذان الصنفان إلى عرش الله ومهبط أمره في يوم طويل مقداره خمسون ألف سنة من سنى الدنيا ، وليس ذكر الخمسين ألف سنة ، ولا ذكر ألف سنة لتحديد المدة ، بل المقصود أن مقام القدس الإلهي بعيد المدى عن مقام العباد ، فهم في المادّة مغموسون ، وفي أحوالها مغمورون ، وهناك عوالم أظف وأظف ، درجات بعضها فوق بعض ، وكل عالم أظف مما قبله ، وكل مالط العالم العلوى كان أشدّ قربا وهكذا « وأن إلى ربك المنتهى » .

وتلك الدرجات المتتاليات لا حصر لها ، فبعد عن هذا كله بخمسين ألف سنة ، والا فهمى بعيدة المدى ، والملائكة درجات بعضها فوق بعض ، وهكذا أرواح المؤمنين وكل منهم يعرج إلى الدرجات العلى .

كانه عز وجل يقول : ان هؤلاء اذا عذبهم فأنا لم أخلق الخلق إلا ليعبدون فيرتفوا إلى درجات القرب ويصعدوا إلى مراتب الكمال ، فأنا ذوالعارج ، فان عذبت أهل مكة فذلك لنقص في فطرهم والا فأساس خلق العالم الارتقاء ، أنا ذوالعارج ولست ذا الدرجات ، فالأرواح لا تزال ترتقى إلى طبقا عن طبق في الحياة وبعد الموت في البرزخ ، وبعد دخول الجنة هم يتسابقون في الاستعلاء طبقا عن طبق ، فالارتقاء دائم إلى أبد الأبد ، ودهر الداهرين ، ولا ارتقاء إلا بالكشف العلمى ، وعلى لانهاية له ، وحكمته لا غاية لها ، فعبادى اغلصون لا يزالون يزدادون منى اقترابا بالعلم في الدنيا وفي البرزخ وفي الجنة ، بل أعلى درجات الجنة أن يكون الناس في عالم روحى خالص من المادّة للاستقرار في العلم ، ولامعنى للقرب منى إلا بالعلم ، وشبهه العلماء بقرب الأستاذ من التلميذ ، فكلما ازداد علما ازداد من أستاذه قربا ، فهذا هو العروج الذى نعرجه الأرواح ، وهذا العروج لانهاية له ، فليعد بخمسين ألف سنة ، أوفليعد بأضعافها ، فالمقصد المراتب العظيمة ، قال تعالى : اذا سألو استجبال العذاب على سبيل الاستهزاء والتكذيب بالوحى وكان هذا يورث ضجرك يا محمد (فاصبر صبرا جليا) بلا جزع ولا شكوى ، لأنه أمر محقق وكل آت قريب (إنهم يرونه) أى العذاب (بعيدا) من الامكان ، أو من الوقوع (ونراء قريبا) أى من الامكان ، أو من الوقوع ، وقوله (يوم تكون السماء كالمهل) أى يقع يوم تكون السماء كدردي الزيت ، أو كالفضة المذابة في تلقونها (وتكون الجبال كالعهن) أى كالصوف المصبوغ ألوانا ، فان الجبال حمر وبيض وسود ، فإذا بست وفرقت وطارت في الجوّ أشبهت العهن المنفوش اذا طيرته الريح (ولا يسأل جيم جيم) أى لا يسأل قريب قريبه لشغله بشأن نفسه ، ولا يكلمه لشدة هول ذلك اليوم حال كونهم (يبصرونهم) أى يرى الأحباء الأبناء ، والحميم فعيل يقع موقع الجمع ، فلا يسأل جيم جيم حال كونهم يشاهدونهم ، وذلك لتشاغلهم فلم يتمكنوا من التساؤل . ثم استأنف فقال : (يودّ المحرم) يعنى المشرك (لو يفتدى من عذاب يومئذ) أى من عذاب يوم القيامة (ببنيه وصاحبته وأخيه) أى فلم يقف الأمر عند التشاغل عن سؤال الحميم جيمه ، بل أصبح الوضع مقلوبا ، فبعد أن كان في الدنيا يدافع عنه وربما تقدّم للقتل محافظة على جيمه والدافع عنه صار في الآخرة يودّ أن يفتدى به ، والصاحبة : الزوجة (وفصيلته) عشيرته (التى تؤويه) تضمه ويأوى إليها (ومن فى الأرض جميعا ثم نجيجه) أى يمتحن لوملك هؤلاء جميعا ثم يفتدى بهم جميعا (كلا) لا ينجيه من عذاب الله شئ (انها) الضمير بهم يفسره (لظى) اللهب الخالص ، أو علم النار (نزاعة للشوى) أى لأطراف الانسان كاليدنين والرجلين ، أو جمع شواة ، وهى جلدة الرأس تنزعها نزعا فتفرقها ثم تعود إلى ما كانت عليه (تدعوا) تجذب وتجذب (من أدبر) عن الحق (وتولى) عن الطاعة (وجمع فأوعى) وجمع المال فجعله في وعاء وكثره حرصا وتأميلا . وإلى هنا تم الكلام على المقصد الأول من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

المقصد الثاني في غرار الانسان

ووجوب تهذيبها حتى تنجو من هذه النار التي هي في عالم المادة

وكيف يكون الصعود من الأخلاق الموجبة للنار إلى تلك المعارج ؟

قال تعالى (إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا) الهلوع فسر الله بما بعده كما قاله ابن عباس (إذا مسه الشرّ جزوعًا ، وإذا مسه الخير منوعًا) فهو قليل الصبر ، شديد الحرص ، فهو عند مسّ المكروه سريع الجزع ، وعند مسّ الخير سريع المنع والبخل ، فهذا طبع الانسان وقد أمر بمخالفته ، فهو كفحل وقع في وحل كلما تخلص من ورطة وقع في أخرى ، فان تخلص من ضرّ أثم الخير وبالعكس ، فكأنما الخير والشرّ سلسلة طويلة قد أحاطت به فلا ينجو منها ، فهو لا يخلو من خير أو شرّ مدة حياته يتعاقبان عليه أمد الحياة وهو موثق بهما ويتعاقبهما ، فعند الشرّ يجزع ، وعند الخير يمنع ، فهذان الخلقان يتعاقبان عليه ، فكيف الخلاص من تلك السلاسل إذن ؟ لذلك أعقبه بالخلاص منها ، وذلك بعشر خصال :

- (١) الصلاة .
- (٢) المداومة عليها في أوقاتها المعلومة .
- (٣) والحفاظة عليها إذا ابتدئوا فيها بحضور القلب ، والخشوع ، ومراعاة السنن والفرائض .
- (٤) التصديق بيوم الجزاء فيحاسب المرء نفسه في الدنيا .
- (٥) أن يعطوا من أموالهم الزكوات والصدقات لمن يسأل ولمن لا يسأل وهو فقير فيظنه الناس غنيا .
- (٦) أن يراعوا العهود والمواثيق .
- (٧) أن يؤدّوا الأمانات إلى أهلها .
- (٨) وأن يحفظوا فروجهم عن الحرام .
- (٩) أن يؤدّوا الشهادات على وجهها .
- (١٠) أن يكونوا مع هذا كله خائفين من عذاب ربهم .

فهذه الصفات العشرة هي التي تخلص الانسان من تلك السلاسل التي قيدته بها طبائعه وغرائزه التي فطر عليها وعاداته ، وكلها راجعة إلى شيئين : الحرص والجزع ، وقد لخصتها لك بترتيب غير مآراه في الآية لبسه عليك تعقله ، بقوله تعالى (إِلَّا الْمُصَلِّينَ) استثناء للمصلين الموصوفين بما ذكر من نوع الانسان كله كما أقسم بالعصر : أي الدهر كله : « إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَسِرٌ » إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ، فالانسان اذا ترك شأنه في خسر ، ولكنه اذا علم وهذب فهو خارج من الخسر ، وقوله (الذين هم على صلاتهم دائمون) لا يشغلهم شاغل عن أدائها في أوقاتها (والذين في أموالهم حق معلوم للسائل) الذي يسأل (والمحروم) وهو من لا يسأل فيحسب غنيا فيحرم (والذين يستقون بيوم الدين) تصديقًا موجبًا للثمرة المطلوبة ، وهي أن يسخر نفسه وماله في طاعة الله ومنفعة الناس ، وقوله (والذين هم من عذاب ربهم مشفقون) خائفون على أنفسهم (إن عذاب ربهم غير مأمون) أي لا يذنب لأحد أن يأمن عذاب الله ، ولو أدّى هذه الطاعات كلها وزاد عليها (والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين) فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون) ارجع إلى تفسير هذه الآيات في سورة المؤمنين (والذين هم بشهاداتهم قانعون) يقومون بها عند الحكم ولا يكتُمونها ولا يغيرونها ، والشهادة أمانة ، خصت بالذكر بعد الأمانات لعظم شأنها ، فيها

تكون الأحكام (والذين هم على صلاتهم يحافظون) فيقدّمون الوضوء، وستر العورة، والملكان الطاهر، ويقصدون الجماعة أولاً، ثم يفرغون القلب عن الوسواس والاتفات إلى ما سوى الله تعالى مع الخشوع والخوف واتحام الأركان على ما ينبغي، وأن لا يكون مراثياً، ولا قاصدا السعة (أولئك في جنات مكرمون) فيها بثواب الله تعالى، وإلى هنا تمّ الكلام على المقصد الثاني من السورة، والحمد لله رب العالمين.

المقصد الثالث في وعيد الكافرين

قال تعالى (فإل الذين كفروا قبلك) حولك (مهطعين) مسرعين مقابين إليك، مآذى أذنانهم، ومدعى النظر إليك، متطعين نحوك، ذلك أن جماعة من الكفار كانوا يجتمعون حول النبي صلى الله عليه وآله وسلم يستمعون كلامه، ويسرّزون به، ويكذبونه، يقول الله تعالى: ما لهم ينظرون إليك وهم جالسون عندك ولا يبتفعون بما يسمعون منك (عن اليمين وعن الشمال عزين) عن يمينك وعن شمالك فرقا شتى حقا حقا، والعززون جمع عزة، وأصلها العزوة: أي الجماعة، يقال عزاه بعزوه إذا نسبته، فكل فرقة تعزى: أي تنسب إلى غير ما تعزى إليه الأخرى (أيطمع كل امرئ أن يدخل جنة نعيم) بلا إيمان، وهذا رد لقولهم: لو صح ما يقوله محمد لكنا أكثر حظا منهم في الآخرة كما نحن كذلك في الدنيا (كلا) ردع لهم عن هذا الطمع (إنا خلقناهم مما يعلمون) أي كيف يطعمون أن يدخلوا عالم القدس والأرواح الطاهرة ونحن خلقناهم من النطفة التي قرّتها في الأرحام، ونقلهم حالا بعد حال ولا مناسبة بين هذه الحياة وبين المال القدسية، فلا بد من الاستكمال بالعلم والعمل (فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون على أن نبدل خيرا منهم) أي نهلكهم ونأتي بخلق أفضل منهم، أو نعطي محمدا صلى الله عليه وآله وسلم بدلکم من هو خير منكم، وقد تمّ ذلك بالأنصار بعد نكوص أهل مكة وكفرهم به (وما نحن بمسوقين) بمغلوبين إن أردنا أن نفعل ذلك (فذرهم يخوضوا) في باطلهم (ويلعبوا) في دنياهم (حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون) ثم فسر ذلك فقال (يوم يخرجون من الأجداث) القبور (سراعا) مسرعين جمع سريع (كانهم إلى نصب يوفضون) النصب كل شيء منصوب كالعلم والراية ونحوها، وكل منصوب للعبادة، ويوفضون يسرعون، والنصب كجنب وكقلب وكقطب قراءات (خاشعة أبصارهم زهقهم ذلة) أي ذليلة أبصارهم يشاهم هوان (ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون) يعني يوم القيامة الذي كانوا يوعدون به في الدنيا انتهى التفسير اللفظي للمقصد الثالث من السورة، والحمد لله رب العالمين.

لطائف هذه السورة

- (١) في قوله تعالى: «من الله ذى المعارج».
- (٢) وفي قوله تعالى: «إن الإنسان خلق هلوعا. إذا مسه الشر جزوعا. وإذا مسه الخير منوعا».
- (٣) وفي قوله تعالى: «إنا خلقناهم مما يعلمون» الخ.

اللطيفة الأولى في قوله تعالى: من الله ذى المعارج

لما وصلت إلى هذا المقام حضر صديق لي من أهل راسم. قال: هل لك أن أقصّ عليك حكاية عن آبائنا الأولين تناسب هذا المقام؟ فقلت: إني لذلك وامق:

حكاية الشعبي وملك الروم

قال : قرأت في كتب الأولين أن عبد الملك بن مروان أرسل وفدا إلى ملك الروم وفيه الشعبي العالم المشهور ، فلما دخل الشعبي على ملك الروم قال له : إنكم تقولون ان الله لا أول له ، ولا شيء قبله ، وتقولون ان الانسان يأكل في الجنة ويشرب ولا يبول ولا يتغوط ، وتقولون ان نعيم الجنة لا ينفد ، فهل تقدرون ان تضرب لي أمثالا عما نشاهده في الدنيا حتى يقرب ذلك من عقول الناس ؟ .

فقال الشعبي : إن الأعداد أولها الواحد ، وما الأعداد إلا الواحد المكرر ، فبتكرار الواحد حصلت الأعداد أزواجها وأفرادها ولوعدمت الأعداد لم يعدم الواحد ، ولكن لوعدم الواحد عدت الأعداد أزواجها وأفرادها ، والواحد المذكور لاشيء قبله ، فهذا مثل يكفي لأمرين : ان الله لاشيء قبله ، وأن الموجودات منه استمدت ، وأيضا تفنى الموجودات وهو الباقي .

أما كون الانسان يأكل في الجنة ويشرب ولا يبول ولا يتغوط ، فهذا له نظير في الدنيا ، وهو الجنين في بطن أمه ، فانه لو بال وتغوط لأهلكها ، لذلك جعل الله دم الأم ممتدا إليه من عرق متصل بالسرة يمتد في سائر أطراف الجسم ، فلا يبول ولا غائط له ، والأم تقوم مقامه في هذا السبيل .

وأما كون نعيم الجنة لا ينفد فأتينا بنشاهد السراج في الدنيا يقبس الناس منه ألف سراج ولا ينطفئ : هكذا نعيم الجنة .

فلما سمع ذلك ملك الروم ، قال : عجبت للمسلمين كيف جهلوا فلم يجعلوك ملوكا عليهم ، فلما رجع إلى عبد الملك وجد الخبر عنده بخامه ، فقال له عبد الملك : أقدرى لم قال لك : كيف جهل المسلمون فلم يجعلوك ملوكا عليهم ؟ قال لا ، قل حسدنى عليك أراد أن أقذلك ، ولكن خاب فأله ، وأعطاه مالا جزيلا .

فلما أتم صاحبى هذه الحكاية قال لى : هكذا هنا يذكر الله المعارج ، ومعارج الآخرة ودرجاتها لم نرها فهل تذكر لنا معارج في الدنيا حتى نقبس عليها معارج الآخرة ، وتكون معارج الدنيا مضرب أمثال لمعارج الآخرة ؟ فقلت : لأضرب لك سبعة أمثال :

[المثال الأول] السلسلة الحيوانية والنباتية والمعدنية المذكورة في هذا التفسير في مواضع كثيرة ، وقد وضحت في (سورة آل عمران) فارجع إليها ، فانك ترى هذه المعارج في الدنيا واضحة ظاهرة ، لأنك ترى المعادن درجات بعضها فوق بعض ، أدناها مما يلي التراب كالجص والزاج ، وأعلى مما يلي النبات كالذهب والياقوت ، فكم فيها من معارج ومساعد ، ثم النبات تبتدىء فيه من خضراء الدمن ، وهي تطلع أول النهار وتبس في وقت الظهيرة ، فهذا أدنى النبات ، ويرتقى درجات إلى مرتبة النخل الذى أشبه الحيوان بأنه اذا قطعت رأسه مات ، وبأن ذكره منفصل عن أنثاه ، وهكذا يكون الحيوان ، فأدناه ما كان أدنى إلى النبات مثل قوقعة تنبت على الصخور فيها دودة على شاطئ البحر ، وليس لها من عالم الحيوان إلا الحس والحركة البسيطة ، ولكنها مغروسة في مكانها لا تبرحه ، وهى قد شاركت النبات في الحس كما هو موضح في محله ، وهكذا يرتقى الحيوان طبقا إلى أن يصل إلى القرد فالإنسان كما عرفت مما تقدم في هذا التفسير فهذه سلسلة أدناها الجص والزاج ، وأعلىها الانسان ، ومن ذا يحصى مساعد هذه السلسلة وقد عدت الحيوان بالملايين والنبات بمئات الآلاف ، لا يحصى أحد ولا يقدر على ذلك ، فهذا مثل لمساعد الآخرة أعطاه الله للعلماء في الدنيا ، أما الجهال فأعطاهم مثلا يناسبهم ، جعل الناس درجات غنيا وفقيرا ليظهر لهم بعض تلك الدرجات بمقدار طاقتهم .

[المثال الثانى] الجنين في بطن أمه ينتقل في أطوار كثيرة ، فحين الحلقة الأولى لا يختلف عن كل حيوان

ثم يأخذ في التمايز والارتقاء طبقة عن طبق ، فيكون أولا دودة صغيرة مغزونة فسمكة ، ثم يكون كالدبابات ، وهكذا إلى أن يشابه القرد ، ثم يكون إنسانا ، كل هذه السلسلة ينتقل فيها وهو في بطن أمه ، وقد تقدم هذا في [سورة آل عمران] .

[المثال الثالث] : درجات الإنسان بعد الوضع : يخرج من بطن أمه وهو لا يعقل ولا يسمع ولا يبصر ثم يسمع ويبصر ويعقل تدريجيا حتى يصل إلى إنسان يفيض النور والعلم على أهل الأرض كلها باختراع أو علم أو نبوة ، أو بضع قطعة منها كملكة بالملك والسلطنة أو نحو ذلك ، فهذه مصاعد للإنسان لا يحصى عددها في الحياة الدنيا ، فهذه أمثلة ثلاثة تريك المعارج في الدنيا .

[المثال الرابع] ارتقاء أحوال الناس في مثال فن صعلوك لا يملك قوته إلى متركيب يملك القنابر المقنطرة فيكون عنده مائة مليون .

[المثال الخامس : الجمال] من الناس من هو مثلي القبح ، ومنهم من هو مضرب الأمثال في الجمال ، وبينهما درجات لا تحصى .

[المثال السادس] الموجودات الحادثة منها ماهي في غاية اللطف ، وهي الأثير الذي فيه تكونت هذه المادة ، ومنها ماهي في غاية الكثافة كالحديد والذهب والحجارة الصلبة ، وبينهما درجات لا تحصى .

[المثال السابع] درجات الإنسان الأخلاقية : انه يرتقي مهما كان نوعه ، كافرا أو مؤمنا ، فاسقا أو صالحا في اخلاقه ارتقاء طبيعيا ، فبعد أن كان في مبدأ حياته لا يفكر إلا في شهوته الخاصة وهو طفل ، فلما كبر وتزوج وولد أصبح مشغولا بأبنائه وبناته يسعى عليهم ويربهم ، ويغني ثروتهم ، فهذا هو الترقى في الخلق طبيعة ، لأنه انتقل من تكميل نفسه الجسمي إلى تكميل غيره الذي نسيجه إبتا أو بنتا ، وهذا ارتقاء في معارج السكال جاء للناس والحيوان بالطبيعة ، ولكن الله لا يكتفي منا بذلك يريد أن يعلمنا الاستقلال فيكون ارتقاؤنا بإرادتنا وعلمنا وإلّا بقينا في عالم الكون والفساد الأعشى ، والارتقاء بآرادتنا هو ما ينجي في اللطيفة الثانية ان شاء الله تعالى .

واعلم ان هذه الدرجات والمعارج الخسية إنما هي سياحات للنفس ومناظر ، بدراستها ترتقي في معارجها المعنوية إلى ربها الذي هو حاضر عندها ليس غائبا ، فبالبحث والعلم تنتقل النفس من حال إلى حال في درجات نفسية حتى إذا وصلت لمنتهى لطافتها عاينت ربها ، وليس ذلك بمعارج حسية بل معنوية وما ذكرناه أمثلة لها ومدارس .

اللطيفة الثانية

في قوله تعالى : ان الانسان خلق هلوعا ، إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا . إن هذه السورة كالوصحة للسورة قبلها ، فان قوله تعالى هناك « انه كان لا يؤمن بالله العظيم ، ولا يحض على طعام المسكين » قد وضع هنا كما فسرناه هناك ، وقلنا ما يفيد إن الإيمان يرجع للقوة العلمية ، والحض على طعام المسكين يرجع للقوة العملية ، وأن السلسلة هناك مبدؤها وصفها ويوصف به الإنسان من الجهالة بهذه العوالم فلا يدرس نظام هذه الشموش والكواكب المنتظمة التي أخذ بعضها ببعض وتجاوزت كأنها سلسلة واحدة ، فمن لم يفك نفسه من هذه العوالم إما بدراستها أو بعبادة صادقة بحضور قلب حتى ينخلص لربها ، ومن لم يفك عقل نفسه مما أحيط به من اللذات والشهوات والعادات فانه لاجالة مقرون محبوس في سلسلة تلك الشهوات لا يفك عنها ، فإذامات وجد نفسه على ماهي شلية ، فالعوالم مجهولة ، وقد أحيط بها والشهوات لازالت تجاذبه ، فيخلص نفسه منها بالاحسان ، ولينقرب إلى أبناء جنسه ،

وليتفهم حتى يصعدوا معا الى معارج السكّال ، هذا غوى ما ذكر في السورة التي قبل هذه .
فلما مبدأ السلسلة المذكورة هناك التي أوضحها هنا فانه بعد أن ذكر أن النار تنزع جلود الرموس
أو الأيدي والأرجل ذكر أن السبب في ذلك أن الانسان محبوس على جبلات غليظة فلا صبر على بلوى
ولا شكر على نعمة والشكر على النعمة يكون بأن يصرفها الى مصارفها التي خلقت لها ، وبين المخرج
من ذلك بأمرين : أحدهما نفسى ، وثانيهما عملى ، أما النفسى فهو العلم المرموز له بالتصديق بيوم الدين ،
والخوف من الله فهذان رمز بهما الى كمال النفس بالعلم والحكمة ، وأما العملى فهو الصلاة والمداومة عليها
والمحافظة ، والزكاة ، ومراعاة العهود والمواثيق ، وأداء الشهادات على وجهها ، وحفظ اقربى .
وملخص ما تقدم : ذكر سبب وقوع الانسان فى السلاسل بعد الموت ، وذكر الخلاص من تلك السلاسل
ولا خلاص منها فى الآخرة إلا اذا خلاص منها فى الدنيا ، فالعلم خلاص من الجهل الذى يجعل الانسان حاراً
فى هذا الوجود ، وأدنى العلم أن يواظب على العبادة حتى يرسخ فى ذهنه أن وراء هذا العالم حالاً آخرى
بالتكرار ، ودفع الصدقات وأداء الأمانات وما أشبه مما تقدم كل ذلك تخلص للنفس من الخزع ومن
الحرص ، فاعطاء المال مكروه عند النفس ، وأداء الشهادة فيه إغصاب للشهود عليه وجلب عداوة ، وأداء
الأمانة قطع للطمع فيها ، وكل هذا تقطيع لتلك السلسلة التي قيدتنا فى هذه المادة ، وإلى هنا تم الكلام
على اللطيفة الثانية ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى : إنا خلقناهم مما يعلمون

أى وقد علموا أنهم خلقوا من نقطة قدرة ، فأنى لهم الوصول إلى جناب القدس ما لم يقطعوا مغاوزه ،
ويصعدوا مصاعده ، وأنى لهم بالمصاعد والمراتب إلا بالعلم والعمل ، ولونأمل الناس درجات الحياة التي هم فيها
وأن الطفل إذ كان فى أول حله دودة فما مضى أربعون سنة حتى كان ذلك الطفل يدبر أمة يخامها مثلاً
لأدركوا درجات الآخرة وعظمتها ، فإن الروح إذ تخرج من الجسد ترتقى طباقاً عن طبق ، فإذا كانت المادة
التي نحن فيها ارتقت فيها الروح الانسانية من نفس كنفس الدودة إلى نفس حكيم أوتى أوملك فبالك به
وقد خرج من الجسم ، فلنسمه هناك دودة فى عالم الأرواح ، وهذه الدودة ترتقى هناك ارتقاءً يفوق الوصف
إذا كانت معها المعدات التي بها تسير هناك ، وإذا كان الارتقاء فى الأرض محدوداً لأننا فى عالم المادة فالارتقاء
هناك لا حد له يعرف ، ولا آخر يوصف ، لأنه هناك ارتقاء بالعلم ، وعلم الله لا حد له ، فالانسان لا يزال يرتقى
فيه إلى ما يشاى من الزمن .

هذا هو تفسير هذه الآيات والله يهتدى من يشاء إلى صراط مستقيم ، فيعتدون العدة بالعلم والعمل للسفر
هناك ، والاقعدت بهم الحال ، وأوثقتهم السلاسل فى العذاب ، وبقوا فى عالم المادة الكشيف .

فلما سمع صاحبي هذا البيان ، قال : الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، إن هذا البيان يتلج الصدر
وأنى لا أزال أقول أنه ضرب أمثال ، وضرب الأمثال ليس برهانا ، وإنما هو تقريب للأذهان ، وبإيات
الناس يعرفون ذلك ، وأن الأرواح فعلاً ترتقى فى ذلك العالم ، ولكن هذا الكلام الذى قلته أنت أشبه
بكلام الصوفية الذين يقولونه بوجدانهم ، والوجدان ليس بدليل ، بل كثيراً ما يكون الوجدان كاذباً فلا دليل
عليه ، وغاية الأمر أنك حليته بالعلوم الطبيعية وبعلم الانسان والنبات والحيوان والمعدن ، لأنك لكثرة
دراسك وتأليفك فى هذه العلوم أصبحت فيك ملكة تضرب بها الأمثال ، فهل من مثال أقرب من هذا ؟
قلت نعم : أمص عليك مختصر ما قلته روح [غالى] المشهور حين أحضرته الجمعية النفسية ، فهذه تنم
منها رائحة تعرفك هذه الدرجات الأخرى ، وقد ذكرتها فيما مضى فى هذا التفسير نقلتها من كتابى

[الأرواح] ، فلندكر ملخص مايناسب هنا ، فذكر :

- (١) كيف تكونت مادة العالم المشاهد ؟ وذكر التجاذب والنظام ودوران الكواكب .
 (٢) بين أن المجرة هي الأصل ، ومنها اشتقت شمس ، ومن الشمس شمس إلى شمسنا فأرضنا فقمونا فأقمار زحل وحلقاته النيرة ، والنجوم ذوات الأذنان التي هي أشبه بالمفتشين على الشمس .
 (٣) ثم ذكر أن هناك ألوفاً من المجرات منتشرة في أقاصي العوالم ، كل مجرة فيها ملايين من الشمس ، وأبان أن شمسنا لها أخوات يدرن معها حول شمس أخرى ، وهذه الأخرى لها أخوات يدرن جميعاً حول شمس أخرى ، وهكذا إلى أن تنقطع الفكر ، فهي كدواليب آلة واحدة . ثم قال : إن المجرات أشبه بالجزائر في بحر الأثير العظيم .

(٤) ووصف الفضاء والزمان فقال أنه لا حد له ، وكذب الفلاسفة الذين قالوا ان هناك حداً له ، وسخر منهم ، وقال : اتنا اذا جعنا ألوفاً في ألوف من القرون والأحقاب لا يكون هذا العدد إلا نقطة زهيدة في الأبدية ، وإذا مضى من حياتنا الروحية عدد من القرون يوازي قدراً يكتب على طول خط الاستواء فإنه ينقضى هذا العدد الجسيم والنفس كأنها اليوم ولدت ، وإذا أضفنا إلى العدد المذكور سلسلة أخرى من الأعداد ممتدة من الأرض إلى الشمس أو أكثر فإنه ينقضى هذا العدد الذي لا يدرك قياسه من القرون والنفس لا تتقدم يوماً واحداً إلى الأبدية فما أهمية عمر الانسان على الأرض .

(٥) وذكر أن الملايين من الشمس المخلوقة في المجرة القريبة حولها سيارات كسيارات شمسنا ، وأن منها شمساً كنجم [سريوس] الذي يربو حجمه وجماله ألوفاً من المرات على حجم شمسنا ونورها ، وقال : ان هناك نجوماً توائم تختلف وظائفها عن وظائف شمسنا ، ففي السيارات المحيطة بتلك الشمس المئنة لاتعد السنين والأيام كما في أرضنا ، وأحوال الحياة فيها يتعذر على الناس تصورها ، ومن الشمس مالا سيارات لها ، إنما أحوال سكانها خير الأحوال .

(٦) وقال أيضاً : إن البعد الشاسع بيننا وبين الأجرام القاصية لا يقطعها النور إلا في ألوف الألوف من السنين ، وتصل أشعته لكم اليوم مع أنها ربما انبعثت قبل خلق الأرض بأمد مديد . ثم قال : ففي هذه كافي غيرها تظهر حقارة الانسان وعدم دنياء ، إنما سيأتي يوم فيه يبقى ذكر الأرض في ذهننا كظلمة بخارية بعد أن نكون قد تدرجنا أجيالاً لا عدد لها إلى العوالم العليا ، وحين تتأمل في المستقبل عند بلوغنا هذا الحد لا نرى نصب أعيننا إلا تعاقباً سرمدياً من العوالم وأبدية ثابتة لا انقضاء لها . انتهى خلاصة كلام روح غالي .

فلما سمع ذلك صاحبي قال : يا عجبا ! أهذا كلام الأرواح ؟ لقد أصبحنا في زمان ظهرت فيه المجائب المدهشة ، فقد كان الناس يتمنون لو يسمعون كلام الأموات ويسألونهم ماذا حصل لهم ، فإن صبح هذا كان من أعجب الأعاجيب وأبدع الحكم ، وكان أقرب إلى تفسير لفظ المعارج ، فهذه أظهور لنا أن العوالم درجات وأن منها مالا نعلم بجماله كمالاً وبهاء ، وأن أرضنا الحقيرة في أثناء ارتقائنا بعد الدهور والعصور لاتكون إلا ظلاً في أذهاننا ، وأن هناك حياة أرقى من حياتنا بما لا ينأى كما كبرت شمسنا عن أرضنا ، وكما كبرت شمس أخرى وفاقت شمسنا حجماً وبهاء آلافاً مؤلفة ، فالجل والعظم لا حد له ولا حصر في العوالم طبقة فوق طبقة ، وجمال النظام في الحياة كذلك لا حد له ولا نهاية ، فظهرت المعارج في هذا المقام ظهوراً واضحاً . ثم قال صاحبي : ولعل هذه المعارج تكون لنا في حال البرزخ ، أما يوم القيامة فانا نحشر ونجتمع في صعيد واحد ، وهناك يكون أمر آخر .

ثم قال : وبالب روح [غاليلى] روح مسلم حتى كنا نصدق ما جاءت به ؟ فقلت له : الأرواح بعد الموت تطلع على مقدار استعدادها ، والعلم مشترك بين الأمم ، وإذا كنا نشك فى قول الأرواح انفرنجية فهذه نعمة على أمة الاسلام ليزدادوا علما بالبحث فى العوالم ويحضروا الأرواح ، وتكون لهم جمعيات علمية ، واذن يبحثون بأنفسهم ، ويبحثون فى أعمالهم ، ويعتبرون على ما لم يعرفه الفرنجة ، والله هو الولي الجيد ، وهذا تم تفسير [سورة المعارج] وذلك فى يوم السبت ١٨ يونيو سنة ١٩٢٥ م والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة نوح

هى مكة

آياتها ٢٨ — نزلت بعد سورة النحل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا * يَفْقَرِ لَكُمْ مِنْ دُونِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنْ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَأُصْرُوا وَأُسْتَكْبَرُوا * أَسْتَكْبَرًا * ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا * فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا * مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا * أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا * وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بَسَاطًا * لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا خِطَابًا * قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا * وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا * وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاطًا وَلَا يَفُوتَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا * وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا * مِمَّا

خَطِيئَتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا * وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْنِي يَظْلِمُونَ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا * رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَرِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا *

مقاصد هذه السورة اثنان

المقصد الأول : دعوة نوح عليه السلام لقومه ، وذلك من أول السورة إلى قوله « سبلا فجاجا » .
المقصد الثاني : كفرهم وعقابهم في الدنيا والآخرة ، وذلك من قوله تعالى : « قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزد ماله وولده إلا خسارا » إلى آخر السورة .
أما الدعوة ففيها ثلاثة مباحث [المبحث الأول] ترك الذنوب الإيجابية والذنوب السلبية بالاستغفار منها ، فالذنوب الإيجابية كتعاطي الخمر والزنا والقتل ، والذنوب السلبية كترك العلوم والصناعات ، فإذا تركوا هذه الذنوب كلها أو جلها أكثر الله لهم المال والبنين والبنات ، وذلك من أول السورة إلى قوله : « وقد خلقكم أطوارا » .

[المبحث الثاني] : النظر في خلق السموات والأرض والأنوار ، وذلك قوله تعالى : « ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا ، جعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا » .
[المبحث الثالث] : النظر في خلق الإنسان ، وأنه يخلق من الأرض كما يخلق النبات ، والنظر في أن الأرض مسخرة لنا نتصرف فيها كما نشاء تصرفا نتحكم به من كل ما نحتاج إليه في حياتنا ، وذلك من قوله تعالى : « والله أنبتكم من الأرض نباتا » إلى قوله « سبلا فجاجا » .

المقصد الأول : دعوة نوح لقومه

التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

(إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك) أي بالإنذار (من قبل أن يأتيهم عذاب أليم) الطوفان وعذاب الآخرة (قال يا قوم إني لكم نذير مبين) أي أنذركم وأبين لكم (أن اعبدوا الله) وحده (واتقوه) بأن تفعلوا الطاعات وتركوا المعاصي (وأطيعوا) فمما أمركم به من العبادة والتقوى (يغفر لكم من ذنوبكم) أي بعض ذنوبكم ، وهي السابقة (ويؤخركم إلى أجل مسمى) أي إلى منتهى آجالكم فلا يعاقبكم (إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لوكنتم تعلمون) .

اعلم أن الأنبياء جاءوا لإصلاح الأحوال في الدنيا والآخرة ، فهم يريدون نظام الحياة ونظام المديت . ولما كان نظام الحياة يكون أرق وأجل فكلما استقامت الأمم وانتظم شملها كانت الأموال فيها أوفر إذا تم نظامها ، والأعمار تكون أطول والصحة أتم والأنهار أجل ، والبساتين أكثر على مقتضى النظام الموضوع فعلى مقدار النظام يكون الهناء والسعادة في الحياة ، فمن فرط في صحته بأن أكثر من الماء كل الضارة أنترك

الغذاء حتى هلك ، ومن قات مزارعهم وتجاراتهم قتل - غذاؤهم قصرت أعمارهم على تلك النسبة ، ولذلك كما كثر الجذب في الأمم قل التناسل ، وكما عم الخصب كثر النسل ، ولا ريب أن طول الأعمار وقصرها يرجع لأسباب أكثرها مجهولة للناس ، وأما ما لا يعلم فهو عند الله تعالى لا يعلمه عليه ، فهنا ترتب على التقوى والطاعة أن تغفر ذنوبهم ، وأن تؤخر آجالهم ، ومتى جاءت الآجال التي حددها الله لهم لا تؤخر لحظة ، فالتقوى والطاعة يؤثران هذا الأثر ، وهو طهارة الأرواح وبقاء الأشباح إلى أمد محدود ، لأن التقوى منها حفظ الأمن والمصارعة إلى اكتساب الفضائل واستنتاج مافي باطن الأرض من المنافع ، فالتقوى ترك الذنوب ، وذلك يجعل في البلاد أمنا واسعا ، والطاعة تشمل جلب المنافع المادية ، لأن الشكر على النعمة لا يتم إلا بمعرفتها وتقبلها من المنعم وصرفها في وجوهها ، ومتى فعلوا ذلك طالت الأعمار إلى الأمد الذي يناسبها بعد انصراف الموانع بالتقوى والطاعات ، ومما مثل العمر إلا كمثل جواد يجري في ميدان واسع له نهاية ، وهناك قصة مراكوزة في آخره علامة على نهاية الميدان ، والناس يتسابقون في ذلك الميدان إلى تلك القصة المفروسة ، فمنهم من يصادفه أثناء الجري فوق جواده الذي عبرنا به عن العمر من يقتله فيختر صريحا في أول الميدان ، ومنهم من يقتل بعد ذلك وهكذا ، ولا يصل إلى آخر الميدان إلا من لم يصادفه في الطريق قاتل له ، أولم يسقط فيموت ، هكذا الناس في الحياة يسرون إلى النهايات ، فإذا منعتهم الموانع هلكوا ، وهذا مشاهد في الدنيا كالأمة المصرية فانها في القرن الماضي لم يكن فيها إلا مليونان أو يزيدون ، فلما جاء الخديوي [محمد علي] نظم قناطرها وجسورها ، فبانت مائة سنة ونيف حتى وصلت إلى ١٤ مليونا ، كل ذلك لحسن النظام وإقامة الترع والجسور والأمن في البلاد ، فإذا جعل الله غفران الذنوب وطول الأعمار مرتين على الطاعة فهو من هذا القبيل ، لأن الطاعة فيها الأمن في البلاد وعدم ترك المواهب الجسمية والنفسية والأرضية ، وإياك أن تسمع ما يحتاج به العامة والجهلاء وصغار العلماء إن العمر محدد ، فتخصيص العمر منهم جهل فاضح ، لأن التحديد ليس خاصا بالعمر بل التحديد يشمل كل شيء في الوجود ، بل حركات الكواكب والأقمار والشموس وأنفاس الانسان فسكانها مقدرة ، فتخصيص التقدير بالعمر غلط وخطأ فاحش ، فإني قد ذكر كل شيء فكيف يخصه الجهلاء بالأعمار والله قدرها وقدر غيرها وكتبها عنده لم نطلع عليها وأمرنا بالسعي والطلب ، فمن سعى كما أمره الله فان هذا السعي وافق علم الله القديم فانه ينال نتائج هذا السعي فيطول عمره إلى الأمد المحدد وتزول الموانع فلا يموت كما قدره في لوحه المحفوظ ، ومماثل النصائح التي جاءت من الديانات والحكماء والعلماء في الأمم إلا كمثل طلع النخل وطلع الأشجار الأخرى ، فانه لا يتناولها الاحصاء ، والذي يصادف الزهرات الاناث جزء قليل جدا ، وهذا الجزء القليل به ظهرت الثمرات وسعدت الحياة ، هكذا نصائح العلماء والحكماء والديانات كثيرة جدا ، ولكن الذي يعمل بها قليل ، ومن عمل بها وافق عمله ما كتب له ، والذي لم يعمل عرف بعد ذلك أنه قد كتب له أنه لا يعمل لخرم الثمرات والمنافع التي ترتب على ذلك ، فأما من اتسكل على القضاء ولم يعمل فذلك هو الخاسر الجاهل الذي حكم عليه بالمذلة والهوان .

ثم قال تعالى (قال) نوح (رب اني دعوت قومي) إلى الايمان (لیسلا ونهارا) أي دائما (فلم يزدتهم دعائي إلا فرارا) عن الايمان والطاعة (واني كلما دعوتهم) إلى الايمان والطاعة (لتغفر لهم) بسببه (جعلوا أصابعهم في آذانهم) أي سدوا مسامعهم (واستغشوا ثيابهم) تغطوا بها لئلا يروني كراهة النظر إلى من فرط كراهة دعوتي (وأصرروا) على كفرهم (واستكبروا استكبارا) عن اتباعي (ثم اني دعوتهم جهارا . ثم اني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا) فكنت أعلن بأعلى صوتي ، ثم كترت لهم الدعاء معلنا ، فكنت أسر الرجل بعد الرجل أدعوه سرا أعبادك وتوحيدك ، ثم بين ما كان يقوله فقال

(فقلت استغفروا ربكم) والاستغفار من الذنوب الإيجابية كالقتل ، والسلبية كترك العلوم اللازمة لنظام المجموع التي هي فرض كفاية تكتفي بها الأمة عن غيرها فتعرفون ما يناسب زمانكم من العلوم والصناعات فان تركتم ذلك أثمت الأمة كلها ، وان استغفرتكم يغفر لكم ربكم (إنه كان غفارا) للتائبين (يرسل السماء عليكم مدرارا) يرسل المطر عليكم متتابعا ، واطلاق السماء على المطر جاء في قول الشاعر :

إذا نزل السماء بأرض قوم بدخفوا حيثما نزل السماء

وقول الآخر :

إذا نزل السماء بأرض قوم بدرعيناه وان كانوا غضابا

(وبمددكم بأموال وبنين) أى يكثر أموالكم وأولادكم (ويجعل لكم جنات) بسائقين (ويجعل لكم أنهارا) وهذه هي نعم الدنيا التي يعيل لها الانسان ، ومن هذا شرع الاستغفار في الاستسقاء ، ويقال : إن الحسن شكا رجل إليه الجذب ، فقال له : استغفر الله . وشكا آخر الفقر وقلة النسل . وآخر قلة ريع أرضه ، فأمر الجميع بالاستغفار ، فسئل عن ذلك ؟ فتلا هذه الآية ، وأعلت تكرار الاستغفار كما يحجوا الذنوب يستعد المستغفر من ذكر الله فيه قوة تعينه على جلب المصالح ودفع المضار ، والله أعلم ، وقد بينت لك الحقيقة آتفا . وبعد أن أذهبهم الأدب العملى من حيث تهذيب النفوس ، ومكارم الأخلاق ، وتحلية النفس بالأعمال الانسانية والدينية التي أشار إليها الاستغفار شرع يؤدبهم الأدب العلمى بدراسة علم التشريع والنفس والعوالم العلوية والسفلية فقال : (مالكم لا ترجون لله وقارا) أى مالكم لا تخافون الله عظمة ، أولاتعتقدون له عظمة فتخافوا عصيانه ، فالرجاء إما بمعنى الخوف مجازا ، وإما بمعنى الاعتقاد للنسبة بينهما ، وكيف لا تخافون عظمته (وقد خلقكم أطوارا) أى تارات وكرات ، فكنتم نطفة في الأرحام ، ثم صرتم علقا بعد أيام ، ثم مضى تحير الأفهام ، والمضغ قد غبرت إلى عظام ، وعلى العظام الماحم « أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين » .

واعلم أن الأطوار المذكورة قد وضحت في سور كثيرة كسورة آل عمران وسورة المؤمنين وغيرها في التفسير ، وهذا هو النظر في الأنفس ، ثم أتبعه بالنظر في العالم العلوى فأسفل فقال : (ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا . وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا) فهمى كالسراج تزيل ظلمة الليل . واعلم أن كون السموات سبعا طباقا بعضها فوق بعض ، والكلام على القمر والشمس قد مرر الكلام عليه في سور كثيرة من هذا التفسير ، ففي سورة الفاتحة الاجال ، وفي البقرة وآل عمران تفصيل ، وهكذا سور كثيرة فارجع إليها (والله أنبتكم من الأرض) انبثنا فنبتم (نباتا) وذلك أنكم تمون كما ينمو النبات وتلدون وتموتون ورووسكم المرفوعة إلى أعلى كراس النبات المرفوعة في الطين ، وأيديكم وأرجلكم كأفرع النبات ، والمطلع على عروقكم وتشعبها وجرى الدم فيها وانتشارها في أطراف الجسم يراها مشابة لما في الشجرة جذورا وفردعا وورقا ، فأنتم نبات مقلوب ، وأنتم في أخلاقكم وأحوالكم مشابهون للنبات في اختلافه ، فكذلك الحلو والمر ، والطيب والخبيث ، واستعدادكم مختلف كاستعداد النبات ، فلكل امرئ خاصة كما لكل نوع من النبات خاصة ، والعلوم والصناعات مقسمات على قواكم المختلفة كما قسمت المنافع من اللباس والطعام والفاكهة والدواء على أنواع النبات ، وكما أن كل نوع من النبات اذا فقد ذهب خاصته على الناس وتمطلت المنافع الناتجة منه ، هكذا لكل جيل ولكل أمة ولكل فرد خاصة ومنفعة ، فإذا عطلت فقد فانت المنفعة على الأمة وعلى النوع الانسانى ، وكان نقص الأمة وذاتها على مقدار ضياع تلك المنفعة ، فإذا لم يكن في الأرض نبات القطن ، أولم يكن فيها نبات الحنطة مثلا اضطر الناس ألا يلبسوا إلا من جلود الأنعام وأصوافها ورجعوا إلى العهد الأول فتأخروا في مدينتهم وتقدمهم ، وأيضارجعوا إلى أكل نبات الأرض والذرة وذهبت

منافع القمح عليهم ، وحصل في الناس بعض الضيق بفقد القمح ، هكذا النوع الانساني اذا عطلت طاقته منه فزقم بما وجب عليها وما يؤهلها له استعدادها نقص النوع الانساني أو الأمة المقصرة وضعف على مقدار ذلك النقص [مثال ذلك] الأمة الاسلامية اليوم : انها عطلت نصف مجموعها ، وهن النساء ، فلم يعلمن العلم ، وقد علموا أن الناس كلهم يعلمون بناتهم ، وهكذا عطلوا الصناعات فلم يقوموا بها : أي ان الرجال الذين خلقوا على استعداد أتم بفطرتهم في المسلمين لصناعة البارود مثلا ونسج الأقمشة وصهر المعادن قد عطلوا عن عملهم ، لأنهم لم يروه ولم يعرض عليهم ، لذلك أصبح نقص الأمة على مقدار النقص المذكور كما يتأخر النوع الانساني بفقد القطن والحنطة ، فهذا معنى قوله : « والله أنبتكم من الأرض نباتا » فقد جمع هذه المعاني ، ولقد أجمع علمائنا رحمهم الله : ان العلوم والصناعات فرض كفاية ، ومعنى هذا أن الأمة كلها تعاقب على التهاون بها وعدم إبرازها للوجود كعقاب النوع الانساني بفقد القطن والقمح ، ثم يوم القيامة يؤخر المجموع الاسلامي عند الله بقدر تأخره عن تلك الصناعات ، والمسلمون اليوم آثمون باجتماع علمائنا ، والإثم ظهر له أثر في الدنيا بتسلط الفرنجة علينا ، وسيظهر أثره يوم القيامة على هذه النسبة ، وإذا قال المسلم لا أنا مسلم فلنقل له إنما أنت مغرور : « وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون » ارجع إلى هذا المعنى في سورة [آل عمران] .

وأنت أيها الذكي القارئ لهذا التفسير فلتكن من القائمين بأمر من حولك من الأمة لأنك عرفت الحقيقة ، وإياك أن تقصر والا كان إثمك أشد من الذين لا يعلمون ، وهذا أمر سيم ويعلو أمر هذه الأمة علوا عظيما . فقم واصدع بالأمر واجهر بما عرفت ، وثق بأن الأمر سيكون وسترتقي هذه الأم الاسلامية . هذا هو المستفاد من قوله تعالى (والله أنبتكم من الأرض نباتا . ثم يعيدكم فيها) مقبورين كما يعيد النبات (ويخرجكم إخراجا) بالحشر ، ثم أخذ يشرح الزعم التي أعدها للانسان في الأرض من سائر وجوه المنافع ، وانها مهياة للانسان طاعة له مسخرة كتسخير البساط للرجل يتقرب عليه كما يشاء إشارة إلى ما قدمنا من أن عليه أن يظهر مواهبه ، ولا ظهور للوهاب في القوى الانسانية إلا بالتسلط على الأرض وخيراتها فقل (والله جعل لكم الأرض بساطا) تتقلبون فيها بخلاف النبات فإنه خاضع لما هو فيه قانع بما حوله من غذاء وهو مكثف به ، أما أنتم فليسكن كذلك ، بل جعلت الأرض لكم (لتسلكوا منها سبلا فجاجا) واسعة جمع فجج : أي لتتخذوا منها سبلا فجاجا ، وإنما اقتصر على اتخاذ السبل لأنه أظهر أنواع اتخاذ ، والا فالأرض جعلت لنا لمنافع لا تحصى ولا يزال الناس يجتثون في استخراجها اليوم وبعد اليوم .

وهذه الآيات أرتنا أن نوحا عليه السلام بأمر قومه بعلوم الأنفس وعلوم الآفاق من المعدن والنبات والحيوان والانسان والسموات والشموس والأقمار ، وجميع منافع الأرض .

واملك تقول : لماذا تذكر هذا القول عند كل مناسبة ؟ أقول : لست أنا الذي قلت وإنما الله هو الذي قال ، فاملك تقول الله ذكر الاجال فما هذا التفصيل ؟ أقول لك : لماذا يؤلف آباؤنا الأولون علماء برمتهم على آيات الميراث ، لماذا يؤلف آباؤنا كتباً مستقلة في الوقف مع أنه لم يرد إلا في الحديث ؟ لماذا يجعلون للطهارة كتابا يسمونه [كتاب الطهارة] وإنما ذلك لأجل آيات محدودات ، ولماذا يقولون [كتاب الحج] مع أن الحج ليس له إلا آيات محدودات ، فلماذا نجيز تأليف كتب ملأت الشرق والغرب ، ومذاهب متشعبة في علم الفقه المبني على مائة وخمسين آية ولا تجيز أن أكتب صفحات معدودات على ما يبلغ ٧٥٠ آية في القرآن ؟ اللهم إن أمتنا الاسلامية غفلت غفلة عظيمة ، ونامت نوما عميقا ، اللهم إني قد عملت جهدي وأديت الأمانة إلى أهلها ، وأنت أعنتني على تأليف الكتاب ، وأنت الذي نشرته ، فلك الحمد ، وإني أرجو منك أيها

التي أن تبث الدعوة في هذه الأمة التي لا تصير لها ولا معين ، ولم نجد من يوضح لها الأمر ، ولو أن الأمة رأت من يعرفها الحقيقة لكانت أول أمة على سطح هذه الكرة ، وسيكون هذا إن شاء الله تعالى ، وهذا هو نهاية الكلام على المقصد الأول من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

المقصد الثاني

قال تعالى (قال نوح رب إنهم عصوني) فيما أمرهم به (واتبعوا من لم يرده ماله وولده إلا خسارا) أي واتبعوا رؤساءهم الذين بطروا بأموالهم ، واعتزوا بأولادهم ، فكان ذلك ازديادا لخسارتهم في الآخرة ، وهكذا الذين اتبعوهم خسروا مثلهم ، وعطف على [من] قوله (ومكروا مكرا كبيرا) أي كبيرا عظيما جدا ، فهم يحتالون في نبذ الدين بحيل عظيمة ، وبحرثون الناس وبحرثونهم على مقاومة دعوة نوح وإبذائه (وقالوا لا تذرن آلهتكم) أي عبادتها (ولا تذرن دينا ولا سواع ولا يعوق ولا يعوق) هذه الأسماء الخمسة كانت أعظم المعبودين عنده قوم نوح ، وقد كانوا قوما صالحين في الأزمان بين آدم ونوح ، فلما ماتوا كان أتباعهم يقدون بهم يأخذون بعدهم بأخذهم في العبادة ، ثم زين لهم الشيطان أن يصوروا صورهم ، ففعلوا ظانين أن هذا أنشط للعبادة وأشوق لها ، ثم لما طال الزمن عبدوا نفس تلك الصور ، فهذا مبدأ عبادة الأوثان ، وإن أردت المزيد فارجع إلى [سورة البقرة] تجد المقال مفصلا فيها ، فترى هناك كيف كانت عبادة الصابئين موجهة أولا لللائكة ، فالكواكب ، فالأصنام في الأرض ، ويقال : إن الأصنام التي عبيدها قوم نوح صارت تعبد عند العرب :

القبيلة	الصنم
كل بدومة الجندل	ود
هذيل	سواع
مراد وبنو غطفان بالجرف عند سبأ	يعوق
همدان	يعوق
جبر : آل ذي الكلاع	نسر

يقول ابن عباس : « هذه أوثان دفنها الطوفان فاستخرجها العرب فعبدوها » وهناك أصنام أخرى هذا بيانها :

القبيلة	الصنم
تقيف	اللات
سليم ، وغطفان ، وجشم	العزى
خزاعة ، بقديد	مناة
لأهل مكة	اساف
» »	ناثلة
» »	هبل

ثم قال تعالى (وقد أضلوا كثيرا) أي أضل الرؤساء ، أو الأصنام (ولا تزد الظالمين إلا ضلالا) أي إلا هلاكا ، وقد بينه تعالى فقال (عما خطيئتهم) أي من أجل خطيئتهم وما زائدة (أغرقوا) بالطوفان (فأدخلوا نارا) وهو عذاب القبر وعذاب الآخرة (فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا) وقد كانوا يظنون أن الآلهة

أنصارهم ، غاب فأظم ، وصل سعيهم (وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا) أى أحدا وهذه الكلمة تستعمل في النبي العام (إنك ان تذرهم يضادوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا) ولم يقل ذلك إلا بعد تجر بهم أجيالا (رب اغفرلى ولوالدى ولبن دخل بيتى) مغزى أو سجدى أرسفيتنى (مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات) أى يوم القيامة (ولا تزد الظالمين إلا تبارا) أى هلاكا . انتهى تفسير [سورة نوح] والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة الجن

هى مكية

آياتها ٢٨ - نزلت بعد سورة الاعراف

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

قُلْ اَوْحِيَ اِلَىَّ اَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا اِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا * يَهْدِي اِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا اَحَدًا * وَاَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا * وَاَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا * وَاَنَّا ظَنَنَّا اَنْ لَّنْ يَقُولَ الْاِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا * وَاَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْاِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا * وَاَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ اَنْ لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ اَحَدًا * وَاَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجدْنَاهَا مُلْتَئِتًا حَرَمًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَاَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعِ الْاَنَ يَحِذِّ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا * وَاَنَّا لَا نَدْرِي اَشْرَأُ اُرِيدَ يَمْنَ فِي الْاَرْضِ اَمْ اُرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا * وَاَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا * وَاَنَّا ظَنَنَّا اَنْ لَّنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْاَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا * وَاَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْمُهْدَىءَ اٰمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا * وَاَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِمَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ اٰسَلَمَ فَاولئك تَمْحَرُّوا رَشَدًا * وَاَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا * وَاَنْ لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً غَدَقًا * لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا * وَاَنْ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ اَحَدًا * وَاَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا * قُلْ اِنَّمَا اَدْعُوا رَبِّي وَلَا اُشْرِكُ بِهِ اَحَدًا * قُلْ اِنِّى لَا اَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا * قُلْ

إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا * إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ
وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا * حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ
فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعَفُ نَاصِرًا وَأَقْلَبُ عَدَدًا * قُلْ إِن أَدْرِي أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ
رَبِّي أَمَدًا * عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَلِيَنفِئَهُ
يَسْئَلُكَ مِنْ يَمِينٍ يَدِيهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا * لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا
لَدَيْهِمْ وَأَخْضَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا *

مقدمة في ملخص هذه السورة

ذكرت هذه السورة بعد سورة نوح لأن فيها تفصيلا لاجال سبق هناك ، وذلك أن سورة نوح فيها :
« استغفروا ربكم إنه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات
ويجعل لكم أنهارا » .

فالتوبة والاستقامة ونظام الأمة يعقبه المال والبنون والجنات والأنهار ، فر بما ظن الناس أن الله إذا
أعطى هذه النعم فقد رضى على الناس ، فقبل في سورة الجن . كلا . ثم كلا . إنما أموالكم وأولادكم وأنهاركم
وبساتينكم فتنة ، فلا فرق عندنا بين الخير والشر في الابتلاء ، فنحن نبثلى بالشر ونبتلى بالخير ، وهذا في
قوله تعالى : « وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا لنفتنهم فيه » فكأنه يقول : ليس الجنات
والأنهار والأموال والبنون المذكورة في سورة نوح نعمة من غير قيد بل هي اختبار للناس وامتحان لهم .
هذا ما يقال في المناسبة بين السورتين .

الكلام على تسمية السور

اعلم أن الله عز وجل سمي السور بأسماء تبعث على النظر وتوجب التفكير ، فسمى بالأنعام وبيعضها
كالبقرة والحيوانات الصغيرة ، وهي الحشرات كالنمل والنحل والعنكبوت ، وبما هو أطاف من ذلك كالنور
كما سمي ببعض الأنبياء كيوسف ويونس وهود ، وبيعض الأخلاق كالنوبة ، وبيعض الكواكب العلوية ،
كالشمس والقمر والنجم ، وبيعض الأوقات كالليل والفجر والضحي ، وبيعض المعادن كالحديد ، وبيعض
الأماكن كالبلد والبروج ، وبيعض النبات كالنخيل ، وبكل شيء مما نراه وما لا نراه ، فهنا أقدم بعالم غير
هذه العوالم كلها ، وهو عالم لا نراه وهم الجن ، وهذا العالم لم يعرف في دين الإسلام إلا من طريق الوحى ،
وليس للعقل عليه من دليل ، ولقد أصبح العالم المستتر عنا اليوم هو الشغل الشاغل لنوع الانسان ، وظهرت
آيات الله الكبرى في الكرة الأرضية ، وأصبح العلماء في أوروبا يجتهدون في مباحث هذه العوالم ، راجع
ما كتبناه في [سورة البقرة] وقرأ ما هنالك تجد الأمم كلها تدرس عالم الملائكة والجن ، ويطلعون على
غوامض هذه العوالم ، ولقد نقلنا كثيرا في هذا التفسير من عجائب هذه العوالم ، ولقد حدثت الناس أرواح
أصحابهم الذين ماتوا ، واتصل العالم الانساني بالعالم الجنى ، وبالعالم الأرواح الطاهرة وهم الملائكة ، فاذا سمي
الله سورة بهذا الاسم فعناه أنه قد أعطى هذا العالم الخفى عناية وسمى السورة باسمه كما اعتنى بالحديد وهو
نوع من المعادن فسمى باسمه ، وهكذا توجهت عناية عزته وقدرته إلى النور وأنواع الحيوان والنبات

والأوقات المختلفة ، وبكل شيء نراه ولا نراه انجدة في البحث عن المعادن كلها وعن حساب الزمان ، ولا يكون هذا إلا بالعلوم الرياضية ، ولنجد أيضا في علم النبات والحيوان (وبعبارة أخرى) نلمّ بعلوم هذا العالم ، وهكذا فلنجد في علم الأرواح كما جد فيه العالم العربي .

اللهم إنك أنت الذي سميت هذه السور بهذه الأسماء ، سميت لهم أسماء الأشياء المتنوعة على الأرض حيوانا ونباتا ، وفي باطنها من المعادن ، وفي الجوّ كالرعد ، وفي السماء كالشمس والقمر والنور ، وكالأوقات المختلفة ، ثم انك تجاوزت عالمنا وسميت باسم عالم الجن ، ذلك لتبحثنا على البحث في علم الأرواح ، فماذا جرى ؟ نام المسلمون الذين أنزل عليهم الكتاب وحتمهم على هذا ، وقام بهذه الأعمال كلها الذين لا يؤمنون بهذا الدين ، فبالت شعري : أمستيقظ المسلمون أم نيام ؟ إن المسلمين اليوم وقبل اليوم بعد العصر الأول نيام ، تالته منازل القرآن لمجرد التلاوة ، نزل القرآن للعلم ، فإذا بحث المسلم عن شروط الصلاة وأركانها وعن فروض الوضوء فما بحث إلا في مقدمات معرفة الله لافي معرفة الله ، لأن الوضوء لأجل الصلاة ، والصلاة لأجل حضور القلب ، وحضور القلب لتذكر الله ، وتذكر الله يعد القلب للعلم ، فالعلم إذن هو الغاية ، فكيف اجتهد المسلمون في المقدمات وغفلوا عن العلوم التي هي أشبه بالغايات ، فعلم الفلك والنبات والمعادن والنور والظلام وعلم الأرواح هي العلوم المرقية للمجتمع ، الهادية للفكر ، الموقية للعقل ، التي تجلو الأنظار ، وتقيّل العثار ، وتنفع الأهل والجار ، وتدفع العار ، وتوقظ التوأم ، إن علم الجن وعلم الأرواح يورث اليقين بالله وباليوم الآخر ، ويحدث في النفس أنسا وإتهابا وانسراحا ، وسرورا وإيقانا ، وراحة وطمأنينة .

سمى الله سورة باسم الجن ليوقظ المسلمين لتعلم علم الأرواح ، وكأن الله ذكرها لا يقاطعنا نحن في هذا الزمان لاستكناه الحقائق ، ومعرفة الدقائق ، والوقوف على الرقائق ، والايقان بأن الموت إنما هو انتقال من حال إلى حال ، فلا تعظم على المرء سطوته ، ولا تخيفه سكرته ، ولا ترعبه نزعتة ، ولا تضيق به ساحته ، بل يستقبله بقلب مملوء بالأمال ، فارغ البال ، فرح بفك العقال ، ولعلك تقول كيف أدرس هذا العلم ؟ وكيف أخطب عالم الجن وعالم الملائكة ؟ وأين هذا العلم ؟

أقول : قد ألفت فيه كتابا سميت [كتاب الأرواح] وذكرت فيه ماجرّبه القوم في أوروبا ، وكيف أحضروا الأرواح ، وما الشروط ، وما الواجب على الانسان في ذلك ؟ وما فوائد هذا العلم ومضارّه ؟ .

وأنت اذا اطلعت عليه أمكنك استحضار أفكارك وأشياخك اذا راعيت الشروط وكنت صادق النية للعلم لا للمال ، فانك تجاب إلى طلبتك وتخطبك الأرواح كما خاطبت الأوروبيين كما نقلنا بعض العلوم التي ألقها الأرواح عليهم ، وسأذكر إن شاء الله تعالى ملخص منهج الكتاب في آخر تفسير هذه السورة لتعرف إلى أي حد وصل نوع الانسان فيما قصر فيه المسلمون مما حتمهم عليه كتاب ديننا المقدس ، وكيف كان غير المسلم هو الذي بحث في مقتضى أسماء هذه السور ، والمسلم هو الذي لم يعن بشيء منها ، وهو النائم قديما المستيقظ الآن ، وسيزيد استيقاظا بنشر العلوم والآراء بين الأمم الاسلامية خصوصا والشرقية عموما .

ثم اعلم أن علماءنا رحمهم الله قد ذكروا أن الجن أجسام عاقلة خفية تغلب عليهم النارية ، ومن قال منهم انهم أرواح مجردة فهو لا ينافي ما تقدم ، لأن الأرواح المجردة منها ما هو أقرب إلى عالم المادّة ، وهم هؤلاء الجن ، ومنهم من هو أقرب إلى عالم الروح : أي انه خلص من المادّة ، وهم المسمون ملائكة ، ومنهم من قال : انهم هم النفوس البشرية التي ماتت ، وهذا لا ينافي القولين السابقين ، لأن النفوس البشرية من كان منهم أقرب إلى الشرّ وهو عالم المادّة وذنوبه وشروره فهذا يسمى جنا ، ومن كان منهم يقرب من عالم الأرواح المجردة تجرّيدا تاما ، فهو ملحق بالملائكة كما قال تعالى : « يوم يقوم الروح والملائكة صفا » .

فهنا عالمان خفيان : عالم أقرب إلى الجاهلة ، وهم الجن . وعالم أقرب إلى الكمال ، وهم الملائكة ومن يقتربون منهم .

ثم انه قد جاء في علم الأرواح أن الأرواح الجاهلة تحب التقرب من بنى آدم وتستمع أحاديثهم ، ويانه أن الأرواح التي فارقت أجسادها من بنى آدم قسمان : قسم ارتقى في الدنيا ، فهو إذا خلص من هذا العالم الأرضي استعد للتلقي من عالم الملائكة ، لأن روحه قد استعدت بالمواهب التي نالها في الدنيا للتلقي عن عالم أرقى من عالم الانسان ، وقسم مات جاهلا لا يدري من هذا الوجود إلا ما عسى حابته ، فهذا لا يمكن أن يعقل عن الملائكة الأعلى ، فهذا يرجع إلى عالم الانسان ، لأنه أقرب إليه ، ويفهم ويعقل ما يقال من الآدميين ، لأنه لا يعرف غيرهم ، فأما العوالم الأخرى فهي محجوبة عنه كما حجبنا نحن عن عالم الملائكة المحيطين بنا الآن ، وهكذا حجبنا عن رؤية الله وهو معنا ، وحجبنا عن أن نعرف أن هنا كهروباة قبل كشفها مع أنها في أجسامنا وتحيط بنا ، هكذا تلك الأرواح التي ماتت ناقصة بسبب الكبرياء أو الطمع أو الشره فانها لا يمكنها أن تقابل الأرواح الكاملة للتلقي عنها فتتبع إلى بنى آدم وتتقرب منهم كما ترى الطفل يفهم من الطفل ، و ترى المرأة الجاهلة لا تعقل إلا من جاهلة مثلاً ، فهكذا الأرواح الناقصة لما كانت محبوسة عن التعلم من العالم الذي هو أعلى منها اضطرت أن تسمع الكلام الذي يقال لأهل الأرض وتعاشرهم وتعقل كلامهم .

فاذا سمعت ابن عباس يقول : إن الشياطين حيل بينهم وبين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب ، وانهم رجعوا إلى قومهم وقالوا لهم حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب ، وأن قومهم قالوا لهم : ماذا لك إلا من شيء حدث فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء ؟ فانطلقوا بضربوا مشارق الأرض ومغاربها ، فرأى نفر الذين أخذوا نوحاتهم بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو بنحلة عامدين إلى سوق عكاظ ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن استمعوا له وقالوا هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء ، فرجعوا إلى قومهم فقالوا : يا قومنا « إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشاد فآمننا به ولن نشرك بربنا أحدا » فأنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم « قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا » الخ .

اذا سمعت هذا القول أو نحوه في البخاري ومسلم عن ابن عباس فاعلم أن هذا هو الذي أظهره علم الأرواح الحديث ، لأن الأرواح الناقصة هي التي تأخذ من الانسان لقربها من العالم الأرضي ، وهي بطبيعتها متنوعة عن عالم الملائكة ، فلا يجوز لها ولا ينسئ أن تفهم عن العوالم العلوية إلا اختلاسا كما ترى أهل الأرض ، فإن العامة ينعون من حضور الدروس مع التلاميذ الذين استعدوا للدروس الهندسة والعلوم الأخرى ، والمنع نارة يكون بطبيعة العامة ، لأنهم لا يعرفون ما يقال فيتنبجون ، وتارة بنظام المدارس وطرد من لم يكن من أهل الفن ، والعالم كله على وقيرة واحدة ونظام واحد ، فالأعشى في الدنيا الجاهل لا يناله حظ ما لم يستعد له إما بأنه هو يتركه ولا يقرب من المشتغلين به لأنه لا يفهمهم ، وإما أنهم هم يطردونه عن مجالسهم كأهل الأرض . فهذا القانون عام في الأرض من أول خلق الانسان عليها ، إذ لا يعطى الشيء إلا لمستحقه ، فهذا هو طرد الشياطين عن استراق السمع وذكر الشهب وأنهم يحترقون بها إما حقيقة وإما ضرب مثل لما ذكرناه كما في أحوال أهل الأرض .

ولما أرسل صلى الله عليه وسلم وكان للأرواح الناقصة بعض الوجهة في الاستماع من بعض الملائكة الأعلى ما قد ينتفعون به كالمواعظ التي يتلقونها اختلاسا منعوا من تلك الدروس فعلا ، وذلك لا يقاظهم إلى ما حصل في العالم الانساني الذي هم أقرب إليه فيفهمون منه أكثر مما يفهمون عن الملائكة الأعلى ، ونبيينا صلى الله

عليه وسلم وإن كان هو نفسه مع الملائة الأعلى تعاليمه يقولها لأهل الأرض ، وأهل الأرض يفهمونها ،
فلذلك يفهمها من هم أقرب إليهم ، وهم الأرواح الناقصة ، فهذا تفسير هذا المقام وإيضاحه بحسب ما ظهر من
علم الأرواح .

وقد جاء في هذا العلم أن الأرواح بعد الموت تسير في الطريق التي سارتها في الحياة ، فإن كانت ناقصة
لازمها النقص ، وإن كانت كاملة لازمها الكمال ، وهذه الناقصة قد تتجرد من بعض نقائصها بالنصائح التي
تسمعها من الناس أو من عالم آخر إذا استعدت لذلك ، وهذا من أعجب العجائب أن يأتي القرآن ويكون الكشف
الحديث مطابقاً له ، سارياً على نهجه .

باللهج ١ سورة الجن سورة لا تعرفها العقول ، وتبقى في أمة الاسلام ألفاً وثلثمائة سنة وعشرات السنين
تتلقاها أم عن أم ، وأجيال عن أجيال ، ثم يأتي هذا العصر فتظهر الحقائق .

يا عجباً ! إن هذه من السمعيات ، وهي التي لا دليل عليها من العقل ، ثم إنها تبقى محفوظة مقروءة حتى
يأتي وقتها وتظهر في أوروبا ، يظهر في أوروبا أن الأرواح الناقصة تسمع كلام الناس وتهتدي به ، وأنها
لا تعرف ما فوق طاقتها فلا تهتدي بهدي الأرواح العالية ، فيكون العالم من أهل الأرض أو النبي قد ارتقى
في العلم ، والأرواح الناقصة المجردة من الأجسام لم تبلغ مبلغ ذلك العالم أو ذلك النبي فتعلم منه ، وتكون
تلك الأرواح أشبه بالآباء الجهال إذ يسمعون من أبناءهم المتعلمين العلم ، وحال الأرواح الناقصة بعد الموت هي
حالمهم المشاهدة في الدنيا ، فأننا نرى الجهال لا يجلسون في مجالس العلماء إلا قليلاً في حال ما إذا تنزل العلماء
لإصلاح حالهم ، وفيما عدا ذلك تجد مجالس التعليم في أماكن خاصة لا يسمعها سواهم ، ولا يظهر من العلم للعامة
إلا شذرات قليلة جداً ، فهم في حياتنا الدنيا ممنوعون من السمع ، وقد يشتد المنع إذا كان في سماعهم للعلم
مفسدة كما نرى في كل دولة أسرار أعمالها الخفية ، وهم يكتُمون ما يعلمون في مصالح الحكومة عن الشعب
إلا إذا صار ذلك أسراً نافذاً فيظهرونه ، وكما نرى الأمم كلها شرقاً وغرباً لها خطط سياسية مكتوبة مكتومة
بين أرباب الدولة ، ومن أفشى سرّاً منها لغبرهم حاكموه ، فهذا منع من السمع في الدنيا ، وبعد الموت له
نظائر ، إذن كل هذا لحفظ الدرجات ونظام المجموع ، بل الملائكة أنفسهم درجات « وما لنا إلا له مقام معلوم »
وتلك الدرجات هي المعارج ، فلذبح من السمع لحفظ المعارج لأربابها ، فلنشرع الآن في تلخيص السورة ،
ثم تفسير الألفاظ ، ثم تأتي بشذرات من علم الأرواح فنقول : إن الذي ذكر في معرض أقوال الجن ١٦
حكمة وهذا نصها :

- (١) انهم سمعوا كتاباً بديعاً ، وهو القرآن يهدي إلى الصواب ، فآمنوا وتركوا الشرك .
- (٢) وأن الرب تعالت عظمته لم يتخذ زوجة ولا ولداً كما يقول كفار الجن والإنس .
- (٣) وأن الجهال من الجن كانوا يقولون قولاً متجاوزاً الحد في البعد عن الصواب بالنسبة لله تعالى ،
إذ ينسبون له الصاحبة والولد .
- (٤) وأنهم ما كانوا يظنون أن أحداً يكذب على الله بنسبة الصاحبة والولد إليه لاعتقادهم بصدق من
يقولون هذا القول من الجن والإنس ، وهذا هو عذرهم في اتباع هؤلاء الكاذبين الذين غشواهم .
- (٥) وأن رجلاً من الإنس كانوا يستغيثون في القفر برجال من الجن فزاد الجن الإنس ضللاً
باستعاضتهم بهم لظنهم أنهم يعيدونهم .
- (٦) وأن الجن ظنوا كظنكم أيها الإنس أنه لن يبعث الله أحداً .
- (٧) وأن الجن طلبوا خبر العالم العلوي المعبر عنه بالسما فنعوا .

- (٨) وأن الجن كانوا يقعدون مقاعد خالية ليتمكنوا من السمع فنعوا الآن برجم الشهب .
- (٩) وأن الجن لا يدرون ماذا يحلّ بأهل الأرض أشتر أم خير ، لأن حراسة السماء ومنع السمع لابد أن يكون لأمر هام ، فإذا رأينا الحكومة شددت في تعطيل الجرائد ومنع بيعها في المملكة ، فذلك لابد أن يكون لأمر هام في الدولة ، إما لنفعا وإما لضررها ، وقد كانت الحكومات القديمة والحدثة تجتهد في منع الناس عن الأخبار الخاصة بالدولة في الأمور الهامة ، فتراهم الآن يحكمون أحكاما عرفية أثناء الاضطراب أو الحروب ، ويمنعون الناس من التلطف أو الكتابة في شيء من أسرار الدولة ، أو أحوال الحرب العنيفة التي نضرت بسير الحرب ، أو بسير الأمة ، وهذا أمر متعارف في دول الأرض فهكذا دول الأرواح .
- (١٠) وأن الجن منهم الأبرار ومنهم الفجار ، فلهم مذاهب ، وهم مختلفو الأحوال .
- (١١) أن الجن علموا أنهم لن يفترقوا من أمر الله أن أراد بهم أمرا على هذه الأرض ، وانهم لن يقتروا على الحرب منه إذا طلبهم .
- (١٢) وأنهم لما سمعوا الهدى آمنوا به ، فالؤمن لا ينقص ثواب عمله ولا يناله مكروه .
- (١٣) وأنهم فريقان : مسلمون ، وجأثرون عادلون عن الحق ، فالسلم قصده طريق الحق وتوخاه ، وأما الجأثرون فانه يكون وقودا للنار يوم القيامة .
- (١٤) وأن الانس والجن اذا استقاموا على الطريقة المثلى وسع الله عليهم رزقهم واختبرهم به ، ومن أعرض عن ذكر ربه يدخله عذابا شاقا .
- (١٥) وأن المساجد لله فعلى من يدخلها أن يخلص لله فيها ولا يشرك به أحدا كما كان المشركون يفعلون
- (١٦) وأنه لما قام النبي صلى الله عليه وسلم يعبد الله كاد الجن يكونون عليه متراكبين من ازدحامهم عليه تحببا مما رأوا من عبادته وسمعوا من قراءته .
- ولما انتهى إلى هذا المقام قال الله لنبيه : « قل إنما أَدْعُو رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا » ليبين الدعوة المذكورة في آخر أقوال الجن ومباحثهم ، والمقول له صلى الله عليه وسلم أربعة مقاصد ، وهي :
- (١) أنه يدعوربه ولا يشرك به أحدا .
- (٢) وأنه لا يملك دفع الضرر عن الناس ، ولا يسوق إليهم رشدا ، لأن الضرر والنافع والمرشد والمفوق إنما هو الله .
- (٣) أنه لن يمنعه أحد من الله أن عصاه ، ولن يجد ملجأ يُلجأ إليه دون الله ، وكيف يعصى الله ، ومن يعص الله يدخله نار جهنم مخلدا ، ومنى جاء يوم عذابهم في الدنيا أوفى الآخرة فسيعلمون أينما أضعف ناصرا وأقل عددا أهم أم أنا .
- (٤) أنه صلى الله عليه وسلم لا يدري متى يكون وقت تعذيبهم ، أقرب هو أم بعيد ، فالعلم لله وحده ، ولا يطلع على غيبه أحدا ، وكما منعت الشياطين من استراق العلم الذي لا طاقة لها به ، هكذا الملائكة درجات لكل منهم علم لا يتعداه ، والأنبياء أيضا لا ينلون من العلم إلا ما أوجبه المصلحة النبوية ، فإذا علم الأنبياء بعض العلم بالغيب ، فذلك يكون معجزة له ، ثم يحرسه بالملائكة لتحفظ دعوته ، وليقوموا بإطعام الناس حفظ الشريعة بعدهم لنتم ابلاغ الدعوة وسريانها في العالم الانساني .
- هذا هو ملخص السورة إجمالا ، ولنشرع الآن في التفسير اللفظي للسورة كلها فنقول ومن الله التوفيق :

التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

(قل) يا محمد (أوحى إلى أنه) أن الأمر والشأن (استمع نقر) النفر مابين الثلاثة إلى العشرة (من الجن) قد تقدم الكلام هنا عليهم (فقالوا إنا سمعنا قرآنا) كتابا (عجبا) بديعا مبينا لكلام الناس في نظمه ودقة معناه ، والعجب مصدر بمعنى العجيب (يهدي إلى الرشدا) إلى الحق والصواب (فأما به) بالقرآن (ولن نشرك ربنا أحدا) من خلقه (وأنه تعالى جد ربنا) أى تعالى جلال ربنا وعظمته . قال أنس : كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جد فينا : أى عظم قدره (ما اتخذ صاحبة ولا ولدا) أى تعالى عظمة عن أن يتخذ زوجة لأنها إنما تكون للحاجة إليها ، ولا ولدا للاستئناس به (وأنه كان يقول سفيها) جاهلنا (على الله شططا) كذبا وعدوانا (وأنا ظننا أن لن نقول الا أنس والجن على الله كذبا) أى كنا ظننا أن الانس والجن صادقون في قولهم أن الله صاحبة وولدا ، وأنهم لا يكذبون على الله في ذلك (وأنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادهم رهقا) فإن الرجل كان إذا أسمى بققر قال : أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفيها قومه ، فكانت هذه الاستعاذة تزيد الجن رهقا : أى تكبرا ، وتزيد الانس رهقا : أى ضلالا ، وأصل الرهق في كلام العرب الالتم وغشيان المحارم ، ولا جرم أن الضلال أصل المحارم ، والكبر والتعوق من المحارم (وأنهم) أى الانس (ظنوا كما ظننتم) أيها الجن (أن لن يبعث الله أحدا) وهذا أيضا من كلام الجن بعضهم لبعض (وأنا لمسنا السماء) أى طلبنا خبرها (فوجدناها مثلث حوسا) أى حراسا ، وهو اسم جمع كالخدم (شديدا) قويا (وشها) جمع شهاب ، وهو المضيء المتولد من النار (وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع) أى مقاعد خالية عن الحرس والشهب ، أوصالحة للترصد والاستماع (فن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا) أى شهابا راصدا له ولأجله يمنعه عن الاستماع بالرجم ، ويصح أن يكون الرصد اسم جمع لراصد : أى ذوى شهاب راصدين (وأنا لاندري أشرا أريد بمن في الأرض) بحراسة السماء (أم أراد بهم ربهم رشدا) أى لاندري هل المقصود من المنع من الاستراق هو شر أريد بأهل الأرض أم أريد بهم الإصلاح ؟ وقد تقدم إيضاحه في مقدمة تفسير السورة ، وفي التعبير بأريد في باب الشر ، وأراد بهم ربهم في باب الخير حسن أدب وتعليم للناس كيف يتأذّبون في القول ، فأسند الخير ولم يسند الشر إليه وإن كان كل من عند الله (وأنا منا الصالحون) المؤمنون (ومنا دون ذلك) أى قوم دون ذلك (كنا طرائق قددا) ذوى طرائق متفرقة مختلفة ، وقد دأب جمع قدة من قدة إذا قطع (وأنا ظننا) علمنا (أن لن نجيز الله في الأرض) أى لن نجيزه حال كوننا كائنين في الأرض أيها كنا فيها (ولن نجيزه هربا) هاربين منها إلى السماء (وأنا لما سمعنا الهدى) القرآن (آمنا به فن يؤمن بربه فلا يخاف) أى فهو لا يخاف (بخسا ولا رهقا) البخل والنقص ، والرهق الظلم أو المسكروه الذى يغشى المظلم (وأنا منا المسلمون) وهم الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم (ومنا القاسطون) الجائرون العادلون عن الحق (فن أسلم فأولئك تحروا رشدا) أى قصدوا طريق الحق (وأما القاسطون فكانوا) فى علم الله (لجهنم حطبا) وقودا (وأن لو استقاموا) أى القاسطون (على الطريقة) أى طريقة الاسلام (لأسقيناهم ماء غدقا) كثيرا : أى لو سقنا عليهم الرزق ، فإن الماء الغدق سبب سعة الرزق (لغتهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه) يدخله (عذابا صعدا) شاقا يعالو العذاب ويغلبه (وأن المساجد لله) مختصة به (فلا تدعوا مع الله أحدا) فلا تعبدوا فيها غيره ، والمراد بالمساجد ما يعبد الله فيها ، وبنيت لذلك

فیدخل فيها الكنائس والبيع . ولما كانت الأرض كلها مسجداً للمسلمين فعلمهم ألا يبدوا فيها غيره (وأنه لما قام عبد الله) محمد صلى الله عليه وسلم (يدعو) يعنى يعبد الله ويقرأ القرآن ، إذ كان يصلى الفجر بطن نخلة (كادوا) أى الجن (يكونون عليه أبداً) أى يركب بعضهم بعضاً من الازدحام عليه حرصاً على استماع القرآن (قل إنما أدعوا ربى ولا أشرك به أحداً) فليس ذلك ببدع يوجب تعجبكم واتحادكم على مقضى وقد قالوا : قد جئت بأمر عظيم فارجع عنه فتحن نحيرك ، فقال لهم صلى الله عليه وسلم : [إنما أدعوا ربى ولا أشرك به أحداً] (قل انى لا أملك لكم ضرراً ولا رشداً) أى لا أقدر على أن أدفع عنكم ضرراً ، ولا أن أسوق إليكم رشداً ، والله له الأمر (قل إني لن يغيرنى من الله أحد) أى لن يمنعنى منه أحد ان عصيته (وإن أجد من دونه ملتحداً) ملجأً ألتجأ إليه ، وحزناً أحتز به ، أو مدخلاً فى الأرض مثل النسر أدخل فيه (إلا بلاغاً من الله ورسالاته) أى أنا لن أجد ملجأً ألتجئ إليه إلا تبليغ رسالات الله ، فأنا ان لم أبلغها عصيت ربى ، وإن بلغت نجوت من عذابه ، فهو يقول : لا ملجأً إلى إلا تبليغ الرسالة ، فهو الذى به أنجو من عذاب الله ، فان تركت التبليغ وقعت فى الاثم المبين (ومن يعص الله ورسوله) فى الأمر بالتوحيد (فإن له نارجهم خالدين فيها أبداً حتى إذا رآوا ما يوعدون) فى الدنيا كوقعة بدر وما بعدها ، وفى الآخرة (فسيقامون من أضعف ناصراً وأقل عدداً) قل إن أدري (أى ما أدري) أقرب ما توعدون أم يجعل له ربى أمداً) غاية تطول مدتها ، فانهم كانوا يقولون متى هذا الوعد ؟ فكأنه يقول هو كائن لا محالة ولكن لا أدري ما وقته (عالم الغيب) هو عالم الغيب (فلا يظهر على غيبه أحداً) أى لا يطلع أحداً على الغيب المختص به هو (إلا من ارتضى من رسول) لعلمه بعضه حتى يكون مجزئاً للنبوة (فأنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً) يدخل من بين يدي المراضى ومن خلفه حراساً من الملائكة يحرسونه من كيد الشياطين وتحيطهم (ليعلم) الذى الموحى إليه (أن قد أبلغوا رسالات ربهم) أن قد أبلغ جبريل والملائكة النازلون بالوحى ، أولي علم الله أن قد أبلغ الأنبياء رسالات ربهم : أى يظهر ابلاغ الرسالات محروسة من التغيير (وأحاط بما لديهم) بما عند الرسل (وأحصى كل شئ عدداً) أى أحصى ما خلق وعرف ما خلق لم يفته شئ حتى مثاقيل الذر والخردل . انتهى التفسير اللفظى للسورة كلها ، والحمد لله رب العالمين .

أقوال الناس قديماً وحديثاً فى الجن ، وبدائع العلم الحديث فيها

وهو مجزئ للقرآن ظهرت فى هذا العصر كما قال تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق »

لقد أفضت الكلام فى سور كثيرة على هذا الموضوع ، فقرأه فى [سورة البقرة] وفى [سورة آل عمران] وفى سور كثيرة ، ولقد ذكرت فى [سورة آل عمران] نبذة من خطبة [السير أوليفر لودج] من أشهر علماء الطبيعة فى هذا العصر ببلاد الانجليز ، إذ أكد على مجمع من كبار العلماء فى اجتماع رسمى أنه حادث الأموات ، وأن هناك عقولاً أسمى من عقولنا فى عالم الأرواح : وأنهم يهتمون بنا ، وأن اخوانه من الجمعية الروحية الذين ماتوا كلهم بعد موتهم وبرهنوا له ببراهين قاطعة أنهم هم الذين يكلمونه ، وقال : إن كل ما يقوله الأنبياء عن عالم الأرواح وعن الله فهو حق بلا تأويل ، وقال انه اشتغل بهذا الفن ٣٠ سنة فله الحق أن يحكم بما يقول ، وكذلك نقلت عن اخوان الصفاء مما ذكرته فى كتابى [الأرواح] إذ قالوا فى كتابهم المشهور : ان أرواح الأحياء بعد الموت هم الموسوسون ان كانوا أشراً ، وهم الملهمون الناس الخير ان كانوا أخييراً ، فارجع إليه هناك إن شئت ، وهاك خلاصة ما ذكرته فى كتاب الأرواح المذكور :

(١) قال شيرمحمد في المجلس السابع : لقد جعت بين ما جاء به الدين الاسلامي والكشف الحديث ، ذلك أن القوم يقولون : إن كل علم وكل خير وشر حاصلات في الأفئدة منشؤها الأرواح الفاضلة والناقصة ، وهو عين قوله صلى الله عليه وسلم : « في القاب لثان : لمة من الملك ، ولة من الشيطان » وهذا مصداق آية : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم » والعجب أن الفرنجة يكشفون هذا ولا يعلمون أنه مصداق دين الاسلام .

(٢) ليس على الأرض كامل ، وظاهر الفضيلة والصالح لا يدل على الكمال التام في الانسان ، ولو كان كاملا لم يسجن في هذه الأرض ، وهذا النقص في الانسان بسبب الذنوب القلبية التي لا يعرفها الناس مثل الحقد والطمع والحسد الخ .

(٣) ليس للانسان من طريقة للتخلص من وسوسة الأرواح الشريرة إلا بالفضائل ، فهي التي تطردها (٤) الأرواح الشريرة قد تتقرب من الانسان لمقاصد رديئة ، وربما تسمع بعض نصائح الانسان عند استحضارها .

(٥) من الأرواح ما تستولى على جسد الانسان ويحاول الأطباء شفاء ظواهر ذلك الجنون في المارستان بلاطائل ، ولا فائدة إلا بالمعالجة الأدبية التي بها وحدها تخرج الروح من الجسم .

(٦) ليس في مقدور الناس طرد الأرواح من اقترابها من الناس ، لأن ذلك يفيد فوائد كثيرة .

(٧) إن ما تقدم من أن الأرواح الناقصة تهتدي بكلام البشر يناسب ما جاء في هذه السورة من قول الجن : « إنا سمعنا قرآنا عجبا . يهدي إلى الرشداً فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا . وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا . وأنه كان يقول سفيهاً على الله شططا . وأنا ظننا أن لن نقول الإنس والجن على الله كذبا . وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا . وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا » .

(٨) في الأرض أرواح أشبهت الجن في الجهل والشر ، مثل ذلك الغنى البخيل الذي مات وأحضروا روحه وقال : هاتوا لي مالى فيما تقدم في الكتاب (أى كتاب الأرواح) ومثل ذلك الروح الطائش الذي قال : أنا أسلى نفسى الخ .

(٩) وهذا قوله تعالى : « ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا » .

(١٠) ومن الناس من يصدق كل ما تلقى إليه الأرواح فتسدد عليه المسالك فلا يسمع النصائح من غيرها فتغشه تلك الأرواح ، وهذا قوله تعالى : « وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا » .

(١١) قول الروح : لا تغفروا بظاهر الفضيلة فانها تستركبراً وحقداً الخ وهذا قوله تعالى : « سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق » .

هذا ملخص هذا المقال ، وعسى أن نوفق في المستقبل لاصدار المحقق لهذا التفسير فنستوفي هذا المقام فيه ، ومن قرأ كتابنا [الأرواح] كفاء ، والحمد لله رب العالمين ، كتب صباح يوم الثلاثاء ٢٠ رمضان سنة ١٣٥١ هجرية — ١٧ يناير سنة ١٩٣٣ م .

ويحسن أن تنقل لك هنا أيها الذكي فهرست كتابنا [الأرواح] الذي ألفته ، لأنك تقف فيه على مجمل هذا العلم ، ويظهر لك سر القرآن في آخر الزمان ، فليس في طاقتي في هذا التفسير أن أنقل أكثر من ذلك

إن ملخص فهرس كتاب الأرواح هو ما يأتي :

قراءة هذا الكتاب تدعو إلى اليقين ، وتصفي النفس ، وتذهب الحزن : أهمّ مذاهب الهند في معرفة الله تعالى ثلاثة : قوم لا يفكرون إلا في معرفة النفس ، وقوم يقولون لله الم إله ، ولكنه مختص بتعليم الناس ، وقوم يقولون انه خالق ومنظم وعالم ومعلم ، وهذا الأخير هو الذي في كتاب الفيدا ، تبيان كلام الأمم في إثبات الأرواح وفي نفها ، بيان نبوت الأرواح بالآيات القرآنية وبالأحاديث ، قول قدماء الفلاسفة : ان أرواح الأموات هي الملهمة للأحياء ، وهي الموسوسة لهم بأمر الله ، [عذاب القبر] من كلام الغزالي رحمه الله ، وأن الأرواح بعد الموت لها ثلاثة أحوال : أسف على فائت ، وعلى ذنب ، وجزع من الجهل . اخوان الصفاء جاء فيه أن الأرواح كالشياطين وكللائكة ، اعتراضات على المؤاف وأجوبة ، استدلال المؤاف على استحضار الأرواح بآية ، وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم ، أسباب تحريك الموائد في استحضار الأرواح ، إحضار زهور وفواكه على أيدي الأرواح في أوروبا ، إحدى وعشرون سؤالاً وجهت إلى الأرواح في تحريك الموائد ، فأجبت بأن المغناطيسية في الانسان تساعد مغناطيسية الروح ، وتقول : إن الأحياء جهال جداً ، في الأرواح جهال كما في الأحياء ، أقرار الروح بالعذاب ، البخل معذب ، والظالم تعتبره حسرة ، ومن الأرواح من طلبت المساعدة لتخلص من العذاب ، آيات قرآنية مطابقة لذلك ، روحان يتيمان ضايقا من ظلهما ، الأرواح تنتقم بالوسوسة ، وتعطف على الباكين عليها ، كاهن وسيدة نجوا من الخطر بسماح هاتف ، مطابقة كلام الامام الغزالي لما تقدم . ظهور أشباح ، وسماح ألحان ، ودق آلات طرب في ألمانيا وشهداها كثيرون . الروح المزعجة والحديث معها . آراء العلماء والأحاديث الموافقة لما تقدم . وصف الأرواح للسماوات ، الجاهل في الدنيا جاهل بعد الموت ، مطابقة القرآن لذلك ، الوساطة الروحية المستعملة لأموال الدنيا ضارة ويكون فيها الكذب ، وصف الأرواح لله عز وجل ، روح غالي ووصفها لنظام السماوات ، وصفها ينطبق على آية « تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » ، تاريخ مناجاة الأرواح وطرق الاستحضار كالمائدة والفضجال واليد وهكذا ومجموعها ست ، أرواح تكتب بالأقلام ، ظهور روح اسمها [كافي] وقد أعطتهم قطعاً من ثوبها ، آيات قرآنية مطابقات للشريعة الإسلامية ، آداب من يحضرون الأرواح ، التنويم المغناطيسي ، براهين سقراط على بقاء النفس ، وكيف نشأت الفكرة عند المؤاف ، وبراهين ابن مسكويه ، طرق المقلدين في أمر الروح ، كلام الروح في حب الانسانية والفلسفة ، محاورة [أوليفر لودج] مع ابنه الميت في حب الألمان ، هل تدخن الأرواح ، وهل تشرب الخمر ؟ الأرواح لها ثياب ، فوائد الأنوار عند الأرواح ، تعليم الأرواح لأهل الأرض وموافقته للقرآن ، مناجاة الأرواح في أوروبا والاسلام ، الصوفية يناجون الملائكة بالذكر وترك اللذات ، [براى أودنج] يصف جهنم ومستقبل الأمم والدول وأوروبا ومصر والاسلام ، الميت يدهش من علمه بالموت لامن الموت ، أخلاق الميت أحاطت به بعد موته ، قاعة السكينة ، وصف الروح لجهنم كوصف القرآن . انتهى .

هذا هو ملخص فهرس كتاب الأرواح ، وإن أردت المزيد فاقراً كتباً تعد بمئات الألوف باللغات الافرنجية وتجيد كتاب [على أطلال المادة] وكتاب [دائرة المعارف] كلاهما لصديقنا الأستاذ محمد فريد وجدى ، ففيهما غنية في هذا العلم ، ولعلنا ان طالت الحياة تفصل القول تفصيلاً في ملحق نؤلفه بعد تمام طبع التفسير إن شاء الله تعالى اهـ

وقبل ختام تفسير هذه السورة يحسن بنا أن نذكر هنا ما جاء في إحدى المجلات المصرية ، وهي [مجلة اللطائف المصورة] مناسبا لآية : « وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا » فقد جاء فيها تحت العنوان الآتي مانعه :

لطيفة في قوله تعالى : وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا

عدد سكان العالم

أحصى أخيرا عدد سكان الكرة الأرضية فبلغ مليارين من النفوس : أى أثنى مليون ، وقد كان في سنة ١٩١٠ م ألف وستمائة مليون فقط فبلغت الزيادة في عشرين سنة ٤٠٠ مليون نسمة ، وعدد سكان العالم موزع كما يلي :

في آسيا ٩٠٠ مليون ، وفي أوروبا ٥٠٠ مليون ، وفي أمريكا ٢٢٠ مليون ، وفي إفريقيا ١٥٠ مليون ، وفي استراليا ٨ ملايين .

وأما عدد سكان ممالك أوروبا فهو كالآتي : روسيا أوروبا ١١٥ مليون ، ألمانيا ٦٢ مليون ونصف ، وبريطانيا العظمى ٤٢٧ مليون ، إيطاليا ٤١ مليون ، فرنسا ٣٩٥ مليون ، إسبانيا ٢١٣ مليون ، بولونيا ٢٠ مليون ، رومانيا ١٧ مليون ، تشيكوسلوفاكيا ١٣٦ مليون ، المجر ٨ ملايين ، بلجيكا ٧٨ ملايين ، هولندا ٧٦ ملايين ، النمسا ٦ ملايين ، أسوج ٦ ملايين ، اليونان ٦ ملايين ، البرتغال ٤ ملايين ، بلغاريا ٥ ملايين ، أيرلندا ٢ ملايين ، استونيا ١ مليون ، سويسرا ٣ ملايين ، فانداندا ٣ ملايين ، نروج ٢٧ مليون ، ليتوانيا ٢ مليون ، تركيا أوروبا ٢ مليون ، ألبانيا ثلاثة أرباع المليون ، دوقية لوكسمبرج ٢٦٠ ألفا . انتهى ماجاء في المجلة المذكورة . وبهذا تم تفسير [سورة الجن] والحمد لله رب العالمين . كتب عصر يوم الأحد ١٩ يوليو سنة ١٩٢٥ - ٢٨ ذى الحجة سنة ١٣٤٣ هجرية .

تفسير سورة المزمّل

هى مكة

إلا قوله تعالى : « وأصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جيلا . وذرنى والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا » وقوله : « إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار » إلى آخر السورة ، فغنية

آياتها ٢٠ - نزلت بعد سورة القلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ * قُمْ الْيَلَّ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْزِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ أَنْ تَرَئِيلًا * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا * إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأًا وَأَقْوَمُ قِيلًا * إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا * وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا * رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا * وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ

هَجْرًا جَبِيلًا * وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّعْمَةِ وَمَهْلُكُمْ قَلِيلًا * إِنَّا لَدَيْنَا أَنْكَالًا
وَجَحِيمًا * وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا * يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ
كَثِيبًا مَهِيلًا * إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ
رَسُولًا * فَعَصَى فِرْعَوْنَ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا * فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ
يَوْمَ مَا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا * السَّمَاءُ مَطْفِئَةٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا * إِن هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ
شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا * إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ
وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّنْ نَّحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا
مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ إِن عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ
يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا
الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَقَرِّءُوا اللَّهَ قَرَضًا حَسَنًا وَمَا تَقَدَّمُوا لِنَفْسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ
عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ *

ملخص الأحكام في هذه السورة

- (١) أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر أن يقوم من الليل ثلثه ، أو نصفه ، أو ثلثيه ، فهو مخير بين هذه الثلاثة .
- (٢) وهو في ذلك يقرأ القرآن بتؤدة حرقا حرقا يقف على العالمين ، وعلى الرحيم ، وعلى الدين ، فيقطع القراءة آية آية .
- (٣) وأن يذكر ربه ليلا ونهارا بالتسبيح والتلهيل والتمجيد والصلاة والقراءة ودراسة العلم .
- (٤) وأن يجرد نفسه إليه عما سواه .
- (٥) وأن يتخذه وكيلًا بكل إليه أموره متى فعل ما يجب عليه فيها .
- (٦) وأن يصبر على ما يقولون فيه وفي ربه : من أنه ساحر ، أو شاعر ، وفي أن ربه له صاحبة أو ولد .
- (٧) وأن يهجرهم هجرا جبيلًا ، وذلك بالمجانبة والمداراة وعدم المكافأة .
- (٨) وأن بكل أمرهم إلى الله ، فهو يكافئهم ويكفله .
- (٩) وأن يجهل زمانا قليلا فسيري عاقبته وعاقبتهم .

فهذه الامور التسعة طلبت من النبي صلى الله عليه وسلم ومن أتباعه ، ولما شق ذلك عليهم ، فقد كان الرجل يصلي الليل كله مخافة ألا يصيب ما أمر الله به من القيام . قال الله : انه يعلم أنه صلى الله عليه وسلم يقوم أقل من ثلثي الليل تارة ، ونصفه تارة أخرى ، وثلثه مرة ، وهكذا أصحابه ، واحصاء الليل شاق عليهم فلا يقدر على ضبطه ، ولا معرفة ساعاته ، فانتفخت أقدامهم من طول القيام ، فسح ذلك وأمرهم بما يسير

من صلاة الليل ، ثم نسخ ذلك اليسير أيضا من صلاة الليل بالصلوات الخمس ، لأن المسلمين منهم المريض ، ومنهم المسافر للتجارة ، ومنهم المسافر للقتال في سبيل الله ، فهؤلاء لا يتيسر لهم القيام مع هذه الأعمال ، فالصلاة المفروضة كافية للأمة مع إيتاء الزكاة وإدامة استغفار الله في مجامع أحوالهم ، لأن الإنسان لا يتخلو من تفریط .

هذا ملخص أحكام السورة ، وناسخها ومنسوخها ، ولنشرع الآن في تفسير الألفاظ للسورة كلها فنقول ومن الله التوفيق .

التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

(يا أيها المزمّل) بفتح الميم وكسرهما ، وقرئ المزمّل : أي المتلف في ثيابه ، وهو النبي صلى الله عليه وسلم ، وذلك لأنه كان نائما مرتعدا مما دهشه من بدء الوحي ، إذ رجع إلى خديجة يرجف فؤاده غوطب بهذا القول تهيجا له ، وقد كان متلفا في قطيفة ، والمزمّل كما يطلق على هذا المعنى يطلق على من تحمل الحمل : أي الذي تحمل أعباء النبوة ، فهذا المعنى يؤخذ من باب الكناية تعريضا ، فهو يقول : يا أيها المتلف بثيابه معترضا بأنه يحمل عبئا عظيما فليقم لحل عبئه (قم الليل) أي قم إلى الصلاة وداوم عليها فيه (إلا قليلا نصفه) أي إلا نصفه ، فالنصف بدل من قليلا ، ولا جرم أن النصف قليل بالنسبة للكل (أو انقص منه قليلا) أي انقص من النصف (أو زد عليه) أي إلى الثنتين ، فيكون التخيير بين الثالث والنصف والثنتين ، وبقى النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه على هذه الحال يصلون بالليل اثني عشر شهرا ، ثم خفف عنهم كما تقدم إيضاحه ، فصار المفروض ما يتيسر من الصلاة بالليل ، ثم نسخ بالصلوات الخمس ، وصار قيام الليل سنة إلى يوم القيامة ، وبقى وجوبه في حق النبي صلى الله عليه وسلم (ورتل القرآن ترتيلا) أي بينه بيانا ، وقرأه على تؤدة ، وتبين حروفه بحيث يتمكن السامع من عدّه مع الوقوف على كل آية كما تقدم ، وذلك ليتمكن المصلي من حضور القلب ، والتأمل والفكر في حقائق الآيات ومعانيها ، فيستشعر العظمة والجلال بقلبه متى ذكر الله ، والرجاء والخوف عند الوعد والوعيد ، والاعتبار بالقصص والأمثال ، فنتيجة الترتيل حضور القلب ، فأما من يقرأ سورا كثيرة في ركعة بحيث يكون هذا كهذا الشعر [الهذ] سرعة القطع [أي بسرعة وعجلة فذلك لاصلاة له ، ولقد قام النبي صلى الله عليه وسلم بآية من القرآن وهي : « ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم » وقد أخبر صلى الله عليه وسلم بأنه سيأتي قوم يقرءون القرآن يقيمونه كما يقيم السهم ، يتجاولونه ولا يتأجلونه ، لا يجاوز تراقيهم ، وهي جمع ترقوة ، وهو العظم الذي بين نقرة النحر والعاتق . ويقول ابن مسعود : « قفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب ، ولا يكن همّ أحدكم آخر السورة » (إنا سلق عليك قولنا ثقيل) أي سنزل عليك القرآن وفيه الأمور الشاقة من الأوامر والنواهي عليك وعلى أتباعك ، وكما أنها تثقل عليكم في العمل فهي في نفسها راجحة الوزن ليست من سفاف الأمور وخفافها ، فهو كلام رصين ، وهو أيضا ثقل في الوحي ، فقد جاء في حديث البخاري ومسلم أن الوحي كان يأتيه صلى الله عليه وسلم أحيانا في مثل صلصلة الجرس ، وهذا أشده عليه فيفصم عنه وقد وهي ما قال ، وأحيانا يتمثل له الملك رجلا فيكلمه فيعي ما يقول ، وكان ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه ، وإن جبينه ليتفصد عرقا ، ومعنى ينفصم : يفارق ، ومعنى يتفصد عرقا يجري عرقه كما يجري الدم من القاصد ، فملخص نقل القرآن في أربعة أشياء : في التكاليف ، وفي رجحان نفس القرآن من حيث

المثانة والبلاغة والمعنى ، وفي الشدة على المنافقين لما ينالهم من الغم به ، وفي ثقل الوحي وشدة عند نزوله ،
 فهو راجح الوزن ، ثقل الوحي ، ثقل التكليف ، ثقل على المنافقين يعظمهم (إن ناشئة الليل) أى قيام
 الليل (هى أشد وطأ) قرئ وطأ كغطاء ، ووطأ كقلب : أى أشد موافقة ومواطأة ، لأن القلب واللسان
 والسمع والبصر تكون بالليل أكثر مواطأة منها بالنهار على الأول ، وأوطأ للقيام وأسهل على المصلى للعبادة
 والخلوة برب العباد ، فإن الليل أفرغ للقلب من النهار ، ولا يعرض له فى الليل حوائج وموانع مثل النهار ،
 وأمنع من الشيطان ، وأبعد من الرياء ، وذلك على الثنى وهما متقاربان ، وقوله (وأقوم قیلا) وأثبت قراءة
 لأن القلب إذ ذاك حاضر ، والأصوات هادئة ، وأبين قولاً ، ثم إن الناشئة مصدر نشأ إذا قام ونهض كالغافية ،
 ويجوز أن يقال : النفس الناشئة التى نهض من مضجعتها للعبادة (إن لك فى النهار سبحا طويلا) نقبا
 فى مهماتك واشتغالاتها ، فعليك بالتهجد ، فإن مناجاة الرب يعوزها الفراغ والتخلى (واذكر اسم ربك)
 ودم على ذكره ليلا ونهارا بالتسبيح والتهليل والتحميد والصلاة وقراءة القرآن (وتبلى إليه تبثلا) انقطع
 إليه بالعبادة ، وجرد إليه نفسك عما سواه ، هو (رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذة كیلا) لأن
 اختصاصه بالآلوهية يوجب أن توكل الأمور إليه (واصبر على ما يقولون) فيك وفى ربك مما تقدم ذكره
 (واهجرهم هجرا جيلا) بالمداورة والمجانبة وعدم المكافأة (وذرنى والمكذبين) دعنى وإياهم وكل أمرهم
 إلى ، فأنا لست فى حاجة إليك فى مكافأتهم ومجازاتهم (أولى النعمة) أرباب النعم ، وهم صناديد قریش
 (ومهلهم قليلا) امهالا أوزمانا قليلا (إن لدينا أنكالا) هذا آلة لما قبله ، جمع نكلا : قيودا ثقيلة
 (وجعجا) نارا محرقة (وطعاما ذا غصة) غير ساغ فى الحلق لا ينزل ولا يخرج ، وهو الزقوم وغيره (وعذابا
 ألجبا) وجعجا (يوم ترجف الأرض والجبال) يتزلزلان ويتحركان ، وهو يوم القيامة (وكانت الجبال كدثبا
 مهيلا) الدثب الرمل المجتمع ، يقال : كثبت الشيء إذا جمعه فهو كثيب : أى مكتوب ، والمهيل هو الذى
 إذا أخذت منه شيئا تبعك : أى مشورا (إنا أرسلنا إليك) يا أهل مكة (رسولا شاهدا عليكم) يشهد
 عليكم يوم القيامة بالكذب والكفر (كما أرسلنا إلى فرعون رسولا) وهو موسى عليه السلام (فعصى
 فرعون الرسول) المتقدم (فأخذناه أخذاً وبیلا) ثقیلا (فكيف تقون ان كفرتم يوما يعمل الولدان
 شيئا) أى فكيف تقون فى الآخرة عذاب يوم يجعل الولدان شيئا ان كفرتم فى الدنيا ، فهو يجعل الولدان
 شيئا من شدة هول ، وهذا تمثيل لشدة ذلك اليوم ، فإن الهموم تضعف القوى وتسرع بالشيب ، ثم وصف
 اليوم بالشدة أيضا فقال (السماء) على عظمتها وشدة إحكامها تنفطر به وتشتق فكيف يكون غيرها من
 الخلاق ، وقوله (منفطر) إنما ذكر على تأويل السماء بالسقف فهو منشق (به) أى يوم القيامة : أى
 أنها تنفطر بسبب شدة ذلك اليوم وهوله (كان وعده مفعولا) أى وعد الله كانتا (إن هذه) الآيات
 المشتملة على الوعيد (تذكرة) موعظة (فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا) أى فمن شاء انقطع بها واتخذ سبيلا
 إلى الله بالتقوى والخشية (إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثنى الليل) أى أقل منه وأكثر من النصف
 (ونصفه وثله وطائفه من الذين معك) أى تقوم أنت وطائفة من المؤمنين (والله يقدر الليل والنهار) إذ
 لا يعلم مقادير ساعاتهما على الحقيقة إلا هو (علم أن ان نحسوه) أى ان نحسوا تقدير الأوقات ، وان
 نستطيعوا ضبط الساعات (فتأب عليكم) بالترخيص فى ترك القيام وعفا عنكم ورفع المشقة عنكم (فأقرءوا
 ما تيسر من القرآن) أى فصلوا ما تيسر عليكم من صلاة الليل ، فصارت التهجد على أى وجه كان واجبا غير
 مقيد بنصف ولا غيره ، ثم نسخ بالصلاة الخمس (علم أن سيكون) أى أنه سيكون (منكم مرضى) فلا
 يقدر على القيام بالليل (وآخرون بضربون فى الأرض) يسافرون حال كونهم (يبتغون من فضل الله)
 من رزقه بالتجارة أو طلب العلم (وآخرون يقانون فى سبيل الله) فلا فرق فى الاسلام بين الجهاد فى قتال العدو

والجهاد في التجارة لنفع المسلمين وطلب العلم . قال ابن مسعود رضى الله عنه : « أيمأ رجل جلب شيئا إلى مدينة من مدائن الاسلام صابرا محتسبا فباعه بسعر يومه كان عند الله من الشهداء ، ثم قرأ عبدا الله قوله تعالى : « وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله » (فآقروا ماتيسر منه) بمعنى ، صلوا وأعاده للتكرير (وأقيموا الصلاة) المفروضة ، كأنه يقول : صلوا وداوموا على الصلاة وقوموها ، فلا تكون قلوبكم غافلة ، ولا أفعالكم خارجة عن النظام المطلوب لها (وآتوا الزكاة) الواجبة (وأقروا الله قرضا حسنا) بالنفقات الأخرى في سبيل الخيرات ، لأن ذلك باق لكم عند الله (وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله) أى تجدوا ثوابه ، وقوله (هو خيرا) مفعول ثان لتجدوه ، وهو ضمير الفصل (وأعظم أجرا) من الذى تؤخرونه إلى الوصية عند الموت (واستغفروا الله) في جميع أحوالكم (إن الله غفور رحيم) يستر على أهل الذنوب والتقصير . انتهى التفسير اللفظي للسورة كلها ، والحمد لله رب العالمين .

في هذه السورة لطيفتان

- (١) في قوله تعالى : « ورتل القرآن ترتيلا » .
 (٢) في قوله تعالى : « وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله » الخ .

اللطيفة الأولى في قوله تعالى : ورتل القرآن ترتيلا

مع قوله تعالى : « فآقروا ماتيسر من القرآن »

فهنا أمران : قراءة القرآن ، وترتيبه . أما قراءة القرآن فقد فسر بها قوله تعالى : « فآقروا ماتيسر منه » أى من القرآن ، وذلك بدراسته وتحصيل حفظه ، والأيعرض للنسيان ، فيقرأ القرآن عشر آيات في اليوم واللييلة ، أو عشرين فيهما ، أو أربعين ، أو خمسين ، أو مائة ، أو مائتي آية ، أو خمسمائة آية ، وقد ورد في كل ذلك أحاديث ، والمقصود أن الانسان لا يغفل عن قراءته ولو عشر آيات في اليوم واللييلة ، أما اذا زاد كثيرا فليس بمحمود ، ألا ترى إلى عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما في الصحيحين قال « قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألم أخبر أنك تصوم الدهر وتقرأ القرآن كل ليلة ؟ قلت بلى يا رسول الله ولم أرد بذلك إلا الخير ، قال فصم صوم داود ، وكان أعبد الناس ، وأقرأ القرآن في كل شهر مرة ، قال قلت يا نبي الله : إني أطيع أفضل من ذلك ، قال فآقروا في كل عشر ، قال قلت يا رسول الله إني أطيع أفضل من ذلك ، قال فآقروا في سبع ولا ترد على ذلك » .

فقد نهى صلى الله عليه وسلم أن يتجاوز سبع القرآن كل يوم ولييلة ، فأنزله بذلك إلى سبع ما كان يقرأ في كل يوم ولييلة ، والقصد من هذا النهى أن يرتله ويقف على معناه .

ولقد ورد في الخمسين آية وما قبلها من الأربعين والعشرين والعشرة أن صاحبها لا يكون من الغافلين ، وورد في المائة أنه يكون من القانتين ، وفي المائتين أن القرآن لا يحاجه ، وفي الخمسمائة أنه يكون له قنطار من الأجر ، وهذه الأحاديث وإن لم تكن في الصحاح فإنها تدلنا على ما كان عليه آبؤنا في الصدر الأول . أما حديث عبد الله بن عمرو بن العاص فهو في الصحيحين .

الكلام على ترتيل القرآن

وأما ترتيله فقد مر بيانه ، وملخصه :

- (١) انها تكون مدا .
 (٢) وأن يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم يمدّ بيسم الله ، ويمدّ بالرحمن ، ويمدّ بالرحيم .
 (٣) وتدلون القراءة مفسرة حرفا حرفا .
 (٤) ويقول [الحمد لله رب العالمين] ويقف .
 (٥) ويقول [الرحمن الرحيم] ثم يقف ، ويقول [مالك يوم الدين] ثم يقف ، ومعنى هذا أنه يقطع قراءته آية آية ، وبروى أنه صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة كان يقرأ على ناقته سورة الفتح فرجع في قراءته .

هذا ملخص ما جاء في أحاديث البخاري والنسائي والترمذي ومسلم ، وبهذا تم الكلام على اللطيفة الأولى في قوله تعالى : « ورتل القرآن ترتيلا » ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثانية

في قوله تعالى : وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله

هاأنذا نقلت لك كلام ابن مسعود في تفسير هذه الآية : أن التاجر الصالح يكون كالجاهد ، وأقول لك الآن ما قاله ابن عمر : ما خلق الله مودة أموتها بعد القتل في سبيل الله أحب إلى من أن أموت بين شعبتي جبل أضرب في الأرض أبتغي من فضل الله .

فهذا عبد الله بن مسعود ، وهذا ابن عمر كلاهما يفسر الآية بهذا ، فقد سويّا بين السفر اطلب الرزق وبين الجهاد ، وأن الموت في كل منهما شهادة ، وإذا كنا نسمع الأئمة رضی الله عنهم يستدلون بقوله تعالى « فاعتبروا يا أولي الأبصار » على ربح الأحكام والفقهية ، وهو القياس ، لأن أصول الفقه ترجع إلى الأربعة : الكتاب ، والسنة ، والاجماع ، والقياس . فذا كان ربح علم الفقه يرجع إلى القياس المبني على هذه الآية فكيف يكون الأمر بالآية التي نحن فيها ؟ وهي قوله تعالى : « وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله » ؟ .

بالت شعري : ماذا يكون في هذه الآية للمسلمين الذين هم الآن ثلثمائة وستون مليوناً ؟ هؤلاء المسلمون الذين أخنى عليهم الدهر ، لماذا ؟ لأن تعاليمهم ناقصة براء ، إن علماء الاسلام قد دفنت منهم هذه الآية دفناً ، ومعنى هذا أنهم واردها عن العيون ودفنوها بين دفتي المصحف : أي لم يظهروها للأمة الاسلامية مشروحة كما شرحت الصلاة والزكاة .

أيها المسلمون : عجبت لكم ! كيف تكون الصلاة ؟ وكيف تدون الزكاة ؟ فوالله لازكاة ولا صلاة ولا حج ولا علم ولا عمل إذا لم يكن عند الأمة ثروة ، إذن تكون الثروة والقوة مقدمتان على الزكاة وعلى الحج ، ومن أين يزكي الناس إلا إذا كان عندهم مال ، ومن أين يحجون إذا لم يكن عندهم مال ، بل كيف يصلون إذا كانوا جياعا لاملال عندهم ، بل كيف يصلون ويصومون ويحجون إذا لم تكن بلادهم آمنة مطمئنة ، ولاتكون البلاد آمنة مطمئنة من لصوصها في الداخل ، ومن أعدائها في الخارج ، إلا إذا كانت الدولة ذات مدافع وطيارات وجيوش جرّارة ، وكيف يتم ذلك إلا بعامل ونظام وحكومة ؟ .

يا أمة الاسلام : أليس ذلك كله قبل الزكاة : أي ان وجود المال مقدم على وجود الزكاة والحج والجهاد في سبيل الله .

القاعدة فروعاً كثيرة ، منها أن الانسان اذا غسل يديه إلى المرفقين يجب عليه أن يغسل وراء المرفقين جزءاً من باب ملائمة الواجب إلا به فهو واجب ، بل هم قالوا أيضاً قولاً اجالياً : إن العلوم والصناعات كلها واجبة على الأمة وجوباً كفافياً .

فليخصص لكل علم ولكل صناعة طائفة من الأمة يكون استعدادهم أقبل لذلك من غيرهم . لقد راعى الله ذلك وأمره فذكر الضرب في الأرض والانتفاع من فضله قبل أن يذكر الجهد . فكأنه جعل لكل الأمور المعاشية مقدماً على الجهاد ، فهو إذن كالطهارة التي لا تصح الصلاة إلا بها ، فإذا دل انتهاء : أنه يجب على المصلي أن يقدم الطهارة تصح الصلاة فليقل علماء الاسلام الآن بأعلى صوت : لا تقدم علوم الصناعة والسياسة والتجارة واستخراج المعادن ، وعلوم طبقات الأرض ، وعلوم نظام الأمم أوروبا ، وعلوم نظام المدارس ، وعلوم نظام الطيران في البحر ، وعلوم السفن في البحر ، وعلوم الريج . وعلوم الكهرباء ، وعلوم المناطيس ، وعلوم القواصص ، وعلوم الغازات الخائفة ، وعلوم الكواكب الثابتة ، وعلوم الكواكب السيارة ، وعلوم النبات ، وعلوم الحيوان ، وعلوم الطب ، وعلوم البيطرة ، إلى غير ذلك .

ليقل علماء الاسلام : فليقدم هذه العلوم وهذه الصناعات على المدافعة عن الأوطان التي هي بعض أنواع الجهاد . إذ لا يمكن المدافعة عن البلاد اليوم إلا بهذه العلوم وبهذه الصناعات ، وإذا كان الجهاد واجباً ، فهذه مقدماته ، وملائمة الواجب إلا به فهو واجب . وإنما الفرق بين هذه العلوم وبين الوضوء للصلاة أن الوضوء يجب على الفرد وأن هذه العلوم يجب على المجموع . إن المسلمين ناموا عن الواجب الكفائي الذي يعم الأمة كلها غفلة وجهالة ، أو ما علموا أن فرض الكفاية إذا فات ماتت الأمة . أما فرض العين فانه إذا فات لم يستضر به إلا الذي أهمل فيه . ففرض الكفاية عظيم جداً جليل ثمرته جليلة ، والثواب عليه لا حد له ، وضياح البلاد والعباد مرتب على أهمله ، ولذلك نرى أن أمنا الاسلامية لما جهلت هذا الفرض تخطفتها أم أوروبا .

أمة الاسلام التي تراها اليوم ساكنة ساكنة وأم أوروبا تنفق معاقلة أهل مراکش الذين يجاربون مع الأمير عبد الكريم ، حتى أن أمريكا أرسلت طائرات لمساعدة فرنسا وإسبانيا ضده ، وأنا أكتب هذه السطور ، وأم الاسلام لضعفها وقلة الحكماء فيها لا تبدي حراً كالجهلها وخوفها من أوروبا ، ولأن أغلب بلاد الاسلام في أيدي الفرنجة ، ألا قاتل الله الجهالة .

فيأله : كيف غفل العلماء قديماً ؟ استغفروا الله ، انهم ما غفلوا ، ان ماقلته مستمد من كلامهم ، ولكن أقول : أهملوا ، أهملوا ، أي أهمل الأمر صغارهم ، أما حكمائهم فقد رخصوه ولم يصل لعامة المسلمين . ترك العلماء ملوك الاسلام يحمشون الجيوش ويقهرون الأعداء بقوة السياسة والسيف ، ولم يساعدوا العلماء بما يقوى أركان دولهم ، كان يجب أن يبشوا في الشعب ما ذكر في بطن الكتب أن ذلك كله جهاد ، كان يجب أن ينتشر في البلاد ، كان يجب أن تؤلف له كتب في ألف للصلاة والزكاة والبيوع والفرائض .

فيأله : فيأله شعري من أين يكون بيوع أو موارث أو قضايا وعبادات إذا لم تكن البلاد فيها كل ما تحتاج إليه ؟ فكيف أظننا نحن المسلمين في الفترات ولم نطل في الشجرات ، الفترات هي الشرائع والأحكام والعبادات كالملة والميراث والبيوع والصلاة والزكاة ، ولم نطل في الأصول : أي في الأشياء نفسها المخلوقة كالنبات والحيوان والمعادن والزراعة والتجارة والسياسة والعلوم الحديثة والقديمة ، لم نطل في هذه مع أنه لا دين ولا شرع إلا بعد توافر تلك الأسباب كما جعلت الطهارة قبل الصلاة ، فمن لم يتوضأ للصلاة له ، هكذا في الأمم إذا لم يكن لديها ما تحتاج إليه بمسألة زمانها فلا شريعة لها ولا جهاد ولا عبادات ولا بيوع ، لأن مرافقها تصبح بيد غيرها ، وتكون محبوسة في يد دولة أجنبية تذلها وتفعل بها ما فعل الانسان في الحيوان من ذبح وحل عليه

علم الله أن أمة الاسلام ستدسى هذه الواجبات بغفلة صغار العلماء ، وعلم أننا سنصبح في يد أوروبا فأنزله هذه الآيات لتنتقطن لها ونقرأها ونفهم معناها ، فقدم الضرب في الأرض والابتغاء من فضل الله على الجهاد من باب تقديم المقتنيات على النتائج ، وتقديم الوضوء على الصلاة ، وقد أخذ الشافعي رضي الله عنه في الوضوء بحديث : « ابدءوا بما بدأ الله به » ولذلك أوجب غسل الوجه قبل غسل اليدين ، وهكذا ما بعدها مراعاة لهذا الحديث ، وإذا كانت مسألة الوضوء التي لا تخرب دولة إذا قدم الوجه على اليدين أو بالعكس قد تحترى لها الأئمة إلى هذا الحد وقدموا ما قدمه الله ، أفلا يكون ما يقال هناك يقال هنا ، وهو أن نظام الأمة يجب العناية به حتى يتسنى لنا الجهاد ، إذ لا جهاد إلا بما يقم أسر البلاد من تجارة وصناعة وزراعة وأصلاح طرق وكهرباء وبحار وقنارات حديدية وهكذا عما لا يمكن حصره الآن من العلوم .

واعلمك تقول : هناك أمور واجبة وهنا أمر مباح ، قول : إن هذا هو الخطأ في الفهم ، هذا المباح الذي ذكرته قد أقررت بأنه فرض كفاية فأصبح واجبا على الأمة ، فلا بد من أن الحكومات الاسلامية تخصص لكل طائفة من الأمة أعمالا مما تجب في الوقت الذي هي فيه ، واعلمك تذكر ما نقلته عن مدارس أمريكا في [سورة آل عمران] وأنهم يعلمون في المدارس من الصناعات التي تبلغ نحو سبعة آلاف صنعة تحوّلها إلى صنعة لتلاميذ المدارس ، وأن الصناعات عامة هناك ، وأن الصانع هناك يعتبر كالمهندس وكالطبيب وكالقاضي وما أشبه ذلك .

لعمرك ان هذا هو الحق ، وان هذا هو ديننا ، ديننا الذي يقال فيه : « وآخرون يضرّبون في الأرض ينتفعون من فضل الله » العلم ، يتفعون من فضل الله الصناعة : المعدن من الأرض ، طبقات الأرض ، سياسة الأمم ، علوم الجوّ ، علوم السفن ، وهكذا مما أسلفناه ، كل هذه داخلة في قوله : « ينتفعون من فضل الله » وجعل الذين يقاتلون في سبيل الله فريقا ، وهذا الفريق آخره ، وانما آخره لأجلنا نحن الآن لأجل أن أقول في هذا التفسير لكم اقرأوا كلام ابن مسعود ، واقرأوا كلام ابن عمرو بن العاص وانظروا أليس المعنى عندهما هو ما قررناه ؟ ولأجل أن أقول : قد قدم الله هذه العلوم والصناعات على الجهاد كما قدم الوضوء على الصلاة ليعلم المسلم أنه ان حفر في طبقات الأرض لاستخراج المعادن فهو في سبيل الله ، وان تاجر فهو مجاهد في سبيل الله ، وان قرأ علم البطرية فهو مجاهد في سبيل الله ، وان قرأ علم النبات فهو مجاهد في سبيل الله ، وان قرأ علم الحيوان فهو مجاهد في سبيل الله ، وان قرأ علم السياسة فهو مجاهد في سبيل الله ، وان قرأ علم الطيارات فهو مجاهد في سبيل الله ، وان قرأ الفواصات فهو مجاهد في سبيل الله ، وان قرأ علم الفلك فهو مجاهد في سبيل الله ، بل هو مقدم على من يقاتل الأعداء ، لأنه لا يتم قتال العدو إلا بهذه العلوم ، ومن أصابح الطرق الحديدية وآتى عليها بالقطارات فهو مجاهد في سبيل الله ، وهكذا ، فيا ليت شعري لم لا نؤلف كتب هذا كثيرة ؟ انتهى .

قاعدة عامة لحياة الأمم

اعلم أن الله عز وجل لما خلقنا في الأرض أعطانا مواهب ، وهي الأعضاء والحواس والعقول ، وأعطانا منحا خارجية ، وهي الأرض وما أفلت ، والسماء وما أظلت ، وأوجب علينا أن نستعمل النعمتين : نعمة أنفسنا ، ونعمة الآفاق ، فيجب علينا أن نقوى الأعضاء كاليدن والرجلين وسائر الأعضاء بالتمرين والحركات العضلية والمشي ، أو الأعمال في الصناعات ، وأن نبحت فيما حولنا ، وفي الأرض والسماء ، نستخرج ما كن فيها من المواهب الطبيعية والعلمية ، وهكذا لنقوى حاسة السمع والبصر فبنا ، وهكذا قوة الخيال والذاكرة

والمفكرة والحافظة والواهمة ، وقوة اليد بالكتابة والصناعات ، فاذن يجب علينا تقوية الأعضاء الخارجة والحواس الظاهرة والحواس الباطنة بالطرق العلمية المذكورة في محالها . كل ذلك مأخوذ من قوله تعالى : « وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله ، وآخرون يقابلون في سبيل الله » .

العبادة والأعمال الأخرى

هذه [سورة المزمل] ابتدئت بالعبادة والصلاة بالليل . وكان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يصلون نصف الليل ، أو أكثر أو أقل ، متى كان ذلك ؟ كان ذلك قبل أن يستفحل أمر الإسلام ، وتقوم الدولة على أساس متين ، فلما اتسع نطاق المسلمين هاجر قوم إلى الحبشة ، وآخرون إلى المدينة ، واتسع نطاق التجارة ، فلما حصل ذلك وسع الله لهم نطاق العمل ، فبعد أن كان صلاته في جوف الليل تستغرق نثيه أو نصفه أصبح القوم فرقا شتى : ففرقة شغلها أمر التجارة ، وفرقة شغلها أمر الجهاد وهكذا ، لذلك وسع الله أمر الطاعة وجعلها شاملة كاملة ، وأفاد الناس أن هذه الأعمال هي من طاعات الله ، بل أقول إن الأمر فوق ذلك فانا إذا وجدنا انسانا يصلح لعلوم الزراعة ، أو لنفس الزراعة ، أو لأى عمل من الأعمال ، ووجدناه اشتغل بالعبادة أو بالصوم وجب قهره والضغط عليه وعقابه ليتخذ له عملا لسعادة نفسه وأمته ، فن قدر على علم أو صناعة نافعة للعموم فذلك أفضل ، فان عجز فليعمل عملا نافعا في تجارة ، أو أغانة للملهوف ، أو نحو ذلك ، فان عجز عن هذا كله فليلتزم العبادات ليلا ونهارا ، فإن الصحابة لما لم ينسح نطاق أعمالهم كلفوا بالعبادات الشاقة ، فلما كثرت عليهم الأعمال وقويت شوكتهم عملوا وعد ذلك من الجهاد ، ولو كان الانهماك في العبادة أفضل لأمر الله بذلك ، ولكن الله صرف الناس عن المشاق في صلاة الليل إلى المشاق في التجارة عند الاقتضاء فذلك هو أفضل من صلوات النوافل ، فلافرق بين علم وعلم ، ولا بين صناعة وصناعة ، كل ذلك حقا أفضل من العبادة كما قاله علمائنا ، وكما نص عليه الامام الغزالي في [بداية الهداية] .

فعلى حكام المسلمين أن يقهروا رجال الصوفية جميعا على الأعمال ، وأن يستخرجوا انسانا يصلحون للأعمال من التكايا ليعملوا أو ليتعلموا صناعات أو علومها نافعة للأمة ، وحرام أن يترك المسلمون سهوا بدون ضابط ولا قانون .

جل الله : يقول الله في أول السورة : « يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا » أخرجه وأخرج أصحابه من فراشهم إلى الصلاة ، ثم أخرجهم من الصلاة : أى من الاكثار منها إلى الجهاد العام الذى يشمل كل علم وكل صناعة ، كأنه تعالى بهذه الإشارة يقول : اذا كان نبيكم وهو مزمل في ثيابه وهو أكثركم طاعة قد أمرناه بالقيام فهكذا أنتم وأنتم أقل منه طاعة لنخرجكم إلى العبادات وإلى الأعمال وأن تكونوا كالمرسلين ، النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن كاسلا قط ، بل كان مستمرا في طاعة ربه على دين الخليل وقد نزل له الوحي ولما ارتجف فؤاده وزملوه في ثيابه أمره أن يقوم الليل فن باب أولى أمته الذين هم مقصرون في جميع أعمالهم حثهم الله على العمل وعلى العبادات ، وكأنه يقول : اذا كان النبي قد زمل في ثيابه لحظة قد أمرته بالعمل فكيف بكم وأنتم لانهملون وكل الأمم حولكم عاملة ؟ فأنتم كأنكم منملون في ثيابكم أبدا ، فقوموا للعبادة وقوموا لغيرها من علم وصناعة .

ومن عجب أنه لم يقرن الجهاد وابتغاء الفضل من الأرض والعبادة كلها معا في سورة واحدة إلا هذه ، ولم يظهر في سورة فضل الضرب في الأرض مثل ما ظهر في هذه السورة ، فكأن لفظ المزمل تشير إلى أن كل ما يوجب الانقطاع عن العمل العام والعمل الخاص يجب أن يتخلص منه ، فكأن هذه السورة نزلت لحث الأمة على الأعمال كلها ، بل إن النبي صلى الله عليه وسلم مرسل لنا وقص الكلام علينا لارشادنا ، فان

هذا القرآن الآن إنما هو لنا نحن الأحياء نفتق به ، إن نزول هذه السورة بهذا الترتيب عجيب يوجب عليهم القيام بالليل ثم ينسخ الوجوب عليهم ويبقى على النبي صلى الله عليه وسلم ويوجههم إلى الأعمال العاتية ، لماذا هذا كله ؟ ولماذا يقص علينا ؟ لابد أن يكون المقصد أن نتطرن نحن الآن ، فكما انشغلت أعمال الأمة شمرنا عن ساعد الجد وفتحنا أبواباً لأعمال جديدة ولا تقف عند حد ، والله فتح لنا الباب فقال انظروا ها أنا ذا شغلهم أولاً بالعبادة ثم فرقهم فرقا للعبادة وللعلم وللجهاد وللنجارة ، فهكذا أنتم افعلوا ما فعلته أنا مع الصحابة ، فإن لم يكن إلا العبادة فيها ، وإن كانت لكم دولة وأمة واتسع نطاق الأعمال فلا تدعوها وترجعوا للمساجد ، بل انشروا في الأرض وابتغوا من فضلي ، وأما صلاة الليل فهي نافذة لكم ، فافعلوا منها ما تقدرون عليه ، وإياكم أن تشغلكم عما بهمكم من أمور الحياة الدنيا .

لقد تدهورت الأمة الإسلامية اليوم بالنسبة لقراءة القرآن ، وخالفت ما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح وما أمر الله به في القرآن ، أليس من المحزن أن المسلمين اليوم في مصر وما عانيتها يحفظون القرآن ويقرءونه صباحا ومساءً بهذونه هذا : أي يسرعون فيه اسراعاً مع أن القرآن جاء لتذكركم فيه ، وانظر كيف يأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقرأ في شهر ، ولما أطال ابن عمر القول عليه قال لا تزد عن سبعة أيام : أي أن ذلك أقل مما يمكن الفهم فيه .

إن الأمة الإسلامية منبت وورثت بطلاقة من المحدثين أيام العصر الأول اخترعوا أحاديث ودونوها ، وزعموا أنهم بها يتقربون لله تعالى ، وذكروا فيها فضائل وصفات وثواب لمن قرأ سورة كذا ، فظن الناس أن هذا حق فدرجوا عليه وقرءوا القرآن وهذا وهماً : أي أسرعوا في قراءته ، وهذا واضح في كتاب [الانتقان في علوم القرآن] فأصبحت الأمة اليوم فريقين : فريق لا يهتم بهذا الدين ولا بالقرآن ، وفريق يقرأ القرآن ولا يتدبره ، ويقرؤه قوم في رمضان مسرعين ، ويقرءون القرآن في كل ثلاثة أيام ، أليس هذا من الجهالة العمياء ، قوم يحفظون القرآن ولا يعقلون ، وقوم لا يؤمنون بهذا الدين ، وهم أكثر من درسوا العلوم بأوروبا ، فالقرءاء والعباد قلوبهم في غطاء وهم عنوان الاسلام ، فالناظر إليهم يقول هؤلاء عنوان الدين ، وما هم بعنوان الدين ، وإنما هم جهال الدين .

مزية الاسلام في مستقبل الزمان

مزية الاسلام أنه سيعمل بهذه السورة وتفرق الأعمال على مجموع الأمة كما ظهر في [سورة البقرة] ووضح هناك فقرء ، وأن تكون جميع العلوم منظورة فيها جهة الحياة الدنيا وجهة خالقها ، فتكون كل حرفة وكل علم مشوقاً إلى خالق هذا العالم على نحو ما يناسب هذا التفسير فيكون رجال الدين من هذه الأمة ملهمين بأكثر العلوم إجمالاً ، وعليه يعيشون في كل علم هم أربابهم إلى استكناه حقائقه مع التشويق لمبدعه من طريق هذا العلم والصناعة التي يكون المرء قائماً بها ، والمتصفح لهذا التفسير يقدر أن يفعل ذلك في كل علم وكل صناعة ، فإن فيه من كل فن طرفاً مطابقاً على الدين مذكوراً فيه الجهة الإلهية المشقة للقيام الأقدس ، وهذه المزية توجب النبوغ في العلوم ، وتكون هذه الأمة أرقى الأمم وأعلاها علوماً وصناعات .

غرور المسلمين اليوم

كم من مسلم سمع حديثاً مروياً في فضل الحج ، أوفى فضل الصلاة ، أوفى فضل قراءة القرآن ، أوفى فضل الصدقة ، أوفى فضل عيادة المريض فهدأ له عقله ، وسوّلت له نفسه ، ودله شيخه أن الانقطاع إلى تلك الطاعة والاكتفاء منها أفضل ، وحينئذ يصبح ذلك المسلم مغروراً ، وإن المغرورين من المسلمين قد أوضحناهم

في سورة [آل عمران] عند قوله تعالى : « وغرتهم في دينهم ما كانوا يفترون » فقد تلصصنا ما قاله الامام الغزالي هناك ، واستبان في ذلك المقام أن المسلمين اليوم مغترون ، وهذا لغرور ورشاه عن اقترون المتأخرة إذ أصبح المسلمون لامرشد ين لهم فتركوا وشأنهم يتخبطون في دياجير الجهالة ، واستنام كل فريق في طاعة من الطاعات ، فكل واحد من صالحى الامة أصبح مشغولا بعمل من الأعمال الصالحة كقراءة الأوراد التي وضعها الشيوخ ، وكالحج ، وكقراءة القرآن ، ويكثر من ذلك ، ويتركون الامة ولا يذكرون فيها ، ولا في صناعاتها ، ولا في علومها ، ولا فيما يحفظ كيانها .

كل ذلك ابتلاء من الله للامة ، وسيقيض من قراء هذا التفسير ومن غيرهم من يفهمون الامة أن العلوم كلها والصناعات عبادات وجهاد ، وأن قوله تعالى « يتغنون من فضل الله » بعد قوله « وآخرون يضربون في الأرض » يشمل كل علم وكل صناعة ، وأن اختيار لفظ « من فضل الله » وعدم ذكر لفظ التجارة التي كانت أهم أغراض الصحابة في الأعمال الدنيوية قد نظر فيه من جنبات القدس الأعلى إلى مانحن فيه الآن ، ففضل الله أعم من العلوم والصناعات وكل ما يحتاج إليه في هذه الحياة الدنيا .

انظر ما تقدم في سورة [آل عمران] فهناك تفصيل المغرورين كما ذكرت لك وتفصيل ما يجب على الامة من تعميم العلوم الخ وكيف يتحد أبناء العرب من مراكش إلى العراق ، وكيف كانوا متفرقين بالجهالة ، فكلم من امرئ قرأ الأحاديث الموضوعة ، أو الضعيفة المروية في فضل عمل من الأعمال وقوت على نفسه وعلى أمته مزاياء نفسه وما انطوت عليه من شمائل شريفة ، ومزاياء منيفة ، وعلوم لطيفة ، وصناعات دقيقة ، وجهل أن هذه المذكورات من أجل ما يتقوى دين الاسلام .

نام العلماء ولم يذيعوا أمثال ما نقله السيوطي رحمه الله في كتاب الاتقان عن قوم من محدثين ، وكيف كثروا في القرون الأولى وذاع وملا الأصقاع ، تلك الأحاديث الواردة في فضل السور القرآنية وقراءتها ، وكيف كان أحد التابعين يدهش حينما يسمع تلك الروايات ، فركب ناقته وسافر أياما وأياما وقابل الراوى الذى روى الحديث ، فذله على من تلقاه عنده ، فسافر إليه عشرات الأيام ، كل ذلك وهو يضرب في الأرض يبتغى احقاق الحق وابطال الباطل حتى وصل إلى من أذاع هذا الحديث ، فوجده رجلا زاهدا صالحا ، فقال له : كيف تقول أنك رويت كذا عن فلان وأنا لم أرو عنه ؟ فقال ذلك الصالح : اننى أنا الذى زورت هذه الأحاديث لوجه الله تعالى ، فقال وكيف ذلك ؟ قال : لآنى وجدت المسلمين قد أكبوا على علم الفقه الذى أذاعه أبو حنيفة النعمان ، فنفث أن يترك المسلمون القرآن إذا اشتغلوا بعلم أبى حنيفة ، فقلت هذه الأحاديث ورويتها وأذعتها ليحفظ القرآن ، فأكثر المسلمين اليوم مسحورون بأمثال تلك الأحاديث وهم تاركون أشئون دينهم ، ثم إن القرآن يقرأ مجرد التلاوة لا لفهم ، وهذه من الطامات الكبرى .

إن الله خلقنا في الأرض ورزقنا مواهب بدنية ، وأعما أرضية ، ومنحنا سماوية ، وقال : يا عبادى : هذه نعمى فاشكروها ، وهذه آياتى فابتغوها ، وهذه أرضى فاضربوا فيها ، وزينوا أنفسكم بالعلوم والصناعات ، واستخرجوا كنوزى ، فأتى وعزتى وجلالى ما خلقها باطلا ، ولا أودعها أرضكم لتكون عبثا عليها بلا عائدة ، فلم خلقت فيكم الأسماع والأبصار ، ولم علمتكم سبل الاستبصار ، ولم زودتكم بنعمة العقل ، ودقة السمع ، وبهجة البصر ، وأعطيكم أقوى سلاح من الأتضاء الظاهرة والجوارح القوية ، ومكنتكم في الأرض تمكينا وسلطتكم عليها تسليطا ، وقلت لكم : ههنا هذه أرضى فاعمروها ، وهذه حواسكم وجوارحكم فلا تنهموها ، وأنزلت عليكم في كتابكم وآخرون يضربون في الأرض يتغنون من فضلى فيها .

ويقول للمسلمين : لا تقولكم اتبعتموها ، ولا آياتى فاهتموها ، ولا نعمى قبلتموها ، ولا حواسكم توليتموها

ولاجوارحكم مرتبها ، فهل أعطى نعيم لأجل جهلكم ، أو أبقى أرضي بلا زرع لغفلتكم ؟ كلا . فأننا الحكيم العليم ، فان توليتم عن اصلاح حواسكم وجوارحكم وعمارة أرضكم بطشت بكم وسلتها لغيركم جزاء وفاقا ، الأرض أرضي ، والناس عبادي ، وأنا عالم من هو الذي يصالح لاستخراج ثمراتها والقيام بأمرها ، فهذا هو الذي أسلمه قيادها .

أيها المسلمون : كنتم قديما أولى من غيركم فسلعتكم قياد أرضي ، والآن وجدت تعاليجكم مشوهة ، وعنومكم منحرفة ، ودروسكم مظلمة ، فسابتكم دواها وأعطينها لغيركم ، وهاعودا أن الأوان لظهور مالم يظهر من كوامن غرائزكم ، وبواطن أرضكم ، ومزايأ نفوسكم ، واشراق علومكم ، ولذلك بدت طلائع العلم والحكمة في بلاد الاسلام ، وظهر أرباب العقول اليوم في بلاد العرب والترك والفرس ، وسيزداد الأمر وتأخذ الأمم الاسلامية مكانها : « اعلّموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون » انتهى تفسير سورة المزمل صباح يوم الثلاثاء ٢١ يوليو سنة ١٩٢٥ م وهو التاسع والعشرون من شهر ذي الحجة الحرام من سنة ١٣٤٣ هجرية ، والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة المدثر

هي مكية

آياتها ٥٦ — نزلت بعد سورة المزمل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ
فَاهْجُرْ * وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْبِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ * فَإِذَا تُقِرَّ فِي النَّاقُورِ * فَذَلِكَ
يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ * ذُرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ
لَهُ مَالًا مَمْدُودًا * وَبَيْنَ شُهُودًا * وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّا
إِنَّهُ كَانَ لَا يَأْتِنَا عَنِيدًا * سَأَرْهُقُهُ صَعُودًا * إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ *
ثُمَّ قَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَفَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَفَالَ إِنْ
هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ * إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ * سَأَصْلِيهِ سَقَرًا * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ *
لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ * لَوَاحِةٌ لِلْبَشَرِ * عَلَيْهَا نِسْمَةُ عَشَرَ * وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا
مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَنفِقُوا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَرَدَّادَ
الَّذِينَ آمَنُوا إِيْمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ

مَرْضَى وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ
وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ * كَلَّا وَالْقَمَرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا
أُدْبَرَ * وَالصُّبْحِ إِذَا أَصْفَرَ * إِنَّهَا لَإِخْدَى السُّبُرِ * نَذِيرًا لِلْبَشَرِ * لِمَن شَاءَ
مِنْكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ * كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ *
فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ
الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ
بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ * فَسَاءَ تَفَقُّهُمُ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ * فَهَلْهُمْ عَنِ
التَّذْكَرَةِ مُغْرَضِينَ * كَانَتْهُمْ نُحُورٌ مُسْتَنْفِرَةٌ * فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ * بَلْ يُرِيدُ كُلُّ
أَمْرٍ مِنْهُمْ أَن يُوَفَّى شُحْفًا مُنْشَرَةً * كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ * كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ *
فَمَن شَاءَ ذَكَّرَهُ * وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمُنْفِرَةِ *

مقاصد هذه السورة

[أولا] ست أوامر للنبي صلى الله عليه وسلم وهي :

- (١) الانذار .
- (٢) وتكبير الله .
- (٣) وتطهير الثياب .
- (٤) وهجر ما يؤدى إلى العذاب .
- (٥) والالتصق على أصحابك بما تعلمهم من أمر الدين وتبلغهم من أمر الوحي كالمتكبر بذلك عليهم ،
ولا على الفقراء بما تعطيهم استكثارا منك لتلك العطايا ، فتعليمك وعطاياك يجب أن تكون موجبة
لجناب الحق مع الاخلاص وعدم المنة على المتعلمين ، ولا على الفقراء ، فان الحق عباده ، وأنت
جعلت أبا لهم ، هذا في أمر أصحابك وأتباعك .
- (٦) فأما الكفار بك والمؤذون لك فاصبر على أذاهم ، حتى فعلت ذلك كنت شاكرا صابرا .

[ثانيا] تبين العقاب المنزل على من خالف الدين وعاند الرسول دلالة على أن صبره صلى الله عليه وسلم
عليهم عاقبته النصر له في الدنيا والآخرة وخذلان المعاندين ، وذكر من هؤلاء أوصاف الوليد بن المغيرة وأنه
أعطى مالا وفيرا وعشرة بنين ورتاسة ووجاهة ، فعاقبه الله بعد نزول هذه السورة فنقصت أحواله كلها في
الدنيا : « وللعذاب الآخرة أخزى » ، وذكر كيف استهزأ برسول الله صلى الله عليه وسلم وأدبر واستكبر
وذم القرآن وجعله سحرا ، وأنذر على ذلك بسقر ، ثم وصفها بأنها عليها تسعة عشر صفا من الملائكة إلى آخر
ماسبأنى من عظيم أمرها ، وذكر أن كل نفس مرهونة بعملها ، وأن أهم أعمال أهل النار ترك الأعمال
وتعطيل القوى ، فلا عقولهم يفكرون بها إذ يعرضون عن التذكرة كالجبر المستنفر الفارة من الأسد ،

ولاجوارحهم يستخذمونها في الأعمال كالأصالة وغيرها ، ولأموالهم يشكرون الله عابها فيعطون منها الفقراء .
هذا ملخص السورة إجمالاً ، والحمد لله رب العالمين .

المقصود الأول

المتنزه هو لابس الدثار فانه تأذى من قر يش فتعطي بثوبه مفكراً ، وكان نائمًا متدثرًا فنزلت ، وفي البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال : جاورت بحراء شهراً ، فلما قضيت جوارى هبطت فتوديت فنظرت عن يميني فلم أُر شيئاً ، وقال مثل ذلك في الشمال والخلف وجهة الرأس . ثم قال : فأُتيت خديجة فقلت ذروني ، فدثروني وصبوا علي ماء بارداً ، فنزلت : « يا أيها المتنزه . قم فأندِر . وربك فكبر . وثيابك فطهر . والريز فاهجر » . وفي رواية قال ما يفيد أنه رأى الملك الذي جاءه بحراء قاعداً على عرش في الهواء ، فأخذته رجفة شديدة الخ .

مقدمة لتفسير هذه السورة وصلتها بما قبلها

اعلم أن [سورة المزمل] ذكرت بعد [سورة الجن] لأن السورتين مشتركتان في أن كلا منهما مفيد الاتصال مع العالم الرضي ، فسورة الجن لإعلام الناس أن الجن لهم اتصال بعالم الإنس ، وأنهم سمعوا القرآن فآمنوا به ، وسورة المزمل تشير إلى أن عالم الملائكة يتنزل على الأنبياء ، والأنبياء عنه يبلغون ، فيكون ذكر سورة المزمل كذكر السبب وراء السبب ، لأن عالم الجن يسمع من النبي صلى الله عليه وسلم ، والنبي صلى الله عليه وسلم يتلقى عن عالم الملائكة ، فهو أسمع الجن ما يسمعه من الملائكة ، وأن الإنسان الحي قد يكون واسطة بين عالمين روحانيين ، فإن هؤلاء الجن الذين سمعوا منه صلى الله عليه وسلم ما كان ليُدسى لهم أن يسمعوا من جبريل ولا أمثاله من الملائكة ، وأتى لهم ذلك وهم عن السمع معزولون ، وإنما يسمعون بالواسطة ، وهذا على حد قول الشاعر :

بكل تداورنا فلم يشف ما بنا * على أن قرب الدار خير من البعد

على أن قرب الدار ليس بنافع * إذا كان من ثمراه إيس بذي ود

فالتجاوران المتنافيان المتضادان لا يجتمعان ولا يتفاهمان ، والمتعادان المتحدان مشربا يقتربان ويتناجيان وروى « أن لله ملائكة يسوقون الأشكال إلى أشكالها » ، وهذا القرآن بين ظهرانيها فيه الكلام على الجن وعلى الملائكة ، ولكن لما كان المسلمون غير مستعدين لهذه العلوم والأزمان المتأخرة نقل الله العلم إلى بلاد الغرب وبحوثها فيه هم ، وأتوا بمئات من الغرائب التي نطق بها كتابنا وذكرنا بعضها ، وسيظهر كل ماني القرآن من سر ، وما سبب ذلك إلا الاستعداد ، فلما كانت الأمم الإسلامية قبل اليوم غير أهل لهذه العلوم صرفها الله عنهم إلى غيرهم وإن كان القرآن بين ظهرانيهم بقرهونه صلباً ومساءً ، فيكون القرآن مع المسلمين كالملائكة مع الجن ، فهما في عالم واحد روحاني ، فلما لم يأتلفا كالملائكة من تأهل للعلم من الناس وهو النبي صلى الله عليه وسلم ، والنبي صلى الله عليه وسلم علم الجن وإن لم يعلم به إلا من الوحي كما تقدم ، فالسليمون كالجن ، والقرآن كالملائكة ، فلما لم يفهموه ولم يفكروا فيما اشتمل عليه جعل علومه تظهر على يد أئم أخرى ، وسيعرف أبنائنا علوم الأمم ونعمون البحث .

هذه هي المناسبة بين سورة المزمل وسورة الجن ، وسورة المزمل فيها بعث اللهم على العبادات وقيام الليل لاستخراج ما كن في النفوس من المواهب ، فإن العبادات والذكر وهجر النوم والتوجه لله تبعث في النفوس وجدانا لاتبعته العلوم ، ولم يقم في الأرض قائم يعمل إلا إذا تحرك إليه وجدانه ، إن أهل الأرض

جميعا لا يقومون لتأسيس دولة ، أراقامة عمل إلا بوقف بوقفهم ، وهذا الموقف المحرك الههم لاقدره له على بحث تلك الههم لما يريد إلا اذا انبعثت همته هو أولا .

هذه قاعدة مطردة ، أما الخطيب ، أو الواعظ ، أو المؤلف الذين خلت نفوسهم من الوجدان ومن الحب لما يقولون فإن السامعين والقارئ لما يقولون وما يكتبون لا يحون بوجدان في نفوسهم ، إن هناك صلة بين القائل والسامع والكاتب والقارئ ، فعلى مقدار تأثير الكاتبين والقائلين تكون الآثار في نفوس السامعين قلة وكثرة ، وهذا أمر لا مرد له ، فكل ذى وجدان مؤثر أثرا ما ، وهذا الأثر بقاؤه في الأهم يكون على مقدار القائم به من حيث وجدانهم وآثارهم ، ففي سورة المزمل أمر بقيام الليل ، وبقى الوجوب في حقه ونسخ في حق الأمة ، وبقى التذنب ، فصلاة الليل نافله ، وبذلك فتح الباب للأمة لمتهجد من يشاء كما تهجد النبي صلى الله عليه وسلم ، ولتعلم كل مطيع ومتهجد أنه بهذه الطاعة تنساق إليه طلائع الفهم وقدمات العلم ، وأذن يدخل في باب الحمد ، وقد قدمنا في الفاتحة وغيرها أن الحمد لا يتم إلا بالعلم ، فانهجد إذن مفتاح الانشراح الصدر وقبول العلم ، فاذا تهجدت أيها الذكي فسترى في قلبك آثار الانشراح لا سيما اذا استحضرت معاني القراءة وتوجهت بقلبك إلى الله وخاطبته كأنك تراه ، ومتى انفتح لك باب الفهم وأحييت العلم فها هو ذا باب الحمد ، فانه لا أحد إلا على علوم ، والنعمة التي لا تعلم كيف نحمد عليها ؟ فقام الحمد يستلزم معرفة مافي السموات وما في الأرض ، إذن فادرس ما أمكنك من عالم السموات والأرض ، وقد أودعنا جواهر علومهما في هذا التفسير ، وهذا من مبادئ مقام الحمد ،

فاذا أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يتهجد بالليل فذلك لتعليمنا أن نوجه قلوبنا بذلك إلى الله ، وبه ينتج مغلق الفهم .

هذا ما تقتضيه سورة المزمل ، أما سورة المدثر فهي الانذار والتعليم ، فسورة المزمل انفتح باب الفهم للصليين ، فاذا انفتح ذلك الباب تعلموا مع الوجدان ، وأذن يصلحون لارشاد غيرهم ، وذلك هو أول سورة المزمل ، فهذا الترتيب في السور جعل مقصودا لتعليمنا ، والافلماذا تكون سورة الجن فالمزمل فالدثر ؟ .

ذكر الأوامر الستة التي أمر بها الرسول صلى الله عليه وسلم . وهي جملة تعالينا

اعلم أن من يتصدى لتعليم الناس يجب عليه أولا أن يكون . وقتا بما يقول كما شرحناه ، بل يكون من وجدانه ، وأعظم شيء في الدعوة النبوية أن يكون القائم بها . وقتا أن ربه منزعه عن كل ما هو من صفات الحوادث لا يبلغ وصفه الواصفون ، وأنه أجل من أن تعرف غايته كلالته ، فانه اذا اعتقد ذلك لاجرم سار في دونه غير هيب ولا وجل ، لأنه يعلم أنه ينشر دعوة لأعظم موجود ، وهو الفيض الوجود على كل موجود ، فيصبح ويمسى وهو سرور الفؤاد فرح بما يلقي إليه صابر منشراح الصدر متوكل عليه ، لأنه موقن أنه مطلع عليه فلا يخاف من الناس ، واذا تذكر الموت فرح به ، لأنه يعلم أنه قد اصطفى لذلك الأمر من بين الناس ، هذه المعاني يشير لها قوله (يا أيها المدثر . قم فأندبر . وربك فكبر) والداعي الناس إلى ربه الكبير لا يتم له ذلك إلا اذا كان متحافا بأخلاقه ، فذا كان الله منزها بكبريائه عن سمات الحوادث ، أفلا يكون القائم بأمره منزها عن النقائص الانسانية ، وكيف تكون المناسبة هناك ما لم يكن قد تحلى المرء بالصفات الجليلة وتحلى عن الصفات الناقصة ، فعبير عن ذلك كله بقوله (وثيابك فطهر) .

اعلم أن هذه الجملة يعرف نظيرها عند العرب بطهارة النفس كالصدق والوفاء ، يقولون فلان طاهر الثياب اذا كان صادقا وفيا ، واذا كان غادرا يقولون هو دنس الثوب ، ولا تزال هذه المعاني تستعمل إلى الآن في بلادنا المصرية ، يقولون : فلان طاهر الذيل ، يريدون أنه لا يلبس امرأة أجنبية .

وهذا القول من باب الكناية ، والكناية لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع جواز إرادة المعنى الأصلي ، والكناية أحد الأقسام الثلاثة في علم البيان وهن : التشبيه ، والمجاز ، والكناية ، وهذه كثيرة في القرآن . فإذا سمعت قول الخفساء :

طويل النجاد رفيع العما ^ج د كثير الرماد إذا ماشتا

فاعلم أنها تريد أنه طويل القامة شريف بين قومه كريم ، هذه هي المعاني المقصودة لها ، فأما كون علاقة السيف طويلة ، أو أن عماد البيت مرتفع ، أو أن رماد وقوده الذي يطبخ به الطعام كثير ، فليست هذه المعاني التي هي موجودة فعلاً أو غير موجودة مقصودة لذاتها فرعاً وجدت وربما لم توجد ، وإذا وجدت فليست هي المقصودة ، وأيضا قولها لما خطبها دريد بن الصمة .

معاذ الله بوضعني جبركي ^ج قصير الشبر من جثم بن بكر

تقول : أنا لا أتزوجها لأنه قصير من قبيلة غير مرضية عندي ، ولكن لم ننطق بهذا القول بل قالت أنا لا أرضع ولدا قصيرا بهذه الصفة ، فكنت بارضاع من هذه صفته عن زواج والده ، فإذا منعت الرضاع فقد منعت الزواج ، ولا جرم أن الكناية أبلغ من الحقيقة ، فإذا لم تكن البلاغة في كتاب الله فأين تكون ؟ فإذا سمع العربي قوله تعالى : « وثيابك فطهر » خطر بباله طهارة النفس وشرفها وبعدها عن كل ريبة ، فتكون طهارة النفس بالصفات الجلية ، والأخلاق الفاضلة ، وبعدها عن القل والحق والحسد والمكر والخبث وكراهة الناس ، كل هذه هي المقصودة ، وذكر طهارة الثياب كذكر طول النجاد ، فإن من طال نجاد سيفه فهو طويل لا محالة .

واعلم أن هذه الملازمة : أي بين طهارة الثياب وطهارة القلوب التي جعلت كالملازمة بين طول النجاد وطول القامة قد ظهرت اليوم بأظهر مظاهرها ، وقد ذكرناها في [سورة البقرة] عند قوله تعالى : « إن الله يحب المتوابين ويحب المتطهرين » فهناك نقلت عن علماء أوروبا المشتغلين بأصول القوانين أن أكثر الناس قد ذرأ في جسمه وثيابه أكثرهم ذنوبا ، وأطهرهم بدنا وثيابا أبعدهم عن الذنوب ، وبنوا على ذلك أنهم أمروا المسجونين بكثرة الاستحمام ونظافة الثياب لحسن بذلك الأخلاق ، وخرج المسجونون أقرب إلى الأخلاق الفاضلة منهم إلى الرذائل ، هذا هو قوله تعالى : « وثيابك فطهر » فكلما كان الإنسان أطهر ثوبا وبدنا كان أقرب إلى طهارة النفس ، ولذلك كثرت الطهارة في ديننا وأثنى عليها الأستاذ [بنتام] في كتابه [أصول الشرائع] وقال : « إن كثرة الطهارة في دين الإسلام مما يدعو معتقيه إلى رقى الأخلاق والفضيلة إذا قاموا بأوامره في النظافة خير قيام » .

فإذا عرف الداعي إلى الله ربه واستعد لذلك بطهارة الأخلاق والظواهر من ثوب وبدن فإنه يستعد إلى ترك ما يخل بأخلاقه الظاهرة والباطنة فينجو من العذاب ، وهذا قوله (والرجز فاهجر) فالرجز العذاب : أي فترك أسباب العذاب يوم القيامة ، بل سوء الأخلاق هي العذاب في الدنيا والآخرة ، اقرأ ما ذكرته في [سورة البقرة] عن الفيلسوف اليوناني المسمى قانس الذي شرح أخلاق الناس ومواهم وجعل أكثر حياة الناس عذابا ، وأصحاب الأخلاق الفاضلة هم المنعمون في هذه الدنيا ، فاذن يكون لفظ الرجز يشمل عذاب الدنيا والآخرة ، ففي الدنيا يحسن الإنسان بمقت الناس وضيق صدره إذا ساءت أخلاقه ، وينقلب ذلك بعد الموت إلى عذاب آخر شديد .

هذا معنى قوله : « والرجز فاهجر » فكأن هجر الرجز من تمام طهارة النفس أو من لوازمها ، ومتى طهرت النفس وسلم الإنسان من الآثام ، هنالك تكون نفسه قد استعدت للأفاضة على الناس وهم يقبلون على الداعي ، وحينئذ لا يبقى أمام الداعي إلا عقبتان : إحداها الغرور والفخر والعظمة ، فيقول : أنا مفيض

المعروف عليكم أيها الناس : أنا أعظم قدرا ، ويحصل له الغرور العظيم . والعقبة الثانية أنه له أعداء ، وهؤلاء يؤذونه ويترصون به الدوائر ، ويتعقبونه ولا يرجونه ، ويذمونه في كل مكان ، ويتألبون عليه ليلا ونهارا ، وذلك هو المبط لأكبر الدعاة ، فانهم حينما يرون العقبات أمامهم يسكرتون راجعين ويقولون : مالنا وقوم لا يسمعون قولنا ، فلندخل في كسر بيتنا ، ولنبعد عن الناس ، فانهم لا يفهمون ، ولا يعرفون قدر النعم ، ولا يشكرون المنعمين ، فلهاذين العقبتين قال الله تعالى (ولا تمنن تستكثر . ولربك فاصبر) أي فلا تمنن على أصحابك بما علمتهم وبافتهم من الوحي حال كونك مستكثرا ذلك عليهم ، وقد قرئ تستكثر بالسكون على الإبدال من تمنن ، ولوجه ربك وأمره فاستعمل الصبر على أذى من خالفك ، وملخصه ألا تمنن على تابعيه ولا يجزع من أذى مخالفيه ، فهو أولا ذكر العلم ، ثم العمل ، ثم التبليغ ، وهذه الصفات ان لم تتوفر في الداعي لانتم دعونه .

واعلم أيها الذكي أن الذي أضرت بآمتنا الاسلامية إنما هو الجهل بمقاصد القرآن ، فانهم اذا سمعوا هذه الأوصاف ظنوا أن ذلك لا يعينهم ، وفاتهم أنهم أتباع النبي صلى الله عليه وسلم ، فليس يبلغ المسلم من سامعيه ما يريد إلا اذا كان متحققا بالعلم الذي يليق به وقد كملت نفسه ، فان نفوس الناس لها إحساس وشعور تدرك به مافي قلب القاتل ، وتحس بأثره ان كان كاملا ، وتحس بالأعراض ان كان ناقصا .

ثم انك بعد التحقق من هذا الكتاب ستجد في نفسك أثرا ما وجبا لنفع الأمة ، فسيقف في طريقك العقبتان اللتان ذكرتا عليهما لك أنت فتقول في نفسك مالى أنفع الناس وهم لا يقومون بما يجب عليهم نحوى وقد علمت أن الشمس والقمر والكواكب لا ينفعها الناس ، وأن الله خلق الناس بفضله وأنت قد أعددت نفسك أن تكون خليفة قائما بالأمر ، فلنتخلق بأخلاق الله تابعا نبيك صلى الله عليه وسلم ، فتعطيهم العلم وتواسيهم بالمال ان قدرت ، ولا تطلب جزاء ولا شكورا ، وتصبر على أذية أعدائك .

واباك أن يكون الذم والاحتقار والعداوات مانعات لك عن الجد في عمالك والمضي فيه ، فلتلزم الصبر فان لم تصبر دل ذلك على ضعف في قوتك النفسية فاحذر ، ولتعلم أن مافي هذا القرآن من الوعد بالنصر لنبينا صلى الله عليه وسلم هو نفسه وعدك بالنصر في هذه الحياة وبعدها اه

لقد ذكرت لك أن [سورة الجن] أتت بعدها بسورة المزمل ثم المدثر ، لأن الجن ليس عندهم استعداد لتلقي العلوم عن عالم الملائكة ، وأهم لا يليقون لذلك العالم وان كانوا معهم في عالم الأرواح ، وأن المناسبة هي التي توجب العلم ، وأزيد الآن أن الحيوانات الذرية [المكروب] والكهرباء ومنافع البخار كانت حاضرة معنا ، ولكن كان استعدادنا لمعرفة غير حاضر عندنا ، فالعلوم حاضر ، ولكن الاستعداد لعلمه غير موجود فنعنا عنه ، فليس منعنا عن الكهرباء لبعد المسافة بيننا وبينها ، ولا الحيوانات الذرية الضارة والنافعة في داخل أجسامنا خارجها لبعدها عنا بل هي موجودة فعلا في داخل أجسامنا تعد بالآلاف والآلاف وفي طعامنا وفي شرابنا ، ولكن الذي منعنا هو جهلنا وفقد الطرق الموصلة للمعرفة .

أفلا يحق لنا أن نقول بعد هذه المقدمات التي صارت معلومة ان بعد السعادة عن النوع الانساني في حياته الدنيا وشقاءه فيها ، ليس ذلك نبعث السعادة عنه ولكن لجهله بالطرق الموصلة لها ، لقد صدق سقراط إذ يقول : « إن الناس ما أشقاهم إلا جهلهم ، فلو كان عندنا من العلم ما يكفي لنا لكانت الحياة الدنيا سعادة » . أقول : ولكننا نتعلم القليل لنطير به إلى عالم نرتقي فيه هناك بذلك القليل ، ألا يمكننا الآن أن نفهم ما جاء في [سورة الحديد] : « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا » وأيضا قال تعالى : « وهو الله في السموات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم

ويعلم ما تكسبون « فليس بعد الله عنا بالمكان ، إذ ليس بجسم حتى نسافر إليه ، ولا بعض الأماكن يختص به دون الآخر ، بل هو موجود لا يختص به مكان ولا زمان ، وما معنا من النظر إلى ذاته إلا أننا في عالم لا يسمح بذلك ، فبعد المكانة وشدة الحجاب هي التي منعنا أن نراه لا بعد المكان ، وليس ارتقاؤنا في الأحقاب التالية سفرًا في العوالم ، بل السفر بالهمة وقطع العقبات النفسية ، وكشف الحجب ، ولطف النفوس ، وكما لطف النفوس اليوم فعرفت بعض المعرفة أدق الحيوانات وبعض الأرواح معرفة قليلة ، هكذا تترقى بعض النفوس على طول الزمان فتصل بحفة نفوسها واشراق ذواتها إلى النظر لوجه الله ، وهذا في حياة مجهولة لنا لا نتخيلها الآن إلا بما ضربنا من الأمثال ، كان الناس يكذبون بكل شيء غير ما عرفناه من الحيوان ، ويكذبون بالملك والجن ، فأصبحوا يتحدثونهما . فهكذا هناك ملائكة علويون لا يمكن لأهل الأرض مخاطبتهم ، وهكذا الله من فوقهم . إن نفوسنا وإن كانت محبوسة في هذه الأجسام تراها لا تطيق الحبس ، فهي تبحث في السموات والأرض وبينهما هي مفكرة في الأرض إذا هي في السماء ، إن نفوسنا قبة من اشراق النور الإلهي ، ولذلك لم نجد لها سرورا في العالم المادي .

ثم قال تعالى (فإذا نقرى الناقر) أي نفخ في الصور ، وهو القرن الذي ينفخ فيه الملك ، مأخوذ من النقر بمعنى التصويت ، وأصله القرع الذي هو سبب الصوت . يقول الله : ولربك يا محمد فاصبر على أذاهم فإن بين يديهم يوما عسيرًا فيذوقون عاقبة كفرهم وأذاهم ، وتال فيه جزاءك الحسن ونعيمك المقيم ، جواب إذا محذوف كما ذكرنا دل عليه قوله (فذلك يومئذ يوم عسير) وأكده بقوله (على الكافرين غير يسير) وإذا كان كل عسير ينقلب في آخر الأمر إلى يسر فهو لاه يومهم عسير لا يسر معه ولا بعده ، كأن الله يقول : فإذا نقرى الناقر عسير الأمر عليهم ، ويومئذ متعلق بالخبر . ثم أخذ يذكر أوصاف الوليد بن المغيرة ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قام في المسجد يصلي والوليد بن المغيرة قريب منه يسمع قراءته ، وهو يقرأ [حم] تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير] ، فلما فطن النبي صلى الله عليه وسلم إلى استماعه أعاد القراءة ، فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه من بني مخزوم فقال : والله لقد سمعت من محمد آثقا كلاما ما هو من كلام الناس ، ولا من كلام الجن ، والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وأنه يعلو ما يعلو عليه ، ثم انصرف إلى منزله ، فقالت قريش : صبا والله الوليد ولتصبر قريش كلهم ، فقال أبو جهل : أنا أكفيكموه ، فانطلق حتى جلس إلى جنب الوليد حزينا ، فقال له الوليد : مالي أراك حزينا يا ابن أخي ؟ فقال : وما يعني أن أحزن وهذه قريش يجمعون لك نفقة يعينونك على كبر سنك ويزعمون أنك زنت كلام محمد ، وأنت تدخل على ابن أبي كبشة وابن أبي قحافة لتتال من فضل طعامهم ، فغضب الوليد وقال : ألم تعلم قريش أني من أكثرهم مالا ولدا ، وهل شيع محمد وأصحابه من الطعام حتى يكون لهم فضل طعام ؟ ثم أتى مجلس قومه مع أبي جهل فقال لهم : تزعمون أن محمدا مجنون فهل رأيتموه يخفق قط ؟ قالوا اللهم لا ، قال تزعمون أنه كاهن فهل رأيتموه قط تسلم ؟ قالوا اللهم لا ، قال تزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه ينطق بشعر قط ؟ قالوا اللهم لا ، قال تزعمون أنه كذاب فهل جرتم عليه شيئا من الكذب ؟ قالوا اللهم لا ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمى الأمين قبل النبوة لصدقه ، ثم قال : ما هو إلا ساحر أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه فهو ساحر ، وما يقوله سحر يؤثر ، فهذا هو ماسيأتي من قوله تعالى : « إنه مكسر » أي في أمر محمد والقرآن « وقدر » في نفسه ماذا يمكنه أن يقول في محمد وفي القرآن .

هذا وقد كان الوليد يسمى الوحيد ، لأنه وحيد في قومه ، فإله كثير جدا فيه الزرع والضرع والجارة ، يقال أنه كان ألف ألف درهم ، وقيل تسعة آلاف متقال فضة ، وكان له بين مكة والطائف ابن وخيل ونعم

ونعم وعبيد وجوار ، وكان له بستان بالطائف لانتقطع ثماره شتاء وصيفا ، وكان أبناؤه عشرة يشهدون المحافل والجامع أسلم منهم ثلاثة وهم : خالد وهشام وعمارة ، ثم إن الوليد قد بسط الله له الرزق وطال عمره مع الجاه العريض والرياسة في قومه ، وكان من أكابر قريش ، ويسمى [ربحانة قريش] ، فهو ربحانة وهو وحيد ، فإذا عرفت هذا أمكنك فهم الآيات الآتية :

قال تعالى (ذرني ومن خلقت وحيدا) أي ذرني معه فاني أكفيك ، وكيف لأكفيك وقد كفر بنعمتي ؟ ألم أخلقك وحيدا في قومه حتى نعتوه بذلك ؟ (وجعلت له مالا ممدودا) مبسوطا كثيرا ، أو ممدودا بالنماء (ربنين شهودا) حضورا معه بمكة ينتفع ببقائهم لاحتياجهم إلى سفر لطلب العاش استفتاء بنعمته وخدمه وعبيده يقومون مقامهم في ذلك (ومهدت له تمهيدا) بسطت له في العيش وطول العمر بسطا مع الجاه العريض والرياسة في قومه (ثم يطعم) يرجو (أن أزيد) أي أزيد مالا وولدا وتمهيدا (كلا) لأفعل ولا أزيد ، فأخذ ماله في النزول بعد ذلك حتى هلك ، ثم علل ذلك فقال (إنه كان لآياتنا عنيدا) معاندا فلا يؤمن ببعث ، ولا يوحد الله تعالى (سأرهقه صعودا) سأغشيه عقبة شاقة المصعد ، وهذا مجاز يراد به شدة الأمر عليه حتى جاء في الحديث « أنه جبل من النار يصعد فيه سبعين خريفا ثم يهوى » (إنه فكر وقدر) تعليل للوعيد ، يقول الله : إذا أنا لم أزد ماله ونعمته فذلك لأنه معاند لآياتنا ، وإذا جشمت العذاب يوم القيامة فذلك لأنه فكر فيما تخيل طعنا في القرآن وقدر في نفسه ما يقول فيه (فقتل كيف قدر) أي لعن كيف قدر ، وهو على طريق التحجيب والانكار والتوبيخ (ثم قتل كيف قدر) تكرر للبالغة (ثم نظر) في أمر القرآن (ثم عبس وبسر) قطب وجهه عما لم يجد فيه طعنا ولم يدر ما يقول (ثم أدير) عن الحق (واستكبر) عن اتباعه (فقال إن هذا إلا سحر يؤثر) يدرس ويتعلم (إن هذا إلا قول البشر) تأكيد للجملة قبلها (سأصليه سقر) هذه مبدلة من قوله « سأرهقه صعودا » (وما أدراك ما سقر) تفخيم لشأنها حال كونها (لا تبق ولا تذر - لواءة للبشر) البشر جمع بشرة ، وهي ظاهر الجلد ، فهي تسود الجلود وتحرقها (عليها تسعة عشر) صنفا من الملائكة ، أوصافا ، وإنما جعلوا تسعة عشر لأن الحواس الظاهرة خمس ، والباطنة خمس ، وهي : الحس المشترك ، والخيال ، والمفكرة ، والواهمة ، والذاكرة ، فهذه خمس تضم لما قبلها تسكون عشرة ، ويضاف إليها اثنان : الغضب والشهوة ، فهذه ١٢ ويضاف إليها سبعة طبيعية في الإنسان وفي الحيوان ، وهي : الجاذبة والهاضمة والمساكة والدافعة والغاذية والنامية والمصورة ، فهذه سبعة في النبات والحيوان ، والاثنان عشر قبلها في الحيوان والإنسان ، فهذه التسعة عشر نوعا من الصفات الحيوانية جعت في الإنسان ، فكان عذابه على مقدار ما فرط في هذه المنح (وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة) فليسوا من جنس المعصيين حتى يرقوا إليهم ويرجوهم . ولما سمع أبو جهل هذه الآية قال لقريش : أبهجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل منهم فزلت هذه الآية (وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا) أي وما جعلنا عددهم إلا العدد الذي اقتضى فتنتهم ، وهو التسعة عشر ، فهم قد افتتنوا به واستلوه ، واستهزؤا به ، واستبعدوه ، وقالوا : كيف يتولى هذا العدد القليل تعذيب الثقلين ؟ (ليستيقن الذين أوتوا الكتاب) أي ليكتسبوا اليقين بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وصدق القرآن ، إذ برون هذا العدد في كتابهم (ويزداد الذين آمنوا إيمانا) بالإيمان به وتصديق أهل الكتاب (ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون) في ذلك ، وهذا تأكيد للاستيقان وزيادة الإيمان (وليقول الذين في قلوبهم مرض) شك ونفاق حينما يكونون بالمدينة فيما بعد الهجرة التي لم تكن معلومة لهم عند نزول هذه السورة (والكافرون) الجازمون بالتكذيب (ماذا أراد الله بهذا مثلا) أي شيء أراد بهذا العدد المستغرب استغراب المثل ، أي أنه نفسه مضروب مثلا لشدة استبعاده عندهم (كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء) أي

مثل ذلك المذكور من الاضلال والهدى بضل الكافرين ويهدى المؤمنين (وما يعلم جنود ربك) أى جوع خافقه على ما هم عليه فى الحقيقة إلا هو ، وكيف يقف أحد على حصر الممكنات ومعرفة مستقرها ومستودعها وخواصها ؟ انظر ما ذكر فى أول سورة الملك فى أنواع الحيوان وتكاثره ، فما يعلم هذه كلها (إلا هو وماهى) أى وما هذه الدرة المشتملة على سقر وعدة الخزنة (إلا ذكرى للبشر) إلا تذكرة لهم (كلا) ردع لمن أنكرها (والقمر : والليل إذ أدبر) ولى ذاهبا (والصبح إذا أسفر) أى أضاء وتبين ، وجواب القسم قوله (إنها لإحدى الكبرى) يعنى ان جهنم إحدى البليات الكبرى والأمور العظام (نذيرا للبشر) أى كبرت سقر حال كونها منكرة للبشر . ثم قال : (لمن شاء منكم أن يتقدم) إلى الخير (أو يتأخر) عنه ، فقد علمتم سقر وعذابها وملائكتها ، فمن تقدم إلى الخير أطلقناه ، ومن تأخر عن الخير سلكناه فيها (كل نفس بما كسبت رهينة) مرهونة عند الله ، أو مستهنة فى النار بكسبها ومأخوذة بعلمها ، وهذه الكلمة ليست وصفا بل هى مصدر كالشكيمة جعلت بمعنى اسم المفعول ، ولو كانت وصفا لقليل رهين ، لأن فعلا بمعنى مفعول يستوى فيه المذكر وغيره (إلا أصحاب اليمين) فانهم فكروا وقابهم من الرهن بما أحسنوا من أعمالهم ، وهكذا الأطفال إذ لا تكليف عليهم ومثاهم الملائكة حال كونهم (فى جنات يتساءلون عن المجرمين) أى يسألون غيرهم عن حالهم ، فيقول المسئولون عن المجرمين للسائلين ماجرى بينهم وبين المجرمين من الدوال والجواب ، وهذا صورة ما جرى : قلنا لهم (ما سلككم فى سقر) أى أى شئ أدخلكم فيها ؟ (قالوا لم نك من المصلين) الصلاة الواجبة (ولم نك نطمع المسكين) ما يجب إعطاؤه (وكنا نخوض مع الخافئين) أى ننتزع فى الباطل مع الشارعين فيه (وكنا نكذب يوم الدين حتى أتانا اليقين) الموت ومقدماته (فما تنفعهم شفاعة الشافعين) لو شفّعوا لهم جميعا (فما لهم عن التذكرة معرضين) أى معرضين عن التذكرة : أى عن القرآن وما فى معناه (كأنهم جرم مستفرون) بالكسر أى نافرة ، وبالفتح أى منكرة مذعورة ، فهم مثله فى أعراضهم ونفوسهم عن استماع الذكر (فرت من قدورة) أى أسد (بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفا منشرة) قرطيس تنشر وتقرأ ، إذ كانوا يقولون : إن تؤمن لك حتى نأتيك بكتاب من السماء نقرؤه (كلا بل لا يخافون الآخرة ، كلا) ردع لهم (إنه تذكرة) أى انه عظة عظيمة (فمن شاء ذكره) أى اتعظ به فيعود نفعه عليه (وما يذكرون إلا أن يشاء الله) أى إلا أن يشاء الله لهم الذكر فيتذكروا ويتعظوا (هو أهل التقوى) حقيقى بأن يتقى (وأهل المغفرة) حقيقى بأن يغفر لآثمتين من عباده . انتهى التفسير اللفظى للسورة كلها ، والحمد لله رب العالمين .

لطيفة فى قوله تعالى : وما يعلم جنود ربك إلا هو وماهى إلا ذكرى للبشر .

كلا والقمر . والليل إذ أدبر . والصبح إذا أسفر .

إن فى ذكر إدبار الليل وأسفار الصبح ما يشير إلى أن الناس فى الحياة الدنيا كأنهم فى ظلمة ، فإذا جاء يوم القيامة ظهرت الحقائق كما يظهر الصبح إذا أدبر الليل ، إن الحياة فى الدنيا والآخرة وتناسقها ترتقى من حال مظلمة إلى حال ظاهرة واضحة ، فنحن اليوم فى حال الحياة ، وكلما اقتربنا من الحقائق كان ذلك نورا لنا فإذا وصلنا إلى الحقائق وصولا تاما فى عالم غير عالمنا فهناك السعادة ، فالدلم بالحقائق هو نهاية السعادة ، والجهالة نهاية الشقاء ، بل قال [سقراط] : « إن الناس معذبون فى الأرض بجهالتهم ، ولو عرفوا الحقائق كما هى ماشقوا » فكان ذكر الظلام فالضياء بعد ذكر انقيامة وحديثها يشير إلى ذلك ، وهذا فى الموفقين كما هو معلوم ، وقول المصلى : « السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » يشير إلى حال السلامة التامة ، والسلامة

الإبصار معرفة الحقائق معرفة تامة ، إن ظواهر الدنيا كلها ظلمات وأحزان ، ولكن بواطن هذا العالم جلال وسعادة فلقد ضرب بين السعداء والأشقياء بسور من الجهل له باب باطنه فيه الرحمة متى عرفت الحقائق ، وظاهره من قبله العذاب باقتحامها .

ثم إن جنود ربك أعظمهم في عالم السموات ، وهذا من أسباب ذكر الليل وإدبار ، والصبح وإسفاره ، فلا ذكر لك الآن الجنود السماوية ، ثم أتبعها بالجنود الحيوانية ، والجنود النباتية ، لتطلع على صفوف من جنوده ، وأنواع من عجائب جيوشه البديعة المنظمة ، وانما نبدأ بالجنود السماوية تهركا بالآية وتظهر العظمة في جبال النجوم فنقول :

عدد النجوم

إن النجوم التي ترى بالعين المجردة محصورة ، وهي نحو ٣٠٠٠ فقط ، والمنظار المقرّب يرينا نحو ١٠٠٠٠٠٠٠٠٠ فأمّا اللوحة الراسمة [الفوتوغرافية] فإنها إذا طال تعرضها للنور ترينا ملايين الملايين ، فإنها ترسم في الساعة الواحدة ٣٦٠٠ ضعف ما ترسمه في الثانية الواحدة ، وبهذه الطريقة كشف الفلكيون ما يعجز العين المجردة والمنظار المقرّب .

أبعاد النجوم التي هي من جنود الله وأحجامها

الشعري اليمانية

هي أثقل من الشمس جرماً عشرين مرة ، وأضوأ منها خمسين مرة ، وأبعد منها ألف ألف بعدها عنا ، وتجرى بسرعة ألف ميل في الدقيقة .

بنات نعش

واحدة منهن أضوأ من الشمس أربعمئة مرة ، والثانية أضوأ منها ٤٨٠ ، والثالثة أضوأ منها ألف مرة ، وسهيل أضوأ من الشمس ألفين وخمسمئة مرة .

السماك الراجح

هو أضوأ من الشمس ثمانية آلاف مرة ، وهو أسرع النجوم سيرا ، وأشدّها تألقاً ، وأكبرها حجماً ، فسرعته ثلاثمائة ميل في الثانية الواحدة ، ونوره ثمانية آلاف ضعف نور الشمس ، وحجمه ثمانون ضعفاً من حجمها ، ونوره يصل لنا في مائتي سنة ، مع العلم بأن نور الشمس يصل إلينا من بعد ٩٢٥٠٠٠٠٠٠ ميل في ثمان دقائق وثمان ثوان .

الثريا

تبعد عنا ألفاً وخمسمئة بليون من الأميال ، ولست أطيل في ذكر هذه الأقدار والأبعاد ، وأذكر كما بما كتبت في [سورة آل عمران] نقلاً عن الأكاديمية الفرنسية ، وبما كتبت في [سورة البقرة] في أوائلها من حيث تعداد النجوم وأضوائها ، فراجعها هناك إن شئت .

جنود الحيوان

ذكر حيوان البحر

إن في البحار أنواعاً عظيمة من الحيوانات :

ولقد كنت كتبت مقالة مطولة تحت عنوان هذه الآية : « وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكري للبشر » بتاريخ ٢٢ يناير سنة ١٩٢٧ م ولما كان المقام لا يسعها أرجأنا درجتها للملحق الذي وعدنا بنشره بعد تمام التفسير ان شاء الله وطالت الحياة اهـ

تفسير سورة القيامة

هي مكة

آياتها ٤٠ — نزلت بعد سورة القارعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ * أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ
تَجْمَعَ عِظَامُهُ * بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ * بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ *
يَسْتَكْبِرُ أَنْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ * فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ * وَخَسَفَ الْقَمَرُ * وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ *
يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ * كَلَّا لَا وَزَرَ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ * يُنْبِئُوا
الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ * بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ *
لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ *
ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ * كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ * وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ
نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ * كَلَّا
إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ * وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ * وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ * وَالتَّفَقَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ *
إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ * فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى * وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى * ثُمَّ ذَهَبَ
إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى * أَوْلَى لَكَ فَأُولَى * ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأُولَى * أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ
يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُنْ نُطْقَةً مِنْ مَنِيٍّ يُخْبِتِي * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَاقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ
مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُخْبِيَ الْمَوْتَى *

هذه السورة كلها في وصف يوم القيامة ، وقد بدئت بالاستدلال بجانب خلق الانسان وتسوية عظامه ، وختمت بمثل ذلك ، وبقيتها في الحساب وأحوال القيامة .

التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

(لا أقسم بيوم القيامة ، ولا أقسم بالنفس الموقمة) يقول الله : أقسم بيوم القيامة وأقسم بالنفس التي تقوم نفسها أبداً وإن اجتهدت في الطاعة ، أو جنس النفوس ، فإن كل نفس يوم القيامة سواء أكانت بارّة أم فاجرة تلوم نفسها ، إن عملت خيراً قالت كيف لم أردد ، وإن عملت شراً قالت يا ليتني كنت تركته كما أفاده حديث مروي في ذلك .

أقسم الله بالقيامة وبذلك النفس على بعثنا : أي لتبعث ، فقد أقسم بعظمة القيامة ، والنفس الطامحة إلى الرقي ، الجائعة إلى العلو ، التي لا ترضى بمرتبة إلا طلبت سواها ، ولا بحالة إلا أحب ما تلاها ، ورامت ما فوقها ، وهذا القسم كأنه استدلال على القيامة ، يقول : إن ما في النفوس من حب الرقي وعدم الوقوف عند حد محدود في هذه الحياة ، وفي كل حياة دليل على أن هناك حالا أخرى ينال فيها الإنسان ما كان يرغب ، إن طبع الإنسان يدل على القيامة ، إن طموح الناس للعالي وجشعهم وحرصهم وازديادهم في المال والعلم وعدم الوقوف على حال واحدة دليل على أن هناك حالا أخرى ، إن النفوس الانسانية مشغوفة بالاستطلاع ، مجبولة على حب البحث ، مفضورة على حب الغلبة والقهر ، ذلك لتستطيع أن تملك أكثر مما ملكت ، وتحوز أكثر مما حازت ، وتعلم أكثر مما علمت ، انها لا تكتفي بعلم ولا بمال ، وما رأينا ملكا يحكم أمة إلا طمع أن يأخذ غيرها ، ولا غنيا ورث مالا وزاد عليه إلا طمع فيما سواه ، ولا عبداً عين ابن آدم إلا التراب ، فهل خلقت هذه الشهوات والرغبات فينا عبثاً ؟ كلا . ثم كلا . إن ذلك لم يكن إلا اسرّ سبتضح بعد الموت ويوم القيامة ، إن لم يكن للانسان مثل تلك الغاية فالحياة باطلة وكل نظام في الأرض خسران مبين ، لم نجد قوة كامنة فينا وفي الحيوان إلا لغاية ، فبالت شعري ماغاية هذه الأطماع والحروب والتفاني في العلوم ، والتمك والقهر ، وبناء السفن ، واختراع الأسلحة ، وما هذا الجشع ، وما هذا الطمع ؟ أكل هذا حياة قصيرة لا تساوي كل هذا العناء ؟ يجيبك القرآن قائلا : أنا أقسم بالنفس التواقّة إلى العالي التي لا تقف عند حد ، ومعنى هذا أن تلك القوة أودعت في نفوسنا ، لأنها خلقت لتكون في عالم يطلع على كل شيء ولا يحزن على شيء وهو عالم الأرواح في أعلى الجنان ، فإدام لم يصل إلى ذلك العالم فإنه يظن أنه خلق لهذه المادة وتملكها لعدم علمه بالحقائق فيسخط في الحياة ، إذن هذا القسم ذكر للاستدلال ، فطموح النفوس إلى العلا برهان على أنها ستكون في عالم آخر تنال فيه بغيتها ، فإذا أقسم الله بخلقاته على حكمته وعلو شأنه وعظمته استدلالاً على ذلك ، فهكذا هنا يقسم بالنفس الموقمة استدلالاً على أنها واصلت يوماً ما إلى عالم أكل من هذا العالم لتنال فيه ما تطلبه ، إن في إلهام النحل جمع العسل ، وفي عدم إلهام الجراد والزناير الجمع والادخار ، وأن الأول يعيش في الشتاء والآخرين لا يحتاجان فيه دليلاً عجيباً لحكمة هذا القسم فتفطن .

إن هذا القسم وأمثاله لم يطرق آذان العرب ، أولئك الذين لا يقسمون إلا بأشياء معهودة فيما بينهم ، لا يتجاوزونها فيقسمون بالأب وبالعمر وبالكعبة ، ولكنهم لا يقسمون بهذه الأقسام العجيبة التي فيها دلائل على ما يقصد في جوابها ، وفيها فتح باب للبراهين والحكمة والعلم .

ثم إن [لا] التي ذكرت قبل القسمين زائدة للتأكيد واردة في كلام العرب ، ألا ترى إلى قول امرئ القيس :

لا وأيك العاصري * لا يدعى القوم أتى أفر

وقول غيره :

تذكرت ليلي فاعتزتي صباية * وكاد ضمير القلب لا يتقطع
أقسم الله بالقيامة وبالنفس الملوثة التوافة للعالي أننا سنبعث ، ثم أوردفه باستنكار استبعاد ذلك ، إذ روى
أن عدي بن أبي ربيعة سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أمر القيامة ، فأخبره به فقال : لو عاينت
ذلك اليوم لم أصدقك ، أن يجمع الله هذه العظام فقال (أحسب الانسان) أي جنسه ، والمراد به المنكر
للبعث المذكور وغيره (أن لن يجمع عظامه) بعد تفرقها ورجوعها رقائنا (بلى) أي نجتمعها حال كوننا
(قادرين على أن نسوي بنانه) أي نسوي سلامياته على صفرها ودقتها وأولف بينها حتى تستوى البنان ،
فن يقدر على جمع العظام الصغار فهو لا محالة على غيرها من الكبار أقدر .
واعلم أن عظام أصابع اليدين ثلاثون ، وعظام أصابع الرجلين ٢٨ فيكون مجموعهما ٥٨ وهذه عظام
دقيقة وضعت لمنافع لولاها ماتت تلك المنافع كالقبض والبسط واستعمال اليدين في الجذب والدفع وغيرهما
مما لا يحصى ، فلو لا دقة هذه العظام وحسن تركيبها ما انتظمت الأعمال المترتبة على اليدين ، وجميع العظام
في الانسان ٢٤٨ عضوا ، وهاك بيانها :

١٢٢	١٢٦
٢ الزندان الأعلى .	٦ عظام الرأس .
٢ الزندان الأسفلان .	٤ عظام الزوج .
١٦ عظام رسني الكفين .	١٤ عظام اللحي الأعلى .
٨ عظام مشط الكفين .	١٦ عظام الأسنان العليا .
٣٠ عظام أصابع اليدين .	١ العظم الشبيه بالوتد .
٢ عظام الوركين .	٢ عظام اللحي الأسفل .
٢ عظام الفخذين .	١٦ الأسنان السفلى .
٢ عظام الركبتين .	٢٤ فقرات الصلب .
٤ قصب الساق .	٣ عظام الهجز .
٢ الكعبان .	٣ عظام المعصص .
٢ العقبان .	٢٤ عظام الأضلاع .
٢ العظام الزورقية .	٧ عظام القص .
٨ عظام رسني القدمين .	٢ الكتفان .
١٠ عظام مشطى القدمين .	٢ رأسا الكتفين .
٢٨ عظام أصابع الرجلين .	٢ عضدان .
٢ عظم العانة .	

المجموع ٢٤٨

وأنت ترى أن أصابع اليدين وحدهما فيهما ٣٠ فإذا أضيف الرسغان ١٦ ومشط الكفين ٨ كان
المجموع ٥٤ فيكون لكل يد ٢٧ وحدها من الرسغ إلى أطراف الأصابع ، وهذا العدد هو عين عدد
الجمجمة ٦ مضافا إليها عدد الأسنان ٣٢ والفكين ١٦ .
أيها الذكي : ما أحسن العلم والحكمة ، انظر تجد عظام الإنسان مجموعة ، وكيف هدمت على هذا

النظام لقوائد نافعة في الحياة ، انظر كيف ركب الرسغان في اليدين من ١٦ عظما ومشطا الكفين من ٨ ثم ركب مشطا كفي الرجلين ورسغاهما من أعظم متعددة لشدة الحاجة إلى العمل والحركة ، أما ججمة الرأس فن ستة أعظم لا غير ، إن أصابع اليدين والرجلين تبلغ عظامهما ٥٨ عظما ، وججمة الرأس لا تزيد عن ستة ، ذلك لأن الججمة لمجرد الوقاية ، أما الأصابع فهي للعمل ، فذلك صنعت بدقة واحكام ، وانظر إلى انفقرات كيف تعددت ولم تجعل عظمة واحدة ، ذلك لأنها لو كانت كذلك لعاقبت الحركات ، ولا تمتعت البركات ، ولم يعيش بالسعادة والخير الانسان ، فجعلت الفقرات متناوبات ليتمكن الحركة والسكون ، ويكون ذلك سهلا عليه أيما كان ، فلو لا الفقرات وتفصيلها لم يقدر على الانحناء للأعمال والحركات المختلفة ، بل يكون منتعبا كالخشبة ، أو كالعمود ، ثم عطف على قوله : « يحبب الانسان » قوله (بل يريد الانسان ليفجر أمامه) وهذا اضراب عما قبله ، يقول : إن الانسان يريد أن يدمر فجوره فيما يستقبل من الزمان ، لا ينزع عن فجوره ، ولا يتخلى عن شروره ، ولذلك ترى الكافر من نوع الانسان (يسأل أيان يوم القيامة) أى متى يكون يوم القيامة ؟ وهذا استبعاد واستهزاء (فاذا برق البصر) تحير فزعا عند رؤية أهوال القيامة (وخسف القمر) ذهب ضوؤه (وجع الشمس والقمر) جمعهما وصف واحد ، وهو ذهاب الضوء (يقول الانسان يومئذ أين المفر) أى المهرب ، وهذا ظاهر في أحوال القيامة ، ونظيره في الدنيا ما يخص المرء في نفسه فيحار بصره فزعا ، ويذهب ضوء البصر عند الموت ويموت فيجتمع العقل الذي هو شبيه بالقمر مع الأرواح العليا التي كان يستمد منها الشبهة بالشمس ، فيصير معنى العبارة : فاذا قامت القيامة يقول الانسان يومئذ أين المفر ، وهذا كناية عن ساعة الموت : وقد بينت لك فيما تقدم أن هذه الكناية ملى بها القرآن ، فاذا ذكر يوم القيامة فقد ورى بحال الموت ، والحق أن الانسان في حال موته تقوم قيامته الخاصة به ، ففى فرع هو وذهب بصره واجتمع هو بالملا الأعلى ، فهذا كل ما يخصه من أحوال الآخرة القربية ، أما يوم القيامة فهو نتائج لما يلقاه في البرزخ ، فيكون ظاهر اللفظ للعموم ، والكناية يققها الخواص (كلا) ردع عن طلب المفر (لا وزر) لا ملجأ ولا حوز ولا جيل ، وقد كانوا إذا فزعوا يلجئون إلى الجبال فيقبل لهم : لا جيل لكم يومئذ تتحصنون فيه (إلى ربك يومئذ المستقر) مستقر الخلق (يئبأ الانسان يومئذ بما قدم وأخر) بما قدم من عمل عمله وبما أخر منه لم يعمل (بل الانسان على نفسه بصيرة) أى بل الانسان على نفسه شاهد ، فتكون الهاء للبالغة ، فالانسان حجة بينة على أعمال نفسه ، لأنه يشاهدها (ولولائق معاذيره) ولوجاء بكل ما يمكن أن يعتذره ، جمع معذار وهو العذر ، فذنوب الانسان إذن ملازمة له لانفارقها ، لأنها أخلاق ملازمة له ، لاصقة به ، تابعة له في حله وترحاله ، ناهيك بما ترى من العادات التي تأخذ بالآداب ، ولا تذر أربابها ككثرة الكلام وشرب الخمر والدخان وما أشبه ذلك ، فهذه الأخلاق تؤذى صاحبها وتقوم حجة بينة على نفسه فيقذف به في الهاوى البعيدة (لا تحرك) يا محمد (به) بالقرآن (لسانك) قبل أن يتم وحيه (لتجمل به) لتأخذه على عجلة مخافة أن ينفلت منك (إن علينا جمعه) فى صدرك (وقرآنه) واثبات قراءته فى لسانك ، فالقرآن القراءة (فاذا قرأناه) أى قرأه عليك جبريل ، فجعل قراءة جبريل قراءته (فأنبع قرآنه) أى قراءته عليك (ثم ان علينا بيانه) اذا أشكل عليك شيء من معانيه فنحن نبينه لك ، وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم كان اذا أشكل عليه شيء سأل جبريل عن معانيه ، لأنه حريص على العلم فقبل له نحن نبينه لك ، وقوله تعالى (كلا) ردع للرسول صلى الله عليه وسلم عن العجلة والكفار عن انكار البعث ، يقول الله : أتم أيها الكفار تريدون العاجلة ، وأنت أيها النبى تجمل عند تلقى الوحي (بل تحبون العاجلة) أى أتم يا بنى آدم تجلون فى كل شيء لأنكم خلقت من عجل وطبعتم عليه ، ومثال ذلك أنكم تحبون العاجلة الدنيا وشهواتها (وتذرون الآخرة) الدار الآخرة ونعيمها فلا تعملون لها

(وجوه يومئذ ناضرة) حسنة مسرورة بالنعيم ، مسفرة مضيئة بيض ، يعلوها نور وبهاء ، مشرقة بالنعيم (إلى ربها ناظرة) أى تنظر إلى ربها عيانا بلا حجاب فتكون نظرة ، وهى تنظر إلى الخالق (وجوه يومئذ باسرة) شديدة العيوس كالخلة متغيرة مسودة قد أظلمت ألوانها وعمت آثار النعمة والسرور منها لما أدركها من اليأس (نظن) نسين (أن يفعل بها فاقة) أى داهية عظيمة تكسرها فقرار الظاهر وتقصمه ، وأشد أنواع الفاقة أن يحجب الإنسان عن رؤية الله (كلا) ردع عن إظهار الدنيا (إذا بلغت التراقي) أى إذا بلغت النفس أعلى الصدر ، وهى جمع ترقوة ، وهى العظام التى بين ثغرة النحر والعاتق ، وهذا كناية عن إشراف النفس على الموت . قال دريد بن الصمة :

ورب عظمة دافعت عنها * وقد بلغت نفوسهم التراقي

وقوله (وقيل من راق) أى وقال من حضره : هل من طيب برقيه ويداويه مما نزل به ويخلصه من ذلك برقيه ودوائه ؟ (وظن أنه الفراق) أى وظن المحتضر أن الذى نزل به فراق الدنيا ومحابها (والتفت الساق بالساق) أى والتوت ساقه بساقه فلا يقدر على تحريكها ، وهذا يكنى به عن التفاف شدة فراق الدنيا بشدة خوف الآخرة (إلى ربك يومئذ المساق) أى سوقه إلى الله تعالى وحكمه (فلا صدق) بالرسول والقرآن ، أو لا صدق ماله : أى زكاه (ولا صلى) ما فرض عليه ، الضمير فى صدق وصلى للإنسان (ولكن كذب وتولى) عن الطاعة (ثم ذهب إلى أهله بمطى) يتبخر افتخارا بذلك ، من المطى ، فانك ترى المتبخر يمد خطاه ، إذن أصله يمتط (أولى لك فأولى) أى ويل لك مرة بعد مرة : أى أولاك الله ماتكرهه ، واللام مزيدة ، فيكون الفاعل مضمر والمفعول الثانى محذوف (ثم أولى لك فأولى) أى يتكرر عليه ذلك مرة بعد أخرى (أحسب الإنسان أن يترك سدى) أى أحسب الكافر أن يترك مهملا لا يؤمر ولا ينهى ، ولا يبعث ولا يجازى ، وكيف يهمل ؟ (ألم يك نطفة من منى يمتى) أى براق فى الرحم (ثم كان علقة) أى صار إلى قطعة دم جامد (نخلق فسوى) نخلق الله منه بشرا سويا (نجعل منه) من الإنسان (الزوجين الذكور والأنثى) أى الصنفين (أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى) أى أليس الفعال لهذه الأشياء بقادر على إعادتها . انتهى التفسير اللفظى للسورة كلها ، والحمد لله رب العالمين .

لطيفة ذات شعبتين

الأولى فى قوله تعالى : وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة

الثانية فى قوله تعالى : ألم يك نطفة من منى يمتى ، ثم كان علقة نخلق فسوى ، نجعل منه الزوجين الذكور والأنثى

فلنبدا الكلام على الشبهة الأولى ، وهى النظر إلى وجه الله ، ونبدأ بما ورد فى الصحيح فنقول ومن الله التوفيق :

جاء فى رواية البخارى ومسلم عن جرير بن عبد الله قال : « كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إلى القمر ليلة البدر ، وقال : انكم سترون ربكم عيانا كما ترون هذا القمر لاتصاقون فى رؤيته : أى لا ينضم بعضكم إلى بعض ولا تزدجون وقت النظر إليه ، فان استطعتم ألا تغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا » .

وفى حديث رواه مسلم ، قال : « اذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى : هل تريدون شيئا

أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ، ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ، قال فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم تبارك وتعالى .

ويروي عن أبي رزين العقيلي . قال « قلت يا رسول الله : أكننا يرى ربه مخليا به يوم القيامة ؟ قال نعم ، قلت : وما آية ذلك في خلقه ؟ قال يا أبا رزين : أليس كلكم يرى انقمر ليلة البدر مخليا به ؟ قلت بلى ، قال فأنه أعظم ، إنما هو (أى القمر) خلق من خلق الله ، فأنه أجل وأعظم . »

هذا ما أردت ذكره من الأحاديث في هذا المقام ، هأنذا إذا اطلعت على كلام النبوة ، وأنه صلى الله عليه وسلم أخبر في الصحيح أن الناس بعد أن ينالوا جزاءهم المادى في الجنة ينقلهم إلى مرتبة أعلى ومقام أجلى ، وهى أن يكشف لهم الحجاب فيرونه .

هذا هو الذى ورد في الصحيح ، ومعنى هذا أن السعادة قسمان : حسية ، وعقلية ، والحسية هى الجنة ونعيمها ، والعقلية النظر إلى وجه الله ، وقد فضل الله النظر إليه عن الجنة وجعلها أفضل منها .

واعلم أن هذا القول ليس بعقله جميع الناس ، وإنما يعقله الخواص ، وهأنذا أبين هذا المقام بعض التبيان فأقول :

اعلم أن نفوس بنى آدم متفاوتة في هذه الأرض ، فمنهم من لا يحب ربه إلا لأجل اللذات الحسية ، وليس له منها إلا هذا الحظ ، فإذا قابل ربه فليس يحب لقاءه لذاته بل للفوائد المترتبة عليه ، ويأبى أن الخدم والعبيد وأصحاب النفوس الضعيفة لا يحبون الخدميين ولا السادة ولا العظماء إلا لحاج . نفعه أوله نفع مضرة ، فأما المحبة المبنية على الاخاء والاخلاص وتناسب الأرواح وتمازجها واتفاقها فلا ، وكيف يحب الذليل العزيز والنفسان مفترقتان ؟ وكيف يكون الحب إلا بالاتحاد ، فالتحاد الأنفس في الصفات والأخلاق والعدادات هو الموجب للحب ، وعدم الاتحاد هو الموجب للفرق ، وحسب العبد لله لن يكون قط إلا إذا كانت صلة ، وأبى الصلة بين الخالق والمخلوق ، فلا سبيل للصلة بين الذاتين ، ولكن هناك أمر واحد هو العلم .

قد يحب الإنسان ربه لأنه آتاه ببلذات يشتهيها ، فإذا ذهبت تلك اللذات فأبى ذهب الحب ، وإذا مات وقد حرم أهله وماله وتمتع به أعداؤه فأبى يكون الحب إذن ؟ لا يبقى إلا أمر واحد هو العلم ، العلم هو مبدأ الحب الحقيقى ، وكلما ازداد العبد علما بهذا العالم ازداد من خلقه قربا ، وقرب العبد من الله بالعلم بما فى هذا العالم من الجلال والحكمة ، وهذا أمر لا يدرك إلا بثمرته الممارسة والنظر والفكر ، فهذا الحب يكون باقيا مابقى العلم ، فالغرمون بالعلم فى الدنيا هم الفرحون بالنظر إلى وجهه يوم القيامة : أى بانكشاف الحقائق لنفوسهم ومعرفة ربهم معرفة أرقى من معرفة البصر ، إن البصر لا يرى إلا ظواهر الأجسام ، والعلم يدرك الظواهر والبواطن ، وكل يوم القيامة يعرف من الله على مقدار علمه فى الدنيا ، ويرى العابدون ربهم رؤية أفضل من رؤية العلماء بما لا يتناهى .

ألا فيجب للمسلمون كيف كانت رؤية الله الواردة فى الصحيح أجل من الجنة ، وكيف كانت على مقدار العلم فى الدنيا ، ولا معنى للعلم فى هذا المقام إلا العلم بصفات الله ، وذلك بدراسة الآثار : أى بدراسة علوم الطبيعة والفلak ، وكل ما ظهر من العلوم فى الأرض .

عجبا عجبا ! هل يعلم المسلمون ذلك ؟ هل يعلمون أنهم بالعلم فى الدنيا يظفرون ربهم فى الآخرة ؟ هل يعلم المسلمون أن قراءة العلوم الطبيعية والفلسفية من الوجهة الإطية ترقيهم عند ربهم يوم القيامة كما أن قراءتها من الوجهة الدنيوية ترقيهم فى الدنيا ، إذن المسلمون اليوم نائمون عما يقرتهم من ربهم وعما يرقهم فى دنياهم ، إذن رقى دولهم فى الدنيا ونبوغهم فى علوم الكائنات هو نفسه يفتح لهم باب النصر والسعادة فى الدنيا ، ونفس هذا الحب هو الباب للرؤية ، فإذن المسلمون اليوم لاهون عن أمرين : عن رؤية ربهم

يوم القيامة ، وعن الرقي في الدنيا ، ألبس هذا من العجب الجهالة في الدنيا واحتجاب عن الله ، ورق في الدنيا ورؤية الله ، أحدهما بالجهل ، والثاني بالعلم ، هل يعلم المسلمون ذلك ؟ .
إياك أيها الذكي أن تشك في قولي إن الرؤية في الآخرة رابعة للعلم فقد قرأها العلماء ، لا ترى الله بعينيك هاتين ، هاتان العينان ترى بهما الحيوان والإنسان والجماد وأمرأتك وأولادك ، فأما العلم فانه يرىك المتقدمين والمتأخرين ، ويريك علوم الهندسة والحساب ، فأنت توفق أن زوايا الثلاث تساوي قائمتين معك لا بعينك ، فهناك رؤية أجل من رؤية العين ، فهذا مثل ضربته لك لتعلم أن الله يرى بعين أخرى غير هذه العين ، بل هي أرق منها ، ومقدمة تلك العين العلوم في الدنيا ، وأنت اليوم تعرف نفسك فإن رأيت أنك مغرم بمحبة هذه الدنيا وحكمها وبهجتها لذاتها ، ورأت في قلبك ذراما بالصانع ، وكما زدت دلتها بالعالم الذي نحن فيه زاد قلبك حبذا إلى من صنع هذه الصنعة ، فاعلم أن هذا مبدأ لأساليب الرؤية ، فكما ازدادت علما ازدادت حبا وغراما وعشقا ، وهكذا يتوالى العلوم يتوالى الحب وتدمو نفسك ، وترى أنك في عالم غريب عن ذلك الجمال وتنحني لتتكون في خلوة مؤتمنة بهذا الجمال ، فاعلم أنك أنت الذي ستلقى ربك ملاقة أفضل من ملاقة العابد الذي أحبه بالوجدان وحده وهو خال من العلم ، فرؤية القدر في الحديث ضرب مثل لما ذكرناه ، فإذا تمعنت بالعلم على الوجه الذي ذكرناه لك رأيت في نفسك عجايا رأيت حبك للناس يزداد ، وترى في نفسك ميلا لرفيقهم ، ثم هم يقبلون منك ، أنت ترى لماذا ؟ لأنك أهل للعلم والتعليم لما بينك وبين الله من صلة ، وهي العلم ، فبذلك وتمت الناس ، وإذا كثرت من الذكر اللفظي والقلي زاد تلك العلاقة . وهنا نذكر الشعبة الثانية :

الشعبة الثانية

وفيها مقامان : المقام الأول في قوله تعالى : « كلا إذا بلغت التراقي ، وقيل من راق ، وظن أنه الفراق ، والتفت الساق بالساق إلى ربك يومئذ المساق ، فلا صدق ولا صلي ، ولكن كذب وتولي ثم ذهب إلى أهله يتمطي ، أولى لك فأولى ، ثم أولى لك فأولى ، أئحسب الإنسان أن يترك سدى ، ألم يك لطفة من منى بئى ، ثم كان علقه نخلق فسوى »

المقام الثاني في قوله تعالى : « فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى »

[المقام الأول] يصف الله تعالى حال الإنسان عند الاحتضار بصفتان :

- (١) أن تبلغ الروح التراقي صاعدة من الجسم إلى العالم الروحي .
- (٢) ويقول من حول المحتضر : من ذا الذي يرقيه ، ومن المرض يشفيه ؟ وفي ذكر [راق] من البلاغة ما يميز كل لبيب ويقف دونها كل منطيق ، وذلك أن حول المحتضر جماعة من أهله الباكين ، والملائكة الموكلون ، فبينما أهله يقولون يرقيه من الرقية ليشفي من مرضه يقول الملائكة بعضهم لبعض من يرقى روحه إذا خرجت فيصعد بها إلى ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب ، فهي إما للتورية ، وإما للكناية ، فهذه الكلمة لا يحمل غيرها محلا ، وهذه بلاغة تهجز أكابر الفصحاء ، فانه لوحظ فيها عمل الملائكة وأعمال الإنسان ، وهذا كقول الشاعر :

خاطلى عمرو قباء * ليت عينيه سواء

وعمر وكان أعور فلا يدري أريد أنه يكون أعشى أو يكون صحيح العينين ، فهكذا هنا لا يدري أهو من رقية الشفاء ، أو من الترقية التي تنبع للموت ، والحقيقة أن ملاحظة المعنيين في هذا المقام من أدق التعبير ، وأعجب الأساليب ، وأبداع الأحكام ، فكأن الله يقول : ان الميت يندبه أهله ، ويكيه خاله وعمه ، ويطلبون

الطبيب لا نفاذه من الموت ، والملائكة إذ ذاك ينشاورون في أمره هلاكه : وفوت أملاكه ، ولا يزال الأولون يطيبون والآخرون يقبضون حتى ترهق روحه إلى ذى العزة والجلال .

(٣) وظن المريض أن هذا هو الفراق .

(٤) والتفت الساق بالساق .

(٥) فهناك تصعد الروح إلى ربها .

(٦) ويحاسب على التقدير والقطمير وحب البر ، وحب الشجر ، وهذا قرع الانسان على جهله بما يأتي : انه كان لطفة ، ثم علقه فقدر الله خلقه ، ثم سواه ، وهذا المقام يشمل جملة علوم : التشريح ، وعلم الأجنة ، وعلم النبات ، وعلم الحيوان ، وعلم الطب ، وعلم السياسة والاجتماع ، وعلم الأخلاق ، وعلم التريية ، وعلم المنطق أيضا ، وسيجيء في المقام الثاني علم اصلاح العالم الانساني الآن .

ذكرت لك سابقا أن النظر لوجه الله في الآخرة لن يكون إلا للعاشقين هنا ، ولا عشق إلا بعلم ، ولا علم في هذا المقام إلا بهذه العوالم الجميلة المحيطة بنا ، وقلت أيضا : إن العلوم التي بها نرق أمنا هي أنفسها التي بها نحب ربنا ونراه ، وقلت : ان المسلمين عن هذا القول معرضون .

أقول : كنا نود أن نوضح هذا المقام بنبرة من علم التشريح لم يسبق ذكرها في هذا التفسير من كتابي [الفلسفة] الذي ألفته للطبقة المتعلمة في البلاد المصرية وغيرها ، وهي تشمل : وصف القديماء للدماغ والغشاء بين الرقيق والغليظ ، وكذلك ما فيه من التقسيم والرئة والقلب ، وكيف يتفرع الدم منه إلى كل جزء من أجزاء الجسم ، وهكذا الطحال والكبد ليوازن الأذكاء بين وصف القديماء ووصف علماء العصر الحاضر الذي تقدم كثيرا في هذا التفسير مشروحا موضحا بالصور الشمسية لاسيما في أمثال [سورة فاطر] ولكن اخترت أن أرجئه لفرضة أخرى في ملحق التفسير ان شاء الله تعالى وطالت الحياة ، والله هو الولي الجيد . وهذا التشريح في حد ذاته غير مقصود ، وإنما يقصد لجملة علوم :

(١) العلم الأول — علم الطب : إن الطبيب يعتمد كل الاعتماد على علم التشريح الدقيق المستوفى ، فهو يبحث ويعرف كل عضو في الجسد ومستقره ، فيعرف الرئة والقلب والطحال والكبد والمعدة والأمعاء الدقاق والفصلاظ ، ويدرك العلاقة بين الأعضاء ، وبالجملة يكون الطبيب أعلم الناس بأعضاء الجسم وجميع ما يشتمل عليه .

(٢) العلم الثاني — علم الأجنة : المسمى [بيولوجي] ولست أقول ان علم التشريح يكون سبيلا لهذا العلم ، وإنما علم الأجنة بالنسبة لعلم التشريح أشبه بعلم اللغة بالنسبة لعلم الصرف ، فعلم الأجنة يبين سير الجنين في الرحم في بطن أمه والدرجات التي مر عليها أثناء الحمل فيه ، وأما علم التشريح فقد عرفته .

(٣) العلم الثالث — علم النبات ، وليس المقصود أن علم النبات نتيجة لعلم التشريح ، بل هناك اشتراك في بعض خواص ، وهاك بيانها :

إن النبات يتغذى وينمو ويلد ويموت ، وإيضاحه أنك ترى الانسان يزدد الطعام فتلقاه القوة الجاذبة فتمسكه في المعدة الماسكة لئلا ينحدر قبل الهضم فتحضمه الهاضمة فتدفعه قوة أخرى وهي الدافعة ، ثم تتأق الخالص النقي منه قوة أخرى وهي الفاذية ، ثم أخرى وهي النامية ، ثم يلد المثل فتكون القوة المصورة ، فهذه سبع قوى : الجاذبة ، الماسكة ، الهاضمة ، الدافعة ، الفاذية ، النامية ، المصورة .

فهذه القوى السبع في الانسان ، وفي الحيوان ، وفي النبات ، فهذا لما درسنا التشريح درسنا معه قوى النبات ، وقوى الحيوان الذي اشترك معه في تلك القوى السبع .

(٤) العلم الرابع — علم الحيوان : وقد علمت أن القوى السبع المذكورة عرفناها في الحيوان مع الانسان ، وهناك قوى أخرى خاصة بالحيوان والانسان ولا تكون في النبات ، وهي احس والحركة ، والحس عبارة عن حس حواس ، والحركة إما عن شهوة ، أو غضب ، أو لطلب والدفع ، فإذا درسنا حس الانسان وحركته فقد درسنا معه الوصفين في الحيوان .

(٥) العلم الخامس : من العلوم المناسبة لتشريح علم النفس ، ولقد بينت ما خصه من في هذا التفسير ، والنفس فصل فيها القوة الشهوية ، والقوة الغضبية ، والقوة العاقلة ، وبين خصائص تلك القوى وأحوالها .

(٦) العلم السادس — علم التربية : وهو [البيداغوجيا] ، وهو الفن الذي به يعلم التلميذ بأسهل الطرق ، وهذا الفن له ارتباط بعلم النفس وعلم النفس مرتبط بالتشريح .

(٧) العلم السابع — علم السياسة : وذلك أن العلامة الفارابي ألف كتابا يسمى [آراء أهل المدينة الفاضلة] وهذا الكتاب مبنى كله على علم التشريح ، فانك تراه يشرح الرأس ، وفقر الظهر ، وأعصاب الحس وأعصاب الحركة ، وقال : إن النخاع الشوكي متصل بالسماع ، والأوامر تصدر من الدماغ محل الفكر إلى النخاع الشوكي ، والنخاع الشوكي موصل إلى الأعصاب المحيطة بالفقرات ، فتلقط أعصاب الحس الأخبار وتوصلها إلى الأعضاء العاملة ، فتتحرك بأعصاب الحركة بعد انتقال الأوامر من أعصاب الحس ، وجعل الجسم كله ما بين خادم ومخدوم كالنم والمعدة والأمعاء والكبد والخالين والمثانة ، فكل واحد من هؤلاء خادم لما بعده ، وهكذا إلى آخرها ، فكما أن المنافع موزعة على الأعضاء هكذا أعمال المدينة توزع على الأشخاص كل بحسبه ، فلا توضع المعدة محل الرأس في التفكير ، هكذا نظيرها في نوع الانسان ، وعلى ذلك يوضع كل واحد في مركزه ، والرئيس في مركزه ، وإن لم يوجد رئيس مستوفى الشروط فليكن جمع فيه هذه الشروط ، وقال : إن الأمة كلها يجب أن تكون على هذا الوضع ، والأمة على سطح الأرض يجب أن يكونوا هكذا كأنهم جسم واحد ، وحينئذ تكون أرضا ككرة فاضلة ، هذا ملخص الكتاب الذي بنى على التشريح .

(٨) العلم الثامن — علم ما وراء الطبيعة : هأنذا عرفت أن علم التشريح أحاط به علوم سبعة من علم الأجنحة إلى علم النبات والحيوان والنفس الخ ، وليس في علم من هذه الثمانية ، وهي التشريح وما اتصل به شيء من معرفة الله ، ولذلك تجد عالم النبات ، أو الحيوان ، أو النفس ، أو الأجنحة ، أو عالم الاجتماع ، أو عالم البيداغوجيا ، أو عالم الطب ، كل هؤلاء ، وكذا عالم التشريح يعيشون ويموتون ولا يدرون ربهم ولا اليوم الآخر ، هذه هي الحقيقة واضحة جليلة .

إن التشريح ومأمعه من العلوم السبعة يتعلمها الناس في الشرق والغرب ولا تدلهم على خالق ولا بعث ، وأكثر الذين تعلموا هذه العلوم يكفرون بالديانات ، فاذن ما معنى قوله تعالى : « خلق فسوّى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى » وقوله في أول السورة : « بلى قادرين على أن نسوّى بنانه » ؟ الجواب على ذلك أن هذا علم يدرس بنفسه كالعلوم الأخرى ، وهو علم ما وراء الطبيعة : أى العلم الذى لا يختص بفن ، بل ينظر للعلوم كلها كأنها شجرة واحدة لها جذع وأغصان متفرعات عنه ويصبح العالم عند عالم هذا الفن كأنه شجرة واحدة متفرعة إلى فروع ، وكأنما هو جسم واحد له أعضاء متضامة ، فهؤلاء هم الذين يدرسون نظام الكون كله ، ويستخدمون جميع العلوم في علمهم ، فعنى كونه وراء الطبيعة أنه لا يختص بعلم الرياضيات ولا بعلم الطبيعيات ، بل هو علم عام يبحث في العلوم جميعها وتقسيمها ، ويستدل على العالم الذى لم يره وفى الله وفى النبوات وما أشبه ذلك ، ومنه مبدأ العلوم ، وهذا العلم هو طريق القرآن ، فصاحب هذا الفن ينظر من وجهة خاصة ، فليس ينظر من حيث سير الجنين في نموه ، ولا من حيث القوى الحيوانية ، أو النباتية ، أو

المرض والصحة ، وإنما ينظر من حيث حسن الصنعة والاتقان والابداع ، فما أصحاب العلوم السابقة إلا كأصحاب الحقول يزرعونها ولا يعقلون مازرعوا من علم النبات ، هكذا هؤلاء يعرفون علومهم ولكن لا يعينهم حسن النظام والاتقان والاستدلال على الخالق ، ثم حبه ، ثم الغرام ، ثم النظر إلى وجهه ، فينشد قوله تعالى « بلى قادرين على أن نسوي بنانه » وقوله : « ألم يك نطفة من منى بمنى ، ثم كان علقة نفلق فسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى » لا يدل على المتصود في هذا المقام إلا إذا نظر له من حيث الاتقان وابداع الصنع ، ثم انك تعلم أن العلوم السبعة المذكورة ضرورية للأمة ، والا كانت ذات نقص مشين ، فهذه العلوم كلها واجبة على الأمة لتحيا ، ولتحفظ ثروتها وقوتها ، وتصح أجسام أهلها ، ولكن ليس معنى هذا أنهم يعرفون الله بها ، بل انما يعرف الله بالنظر الخاص من وجهة الصنعة والصانع ، فعملت إذن أن العلوم المذكورة كلها مطلوبة ، لأنها واجبة فرض كفاية ، ومع ذلك لابد من النظر لها من حيث الوجهة الإلهية حتى تدل على الصانع الحكيم وعلى قدرته .

ضرب مثل بالقصر

واعلم أن الناس في الدنيا أشبه بجماعة يسكنون قصرا بديعا ، فأكثر السكان مشغولون بملذاتهم وأحزانهم وأفراحهم ، وقليل منهم من فكر في بنائه ، وحسن نظامه ، والاعجاب بالعالم الذي أبدعه ، والنظام الذي أخرجه ، والثروة التي أنتجته ، والغرام بمن بناء وجهه ، ثم الاقتداء به ، والشوق إلى إقائه ، هكذا أهل الأرض يسكنونها ويقرءون علومها ليعيشوا بها ، ومن العلوم التشریح المذكور في هذه الآية ، وما اتصل به من علم الأجنة والنبات والحيوان والطب وعلم النفس وعلم التربة وعلم السياسة العامة ثم علم الأخلاق لأن له اتصالا تاما بعلم النفس ثم علم المنطق ، يقرأ الناس هذه العلوم ليعيشوا بها ، ولكن هناك علم ما وراء الطبيعة ، وهو الباحث عن النظام العام كما شرحناه ، فليس يتقنه إلا قليل ، وهؤلاء عليهم قوام النوع الانساني واجتماع كلمته ، والأنبياء أوحى إليهم ما يؤيد هذا العلم ويتبعهم الحكماء .

فهل عرفت ما قلته لك : ان معرفة الله وارتقاء المدنية يرجعان لهذه العوالم المشاهدة ، فهي من حيث أنها متقنة توصلنا لصانعها ، ومن حيث انها تنفعنا توصلنا لحياتنا الدنيا ، فهي للعقول مرقية ، والله موصلة ، وللحياة متممة . انتهى الكلام على المقام الأول ، والحمد لله رب العالمين .

المقام الثاني في قوله تعالى : فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى

لعلك في المقام الأول هالك ماترى من علوم متعددة قد اقتضاها قوله تعالى : « تفلق فسوى » وكيف كان علم البحث في النظام غير العلوم العشرة الأخرى ، وأنه لا يلزم من علم الطب أن يعرف الانسان الخالق ما لم يدرس الدراسة المطلوبة ، فلئن عجبت من كثرة العلوم فلتعجبين ألف مرة كيف يكون قوله تعالى : « فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى » قد تضمن علما هو معجزة آخر الزمان ، وهو حكمة القرآن ، فانظر وتأمل في الذكور والاناث على سطح الكرة الأرضية ، لقد ثبت يقينا أنك اذا حسبت الصنفين في مواليدهم الأمم شرقا وغربا أمة ، وقرية قرية ، وبلدة بلدة ، ومجموع الأمم وجدت الصنفين متكافئين عددا ، فعدد الذكور كعدد الاناث تقريبا ، وهذا التقريب للعوارض التي تحل بالأمم أحيانا ، ولما تحققت هذه النظرية فعلا ألقت كتابا مبينا عليها وعلى حسن النظام في العالم سميت [ابن الانسان] فأين الانسان مرة هذه الآية وأمثالها كقوله تعالى : « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » .

هذا الكتاب لما ألفته أرسلته إلى بعض جرائد أوروبا ومجلاتنا ، وساعدني على ذلك سيدة من علماء

بلاد روسيا ، فقد عرضته في مجتمع علمي ببلاد اليونان ، ومن أخذه الأستاذ [سنتلانه الطلياني] ، وتلخص الكتاب تلخيصا ، وقرّظه في مجلته ، وترجمها المرحوم مصطفى بك رياض من التليانية إلى العربية ، والكتاب ألفته قبل الحرب الكبرى بأربع سنين ، وقد كنت أقول في نفسي : [إن أوروبا تريد ظلم بلاد الاسلام فلاؤلفن كتابا يكون حجة عليها في الأجيال المقبلة ، وليكون تذكرة للشبان المسلمين بعدنا . وملخصه يرجع إلى أن نظام هذه الدنيا والأمم والحكومات يجب أن يكون تابعا لنظام الإلهي ، فانا نجده جعل الذكور والاناث متساويين عدا ما يدل أن هناك عناية بكل مخلوق ، وهكذا نجد العقول متفاوتة ، والأرض مختلفة البقاع والخواص ، ولا بد أن يكون هناك تناسب بين العقول والادراكات والخواص الانسانية وبين هذه الأرض وما عليها ، فليغير نظام الأرض والدول ، ولتكن أم أرقى من هذه . ولما كان شرح الكتاب هنا يطول اختصرت القول ، وقد نقلت لك ما كتبه الأستاذ سنتلانه المذكور المترجم إلى العربية فيما تقدم في هذا التفسير عند آية : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » في سورة الحجرات ، فقد أثبت هناك أن هذه الآية تخصّ المسلمين على أن يكون لهم وجهة تتجه إلى جمع العالم كله في هيئة تعارف علم ، فاقراء هناك :

- (١) نتطلع على آراء الأوروبيين وفلاسفتهم في النهضة التي نريدها للمسلمين .
- (٢) ولتعلّم أن الاسلام يشير إلى مدينة أرقى من مدينة المسلمين اليوم وقبل اليوم ومدينة أوروبا الآن .
- (٣) وليكون ذلك داعيا أم الاسلام أن يأخذوا بمقائيد العلم والحكمة ويتخذوا لهم أسلوبا لترقية النوع الانساني .
- (٤) ولتعلّم أن كتاب [أين الانسان] من أجلّ معجزات القرآن في هذا الزمان .
- (٥) وليعلم المسلمون أن ديننا الى الآن لم تظهر كوامنه ، وأن عجائبه لا تظهر إلا بحكماء وعلماء ومفكرين
- (٦) وليكون ملخص الكتاب الذي ذكرته مشوقا لك ومشجعا على سلوك سبل العلم والتفكير اهـ

تذكرة في قوله تعالى : بلي قادرين على أن نسوي بنانه

كتب يوم الثلاثاء ١٣ شوال سنة ١٣٥١ هجرية

اعلم أن مسألة تسوية البنان من أبدع ما جاء به الذكر الحكيم ، ومن أعجب المعجزات القرآنية ، لقد قدّمت في المجلد التاسع عشر من هذا الكتاب في تفسير [سورة فصلت] تفصيل الكلام على آية : « حتى اذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون . وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة واليه ترجعون . وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون » وهناك تقرأ تاريخ بصمات الأصابع ، وأنه تاريخ حديث النشأة ابتداء حقيقيا في أيام حياتنا نحن سكان الأرض الآن : أي في أواخر القرن التاسع عشر المسيحي ، ودخل الآن في دور التنفيذ الفعلي في الشرق والغرب ، وذلك مبني على أن كل امرئ في هذه الأرض لا تشابه خطوط أصابعه خطوط أصابع غيره ، وبذلك قامت هذه حجة على السارقين والقاتلين في أوروبا والشرق الأقصى والشرق الأدنى ، منها بلادنا المصرية ، فالقضاة في المحاكم الأهلية يعولون على بصمات الأصابع ، وهناك ترى رسوم أنواع الألف بالتصوير الشمسي ، وأن خطوط الأصابع مهما تنوّعت تنحصر في أربعة أقسام ، وكل قسم تكون له أشكال لانهاية لها .

الله أكبر : إذن ذكر البنان في القرآن لحكمة لم يظهر أثرها في الحياة الدنيا ظهورا واضحا إلا في زماننا

وترى في [سورة يس] أيضا هيئة الشرطة في اليابان ، وكيف عمروا على الشاب الذي قتل مشوقته بطريق بصمات أصابعه .

إن رحمة الله تجلت في القرآن وفي الآفاق معجزات ومعجزات ، إذن لا عجب فيما أخبرني به صديقي محمود بك سالم الذي عاش أكثر حياته بأوروبا لاسيما فرنسا ، فقد قال في مجمع عظيم مصري وهو مخاطب : ان عالما ألمانيا منذ بضعة عشرات السنين اعتنق الاسلام ف قيل له لماذا ؟ قال الآية : « بلى قادرين على أن نسوي بنانه » فان الكشف عن أمر بصمات الأنامل لم تعرفه أوروبا فضلا عن العرب إلا في زماننا هذا ، إذن هو كلام الله لا كلام البشر . وبهذا تم الكلام على [سورة القيامة] والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة الانسان

هي مدنية

آياتها ٣١ - نزلت بعد سورة الرحمن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا * إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ
مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا
كَفُورًا * إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا * إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ
كُنَاسٍ كَانَ مَزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا * يُوفُونَ بِالْإِذْرِ
وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا * وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا *
إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا * إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا
عَبُوسًا قَطَرِيرًا * فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَمُرُورًا * وَجَزَّاهُمْ بِمَا
صَبَرُوا جَنَّةَ وَحَرِيرًا * مُتَكئينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا *
وَذَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ أَيْدِيهِمْ تَحِيَّةً * وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِثَانِيَةٍ مِن فِضَّةٍ
وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا * قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا * وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا
كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا * عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا
رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنشُورًا * وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلَكًا كَبِيرًا * عَلَيْهِمْ

ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٍ وَإِسْتَبْرَقٍ وَخُلُوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا *
 إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا * إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ
 تَنْزِيلًا * فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِيعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا * وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ
 بُكْرَةً وَأَصِيلًا * وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا * إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ
 وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا * نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أُمُرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا
 أَمْرَهُمْ تَبْدِيلًا * إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ فَنُشَاءُ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا * وَمَا نَشَاءُ وَنَا إِلَّا
 أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ
 عَذَابًا أَلِيمًا *

تشمّل هذه السورة على ثلاثة مقاصد [الأول] كيف خلق الله الانسان ؟ ثانيا لما ذكر في آخر سورة
 القيامة ، وذلك من أول السورة إلى قوله : « سميعا بصيرا » [الثاني] في جزاء الشاكرين والكافرين ،
 ووصف الجنة والنار ، وذلك من قوله : « إنا هديناه السبيل » إلى قوله : « وكان سعيكم مشكورا » .
 [الثالث] أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالصبر ، وذكر الله ، والتهجد بالليل ، وذلك من قوله تعالى : « إنا
 نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا » إلى آخر السورة . ولنشرع في تفسير السورة فنقول :

المقصد الأول : كيف خلق الله الانسان ؟

التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

(هل أتى على الانسان) أى قد مضى عليه (حين من الدهر) طائفة محدودة من الزمان الممتد الذى
 لاحد له حال كونه (لم يكن شيئا مذكورا) أى لا يذكر ولا يعرف ، ولا يدري ما اسمه ، وما المراد منه ،
 وانما كان يسمى بأسماء مختلفة ، فأما آدم أبو البشر فانه بقى أربعين سنة طينا ، وأربعين سنة حرا مسنونا ،
 وأربعين سنة صلصالا كالنخل ، فتم خلقه فى مائة وعشرين سنة كما يقال فى الآثار ، وهذه السنين ربما
 كانت رمزا إلى أزمان طويلة مجهولة لنا ، وأما بنو آدم فانهم يسمون قبل خلقهم بهيئة الانسانية نطفة فى
 الأضلاب ، ثم علقا ، ثم مضوا فى الأرحام ، فى تلك الأيام لم يذكر بشيء ، ثم أتبعه بذكر تاريخ العناصر
 الداخلة فى الانسان قبل تكوّنه فى الأضلاب الأرحام فقال (إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج) أى
 أخلطنا حال كوننا (نبتيه) أى صيدين اختباره (جعلناه سميعا بصيرا) ليتمكن من مشاهدة الدلائل ،
 واستماع الآيات ، والتفكير والتفكر ، ذلك أننا خلقناه من النطفة ، وهى تكون فى الرجل وتكون فى المرأة ،
 فهاتان النطقتان باتحادهما يتكوّن الجنين ، ومن أين هاتان النطقتان ؟ هاتان النطقتان مخلوقتان من عناصر
 مختلفة وتلك العناصر آتية من النبات والحيوان والداخلين فى طعام الآباء والأمهات ، ومن الماء الذى يشربونه ،
 والأملاح التى يتعاطونها ، وجميع المواد التى دخلت فى أصول التغذية من الطعام والشراب عشرة ، وهى :

الأوكسوجين ، والأودروجين ، والكربون ، والأوزون ، والكبريت ، والفوسفور ، والبوتاسيوم ، والمغنسيوم ، والكسيوم ، والحديد .

فهذه هي العشرة التي تدخل في كل نبات ، ومن باب أولى في كل حيوان لأنها طعامه ، وفي كل إنسان فالنطفة إذن مكونة من هذه الأمشاج العشرة ، فهي أخلط كوّنت ومزجت وصارت دما فنطفة فعلاقة الخ جعل لها السمع والبصر والعقل ، وهذه من عالم أشرف من عالم المادّة الميتة التي هي في أسفل درجات النقص والكمال إنما نزل إليها من عالم أرق منها ، وهو العالم الإلهي الروحي ، فلما أن ترجع إلى حب المادّة والاستكانة لهذه المشاهدات ، وأما أن نجد وتنسفر فتراجع إلى عالم الكمال والجلال بالعلم والعمل : وهذا هو قوله تعالى : « نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا » : أي نعامله معاملة المختبرين ، أي ميل لأصله الأرضي من الأمشاج ليكون حيوانا نباتيا معدنيا شهوانيا ، أم يكون إلهيا معتبرا بالسمع والبصر والعقل التي من طباع أرق من طباع المادّة التي تكون فيها ، فإذن الإنسان مكون من عالمين : عالم فاعل ، وعالم منفعل ، فالعالم الفاعل عالم الروح وهو إلهي ، والعالم المنفعل عالم المادّة ، وهي الأمشاج ، فإذا حكم النفس وقهرها بحيث يتجاوز عن أخلاق المادّة وعن الشهوات فقد صفت نفسه ، وسمت إلى عالم أعلى ، وإن صفت ومالت إلى المادّة فإنها ترجع إلى أخلاقها وتدخل في جهنمها وعذابها في الدنيا بالحيرة والشكوك وتشابه أخلط المادّة عليها وذوولها من تتبعها « ولعذاب الآخرة أشد وأبقى » ولذلك أعقبه بالمقصد الثاني :

المقصد الثاني : في جزاء الشاكرين والكافرين ، ووصف الجنة والنار

قال تعالى (إنا هديناه السبيل) فأعطيناه السمع والبصر والفؤاد ، وأرنا له المحجة ، ونصبتنا له الدلائل في الأنفس والآفاق ، ليتعد عن أصله الأرضي إلى سببه السماوي ، فهناك حواس وعقل له في نفسه ، ويقابلها مخلوقات أرضية وسماوية تكون مسرحا لفكره ، ومغنا لعقله ، فنحن إذن هديناه السبيل حال كونه (إما شاكرا وإما كافورا) فبعض الناس شاكر بالاهتداء ، وبعضهم كافور بسبب الاعراض عنه . ثم شرع يبين حال الفريقين فقال (إنا أعتدنا للكافرين سلاسل) ليقادوا بها (وأغلالا) بها يقيدون (وسعيرا) بها يحرقون (إن الأبرار) جمع برّ كأرباب جمع رب (يشربون من كأس) الكأس الزجاجة فيها الخمر ، أو يراد بها نفس الخمر مجازا (كان مزاجها كافورا) أي كان مزاج به كافورا ببرودته وغنوبته وطيب عرقه ولا جرم أن مافي الدنيا ليس فيه مما في الجنة إلا الاسم ، فإذا قال المفسرون انها اسم لعين في الجنة ماؤها في يياض الكافور ورائحته وبرده ، فقد قالوا ما يؤخذ من اللفظ ، والافني الجنة ملاعين رأت ولاذن سمعت ولاخطر على قلب بشر ، وإنما أخذوه من قوله تعالى (عينا) لأنها بدل من كافورا ، ومعلوم أن الكافور لالذة فيه ، وشرا به مضر ، فإذن يرجع المعنى إلى الأوصاف المذكورة من البرودة والرائحة الخ (يشرب بها) أي يشرب منها (عباد الله) أي أولياؤه (يفجرونها تفجييرا) يقودونها إلى منازلهم وقصورهم حيث شاءوا سهلا لا يمتنع عليهم ، فهؤلاء يشربون منها على طريق مزاجها بالخمر . ولما كان هذا النعيم له أسباب في الدنيا أعقبه بقوله (يوفون بالندر) بما أوجبوا على أنفسهم ، ولا جرم أن من وفي بما أوجبه على نفسه فهو على الوفاء بما أوجبه الله عليه أوفى (ويخافون يوما كان شره مستطيرا) أي شدائده منتشرة ، يقال استطار الفجر : انتشر وظهر (ويطعمون الطعام على حبه) أي مع الاشتها والحاجة إليه ، أو على حب الله (مسكينا) فقيرا عاجزا (ويتنبا) صغيرا لا أب له (وأسيرا) مأسورا من أسارى الكفار ، فقد كان صلى الله عليه وسلم يؤتى له بالأسير فيدفعه إلى بعض المسلمين فيقول أحسن إليه ، فهؤلاء يطعمون الطعام حال كونهم يقولون في أنفسهم (إنما نطعمكم لوجه الله) فلا نمن عليكم ، أو نتوقع المكافأة فإنها تنقص الأجر ، وقد كانت عائشة

رضى الله عنها تبث الصدقة إلى أهل بيت من البيوت ، ثم تسأل المبعوث فإن ذكر دعاء دعت لهم بمثلها ، ليبقى ثواب الصدقة لها خالصا عند الله ، فنحن نطعمكم حال كوننا (لا نريد منكم جزاء ولا شكورا) أى شكرا (إنا نخاف من ربنا) فلذلك أحسنا إليكم ولم نطلب المكافأة منكم (يوما) عذاب يوم (عبوسا) تعبس فيه الوجوه (قطريرا) شديد العبوس ، يقال : اقطرت الناقة إذا رفعت ذنبها وجعت قطريها (فوقاهم الله شر ذلك اليوم) لأنهم خافوا وتحفظوا (ولقاهم نضرة وسرورا) بدل عبوس الفجار وحزنهم (وجزاهم بما صبروا) على أداء الواجبات ، واجتناب المحرمات ، والابتثار على أنفسهم بالأموال (جنة) بستانا يأكلون منه (وحريرا) يلبسونه حال كونهم (متسكنين فيها على الأرائك) جمع أريكة ، وهو السرير في الحجرة ، والحجرة هي الناموسية المعروفة ، ولا يسمى السرير أريكة إلا داخلها (لأبرون فيها شمسا ولا زمهريرا) أى لا يؤذيهم حر الشمس ولا برد الزمهرير كما كان يؤذيهم في الدنيا ، والزمهرير أشد البرد ، فهو الجنة معتدل ، فلا هو حار محم ولا بارد يؤذى . ويقال في لغة طي : الزمهرير القمر . قل راجزهم : وليلة ظلامها قد اعتكرت قطعتها والزمهرير مازهر

فيكون المعنى على هذا أن جنة الجنة مضي بذاته لا يحتاج فيه إلى شمس ولا إلى قمر ، وإذا كان الأمر كذلك دل هذا على أن الأحوال هناك مخالفة كل مخالفة لعالم أرضنا ، فلا البستان ، ولا الحرير ، ولا السرير ، ولا الأريكة كالذي نشاهده في الدنيا ، بل هي مخالفة كل مخالفة كما قاله ابن عباس . قال تعالى : (ودانية عليها ظلالها) أى قرية منهم ظلال أشجارها : أى جنة أخرى دانية عليهم ظلالها ، ويصح أن تكون حالا أخرى : أى حال كونهم متكئين وغير راغبين ودانية (وذلت قطوفها تذيلا) أى سخرت للقائم والقاعد والمتسكى : أى تدنو ظلالها عليهم في حال تذييل قطوفها عليهم ، ويصح أن تقول : ودانية عليهم ظلالها ومذلة الخ ، والقطوف الثمار ، جمع قطف (ويطاف عليهم بآنية من فضة) أى يدبر عليهم خدمهم كؤوس الشراب ، والآنية جمع إناء ، وهو كأس الشراب (وأكواب) أى من فضة ، جمع كوب ، وهو ابريق لاعروة له (كانت قواريرا ، قوارير من فضة) أى تكونت جامعة بين صفاء الزجاج وشفيفها ، وبياض الفضة ولينها : يعنى أن آنية أهل الجنة من فضة بيضاء في صفاء الزجاج ، فبرى ماني باطنها من ظاهرها وقوارير كل قوم تشا كل أرضهم ، وأرض الجنة أشبه بالفضة ، ولا جرم أن قوارير الدنيا من الرمل وبعض العناصر ، وقوارير الجنة من الفضة ولكنها تكون أصنى منها ، وقرى قوارير من فضة بالرفع : أى هي قوارير ، وهو على النصب بدل (قدرها تقديرا) أى إن السقا والخدم الذين يطوفون عليهم قدرها لهم على قدر كفايتهم لا تزيد ولا تنقص ، فهي على قدر رى شاربها ، فهي ألذ لهم وأخف عليهم ، لا تفيض ولا تنقص (ويسقون) أى الأبرار (فيها) فى الجنة (كأسا) خرا (كان مزاجها زنجيلا ، عينا) بدل من زنجيلا (فيها) فى الجنة (تسمى) تلك العين (سلسيلا) فى تلك العين طعم الزنجبيل ، ولا جرم أن العرب تستلذه وتستطيعه ، وسميت زنجيلا لذلك ، وسلسيلا لسلاسة انحدارها فى الخلق ، وسهولة مساعها وعدوتها وطيبها ، وإنما جعل العرب الزنجبيل فى شرابهم ، لأنه يحصل فيه ضرب من اللذع . قال الأعشى :

كأن القرنفل والزنجبيل * بانا بنفسها وأريا منشورا

الأرى : العسل ، والمنشور المستخرج من بيوت النحل . وقال المسيب بن علس :

فكأن طعم الزنجبيل به * إذ ذقته وسلافة الجر

فلذلك وصف الله به شراب أهل الجنة ، وشراب أهل الجنة على برد الكافور ، وطعم الزنجبيل ، وريح المسك ، ولا جرم أن هذا كله ماهو إلا أسماء لما فى الدنيا ، وهناك مالا عين رأت ولا أذن سمعت ، فاللعانى

غير مانعهم ، والألفاظ لمجرد تخيل شيء نراه كما حلقه ابن عباس (ويطوف عليهم ولدان مخلدون) دائماً (إذا رأيهم حسبهم أولوا مشوا) من صفاء ألوانهم ، وانبشهم في مجاميعهم ، وانكس شعاع بعضهم إلى بعض ، والألوان الثور أزرق في النظر من المذموم (وإذا رأيت ثم) أي في الجنة : أي إذا رأيت بصرك ونظرت به (رأيت نعيم) لا يوصف عظمه (وملكاً كبيراً) فأدبهم منزلة من ينظر في ملكه مسيرة ألف عام يرى أقصاه كما يرى أذهاه ، هذا ملك غير العارفين ، أما ملك العارفين فليس يحد بثبات الألوف بسير الضوء لا بسير الناس ، فإن العلوم والمعارف إذا انتقشت في نفس العارف واطمأن على تلك الدوام التي ذكرناها في هذا التفسير في سور مختلفة ورأى أن نظامها متناسق أصبح ينظر إليها نظراً للروح بما ملك ، وتصبح هذه كلها لجنة له وسروراً لا يفارقه ، فالعلمجنة العارفين (عليهم ثياب سندس) أي يطوف عليهم ولدان حال كون الطوف عليهم عليهم ثياب سندس ، وهو رقيق الديباج (خضر) جمع أخضر (واستبرق) غليظ (وحلوا أساور من فضة) أي وقد حلوا أساور من فضة . قال ابن المسيب : لا أحد من أهل الجنة إلا وفي يده ثلاث أسورة : واحدة من فضة ، وأخرى من ذهب ، وأخرى من لؤلؤ ، وهذا يجمع بين ما هنا وما في سور أخرى (وسقاهم ربهم شراباً طهوراً) وهذا الشراب غير ما تقدم وأرقى منه ، فشراب الله غير شراب السقاة في الجنة ، فشراب السقاة بآنية الفضة والأكواب والكناس التي مزاجها زنجبيل ، وهذه يطاف عليهم بها ، أما الشراب الطهور فالذي يسقيه لهم ربهم ، ووصف بالظهور لحكمة سأذكرها في أواخر تفسير هذه السورة إن شاء الله تعالى ، ثم يقال لأهل الجنة (إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً) مجازي عليه غير ضيع ، وشكر الله لعباده أن يرضى منهم بالقليل ، ويعطيهم الجزيل من الخيرات . انتهى المقصد الثاني .

المقصد الثالث : أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالصبر ، وذكر الله ، والتجهد بالليل

قال تعالى (إنا نحن نزلنا عليك) يا محمد (القرآن نزيلاً) متفرقة آية بعد آية ، ولم نزله جملة واحدة لحكمة بالغة تقتضي تخصيص كل شيء بوقت معين ، فليثبت قلبك ولينشرح صدرك (فاصبر لحكم ربك) بتأخير نصرتك على كفار مكة وغيره (ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً) أي لا تطع كل واحد من مرتكب الآثم ومن متجاوز الحد في الكفر ، فأمر بمعنى الواو ، فإذا قال لك الآثم وهو عتية : اترك الصلاة وأنا أزوجه ابنتي وأسوقها إليك بغير مهر ، وإذا قال الكفور ، وهو الوليد بن المغيرة : أنا أعطيك من المال حتى ترضى إذا رجعت عن هذا الأمر ، فلا تطع واحداً منهما ولا غيرهما ، فقد أعددت لك نصراً في الدنيا وجنة في الآخرة قد عرفت وصفها ، فتستعد للنعم المقيم بالصبر أولاً ، وداوم على ذكر ربك لاسيما وقت صلاة الفجر ووقت الظهر والعصر ، وهذا قوله تعالى (وإذا كراستم ربك بكراً وأصيلاً) فهو إما بمعنى الدوام ، وإما بمعنى الوقتين المذكورين (ومن الليل فاسجد له) أي وبعض ليل فصل له تعالى كصلاة المغرب والعشاء (وسبحه ليلاً طويلاً) أي وتجد له طائفة من الليل طويلة ، فأما هؤلاء فانهم غافلون عن هذه المعالي (إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم) أممهم (يوماً ثقيلاً) شديداً ، فالثقل يكون باهظاً للحامل ، فلذلك أمرناك بصلاة المغرب والعشاء وصلاة التهجد الطويلة لتسكون في مأمن من هذا اليوم الثقيل ، وكيف يغفلون عنا (نحن خلقناهم وشددنا أسرهم) وأحكامنا ربطهم فواصلهم بالأعصاب ، فلأسر الأوصال قد شئت بعضها إلى بعض بالأعصاب وامتدت فيها العروق واتصلت وشدت عابها فكيف تتركهم سدى بعد هذا الأحكام والعناية في الخلق (وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلاً) فإن عادتنا أن نزيل ما لا يصلح للرق من خلقنا ، فهناك هؤلاء ونبدل أمثالهم فنجعلهم مكانهم يكونون أطوع منهم (إن هذه) الدورة (تذكرة) كسائر القرآن (فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً) تقرب إليه بالطاعة (وما تشاءون إلا أن يشاء الله) أي وما تشاءون ذلك إلا وقت

أن يشاء الله مشيئكم (إن الله كان عليماً) بما استعد له كل أحد (حكماً) لا يشاء إلا على مقتضى الحكمة والنظام العدل (يدخل من يشاء في رحته) فيهدية ويوفقه للطاعة على حسب استعداده (والظالمين) الذين لم يستعدوا للهداية (أعد لهم عذاباً أليماً) انتهى التفسير اللفظي للسورة كلها ، والحمد لله رب العالمين .

لطائف هذه السورة

- (١) في قوله تعالى : « إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً » .
- (٢) في قوله تعالى : « ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً » .
- (٣) في قوله تعالى : « ولقاهم نضرة وسرورا » .
- (٤) في قوله تعالى : « وسقاهم ربهم شراباً طهوراً » .

اللطيفة الأولى في قوله تعالى : إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً يقول الله : إن الإنسان مخلوق من نطفة ، والنطفة مكوّنة من أمشاج ، وما الأمشاج في الإنسان إلا الأكسوجين ، والأدروجين ، والكربون ، والأوزون ، والكبريت ، والفوسفور ، والبوتاسيوم ، والمغنيسيوم ، والحديد .

فهذه هي الأمشاج والأخلاق التي كوّن منها الإنسان ، والإنسان يتولد فيه النطفة ، والنطفة يتكوّن منها إنسان جديد ، فهذا الإنسان مبدؤه من الحديد والفوسفور والكبريت الخ .

الإنسان مركب من مواد بعضها محرق ، فالفوسفور سريع الاشتعال متى عرض للهواء ، والبوتاسيوم جسم أبيض فضيّ لماع لين كشمع العسل يصهر على درجة ٩٢٥ ر و يتطاير على درجة دون الاحرار ، ولون بخاره أخضر جيل ، ومتى لامس الهواء تغير لونه ، ومتى أقيت قطعة من البوتاسيوم في الماء فانك ترى كرات البوتاسيوم تحمر بسبب شدة ارتفاع الحرارة الناتجة عن التفاعل ، ويلتهب الأدروجين المتصاعد ، وتدور كرات البوتاسيوم بعضها على بعض سباحة على بعد من سطح الماء ، ثم بعد زمن تحوّل إلى بوتاسا وتسقط على الماء فيتكوّن بخار الماء ، وتحصل فرقة بسبب التفاعل . والبوتاسيوم داخل في تركيب ملح البارود ، والبارود يدخل في تركيبه ملح البارود المذكور والكبريت والفحم ، ومعلوم أن الفوسفور داخل في تركيب العظام ، حتى إن الأنوار التي تشاهد من وقت لآخر فوق المقابر إنما نشأت من ملامسة الفوسفور للهواء الجوى فتحصل إضاءة .

فهذه أربعة عناصر من عشرة كلها نارية وثلاثة منها لتركيب البارود ، ثم الحديد يظهر أثره في الكرات الدموية ، فلو لا الحديد لم يكن فيها لون الحرة .

انظر أيها الذكيّ إلى صنع الإنسان ، انظر إلى عناصر يدخلها هذه المواد الجهنمية المحرقة ، ألا ترى أن تفاعلها مع بقية العناصر لطيف حذتها ، ما هو السرّ الذي أوجب أن تكون هذه المتناقضات ذات حسن وحركة وعقل ، فوسفور وبارود مع مواد أخرى تصبح عاقلة مفكرة حكيمة .

جسم الإنسان ذومادة مشتعلة ، لذلك نراه يحبّ القتال ، نراه يستعمل بعض عناصر جسمه لاهلاك غيره ، يصنع البارود من الفحم وأخويه ويقذف به على أبناء جنسه ، خلق الإنسان من صلصال ، والصلصال هو الفخار ، والفخار طين أحيت عليه النار ، والإنسان دخان في تركيبه المواد النارية .

الإنسان ذو روح غير ساكنة كثيرة الحركة كثيرة الثوب لا تقفأ تنقب ، فبينما هي تفكر في الخير إذا

هي انتقلت إلى الشر ، وإذا فكرت في مكان شرقي انتقلت إلى نظيره في الغرب من غير زمان ، وإذا فكرت في الماء الشفاف الجليل تذكرت نجوم السماء بلا زمن ، ففوسنا لاسد لها تقطع الفيافي والأبعاد الطويلة بلا زمان .

هذه قدرة هائلة ، لذلك وضعت في قطعة من المادة محترقة ، وكيف تعيش لروح ذات الحركات البعيدة والتقلبات المدهشة إلا في مكان يتنا بها ، لا بد من المناسبة بين المكان والسكان ، فالكبريت والفوسفور والبولتاسيوم ، كل هذه أجسام وثابة طيارة فجعت فيها النفس الطيارة الوثابة « وربك يخفى ما يشاء ويختار » حكم نسجت بيد حكمت ثم انتسجت بالمتسج

لذلك نرى الأجسام الحيوانية والانسانية سريعة التحويل تموت بلا بقاء وتتحل سريعاً في أزمان مختلفة ، هذا هو السبب في قراءة الحكمة ونزول البيانات تنبيهاً للناس أن حياتهم لا تدوم ، وكيف تدوم والجسم مركب من عناصر سريعة الانفصال ، قليلة الثبات ، متقلبة ، فالجسم ذائب ، والروح بحركتها السريعة ترجع إلى عالمها اللطيف . انتهى الكلام على اللطيفة الأولى ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثانية في قوله تعالى : ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً

هذه الآية ترجع إلى الاحسان واذا به المهجة في خدمة النوع الانساني ، إن الآية مدح في السخاء بحيث يكون الانسان نعمة على الفقراء من أمته وانضمفاء ، وعلى من هو أجنبي عنه ، بل هو من أعدائه ، فالمسكين واليتيم قد يكونان من أمته ، فأما الأسير فانه من قوم أعداء حاربوهم فأُسروا فريقتهم ، فهو لاء الأسرى حمد الله الاحسان إليهم ، فلخص الآية أن الانسان يجب أن يكون نوراً وناقماً لبني وطنه وغيرهم ، فإن جميع الناس عباد الله وأقربهم إليه أطفاهم بعبادته ، وكلما زاد الانسان رافة بهم زاد من الله قرباً . هذا هو الصراط المستقيم ، فليكن الانسان على سنن الله وصراطه المستقيم ، ألا ترى أنه أرسل الشمس والقمر والنجوم ، فأضاءت على البر والفاجر ، والحيث والطيب ، والصحيح والمريض ، فكلما عم نفع الانسان كان إلى ربه أقرب ، ويشاهد ذلك في الالهامات التي تتوالى عليه ، وفي المساعدات الدائمة ، فلتسكن فيك خصلتان : حب العلم مع حب الله ، وحب الناس ، ففكر فيهما وتخلق بهما والله يكون معك ، فهذا هو المقصود من الآية .

أما ذكر السبب وتعيينه في نزول الآية كمن يروي أنها نزلت في رجل يسمى أبا الدحداح من الأنصار صام يوماً ، فلما كان وقت الافطار جاء مسكين ویتيم وأسیر ، فأطعمهم ثلاثة أرغفة ، وبقى له ولأهله رغيف واحد ، أو كأن يروي أنها نزلت في سيدنا علي رضي الله عنه ، إذ نذر هو وفاطمة رضي الله عنهما وقصة جاريتهما أن يصوموا ثلاثة أيام إن برئ الحسن والحسين ، فلما برنا واستقرض علي رضي الله عنه صاعاً وخبز خمسة أقراص ، فوضعوها بين يديهم ليفطروا ، فلما جاء مسكين أعطوه ولم يأكلوا ، وفي الليلة الثانية وقف يتيم فأعطوه ولم يأكلوا ، وفي الليلة الثالثة أسير .

فسواء كان السبب هذا أو ذاك أو غيرهما فلا تضيق زمانك في تحقيق الحوادث ، واشتغل بما هو أهم لك ، وهو مقصود الآية أن تكون عوناً لجميع الناس في وطنك وغير وطنك .

وان من شرائط العلوق العتف في البؤس على العدو

فأما الدائمة فانهم لاحظ لهم إلا أن ينسلوا بتلك الحكايات ويتفككوا بها ، ويرون أنهم لا قبل لهم بشيء من هذا ، فأما العالم فانه يعتبر بذلك ويفكر في إسعاد نفسه ورقية بأشرف الأخلاق وأجل الأعمال . انتهى الكلام على اللطيفة الثانية ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثالثة في قوله تعالى : ولقاهم نضرة وسرورا

إن تلك النضرة والسرور هما اللذان يؤخذان من قوله تعالى : « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » فهذه النضرة والجمال في الوجوه سيظهر لوجه الله ، والنظر لوجه الله يرجع إلى العلم والحكمة ، فعلى مقدار العلم بالصحة يكون اقرب من الصانع ، وهنا يمكن ايضاح هذا انعام في اللطيفة الآتية :

اللطيفة الرابعة في قوله تعالى : وسقاهم ربهم شرابا طهورا

هنا يقف القارئ رقيقة ليعرف أين محل الطهور من الشراب ؟ وأنى مناسبة للشراب حتى يوصف بالطهور ؟ إن الطهارة ليست من صفات الشراب التي تجعله لذيذا في الطعم ، بل يقال ماء فرات ، أو شراب لذيذ ، أو شراب مزوج بالزنجبيل ، وما أشبه ذلك مما تقدم في هذه السورة ونحوها ، فليس الطهور من الصفات التي بها تكون اللذة ، وإنما يحسن هذا الوصف للماء الذي تطهر به من الحدث والنجس فيقال طهور ، نعم إن الماء الطهور قد يكون صالحا للشرب ، لكن ليس وصف الطهارة هو الذي يجعله كذلك بل العذوبة وكونه باردا وما أشبه ذلك من كونه خاليا من المواد الضارة للإنسان ، وأن تكون جراثيمه قد ذهبت منه ، وأن يكون مرورا مصفى ، إذن فلنبحث عن السبب في ذكر الطهور والا كان هذا مما لا يناسب البلاغة والنصاحة ، وإذا كان القرآن أفصح كلام وأبلغه فلماذا يكون هذا التعبير ؟ فنجيب على ذلك بما يأتي :

اعلم أن الوصف بالطهارة إنما جاء هنا ليوجه القول إلى اقصود من الجنة ومن النعيم فيها ، وليدلنا على المقصد الذي ترمي إليه تربية الإنسان في هذه الدنيا .

إن أحوال الجنة التي ذكرت في هذه السورة وغيرها لاتعدو أمرين اثنين لاثالث لهما : لذة جسمية ، ولذة روحية ، فاللذة الجسمية واضحة في هذه السورة ، فترى البساتين والولدان والجر الممزوجة والأرائك والحق الممتد والحرارة والضوء الجليل البهيج بلاشمس ولاقمر والظلال والقنوط الدانية والنعيم والملك الكبير والثياب من سندس أخضر وحرير غايط ، والتحلي بالأساور الفضية والذهبية والمؤنسية ، والنساء الجيلات ، والحوار البديعات المقصورات في الخيام التي لم يطعمهن أنس قبلهم ولاجان .

هذه مجامع النعم الجسمية ، أما النعم الروحية فهي طهارة نفوسهم من عالم المدة وخلوصها من الطبيعة ، وارتقاؤها إلى عالم القدس والأرواح وقرىها من العالم الإلهي البديع ، وكلما كانت أبعد عن المادة كانت أقرب إلى الله وأكثر اطلاعا على بهجة العوالم ونظام الخليقة العام ، فإذا كانت اللذات الجسمية تعجز بأبدى الخدم ويطوف بها عليهم ولدان ويحظون بالحوار ، فاللذات العقلية ينالونها من ربهم مباشرة ، فلذلك قيل : « وسقاهم ربهم » وهل يسقى الله إلا ما كان أقرب إلى الكرامة والعالم الروحي العالی ، فاسناد السقي إلى الله راجع إلى أن الشراب ليس جسميا ، فالولدان يطوفون بالأكواب والأباريق ويسقون الجر ، والله لا يسقي الجر ولا يطهى شرابه في أكواب وأباريق ، ونسكن شراب الله العلوم والحكمة ، وههنا يفهم ذكر الطهور ، فالطهارة هنا الخلو من المادة بجميع أنواعها ، وهذه أعلى اللذات في الجنة ، وإياك أن يهيجس في قلبك أن المفسرين الذين أشاروا إلى هذا كانوا مخدوعين ، أو أنهم قالوه لمجرد التقليد ، إياك أن يهيجس في نفسك هذا وأمثاله ، وإنما يحظر هذا في بال الذين هم محجوبون لم يتعلموا تعليما كاملا .

اللذات الحسية واللذات العقلية في الحياة الدنيا

اعلم أن الناس في هذه الدنيا يتمتعون باللذتين : الحسية والعقلية وهم لا يشعرون ، وأن رضى اللذات

المذكورين في هذه السورة قد وجدت مقديتهما في الدنيا ، ولأضرب لك مثلين :

[المثل الأول] : انظر إلى الرجال والنساء في السكره الأرضية ، انهم في أول حياتهم لا ينظرون من الحياة إلا إلى شهواتهم الجسمية ، فالرجل يريد المرأة والمرأة تريد الرجل للشهوة البدنية ، ويأكلون ويشربون ويستلذون لقضاء ما ترب الأنس وحدها ، فإذا انقضى الدور لأول من الحياة جاء دور آخر فرأينا الرجل والمرأة أخذاً يتركان تلك اللذات ووجدناهما مكبيين على طفل أوطنة ، فأخذوا يقبلانه معا ، فبعد أن كانت القبال محصورة بينهما أصبحت منصبة على الطفل وعلى الطفلة ، وكلما ازدادا كبرا ازدادا زهدا في أنفسهما وحرضا على أبنائهما ، فلا يزالان يتعدان عن المذات لأنفسهما ويقتربان من التخلي عنها لأبنائهما ، حتى إذا قرب الرحيل ودعا العالم وفرحا بأن لهما خلفا يقوم مقامهما .

الرجل والمرأة عاشا في أول الحياة باللذة الجسمية ، وفي آخرها باللذة العقلية ، فهذا انتقال طبيعي من حال جسمية إلى حال عقلية ، ألا ترى أن الرجل يفدى ولده بماله إذا وقع في خطر ، مع أن كثيرا من الأبناء لا يرجي منهم نفع لأبائهم ، وأن طبيعة الحياة الحيوانية المحافظة على النسل بدون مقابل ، فأما المنافع المادية التي قد تكون من الأبناء فهي أشبه بالظل للشجر يأتي غير مقصود لذاته . انتهى المثل الأول .

[المثل الثاني] : من المعلوم أن ما يفعل بالطبيعة علما للناس يجوز فعل مثله بالارادة ، وما كان بالارادة أرقى مما كان بالطبيعة ، نرى الناس جميعا يحرسون على أولادهم ويندبونهم بمالهم ، ويقدمون لهم كل ما يمكن أن يكون لتعليمهم ، بل أننا نرى فوق ذلك أن الأبناء في الأم التي ارتقت يبذل آباءهم عليهم كثيرا من أموالهم ليكونوا قادة الشعوب ورؤساء في الحكومات ، وقليل من هؤلاء المتعلمين الذين لهم رواتب باهظة في الحكومات من يفضل عن مصرفهم شيء لأبائهم ، فإن مناصبهم ومظاهرهم تحتم عليهم أن يصرفوا كل ما يأتينهم ولا يبق شيء إلا لمن كان مقرا أركان مرتشيا ، ولا يبق غالبا للأمهات وللآباء شيء ، ومن غير الغالب نجد منهم المواسين المسكرمين للأبوين ، فهذا كله جاء من قبيل الفطرة لعمومه سائر الناس . فأما ما يأتي بالارادة فهو الحكمة والعلم وخلص القلب لهما ، وهما إذا أئبته لك فأقول :

اعلم أننا نرى الناس في الشرق والغرب ينقادون للممتازين بالحكمة والعلم ، أولئك في الدنيا والصالح ، وهذه غريزة في النوع الانساني وفطرة فيه شائعة بحيث تجدها في كل أمة ، فالعامة من كل أمة والخاصة يحترمونها الأنبياء ، والعامة وحدهم يخضعون للوعاظ ، والخاصة يحبون الحكماء ، نرى النسيس عند النصارى والخاصة عند اليهود ، والشيخ عند المسلمين ، كل هؤلاء معظون عند العامة الذين حولهم ، لأنهم في نظرهم قد حلوا شريعة نبيهم ، وقد يكون في هؤلاء من لم يحمل تلك الشريعة حقا ، ولكن الغريزة قد تخطى في الأشخاص ولكنها لا تخطى من حيث العموم كما أن غريزة الطعام في الانسان صادقة لحفظ الحياة ولكنها قد تقع في أكل ما يضر بصحتها فذلك لا يمنع كونها صادقة ، هي صادقة من حيث نظامها ، والخطأ في الجزئيات لا ينافي الصدق في الكلليات .

ونرى الناس يعظمون الذي يعتقدون أنه حائز صفة العلم ويقدمونه ، وكلما ازداد علما ازداد في نظرهم محبة ورغبة ، وهكذا يحبون الشجعان الذين ذكرت لهم تواريخهم والمحسنين ، أتدري لماذا هذا كله ؟ لأن العلم شيء خارج عن المذات ، والشجاع أقدم على هلاك نفسه لمنفعة غيره ، والمحسن حرم نفسه وأعطى غيره (وبعبارة أخرى) ان الناس يعظمون من تخلص من المذات وسلطانها بالزهد أو ببذل المال واشتهر بذلك ، أو ببذل النفس ، وهذا أقل الكمال ، ويعظمون من تحلى بالعالم ، لأن العلم كمال للروح ، والناس مبالون بفطرتهم لكل ما هو من عالم الأرواح ، الناس ينقادون للأنبياء ويحبونهم لأنهم اتصفوا بالأمرين :

الزهد في المال ، والتحلية بالعلم ، وبعض الحكماء يقلدهم في ذلك ، وليس يعقل أن يبرع الانسان في علم مالم يحبه ، فالحبة أساس النجاح في العلم .

كثير من الناس من نبذوا المال والأهل وعكفوا على العلم غراما ، وهم يبالغون لذة لا يعرفها الناس والا لم يتمكنوا من التبريز فيه ، اذا رأينا في الناس من أضاع ثروته لأجل امرأة غير حسنة السمعة ورفقت من وظيفته ، وخرج من كل ما يملك ، فيقال له : أنت عاقل فلماذا رضيت بضائع شرفك ودبتك وعظمة آباءك وثقة الناس بك ؟ أكل هذا لأجل امرأة ، فيجيب : هاتوا لي قابلا غير هذا القلب ، أما أعلم هذا كله ولكن لا أملك نفسي .

هذا النوع من الناس موجود في كل أمة ، ووجد في بلادنا المصرية ، كل ذلك للذة وليس بعرفها إلا الذي هو متلبس بها .

اذا كان هذا في باب اللذات الحسية فهكذا وجد في النوع الانساني في كل أمة من حصلت لهم هذه اللذة في باب العلم والحكمة فكفوا عليها ولم يبالغوا بضائع المال والغربة ولا يريدون إلا الحكمة ، وكما أن الذي عكف على المرأة ينال من الدم والاحتقار مالا يحصر له يكون الذي عكف على لذة العلم قد نال مالا يحصر له من المدح والثناء والاعظام ، فهو في نفسه في لذة والناس حوله يمدحونه ويثنون عليه .

عجب ! لماذا كلاهما في لذته ! فكيف كره الناس الأول وذمموه ، وأحبوا الثاني وعظموه ومدحوه ؟ الجواب على ذلك : أن الأول شرب شراب الفذب من الخلق ، والثاني شربها من الخالق ، والشراب الأول ليس طهورا ، والشراب الثاني طهور طهر النفس من رجس المادة ، ورجع الروح إلى عالمها المحبوب ، فشراب الأولين غير طهور ، وشراب الآخرين طهور .

فياليت شعري أيرضى ذلك الذي أحب العلم في هذه الحياة الدنيا أن يعكف بعد الحياة الدنيا على غير العلم ، كلا والله ، فاذا كان الله سقاء شراب العلم الذي طهره من المادة وأدراها فانه بعد الموت لا يشرب إلا من شراب ربه ويزيد فيه ما يشاء ، وهذا قوله : « نورهم يسمى بين أيديهم وبأيمنهم » فالنور الذي رآه في الدنيا يراه يوم القيامة ، وهل نور أجل من العلم ! ان الشراب الطهور هو العلم ، وأما بقية أوصاف الجنة وأحوالها فانها تكون لمن لم يعشقوا العلم في الحياة الدنيا ، « ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا » .

إن في الجنة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، إن من لم يفهم أحوال هذه الدنيا وهو فيها يموت أعمى ، ولا يمكن لأمرئ أن يعقل مافي هذه السورة إلا اذا فكر في أحوال أهل الأرض ، وبغير العلم والفكر لا يصل الانسان لسعادة في الدنيا ولا في الآخرة اهـ

هذا هو نهاية الكلام على [سورة الدهر] وقد كتب ذلك يوم الجمعة الثالث من شهر المحرم الحرام سنة ١٣٤٤ هجرية الموافق ٢٤ من شهر يوليو سنة ١٩٢٥ م والحمد لله رب العالمين .



تفسير سورة المرسلات

هي مكية

إلا آية: وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون . فمدنية

آياتها ٥٠ - نزلت بعد سورة الهمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا * فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا * وَالنَّائِثِرَاتِ نَشْرًا * فَالْفَارِقَاتِ فَرَقًا *
فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا * عُذْرًا أَوْ نُذْرًا * إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ * فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ *
وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ * وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِيتْ * لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ *
لِيَوْمِ الْفَصْلِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ * وَيْلٌ لِّیَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * أَلَمْ يَنْهَكَ
الْأَوَّلِينَ * ثُمَّ نُنَبِّئُهُمُ الْآخِرِينَ * كَذَلِكَ أَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ * وَيْلٌ لِّیَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ *
أَلَمْ تَخْلُقْهُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ * فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ * فَقَدَرْنَا
فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ * وَيْلٌ لِّیَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءَ
وَأَمْوَاتًا * وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا * وَيْلٌ لِّیَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ * انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ * انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ
شُعَبٍ * لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْهَبِ * إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ * كَأَنَّهُ جِبَالٌ
صُفْرٌ * وَيْلٌ لِّیَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَدِرُونَ *
وَيْلٌ لِّیَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ * فإِنْ كَانَ لَكُمْ
كِتَابٌ فَكِيدُون * وَيْلٌ لِّیَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ * وَفَوْاكِه
مَّاءٍ يَشْتَهِونَ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ *
وَيْلٌ لِّیَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ * وَيْلٌ لِّیَوْمَئِذٍ

لِلْمُكَذِّبِينَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ * وَيَلُومُنَّ يَوْمَئِذٍ الْمُسْكَذِبِينَ * قَبَائِلُ
حَدِيثَ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ *

هذه السور المتلاحقة متشابهة المقاصد ، ففي هذه السورة وصف المكذبين وعذابهم ، والمتقين ونعيمهم ،
ويتخلل ذلك وصف خالق الانسان ، والأرض والجبال ، وعموم القدرة ، وعظمة الخالق جلّ وعلا .

التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

(والمرسلات عرفا . فالعاصفات عصفاء . والناشرات نشراء . فالفارقات فرقا . فالملقيات ذكرا) قد علمت
ما جاء في [سورة الدهر] وكيف جاء في أواخرها « وسقاهم ربهم شرابا طهورا » وعرفت هناك أن هذا
الشراب يطهر شرابه عن الميل إلى اللذات الحسية والركون إلى ماسوى الحق ، فيجرد لطاعة جلاله ، ملتذا
ببقائه ، باقيا ببقائه ، وعلمت أن هذا منتهى درجات الصديقين ، فهنا ابتدأ الله السورة بقوله « والمرسلات
عرفا » الخ ، أقسم الله بدوائف من الملائكة ومن الأرواح التي نزلت إلى عالم الأجسام في أرضنا ، ومنهم
الأنبياء والحكماء وأكابر العلماء .

أقسم الله بهذه الأرواح المرسلات عرفا : أى لأجل الاحسان والمعروف ، فأما الملائكة فانها تاتى الوحي
إلى الأنبياء ، والإلهام إلى العلماء والصالحين ، وأما النفوس الانسانية المكاملة فانها تعلم غيرها ، فكل هؤلاء
أرسلوا لأجل الاحسان والمعروف للناس بالأمر والنهي ، وهم يعصفون ماسوى الحق فيبعدونه كما تبعد
العواصف التراب والطين والهباء ، وينشرون آثارهم في الأمم وفي النفوس الحية ، ويفرقون بين الحق والباطل
فيلقون ذكرا ، أما الملائكة فلهداية الناس ، وأما الأنبياء فالتبليغ وتكميل النفوس ، وأما الأرواح المكاملة
فانها تنهذب ولا تذكر إلا الله في القلب واللسان ، فالملائكة والأرواح المرسلات إلى أجسامها في الأرض هي
المقسم بها لأنها إما سقاها ربها شرابا طهورا ، وإما لا تزال في طريق الوصول لذلك السقي ، وليس يكمل في
نفسه أو يكمل غيره إلا أمثال هذه النفوس من الملائكة والأنبياء والأرواح المستعدة للكمال ، وإنما جللنا
المرسلات على هؤلاء لأن إلقاء الذكر لا يكون إلا من عاقل ، أما الرياح فليست تاتى الذكر إلا على حسب
التأويل فاخترنا الأول ، وقوله (عذرا أونذرا) أى للاعذار والانذار من الله ، وجواب القسم قوله (إن
ماتوعدون) من أمر الساعة ومجيئها (لواقع) أى نكائن نازل لا محالة ، فان قيل متى يكون ؟ يجاب بقوله
تعالى (فاذا النجوم طمست) محقت وذهب نورها (واذا السماء فرجت) فتحت فكانت أبوابا (واذا
الجبال نسفت) كالحب ينسف بالنسف (واذا الرسل أقتت) عين لها وقتها الذي يحضرون فيه للشهادة
على الأمم بحصوله ، فانهم لا يتعين لهم قبله ، وجواب الشرط معلوم مما قبله : أى وقع الفصل ، ويقال (لأى
يوم أجلت) أى آخرت وأمهل ، فهذا استفهام بمعنى التهويل والتعجيب ، كأنه قيل : أى يوم هذا الذي
أجل اجتماع الرسل إليه ؟ إنه ليوم عظيم ، ثم بين ذلك اليوم فقال (ليوم الفصل) وهو الذي يفصل فيه بين
الخالقين ، فهذا هو اليوم الذي أجل اجتماع الرسل له (وما أدراك ما يوم الفصل) تعجيب ثالث وتعظيم لأمره ،
ثم أبان المقصود من هذا التهويل وصرح بالمراد فقال (ويل) أى ثبات الهلاك ودوامه (يومئذ) ظرف
أوصفة (للمكذبين) بذلك اليوم ، وهذا خبر (ألم نهلك الأولين) الأمم الخالية المكذبة (ثم ننبههم الآخرين)
جلة مستأنفة : أى ثم نفعل بأمثالهم من الآخرين ما فعلنا بالأولين لأنهم كذبوا مثل تكذيبهم ، وهذا وعيد

لأهل مكة (كذلك) أى مثل ذلك الفعل الشنيع (نفعل بالجرمين) بكل من أجرم (ويل يومئذ للكذابين) بما أوعدنا (ألم نخلقكم من ماء مهين) حقير ، وهو النطفة المشروح الكلام عليها فى [سورة الانسان] وفى [سورة القيامة] (نجعلناه فى قرار مكين) مقرّ يتمكن فيه ، وهو الرحم حال كونه مؤخرًا (إلى قدر معلوم) أى إلى مقدار من الوقت معلوم قد علمه الله ، وهو تسعة أشهر فأكثر أو أقل (فقدرنا) أى فقدرنا ذلك تقديرًا ، وفى قراءة بالتشديد (فنعلم القادرون) أى فنعلم المقدرين له نحن ، ويجوز أن يكون الفعل واسم الفاعل معا من القدرة (ويل يومئذ للكذابين) بنعمة الفطرة وحكمة الخلق وحسن التقدير (ألم نجعل الأرض كفافًا) أى كافتة : أى جامعة ضامة ، يقال كفت الشيء إذا ضمه وجمعه فهو مصدر وصف به ، وقوله (أحياء وأمواتا) مفعولان لكفانا : أى جامعة أمواتا فى بطنها وأحياء على ظهرها ولذلك تسمى الأرض أما لأنها تضمّ الناس كأنها أمّ تضمّ أولادها (وجعلنا فيها رواسى شامخات) جبالا ثوابت متصلة بالطبقة الصوانية التى هى أبعد طبقات الأرض عن سطحها ، وتلك الطبقة تضمّ فى جوفها كرة النار المشتعلة العظيمة التى هى باطن الأرض ، وظاهرها هذه القشرة التى نحن عليها ، وهى طبقات أعلاها هى التى نحن عليها ، وأدناها الصوانية ، والجبال ممتدة إلى هذه الصوانية ثابتة عليها ، ولولا الطبقة الصوانية التى امتدت منها الجبال لطوت القشرة ومن عليها النار التى فى بطنها التى هى البحر المسجور المذكور فى [سورة الطور] كما تقدّم ، فهذه الجبال رست فى أبعد الأعماق ، وشمخت إلى أعلى الجوّ ، فهى طوال ذاهبة علوًا كما ذهبت سفلا ، وهذه الجبال مخازن للياه التى تنزل من السحب فتشرىها فى بطنها وتحفظ فى طبقاتها ثم تخرج للأشجار الجارية تستمدّ بمائها ، والتلج بدوم فوقها أمدًا طويلًا ، ويتنزّل فى بطن الجبل شيئًا فشيئًا ليجرى من العيون الجارية تسقى الناس والأنعام والزرع تدريجًا على طول السنة ، وهكذا تكون تلك الجبال كأنها مسنّيات تحفظ الرياح والسحاب الجارية بين تلك الجبال الممتدات إلى بعد عظيم فى اليابسة فتخرج السحاب من فوق البحار وتمتدّ إلى مسافات طويلة لأن الجبال تحفظ الرياح والسحاب من الذهاب يمينا أو يسارا ، بل تبقى إلى أن تصل إلى ما بعد من اليابسة ، فتسقى الزرع ، وتدرّ الضرع ، وهذا هو قوله تعالى (وأسقينكم ماء فراتا) إما بالسحاب الذى حفظته الجبال بارتفاعها ، وأما بالعيون النابتة منها التى يمدّها الثلج الذى يذوب شيئًا فشيئًا فوق ظهرها منزلا إلى بطنها ، ساعيا إلى عيونها الجارية (ويل يومئذ للكذابين) بأمثال هذه النعم ، فهوّاء المكذبون يقال لهم (انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون) من العذاب (انطلقوا) كرّر للتوكيد (إلى ظلّ) أى إلى ظلّ دخان جهنم (ذى ثلاث شعب) يتشعب لشدة عظمتها ، لأننا نرى الدخان العظيم يتشعب ويتفرّق كما تتفرّق الذوائب ، وفى التعبير بالثلاث إما للإشارة إلى أن عالم المادّة فيه الطول والعرض والعمق ، والمادّة محلّ حبس الأنفس ، أو إلى الحسن والخيال والوهم ، فهذه الثلاثة هى التى تسبب العذاب للإنسان ، ثم وصف الظلّ بقوله (لا ظليل) وهذا تهكمّ بهم : أى لا مظلّ (ولا ينفى) أى وغيره من لهم (من الألب) أى من حرّ الألب : أى غير دافع شيئا منه (إنها) أى النار (ترمى بشرر) وهو ما يتطاير من النار (كالقصر) أى أى كل شرارة كالقصر فى عظمتها ، ويقال هو الخليط من الشجر ، الواحدة قصر (كأنه) يعنى الشرر (جالات) جمع الجال (صفر) جمع أصفر : أى لون ذلك الشرر أصفر .

[فائدة] سئل ابن عباس عن قوله تعالى : « ترمى بشرر كالقصر » ؟ فقال : هى الخشب العظيم المقطعة ، وكنا نعد إلى الخشب فتقطعها ثلاثة أذرع وفوق ذلك ودونه ونُدخرها للشتاء ، وكنا نسميها : القصر (ويل يومئذ للكذابين . هذا يوم لا ينطقون . ولا يؤذن لهم فيعتذرون . ويل يومئذ للكذابين) بهذا اليوم (هذا يوم الفصل) بين الحق والمبطل والحسن والسيئ (جعناكم) يا مكذبى محمد (و) المكذبين (الأولين)

هذا بيان وتقرير للفصل (فان كان لكم كيد فكيدون) أى فان كان لكم حيلة في دفع العذاب فاحتالوا على بتخليص أنفسكم من العذاب ، يقال كدث فلانا اذا احتلت عليه (ويل يومئذ للكافرين) بالبعث (إن المتقين في ظلال) جمع ظل (وعيون) جارية في الجنة (وفواكه مما يشتهون) لذينة مشتهة ، فهم مستقرون في ظلال حال كونهم مقولا لهم (كلوا واشربوا هنيئا) خالص اللذة لا يشوبه تنغيص (بما كنتم تعملون) في الدنيا (إنا كذلك نجزي المحسنين) فأحسنوا تجزوا بهذا (ويل يومئذ للكافرين) بالجنة فان لهم العذاب المخلد ، ثم خاطب المكذبين مهتدا لهم في الدنيا فقال (كلوا وتمتعوا قليلا) لأن متاع الدنيا قليل (إنكم مجرمون) كافرون ، فكل مجرم يأكل ويتمتع أيما قلائل ثم يبقى في الهلاك الدائم (ويل يومئذ للكافرين) بالنعم (واذا قيل لهم اركعوا) أطيعوا واخضعوا ، أوصلوا ، أو اركعوا في الصلاة (لا يركعون) لا يمتثلون ، ولقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم تقيفا بالصلاة فقالوا لا نحى : أى لا نركع فانها مسبة (ويل يومئذ للكافرين) بالأمر والنهي (فبأى حديث هذه) بعد القرآن (يؤمنون) اذا لم يؤمنوا به ، وهو مجز بذاته مشتمل على الحجج الصحيحة . انتهى التفسير اللفظي للسورة كلها ، والحمد لله رب العالمين .

لطائف هذه السورة

- (١) في قوله تعالى : « ألم نهلك الأولين » الخ .
- (٢) في قوله تعالى : « ألم نخلقكم من ماء مهين » .
- (٣) في قوله تعالى : « ألم نجعل الأرض كفافا أحياء وأمواتا » الخ .

اللطيفة الأولى في قوله تعالى : ألم نهلك الأولين . ثم ننبئهم الآخرين

ذكر الله إهلاك الأمم السابقة بتقصيرهم في الإيمان ، وذكر أنه يفعل مع الآخرين ما فعله بالأولين ، فاذا قصرت أمة في الإيمان بالله وأهلكها فيما مضى فهو هكذا يفعل بالتي تكذب فيما بعد فيهلكها ، والعبرة في هذا أنه يجب على المسلمين أن يتنبصروا ويتذكروا ويقيسوا الأشياء بأشبابها ، فما فعل بالأولين يفعل بالآخرين ، فلتنظر أمة الاسلام ما حلّ ببلاد الأندلس ، فان اكبابهم على الملاهي والتنعيم والكسل والتقليد الأعشى أضاع بلادهم وأخذتها الفرنجة ، كذلك يفعل الله بالمقصرين من أمة الاسلام ، لأن الله جعل الأولين عبرة للآخرين ، دخل الفرنجة بلاد الجزائر وبلاد تونس ، وعرجوا على مصر وأخذوها ، كل هذا لأنه فعل بالآخرين كما فعل بالأولين ، فقد قصر أهل الأندلس فأزالهم الله ، فلما قصرت قية المسلمين ولم يعملوا بالتعاليم ولم يفكروا فيه ولم يهتجوا نهج الأمم المفكرة أذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا ، وسيزول هذا الخزي قريبا ، كل هذا يؤخذ من قوله تعالى : « كذلك نفعل بالمجرمين » ولكن على طريق الاعتبار والقياس ، لا على طريق النص كما قال تعالى : « فاعتبروا يا أولى الأبصار » واذا قال الله : « ويل يومئذ للكافرين » بآيات الله وأنبياؤه فويل كذلك لمن لم يفهم ما هو حاصل بالأمر الاسلامية من الدلّ والتفهيم بسبب جهلها ، فالويل للمسلمين من حيث مجموعهم اذا داموا على ما هم عليه من حيث التقصير في العلوم والصناعات التي هي واجبة على مجموع الأمة وجوبا كفافيا ، فاذا المسلمون اذا لم يفكروا في ذلك يزيد عذاب الفرنجة عليهم ، فهم وان لم يكونوا مكذبين فهم عاصون والعذاب يقع عليهم في الدنيا بذهاب درهم ، وفي الآخرة بعذاب جهنم ، وهذا اجماع من علماء الاسلام ، لأنهم يعتقدون أن العذاب يقع على الأمة كلها في الدنيا والآخرة بترك فروض

الكفايات ، وفروض الكفايات هي التي بها نظام الدول انعام بحيث يشترك فيه الشعب كله باخلاص . انتهى الكلام على اللطيفة الأولى ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثانية في قوله تعالى : ألم نخلقكم من ماء مهين

الكلام في النطفة : والجنين في الرحم ، ومدة الحمل ، وتقدير الله لذلك ، والنظام المتبع فيه ، كل ذلك يراد به معرفة الأجنة ، وعجائب الخلق ، والتفكير في ذلك ، وهذا يرجع لعلوم كثيرة قد شرحناها في [سورة القيامة] قريبا ، وتقدم في سور أخرى منها سورة [آل عمران] بطريق أوسع ، فراجعها هناك إن شئت .

اللطيفة الثالثة في قوله تعالى : ألم نجعل الأرض كفافا أحياء وأمواتا

الأرض تسع الحي والميت ، وفيها الجبال الشاخات ، والماء الذي يسقي الزرع ويدبر الضرع ، ذكر الأرض التي تقلنا وتحملنا ، وتضمنا في بطنها إذا متنا ، وفيها مخازن الماء ومسكناتها وما يسكنها لئلا تنتشت وتزول ، وذلك يوجب تيقظ الانسان للأمر العامة ، فيدرس الأرض وطبقاتها ، ومن على ظهرها وجبالها وهوائها وسحابها ومطرها وعيونها وأنهارها ، والتفرج على عجائبها ، ثم أوعد المعرضين بالعذاب في جهنم ، وكما أن الناس إذا حلت الجيوش في بلادهم على جهلهم وظلمهم ونومهم وخرافاتهم لا ينطقون لانقطاع حججهم فيقول المستعمر لبلادهم افعلوا كذا فينعلون ، ولا تفرعوا من العلم إلا ما به تؤمرون ، ولا تفكروا إلا على قدر ما نحن مریدون ، وإياكم أن تناطقوا بالشكوى فانكم تمزقون ، وبالمدافع تضربون ، وبالنار تحرقون ، وبالصواعق من الطيارات تهلكون ، أنتم مأمورون لا أمرون ، وسامعون لا متكلمون ، وعبيد لنا مسخرون ، لتخرقن ألسنة الأمم المغلوبة ، ولتكن أخرية مسلوبة ، والجاهل في أيدينا ألوبة ، ونحن القاهرون . وهم المقهورون ، فلارقيب منه نخاف ، ولا من محنة الأيام وغوائلها اضطرب .

أقول : إذا كان هذا هو الحاصل الآن في بلاد الشرق حيث يفعل الأوروبيون معهم ذلك فبالك يوم القيامة ، إذ تقطع الحجة ويصبح المرء مقطوع الأمل من كل عمل ، مسلوب اللب والمال والولد ، مفقود الأصحاب والأهل ، محروما من كل سند وخلّ وولد ، هنالك لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعندرون .

[حكاية] دخل [هولاءكو] التتارى مدينة بغداد وأحضر الخليفة العباسى وهو غافل لا يدري ، فلما أحضر بين يديه المائدة نظر فوجد فوقها أواني مملوءة جواهر في كل طبق نوع كلزرد والياقوت والمرجان والذهب والزبرجد والماس ، فقال له [هولاءكو] كل ، فقال : هذا لا يؤكل ، فقال [هولاءكو] : أنتدري من أين هذا ؟ انه من خزانك أحضرته جنودى الآن ، إنك قد أهملت الملك فليست تصالح له ، والله سلبه منك ، ثم قتله هو وابنه وذهبت الدولة اهـ

انظر كيف فعل الله بالأولين منا ، فلما لم يعتبر المتأخرون فعل بهم ما فعل بالأولين ، وتقصير المسلمين أنهم كانوا عن التفكير معرضين ، وفي النزاع مجتدين ، وعن الاتحاد نائمين . ذكر الله نعمه على الأولين والآخرين ، وذكر نعمه بالخلق على الناس ، ونعمه بالأرض وجبالها ومائها ، وذكر بعد ذلك الويل للكذابين بذلك . والى هنا تم الكلام على سورة المرسلات ، والحمد لله رب العالمين كتب ليلة السبت ٤ من شهر المحرم الحرام سنة ١٣٣٤ هجرية .

(تم بحمد الله وحسن توفيقه الجزء الرابع والعشرون من كتاب الجواهر في تفسير القرآن الكريم ، ويليه الجزء الخامس والعشرون ، وأوله تفسير سورة التبا)

الخطأ والصواب

غلبنا التصحيح ففاننا سقط وأشياء أخرى يدركها القارئ بلا تنبيه . وهذا جدول مما عثرنا عليه من ذلك ، وهاموذا :

صفحة	سطر	خطأ	صواب	صفحة	سطر	خطأ	صواب
٩	١٠	بسيلا	فتيلا	١٣٥	١١	بعد	بغير
٩	١٩	نفسه	نفسه	١٤٦	٢٣	لما	ما
١١	١٦	من اسم	• • •	١٥٣	٣	التكبر	التكبر
١٣	٣	أو يوم القيامة أو	• • • •	١٥٣	٣	بالنسبة	بالنسبة له
		جميع ذلك		١٧١	٦	لكالطول	لكالطول
١٣	١٠	بحيث يكون مافي	مصوغة	١٩٧	١٦	عليها	عليهما
		القصاص كله		١٩٨	٣٥	القرية	الجنة
١٥	٢٢	لغة	لغة	٢٠١	٣٥	تنزيه	ترقى
١٦	٢٣	أبالشجر أم القمر	• • • • •	٢٠٣	٨	عنه	عنهم
		الى آخره		٢٠٩	٢١	المحدوده	المحد
٢٤	٣٥	لان	ان	٢٠٩	٣١	ويقطع	وتقطع
٦٨	١٢	بالجزء	بالجزية	٢٢٣	٣	الناحيتين الزرقه	الناحيتين الحرة
٧٢	٢١	ذكر	ذكر الله	٢٢٤	٣١	محدبة	مقعره
٨٠	٢٢	نفوق	نفوق	٢٢٧	٢٢	اقسم	سمى
٨٩	٣٢	أشبه عدم	مشبه عدم	٢٧٣	٣٥	ماذ كرته	مماذ كرته
٩٧	٣٥	الاولى	• • •	٢٧٨	١١	المتقل	المتزل
٩٩	٣	مرتبطان	مرتبطات	٢٩٣	٥	فعرقت	عرفت
١٠٩	١٨	فلنحدر	فلنحجز	٣٠٧	٢٥	العشرة	١٠٠
١١٤	٢٣	قدر	قدرها	٣٠٨	٦	مما	وهذا
١١٤	٢٣	(٢٠٠) مليون	(٢) مليون	٣١١	١٣	من تقبعا	منها
١١٧	١٩	آجامها	في آجامها	٣١٢	٣١	مشورا	مشورا
١١٧	٣٤	تنظر	تنظر	٣١٥	٥	ينابها	يناسبها
١٢٨	١٨	جلها	جلتها				

(تمت)



فهرس

الجزء الرابع والعشرين

من كتاب

الجواهر في تفسير القرآن الكريم

صفحة

- ٢ تفسير [سورة الرحمن] مكتوبة مشككة .
- ٤ تقسيم السورة إلى ثلاثة أقسام ، تفسير البسملة وتبيان أن مافي السورة كلها كأنه تفسير للرجة ، ومجمل ذلك كله ثمانية مباحث ، انزال الديانات ومنها القرآن ، وخلق الأجسام والعقول الخ وإلهامها العلم ودراسة هذا الذي قرأ الدين نظام الشمس والقمر الخ ، ودراسة نتائج هذه العوالم ، ودراسة الحساب المثقن الخ ، ودراسة العوالم الأرضية الخ ، ودراسة المشرق والمغرب الخ ، وتأنج ذلك من النعيم والجحيم الخ ، إن مافي هذه السورة أبان الله لنا فيه ألا نكتفي بالمعرفة الاجالية ، بل علينا أن نفصل المجمل ، وهذه طريقة ابن خلدون ، إن المعرفة الاجالية هي علم الأشياء ، والمعرفة التفصيلية هي التي تدرس في المدارس الثانوية .
- ٦ كيف نهج المسلمون في العصور الأولى نهجا صادقا في التعليم ، ثم تدهور التعليم في جميع بلاد الاسلام ، وانتقل العلم إلى أوروبا ، حرمت الفلسفة على المسلمين ، جعلها عقلاؤهم باسم التصوف كالأستاذ عبد الكريم الجيلي ، بيان رسالته [الكهف الرقيم . في شرح فوائد بسم الله الرحمن الرحيم] وأخذ يذكر أن هناك عبارات وإشارات ، وهنا أخذ يقول : إن سرّ البسملة في الباء ، وصرت الباء في النقطة ، وقال : إن سرّ كل شيء راجع للحروف وصورها وأشكالها ، وجعل العلوم كلها ٤٠ علما ، مثل الذات الساذج والعماء والأحذية ، وهكذا إلى القيامة والجنة والنار ، ثم بحث علم في هذه ، وتبيان أن ذلك كله إنما وضع للمسلمين في زمن انحطاطهم وذهاب العلوم ليكبوا على العبادة ، والا فهذه ليست أسراراً ، بل هي أشبه بحالات العلوم ، وما هي بعلوم ، ولكن للقوم إذ ذاك مقصد حسن ، ومن اجتهد وأخطأ فله أجر ، فعلى المسلمين بعدنا أن يذروا ذلك ويقرءوا عجائب هذه الدنيا كما هو شأن القرآن وأوامر الله .
- ٩ تبيان أن هذه الامور كانت شائعة في ذلك العهد ، ومنها ما كان يفعله من التعمية على المسلمين محمد بن تومرت ، فهذا أيضا من هذا القبيل ، فالجيلي في العلم ومحمد بن تومرت في السياسة كلاهما اتخذ هذه ذريعة لانتظام شمل المسلمين ، وهما مجتهدان قد أخطأ وللخطي ثواب واحد .
- ١٢ مقدمة في مناسبة السورة لما قبلها ، وفي هذا المقام ذكر ملخص أكثر السورة وهو ١٥ مبحثا من أولها إلى آية : « يسأله من في السموات والأرض كل يوم هو في شأن » ويتبع ذلك احوال الناس في الآخرة من النعيم والعذاب .
- ١٥ القسم الثاني في عجائب الدنيا التي في هذه السورة .
- التفسير اللفظي لأولها من قوله : « الرحمن علم القرآن » إلى قوله تعالى : « يرسل عليكم شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران » .

٢٢ لطيفتان : الأولى في قوله تعالى : « ووضع الميزان » ، الثانية في قوله تعالى : « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » وفي اللطيفة الأولى بيان كيف كانت مساحة الفدان من الأرض ، وكيف كان كل مكمل وموزون وغيرهما في البلاد المصرية راجعا لنظام بناء الهرم الذي يرجع في نظامه إلى نسبة عجيبة بين أوضاعه وبين أوضاع مدار الأرض حول الشمس ، وكيف كان ضلع الهرم مساويا لجزء من ربع مليار من محيط الدائرة الشمسية ، والضلع المذكور يساوي ٤٠٠ ذراع بلدى أو ٣٦٠ هنداسة الخ .

٢٥ اللطيفة الثانية في قوله تعالى : « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » .

٢٦ فصل في اللؤلؤ ، تكوين اللؤلؤ .

٢٧ جوهرة في قوله تعالى : « يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تقتصران » .

٢٨ القسم الثالث في عجائب عالم الآخرة من قوله تعالى : « فاذا انشقت السماء » إلى آخر السورة .

٣٠ اللطائف العاتية في هذه السورة ، وهي ثلاث : اللطيفة الأولى في آية : « ووضع الميزان ألا تظنوا في الميزان » مع قوله تعالى : « مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان » وبيان أن العناية الإلهية ساعدت المؤلف على إيضاح نفس هذه الآية بحيث أبدأ بما في الجاد من نظام ، وذلك في الأحجار الثمينة التي منها ماهو مرسوم هنا ، وهي خمسة أحجار : الزمرد والكوارتز البلورى وهكذا ، وكلها ذات نظام بديع مصداقا لهذه الآيات ، ثم أقفى بالتذكير بما تقدم من عجائب النبات ، وكيف كان محسوبة أوراقه بحساب ونظام بديع ، ثم أتبعه بذكر حيوان البحر الذى منه [سمك بلاس] وكيف نشأ في بيضاته المنظمات ، وكيف تم خلقه حالا بعد حال يشاهد في الرسم شكل ٦ و ٧ و ٨ .

٣٨ وفي شكل ٩ تظهر هيئة نسج العنكبوت بهيئة بديعة لم تعرف من قبل .

وفي شكل ١٠ نسج عنكبوت الحدائق .

٣٩ وفي شكل ١١ نحل عسل الخلايا حاملا كرات الطلع الصفراء من هذا النبات المسمى [سم النمر] .

٤٠ وفي شكل ١٢ قرص النحل مع خلاياه .

٤١ وفي شكل ١٣ قرص عسل النحل المشتل على ذكور النحل وعاملاته والخلايا التي فيها العسل .

٤٢ وفي شكل ١٤ طائفة من النحل مزودة على شجر التفاح .

٤٣ وفي شكل ١٥ عش النحل الحجري ، وفي شكل ١٦ عش للنحلة المنفردة وحدها في هيكل قوقعة الحدائق

٤٤ وفي شكل ١٧ ترى النحل المستقل الذى يعيش في نفس ورق الأشجار أو في تجاويف وخلايا مرتبة منظمة

٤٥ وفي شكل ١٨ النحل الثاقب للخشب متعلقا بفكيه في حال سكون ، وفي شكل ١٩ خلايا النحل ثاقب الخشب .

٤٧ وفي شكل ٢٠ النحل الثاقب للخشب وهو خارج من خليته ، وفي شكل ٢١ النحل البناء .

٤٨ وفي شكل ٢٢ عش زنبار الخشب .

٤٩ وفي شكل ٢٣ قطعة من العش ، أو قرص الزبابير من بلاد البرازيل متصلة بخصن من الشجرة .

٥٠ وفي شكل ٢٤ عش الزنبور البناء .

٥١ وفي شكل ٢٥ عش نمل الخشب ، وفي شكل ٢٦ جماعة النمل تسوم ماشيتها .

٥٢ وفي شكل ٢٧ النمل النجار في عمله .

٥٣ وفي شكل ٢٨ برجا صنعه النمل الأبيض في شرقي أفريقيا ، وقد صنعه النمل من مواد الأرض بفكيه بعد أن مضغها ، وهي مرتفعة كالقلعة .

٥٤ مسامرة في الهجائب المتقدمة .

٥٥ تربية الأمم الإسلامية في مستقبل الزمان : درجات الحيوان في الادراك ودرجات الانسان .

٥٧ عصر الاختراع والكشف ، السهم أوالصاروخ ، مجزة هذا القرن : قد أطلق سهم هائل في الجوّ بالقرب من برلين فبلغ الطبقات العليا وعاد بعد ذلك إلى الأرض ، ويرجى أن يرتفع كثيراً جداً ، وهكذا دولة روسيا تجرب مثل ذلك ، وما يؤمل من ذلك الصاروخ أن يكون سبباً في تسهيل المواصلات تسهيلاً مذهلاً ، وفوق ذلك تكشف به النجوم نحو المروج ، فإن العلماء يؤملون الوصول إليه بهذا الصاروخ .

٥٩ اللطيفة الثانية : عجائب الحساب في سورة الرحمن ، وبيان مزايا خواص الواحد ووحدة الله تعالى ، وفي كل من الوجدتين خواص متشاكسة .

٦١ بيان عجائب الأعداد مثل أن من العدد ما يقبل القسمة وما لا يقبلها ، وفيه الناقص والكامل والزائد والكسر الدائر البسيط والمركب ، والأعداد الأولية وبيانها في كل مائة ، فهي في المائة الأولى ٢٥ وفي المائة الثانية ٢١ وفي الثالثة ١٦ وفي الرابعة ١٦ وفي الخامسة ١٧ ثم ١٤ ثم ١٦ ثم ١٤ ثم ١٤ ثم ١٤ وفي هذه المائة الأخيرة ٩ أعداد لا غير ، إن الناس كما يحلون المركبات في المعامل الكمائية إلى عناصرها يحلون الأعداد إلى عواملها الأولية .

٦٢ عجائب العدد الكامل والأعداد المتحابة وحساب الجذر والتريع ونحوها ، وبيان أن الأعداد الكاملة ٦ و ٢٨ وفي المائة الأولى ثم ٤٩٦ وههنا استبان أن الكامل في الأعداد قليل كالكمال في نوع الانسان موازنة بين العدد الكامل والأصم فالأصم يكثر ، فهو كرجال الاختراع ، ولكن الكامل نادر كسندرة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

مزايا عدد ١٢٠ والكلام على الأعداد المتحابة مثل ٢٢٠ ، و ٢٨٤ وأن كلا منهما مؤلف من مضارب الآخر ، وما يدهش الحكماء أن لهذه الأعداد واستخراجها قواعد بحيث يمكن بها استخراج جميع الأعداد المتحابة ، وذلك من متواليات هندسية تصاعدية أسها ٢ وحدتها الأول ٢ ومن المدهش أن النظام في هذه الأعداد يذكر العقول الكبيرة بالحساب والهندسة اللتين وضعتا في [سورة الحجر] وهما مصورتان بالتصوير الشمسي للنبات .

٦٦ الخطاط العالم في بلاد الاسلام ، وأن علم الأرفاق الذي ملا الأقطار الإسلامية صار بها معطال لقواها فوجب محو جميع هذه العلوم من بلاد الاسلام .

٦٧ سؤال ورد على المؤلف ، وهو : كيف نرى الخلفاء الراشدين الذين لم يدرسوا الرياضيات التي يقول العلماء انها قرّنت الانسان على العدل والصدق أعدل (بشهادة علماء أوروبا في زماننا) من ملوك الفرس والروم في زمانهما ، مع أن المدارس في تلك الممالك كانت مكتظة بالطلاب الذين يدرسون تلك العلوم ، والجواب على هذا الاعتراض بأن الناس الذين على الفطرة لا يعوقهم عن العدل إلا الخرافات ، وبقى زالت ظهرت فطرتهم سالحة ، فأما الأمم المتحضرة فإن الشرور تكون قد أحاطت بأخلاقهم فلا بد من دراسة علوم تصقل هذه النفوس المنحرفة .

٦٩ ملخص ما تقدم : بيان أن الآلى على ثلاثة أنواع : طبيعية ، ومولدة ، وصناعية ، والؤلؤ الطبيعي ، وبيان سبب تكونه ، والؤلؤ المولد ، وأن الناس أخذوا يربونه كما يربون السمك ، أما المولود الصناعي أو المقلد ، فهو طلاء لماع للسمك يطل به خرم من الزجاج بعد مزجه بشيء من الشمع ، بيان جال هذا المقام العلمي في الحكمة .

- ٧٣ [سورة الواقعة] مكتوبة مشكلة ، تفسير البسملة ، التفسير اللفظي لهذه السورة .
- ٨١ لطيفة في قوله تعالى : « انهم كانوا قبل ذلك مترفين » وتبيان الرسالة التي أرسلتها إلى بلاد صراكش تحذيرا لهم من الذي يشربونه ، وقد أصبح لهم عادة ضارة ، وذلك بسبب الأمة التي استعمرت بلادهم وبيان ضرر الشاي والسكر في علم الطب الحديث ، وذكر أن الفرنجة فعلوا مع أهل الأندلس ما فعلونه معنا الآن .
- ٨٤ لطيفة في قوله تعالى : « نحن قدرنا بينكم الموت » ، والكلام على قوم طالت أعمارهم ، وأن أناسا عاشوا مائتي سنة ، وهناك ١٧٠ انسانا كل منهم عاش ١٠٠ سنة الخ .
- ٨٧ [سورة الحديد] آياتها مكتوبة مشكلة ، تفسير البسملة ، مقدمة في اتصال هذه السورة بما قبلها .
- ٩٣ التفسير اللفظي لهذه السورة .
- ٩٤ لطيفة في قوله تعالى : « يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها » .
- ٩٥ الخضر على الاتفاق — آية : « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسرون نورهم بين أيديهم وبأيمانهم » .
- ذم البخل في آية : « الذين يبخلون ويأمررون الناس بالبخل ومن يتول فإن الله هو الغني الجيد »
- التحرير على العدل : « لقد أرسلنا رسلا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط » .
- ١٠٠ لطائف هذه السورة [اللطيفة الأولى] في قوله تعالى : « فضررب بينهم بسور » [الثانية] في قوله تعالى : « وجنة عرضها كعرض السماء والأرض » [الثالثة] في قوله تعالى : « ورهبانية ابتدعوها » وتبيان المعجزة القرآنية من كتاب [الخريدة النفيسة ، في تاريخ الكنيسة] وذلك أنه في القرن الثالث انفرد [بولس السامع] في صحراء مصر رهبنة وخشية من الحكومة الرومانية التي كانت تفتك بالمسيحيين ، وقد تبعه [انطونيوس] وذهب إليه ، وظهرت هناك خوارق كالغراب الذي كان يحمل رغيفا في منقاره ، وكأخبار ذلك الراهب بموته ، وأن الملائكة كانت تحيط به ، وهناك أسدان حفرا الأرض حتى أكلا القبر ، ودفنه ورجع ، فهذا هو أصل الرهبانية في أم النصارى .
- ١٠٣ اللطائف العامة للسورة كلها ، وهي أربع : الأولى في آية : « سبح لله ما في السموات والأرض » الخ وبيان أنها تشمل على ١٢ مبحثا : كالنظام التكويني والتشريعي ، وتربية الأم لولدها ، وتربية الأب له وهكذا ، وأن الحب على مقدار العلم ، وأن الله قد توارى عنا ، ولكنه قد ذفى لنا كرات جيلة لاحصر لعددتها .
- ١٠٥ النظام التكويني والنظام التشريعي وآلام الأم الخ ، وههنا ٣ جواهر : في وصف الحب ، وفي طبقة الشعراء ، وآثار الحب العالية ، وهي الفلسفة .
- ١١٠ تعاليم كنفوشيوس حكيم الصين ، وأنها مرتبة هكذا : مشاهدة الأشياء ، فصول الأفكار ، فتتزه الأغراض ، فتقاوة النفوس ، فانتظام الأسر ، ثم انتظام الدول ، فالسعادة العامة .
- ١١١ [المهرابانا] باللغة السنسكريتية قبل ٣٥ قرنا ، وهي مائتا ألف بيت ، وهكذا [الرامايانا] هما موسوعتان علميتان ، وهما ترجعان إلى نظرة عامة في الوجود وحب الخلقه وصبر على البأساء والضراء والعجب كل العجب أن كتاب [البهجاوات جيتا] هي نفسها في آية من هذه السورة .
- ١١٢ الفصل الحادي عشر في بيان أن الحب على مقدار العلم .

- ١١٣ الفصل الثاني عشر في أن الله نوارى عنا وقذف لنا كرات لاعدد لحصرها .
- ١١٤ ما الذي عرف الناس من ملك السموات اليوم ؟ وأنهم اليوم ينتظرون قريبا أن يكون المعلوم للناس ٣٢ ألف مليون مليون كوكب .
- ١١٥ ما الذي عرفه الناس من ملك الأرض ؟ وههنا بعض بدائع الأشجار و١٢ عجيبه من عجائب الحيوان
- ١١٧ جمهوريات الحيوانات : ضرب مثل يذكرنا باجتماع الأرواح بعد مفارقة الأجسام .
- النحل حول العسوب : ضرب مثل لرجوع الناس لربهم ، ومقدمة ذلك الصلاة إلى القبلة توجها إلى الله حول الكرة الأرضية .
- ١٢٠ بهجة هذا المقام في التسبيح وجماله .
- ١٢٢ اللطيفة الثانية في قوله تعالى : « يعلم مايلج في الأرض ومايخرج منها وماينزل من السماء ومايعرج فيها » مع قوله : « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » .
- ثروة البحر الميت : كنوز لم يستفد منها المسلمون لجهلهم واستفاد منها الأوروبيون لعلمهم .
- ١٢٣ كهرة القطر المصري ومشروع القطارة ، خلاصة خطبة سرى بك في ذلك .
- ١٢٥ اللطيفة الثالثة في قوله تعالى : « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو » .
- اللطيفة الرابعة في قوله تعالى : « ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب » .
- ١٢٦ [تفسير سورة المجادلة] مكتوبة مشكلة ، هذه السورة ثلاثة أقسام .
- ١٢٨ تفسير البسملة وتلخيص [سورة الحشر] وتفسير البسملة في هذه السورة متبوع بتفسير كل بسملة في أول السور إلى أول [سورة المائدة] مع الإشارة في كل بسملة إلى الرجات التي في سورتها .
- ١٣٢ القسم الثاني في أحكام المظاهرة ، التفسير اللفظي ، وههنا ثلاث مسائل في المظاهرة .
- الكلام على النجوى والتفصح في المجالس .
- ١٣٥ حكم مناجاة الرسول ، الكلام على المنافقين ، أربع لطائف في هذه السورة .
- ١٣٨ [تفسير سورة الحشر] مكتوبة مشكلة .
- ١٤٠ هي ثلاثة أقسام ، تفسيرها اللفظي .
- ١٤٢ القسم الثاني في ذكر أخلاق المنافقين ، وهونابع التفسير اللفظي .
- ١٤٤ القسم الثالث في ذكر نصائح المؤمنين واعظام أمر القرآن ، التفسير اللفظي .
- ١٤٧ بهجة الحكمة ونور العلم في قوله تعالى : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل » وههنا تفسير لكثير من أسماء الله الحسنى .
- ١٥٠ محاورات بيني وبين أحد الأصدقاء ، وفيها فصلان : الفصل الأول في معاني أسماء الله الحسنى من كلام الامام الغزالي رحمه الله تعالى .
- ١٥٤ الفصل الثاني في بيان محاسن أسماء الله الحسنى بالمعانية ، وفي هذا الفصل مقامان : المقام الأول في تبيان الحق من الأقوال الأربعة في أن من حفظ هذه الأسماء دخل الجنة .
- المقام الثاني في معنى : اللطيف والنور والهادي إلى آخره ، وهل هذه المعاني مشاهدة لنا ؟ .
- ١٥٧ [سورة الممتحنة] مكتوبة مشكلة ، تفسير السورة اللفظي .
- ١٦٢ حكاية مصرية استبان بها أن أوروبا تريد أن يترك الشرقيون دياناتهم ليحتلوا بلادهم .
- في هذه السورة لطيفتان : الأولى في قوله : « يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوكم أولياء »

- ١٦٣ اللطيفة الثانية في قوله تعالى : « فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن » وهل يكشف على الزوج والزوجة قبل الزواج كما تفعله بعض الممالك ، خيفة أن يكون هناك نسل ضعيف يشل حركة الأمة ونموها .
- ١٦٥ [تفسير سورة الصف] مكتوبة مشكلة ، تفسيرها : إيضاح لما تقدم .
- ١٦٩ [تفسير سورة الجمعة] السورة مكتوبة مشكلة ، مناسبة لما قبلها .
- ١٧٠ التفسير اللفظي لهذه السورة .
- ١٧١ في هذه السورة لطيفتان : اللطيفة الأولى في قوله تعالى : « فتمنوا الموت إن كنتم صادقين » وبيان أنه لا معنى للولي الذي يكره الموت ، لأنه لقربه من ربه لا يحب الحياة إلا ليكمل ماوجب عليه لأتمته والا فالموت . الكلام على الولاية : من هو الولي ؟ .
- ١٧٥ اللطيفة الثانية في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة » وبيان الأحاديث الواردة فيها ، والأحكام الفقهية ، واختلاف الفقهاء في عدد من تعتقد بهم الجمعة .
- ١٧٦ [تفسير سورة المنافقين] مكتوبة مشكلة ، التفسير اللفظي لسورة المنافقين .
- ١٧٨ إيضاح أن سورة الجمعة للعلم والعمل ، وسورة المنافقين للصبر وقوة الأمل .
- ١٧٩ [تفسير سورة التغابن] : السورة مكتوبة مشكلة ، مقدمة في تفسيرها ، تفسيرها اللفظي .
- ١٨٥ [تفسير سورة الطلاق] : السورة مكتوبة مشكلة ، مقدمة في تفسيرها ، ملخص أحكام السورة ثمانية أحكام : عدة المطلقة ثلاثة قروء ، لا تخرج من البيت حتى تنقضي عدتها ، وهكذا إلى آخرها ، وهو اتفاق من العسر ومن الميسر كل بقدره ، التفسير اللفظي .
- ١٩٠ [تفسير سورة التحريم] مكتوبة مشكلة : هذه السورة قسمان : الأول في نساء النبي صلى الله عليه وسلم ، القسم الثاني في ضرب مثل بامرأة نوح وامرأة لوط .
- ١٩٢ مقدمة في مناسبة السورة لما قبلها ، التفسير اللفظي لهذه السورة ، خاتمة لتفسير هذه السورة .
- ١٩٦ [تفسير سورة الملك] مكتوبة مشكلة .
- ١٩٧ الكلام على هذه السورة ينحصر في ثلاثة أقسام : البسملة ، التفسير اللفظي ، اللطائف .
- الكلام على الرجتين المذكورتين في هذه السورة مع جميع الرجات في السور العشر بعدها .
- ١٩٨ الرجات في سورة القلم ، وفي الحاقة ، وفي المعارج ، وفي نوح ، وفي الجن ، والمزمل ، والمدثر ، والقيامة والمرسلات .
- ٢٠١ التفسير اللفظي لسورة الملك .
- ٢٠٥ لطائف هذه السورة ثلاث : الأولى في خلق الموت والحياة ، وبيان أن الموت أشبه بالتخلية ، وأن الحياة أشبه بالتخلية ، فهنا الكلام على مقدار ما في النخل من اقحاح ، وكيف يكونبيض السمك لا عدد له يأكله الناس ، والبق والبراغيث التي تموت لاحصر لها ، ولولا موتها لهلك كل شيء في الأرض ، من الأعشاب ما ينبت كل سنة ثلاثة أرباع مليون بذرة ، ولو عاش نسله ثلاث سنين فقط لغطى وجه الأرض ، وبيان تسكاتر الميكروبات ، وميكروب الكوايرا ، بل القيل المعالوم أنه قليل الولادة لو بقي نسله عشرين سنة لأهلك الحرق والغسل ، وهكذا الجراد والسمك والمخار والذباب والسودة الوحيدة وهكذا .
- ٢٠٧ البلاغة في القرآن ، وكيف كان ذكر الموت ولفظ مصاييح ، وكيف كان ذكر الأول روعي فيه علم

- الطبيعة والتاريخ الطبيعي ، وذكر مصابيح روعي فيه الموازنة بين نظامنا في بيوتنا ونظام العالم كله .
- ٢٠٨ اللطيفة الثالثة في آية : « أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات » وفيها مقامان : مقام علم الطيران ، ومقام أن الطيور مختصرة من أجسام ذوات الأربع .
- المقام الأول : كيف عرف الناس يطيرون في الجو ؟ وأن ذلك مبنى على محاولة تقليد الطير ، فأول من قام بذلك أربعة فأخفقوا جميعا ، فرجل إيطالي ، وراهب ألماني ، ومركيز فرنسي ، وصاحب الصحاح وهو الجوهري ، هذه هي الخطوة الأولى .
- ٢٠٩ أما الخطوة الثانية : أخذ الأستاذ [بوري] يدرس حركات الطيور ، فتبين له أن الإنسان عاجز حق العجز عن تقليده .
- والخطوة الثالثة : عمل المناطيد : لأن الناس يتسوا من الطيران كالطير ، فلم يبق لهم إلا أن يستعينوا بالغاز الخفيف ، ولكن الخطوة الرابعة كانت مبتدئة سنة ١٨٩١ م إذ راقب [ليلياتال] حركات الطيور عشرين سنة ، ولكنه سقط قتيلا ، وبعده قام الشابان الأمريكيان سنة ١٩٠٠ م فنجحا ، وأعلنت الولايات المتحدة ذلك سنة ١٩٠٧ م .
- ٢١٠ سنة ١٩٠٩ ينزل ذكرها في التاريخ بأنها فاتحة عهد جديد للطيران ، وأخذ يرتقى إلى وقت كتابة هذه الأسطر في هذا الفهرست ، وهي سنة ١٩٣٣ م فهاهي ذه الطيارات تستخدم في تدمير الأساطيل وتشتيت الجيوش ، وتخريب الحصون .
- ٢١١ المقام الثاني في بنية الطيور ، وأن أجسامها مختصرة من أجسام ذوات الأربع ، مثلا : مناقرها في مقابل الأسنان ، والحوصلة في مقابل المعدة ، والقائصة في مقابل الكرش ، والريش في مقابل الجلد التخين وماعليه ، وهكذا .
- ٢١٢ اللطيفة الرابعة في قوله : « هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون » اللطائف العامة في هذه السورة .
- ٢١٣ اللطيفة الأولى في قوله تعالى : « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » الفطور في الألوان ، والفطور في المادة لإبراهيم الناس ، وهما فعلا موجودان ، ولكن عجائب الحكمة أكلت النظام مع وجودهما ،
- ٢١٤ اللطيفة الثانية في قوله تعالى : « ولقد زيننا السماء الدنيا بمصابيح » وههنا عجائب الانوار وبدائعها ، فترى النور الداخل في حجرتك ، فالجاهل لا يعقل منه شيئا ، ولكن العالم يستخرج من هذا الأمر المعتاد ما لا يخطر ببال الجاهل ، فهو يرى أنه على خط مستقيم بحاسة البصر ، وأنه حار باللس ، ثم ينتقل من ذلك إلى أن وضعه مقابل داخل الحجرة ، وهناك زاوية السقوط وزاوية الانعكاس ، وهناك تتجلى للعالم كيف يرى الإنسان صورته في المرآة مقلوبة ، ثم ينتقل من ذلك إلى انكسار الضوء ، ثم يلي ذلك البحث في الزجاج ، وأن الضوء فيه انكسار كانكساره في الماء إلى جهة من الجهتين على حسب الكثافة واللطافة ، ثم يلي ذلك الكلام على العدسة المحدبة الوجهين التي تكبر الأجسام وقد تقرر بها ، والمقبرة الوجهين التي تصغر الأجسام وقد تبعتها ، وهناك تكون الزجاجات مقويات للأبصار مقربات للصور أو مبعديات وهكذا .
- ٢١٦ شكل ٢٩ صورة الضوء ، وهو على خط مستقيم في الحجرة المظلمة ، وفي شكل ٣٠ الصور الخارجة ظهرت واضحة مفصلة على لوحة الورق ، فظهر عاليها سافلها فيه .

٢١٧ وفي شكل ٣٩ شعاع الشمس يرى منعكسا على الخائط ، وفي شكل ٣٢ ظهور علاقة بين اتجاه الضوء الشمسي الواصل للزجاجة وبين اتجاه ضوء الشعاع المنعكس عنها ، وفي شكل ٣٣ المرآة التي انطبعت فيها الصورة .

٢١٨ شكل ٣٤ ظهرت فيه صورة سطح الماء قد انعكست فيه الصور ، وشكل ٣٥ ظهر فيه انكسار ضوء قطعة النقد ، وشكل ٣٦ أيضا فيه انكسار للشعاع ، وشكل ٣٧ فيه شعاع الكتاب يمر من الزجاجة إلى الهواء وفيه انكسار .

٢١٩ وفي شكل ٣٨ و ٣٩ و ٤٠ و ٤١ الشعاع فارق الكتاب ومرت من الهواء إلى الزجاجة ، ثم منها إلى الهواء ، والعدسة المحدبة الوجهين ، وزجاجتان محدبتا الوجهين ، والمكرو سكوب .

٢٢٠ وفي شكل ٤٢ تلسكوب يكبر الجسم .

٢٢١ وفي شكل ٤٣ عدستان مقعرتان من الجانبين ، وفي شكل ٤٤ ظهور اختلاف الأنظار قصرا وطولا ، وفي شكل ٤٥ اعتدالها بعد لبس المناظير المناسبة . وفي شكل ٤٦ هيئة اجتماع الأشعة في بؤرة .

٢٢٢ وفي شكل ٤٧ هيئة تبين كيف تكون هذه الأشعة محرقة ، وفي شكل ٤٨ هيئة حرق الصوفان بتلك الأشعة ، وفي شكل ٤٩ هيئة تحليل الضوء الشمسي إلى ألوانه السبعة بمروره بالزجاجة .

٢٢٣ وفي شكل ٥٠ هيئة الضوء الأبيض بانحدار الألوان السبعة . مامعنى ألوان المادّة المشاهدة ؟ .

٢٢٤ ملخص ما تقدم كله .

٢٢٥ ضوء الشمس كما يفيد المادّة يفيد الحياة .

٢٢٦ اللطيفة الثالثة في قوله تعالى : « أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات » الخ .

٢٢٧ أقسام الحيوان أربعة : الحيوانات الفقرية ، والحلقية ، والهلالية ، والشعاعية .

٢٢٨ كيف تكون البيضة طائرا صغيرا ؟ .

٢٢٩ شكل ٥١ حمامة خرجت من بيضتها وهي عمياء .

شكل ٥٢ فروج خرج قادرا على المشي .

٢٣٠ شكل ٥٣ منقار الطيور الجارحة ، وشكل ٥٤ مخالب الجوارح ، وشكل ٥٥ النسر ، وشكل ٥٦ حداة شمال أمريكا ، وشكل ٥٧ نسر الألب ، وشكل ٥٨ الصقر ، وشكل ٥٩ الباز ، وشكل ٦٠ صقر آخر .

٢٣١ هنا ٧ صور لصقر ، وعصفور دورى ، وحداة ، وأنواع أربعة من البوم ، وههنا الكلام على الطيور المقلدة للإنسان ، ومنها البيغاء شكل ٦٨ .

٢٣٢ النوع الثالث : الحمام ، والرابع : الطيور السجاجة ، وفيها صور كالمطادوس ، والديك الرومي .

والنوع الخامس : الطيور الخائضة ، ولها أربع صور كالبعج والكركي وطيور الماء ثم النعام .

٢٣٣ وله ثلاثة أشكال ، وههنا هيكل طير كبير لم يبق له وجود الآن ، شكله كبير جدا عثروا على بقاياه في الجزيرة الجديدة ، والطيور المنسوجة الأرجل ، ولها أشكال من شكل ٨٠ إلى شكل ٨٣ .

٢٣٤ وفي شكل ٨٤ وما بعده طائر الماء والبتروس وبلكان ، والطائر النهم ، ثم قرأض الخشب ، والغراب ، تبصرة في هذه الطيور .

٢٣٥ [سورة القلم] وكتابتها مشكلة .

٢٣٦ التفسير اللفظي لهذه السورة .

- ٢٣٩ سوء أخلاق بعض الكفار وجزاؤهم ، ضرب مثل لأهل مكة الخ .
- ٢٤١ تفسير : « إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم » إلى آخر السورة .
- ٢٤٢ إيضاح لما تقدم .
- ٢٤٤ [سورة الحاقة] مكتوبة مشككة ، تفسيرها اللفظي .
- ٢٤٩ إيضاح تفسير الآيات بعلم الأرواح في عصرنا ، وكيف قال الميت الفرنسي : « هاتوا لي ذهبي ومالي » أليس معنى ذلك أنه كالموضوع في السلسلة ، إيضاح السلسلة والعذاب بها .
- ٢٥١ [سورة المعارج] مكتوبة مشككة ، تفسيرها اللفظي .
- ٢٥٤ غرأز الانسان ووجوب تهذيبها حتى تنجو من هذه النار .
- ٢٥٥ تفسير : « قال الذين كفروا قبلك مهطعين » إلى آخر السورة ، لطائف هذه السورة .
- ٢٥٦ حكاية الشعبي وملك الروم .
- ٢٥٧ لطيفة في قوله تعالى : « إن الانسان خلق هلوعا » الخ .
- ٢٥٨ لطيفة في آية : « إنا خلقناهم مما يعلمون » : تبيان درجات صعود الروح بعد الموت في حال البرزخ من كلام [غاليلى] حين أحضروا روحه بعد ماضربنا الأمثال بدرجات الارتقاء في سلسلة الحيوان وفي الجنين ، ودرجات الانسان بعد الولادة ، ودرجاتهم في الفنى والجلد والأخلاق ، فهنا [غاليلى] يصف ارتقاء الأرواح في البرزخ ، وكيف تصل إلى عوالم وعوالم كبيرة جدًا بديعة .
- ٢٦٠ [سورة نوح] مكتوبة مشككة ، تفسيرها اللفظي .
- ٢٦٥ أنواع الأصنام عند العرب وعند قوم نوح مثل : ود ، وسواع ، ويغوث ، ويعوق ، ونسرا ، واللوات والعزى الخ ، وكيف كان كل منها تابع لقبيلة .
- ٢٦٦ [سورة الجن] مكتوبة مشككة ، تفسيرها اللفظي .
- ٢٧٠ ملخص مافى هذه السورة ، وهى ١٦ حكمة من أقوال الجن ، ثم يلها أوامر الله لنبيه صلى الله عليه وسلم .
- ٢٧٢ تفسير السورة اللفظي .
- ٢٧٣ أقوال الناس قديما وحديثا في الجن وبدائع العلم الحديث فيها .
- ٢٧٤ وهنا محادثات الأرواح ، وهى مصداق لآيات هذه السورة التى لم تظهر آثارها ظهورا واضحا إلا في هذا الزمان ، وكيف ظهر أن الأرواح الناقصة المسميات بالجن تتلقى العلم عن الناس ، لأنهم أقرب إليها
- ٢٧٥ ملخص فهرس كتاب الأرواح الذى متى قرئ كله كان تفسيراً لهذه السورة .
- ٢٧٦ [سورة المزمل] مكتوبة مشككة ، ملخص الأحكام في هذه السورة ، التفسير اللفظي لهذه السورة .
- ٢٨١ لطيفة في آية : « وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله » الخ .
- ٢٨٥ قاعدة حياة الأمم ، منزلة الاسلام في مستقبل الزمان ، غرور المسلمين اليوم .
- ٢٨٧ [سورة المدثر وتفسيرها] : ذكر الأوامر الستة التى أمر بها صلى الله عليه وسلم ، وهى جعلت
- تعلما لنا .
- ٢٩٥ لطيفة في آية : « وما يعلم جنود ربك إلا هو وماهى إلا ذكرى للبشر » ، وبيان عدد النجوم ، والكلام على الشعرى الجمانية ، والسمك الرابع ، والتريا ، ثم تعداد عجائب لبعض حيوان البحر مثل الأخطبوط وغيره ، ثم الحشرات والنبات وكثرته ، فإن حبات اللقاح في زهرة عود الصليب تبلغ نحو

أربعة ملايين حبة وهكذا .

٣٩٨ [سورة القيامة] وتفسيرها اللفظي .

٣٠٠ بيان تفصيل عظام الانسان ، وهي ٢٤٨ .

٣٠٢ لطيفة في آية : « وجوه يومئذ ناضرة » وفي آية : « ألم يك نطفة من منى يعني » الخ .

٣٠٥ التشریح بقصد لعلوم كثيرة : الطب ، علم الأجنة ، علم النبات ، علم الحيوان ، علم النفس ، علم اليداوجيا ، علم السياسة ، كل هذه العلوم لها اتصال بعلم التشریح من وجه ، وهكذا علم ماوراء الطبيعة .

٣٠٧ ضرب مثل بالقصر .

المقام الثاني في آية : « فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى » وأن هذه الآية تحتوى على عناصر اسعاد

الأم ، وعلى مقتضاها ألف كتاب [أين الانسان] .

٣٠٨ تذكرة في آية : « بلى قادرين على أن نسوى بنانه » .

٣٠٩ [تفسير سورة الانسان] مكتوبة مشكلة .

٣١٠ تفسيرها اللفظي .

٣١٣ التفسير اللفظي من قوله تعالى : « ويطوف عليهم ولدان مخلدون » إلى آخر السورة .

٣١٤ لطيفة في آية : « إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا » : وبيان أن هذه

الأمشاج عشرة : الأكسوجين والادروجين إلى آخرها ، ومنها ما هو محرق مثل : انفوسفور

والبوتاسيوم والكبريت ، فهذه محرقة ، وهي تناسب الروح من حيث سرعة حركتها .

٣١٥ لطيفة في آية : « ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا » وبيان أن المقصود من هذه

الآية الاحسان لكل من على ظهر الأرض .

٣١٦ لطيفة في قوله تعالى : « وسقاهم رهم شرابا طهورا » وأن سقيا الله للناس معناها تجريدهم من

المادة فيطهرون منها ، بخلاف ما يسميه الولدان المخلدون لهم .

الذات الحسية والذات العقلية ، وضرب أمثال لذلك .

٣١٩ [سورة المرسلات] مكتوبة مشكلة .

٣٢٠ التفسير اللفظي لهذه السورة .

٣٢٢ لطائف هذه السورة : اللطيفة الأولى في قوله تعالى : « ألم نهلك الأولين ، ثم نبههم الآخرين » .

٣٢٣ اللطيفة الثانية في قوله تعالى : « ألم نخلقكم من ماء مهين » .

٣٢٣ اللطيفة الثالثة في قوله تعالى : « ألم نجعل الأرض كفافا ، أحياء وأمواتا » .

(تمت الفهرست)



يطلب من

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بصرة

جمهرة

خطب العرب

في عصور العرب الزاهرة

العصر الجاهلي العصر الإسلامي العصر الأموي العصر العباسي الأول

جمعه وضبطه وشرحه

أحمد زكي صفوت

أستاذ اللغة العربية بمدرسة دار العلوم

أول كتاب استقصى بين صحائفه جميع ما قيل من الخطب والومايا في أزهى العصور العربية .
وقد اعتنى المؤلف الذي يتولى التدريس في أكبر مدرسة عالية بوزارة المعارف المصرية
بجمع أشتاتها : منقبا في بطون الأسفار العدة ، عدا ما تجده من مجهود في ردّ ألفاظ المنهم
معناها والمستغلق فهمها إلى أصولها الصحيحة وتحليمها من شوائب التشويه الشائن الناشئ في
كتب الأدب والتاريخ .

وقد عقب كل خطبة ووصية بذكر مصدرها الذي نقله منه وذايها بشرح يفسر غريب
ألفاظها ويحلّ عسير كلماتها ، وأورد فيها كل ما يحتاج إليه في فهمها من نبد تاريخية توضح
الظروف والمناسبات التي قيات فيها .

فأصبح ديوانا تاما ومرجعا عاما يهد السبيل لقننيه ، وقطوفا ثمارها دانية لطالبيه ، يوفر
على المعلم وقته الثمين ويذلّ ما يعترضه من عقبات ، ويكون للطالب خيرة معين .

[مطبوع على ورق عال بحرف مضبوط بالشكل]

شواهد الحق

في الاستغاثة بسيد الخلق

صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم

وبله

الأساليب البديعة في فضل الصحابة وإقناع الشيعة

كلامها

خادم السنة، وقامع البدعة، فقيه الإسلام الشيخ

يوسف بن إسماعيل النبهاني

أكرم الله مثواه في دار التهانى

فتح القدير الخبير

بشرح تيسير التحرير

لشيخ الإسلام ومفتي الأنام

عبدالله بن حجازى الشرقاوى

على

منظومة التحرير

في مذهب الامام الشافعى رضى الله عنه

لشرف الدين يحيى العمرى طي

رحمهما الله آمين

[مطبوع بشكل جديد مع وضع المنظومة بالشكل الكامل]